قصة الخلق

من العرش إلى الفرش

عيد وردانى

الناشرون المتحدون

الشركة العصرية للنشر

المركز الدولى للنشر



قصة الخلق

من العرش إلى الفرش

الناشرون المتحدون

الشركة العصرية للنشر   المركز الدولي للنشر

القاهرة : مصر الجديدة ٦ شارع إسكندرية (روكسي)
ت : ٠٢/٦٤٢٧٦٥٢ - ٠٢/٦٤٤١٦٧٦

الإسكندرية : ١٢ ميدان الشهداء (محطة مصر)
سيدى بشر - شارع ٥٤ من خالد بن الوليد
ت : ٤٩٠٩٨٨٨-٥٥٧٨٥٥٠-٠١٢٣٥٣٩٦١٩

المنصورة : ١١ ش خالد بن الوليد (أمام بوابة الجامعة الخلفية)
ت : ٠٥٠/٢٢٠٧٢٦ - ٠١٠١٥٣٨٨٣٣

رقم الإيداع : ١٤٩٥٥ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولى : ISBN : 977-5983-01-0

الطبعة الأولى : ١٥ / ١ / ٢٠٠٠
الطبعة الثانية : ١ / ٢ / ٢٠٠٠

﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

قصة الخلق

من العرش إلى الفرش

(رسالة إلى جميع علماء الأرض)

عيد وردانى

الناشرون المتحدون

الشركة العصرية للنشر   المركز الدولى للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ (القصص:١٧)

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَـــــــــــوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْـــكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِـــهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَـــخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة :١٦٤) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لا تزال طائفة مـــن أمـــتي ..

على الحـــق ظـــاهرين

لا يضـــرهم مـــن خذلهـــم

ولا من خالفــــهم

حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك .

(رواه أحمد في مسنده)

ســـــلام وتـــحـــيـــة

ســــــلام

إلى رجال الإسلام وعلمائه قبل عصر النهضة الذين ذادوا عـــن الديـــن ، فأوصلوه إلينا صافيا من أي شائبة ولم يتركوا كبيرة ولا صغـــيرة إلا حملوها لنا وأخبرونا بها مؤيدة بالكتاب والسنة .

* * * * *

وتـــحيــــة

إلى رجال الكنيسة في عصر النهضة الذين قاموا بواجبهم دفاعا عن الديـــن وحاولوا وسعهم صـــد جحافل الملحدين حتى ردوهم مدحورين .

إهــــداء

إلى طائفة الظاهرين على الحق

المستمسكين بآيات الله وسنة رسوله

السائرين على درب الصحابة والتابعين

الرافضين لكل علوم القرن العشرين المخالفة لأصول الدين

إليكم أهدى كلماتي ..

فمـــدوا أيديــــكم هذه يدي

وارفعوا أصواتكم هذا صوتي

وانطــقوا بكلمة الحـــق ؟؟؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله رب العالمين خالق السموات والأرضين المتفضل بتدبير أمر المخلوقين المكرم بنى آدم على العالمين . والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وآخر المرسلين المرسل لإظهار الحق ولو كره الكافرون الذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة وأتم الله على يديه النعمة وأكمل الدين ولم يترك أمرا من أمور الدنيا أو الآخرة . إلا بينه أحسن تبين .

ورضى الله عن الصحابة أجمعين الذين كانوا نجوما يهدون المقتدين المتبعين للكتاب والسنة غير مبتدعين . ورحم الله التابعين وتابعيهم بإحسان الذين حملوا راية الإسلام وساروا بها فاتحين ، وكان منهم الحفاظ ، والمفسرين والمحدثين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله . وأشهد أن عيس عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه .

* * * * *

أمـا بعـد :

فهذه قصة خلق جميع المخلوقات من العرش إلى الفرش (الأرض) . هذه قصة كل ما في الكون من مخلوقات مرورا بالسموات وما فيها والأرض وما بها ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والكواكب ، والبحار والأنهار والنبات والجبال والهواء ، والماء وكل ما هو كائن بين السماء والأرض وخلق الملائكة والجن والإنس . ومتي خلقت هذه المخلوقات ، وكيف ، ولماذا خلقت .

وكيف تعمل . ومتي تنتهي ، ومكانة الإنسان بينها . ووضع الأرض من هذه المخلوقات .

وقد استندت في عرض القصة ، على الأدلة المتفق عليهابين جميع المسلمين (الكتاب ، والسنة ، والإجماع) كما اعتمدت على الكتب المقدسة ، العهد القديم والأناجيل .

وهذه هي المصادر الرئيسية التي يقدرها المؤمنون بالله .

كما اعتمدت على أحاديث رسول الله صلى عليه وسلم ، وعلى الصحيح منها التي تلقتها الأمة الإسلامية بالقبول ولم يطعن عليها أحد .

كذلك اعتمدت على تاريخ الحضارات البشرية ، التي لم أشك لحظة أن الموروث منها — الذي اعتمدت عليه — ليس مجرد أساطير الأولين ، وإنما هي تأثيرات الأنبياء والمرسلين وهم جم غفير في أممهم .

ثم اعتمدت على التجارب والمشاهدات التي تؤكدها الحواس ، والتي لا يختلف عليها اثنان .

وقد سقت أدلة للمؤمنين والجاحدين ، وللعلماء والجاهلين ، وللمتعلمين والمكابرين . كل بوسائله التي يعتقد فيها . وخاطبت القلب المؤمن الموصول بالله . وخاطبت العقل والمنطق .

وكان — ولا بد — أن يتعارض كلامي مع كل ما يخالف دواعي الإيمان ، ويتعارض أيضا مع ما يخالف العقل والمنطق . وبالتالي فهو يتعارض تماما مع كل نظريات العصر الحديث .

لذلك ، سيفاجأ القارئ بأن ما نورده في قصة الخلق يتعارض مع أكثر الأشياء ثباتا لعلوم أهل الأرض الكونية يتعارض مع مسلمات بديهية أو ما يعتقدون أنه كذلك .

وسيفاجأ القارئ بأن ما يعتبره من المسلمات والبديهيات ليس إلا وهما وخداعا وأغاليط وأباطيل . وسيجد القارئ نفسه إن كان من غير المؤمنين بالله قد ألجأته الأدلة والبراهين والآيات البينات إلى الإيمان . وسيجد المؤمن نفسه في حاجة شديدة لأن يجدد إيمانه .

وسيندهش القارئ ، بعد فواقه ، كيف ظل مغيبا مغفلا ، مع هذا الكم الهائل من الغائبين الغافلين .

وسيكتشف القارئ أنه وأنهم وأننا قد تعرضنا لكيد عالمي يقوده إبليس لتغير الحقائق ، ولتلبيس الأمور علينا ، ولتغييبنا ، وتغفيلنا عن الحقائق ، ولتغيير

آيات الله بغيرها . وأن أباطيل كثيرة عرضت علينا كحقائق لا تقبل جدالا هـــي الباطل عينه .

والغريب والعجيب أنه لم يكن معها دليل واحد من عقل أو نقل أو تجربة تقول بـأن هذه العلوم الكونية تمت إلى الحق والحقيقة بصلة .

وسيجد علماء المسلمين أنفسهم ، وهم صفوة خلق الله ، قد استدرجوا لأن يقولـوا على الله ما لا يعلمون .

وأنهم قد تحققت فيهم نبوءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باتباعهم سنن من قبلهم ، شبرا بشبر ، وذراع بذراع .

وانهم شاركوا - دون قصد يقينا — في الدعوة إلى علوم ، غير التـي علمها الله لآدم وبنيه ، من الأنبياء والمرسلين ، وأنهم أشاعوا - دون قصد يقينا - منهجا مخالفا لمنهج الله .

وذلك بموافقتهم على كل نظريات الغرب ، بل وتوفيقهم بينها وبين آيات الله ، التي هي في الحقيقة تخالفها كل المخالفة .

والحق أقول ، إنني لم أستعن بأي وسيلة من الوسائل الحديثة للوصول إلى النتائج التي أثبتناها في هذا الكتاب ، سواء ميكروسكوب أو تليسكوب أو حتى نظارة طبيـة . وليس ذلك لعدم اعترافي بهذه الأدوات ، ولكن ، لأن آيات الله كانت من الوضوح بحيث لم نحتاج إليها .

وأنبه .. بأنني لم أنتقد في الكتاب إلا النظريات الكونية ، والأقوال المتعلقة بمسائل الخلق والتكوين . . وعلوم الكون .

أما النظريات والقوانين المرتبطة بزينة الدنيا ، وكل ما من شأنه أن يسهل للإنسان استمتاعه بالحياة ، فلا شأن لي به هاهنا .

وإن كان كثيرا مما أوردته في هذا الكتاب ، رؤية شخصية لي . . أحسب أنـه لـم يقـل بها أحد قبل ذلك، خلصت إليها عن طريق الأدلة التي ذكرتها وإن كان ما رأيتـه

حقا فمن الله تعالى الذي علم الإنسان ما لم يعلم ، والذي يؤتى فضله من يشـــاء ، وإن كان ذلك خطأ فمن نفسي والشيطان ، واسأل الله العفو والعافية . وأنه وإن كان الأمـــر رؤى شخصية لنا ، فإنه أيضا ليس تفسيرا جديدا للآيات القرآنية ، أو فهمـــا حديثـا للآيات الكونية ، وإنما هذا هـــو التفسير الصحيح للآيات القرآنية ، والتي اتفق عليها السلف ، وهي النظرية السليمة للآيات الكونية .

ولم نحمل الآيات والأحاديث أكثر مما تحتمل . ولكننا فقط عرضنا ذلـــك باسـلوب عصري ، ودون ليّ للحقائق أو اجتزاء للأقوال ، حتى تأتي مطابقة لما رأيناه ، ومـــا قلناه .

وقد قسمنا الكتاب إلى سبعة أبواب :

الباب الأول : قصة الخلق

تحدثنا فيه عن بدء خلق كل المخلوقات ، وكيف خلقت . فتحدثنـــا عــن العـرش والفرش (الأرض) وما بينهما من موجودات وأجرام سماوية .

الباب الثاني : خلق الكائنات العاقلة

وذكرنا فيه خلق الملائكة ، والجن ، والإنس .

وما حدث في الملأ الأعلى بشأن خطيئة إبليس ، وخطيئة آدم وأوردنا النص الكامل للحوار الذي كان بينهما وبين الله تعالى .

ثم ذكرنا مكانة الإنسان بين هذه المخلوقات وكيف أن الله تعالى كرمه ، وفضلـــه ، وأنعم عليه .

الباب الثالث : عن ثبات الأرض

وسقنا فيه الأدلة من الكتاب والسنة والتجارب وعقيـدة السـابقين بشـأن ثبـات الأرض ، ومركزيتها ، وأنها ليست كوكبا من الكواكب وأنها أعظم من الشمس وأكبر .

الباب الرابع : يتحدث عن الشمس

وأنها تجرى حول الأرض - لا المجرة - وأدلة ذلك ، وأن الليل والنهار مخلوقـان مستقلان وأنهما دليل على دوران الشمس حول الأرض . وأنه لا علاقة لليل والنهار بالشمس أو القمر أو حتى الأرض .

الباب الخامس : عن القمر

وآياته وعجائبه وأنه الأساس في حساب الزمن والتاريخ وأنه جرم تابع للشمس وليس للأرض . وأنه دليل أكيد على أنه والشمس يدوران حول الأرض يوميا .

الباب السادس : عن زينة السماء

وعن الكواكب والنجوم وكيف أنهما محدودان ، معدودان وأن أبعادهما ليست كما تحدث به أهل الفلك . ونقضنا في هذا الباب الجاذبية التي يقولون بأن الكون محكوم بها حركة وسكونا . وأثبتنا أن الكون إنما يقوم " بأمر الله " وأن الجاذبية ليست أسلوب الله في العمل بل هي وهم وخداع .

الباب السابع والأخير

عن نظريتنا الجديدة . . القديمة . . الضغط الجوى أثبتنا في هذا الباب أن الضغط الجوى هو الذي يحكم الأرض بما عليها بأمر الله وذلك بأسانيد شرعية علمية وتجريبية .

فهذا الكتاب إذاً رؤية دينية للكون ونقد لجميع النظريات العلمية الحديثة المتعلقة به وهو من ثم دعوة للعودة إلى منهج الله وإلى شرع الله وإلى علم الله ودعوة للإيمان بأنه ..

لا إله إلا الله .

أخيرا أيها السادة :

إن رأيتـــم أن ما قلناه في هذا الكتاب خطأ فقومونا وإن رأيتم أنه حق فأعينونــا ولا تسكتوا والساكت عن الحق شيطان أخرس . ولاحــرج أن تسـلموا بخطئكـم إن ألزمناكم الحجة وأقمنا لكم الدليل . والتوبة رأس مال المؤمن والرجوع إلـــى الحــق فضيلة . وإلا فأتونا بدليل واحد .. واحد فقط يعارض ما نقول أو يؤيد مــا تقولــون .

وأذكركم والذكرى تنفع المؤمنين بقوله تعالى :

﴿وَاتَّقُوا يَوْمــًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾

(البقرة :٢٨١)

﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (القصص:٧٥) .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل

عيد ورداني

مدخل

في البدء .. كان الله ولم يكن شيئا غيره ..

ثم خلق الخلق ليُعرف ويُعبد .. واتخذ الله تعالى لنفسه جندا فخلق الملائكة لا يعلم عددهم إلا هو . وخيّر تعالى خلقه أن يعبدوه اختيارا ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف:٢٩). أو أن يعبدوه إلزاما ، منقادين ، مجبولين على ذلك ، ودون أن يكون الأمر إليهم وسمى الله الأمر الأول (الأمانة) وعرضها على مخلوقاته جميعا فأبت كلها أن تقبلها ، واختارت أن تعبده إلزاما ، مجبولة على ذلك وقبل الإنسان الأمانة .. إن شاء يؤمن وإن شاء يكفر.. على أن يجازى بعد ذلك بفعله . يقول تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ (الأحزاب:٧٢) .

ولعظم هذا الاختيار، ولفداحة الأمر، ولخطورة العاقبة ، ولأن الإنسان أختار الخيار الأصعب والأشق عليه ، والأحب إلى الله تعالى ، فقد سخر تعالى كل مخلوقاته التي لم تحمل الأمانة ، سخرها للإنسان الذي حملها . ومنحه الله ما لم يمنحه لغيره وميزه عن غيره وفضله تفضيلا .

ورغم صغر خلق الإنسان بالنسبة لغيره من المخلوقات إلا أن الله أولاه من عطاياه ومن فضله ، بل وسخر له تعالى كل مخلوقاته سواء في السموات أو في الأرض من الملائكة الكرام إلى البهائم والأنعام ، وما بينهما من الموجودات .

ولتسهيل المهمة على الإنسان أرسل إليه رسلاً من جنسه . وأنزل إليه كتباً عرفه فيها كل شيء ، إلا ما استثناه تعالى ليخص به نفسه ، واعتبره غيبا وهي وهي أمور إما أنها لا تهمه ، أو هي من صميم ابتلائه وامتحانه .

وطلب تعالى منه ألا يشغل نفسه بها ولا يجهد عقله في تعريف كنهها وأن يتفرغ للمهمة التي أختارها بنفسه وارتضاها له ربه وخالقه . وهي أشرف مهمة وأجمل مهمة وأخطر مهمة .. أن يعبد الله خالقه . ومربيه ، ومفضله ومميزه . يعبده ولا يشرك به شيئا .

ووعده تعالى إن فعل ذلك بجنات ذكر له بعضا من النعم ، والمتع التي تنتظره فيها . أما الأعطية الكبرى ، والجائزة المستحقة فقد جعلها الله له مفاجأة . فرغم كل ما ذكر من متع ولذائذ ، وأعطيات ذكرها تعالى في كتبه وعلى لسان رسله إلا أن أصل المكافأة .. مفاجأة .. قال تعالى : ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ . وفيما

ثبت عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل : { أعددت لعبادي الصالحين ، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر } . (متفق عليه) .

وتوعد الله تعالى من عصاه ، ولم يأت بما أمر ، وينتهي عما نهي ، من لم يؤد الأمانة التي من اجلها كرم وفضل وميز ، وسخر له كل شيء ، بنار وعذاب أليم يلازمه ما بقي ، خالدا لأنه لن يموت بعد ذلك ، فلن يكون ثم موت ولخطورة الأمر ، وفداحة الخطب يسر الله على الإنسانية الأمر ، بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب التي عرفهم فيها بنفسه تعريفا لا يقبل الشك والريبة وعرفهم بغيرهم من المخلوقات تعريفا دقيقا مفصلاً ، لا لبس فيه ولا غموض وضمن لهم الرزق ، وزيادة في طمأنتهم فإنه وعدهم بأن رزقه سيجرى عليهم آمنوا أو كفروا ، أطاعوا أو عصوا . ولمزيد من الطمأنينة جعل رزقهم وما وعدهم به ، في السماء ، وليس في يد بعضهم البعض .

ولمزيد من التيسير ، والسهولة في أداء الأمانة والقيام بالمهمة المختارة وعدهم بأن يغفر لهم ذنوبهم ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، ويمحو ما سجل من خطاياهم إذا هم طلبوا منه ذلك واستغفروه .

ثم منحةً ومنةً كبرى منه وهو الأكرم ، وعدهم بان يتجاوز عنهم مهما بلغت ذنوبهم وإن كانت مثل زبد البحر ، أو بلغت عنان السماء ، بل ولو جاءوا بتراب الأرض خطايا ، لتجاوز عنهم وعفا ، شريطة ألا يشركوا به شيئا . لأن ذلك حقا له تعالى (ألا يشرك به) . فهو وحده الخالق والرازق والمعطي والمانع والضار والنافع . فكيف يعطى الولاء لغير مستحق ؟

أصعبٌ هذا بعد كل ذلك ؟

هل تبقى حجة لمن يخالف ؟ هل يبقى عذر بعد كل هذه التسهيلات والتيسيرات ؟ لقد وصل الأمر حدا من الكرم من الله . أن من فعل هذا الكم من الذنوب والخطايا وأي ما كان نوعها وخطرها ، أنه تعالى يبدلها له . ترى بماذا ؟؟ بحسنات .

أمرٌ عجيب ، ولكنه كرم الله . تؤتى ذنوب وخطايا .. ومهما بلغت .. فتحول وتستبدل وكأنها جميعا كانت أعمال صالحة ؟ نعم .. وما شرط ذلك ؟ فقط طلب واحد بالإضافة لعدم الشرك ، أن يتوب ويعمل صالحاً .

إذاً فمن يوبق نفسه في النار بعد ذلك ، فقد ظلم نفسه ظلماً كبيراً . ورغم أن الامتحان لازال فيه بعض الوقت ولم يأت الأجل المسمى ، إلا أن بوادر النتيجة قد بانت . هذا فضلا عن علم الله المسبق فقد ظهر أن أكثر الناس رغم كل ذلك ورغم الجهد الهائل المبذول من الرسل لم يؤمنوا ، وظلموا أنفسهم ، وخانوا الأمانة .

إنه لأمر غريب ، وعجيب أمر الإنسان ، لقد راح يتعرف على كل المخلوقات وترك الخالق . ولم يكن هذا مطلوبا منه . لم يكن مطلوبا منه أكثر من النظر للاعتبار وللتعرف على الصانع لا المصنوع ، الخالق لا المخلوق ، الرب لا المربوب .

فتجد الإنسان يفنى عمره لدراسة حشرة ، ولا يفكر في خالقها ، يفنى عمره في معرفة الذرة ، ولا يتعرف على موجدها .

هكذا وصل الحال بالإنسان .. انشغل بالأشياء التي خلقت له ، وترك ما خُلق هو له بل إن الأمر بلغ حداً أن الإنسان توغل في الضلال والجحود بأن نسب الفعل للمفعول به ، وجحد الفاعل وراح ينسب كل أمر ليس للآمر بل للمأمور . وتوصل الإنسان إلى اكتشافاته العظمى . ما هي ؟ أن الله لم يرسل رياحاً ، ولم ينزل مطراً ، ولم ينبت زرعاً ، ولم يفتق أرضاً وإنما جاء كل ذلك مصادفة . ولم يبن سماءً ولم يوجد أرضاً ولم يخلق شمساً ، ولا قمراً ولا نجوماً وإنما كل هذه جاء نتيجة اصطدامات وانفجارات . وكأن الكون كله بدأ بالدمار مع أن الحق أن كل شيء سينتهي بالدمار ، وبدأه الله تعالى بالحكمة والعمار .

واكتشف الإنسان أن الزلازل والبراكين والسيول والعواصف والأعاصير ليست آيات ربانية ، فعلها الله ، بل إنما ظواهر طبيعية أتت بها الطبيعة .

والسماء والأرض لا يمسكها الله . بل الجاذبية . والفلك تجرى في البحر ليس بأمر الله بل بقانون الطفو . والمطر لا يترل بأمر الله ، بل بفعل البخر والسماء ليست محفوظة بحفظ الله بل محفوظة بحزام (فان آلن) والله ليس بيده الأمر ، ولا يقلب الليل والنهار وليس هو الدهر بل يحكمنا قانون (النسبية لأينشتاين) . وحفظ الأشياء ليست من الله بل بقانون (لويس باستير) واستقرارنا على الأرض ليس بتمكين الله ، ولكن بقانون (نيوتن) .

وقسم الإنسان ميراث السموات والأرض بين المخلوقات ، فبعضها للطبيعة هي صاحبته ، والأخر للمكتشفين وهم أولى به . والحسرة كل الحسرة .. أن أكثر الناس على هذا الأمر وعلى هذه العقيدة والقلة القليلة هم الذين أدوا الأمانة ولم يجحدوا حق الله ، ولم يكفروا بنعمته ، ولم تصرفهم المخلوقات عن الخالق فقد عرفوا الله ليس من مخلوقاته بل منه

تعالى . فكمال الإيمان : أن تتعرف على المخلوقات من الخالق ، لا أن تتعرف على الخالق من المخلوقات وليت الجاحدين فعلوا حتى الثانية .

إن الله ما طلب من الإنسان أن ينظر في مخلوقاته تعالى ليتأكد من وجود الله لا .. إنما طلب ذلك منه ليتأكد الإنسان من قدرة الله ، وحكمة الله ولطف الله وسائر صفاته الكريمة .

أما المنكرون أصلا لوجوده ، فالله تعالى يعاملهم بالمثل ، ويجازيهم من جنس عملهم فلا يعترف بحالهم ، ولا يأبه بوجودهم ، ويعتبرهم كالعدم .

وأعجب وأغرب ما كان من الإنسان أنه اتخذ من الأشياء التي سخرت له والتي هو أرقى منها مرتبة من شمس وقمر ونجوم ودواب آلهة عبدها من دون الله ! أليس هذا أمراً غريباً من الإنسان ، يستحق ما توعده الله به دون ظلم له ؟؟

حال المؤمنين الآن :

كان هذا هو حال الإنسان عموما ، أما المؤمنين بالله فقد وصلوا الآن إلى ما هو أعجب وأغرب . فقد أصبح إيمانهم بالله مزيج من الشرك والإيمان إيمان مهجن وعقيدة مختلطة كما قال تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (يوسف:١٠٦) .

فنجد منهم من يؤمن بالله وجودا فقط ، فيكون منتهى إيمان أمثال هؤلاء : أن الله موجود أما أنه خالق فلا ، لأن الكون جاء نتيجة اصطدام وتفجير ولم يأت نتيجة خلق . والكون تكون خلال بلايين السنين وليس في (ستة أيام) وأمثال هؤلاء هم قدوة البشر ورواد العلماء ، ويحلو لكثير من علماء المسلمين أن يأتوا بأقوال لهم عن وجود الله كنفر من المؤمنين بل من أرقى المؤمنين . وقد اعتبر الله تعالى مشركي العرب غير مؤمنين رغم أنهم كانوا يؤمنون بوجود الله بل ويؤمنون بأنه تعالى الخالق ولكنهم أشركوا مع الله في العبادة .

وهؤلاء هم صنف ثان من المؤمنين ، يؤمنون بوجود الله وبأنه الخالق ، الرازق المدبر ، ولكنهم ينكرون اليوم الأخر والبعث بعد الموت .

والصنف الثالث الذي يؤمن بالله ، بوجوده ، وبأنه الخالق ويؤمن باليوم الآخر ولكنه لا يلتزم بدين ولا يتقيد بملة . والذين لم يلحدوا من علماء عصر النهضة كان إيمانهم من هذه الأصناف الثلاث لا يتعدوها إلا قليل منهم . إما أن يكون مجرد إيمان بوجود الله أو إيمان بوجوده وبأنه خالق الكون أو زيادة على ذلك أن هناك يوم اسمه اليوم الأخر .

ويلبّس بعض علماء المسلمين على الناس أن أمثال هؤلاء مؤمنين فيقول مثلاً (العقاد) في كتاب(الله) عن (أينشتاين) : " والعلامة ألبرت أينشتاين صاحب النسبية حجة في الرياضيات وفي الطبيعيات وله مشاركة في فن الموسيقى ومقاصدها وهو قوى الإيمان بوجود الله يقول : إن أصحاب العبقريات الدينية من جميع العصور قد عرفوا بهذا النوع من الشعور الديني الذي لا ينتمي إلى نحلة ، ولا يتمثل الله في أمثلة بشرية . فكيف يتأتى أن ينتقل هذا الشعور الديني الكوني من إنسان إلى إنسان إذ لم يبرز في صورة معينة أو مراسم معلومة ؟ إنني (الكلام أيضا لأينشتاين) لأرى أن أهم وظيفة من وظائف الفن والعلم هي : أن يوقظا هذا الشعور وأن يستبقياه حياً في اللذين تهيئوا له " .

وصنف رابع من المؤمنين يؤمنون بالله وأنه الخالق وأن هناك يوم آخر هو يوم القيامة ويلتزمون بإتباع رسول من رسل الله دون آخر ، فنجد من لا يعترف برسول إلا موسى عليه السلام وهناك من لا يعترف إلا بعيسى عليه السلام ، واتباع هذا أو ذاك الآن لا يغني عن اتباع محمد ﷺ ، ولا نقول ذلك لأنه نبي عربي ، أو لأننا من المؤمنين به ، ولكن ذلك هو أمر الله وشرطه ، ولا يعتبر تعالى المؤمنين بوجوده وبأنه خالق الكون مؤمنين فعلا إلا إذا آمنوا بمحمد ﷺ رسولا وفي نفس الوقت لا ينكرون نبوة موسى أوعيسى أوغيرهما من الأنبياء والمرسلين ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (البقرة:٢٨٥) .

لماذا لا يؤمنون بمحمد :

إنني لا أجد سببا لعدم الإيمان بمحمد ﷺ الذي اختاره الله لتبليغ الرسالة الأخيرة والخاتمة للبشر ، لماذا لم يصدقوه مع أن الرجل لم يدع لنفسه شيئا ، لم يدع إلا لعبادة الله نفس الدعوة التي دعي بها المسيح عليه السلام ونفس الدعوة التي دعي بها موسى عليه السلام . نفس الدعوى التي دعي بها زملاؤه وإخوانه من الأنبياء والرسل ؟

لماذا يكذب وهو يدعو إلى مكارم الأخلاق ، والصدق ، والأمانة ، وفعل الخيرات والحب والتسامح ، والعفو ، والصفح ، وإتقان العمل ، وإكرام الضيف والإحسان إلى اليتيم والأرملة وابن السبيل ، وصلة الرحم ، وهي نفس المبادئ التي دعي إليها السابقون من الأنبياء .

لا أدرى .. ما السر في تكذيبه ؟ وهو أول المؤمنين بعيسى المسيح نبياً ورسولاً وبموسى الكليم نبياً ورسولاً ، وهو أول المؤمنين بالإنجيل والتوراة . وهو أكثر المعظمين لقدر أم المسيح

(مريم ابنة عمران) : ولم يقل في أمه (آمنة بنت وهب) ما قاله في أم المسيح . وذكر أن الله تعالى أوحي إليه في مريم وليس في آمنة : ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٤٢) .

لست أدرى .. لم يكذب هذا الرسول الذي يبلغ الناس أن الله ينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي ، وجاء بقول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ (النحل: ٩٠) هل يكذب من دعي إلى ذلك ؟

لماذا لا يقرءون رسالته ويناقشونها ، ويفعلون معها كما يفعلون مع الرسائل العلمية فيولونها اهتماما في البحث والدراسة ، بحياد تام ، وبالرغبة في الوصول إلى الحق وما من شك في أنهم لن يجدوا في هذه الرسالة مطعنا . لم لا يقرءون الرسالة الأخيرة من الله إليهم ؟ نعم هي إليهم لأنها رسالة للعالمين وليس لسكان الجزيرة العربية وحدهم وهم مخاطبون فيها ، ومكلفون بها وسيسألون عنها مثلهم مثل العرب سواء بسواء . والله تعالى لم يعتبر الذين آمنوا به وبكل الكتب وبكل الرسل ولم يؤمنوا بمحمد رسولاً مؤمنين ، فلابد من الإيمان به والإيمان بالكتاب، الذي نزل إليه ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ (التغابن:٨) هناك أيضا صنف آمنوا بذلك ولكن الله تعالى أيضا لم يعتبرهم مؤمنين .. لماذا ؟

مؤمنون : نعم . متبعون : لا

إن الإيمان بالله ، ليس منة من الخلق على الله ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلْ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الحجرات:١٧) وليس أي إيمان يقبل ، بل الإيمان الذي حدده الله واشترطه ، ولله أن يحدد ويشترط لأنه تعالى هو الخالق .. وهو تعالى الذي سيجازى ويكافئ لا غيره . اشترط الله على المؤمنين لقبول إيمانهم أن يتبعوا رسوله ويتبعوا كتابه ، ودون ذلك لن يغني إيمانهم شيئا . وعلى ذلك فالمؤمن هو من يؤمن بالله وبأنه خالق الكون وحده لا شريك له وأنه تعالى مستحق للعبودية وأن هناك يوم للحساب بعد البعث والنشور ، ويؤمن بكل كتبه وكل رسله فهذا هو المؤمن .

والذي يعلم من القرآن ، أنه مترل من عند الله ، وأنه الرسالة الأخيرة للبشر فليس ثم كتب أخرى بعده ، وأن هذا الكتاب مترل من الله تعالى للإتباع ، واتباعه ليس خياراً للمؤمنين به ، بل هو حتم وإلزام ، وإلا فلا يعد من المؤمنين من لا يتبع .

يقول تعالى ﴿المص (١) كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف) ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ (الأنعام)

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعْ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (الأحزاب) ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ (يونس ١٠٩).

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ (آل عمران:١٠٣) وحبل الله : كتابه كما فسره النبي ﷺ وقد بين الله تعالى في كتابه حال الذين ورثوا الكتاب فخالفوه ، والذين استمسكوا به . فقال تعالى : ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا...﴾ إلى قوله ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (الأعراف:١٦٩) .

محاولات التحريف

لقد صفيت البشرية إلى هذه الفئة القليلة ، التي تؤمن بالله وآياته ورسوله ويتبعون ما يؤمرون به غير أن هذه الفئة القليلة ، لم تتبع كما يريد الله ، بل إن الشيطان دخل إليهم من هذا الباب أيضا . فإنه وإن كان هذا الكتاب قد حُفظ من الله تعالى من أن تنال آياته التحريف ، كما حدث لغيره من الكتب السابقة ، إلا أنه في نفس الوقت ، هجر ولم يتبع ، واتبع المؤمنون به من دونه أولياء ، ونظم وقوانين ، وتسابق في هجر آياته واتباع ما دونه ، أشد الناس إيماناً به : وهم علماء المسلمين .

ففي مجال الحكم نحيت آيات الله ، وفيها أكمل نظام للحكم واتبع غيره من نظم ، ديمقراطية ، أو رأسمالية ، أو اشتراكية ، .... أو غيرها .

وفي مجال القانون نحيت آيات الله ، وما أكثر تلك الآيات التي تحكم علاقات المجتمع ، ليتبع غيره من قوانين من وضع الغرب أو الشرق ، أو حتى من وضع ذات المؤمنين بالقرآن .

وفي مجال الثقافة والعلوم نحيت آيات الله ، والتي يقول فيها الله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ﴾ واتبع غيرها من الثقافات والعلوم .

وتبارى أصحاب الرسالة الأخيرة في هجرها . وتسابقوا في اتباع الغير أي ما كانوا وتنافسوا في النقل والتقليد من (الموضات النسائية) حتى نظريات الخلق وبدء الكون .

ولم يتخلف عن هذا السباق علماء المسلمين في شتى العلوم - الإنسانية منها والمادية - وراحوا يتناقلون في أحاديثهم وكتبهم ما يقوله علماء الغرب من نظريات وتركوا بل وخالفوا ما يقوله كتابهم ، وخالفوا أيضا سلفهم الذين علموا الدنيا وأناروا الظلمات ، ويشهد بذلك أهل الغرب أنفسهم .

فأي إيمان هذا ؟ والمؤمنون يتركون ما آمنوا به لغيره . والله تعالى أكمل لهم الدين وأتم عليهم نعمته . ورضى الإسلام لهم دينا ، وأمرهم بأن يتبعوا الصراط المستقيم ولا يتبعوا السبل فتفرق بهم عن سبيله ، وجعل هذه الوصية هي خاتمة وصاياه العشر ، والتي هي جوامع الشرائع التي تضاهي الكلمات التي أنزلها الله على موسى في التوراة وإن كانت الآيات التي أنزلت عليه أبلغ وأكمل .

ولم يقتصر الأمر على مجرد هجر القرآن واتباع غيره ، بل أصبح ينادى باتباع أي سبيل غير سبيل الله . بل وصل الأمر إلى أن أصبح كل ما يخالف قول الله تعالى يدرس على أبناء المسلمين في المدارس والجامعات ، من علوم مخالفة لتعاليم الله وشرعه . فهم يدرسون ويعلمون وينشرون علوما ونظريات متناقضة تماما مع القرآن .

فيعرفنا الله بأنه أرسل أنبياء ورسلا إلي الناس ، من بداية وجودهم علي الأرض ، وإن أنبياءه ورسله علموا الناس كل ما يحتاجون إليه لحياتهم ومعايشهم وكيف يستفيدون من وجودهم ومما سخر لهم في الأرض .

وأخبرنا الله في القرآن عن أمم ظهرت فيما يسمونه بالعصر الحجري بلغت من الحضارة مبلغاً ومن الرقي ما لم يخلق مثله في البلاد .

حتى في أبسط الأمور عقلانية وأوضحها في كتاب الله تبياناً : قضية خلق الإنسان . انتشر في بلاد القرآن نظرية تخالف ما جاء به ، أكثر مما أنتشر وقيل عنها في بلادها وهي نظرية : (النشوء والارتقاء) . وتبنى هذه النظرية ودافع عنها وحللها وناقشها ، وأذاعها ودرسها ، وعلمها وأيدها ، علماء يؤمنون بان الله قال في كتابه المنزل ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:٤) وغيرها من الآيات وفي تطور علمي جديد ، وفي اتباع مفرط للغرب ، وفي تقليد لهم أعمى ، خرجت نظريات من حاملي وحافظي القرآن عن النشوء والارتقاء في الأديان .

نظرية النشوء والارتقاء في الأديان :

وفي كتـاب يعتبر من درر الفكر العربي هو كتـاب (الله : في نشـأة العقيـدة الإلهيـة) لأحـد رموز الفكر الإسلامي المعاصر ، وخلاصة المستيرين (عبـاس محمـود العقـاد) يقـول رحمـه الله في مقدمة هذا الكتاب : " ترقى الإنسان في العقـائد كمـا ترقـى في العلـوم والصناعـات فكـانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومـه وصناعاتـه فليسـت أوائـل العلـم والصناعة بأرقي في أوائل الأديان والعبادات ، وليست عنـاصر الحقيقـة في واحـدة منـها بـأوفى من عناصر الحقيقة في الأخرى . وينبغي أن تكـون محـاولات الإنسـان في سـبيل الديـن ، أشـق وأطول من محاولاته في سبيل العلـوم والصناعـات .

لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلباً ، وأطول طريقـاً مـن حقيقـة هـذه الأشـياء المتفرقـة التي يعالجها العلم تارة والصناعات تـارة أخـرى .

وقد جهل الناس شأن الشمس وهي أظهر ما تراه العيون وتحسـه الأبـدان ، ولبثـوا إلى زمـن قريب يقولون بدورانها حـول الأرض ، ويفسـرون حركاتهـا وعوارضـها كمـا تفسـر الألغـاز والأحلام ، ولم يخطر لأحد أن ينكر وجود الشمس لأن العقول كانت في ظـلام مـن أمرهـا فـوق ظلام ولعلها لا تزال . فالرجوع إلى أصـول الأديـان في عصـور الجاهليـة الأولى لا يـدل علـى بطلان التدين ولا على أنها تبحث عن محال . وكل ما يدل عليـه أن الحقيقـة الكـبرى أكـبر مـن أن تتجلى للناس كاملة في عصر واحـد . وأن النـاس يسـتعدون لعرفانهـا عصـرا بعـد عصـر وطورا بعد طور ، وأسلوبا بعد أسلوب ، كما يستعدون لعرفـان الحقـائق الصغـرى ، بـل علـى نحو أصعب وأعجب من استعدادهم لعرفان هذه الحقائق التي يحيـط بهـا العقـل ويتناولهـا الحـس والعيان – وقد أسفر علم المقابلة بين الأديان عن كثير مـن الضـلالات والأسـاطير ، الـتي آمـن بها الإنسـان الأول ، ولا تزال لها بقية شائعة بين القبائل أو بين أمـم الحضـارة العريقـة ، ولم يكـن من المنظور أن يسفر هذا العلم عن شيء غير ذلك ولا أن تكون الديانـات الأولى علـى غـير مـا كانت عليه ، من الضلالة والجهالة فهذه هي وحدهـا النتيجـة المعقولـة الـتي لا يـترقب العقـل نتيجة غيرها ، وليس في هذه النتيجة جديدا يستغربه العلماء ، أو ينـون عليـه جديـدا في الحكـم على جوهر الديـن .

فإن العالم الذي يخطر له أن يبحـث في الأديـان البدائيـة ، ليثبـت أن الأولـين قـد عرفـوا الحقيقة الكونية الكاملة منزهة عن شوائب السخف والغباء ، إنما يبحـث عـن محـال " .

ثم قال الرجل حاكيا عما توصل إليه علماء الغرب : " يرى كثير من العلماء أن الأساطير هي أصل الدين بين الهمج " .

ثم عدد العالم القرآني أسماء بعضا ممن قال عنهم (علماء) وحكى عنهم الأقوال التي تفصل ما قال به في مقدمته حتى قال : " يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتقادهم بالآلهة والأرباب . وهي دور التعدد ودور التمييز والترجيح ، ودور الوحدانية " .

أرى أن الرجل فيما يقول في كتابه هذا قد نسف أول وأكبر مبدأ نص عليه القرآن في معظم آياته وهو أن الكون كله بما فيه ، ومن فيه قام وكان على عبودية الإله الواحد وانسجمت جميع المخلوقات في هذه العقيدة . وبدأت حياة البشر على الأرض بالعقيدة الصحيحة التي يرضاها الله ، وهي التوحيد ، وقد كان أول البشر (آدم) موحداً ولم يعبد أربابا متعددة ولا متميزة ، ولم يعبد طوطم ولم يشرك مع الله أحدا . وأن حياة البشر ظلت بعد آدم عشرة قرون على هذه العقيدة التي تقوم على التوحيد .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : " كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلها علي الإسلام " . فمن نصدق ؟؟ هذا ما رواه البخاري عن رسول الله ﷺ مخالفا ما قال به علماء المقابلة بين الأديان أمثال (رويس ، وجيمس ، وسانتيانا ، والعقاد ، .. وغيرهم) . والبخاري كتابه أصح الكتب لدى المسلمين – بعد القرآن – والرسول ﷺ أصدق الناس .

إن القارئ للقرآن يجد أن الأصل في تاريخ البشر ، الإيمان بالله الواحد ، وأن البشر كلما ابتعدوا عن هذه العقيدة أرسل الله إليهم من يعيدهم إلى التوحيد رسولا من أنفسهم ، وإنهم إذا لم يستجيبوا فإن الله تعالى يخلص الأرض منهم ولا يبقى فيها مشرك ، ويترك فيها الموحدين فقط ، حتى جاءت هذه الأمة التي تركها الله تعالى ولم يؤاخذهم بشركهم لأن القيامة ستقوم بعدهم . كما أن المأثور عن رسول الله ﷺ أن القيامة ستقوم على شرار الخلق . وأن الساعة لا تقوم حتى لا يقال على الأرض : الله .. الله . أي ستقوم وليس لله تعالى بين الناس ذكر ولا فيهم إيمان .

إذاً فتاريخ البشرية الذي يخبرنا عنه القرآن مخالف لما يقول به السيد المفكر رحمه الله وعلماء مقارنة الأديان والتاريخ . وأن حقيقة الأمر أن تاريخ البشر يبدأ بالتوحيد وينتهي بالكفر وليس العكس . فلو كان ما يقوله العقاد صحيحاً ، وأن البشرية تترقى في دينها

وعقيدها لكان أهل هذا الزمان أفضل إيمانا من صحابة رسول الله ﷺ ولكان طبقا لقوله أبو جهل كأبي بكر لوجودهما في عصر واحد .

هذا نموذج لترك ما أنزل الله واتباع غيره ، وما أنزل تعالى في رسالته الأخيرة للبشر هو الأكمل والأتم في تاريخ الرسائل ، فهو سبحانه أنزل القرآن وفيه تبيان لكل شيء ، وحذر تعالى في كتابه من اتباع الغير ، وأمر رسوله ﷺ باتباع ما أنزل إليه . والأمر بالطبع للمؤمنين بالله وبرسالته وبرسوله . ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنْ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة) .

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنْ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الجاثية:١٨) .

فأمره تعالى أن لا يتبع أهواءهم عما جاءه من الحق وإن كان ذلك شرعا أو طريقا لغيره من الأنبياء ، فإنه قد جعل لكل نبي سنة وسبيلا . وحذره أن يفتنوه عن بعض ما أنزل إليه . فإذا كان هذا فيما جاءت به شريعة غيره فكيف باتباع بما لا يعلم أنه جاءت به شريعة ، بل هو طريقة من لا كتاب له . وكم من الأمور التي ترك فيها المؤمنون بالله ما أمرهم به الله واتبعوا من يجادل في الله بغير هدى ولا كتاب منير .

ولما كان النبي ﷺ قد أخبر أن هذه الأمة تتبع سنن من قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه وجب أن يكون فيهم من يحرف الكلم عن مواضعه . وهذا من بعض أسباب تغيير الملل .

ولأن المبنى محفوظ بالله فإنه يغير ويحرف في المعنى ، فيما أخبر الله به وبما أمر به . قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩) ولأنه لا تزال هناك طائفة ظاهرة على الحق فلم ينله ما نال غيره من الأديان من تحريف كتبها وتغيير شرائعها مطلقا ، لما ينطق الله به القائمين بحجة الله وبيانه ، الذين يحيون بكتاب الله الموتى ، ويبصرون بنوره أهل العمى فإن الأرض لا تخلوا من قائم لله بحجة لكي لا تبطل حجج الله وبيناته .

تزوير التاريخ

وهذا مثال آخر للتحريف والتزوير ، والذي لم يتورع علمـــاء المسلمين أن يشـاركوا الآخريـن في هذا التحريف . فهم يعلمون تلاميذ المدارس ، وطلبـــة الجامعـات ، أن الإنســان بـدأ تاريخـه بدائيا لا يعرف الأسرة ، ولا الاستقرار ولا الحياة الآمنة . وإن حياتـــه أشـبه بحيـاة الحيـوان . لا علم ولا فكر ولا دين ويسمون هذه الحقبة من التـاريخ : (العصـر الحجـري) . وهـذا منـاقض تماما لآيات الله التي تخبرنا أن آدم أول البشرية كان يعلم مـا لا نعلمـه نحـن في عصـر الكمبيوتـر والفضاء والإنترنت عرف آدم كل معاني الإنسـانية والرقـي والعبوديـة الصحيحـة لله الواحـد . فهذا التاريخ الذي سنرى بعد ذلك أنهم يفسرون به الظواهر الـتي ينسـبها المؤمنـون لله ، تـاريخ مزور ، ومحرف . فهو يصور الإنسان في أول مراحلـه بالبدائيـة ، والسـذاجة ، بحيـث يشـبهون تفكيره بتفكير الأطفال ، بل أنه كان يتخذ الحيوان قدوة له وأسـوة ، وأنـه الملـهم لـه في كثـير من الاكتشافات وهم يصورون الإنســان القـديم بصـورة أشـبه للحيـوان في شـكله وهيئتـه وسلوكيـاته وأنه لم يعرف النار إلا بعد حقب طويلة فكان يأكل اللحـم نيئـا ، وكـان يعيـش على القنص والصيد فلم يعرف الزراعة ولا الصناعة . بينمـا يصـور لنـا القـرآن وتصـور لنـا كتب السنة أن الإنسان عرف الحياة الـتي نحياهـا الآن ، بـل وأرقـى منـذ أن وطئـت أقـدام الإنسان الأرض ، وأن آدم كان يزرع ويصنع ويحيك الملابـس ، وأنـه بـدأ حياتـه علـى الأرض في أسرة وكانت له زوجة ، ثم أولاد وكان معه كتاب من الله فضلا عـن العلـم الـذي علمـه الله له كان يعيش به على الأرض . كما نعلم أيضا أن أعظـم حضـارة ظـهرت علـى الأرض كـانت حضارة (عاد) وحضارة (ثمود) وقد كانتا تاريخيا قبل العصـر الحجـري كمـا يسـمون . ولكـي نؤكد للمؤمنين أن التاريخ فعلا مزور ، نورد بعـض النمـاذج علـى تزويـر واضعيـه : إن أكـبر تاريخ سجل وبأدق تفاصيله هو تاريخ قدماء المصريين . والقارئ للتاريخ المصـري قـديم لـن يجـد أي ذكر ليوسف أو موسى الكريمين ، فهل يتصور ذلك ؟ يوسـف الـذي تـولى حكـم مصـر في فترة من أهم فترات التاريخ الإنساني وموسى الذي كان لخروجه من مصـر ببـني إسـرائيل شـأن غير به مجرى تاريخ مصر ، بعد أن أغرق الله فرعون وجنـوده في اليـم . هـل يتصـور عـاقل أن المصريين القدماء الذين سجلوا أشياء لا تستحق الذكر يغفلون عن تسـجيل أكـبر حدثـين حدثـا في تاريخ مصر منذ أن وجدت إلى قيـام السـاعة ؟ .

اللهم إلا أن يكونا لم يحدثـا .. ؟!!

وهل يتصور عاقل ألا يذكر التاريخ لبلاد ما بين النهرين أي ذكر لنوح عليه السلام وقد كان له حدث يعتبر الأكبر والأعظم تأثيرا في تاريخ البشر في كل الأرض قاطبة ؟ .

ألا يذكر التاريخ شيئا عن خليل الله إبراهيم وعن معجزة إلقائه في النار التي كانت بردا وسلاما عليه ؟ وعن إسحاق ويعقوب ، أكبر شخصيتين في التاريخ الإنساني . الذي يخلو تماما من أي ذكر لهما ؟ .

وأن يخلو التاريخ من ذكر شعيب أو لوط ؟ هل خفي على سكان الأرض كلها ما حدث لسدوم وعامورية قرى قوم لوط ؟

هل قرأ أحد في تاريخ الحضارة الفينيقية ذكر لأعظم ملك كان في الأرض وهو سليمان عليه السلام . أو ذكر لأبيه داود ؟

هل قرأ أحد في تاريخ الجزيرة العربية القديم أي ذكر لأنبياء كرام كصالح وهود وإسماعيل ؟ اللهم إلا أن لا يكون لهم وجود فعلي كما زعم عميد الأدب العربي (طه حسين) الذي قاله في كتابه " في الشعر الجاهلي " ص ٢٦ ما نصه " للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنها أيضاً . ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي فضلاً عن إثبات القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهود والقرآن والتوراة من جهة أخرى .. " . هذا هو التاريخ الذي يريد علماء الغرب أن نستبدله بالله .

فلا يوجد أي ذكر في التاريخ لنبي مهما بلغ شأنه ، ولا لحدث إيماني مهما بلغت قيمته . فهل يعقل أن يخلو تاريخ الصين من نبي أو رسول ؟ لا يمكن أن يكون ذلك هل يعقل ألا يبعث الله تعالى لأوروبا أو روسيا نبي أو رسول ؟ لا يمكن لأن الله تعالى قال وهو أصدق القائلين ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر:٢٤) فأين هذا النذير في تاريخ الصين أو روسيا أو أوربا ؟ إذاً فالتاريخ مزور . وإذا كان التاريخ وهو أثبت العلوم لأنه واقع ، على هذه الدرجة من التزوير فما بالنا بغيره من العلوم .

عصر الإلحاد

بدأ منذ القرن السابع عشر الميلادي يبدو الضجر والضيق لمبادئ الفلسفة التي كانت هي مزيج من الاستنباط العقلي ، والاستنتاج الحسي ، لظواهر الكون بتفسيرها ووضع قوانين

لها ، واستعان الفلاسفة في تحليلهم للموروث من علوم الوحي لكن ليس باعتبارها وحيا ، بل باعتبارها فروضا علمية لا أكثر ، تقبل الأخذ والرد والتعديل والتحوير . ولكنهم على أي حال لم يتناقضوا تماما فيما استنبطوه من أعمال الفكر ، مع الكتب المقدسة ، بحالتها الموجودة آنذاك .

ومن الجهة الأخرى لم يقبل الإسلام هذه المبادئ الفلسفية حتى ولو اتفقت مع الدين لأن المبادئ الإسلامية لا تقبل شريكا مع الله فيما يخلق أو يأمر . وهي توصي المؤمنين باتباع آيات الله وحدها . وتحذر بقوة من اتباع غيرها أو حتى معها أي أفكار أو مبادئ .

وأطلق جاليليو الشرارة الأولى للمعركة مع الفلسفة والفلاسفة عندما قال سنة ١٦٠٥م معبرا عن المذهب الجديد للتجريبيين : " ترى ما هي العلاقة بين الفلسفة وقياس كمية معينة ؟ " وقد صار هذا السؤال جوهريا بالنسبة لنشأة العلوم الطبيعية في القرن السابع عشر .

وبدأت معركة بين الفلاسفة وخاصة أتباع أرسطو معلمهم الأكبر ، وبين التجريبيين الذين أرادوا إحلال طريقة التفكير التجريبي المعملي محل التفكير المبنى على الاستنباط العقلي .

ولم تتدخل الكنيسة في هذه المعركة ، فهي ليست ضد العلم ، ولا هي حامية حمى الفلسفة ، غير أن الكنيسة أدخلت اضطرارا عندما أظهر التجريبيون آراء تتعارض مع الدين ، ولا يمكن أن يعتبر ما يعارض الدين علماً بأي شكل من الأشكال لأن الدين هو العلم ، وهنا تدخلت الكنيسة بالموعظة الحسنة تنبه على مخالفة التجريبيين للكتب المقدسة . غير أن الآخرين لم يتعظوا ولم ينتهوا بل تمادوا في موقفهم ، وقد عبر (يوهانس كبلر) عن موقف زملائه بتعليقه الشهير : (إن الكتاب المقدس ليس كتابا في علم الضوء ولا علم الفلك) . وهنا ظهرت الكنيسة كجبهة أقوى من الفلاسفة ولكن للدفاع عن الدين ، الذي لا يعارض أبداً علم الضوء أو أي علم ، ولكن يعارض تكذيب آيات الله .

وكان هذا هو بداية الخلاف بين ما يقوله رجال الدين ورجال العلم في أوربا وهنا يبدو للمشاهدين من بعيد أن الكنيسة ضد العلم والحقيقة كانت عكس ذلك .

وللحقيقة أيضا ، يجد المرء نفسه للإنصاف يكبر ويجل موقف الكنيسة ، وكواحد من المؤمنين بالله وبكتبه ، اعتبره موقفا تاريخيا ذلك الذي فعله رجال الكنيسة حماية للدين وحماية عن آية واحدة خالفها التجريبيون تقول بحركة الشمس حول الأرض ، بينما التجريبيون

يقولون بعكس ذلك . في حين لم تسمع لعلماء المسلمين كلمة واحدة ، رغم أن كتابهم فيه مئات الآيات التي تؤيد رأي الكنيسة ويخالفها التجريبيون ، وليس آية واحدة جاءت على لسان (يوشع بن نون) في سفر (يوشع) الإصحاح العاشر الآية رقم ١٣ من (العهد القديم) وهي تقول : " حينئذ كلم يوشع الرب ، يوم أسلم الرب الأموريين أمام بني إسرائيل ، وقال أمام عيون بنى إسرائيل يا شمس دومي على جِبعُون ، ويا قمر على وادى أيلون . فدامت الشمس ، ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه . أليس هذا مكتوباً في سفر ياشر ، فوقفت الشمس في كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل " .

والقارئ للتاريخ لا يجد أن الكنيسة قد اعترضت على أي علم من العلوم المادية ، ولكنها وقفت وبشدة لكفر من كفر وإشاعة كفره في العلوم الكونية ، والحق أن الكنيسة تصدت بشدة لكل زندقة في الأمور الكونية حتى أنها حكمت على " جردانو برونو " بالإعدام حرقا لقوله بأن الفضاء لا نهائي .

لا أشك لحظة في أن وراء هذا التغيير في مفاهيم البشر تجاه الكون وعلومه خطة إبليسية . ورغم أن الخطة معادة ومكررة إلا أنها نجحت تماما كما نجحت مع أبي البشر وزوجه في تعريتهما وإنزالهما إلى الأرض وإخراجهما من الجنة . فهو الثأر القديم والعداء المبين بينه وبيننا . ألم يكن أبونا آدم سببا في تحويل مساره من الجنة إلى النار ومن الملأ الأعلى إلى أسفل سافلين . ومن جوار الرحيم إلى مطرود رجيم . فصمم عليه اللعنة وأقسم على أن يغوى البشر ، ووضع خطته . ولأنها نجحت مرة فإنه لا ينى في تكرارها لتغيير خلق الله من حال إلى حال .

وأكبر وأخطر تغيير يظفر به إبليس أن يحول البشر من الإتباع إلى الابتداع ولأنه لعنه الله علم أن القرآن محفوظ من التحريف ، فقد عمل ألا يضيع جهده في هذا الأمر وأن يتركه على ما أنزله الله . ولكنه يعمل جاهدا على ألا يتبع ، ويفتن بنى آدم علاوة على تركهم تطبيق آيات الله إلى المخالفة والعمل بنقيض الآيات .

يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سبأ:٢٠) وكجزء من الخطة الإبليسية يغير إبليس الأسماء المحرمة والمنفرة إلى أخري خادعة مقبولة تماما كما استبدل اسم الشجرة المحرمة باسم ﴿شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ (طه:١٢٠) ونجحت الخديعة في إغواء آدم فكررت

هنا ، وسمى هذا العصر الذي شهد أكبر عملية انسلاخ من الدين في العصر الحديث وسماه (عصر النهضة) والحقيقة أنه كان عصر السقوط والانتكاس .

أبطال عصر الإلحاد

لقد سموا هذا العصر الذي انسلخ فيه العلم عن الدين وكأن أحدهما نقيضا للآخر (عصر النهضة) وكذلك سموا الملاحدة الذين أحدثوا هذا الانقلاب بالرواد وأسبغت عليهم أسماء وصفات الأبطال والعظماء وقد شارك المسلمون في هذا العمل الأخير ووصفوا جاليليو بالرائد ونيوتن بالعظيم وأينشتاين بالعبقري ، بينما كان هؤلاء هم طلائع جيش إبليس الذين نجحوا في تغيير القوانين الإلهية بقوانين طبيعية .

سنطوف مع أبطال عصر النهضة ، الذين خلدهم مدارسنا وجامعاتنا وكتبنا ونقرأ مقتطفات من أقوالهم التي عبروا فيها دون خجل أو مواربة أهم معاول هدم الدين الذي أنزله الله لعباده ، وجاءوا بدين جديد أسموه زوراً (العلم) و(العلمانية) .

ولنبدأ بالعبقرية الفذة أينشتاين الذي قال مدافعاً عن جاليليو في حربه ضد رجال الكنيسة : " لقد منحت جاليليو موهبته الخارقة القدرة على الحوار الواعي مع مثقفي عصره فاستطاع التغلب على ذلك الفكر المبنى على الخرافات وعلى اعتبار الإنسان مركز الأشياء في هذا الكون " .

وقال أيضا : " وربما نستطيع القول : بأن التخلف الناتج عن سيطرة التقاليد الجامدة التي انتشرت في العصور المظلمة كانت قد خفت وطئته في القرن السابع عشر . وأن البقية الباقية من التقاليد الثقافية الموروثة لم يكن لها القدرة على الصمود إلى الأبد إزاء التقدم الحضاري . سواء ظهر جاليليو أم لم يظهر " .

هذه الكلمات نقرأها لأينشتاين مع الوضع في الاعتبار أنه كان حذراً من إثارة رجال الكنيسة عليه .

(والتير) تجريبي آخر من رواد عصر النهضة قال ليقطع الصلة تماما بين الكون وخالقه : " إن الكون كالساعة يرتب صانعها آلاتها الدقيقة في هيئة خاصة ويحركها ، ثم تنقطع صلته بها " .

وجاء زميله (هيوم) بجرأة أكثر ليتخلص من هذا الإله الميت على حد قوله " لقد رأينا الساعات وهي تصنع في المصانع لكننا لم نرى الكون وهو يصنع فكيف نسلم بأن له صانعا " .

أما (هكسلى) فقد قال : " إذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغي أن ننسبها إلى أسباب فوق الطبيعة " . وأضاف " فإذا كان قوس قزح مظهرا لانكسار أشعة الشمس على المطر ، فماذا يدعونا إلى القول بأنها آية الله في السماء " .

ولمزيد من الإفصاح عن المنهج الإبليسي لهدم الدين يقول (هكسلى) : " لقد خلق العقل الإنساني الدين وأتم خلقه ، في حالة جهل الإنسان وعجزه عن مواجهة القوى الخارجية ، فالدين نتيجة لتعامل خاص بين الإنسان وبيئته .

إن هذه البيئة قد فات أوانها أو كاد وقد كانت هي المسئولة عن هذا التعامل . أما بعد فنائها وانتهاء التعامل معها فلا داعي للدين " . ويضيف : " لقد انتهت العقيدة الإلهية إلى آخر نقطة تفيدنا وهي لا تستطيع أن تقبل الآن أي تطورات . لقد أخترع الإنسان قوة ما وراء الطبيعة لتحمل عبء الدين ، جاء بالسحر ، ثم بالعمليات الروحية ثم بالعقيدة الإلهية ، حتى اختراع فكرة الإله الواحد . وقد وصل الدين بهذه التطورات إلى آخر مراحل حياته . ولا شك أن هذه العقائد كانت في وقت ما جزءاً مفيداً من حضارتنا بيد أن هذه الأجزاء قد فقدت اليوم ضرورتها ، ومدى إفادتها للمجتمع الحاضر المتطور " .

ويقول(إنجلز) : " إن كل القيم الأخلاقية هي في تحليلها الأخير من خلق الظروف الاقتصادية " .

ويقول أستاذ أمريكي في طب الأعضاء : " لقد أثبت العلم أن الدين كان أقسى وأسوأ خدعة في التاريخ " .

يقول الدكتور (تامس ديود باركس) : " لقد أجمع علماء هذا العصر على صدق نظرية " النشوء والارتقاء " وقد بدأت هذه النظرية تسود فعلا جميع فروع العلوم الحديثة . فكل مشكلة تحتاج (إلها) في تفسيرها توضع مكانه هذه النظرية بغير تردد " .

أرأيتم هذه النظرية المسماه بالعلمية ما هو دورها ؟

(أرثركيث) يقول : " إن نظرية النشوء والارتقاء ، غير ثابتة علميا ، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو (الإيمان بالخالق الخاص المباشر) وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه " .

يقول : (برتراند راسل) : " والإنسان وليد عوامل ليست بذات هدف . إن بدأه ونشوءه وأمانيه ومخاوفه وحبه وعقائده كلها جاءت نتيجة ترتيب رياضي اتفاقي في نظام الذرة والقبر ينهي حياة الإنسان ولا تستطيع أي قوة إحياءه مرة أخرى . إن هذه المجهودات الطويلة ، والتضحيات والأفكار الجميلة ، والبطولات العبقرية كلها سوف تدفن إلى الأبد مع فناء النظام الشمسي " .

يقول محرر دائرة المعارف (العلوم الاجتماعية) تحت اسم (الدين) : " وبجانب المؤثرات الأخرى التي ساعدت في خلق الدين فإن إسهام الأحوال السياسية والمدنية عظيم جداً في هذا المجال . إن الأسماء الإلهية وصفاتها خرجت من الأحوال التي كانت تسود على ظهر الأرض . فعقيدة كون الإله (الملك الأكبر) صورة أخرى من صور الملكية الإنسانية ، كذلك الملكية السماوية صورة طبق الأصل للملكية الأرضية وكان الملك الأرضي القاضي الأكبر، فأصبح الإله يحمل هذه الصفات . ولقب (القاضي الأكبر الأخير) الذي يجازى الإنسان على الخير والشر من أعماله ، هذه العقيدة القضائية التي تؤمن بكون الإله محاسباً ومجازياً لا توجد في اليهودية فحسب وإنما لها مقامها الأساسي في العقائد الدينية المسيحية والإسلامية " .

وهذا فارس أخر من فرسان عصر النهضة ، عصر العلم ، أستاذ ابيولوجيا (هيكل) يهزي في كفره فيقول : " إئتوني بالهواء وبالماء وبالأجزاء الكيماوية وبالونت ، وسأخلق إنسانا " . المضحك أن هذا (الشيء) عاجز عن أن يأتي وحده بما طلب ويطلب العون ، فكيف سيخلق إنسانا ؟

هؤلاء بعضهم وهذى بعضاً من أقوالهم ، ونهضتهم ، التي راح علمائنا يلهجون بذكرهم ويسبحون بحمدهم ، ويقدسونهم تقديساً ، وتدرس أقوالهم وعلومهم كبديل كما قالوا هم ... للدين .

وما قلناه وذكرناه من أقوالهم غيض من فيض وإلا فإنه لم يشذ من رجال عصر النهضة إلا النذر القليل ، وهذا القليل كان أغلبهم ، منتهى إيمانه ، أن يعترف - بالكاد - بوجود خالق للكون وكفي ، وهو إيمان لا يرقى في أحسن أحواله عن إيمان أبي جهل ، وأبي لهب . فقد كانا يؤمنان بوجود الله وبأكثر من ذلك ورغم هذا فلم يعتبرا من المؤمنين طبقاً للقواعد الإسلامية .

وللأسف لم يخل علم من العلوم سواء الإنسانية أو المادية إلا وظهرت فيه نهضة على مثال ما ذكرنا . وقد كان أكبر علم حظي بنهضة فائقة هو علم الفلك يقول كبيرهم (جيمس جيتر) معبراً عن مدى العلم الذي وصلوا إليه : " لا غرابة إذا كانت أرضنا قد جاءت صدفة نتيجة بعض الحوادث ، وإذا بقي كوننا على حالته الراهنة لمدة طويلة مماثلة (لمدة حدوثه صدفة) فلا نستبعد حدوث أي شيء يمكننا قياسه على الأرض " .

علماء المسلمين وعصر النهضة

لقد نجح التجريبيون أو بالأحرى إبليس في أن يغير علوم الأرض الكونية وبمساعدة هؤلاء . ولا أستطيع أن أحمل الكنيسة وزر ما حدث ، كما يقول البعض ، إذ لو كانت أخطاء رجال الكنيسة هي التي أدت إلى كفر هؤلاء ، فلماذا لم يتحولوا إلى الإسلام أو إلى اليهودية ، أو حتى يبقوا على مسيحيتهم وينتقدوا مسلك رجال الكنيسة وليس دينها ولكن وصل هؤلاء إلى ما وصلوا إليه نتيجة نفوسهم الضعيفة ، المريضة ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فهم لا يهتدون . ولا ننكر أن ضعف الكنيسة قد ساعد التجريبيين على نشر علومهم وذيوع مذهبهم حيث عجزت الكنيسة عن إقناع أتباعها بما تدعوا إليه . كذلك ظهرت هذه النظريات التجريبية في وقت غياب الفكر الإسلامي الذي تأثر هو الآخر بالحالة السياسية المتردية للأمة الإسلامية آنذاك فكانت الفرصة مواتية للتجريبيين حال ضعف قدرة الكنيسة غرباً وغياب الفكر الإسلامي شرقاً . فسرت مبادئهم في الأرض سريان النار في الهشيم .

وإن كنا أيضا لا ننكر أن الكنيسة وقفت على قدر طاقتها أمام هذا الزحف المتواصل للتجريبيين الذين كانوا من كل حدب ينسلون . لكن الكنيسة لم تصمد حتى النهاية ولم تنصر من علماء المسلمين الذين تغيبوا عن الوجود ، أما اليهود فقد شارك بعضهم في صناعة هذا المذهب . فكان ما كان .

ولما استفاق علماء المسلمين من غفوتهم ، ومسحوا الكرى عن جفونهم ، وبدأ يسمع صوتهم ، كانوا من أكبر الدعاة لمذهب التجريبيين ونظرياتهم ، خاصة عندما استخدم علماء الشرع منهم آيات القرآن لتأكيد كل ما وسوس به الشيطان للتجريبيين ولأن المسلمين يجلون آيات القرآن ويحترمونها - شعوريا - فقد لاقت دعوة علمائهم قبولاً وانتشاراً ربما

أكثر مما حققه المذهب التجريبي في بلاده وصدق في علمـــاء المســلمين لا عوامـــهم قـــول رســـول الله ﷺ " لتتبعن سنن من قبلكـــم " .

وهذه بعض نمـــاذج لحـــال علمـــاء المســلمين الآن ، ســـواء منـــهم الشـــرعيين أم العلميـــين الأكـــاديميين . .

يقول أحد علمائنا المسلمين (الدكتور: مصطفي إبراهيـــم فـــهمي) في كتـــاب " علـــوم القـــرن الحادي والعشرين " : " هذه المجرة (درب التبانة) ليست سوى مجرة واحـــدة مـــن بلايـــين المجـــرات فيما يمكن رصده عن الكون ، فكيف يزعم أي مبدأ أن هذا البناء كلـــه إنمـــا يوجـــد مـــن أجلنـــا نحن في كوكبنا المتزوي هذا ؟ إن هذا الزعم فيه عجرفـــة وســـخف يذكـــران بالفلســـفات القديمـــة التي كانت تصمـــم على أن الإنســـان والأرض هما المحور والمركـــز ، وأن النجـــوم مجـــرد ثقـــوب صغيرة وضعت في السمـــاء ليبتهج الإنســـان بمرآهـــا " .

ولأقل كثيرا مما قال به الدكتور حكمت الكنيسة بالموت حرقـــاً علـــى أحـــد أتباعـــها وبـــأقل من هذا جداً كـــادت أن تعـــدم جـــاليليو . لأن هـــذه " العجرفـــة والســـخف " لم تقـــل بهمـــا الفلسفات القديمة إنما الذي اعتبر الإنسان محور الكـــون هـــو الديـــن والكتـــب السـماوية كلـــها ومنها القرآن الذي كثرت فيه الآيات التي تؤكد ذلك . يقول تعـــالى :﴿وَلَقَـدْ كَرَّمْنَـا بَنِـي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيـرٍ مِمَّـنْ خَلَقْنَـا تَفْضِيـلاً﴾ (الإسراء:٧٠) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُـمْ مَـا فِـي الأَرْضِ جَمِيعًـا﴾ (البقرة:٢٩) ﴿وَسَـخَّرَ لَكُـمْ مَـا فِي السَّمَـوَاتِ وَمَـا فِـي الأَرْضِ جَمِيعًـا مِنْـهُ﴾ (الجاثية:١٣) وغيرهـــا مـــن الآيـــات . وليســـت الفلسفات القديمة هي التي قالـــت " بأن النجوم وضعت في الســـماء ليبتـــهج الإنســـان بمرآهـــا " وإنما الذي قال ذلك هو الله في كل الكتب السماوية ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِـي السَّـمَاءِ بُرُوجًـا وَزَيَّنَّاهَـا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (الحجر:١٦) لم يتطاول جاليليو ولا جـــيردانو ولا غيرهمـــا إلى هـــذا الحـــد الـــذي حـــرك غيرة رجال الكنيسة على دينهم وكتبهم فقاموا ليـــذودوا عنـــه .

ومـــن حسن حظ الدكتور أن وُجد في وقت ليس فيه لرجال الكنيســـة حكـــم ولا ســـلطان . أما علماء الإسلام فلا شأن لهم بالدفاع عن الدين أو الكتب المقدسة ربما أنهم يظنون أن هـــذه المهمـــة ليســـت مـــن اختصاصـــهم وإن كـــان ســـلف الأمـــة علـــى مـــدار تـــاريخ الإســـلام كـــانوا يقومون بهذه المهمة تماما كرجال الكنيسة . وليت الأمر أقتصر على مجرد التخاذل وترك نصرة الديـــن وعدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بل أن الأمر وصل إلى حد أن علمـــاء المســلمين أنفســـهم

– خاصة علماء الشرع منهم – هم الذين يتالون من الدين ويتطاولون على الكتب المقدسة وأولها القرآن .

وقد ذكرنا ما قاله (عباس العقاد) في كتابه عن ما سماه بتطوير العقيدة الإلهية في حياة البشر من مرحلة التعدد إلى مرحلة التمييز والترجيح حتى وصلت إلى الوحدانية وهذا ما يتعارض مع القرآن والسنة وكل الكتب المقدسة وقد ذكرنا ذلك . وذكرنا العقاد لأنه يعتبر من أكبر رموز الفكر الإسلامي المعاصر .

(محمد الغزالي المتوفى سنة ١٩٩٧) وهو من رجال الدين الإسلامي ومن أكبر علماء الأزهر قال في كتابه (مائة سؤال وجواب في الإسلام) الجزء الأول صـ ٢٢٣ : " قال (يعني محاورة) : تعنى أن السموات السبع هذه الأفلاك ؟ قلت : لا أجزم بشيء في هذا ولا العلم يجزم هو الآخر بشيء عن حقيقة الفضاء وطبقاته الذاهبة مع الغيوب " ثم أضاف : " الذي أراه وأحسن به أننا نتحرك في إطار معين إذا تجاوزناه إلى أعلى أو إلى أدنى لم نصل إلى نهاية " .

والعبارة الأولى للغزالي رحمه الله ليست صحيحة فقد جزم علماء الإسلام (قبل عصر النهضة) بأن الأفلاك غير السموات ، أما أنه لا يجزم بشيء من ذلك فهذا شأنه وأما العبارة الثانية بالقول باللانهائية التي يعتقدها الغزالي فقد تحرج جاليليو من التصريح بها رغم اعتقاده بها ورغم جرأته على الدين ، وذلك لأن جيردانو أعدمته الكنيسة عندما قال ما قال الغزالي بالنص .

وطبعا لم يرد أحد من زملاءه علماء المسلمين ولم يجرؤ أحد على تصحيح هذا الخطأ للغزالي . وأرجو أن تشفع له حسن النية ، وإن كان ينبغي عليه كواحد من أكبر علماء الإسلام لهذا العصر أن يعلم أن السموات السبع ليست هذه الأفلاك وأن يرد على السائل بما هو معلوم من الدين بالضرورة . وثابت بالقرآن والسنة وإجماع علماء الإسلام . ولا شأن له بكلمة (العلم) الذي لم يجزم بشيء عن هذا الأمر لأن العلم الحديث لا يؤمن بالسموات السبع أصلاً .

وعلى هذا سار علماء المسلمين الذين ظهروا بعد عصر النهضة ، فقد وافقوا التجريبيين في كل ما ذهبوا إليه في العلوم الكونية ، ودون استثناء حتى في أسماء الله وصفاته التي هي من صميم العقيدة ، اتبعوهم ، وقالوا قولهم رغم مخالفتهم لصريح جميع الكتب السماوية .

وسنذكر هنا مقالتين ، واحدة لأحد التجريبيين (المؤمنين بوجود إله) ، والأخرى لأحد علماء ومفكري الإسلام ومن أنشط دعاة العصر الحديث :

أما المقالة الأولى فهي للأستاذ الدكتور (بول كلارنس ابرسولد) وردت بكتاب (الله يتجلى في عصر العلم) يقول الدكتور : " والحق أن التفكير المستقيم والاستدلال السليم يفرضان على عقولنا فكرة وجود الله . ولكن هل لله وجود ذاتي كما يعتقد الكثيرون ؟ أما وجهة نظر العلم (يقصد التجريبي) فإنني لا أستطيع أن أتصور الله تصوراً ذاتيا بحيث أن تدركه الأبصار أو أن يحل في مكان دون الآخر أو يجلس على كرسي أو العرش .

إن الكتب المقدسة عندما تصف لنا الإله وتتحدث عن ذاته وكنهه تستخدم كثير من الألفاظ الدنيوية التي نألفها في وصف حياة الإنسان ، ولكن الله تعالى كائن روحاني لطيف ، بل هو فوق ذلك إن كان وراء الروحانية من وراء في مرتبة الصعود . ولما كان إدراك كنه الله من الأمور الغامضة علينا فإننا لا نستطيع أن ندرك لماذا وجد الإنسان . أو لماذا وجد هذا الكون الذي لا يعدو أن يكون الإنسان ذرة ضئيلة من ذراته التي لا يحصيها عقل أو وصف " .

لقد أورد معدو كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) كلام الدكتور هذا الذي ذكرناه على أساس أن العلم يثبت وجود إله وإن هناك من العلماء من اقتنع بهذه الفكرة ولكن هل ما قاله الدكتور يعتبر قولا صحيحا بالنسبة للكتب السماوية ؟

إن الرجل يؤمن بوجود إله . لكنه لا يؤمن بصفاته الموجودة بالكتب المقدسة من أنه مستوٍ على العرش أو أن له كرسي يسع السموات والأرض .

كما يعترض العالم بأن لله صفات تتشابه في لفظها بما يطلق على الإنسان من السمع والبصر والعلم والقدرة والحكمة والتدبير وغيرها مما يوصف به الإنسان فالإله الذي يؤمن به لا يتحلى بهذه الصفات لأنه ليس شيئا ذاتيا أو ماديا ، بل هو شيء (هيولي) شيء لا يمكن أن نصفه بوصف كما نصف الإنسان . حتى لو كانت هذه الصفات قد وردت في الكتب السماوية .

إن هذه العقيدة لا تغني عن صاحبها شيئا ، لأنها مخالفة تماما لجميع الكتب السماوية التي لا يتقيد بها الرجل ولا يعترف بها لأن الكتب السماوية أثبتت أن الله تعالى مستوٍ على العرش وإن له كرسي ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه:٥) ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّموَاتِ

وَالْأَرْضَ﴾ (البقرة:٢٥٥) كما أثبتت الكتب السماوية لله صفات قد تتشابه ألفاظها مع ما يطلق على الإنسان لكن معناها مختلف تماما ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى:١١) .

أما المقالة الثانية فهي للأستاذ عبد الرازق نوفل (رحمه الله) من كتابه (السماء وأهل السماء) يقول رحمه الله منكراً على من يعتقدون أن الله في السماء : " من يدعو الله سبحانه وتعالى فيبسط يديه بالدعاء ويرفع بصره إلى السماء ، فكأنه بذلك يحدد مكان الله في السماء – دون قصد يقينا – فالله سبحانه وتعالى في كل مكان " .

هذه العقيدة في الله لا توجد في الدين الذي يدعو إليه الرجل ولا في أي كتاب منزل وقد كان يقول بذلك قديما رجال سماهم المسلمون آنذاك (المعطلة ، والمعتزلة ، والجهمية) الذين يقولون بأن الله تعالى يحل في كل مكان وفي كل شيء ، وقد كان علماء المسلمين يحكمون بردهم وكان رجال الكنيسة يكفرون من يعمم هذا الحلول في غير المسيح .

لكننا وصلنا الآن إلى زمن أصبحت هذه عقيدة المؤمنين بالله من سكان الأرض وأصبح الآن علماء المسلمين يدعون الناس بالإيمان بها ، أن الله تعالى ليس في السماء ولكنه في كل مكان ، وقد يعتبرون اعتراضي على هذا القول كفر مني وضلال . لأنني أعتقد وأقول بأن الله تعالى ليس في كل مكان بذاته ، ولكنه مستوٍ على عرشه بائن من خلقه ، هذه عقيدتي في الله التي أتمسك بها وأدعو الله أن أموت عليها .

الدين والعلم

" الدين يتعارض مع العلم " فرية افتراءها الملحدون من التجريبيين وهم يشكلون غالبية علماء هذا العصر . ولأنه لا يمكن الجمع بين الاثنين في منطقهم ، فقد اختاروا العلم وفضلوه على الدين وأعلنوا ذلك صراحة وبذلك ظهر المذهب الجديد (العلمانية) .

والمؤمنون بالله يوقنون بأن الدين لا يمكن أن يتعارض مع العلم ويوقنون بأن العلم (الصحيح) لا يمكن أن يتعارض مع الدين . وأعتقد أن هذا هو الإيمان الحقيقي ، ولو تعارض علم مع الدين أو العكس فالمؤمن يختار الدين والملحد سيختار العلم ، ليس حباً فيه ولكن حباً في الكفر .

وإنني كواحد من المؤمنين بالتوراة والإنجيل والقرآن جميعاً لدي هذا اليقين أن هذه الكتب الثلاثة لا تتعارض أبداً مع العلم ، وأن أي نظرية سليمة تثبت ستكون دون شك متوافقة مع هذه الكتب .

هناك فرق بين العلم والنظريات :

العلم هو ما علم بالفعل وثبت بطرق الإثبات ، ولم يعد سبيل إلى نقضه في أي وقت أو بأي وسيلة . وطرق الإثبات عديدة منها الحواس ومنها العقل ومنها التجربة ومنها الوحي . المهم في هذه الطرق كلها : الصدق . وأعلى هذه الطرق مرتبة هو الوحي .

فالأمور التي نسميها علماً وثبتت بطريق الإثبات من المستحيل أن تتعارض مع الدين . أما الأمور التي نسميها نظريات فإنها قد لا تكون علماً ثابتاً وإنما مجرد وجهات نظر . وقد نختلف معاً في أمر واحد ، ولا غضاضة بل لابد أن يحدث ذلك ، لأن عمر الإنسان قصير ، وقدراته محدودة ، والناس فيما بينها فضلا عن اختلاف القدرات مختلفة الأهواء ، فما أراه جميلا قد تراه أنت غير ذلك وما تراه أنت مفيدا قد أراه أنا غير ذلك .. وهكذا .

أما الحواس فقد تخدع ، وجميع طرق الإثبات ما عدا الوحي تعتمد على الحواس . فقد أقسم لك إنني شاهدت ماء في مكان ما وتكتشف أنت أنه سراب وتقسم أنت أنك شاهدت فلانا ثم لا يكون هو . وتقاطع فلانا لأنه مر أمامك وعينه في عينك ولم يبادلك التحية بينما هو يقسم أنه لم يرك وهو صادق رغم أن عينه فعلا وقعت عليك ، لشرود ذهنه مثلا أو ضعف بصره .. أو غير ذلك .

حتى الدراسات التي يجريها الباحثون والاستطلاعات والاستفتاءات كل ذلك قد يخلص الباحثون فيها إلى نتيجة خاطئة غير سليمة رغم أنها أجريت على آلاف من الناس .

إذاً فلو تعارض رأي إنسان أو وجهة نظره مع الدين فلا نكفر بالدين . ولكن نكفر بالنظرية أو الرأي أو التجربة أو المشاهدة لأن كل ذلك قد يكون فيه كذب أو خداع ولا نسميه أبدا علماً لأنه يتعارض مع الدين ، أما الوحي فإنه صادق .

والدين هو العلم . هذا بالنسبة للمؤمنين – لأن الله تعالى هو الخالق وهو العليم فإن ورد شيء عن طريق الوحي فهو العلم . حتى لو تعارض هذا مع بعض النظريات لأن الأخيرة مجرد نظريات اعتمدت على الحواس التي تخدع والناس التي قد تكذب أو تجامل أو تخالف .

فهل يمكن أن يكون هناك تعارض بين العلم والدين لو ثبت عن طريق الوحي أن الأرض ليست جزءاً من الشمس ؟

ليس هناك تعارض ، لأن العلم والحواس والتجربة والعقل لم يثبتوا أن الأرض جزء من الشمس ولم ير أحد من القائلين بهذه النظرية الأرض وهي تتكون .

ولو قال الوحي بأن الأرض ثابتة لا تدور فلا تعارض مع العلم لأنه لم يثبت بأي طريق من طرق الإثبات أنها تدور بل إن الحواس ترى الشمس هي التي تدور . ولم ير أحد الأرض وهي تدور فيخبرنا الخبر ... وهكذا ... ولا يخفي علي أحد أن ما نشاهده من دوران الكرة الأرضية في التليفزيون أو وسائل العرض المختلفة ما هو إلا من صنع الإنسان ذاته باستخدام أجهزة تقنية حديثة كالكمبيوتر وغيره . فالإيمان يقتضي إذاً أن اعتبر ما يتعارض مع الدين ليس علما . أما أن أكفر بالدين فهذا ليس حبا في العلم بل حبا في الكفر .

وهذا (ميريت ستانلى كونجدن) عالم طبيعي وفيلسوف يعترف ويقول :

" إن العلوم حقائق مختبرة ، ولكنها مع ذلك تتأثر بالخيال الإنساني وبأوهام الإنسان ومدى بعده عن الدقة في الملاحظة وعدم الدقة في أوصافه واستنتاجاته ونتائج العلوم مقبولة داخل هذه الحدود . فهي بذلك مقصورة على الميادين الكمية في الوصف والتنبؤ وهي تبدأ بالاحتمالات وتنتهي بالاحتمالات كذلك ، وليس باليقين . ونتائج العلوم بذلك تقريبية وعرضية للأخطاء المحتملة في القياس والمقارنات ، ونتائجها اجتهادية ، وقابلة للتعديل بالإضافة والحذف وليست نهائية . وإننا لنرى أن العالم عندما يصل إلى قانون أو نظرية يقول إن هذا هو ما وصلنا إليه حتى الآن ، ويترك الباب مفتوحا لما يستجد من التعديلات .

إن العلوم تبدأ بقضايا أو بديهيات مسلم بصحتها برغم أنها لا تستند على حقيقة فيزيائية ملموسة . وعلى ذلك فإن العلوم تقوم على أساس فلسفي . والخبرة الشخصية في العلوم كما في الفلسفة والدين هي المحك النهائي والملاذ الأخير الذي تختبر به جميع الحقائق في العلوم كما في الفلسفة والدين .

وبرغم أنه لابد أن تكون الحقائق والنظريات التي يصل إليها رجال العلوم قابلة للاختبار والتحقيق على أيدي غيرهم من العلماء فإن إدراكنا الشخصي للظواهر الطبيعة يعتبر أمرا نسبيا ويتوقف على ظروف خاصة بنا " .

كما يعترف الدكتور (بول كلارنس ابرسولد) كذلك بأن الحواس والتجارب والوسائل التي يتبعونها في معاملهم لا توصلهم إلى الحقيقة التي يفتقدها الإنسان فيقول : " وقد أدرك رجال العلوم أن وسائلهم وإن كانت تستطيع أن تبين لنا بشيء من الدقة والتفصيل كيف تحدث الأشياء فإنها لا تزال عاجزة كل العجز عن أن تبين لنا لماذا تحدث الأشياء " .

إن العلم والعقل الإنساني وحدهما لن يستطيعا أن يفسرا لنا : لماذا وجدت الذرات والنجوم والكواكب والحياة والإنسان بما أوتي من قدرة رائعة . وبرغم أن العلوم تستطيع أن

تقدم لنا نظريات قيمة عن السديم ومولـد المجرات والنجوم والـذرات وغيرها مـن العوالم الأخرى فإنها لا تستطيع أن تبين لنا مصدر المادة والطاقة التي اسـتخدمت في بنـاء هـذا الكـون ، أو لماذا اتخذ الكون صورته الحالية ونظامـه الحـالي " .

هذان اعترافان من قطبين من أقطاب العلوم التجريبية يشـهدان بـأن وسـائلهم لا توصـل إلى الحقيقة ، وعلى ذلك فيظل الإنسان في حاجة إلى الوحي ليعلـم ، ومفتقـر إلى الله ليعـرف .

غير أن علمـاء الأرض الآن .. إلا مـن رحـم ربـك - اسـتغنوا بعلومـهم ووسـائلهم ولم يعودوا بحاجة إلى الله ، كبرا وعلوا . رغم أن هؤلاء قـد رأوا بأنفسـهم آيـات الله ، ولابـد أنهم تيقنوا من قدرته تعالى ومن أنه الحق . يقول تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَـا فِـي الأَفَـاقِ وَفِـي أَنفُسِـهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَـقُّ﴾ (فصلت:٥٣) .

(إيرفنج وليام توبلوتش) دكتوراه في العلوم الطبيعية يكشف لنا عـن نفسـية بعـض زمـلاءه وشعورهم تجاه الدين فيقول : " يميل بعض المشـتغلين بـالعلوم - في ظـل ثقتـهم الكبـيرة ... إلى الاعتقاد بأن العلوم قادرة على حل جميع المشـكلات . فالحيـاة مـن وجهـة نظرهـم ليسـت إلا مجموعة من القوانين الطبيعية والكيماوية التي تعمل في مجال معـين . وقـد أخـذ هـؤلاء يفسـرون الظواهر الحيوية المختلفـة الواحـدة تلـو الأخـرى ، تفسـيرات تقـوم علـى إدراك السـبب والنتيجة ، والوجود من وجهة نظرهم لا يستهدف غاية وسوف ينتـهي الأمـر بعالمنـا إلى الـزوال عندما ينضب معين الطاقة الشمسية ، وتصـير جميـع الأجسـام هـامدة بـاردة ، تبعـاً لقوانـين الديناميكا الحراريـة " .

والرجل لم يكذب فيما قال ، وقد أوردنا أقوالا لمثل هؤلاء تبين مـا في نفوسـهم ﴿قَـدْ بَـدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُـمْ أَكْـبَرُ﴾ (آل عمران:١١٨) .

وانظروا إلى ما وصل إليه أحدهم من التطرف ، يقول برترانـد راسـل : " ليـس وراء نشـأة الإنسان غاية أو تدبير . إن نشأته وحياتـه وآمالـه ومخاوفـه وعواطفـه وعقـائده ، ليسـت إلا نتيجة لاجتماع ذرات جسمه عن طريق المصادفـة ولا تسـتطيع حماسـته أو بطولتـه أو فكـره أو شعوره أن تحول بينه وبين الموت . وجميع ما قام به الإنسان عبر الأجيـال مـن أعمـال فـذة ومـا اتصف به من ذكاء وإخلاص مصيره الفناء المرتبط بنهايـة المجموعـة الشمسـية ولابـد أن يدفـن جميع ما حققه الإنسان من نصر وما بناه من صروح المدنية تحـت أنقـاض هـذا الكـون إن هـذه الأمور جميعا حقائق لا تقوى فلسفة من الفلسفات علـى إنكارهـا " .

إن (برتراند) صاحب هذه النظرية وغيرها من النظريات ليلقى احتراما ومكانة بين علماء المسلمين تفوق ما يلقاه كثير من الأنبياء والمرسلين .

هذا هو حال كثير أو أغلب علماء هذا العصر من التجريبيين ، اغتروا بما معهم من وسائل وما وصلوا إليه من علوم ، هي في النهاية ومن وجهة نظر الإسلام ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ (النور:٣٩) وهي كذلك فعلا حتى عند النابهين من هؤلاء التجريبيين يقول إيرفنج وليام :

" إن العلوم مهتمة بتحسين نظرياتها ، وهي تحاول أن تكشف عن كنه الحقيقة ولكنها ، كلما اقتربت من هذين الهدفين زاد بعدها عنها . إن فكرتنا عن هذا الكون قائمة على أساس حواسنا القاصرة وعلى استخدام ما لدينا من الأدوات غير الدقيقة نسبيا " .

ثم قلة منهم هي التي شهدت بوجود الله ، لكن هذه القلة استنكفت أن تقيد نفسها بدين أو نحلة ، ومن أمثال هؤلاء " أينشتاين " الذي ذكرنا كلمته التي يعتبر فيها أن مجرد الشعور الديني دون التقيد بنحلة أو ملة غاية العبقرية وهو يدعو أن يقوم العلم والفن بإحياء هذا الشعور على الدوام عبر الأجيال .

يقول (جورج هربرت بلونت) كبير المهندسين بجامعة كاليفورنيا وأستاذ الفيزياء التطبيقية " مجرد الاقتناع بوجود الله ، لا يجعل الإنسان مؤمنا ، فبعض الناس يخشون من القيود التي يفرضها الاعتراف بوجود الله على حريتهم ، وليس هذا الخوف قائما على غير أساس فإننا نشاهد أن كثيرا من المذاهب المسيحية حتى تلك التي تعتبر مذاهب عظمى تفرض نوعا من الديكتاتورية على العقول . ولا شك أن هذه الديكتاتورية الفكرية إنما هي من صنع الإنسان ، وليست بالأمر اللازم في الدين ، فالإنجيل مثلا يسمح بالحرية الفكرية حينما يقول : " قال الرب : أقبل علينا ودعنا نفكر معا " ثم يقول مختتماً " وأعتقد إنني قد آمنت بالله بهذه الطريقة " .

وإنني أعتقد أن هذا هو إيمان معظم علماء العصر الذين يدينون بالعلمانية والذين تدرس أقوالهم ونظرياتهم في مدارس وجامعات المؤمنين بالكتب المقدسة .

القرآن والعلم

المؤمنون بالقرآن ، يعلمون جيدا أن القرآن يحض على العلم ، ويحث على التعليم ولا خوف من العلماء لأنهم كما قال : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر:٢٨) . أي أن

أكثر الناس خشية لله وتوقيرا له هم العلماء وفي الحديث الصحيح عن رسول الله " إن العالم أشد على الشيطان من ألف عابد " .

وعلى ذلك فالتجريبين ليسوا بعلماء لأنهم لا يخشون الله ، بل لا يؤمنون به . لذلك أجدني متحرجاً أن أذكرهم بلفظ العلماء . لأن العالم هو المؤمن بالله ، ولا يمكن أن يكون هؤلاء علماء ، ومن الخطأ إطلاق هذا اللفظ عليهم ، إن لم يكن أيضا مخالفة لقول الله هذا .

ولقد نبغ رجال أيام السلف في علم الفلك دون الدين ، فلم يسميهم الفقهاء بعلماء الفلك وإنما كانوا يلقبوهم بلفظ (أهل الهيئة) أي أهل الفلك . لأن العالم لابد أن يكون عالما بالله كأمر مسلم به .

إن أول آية وأول كلمة وردت في القرآن – الرسالة الأخيرة للبشر – الأمر بالتعليم قال تعالى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (سورة:العلق) . بل إن الآية رقم ٩ من سورة الزمر لم تسو بين المؤمنين في المكانة بل فرقت بينهم ، يقول تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة:١١) . وأخبر الله تعالى المؤمنين بأنه أنعم على آدم أبي البشر بالعلم قبل أن يترل إلى الأرض ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة:٣١) هكذا فعل تعالى مع أول الأنبياء وأما آخر الأنبياء فقد أوحي إليه ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه:١١٤) ولم يوحي إليه أن يطلب الزيادة في شيء إلا في العلم ، ولذلك قال ﷺ " طلب العلم فريضة على كل مسلم " . وقال " من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة " . والآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي توصى وترغب في العلم وتعلي مكانة العلماء أكثر من أن تحصى ، فكيف يقال بعد ذلك أن الدين يتناقض مع العلم .

الحق أن الذي أتى به العلمانيون والتجريبيون لا يسمى علماً ، لأنه لا يعد علماً ، وأقولها وأعلنها لكل أهل الأرض : أن كل علوم العصر منذ بداية عصر النهضة إلى الآن باطلة ، ولا تمت للحقيقة بصلة ، أعنى بذلك العلوم الكونية . أما غيرها من العلوم فإني أشهد لهم بها ، ولم لا أشهد وقد شهد الله لهم بذلك حيث قال تعالى ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم:٧) . فهم علماء في الماديات المتعلقة بالحياة الدنيا ومتعتها ووسائل عمرانها وزخارفها ، فهم عالمون في الهندسة والرياضة والمواصلات والاتصالات والكيمياء

والكهرباتيات والأدوات المنزلية ، وعموما كل ما هو متعلق بشئون دنياهم ووسائل تمتعهم بها ورغم ذلك فهم لا يعدون من العالمين فقد وصفهم الله تعالى بأنهم ﴿غَافِلُونَ﴾ .

أكرر : كل علوم أهل الغرب أو الشرق المتعلقة بالكونيات : باطلة .

لذلك فإنني اتباعا لأمر الله وآياته أطلق لفظ العالم على علماء الدين . أما أهل المعامل والتجارب فأسميهم (التجريبيون) . فالأولون أتباع الوحي الإلهي والآخرون أتباع التجارب المعملية ، ثم هناك أهل التفكير العقلي وهم (الفلاسفة) .

وعلى الرغم من كل ما أوتيَ هؤلاء من وسائل وتقدم في الآلات والأجهزة وعلى ما عندهم من كم هائل من المعارف على ما فيها من الغث والسمين ، والنافع والضار ، فإنهم لا يقدرون على تخطئة الكتب المقدسة أو يثبتون تناقضها مع الدين ، لأن العلم الثابت لا يتناقض البتة مع الدين ، إنما التناقض بينه وبين نظرياتهم الكونية الخاطئة .

يؤيدني في ذلك عالم الرياضيات والفيزياء (ايرل تشستر ريكسى) بقوله : " إنني أجد بوصفي من المشتغلين بالعلوم أن النتائج التي وصلت إليها بدراستي العلمية عن الكون وعن الله تتفق كل الاتفاق مع الكتب المقدسة التي أؤمن بها وأعتقد في صدق ما جاءت به عن نشأة الكون وتوجيه الله له وقد يرجع ما نشاهده أحيانا من التعارض بين ما توصلت إليه العلوم وبين ما جاء في هذه الكتب المقدسة إلى نقص في معلوماتنا " .

" والنظريات الحديثة التي تفسر نشأه الكون والسيطرة عليه بصورة تخالف ما جاء في الكتب السماوية ، تعجز عن تفسير جميع الحقائق وتزج بنفسها في ظلمات اللبس والغموض . وإنني شخصياً أؤمن بوجود الله وأعتقد في سيطرته على هذا الكون " .

حقا إن النظريات الحديثة التي تفسر الكون والسيطرة عليه تخالف ما جاء في الكتب السماوية ، وكنت أود لو درس المنصفون من أتباع عيسى روح الله أو موسى كليم الله القرآن الكريم ، نعم وددت لو درسوه دراسة الرسالات العلمية التي يناقشونها فلو كان ذلك قد تم لما كانت النظريات الحديثة بهذه المخالفة الصارخة للدين ، ذلك أن نص الإنجيل ونص التوراة الموجودان الآن بأيدي الناس ليس فيهما هذه الاستفاضة التي في القرآن من علوم ومعارف هذا العصر .

كذلك لا يشك منصف أن بعض آيات الكتابين لحقهما تأليف وتحريف ، ليس من أبناء هذا العصر ، ولكن ذلك منذ قرون عديدة ، قرون قريبة من نشأة الكتابين .

أما القرآن فهو الكتاب الوحيد الذي لا يحتوى على حرف من كلام البشر ، وليس ذلك بسبب حرص المسلمين على سلامة نصه ، لا.. لا .. فلو ترك الأمر لهم ، للحقه تحريف وتأليف أضعاف الموجود الآن بالعهدين القديم والجديد ، هذا إن بقيت منه آيات على هيئتها التي أنزلت بها من عند الله . ولكن عناية الله سبقت ، ورحمته حفظت . قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩) .

كنت أود أن يفعل علماء الغرب ذلك ، وأن يدرسوا سنة رسول الله ﷺ وتراث المسلمين . ولو فعلوا ذلك لغيروا من العلوم والمعارف الموجودة الآن أما لو كان للإسلام علماء لقاموا هم بذلك .. ولكن أين هم الآن ؟

إن بيلاد الإسلام كثير من الأسماء التي تسمى بالعلماء ، وهناك مئات الآلاف في ربوع الأرض يحفظون القرآن عن ظهر قلب ، بينما كان في عصر رسول ﷺ عدد من يحفظون القرآن أربعة ، ليس أربعة آلاف بل أربع رجال فقط ومع ذلك كان كل الرجال والنساء في عهده ﷺ علماء .

أما الآن فهذه الآلاف التي تحفظ القرآن لا يطلق عليهم علماء . وإلا لكان لدى المسلمين مئات الآلاف من العلماء ، ولما أصبح حالهم هذا الحال . حفظة القرآن الآن يتبعون برتراند رسل وهيكسلي وجيمس جينز وجاليليو ونيوتن وأينشتاين . فما فائدة القرآن الذي معهم ؟

لقد أخبر الله تعالى بأن هذا القرآن نور ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ (التغابن:٨) وأخبر تعالى بأن الذين كذبوا به في الظلمات ، وأخبرنا تعالى بأنه جازى الذين كفروا بهذا النور بأنه ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾ (البقرة:١٧) .

أليس هذا كلام الله ؟ أليست هذه آيات الله ؟ هل يعقل أن الذين يحملون النور يسيرون وراء الذين تركهم الله في ظلمات لا يبصرون ؟ هل يعقل هذا ؟

أو ليس هذا هو الذي يحدث من كل من نطلق عليهم علماء ، سواء أكانوا في الكيمياء ، أو الطبيعة ، أو الفلك ، أو الرياضيات ، أو الزراعة ، أو الجغرافيا ، أو الفلسفة أو المنطق أو القانون أو التاريخ ، أو العلوم الشرعية الإسلامية ، هل هناك علم من هذه العلوم أو غيرها لا يتبع الرؤوس فيها والأساتذة نظريات علماء الغرب ؟ يا رباه .. كيف يسير حاملو النور خلف الذين لا يبصرون ؟ أنه لأمر عجاب !!

كيف يتبع المؤمنون الكافرين ويسايرونهم ؟ هل هؤلاء الذين ذكرنا أسماءهم من علماء الغرب يؤمنون بالقرآن ؟ هل يؤمنون بالإسلام ؟ هل يؤمنون بمحمد ﷺ ؟ إنهم ﴿فِي ظُلُمَاتٍ لاَيُبْصِرُونَ﴾ (البقرة:١٧) لقد وصف الله تعالى هؤلاء وصفا دقيقاً في سورة (النور) حتى نعرفهم ونعلم أمرهم ومدى علمهم وحقيقة أعمالهم . يقول تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠)﴾ فماذا نقول الآن عن علمائنا في كل مجال الذين يتبعون هؤلاء ، وكلهم يفعل ذلك دون استثناء ؟ماذا يفعل العوام والجهلة الذين أحالهم الله إلى هؤلاء العلماء ليتعلموا منهم فقال : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٤٣) .

أخرج الإمام أحمد بإسناده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم يهتدي بها في ظلمات البر والبحر فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة " .

وكما أن انطماس النجوم من علامات القيامة فذهاب العلم كذلك من علاماتها روى البخاري عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : " إن من أشراط الساعة ، أن يرفع العلم ويثبت الجهل ، ويشرب الخمر ، ويظهر الزنا " وروي البخاري أيضا عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا " .

وأحسب أن نبوءة رسول الله ﷺ قد تحققت ونحن الآن نعيش فعلا مقدمات يوم القيامة . وإلا فأين هم العلماء المتبعين لكتاب الله وسنة رسوله ؟ أين علماء الإسلام الذين يوجهون علماء الغرب إلى الصواب لأن معهم النور؟ .. أين هم ؟

سأل (فرقد السبخي) الحسن البصري عن شيء فأجابه فقال : " إن العلماء يخالفونك " فقال الحسن البصري : " ثكلتك أمك فريقد ، وهل رأيت عالما بعينك ؟ إنما العالم الزاهد في الدنيا ، الراغب في الآخرة ، البصير بدينه ، المداوم علي عبادة ربه ، الكاف عن أعراض المسلمين ، العفيف عن أموالهم الناصح لجماعتهم " .

ترى أيها السادة : هل ترون علماء ؟؟

عموما سنتغاضى عن التعريف الدقيق للفظ العالم وسنعتبر من نراهم حولنا فعلا علماء ، عليهم إذاً قدر استطاعتهم أن يخرجوا بنا من الظلمات إلى النور ، ولا يتبعون الذين لا يبصرون .

تلفيق لا توفيق

كما ذكرنا أن مجرد الإيمان بوجود الله لا يعتبر إيمانا ، وأن الإيمان الذي ينفع صاحبه ، لابد أن يكون كما يريد الله لا كما يريد المؤمن ، والله تعالى يريد من المؤمنين به أن يلتزموا التزاما كاملا بكلامه ، وأن يتبعوا آياته ، وفي نفس الوقت لا يتبعون غيرها ، بل إنه تعالى حذر الذين لا يستجيبون لكلامه أنه سوف يستبدلهم بغيرهم . وهو تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وليس فيما طلبه الله مشقة على الأنفس ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة:١٨٥) ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ (النساء:٢٨) فإذا ما اتبع المؤمنون آيات الله نالوا رضاه ، ليس من المهم بعد ذلك أن يذنبوا أو يخطئوا فإنه تعالى سيغفر لهم إن تابوا .

المهم اتباع منهج الله يقول تعالى في سورة النساء ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا(٦٤) فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ .

إن الله تعالى يقسم ﴿فَلا وَرَبِّكَ﴾ إنهم لا يؤمنون ولا يعتبرون مؤمنين إلا إذا كمل إيمانهم باتباعهم لرسول الله ﷺ ورضاهم بما يقول ويأمر ، وتسليم أمرهم تماما لله .

لقد وصل الحال بعلماء الأرض الآن إلى أنهم اغتروا بمجرد الاعتراف بوجود الله . أو بمجرد الإيمان بأن محمدا رسول الله والقرآن كتاب الله وكفي وكأنهم يمنون على الله بإيمانهم . إن الله تعالى لا يريد من عباده أن يمنوا عليه بإيمانهم ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ (الحجرات:١٧) إنه يريد عبادا متعلقة أرواحهم به تعالى ، خالصة قلوبهم بحبه ، متذللة أجسادهم بعبادته ، مطيعين لأوامره ، مستمسكين بكتابه ، متبعين لآياته ، يرجون رحمته ويخافون عذابه وليس مجرد شعارات تردد وكلمات يلقى بها . ولا يريد من أوليائه أن يكلفوا أنفسهم ما لا يطيقون ، ولا فيما أمر مفرطون أو مفرِّطون . ولا يريد من الدعاة إلى دينه أن يسلكوا في الدعوة إليه سبيلا غير السبيل الذي حدده لهم ودون تملق لأحد أو مداهنة أو تنازل عن مبدأ لقبول مبدأ

آخر ، وهو تعالى يأمر الدعاة أن يدعوا الناس ليسلموا له دون قيد أو شرط ، لأن الإسلام حق له تعالى ، ثم إن فيه سعادة للناس وخير في الدنيا والآخرة .

وإن الداعية مطالب ببذل عناية ، وليس بتحقيق غاية . والقاعدة الإلهية تنص على ﴿إِنَّكَ لاتَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص:٥٦) . غير أن علماء المسلمين وأقول حرصا منهم على الدين ، راحوا ينشرون ويدرسون مبادئ (إسحاق نيوتن) في الجاذبية ، ونظرية (تشارلز دارون) في النشوء والارتقاء و(ألبرت أينشتاين) في قانونه للنسبية ، وهذه كلها ما وضعت إلا لمعارضة الدين ، وقد أقنع هؤلاء وغيرهم أهل الأرض أن الكون مرتبط بقوانين ثابتة ، تتحرك في نطاقها الأجرام السماوية وكل شيء في الكون من الأرض إلى السماء خاضع لقانون معلوم سموه (قانون الطبيعة) وإن الكون لا يحتاج – لقيامه بهذه القوانين – لإله يحكمه ويحركه .

ولم يبق لعلماء الدين ما يقولونه بعد هذا الكشف غير أن الله هو المحرك الأول لهذا الكون . أما علماء الدين الإسلامي فقد وجدوا ما يقولونه غير المحرك الأول فقالوا : إن هذه *النظريات كلها مذكورة في قرآنهم ، الذي نزل قبل طرح هذه النظريات بعدة قرون* . وهذا قول غير صحيح فكل النظريات الموجودة الآن وحتى نهاية هذا القرن (العشرين) يكذبها القرآن . كذلك تكذبها جميع الكتب السماوية . وهذا أمر منطقي لأن أصحاب هذه النظريات لم يضعوها إلا ليعارضوا بها الدين .

وقد شهدوا هم بذلك واعترفوا فقال (تاس ديودباركس) : " لقد أجمع علماء هذا العصر على نظرية النشوء والارتقاء وقد بدأت هذه النظرية تسود فعلا جميع فروع العلوم الحديثة ، فكل مشكلة تحتاج (إلها) في تفسيرها توضع مكانه – أي مكان الإله – هذه النظرية بغير تردد " .

بينما يقول (أرثركيث) ليكشف سر هذا الإجماع أيضا : " إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميا ، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان ونحن لا نؤمن بها ، إلا أن الخيار الوحيد بعد ذلك هو (الإيمان بالخالق الخاص المباشر) وهذا مالا يمكن حتى التفكير فيه " .

كيف إذاً نقول بأن هذه النظريات متوافقة مع الكتب المقدسة وهي – كلها – لم توضع إلا لنقض الدين ؟

في شجاعة يعترف العالم المسلم (وحيد الدين خـــان) ويقـــول في كتـــاب (الإســـلام يتحـــدى) أنه وقع في هذا الخطأ عندما كان يحـــاضر في إحـــدى الجامعـــات باســـتعراض نظريـــة علميـــة أراد إثبات توافق الدين معها وأشار إلى مقال لفرويد فقال : " فوقـــف أســـتاذ لعلـــم النفـــس ، أثنـــاء فترة الأسئلة وقال : لقد أشرتم إلى مقال لفرويد تأييداً لنظرية دينية ، علـــى حـــين يعـــارض فرويـــد معارضة كاملة تلك النظرية التي تمثلونهـــا " .

إن هذا النهج سلكه علماء المسلمين الآن ، يســـتدلون علـــى أمـــور دينيـــة بـــأقوال لرجـــال تجريبيين ، بينما هؤلاء يعارضون الدين بالكلية ، بل إن ما قالوا به كـــان بديـــلاً عـــن الديـــن كمـــا رأينـــا .

ولم يترك علماء المسلمين نظرية من النظريـــات إلا أتـــوا بهـــا وعرضوهـــا كثبـــت علمـــي ثم جاءوا بآيات ما على أنها سبق ديني . وهكذا توافقت جميع النظريـــات ، مـــا ثبـــت منـــها ومـــا لم يثبت مع قرآنهم . ولا أجد وصفا أصف به هذه الجريمة أدق من أنهم فعلـــوا نفـــس جريمـــة علمـــاء أهل الكتاب من قبلهم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ (النساء:٤٦) كمـــا أخـــبر عنـــهم القـــرآن وكانوا هم الذين عناهم ﷺ بنبوءته " لتتبعن ســـنن مـــن قبلكـــم ، شـــبرا بشـــبر وذراعـــاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه " قـــالوا : اليـــهود والنصـــارى يـــا رســـول الله ؟ قال : " فمن " وكنت جهلا مني أظن ذلك في عـــوام المســـلمين ولم يخطـــر ببـــالي أن العلماء أيضا بل ربما هم فقط المعنيـــون بـــالحديث ، غـــير أني وجـــدت البليـــة أعظـــم وأن المعنيين أصلاً هم العلماء . لأنهم يتبعون في العبادات ، أمـــا العـــوام فيتبعـــون في العـــادات . والأولى أدهى وأمـــر .

ونجح التجريبيون في أن يجعلوا علماء المسلمين – وهم أهـــل الذكـــر الذيـــن أحالنـــا الله إليهم ليعلمونا ويفهمونا – يتبعوهم ، ثم يقوم الآخـــرون بإقنـــاع جماهـــيرهم بـــأن تكتفـــي بأخذ ما أتى به الغرب من نظريات ولا داعـــي للتعـــب والنصـــب . ونســـخوا آيـــات الله لتتفق مع هذه النظريات ، وحرفوا معانيـــها .

أليست كارثة أن نقرأ هذا التلفيق . يقول بعض علمائنـــا الأفـــاضل : أن العلـــم أثبـــت أن الشمس ستكف عن إرسال أشعتها بعـــد ٥٠ بليـــون ســـنة وأن الأرض ســـتكف عـــن الدوران عند ذلك . ويقولون : وهكذا أثبت العلـــم الحديـــث أن هـــذا الكـــون ســـينتهي وهو ما أخبر عنه القرآن منذ أكثر من ألف وأربعمائـــة ســـنة .

هل يعقل هذا ؟ هل قال الدين ذلك ؟ إن هذا تكذيبا صريحا لله تعالى الذي قال ﴿اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ﴾ (القمر:١) ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ (النحل:١) ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء:١) . هذا مثال .. وغيره كثير .

والغريب أننا لم نسمع أن أحدهم مرة واحدة استخرج من القرآن حقيقة علمية يجهلها الناس ثم يثبتها العلم بعد ذلك ، بل إنهم يقفون بالمرصاد لأي نظرية تقال ويستخرجون لها بعد ذلك ما يثبتها ويؤيدها من القرآن .

ويحلل (وحيد الدين خان) ما يقوم به علمائنا فيقول :

" هناك من علمائنا من يدركون موقف الفكر الحديث من قضية الدين ولكنهم لشدة تأثرهم بالفكر الحديث ، يرون أن كل ما توصل إليه أئمة الغرب يعد من (المسلمات العلمية) ومن ثم تقتصر بطولاتهم على أساس أن هذه النظريات التي قالها علماء الغرب هي نفس ما ورد بالقرآن الكريم ، وكتب الأحاديث الأخرى ، وهذه الطريقة في التطبيق والتوفيق بين القرآن وغيره هي نفس الطريقة التي تتبعها شعوب الحضارات المقهورة تجاه الحضارات القاهرة وأية نظرية تقدم على هذا النحو يمكنها أن تكون تابعة ولكنها لا يمكن أن تكون رائد ولو خيل إلى أحدنا أنه يستطيع تغيير مجال الفكر في العالم بمثل هذه المحاولات التوفيقية ، ليشرق على البشرية نور الحق فهو هائم ولا شك في عالم خيالي ، لا يمت إلى الحقائق بسبب ، فإن الأفكار والمعتقدات لا تأتى من طريق التلفيق . بل عن طريق الثورة الفكرية " .

وسنرى في طيات هذا الكتاب العجب العجاب من التلفيق والتوفيق بين نظريات هذا العصر والقرآن .

الكتب المقدسة والمعطيات العلمية

ليس معنى قولنا بتناقض النظريات المعاصرة مع الكتب المقدسة أن هذه الكتب لا تحتوى على علوم ومعارف كونية . بل الأمر عكس ذلك تماما فكل ما في السموات والأرض مذكور في الكتب من بداية الخلق حتى نهايته . بل فيها علم عن ما فوق السموات حتى العرش وما تحت الأرض حتى أسفل سافلين .

وقد عاتبت علماء الغرب من المؤمنين أنهم لم يتناولوا بالدراسة الكتاب الأخير الذي أنزله الله على محمد . ولو كانوا فعلوا ذلك لتغيرت نظريات كثيرة من المعروضة علينا الآن ، وقد قام واحد فقط من هؤلاء العلماء ، ليس فقط بدراسة القرآن ، بل وأيضا بمقارنته مع الكتب المقدسة الأولى ، ثم بمقارنتهم جميعا مع المعطيات العلمية الحديثة ، وسأورد خلاصة ما توصل

إليه العالم ليس لاتفاقي الكامل معه ، بل لانفراده وريادتـــه لهـــذا النـــهج الـــذي كـــان ينبغـــي أن يفعله من يريد العلم والوصول إلى الحقــــائق .

(موريس بوكاي) عالم فرنسي شـــهير . قـــال في مقدمـــة كتابـــه القيـــم : (دراســـة الكتـــب المقدسة في ضوء المعارف العلمية الحديثـــة) :

" لقد كانت مقابلة النصوص للكتب المقدســـة أمـــر لازم لصحـــة النـــص المقـــدس ، ولكـــن تطور العلم كشف للمفكرين عن وجود نقاط خلاف بين الاثنـــين وبهـــذه الطريقـــة خلـــق ذلـــك الوضع الخطير الذي جعل اليوم مفســـري التـــوراة والإنجيـــل ، ينـــاصبون العلمـــاء العـــداء إذ لا يمكن في الحقيقة أن نقبل بأن رسالة إلهية منزلة تنص على واقع غـــير صحيـــح بـــالمرة " .

أما عن الإسلام كرسالة فيقول بوكـــاي :

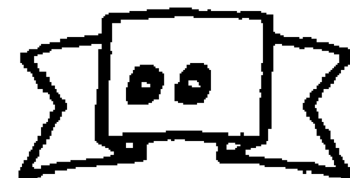
" إن الإسلام قد اعتبر دائما ، أن هنـــاك اتفاقـــا بـــين معطيـــات الكتـــاب المقـــدس والواقـــع العلمي . وإن دراسة نص القرآن في العصر الحديث لم تكشف عـــن الحاجـــة إلى إعـــادة النظـــر في هذا . فالقرآن يثير وقائع ذات صفة علميـــة ، وهـــي وقـــائع كثـــيرة جـــداً ، خلافـــاً لقلتـــها في التوراة ، إذ ليس هناك أي وجه للمقارنة بين القليل جـــدا لمـــا أثارتـــه التـــوراة مـــن الأمـــور ذات الصفة العلمية وبين تعدد وكثرة الموضوعات ذات السمة العلميـــة في القـــرآن ، وأنـــه لا يتـــاقض موضوع ما من مواضيع القرآن العلمية مع وجهة النظر العلمية . وتلـــك هـــي النتيجـــة الأساســـية التي تخرج بها دراســـتنا " .

يقول أيضـــا :

" إن الدراسة التي نقدمها الآن تختص بما تنبئنا بـــه الكتـــب المقدســـة فيمـــا يتعلـــق بـــالظواهر الطبيعية الكثيرة ولابد من الملاحظة أن الوحي القرآني غنى جداً في تعـــدد هـــذه المواضـــع وذلـــك على خلاف ندرتها في العهدين القـــديم والجديـــد " .

ثم يذكر ما توصل إليه من دراسته قـــائلا :

" لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم وذلـــك دون أي فكـــر مســـبق وبموضوعيـــة تامـــة ، باحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيـــات العلـــم الحديـــث . وكنـــت أعـــرف قبـــل هـــذه الـــدراسة أن القرآن يذكر أنواعا كثيرة من الظواهر الطبيعية لكن معرفـــتي كـــانت وجـــيزة .



وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي علي أي مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم ، في العصر الحديث .

وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والإنجيل ، أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول أي سفر التكوين ، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخا في عصرنا وأما بالنسبة للأناجيل فما نكاد أن نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة في مواجهة مشكلة خطيرة ونعنى بها شجرة أنساب المسيح . ذلك أن نص إنجيل (متى) يناقض بشكل جلى إنجيل (لوقا) ، وإن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمرا لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض .

غير أن وجود هذه الأمور المتناقضة وتلك التي لا يحتملها التصديق ، وتلك الأخرى التي لا تتفق مع العلم ، لا يبدو لي أنها تستطيع أن تضعف الإيمان بالله ولا تقع المسئولية فيها إلا على البشر " .

ثم وصل (بوكاي) إلى القرآن . وبعد دراسته الدراسة المستفيضة التي بلغت به إلى أن يتعلم اللغة العربية حتى يفهم النص القرآني من مصدره دون الاعتماد على الترجمات حتى أنه سافر إلى مهبط الوحي ليتحرى الدقة في المعلومات فقال :

" الواقع أننا إذا استثنينا اليوم بعض الحالات النادرة نجد أن غالبية العلماء وقد تشربوا النظريات المادية لا يكنون في غالب الأحيان إلا عدم الاكتراث أو الاحتقار للمسائل الدينية . وكثيرا ما يعتبرونها مؤسسة على أساطير . وزيادة على ذلك فإننا ، عندما نتحدث في بلادنا الغربية عن العلم والدين نغفل ضم الإسلام إلى اليهودية والمسيحية . فالأحكام غير الصحيحة والمؤسسة على مفاهيم مغلوطة والتي صدرت ضد الإسلام هي من الكثرة بحيث يصعب جدا علي المرء أن يكون فكرة سليمة عما عليه الإسلام في الواقع " .

ثم خلص بوكاي من دراسته للقرآن ومقارنته مع المفاهيم العلمية الحديثة إلى أن قال :

" وتناولت القرآن منتبها بشكل خاص إلى الوصف الذي يعطيه عن حشد كبير من الظاهرات الطبيعية . لقد أذهلتني دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات وهي لا يمكن أن تدرك إلا

في النص الأصلي . أذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكـــها اليـــوم عـــن نفـــس هـــذه الظـــاهرات والتي لم يكن ممكناً لأي إنسان في عصر محمد ﷺ أن يكـــون عنـــها أدنى فكـــرة .

إن أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه هـــذا النـــص لأول مـــرة هـــو ثـــراء الموضوعـــات المعالجة ، فهناك : الخلق وعلم الفلـــك وعـــرض لبعـــض الموضوعـــات الخاصـــة بـــالأرض وعـــالم الحيوان وعالم النبات والتناسل الإنساني وعلى حين نجد في التـــوراة أخطـــاء علميـــة ضخمـــة .. لا نكتشف في القرآن أي خطأ . وقد دفعـــني ذلـــك لأن أتســـاءل : " لـــو كـــان كـــاتب القـــرآن إنسانا ، كيف استطاع في القرن السابع الميـــلادي المســـيحي أن يكتـــب مـــا اتضـــح أنـــه يتفق اليوم مع المعارف العلميـــة الحديثـــة ؟ " .

وعن صحة نص القرآن يقول (موريس بوكاي) : " صحـــة القـــرآن التـــي لا تقبـــل الجـــدل تعطي النص مكانة خاصة بين كتب التـــنزيل ولا يشـــترك مـــع نـــص القـــرآن فـــي هـــذه الصحة لا العهد القديم ولا العـــهد الجديـــد " .

ومع تقديري الشديد لإجراء الأستاذ بوكاي لهذه المقارنـــة الفريـــدة ومـــا توصـــل إليـــه مـــن نتائج فإنني لا أوافقه على التسليم بأن القرآن متفق تمامـــا مـــع المعطيـــات العلميـــة الحديثـــة ، ولا أن التوراة والإنجيل مختلفة تماما معها ، فيما هو متعلق بالعلوم الكونية وســـنرى مـــا يؤيـــد ذلـــك . وبالطبع ليس الخطأ في القرآن أو التوراة أو الإنجيل بـــل .. في العلـــوم الحديثـــة .

القرآن تبيان لكل شيء

لقد عمل علماء الإسلام المعاصرين علـــى أن يقنعـــوني والنـــاس أجمعـــين بـــأن القـــرآن تـــابع لعلماء الغرب ومؤيدهم – على كفرهم – فيما يقولـــون ، ولكنـــني والحمـــد لله لم أقتنـــع . لقـــد وصف الله تعالى الذين كذبوا بآياته وبرسوله – والتجريبيـــين منـــهم – بـــأنهم :

غافلون ، لا يعلمـــون ، لا يبصـــرون ، لا يفقـــهون ، لا يوعـــون ، هكـــذا وصفـــهم الله في القرآن . وأخبر تعالى أنهم يعيشون في الظلمـــات ، وأن أعمـــالهم كســـراب .

وصرف الله تعالى أمثال هؤلاء عن آياته فـــلا يســـتفيدون منـــها .. ولا يعلمـــون فمـــن ثم لا أقتنع أبدا – ولو اقتنع أهل الأرض – أن هـــؤلاء والقـــرآن يتوافقـــون .

ومع ما يقوله الله تعالى عنهم فكيف ، وبأي عقل تنطبق آيـــات الله مـــع علومـــهم ؟

عقيدتي التي أرجو أن يكون عليها آخرون ، أن القرآن لديـــه رؤيـــة صادقـــة وصحيحـــة عـــن الكون تختلف جملة وتفصيلا عن ما يقولـــه الآن علمـــاء الأرض .

وعقيدتي أن القرآن فيه كل شـــيء عـــن هـــذا الكـــون مفصـــلاً تفصيـــلاً دون إبهـــام ودون غموض ، وأنه يعطي الباحثين عن الحقيقة ما يريدون ماداموا يريـــدون اتبـــاع آيـــات الله ، وليـــس مجرد الرغبة في حفظه ، لأن القرآن أنزله الله ليتبع ويعمل به : ومن أجـــل ذلـــك فصّـــل الله آياتـــه تفصيـــلاً .

هذا هو دور الكتاب الذي أنزله الله تعالى ، العليـــم الخبـــير ، علـــى عبـــاده ﴿وَأَنزَلْنَـــا إِلَيْـــكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّـــرُونَ﴾ (النحل:٤٤) ﴿وَمَـــا أَنزَلْنَـــا عَلَيْـــكَ الْكِتَـــابَ إِلا لِتُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (النحل:٦٤) ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًـــا لِكُـــلِّ شَـــيْءٍ﴾ (النحل:٨٩) أمـــا أن يكون الغرض من القرآن أن يقرأ في السرادقات على الأمـــوات . أو أن يعلـــق علـــى صـــدور الكاســـيات العاريـــات ، أو علـــى الجـــدران في البيـــوت والمحـــلات ، أو خلـــف الراكبـــين في السيارات ، أو يترنم ببعض آياته في الافتتاحيـــات ، أو يتـــبرك بـــه في المناســـبات أو حـــتى تـــردد آياته في الصلوات ، أو يتثبت من صدقه بتطابقه مع النظريـــات ، كـــل هـــذا ليـــس دور الكتـــاب ولا له نـــزل .

لقد صرف الكتاب عما أنزل له ، واقتصر دوره علـــى هـــذه الأمـــور . والأصـــل أنـــه نـــزل لتتبع آياته ويعمل بما فيها ، فالإتباع هو المهمة الأساسية والجوهريـــة مـــن الكتـــاب ، ومـــن أجـــل ذلك جاء أن الكتاب ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ ونـــزل الوحـــي علـــى رســـول الله ﷺ بتفســـير لكـــل شيء . وعلم الصحابة منه كل شـــيء .

ومن قال بأن الرسول ﷺ لم يفسر القرآن فقـــد كـــذب علـــى الله واتهـــم رســـول الله بعـــدم تبليغ الرسالة وأداء الأمانة ولم يفعل ما أمره الله به يقـــول تعـــالى ﴿وَأَنزَلْنَـــا إِلَيْـــكَ الذِّكْـــرَ لِتُبَيِّـــنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون﴾ (النحل:٤٤) وقال : ﴿وَمَا أَنزَلْنَـــا عَلَيْـــكَ الْكِتَـــابَ إِلا لِتُبَيِّـــنَ لَهُمْ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (النحل:٦٤) فالذكر في الآية الأولى غير الكتـــاب في الآيـــة الثانيـــة . فيكـــون معنى الذكر في الآية الأولي : ما أوحاه الله تعالى لرســـوله مـــن أحـــاديث نطـــق بهـــا ، فقـــد بـــين رسول الله ﷺ ما أبهم فهمه على بعض الناس بما أنزله الله عليه من الذكـــر وهـــي الأحـــاديث .

وقد يقول البعض أن الكتاب إنما نزل للتعبد ومن ثم فليـــس مـــن الضـــرورة أن يحتـــوى علـــى علوم الفلك والهندسة والفيزياء والزراعة والطب .. وغيرها ، وهـــذا لأن القـــرآن رســـالة تعبديـــة فلا ينتظر أن يعطينا أي قواعد تتعلق بهـــذه العلـــوم .

إن الآيات التي بين أيدينا تفيد أن الله تعالى فصل كل شيء ، وبين كـــل شـــيء هكـــذا تقـــول الآيات ، وهو ما يفهم منها أيضا ولذا يقـــول تعـــالى :

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:١)
﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:٢)
﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(النحل:٨٩)
﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلا﴾ (الإسراء:١٢) .

إذاً فالله تعالى لم يحدد في الكتاب أنه فصل أمور العبادة والتقرب فقط ، فالآيات تطلق التفصيل والتبيين ، وكذلك أحاديث النبي ﷺ مفصلة ومبينة كذلك . لكن ترى أيكون كل ما في الكون من كبير وصغير ، وجليل وحقير ، وحلال وحرام ، وخير وشر، وفنون وعلوم ، وأفعال وأسماء ، وأحداث وتاريخ ، كل ذلك مبين في كتاب الله ؟

إن الآيات مطلقة . لكن ما قول علماء المسلمين والمفسرين في هذه الآيات ؟

قال الشوكاني في تفسير قوله تعالى ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلا﴾ أي كل ما تفتقرون إليه في أمر دينكم ودنياكم بيناه تبينا واضحا لا يلتبس . وعند ذلك تزاح العلل وتزول الأعذار ليهلك من هلك عن بينة .

وعن معنى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ قال : ومعنى كونه تبيانا لكل شيء أن فيه البيان لكثير من الأحكام والإحالة فيما بقي منها على السنة وأمرهم بإتباع رسوله ﷺ فيما يأتي من أحكام وطاعته ، كما في الآيات القرآنية الدالة على ذلك . وقد صح عنه ﷺ أنه قال : " إني أوتيت القرآن ومثله معه " .

فتفسير الآية الأولى يدل على أن الله تعالى فصل في كتابه وفي سنة رسوله كل ما يحتاج إليه الناس في دنياهم وآخرتهم ، حيث يقعون في الحرج والضيق والمشقة والاختلاف لو تخلف بيان شيء مما يفتقرون إليه .

والآية الثانية تفيد أن الكتاب والسنة بينا كل الأحكام ، التي يحتاج إليها الناس ولكن هذا البيان سيكون فيه ﴿هُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وخص المسلمين بهذه الثلاثة لأنهم هم المنتفعون بهذا التفصيل وهذا البيان . غير أن الله تعالى في عدة آيات يبين أن هذا التفصيل ليس لعموم الناس وإنما لفئات معينة حددها تعالى في آياته وهم وحدهم الذين يفهمون هذا التفصيل بإعمال القلب والفكر والتدبر حتى تستخلص الآيات والمنافع أياً كانت .

وقد حدد الله سبعة أصناف إذا وجدت فسيكون كل شيء مفصلا لهم وهم : (العلماء ، الفقهاء ، المؤمنون ، والمذكرون ، المفكرون ، العاقلون ، المتقون) فهؤلاء السبعة فقط هم الذين يتفهمون تفصيل الآيات :

(١) ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُــــونَ﴾ (الأنعام:٩٧)

(٢) ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيات لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (الأنعام: ٩٨)

(٣) ﴿بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:٥٢)

(٤) ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيات لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (الأنعام:١٢٦)

(٥) ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس:٢٤)

(٦) ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الروم:٢٨)

(٧) ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَــــوَاتِ وَالأَرْضِ لآيات لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ (يونس:٦) .

فإذا توافرت صفة من هذه في أحد فلا شك أن آيات الله في الكتاب وفي الكون ستكون مفصلـــة مبينة له . ولكن لأي أمر فصل الله آياته وبينها هذا البيان الشامل ؟ إنه تعالى أراد بأن يستفاد من هــذه الآيات في الدنيا ويستفاد بها للآخرة . المهم أن تكون الغاية في سبيل الله ، لأنه تعالى ما أوجد خلقـه إلا ليعبدوه : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إلا لِيَعْبُدُون﴾ (الذاريات:٥٦) ويقول تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُــكِي وَمَحْيَاي وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٢) . فلا تكون الآيات مفصلة ومبينه لأمور يعمـــل بهــا في الترف أو السرف ، أو الشر أو الضر . قال تعالى عن علة تفصيل الآيــات : ﴿وَلَعَلَّــهُمْ يَرْجِعُــونَ﴾ (الأعراف:١٧٤) . بعد قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس:٢٤) ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُـــمْ تُوقِنُونَ﴾ (الرعد:٢) بعد قوله تعالى ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأنعام:٥٥) . والمتبع للآيات الواردة قبل قوله تعالى ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ﴾ (الأنعام:١٢٦) أو ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّــلُ الآيَاتِ﴾ (الأنعام:٥٥) يجد أن الله تعالى لم يدع شيئا مما يهم الإنســان إلا وفصله وبينه تبياناً .

بعد ذلك يتملكنا العجب من قوم بين أيديهم آيات مفصلة لكل شيء ومبينـــــه لكـــل شـــيء ثم يتسولون العلوم والمعارف ممن أخبر تعالى أنه سيصرفهم عن آياته ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَــبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف:١٤٦) .

أليـــس من العجب أن أقواما بين أيديهم نور ومن خلفهم نور وعن يمينـــــهم نـــور وعـــن شمائلــــهم نور ومن فوقهم نور ومن تحتهم نور ويلتمسون العلم والنـــور ممـــن يعيشـــون في الظلمـــات ؟ لقـــد سمى الله كتابهم (نور) ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُـــورًا مُبِينًــا﴾ (النساء:١٧٤) وسمـــى رســـولهم (نـــور) ﴿قَـــدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة:١٥) ودينـــهم (نـــور) ﴿وَيُخْرِجُـــهُمْ مِـــنَ الظُّلُمَـــاتِ إِلَـــى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ (المائدة:١٦) وطريقهم (نور) ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَـــا لَــهُ نُــورًا يَمْشِــي بِــهِ

فِي النَّاسِ﴾ (الأنعام:١٢٢) وربهم تعالى (نور) ﴿اللَّـهُ نُـورُ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (النور:٣٥) . أما هؤلاء الذين يلتمسون منهم العلم والنور هم في الحقيقة الأكيدة في الظلمات : ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَـاتِ﴾ (الأنعام:٣٩) .

إن كل علم يأتي من غير المؤمنين هو في الحقيقة جهل وضلال وكذب . وكل ما يتخيل أنه نور هو في الحقيقة وهم وسراب . وكل اتباع لمثل هذا يقابله ترك لآيات الله . وكل عدم إتباع يقابله ابتداع وفي الحديث " كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار " .

أناشد المؤمنين بالله الواحد الأحد الفرد الصمد ، وخاصة العلماء ، أن يكفوا عن إتباع صناع عصر الإلحاد ، وإلا فإنهم سيتبرءون منهم يوم القيامة . وأن يكفوا عن عمليات التوفيق بين ما يسمونه علما ، وبين آيات القرآن العظيم لأن ذلك حقيقة تلفيق لا توفيق ، ولا تستوي الظلمات والنور .

* * * * *

علماؤنا الأجلاء :

خذوا ما آتاكم الله بقوة ، وكفى تميعاً لقضايا الدين .. وانتبهوا أيها السادة للأمر الجلل الذي أنيط بكم وأنتم ورثة الأنبياء ، وأنتم الذين أحالنا الله إليكم في فهم ديننا ودنيانا حيث قال تعالى : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٤٣) فاتقوا الله فينا نحن (الأميون) .

وأذكركم والذكرى تنفع المؤمنين : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾ (آل عمران:١٨٧) . وأحذركم أن تفعلوا فعل من قبلكم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ (المائدة:١٣) وأعتذر إليكم .. إن كان في كلامي جرأة فما هو إلا حماس الشباب ، حيث لم أنل بعد حكمة الشيوخ . ولم أحظ بعلوم أهل الأزهر الكرام ، ولم أتمرس في معامل ومختبرات الأكاديميين ، غير إن الغيرة على الدين ، والنصح للمؤمنين ، هما سبب ارتفاع صوتي عليكم وليس هذا من أدب الدين وهذا من قلة حيلتي وبضاعتي المزجاة .

واستأذن أساتذتي العلماء في كل جنبات الأرض أن أعرض على سكان الأرض كيف بدء الخلق كما ورد في الكتب المقدسة والسنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ . وأقوال الصحابة والتابعين وتابعي التابعين . وما ورد بحضارات السابقين وهذا الذي سيطوح بكل نظريات العصر الحديث .

* * * * *

الباب الأول

بدء الخلق

ففي البدء كـــان الله

ولم يكن شيء قبلـــه ..

ولم يكن شيء معـــه ..

ولم يكن شيء غـــيره ..

وكان عرشه على المـــاء ،

وكتب في الذكر كل شــــيء

وخلق الســـموات والأرض .

روى البخاري عن عمران بن الحصين رضي الله عنهما قال : دخلت على النبي ﷺ ، وعقلت ناقتي بالباب ، فأتاه ناس من بنى تميم فقال : " اقبلوا البشرى يا بني تميم " قالوا : بشرتنا فاعطنا (مرتين) . ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال : " اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إن لم يقبلها بنو تميم " قالوا : قد قبلنا يا رسول الله . قالوا : جئنا نسألك عن هذا الأمر . قال " كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض " فنادى مناد : ذهبت ناقتك يا بن الحصين . فانطلقت فإذا هي يقطع من دونها السراب . فوالله لوددت أني كنت تركتها .

يروى البخاري ، وهو أوثق جامع لأحاديث الرسول الصحيحة ، هذا الحديث الذي مع عمران بن الحصين أحد صحابة النبي ﷺ بأنه دخل عليه ذات يوم بعدما ربط ناقته أمام الباب ، وبينما هو جالس إذ جاء ناس من بنى تميم عندما بدأ رسول الله يحدث الحاضرين عن بدء الخلق والعرش فقال لوفد بنى تميم " اقبلوا البشرى " أي اقبلوا منى ما يقتضي لو عملتم به أن تنالوا الجنة . ويبدو أن الوفد لم يبد اهتماما بهذا الأمر ، على الرغم من جلالته ، مما غير وجه رسول الله ﷺ أسفا عليهم لإيثارهم الدنيا فلما جاء أهل اليمن ، قال لهم مثل قوله لوفد بنى تميم ، فقبلوا البشرى وأظهروا اهتمامهم بالأمر ، بل إنهم صرحوا له أنهم جاءوا من بلادهم ليتعلموا العلم وخاصة السؤال عن امر الخلق والعرش الذي توافق أن النبي ﷺ كان يتحدث فيه . فقالوا : قد قبلنا وقد جئناك نسألك عن هذا الأمر ، أي الذي تتحدث فيه الآن . فقال ﷺ :

" كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض " عند هذا الحد سمع عمران بن الحصين . راوي الحديث مناديا ينادى من الخارج : ذهبت ناقتك يا بن الحصين فانطلق عمران ليدرك ناقته التي تفلتت وشردت بعيدا كبعد السراب لمن يراه . ولما عاد عمران مرة أخرى إلى مجلسه ، كان رسول الله ﷺ قد أنتهي من حديثه فندم عمران على قيامه وقال : فوالله لوددت أني كنت تركتها . أي ذهبت ولم أقم . تأسفا على ما فاته من العلم في هذا الأمر الذي في سبيله قدم وفد اليمن من بلادهم إلى المدينة ليسألوا عن بدء الخلق ، والعرش ، وما شابه ذلك .

إلى هذا الحد بلغ الحرص بهؤلاء أن يقطع قوم شهراً ذهابا ومثله إيابا من اليمن إلى المدينة ليسألوا في هذا الأمر . وإلى أن يتمنى الرجل أن يفقد ناقته وهي من كرائم أموالهم في مقابل ألا يفوته هذا الباب من العلم . وقد تكرر شرح هذا الأمر من رسول الله ﷺ بعد ذلك أكثر

من مرة ، لتشوق الناس إلى معرفته ولأداء المهمة المنيطة به . وقد بلغ من عظم الأمر ، ولرغبة الناس في المعرفة أنه ﷺ خطبهم يوما كاملا لا يقطعه إلا الصلاة فحدثهم عن كل شيء متعلق بأمور الخلق .

روى مسلم وأحمد عن أبي زيد الأنصاري قال : " صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح ثم صعد على المنبر فخطبنا حتى حضرت صلاة الظهر ، ثم نزل فصلى صلاة الظهر ، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت صلاة العصر ، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غابت الشمس ، فحدثنا بما كان وما هو كائن ، فأعلمنا احفظنا " .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : " قام فينا رسول الله ﷺ مقاما فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة ، وأهل النار منازلهم ، حفظ ذلك من حفظ ونسيه من نسيه " رواه البخاري .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : " توفى رسول الله ﷺ وما طائر يطير بجناحيه إلا اذكرنا منه علماً " رواه البخاري .

إن هذه الآثار تخبرنا أن رسول الله ﷺ أخبر الصحابة بكل شيء في الكون منذ بدء الخلق حتى دخول الجنة أو دخول النار . واستفاضة الأحاديث تدلنا على أن هذا الإخبار تم في أكثر من مرة وأكثر من مناسبة ، منه مرة خطبهم يوما كاملا فحدثهم عن كل شيء . ونقل الصحابة للتابعين ما حفظوه ، ونقلوه جيلا بعد جيل ، وأثبتوا ما علموه في الكتب والمصنفات . وهذه الأحاديث ما هي إلا شرحا وتبياناً لآيات القرآن الكريم . وأصبح لدى المسلمين ذخيرة كبيرة من العلوم والمعارف عن الكون وما فيه . فلماذا إذن نستورد علوم الكون من الكافرين ؟

إن نظرة في بضع ورقات من أي كتاب لعالم من علماء الإسلام في قرونه الأولى تعطى علماً لا يبلغ بكل رحلات الفضاء .

ولقد شجعت الآيات المستفيضة المؤمنين والكافرين على السواء أن ينظروا في السماء ، ويسيروا في الأرض ويتفكروا في أنفسهم ليعلموا أن الله هو الحق المبين ، وأن هذا الخلق خلقه ، وأن كل شيء يأتمر بأمره ، وأنه على كل شيء قدير وأن كل ما في الكون يشهد بذلك .

كان المسلمون الأوائل يسألون رسول الله ﷺ أسئلة عن السموات والأرض ، وعن بدء الخلق . غير أن المسلمين اليوم أحجموا أن يسألوا مثل هذه الأسئلة من ضمن الكم لهائل من

المسائل التي يستفتون فيها ، إنهم لا يقربون بفكرهم ولا أسئلتهم إلى هذه المنطقة (بدء الخلق) و(أول الأمر) و(السموات والأرض) و(العرش) وليس ذلك لأن السؤال فيها محرم بل عكس ذلك هو الصحيح ، ولكن منعهم من ذلك الآن أمران :

الأول : أن علماء الفلك – مسلمين وغيرهم – صوروا للناس كوناً لا نهائياً وفضاء ما بعده فضاء وأن التفكير في أجرام السماء ضرب من الخبل والجنون فأين تذهب في هذه البلايين المبلينة التي يلقى بها المتخصصون في علم الفلك والمحتكرون لعلم السماء من أحجام ، وأبعاد وأعداد للأجرام السماوية . وهذه البلايين لا يغرمها أحد ولا يحاسب عليها أحد ، وإنما هي تلقى جزافاً ، الغرض منها عندما تسمعها ترباً بعقلك من الخوض فيها . استطاع التجريبيون أن يبلغوا بالناس عموما والمؤمنين منهم خصوصاً أن ينزهوا عقولهم من الغياب في متاهات الفضاء ، ولوجه الله نقول أن علماء المسلمين شاركوا في هذا الإثم بتعطيلهم أعظم عبادة للإنسان وهي التفكر في آيات الله والنظر في السماء ، ونسخوا العمل بكل الآيات المتعلقة بهذا الأمر كقوله تعالى :

(١) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل:عمران)

(٢) ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأعراف ١٨٥)

(٣) ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس:١٠١)

(٤) ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (ق:٦)

(٥) ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (نوح)

(٦) ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (الغاشية)

(٧) ﴿إِن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الجاثية:٣) .

هل يزعم أحد أن هذه العبادة تمارس الآن من قبل المؤمنين ، وهل يزعم أحد أن كتب الفلك تقرأ من غير المتخصصين .

إن صفحة السماء أصبحت بعد عصر النهضة تيه لا يدركه العقل ولا يطيق النظر فيه . فضلا عن التأمل . وقد نصحت من بعض الناصحين بعدم قراءة كتب الفلك حفاظاً على

عقلي ، وأشفق البعض على حالي لأنني بــالتطلع في الســماء ، أســافر إلى المجــهول ، وأحلــق في اللامحدود . والبلايين المليئة تحاصرني من كــل مكــان .

لقد كانت السماء فيما سبق متعـــة للنــاظرين ، وواحــة للحــائرين ، ومرشــداً للتائــهين ، وهداية للضالين ، ومحرابا للضالين وعلما لنســـائلين ، وملتقــىً للعاشــقين ، وإلهامــا للحــالمين ، وشغلا للمــــهمومين ، وقســماً للحــالفين ، ومقياســاً للمحبــين ، وملــهىً للســاهرين وملجــأ للمكروبين ، وقبلة للمؤمنين وأنيســـا للمســافرين ، وزينــة للنــاظرين ، وســاحة للمســبحين ، ورجما للشــياطين .

كان ذلك قديمــاً ..

أما الآن فأصبحت السماء مستعمرة للروس والأمريكيين . ومـــن ثم منــع عنــها مــن ذكرنــا من السابقين ، واستثنوا فئة واحدة هم الســادة الفضــائيين ، وبذلــك أغلقــت أبــواب الســماء تقريبا إلى يوم الدين . ولا حول ولا قوة الا بالله العلـــي العظيــم .

الأمر الثاني: الذي منع الناس من النظر في ملكوت السموات والأرض الهم شغلوا بزينة الأرض ، التي أصبحت من الكثرة والافتتان ، والسحر والاستحواذ درجه يستخسرون فيها رفع رؤسهم إلى الســماء ولو لمحظه . ولقد ملئت البيوت بالشواغل والملهيات لم تدع بعدها مجالا ولا فرصة للسماء . وزاد من حجب المنع تلك الأضواء المبهرة خاصة في المدن والتي حالت رؤية السماء بعد ما هتكت سترها .

لقد كان السابقون الأولون للإسلام شغوفين بمعرفــة الأشــياء الــتي تقشــعر أبداننــا لمجــرد التفكير فيها . وما أوصلنا إلى ذلك إلا التجريبيون واتباعهم من علمــاء المســلمين الذيــن بــاعدوا بيننا وبين هذه الأشياء بملايين السنين الضوئية لا بل باعدوا بيننــا وبــين أقــرب النجــوم إلينــا ، فهل يعقل أن نسأل فيما هو أبعد من ذلـــك ؟

لذلك كان الأعراب من المســلمين الأوائــل أعلــم بعلــوم الكــون مــن جــاليليو ونيوتــن وأينشتاين فما بالنا بالصحابـــة ؟

يقول مسروق (أحد تلاميذ ابن عباس) ما سئل أصحــاب محمــد عــن شــيء إلا وعلمــه في القرآن ولكن علمنا قصر عنـــه .

هكذا كانت معرفة الصحابة والسلف بعلوم الكون ، وكانوا يتحدثــون فيــها لمــن بعدهــم ، وتناقلها الأجيال جيلا بعد جيل . حتى انتهي الحديث في هذا العلـــم الآن واصبــح حكــرا علــى المتخصصين الغربيين . ولم يعد بيننا من يسأل عن هذه الأمـــور ولا يمكــن أن يســمع شــيء مــن ذلك في وسائل الإعلام بل ولا حــتى الكتــب الدينيــة الــتي اقتصــرت الآن علــى الحديــث في

السحر والحسد والجن والقبر والدجال والموت إلى آخر هـــذه الأمـــور ، ولـــو ذكـــر شـــيء مـــن علوم الكون فإنما يذكر أقوال التجريبين فيها والمخالفـــة جميعـــها للحـــق .

أما أن يذكر الآن شيء عن بدء الخلق برؤيـــة دينيـــة ، أو يذكـــر شـــيء عـــن الســـموات أو العرش أو الكرسي ، أو الاستواء أو شيء من هذه الأمور الـــتي كـــان الأولـــون علـــى اســـتعداد للتضحية بنفيس أموالهم في سبيل معرفتها.. فهذا لا يكـــون . فـــهناك اتفـــاق تـــام بـــين المســـلمين الآن ألاّ تذكر على الإطلاق هذه الأمـــور .

ومنذ عصر النهضة حتى الآن لم يكتب في هذه الأمـــور كتابـــا ، ولم تقـــال مقالـــة ، ولم يذكـــر حديث ، مما يعد الآن فرضا على المؤمنين أن يقوم منهم مـــن يذكـــر النـــاس بهـــذا العلـــم قبـــل أن يندثر ، وهو من أهم أمور العقيدة ، رغم عـــدم حـــرص النـــاس علـــى هـــذه العلـــوم وزهدهـــم الشديد في إدراكـــها .

ونظرا لهذا الفرض ولخطورة الأمر فأننا سنذكر في بحثنا هذا ، حقيقـــة هـــذه العلـــوم الكونيـــة التي تخالف تماما النظريات الموجودة الآن في كتب أهل الأرض والتي هم علـــى قناعـــة كاملـــة بهـــا لأنها من الغرب المتقـــدم .

وما سنطرحه بين يدي المسلمين هي الرؤية الدينية للعلـــوم الكونيـــة الـــتي وردت في القـــرآن والسنة ولذلك فسنعتمد بإذن الله على هذين المصدريـــن وعلـــى إجمـــاع علمـــاء المســـلمين قبـــل عصر الإلحاد أو ما تسمونه أنتم بعصر النهضة . وكذلك الكتـــاب المقـــدس والله يـــهدى إلى الحـــق وإلي سواء الســـبيل .

* * * * *

العـــرش

عندما سئل ﷺ ، أين كـــان ربنـــا قبـــل أن يخلـــق الســـموات والأرض ؟ وفي حديـــث آخـــر بصيغة أخرى : قبل أن يخلق خلقـــه ؟

قال : " كان في عماء ما فوقه هواء ، وما تحته هواء ثم خلق عرشـــه علـــى المـــاء " .

روى ذلك أحمد بن حنبل ، وابن ماجه ، وأخرجه الـــترمذي وقـــال حديـــث حســـن ومعـــنى الهواء هنا : الفراغ والفضاء والخـــواء .

وجمهور العلماء على أن العرش هو أول مخلوقـــات الله ، لهـــذا الحديـــث ولمـــا رواه مســـلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال : " كتـــب الله مقـــادير الخلائـــق قبـــل أن يخلـــق الســـموات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال : وكان عرشه علـــى المـــاء " . وفي حديـــث البخـــاري المذكـــور آنفا عن عمران ، ترتيب المخلوقات " كان عرشـــه على المـــاء وكتـــب في الذكـــر كـــل شـــيء ثم خلق السموات والأرض " . أما ابـــن جريـــر فقـــد حكـــى عـــن أصحـــاب رســـول الله ﷺ أن بعضهم قال " إن الله كان عرشه على الماء ولم يخلق شيء قبـــل المـــاء " .

قدر العرش :

لا يقدر قدره إلا الله ، وقـــد وردت آيـــات وأحـــاديث وأقـــوال للصحابـــة تصـــف عظمـــة العرش ، وقد وردت (٥) آيات تصف العرش منـــها(٣) آيـــات تصفـــه بالعظمـــة ﴿رَبُّ الْعَـــرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (النمل:٢٦) وآية واحـــدة ﴿هُـــوَ رَبُّ الْعَـــرْشِ الْكَـــرِيمِ﴾ (المؤمنـــون:١١٦) وآيـــة أخـــرى ﴿ذو الْعَرْشِ الْمَجِيـــدُ﴾ (البروج:١٥) . وقـــال تعـــالى عـــن كرسـيه ﴿وَسِـــعَ كُرْسِـــيُّهُ السَّمَـــــوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ (البقرة:٢٥٥) وقال أبو ذر عن العرش : " ما الكرسي في العـــرش إلا كحلقـــة مـــن حديـــد ألقيت بين ظهري فلاة مـــن الأرض " أي أن هـــذا الكرســـي الـــذي يســـع الســـموات والأرض نسبته إلى العرش كنسبة الحلقة الحديد في وســـط أرض فضـــاء .

ووصف العرش بالعظمة لأنه أعظـــم المخلوقـــات .

زنة العرش :

ثبت في صحيح مسلم عن (جويرية بنـــت الحـــارث) : أن النـــبي ﷺ دخـــل عليـــها وكـــانت تسبح بالحصى من صلاة الصبح إلى وقت الضحى فقال : " لقد قلت بعـــدك أربـــع كلمـــات لـــو وزنت بما قلتيه لوزنتـــهم :

سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله رضى نفسه ، سبحان الله مداد كلماته " . وهنا يبين أن زنة العرش أثقل الأوزان .

حملة العرش :

ذكر الغزالي في مكاشفة القلوب : عن ابن عباس : أن الله تعالى لما خلق حملة العرش قال لهم " احملوا عرشي " فلم يطيقوا . فخلق لكل واحد منهم مثل قوة من في السموات السبع من الملائكة فقال : " احملوا عرشي " فلم يطيقوا . فخلق لكل واحد منهم مثل قوة ما خلق في السموات من ملائكة ومن في الأرض من الخلق ، وقال : " احملوا عرشي " فلم يطيقوا . فقال : " قولوا لا حول ولا قوة إلا بالله " فلما قالوها ، حملوه فنفذت أقدامهم في الأرض السابعة على متن الريح فلما لم تستقر أقدامهم على شيء تمسكوا بالعرش ، ولم يفتروا عن قولهم : " لا حول ولا قوة إلا بالله " خيفة أن ينقلب أحدهم ، فلا يعرف أين يهوى فهم حاملون العرش ، وهو حاملهم ، والكل محمول بالقدرة .

يقول تعالى : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ (غافر:٧) فأثبت للعرش حملة . وفي سورة الحاقة أثبت عددهم ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (الحاقة:١٧) .

قال شهر بن حوشب : أربعة منهم يقولون " سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك " . وأربعة يقولون : " سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك " .

وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال : " أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش ، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام " .

وفي رواية أخرى له ، ولأبي حاتم قال " مخفق الطير سبعمائة عام " .

صفة العرش :

قال البيهقي في (الأسماء والصفات) : اتفقت الأقاويل على أن العرش هو سرير الملك . وأنه جسم خلقه الله . وأمر ملائكته بحمله ، وتعبدهم بتعظيمه والطواف به . كما خلق في الأرض بيتاً وأمر بني آدم بالطواف به . واستقباله في الصلاة .

وقال قتادة وغير واحد من العلماء : " إن العرش من ياقوتة حمراء " وقال ابن حجر شارح صحيح البخاري : " إن العرش خلق مخلوق تحمله الملائكة فلا يستحيل أن يماسوا العرش إذا حملوه ، وإن كان حامل العرش وحامل حملته هو : الله " .

العرش مقبب :

روى أبو داود عن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال :

أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال : يا رسول الله ، جهدت الأنفس ، وجاعت العيال ونهكت الأموال ، وهلكت الأنعام ، فاستسق الله لنا ، فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك .

قال رسول الله ﷺ : " ويحك أتدرى ما تقول " وسبح رسول الله ﷺ فمازال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه . ثم قال : " ويحك أتدرى ما الله ؟ إن عرشه على سمواته لهكذا " وقال بأصابعه مثل القبة عليه " وأنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب " قال أبو داود والحديث صحيح .

وقال ابن بشار : " إن الله فوق عرشه ، وعرشه فوق سماواته ، وسماواته فوق أرضه " .

وفي حديث آخر : " إن أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش وهو تسبيحه وتعظيمه " وما ذاك إلا لقربهم منه .

فالعرش كالقبة على العالم وهو سقف المخلوقات . ثبت في صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال : " إذا سألتم الله الجنة ، فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة وفوقه عرش الرحمن " .

قال ابن مسعود : " إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه " وقد كان من دعاء النبي : " أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات " .

قال ابن تيمية : " والعرش مقبب ، وأنه أوسط الجنة وأعلاها هو الفردوس وإن فوقه عرش الرحمن . والأوسط لا يكون الأعلى إلا في المستدير . وهو كالقبة ، مثل أن وجه الأرض فوق النصف الأعلى من الأرض ، وإن لم يكن محيطا بذلك " .

وقال ابن كثير في تفسيره : " العرش مقبب كما روى في السنن ولم يثبت أنه مستدير ، كما أن له قوائم ، كما جاء في صحيح البخاري ومسلم عن أبي سعيد قال جاء رجل من اليهود إلى رسول الله ﷺ قد لطم وجهه فقال : يا محمد إن رجلا من أصحابك لطم وجهي .

فقال النبي ﷺ " ادعوه " فدعوه . فقـــال : " لم لطمــت وجهــه ؟ " قــال : يــا رســول الله إني مررت بالسوق وهو يقول : والذي اصطفي موسى علــى البشــر . فقلــت :

يا خبيث وعلى محمد ؟ فأخذتني غضبه فلطمته . فقال النــبي ﷺ : " لا تخـيروا بـين الأنبيــاء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فــإذا بموســى ، آخــذ بقائمــة مــن قوائــم العرش . فلا أدرى أفاق قبلي أم جوزي بصعقـــة الطــور " .

مسافة العرش :

ذكر ابن كثير ، وغير واحد من المفسرين في قوله تعالى ﴿تَعرُجُ الملائكة وَالــرُّوحُ إِلَيْــهِ فِــي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج :٤) قالوا: أنه بُعد ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة . واتساعه خمسون ألف سنة .

عندما اهتز العرش :

اتفق المسلمون على ما وردهم من العلم أن العــرش هــو أعظــم المخلوقــات وأثقلــها وأنــه سقف المخلوقات ، وعلى عظمته هذه وثقله ومكانتــه فإنــه اهــتز مــرة لمــوت أحــد أصحــاب رسول الله ﷺ أنه (سعد بن معاذ) الذي مات بعد غزوة الأحزاب على أثــر جــرح أصيــب بــه في هذه الغزوة وقد كان هذا الشاب ذو مكانة عند الله ورسوله وكان له كبــير فضــل علــى دعــوة الإسلام . وهو الذي نزل المهاجرون من مكة في حمــاه وفي ضيافتــه بالمدينــة . ورغــم أن رســول الله كان من شدة حبه له يطببه بنفسه في مسجده إلا أنــه في الليــل نــزل جـبريل عليــه الســلام وسأل محمداً عليه الصلاة والسلام : " من رجل من أمتك مات هذه الليلـــة استبشــر بموتــه أهــل السماء ؟ " ولم يدر ﷺ إلا ومناديا ينادى : " ألا إن ســعدا قــد مــات " .

وسجلت كتب الأحاديث هذا الحدث الجلل ، عندما قال ﷺ للنـــاس : " لقــد اهــتز عــرش الرحمن لموت سعد بن معاذ " . وعندما شعر المشيعون بخفـــة جنازتــه أخــبرهم ﷺ بمــا رواه عنــه الترمذي " إن الملائكة كانت تحملـــه " .

أما كيفية هذا الاهتزاز .. فلا يعلمــه إلا الله تعــالى .

أمور متعلقة بالعرش :

يقول تعالى ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ (هود:٧) قال ابــن عبــاس إنمــا سمــى العــرش عرشــاً لارتفاعه . ولما سئل على أي شيء كان الماء ؟ قال : علــى مــتن الريــح .

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : " الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلني وصله الله ، ومن قطعني قطعه الله " .

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله قال : " لما قضى الله الخلق كتب في كتابه ، فهو عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي " .

أدعية بذكر العرش :

في سنن أبي داود والترمذي بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : " من عاد (زار) مريضا لم يحضر أجله فقال عنده سبع مرات : " أسأل الله العظيم .. رب العرش العظيم .. أن يشفيك " إلا عافاه الله سبحانه وتعالى من ذلك المرض " .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " من قال في كل يوم حين يصبح وحين يمسي : حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات كفاه الله تعالى ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة " رواه مسلم .

وفي كتاب ابن السني عن طلق بن حبيب قال : جاء رجل إلى أبي الدرداء فقال : يا أبا الدرداء قد احترق بيتك فقال ما احترق . ما كان الله ليفعل ذلك بكلمات سمعتهن من رسول الله ﷺ من قالها أول نهاره لم تصبه مصيبة حتى يمسي ، ومن قالها آخر النهار لم تصبه مصيبة حتى يصبح : " اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم . ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . أعلم أن الله على كل شيء قدير . وأن الله قد أحاط بكل شيء علما . اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها . إن ربي على صراط مستقيم " وقد قلتها اليوم . ثم قال : انهضوا بنا . فقام وقاموا معه فانتهوا إلى داره وقد احترق ما حولها ولم يُصيبها شيء .

الكرسي

إن أعظم آيه في القرآن هي آية الكرسي ، ويعلم المسلمون ذلك مما ورد عن رسول الله ﷺ ، بل إن من الصحابة من استشعر بقيمة هذه الآية قبل أن يخبر بذلك . فقد أخرج أحمد ومسلم عن أبي ابن كعب أن النبي ﷺ سأله : " أيُ آي الله أعظم ؟ " فقال أبي : آية الكرسي . قال " ليهنك العلم أبا المنذر " .

وأخرج سعيد ابن منصور ، والحاكم والبيـــهقي في الشـعب عـن أبي هريـرة أن رســول الله ﷺ قال : " سورة البقرة فيها سيدة آي القــرآن ، لا تقــرأ في بيــت فيــه شــيطان إلا خــرج " . كما ورد أن في هذه الآية اسم الله الأعظم . وقد تواتر المسلمون على قراءتهـــا دبــر كــل صــلاة لما علموا ما فيها من الفضـــل .

والآية هي رقم ٢٥٥ من سورة البقرة ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَـيُّ الْقَيُّـومُ لا تَـأْخُذُهُ سِـنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَـــوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْـــدَهُ إِلا بِإِذْنِـهِ يَعْلَـمُ مَـا بَيْـنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِـــهِ إِلا بِمَـا شَـاءَ وَسِـعَ كُرْسِـيُّهُ السَّمَـــوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِـــيُّ الْعَظِيـمُ﴾ .

هذا الكرسي الذي وسع السموات والأرض والذي قال عنــه ابــن عبــاس فيمــا رواه عنــه ابن جرير وابن أبي حـــاتم :

" لو أن السموات السبع والأرضون السبع بسطن ثم وصلـــن بعضـــهن ببعــض مــا كــان في سعة الكرسي ، إلا بمترلة الحلقة في مفازة " والمفازة : الأرض الوعــرة وقــال رســول الله ﷺ فيمــا رواه ابن جرير : " ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم ســـبعة ألقيــت في تــرس " .

والذي سمع أبو ذر رسول الله ﷺ وهــو يقــول :

" ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظـــهري فــلاة مــن الأرض " .

هذا الكرسي بهذه العظمة ما هو إلا موضع قدميه عـــز وجــل : فقــد أخــرج الدارقطــني في الصفات ، والخطيب في تاريخه ، والحـــاكم وصححـــه أن رســول الله ﷺ سـئل عـن قــول الله : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ قال : " كرسيه موضع قدمه . والعرش لا يقـــدره إلا الله عــز وجــل " .

وقال السدي عن أبي مـــالك : الكرســـي تحـت العــرش ، والســموات الســبع والأرض في جوف الكرسي . والكرسي بين يـــدي العــرش .

وقال ابن كثير : قال غير واحد من السلف : الكرسي بين يدي العــرش كالمرقــاة إليــه .

وقد روى ابن ماجة عن رســول الله ﷺ في معنـــاه .

وقد ورد بالإنجيل من قول المسيح بن مريم : " لا تحلفوا بالســـماء فإنهــا كرســي الله " .

وفي مكاشفة القلوب للغزالي قال : روى عن علي كـــرم الله وجهـــه : أن الكرســـي لؤلــؤة . وروى عن عكرمة قال : نور الشمس جزء من سبعين جزء من نـــور الكرســـي ، ونــور الكرســي جزء من سبعين جزء من نور العرش ، ونور العرش جزء من سبعين جزء مـــن نــور الحجــب .

القلم واللوح

روى أحمد وأبو داود والترمذي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " إن أول ما خلق الله : القلم ، ثم قال له : { أكتب } فجرى القلم في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة " .

وذهب جمهور العلماء على أن المقصود بقوله ﷺ : " إن أول ما خلق الله القلم " على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ، أي لما يخص خلقه فقد خلق قبل السموات والأرض والملائكة وسائر مخلوقاته عز وجل .

قال السيوطي بسند جيد عن عباس أنه قال : " خلق اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام (حوالي ١٤٤٠٠٠٠ كم) فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق : { أكتب علمي في خلقي } ، فجري بما هو كائن إلى يوم القيامة " .

إذاً فقد خلق اللوح بعد القلم .

ذكر اللوح المحفوظ في القرآن مرة واحدة كان ذلك في سورة (البروج) والبروج معناها واضح من مبناها فهي قصور مشيدة في السماء الدنيا لتحفظها ، مما يوحي بأن اللوح فعلا محفوظ من أن يطلع عليه أي شيطان مارد .

بل أخبر ﷺ أن اللوح عند الله فوق العرش . فلا يعلم ما فيه سواه تعالى . والأحاديث تخبر بأن الكتابة في اللوح تمت فور خلقه وخلق القلم ، وأنها تمت قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ويعنى هذا أن القلم واللوح خلقا قبل خلق السموات والأرض وسائر المخلوقات بخمسين ألف سنة وجف القلم بما هو مكتوب فلا يزاد على ذلك ولا ينقص ، ولكن ينقل منه ما سيجرى في الخلق أولاً بأول .

أسماء وصفات اللوح :

ذكر بالقرآن الكريم للوح المحفوظ سبعة أسماء له ، هي في نفس الوقت صفاته وهي : (الكتاب – أم الكتاب – كتاب مكنون – كتاب مسطور – كتاب حفيظ – كتاب مبين – إمام مبين) .

وقد وردت في قوله تعالى :

(١) ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ (التوبة:٣٦) .

(٢) ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الزخرف:٤)

(٣) ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ (الواقعة)

(٤) ﴿وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ (الطور)

(٥) ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ (ق:٤)

(٦) ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (النمل:٧٥)

(٧) ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ (يس:١٢) .

وقد ورد ذكر الكتاب في القرآن ٢٣٠ مرة منها ٢٤ مرة عن اللوح المحفوظ .

المكتوب في اللوح :

لدينا عدة آيات ، وعدة أحاديث توضح ما هو المكتوب في هذا اللوح أو(الكتاب) .

فمن قراءة الآيات الأربعة والعشرين التي وردت عن اللوح المحفوظ نجد أنه قد سجل فيه كل شيء ، ولتفصيل أدق نستعرض بعض الآيات : يقول تعالى :

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام:٥٩) .

تخبرنا هذه الآية أنه سبحانه وتعالى عنده مخازن الغيب ، والمفاتيح التي تفتح بها لا يعلمها إلا هو ، وأنه لا علم لأحد من خلقه بشيء من الأمور الغيبية التي استأثر الله بعلمها وفي هذا ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمليين والعرافين وقراء الأبراج والحظ والكف والفنجان وغيرهم مما ليس من شأنهم ولا يدخل في قدرتهم ولا يحيط به علمهم . وقد قال ﷺ " من أتى كاهنا أو منجماً فقد كفر بما أنزل على محمد " .

وهو سبحانه يعلم ما في البر والبحر من حيوان وطير وحشرات وأسماك وجماد علم لا يخفي عليه منهم شيء ﴿مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا﴾ أي : من ورقة شجر إلا يعلم بزمن سقوطها ومكانها ﴿وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ﴾ أي باطنها أو الأمكنة المظلمة منها إلا يعلمها سبحانه وتعالى . ﴿وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ﴾ ويشمل هذا الوصف جميع الموجودات .

قال عبد الله بن الحارث : ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة إلا وعليها ملك يأتي الله بعلم رطوبتها إذا رطبت ويبوستها إذا يبست .

فلو ابتل جزء من الأرض حتى لو مغرز إبرة ثم جف لأخبر الملك ربه إذا ابتل وإذا يبس . وفي هذه الآية يخبر عز وجل بنى آدم أنه يعلم كل الكائنات ﴿فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ويعلم كل

الحركات ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ﴾ ويعلم كل الجمادات ﴿وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ﴾ وكل النباتات ﴿وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ﴾ وكل ذلك مدون ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ .

* * * * *

ويقول تعالى : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس:٦١) .

وإذا كانت الآية الأولى تصف علم الله في الكائنات فهذه الآية تصف علم الله فيما تعمله الكائنات من الأعمال والعبادات ..

فيخبر تعالى رسوله أنه يعلم بكل عمل يقوم به هو أو أمته مهما كان صغر هذا العمل أو دقته ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي في أمر من الأمور ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ وبدأ بأعظم الشئون وهو تلاوة القرآن ﴿وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ أياً ما كان ومهما كان ﴿إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ أي شهودا عليكم وعلى أعمالكم ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ إذ شرع فيه وعمل ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَبِّكَ﴾ ما يغيب عنه أو يبعد ﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أي وزن ذرة ﴿وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ﴾ والذرة هي أصغر الأوزان . ومع ذلك لو كان أصغر منها أو أكبر فكل ذلك معلوم ومسجل ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ إذاً فكل الاعمال مهما صغرت مدونة في هذا الكتاب .

* * * * *

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (هود:٦) أي ما من حيوان يدب على الأرض إلا وقد أوجب الله على نفسه أن يرزقه ويأتيه رزقه في أي مكان في طين الأرض أو في صخر الجبال أو في مياه البحر أو في جو السماء ، أو أي مكان يكون فيه . ثم هو سبحانه ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ فمستقرها هو قرارها في الأصلاب أو الأرحام . ومستودعها أي الموضع الذي تموت فيه ، وقيل مستقرها : منتهى ما تصل إليه في الأرض ومستودعها : وكرها وحيث تأوي .

وقد روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : مستقرها : في الأرحام ومستودعها : حيث تموت ، ويؤكد هذا ما رواه الترمذي والحاكم وصححه وابن مردوية والبيهقي عن

ابن مسعود عن النبي قال " إذا كان أجل أحدكم بأرض أتيحت له إليـــها حاجـــة ، حـــق إذا بلـــغ أقصى أثره منها فيقبض ، فتقول الأرض يوم القيامة : هــــذا مــــا اســـتودعتني " .

إذاً ففي الكتاب المبين مدون أرزاق الدواب أيا كـــانت وفي أي مكـــان كـــانت ومـــدون فيـــه أيضا أماكن بداياتها ونهاياتهـــا .

* * * * *

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِـــي كِتَـــابِ اللَّـــهِ يَـــوْمَ خَلَـــقَ السَّمَـــــوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّـــمُ﴾ (التوبـة:٣٦) .

تبين هذه الآية أن الله عز وجل اثبـــت في اللـــوح المحفـــوظ قبـــل خلـــق الســـموات والأرض بخمسين ألف سنة مقدار الزمان . وحدد السنة بـــاثني عشـــر شـــهراً وأن ترتيـــب وأسمـــاء هـــذه الأشهر في اللوح وأنه تعالى حدد منها أربعة أشـــهر حـــرم وهـــي : (ذو القعـــدة ، وذو الحجـــة ، والمحرم ، ورجب) وقوله تعـــالى ﴿ذَلِـــكَ الدِّيـــنُ الْقَيِّـــمُ﴾ أي أن هـــذا هـــو الديـــن المســـتقيم ، والحساب الصحيح ، والعدد المستوفي . وقال تعالى تكملـــة لهـــذه الآيـــة ﴿فَـــلا تَظْلِمُـــوا فِيـــهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي في هذه الأشهر الحرم بارتفاع القتال فيها والهتـــك لحرمتـــها . إذاً فمقـــدار الزمـــان (السنة ، والشهر ، واليوم ، والساعة ، والدقيقـــة ، والثانيـــة) قـــد حـــدده الله تعـــالى وأثبتـــه في اللوح المحفوظ وذلك قبل خلق السموات والأرض بخمســـين ألـــف ســـنة .

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِـــي كِتَـــابٍ مِـــنْ قَبْـــلِ أَنْ نَبْرَأَهَـــا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِـــيرٌ﴾ (الحديـد:٢٢) .

تبين هذه الآية أن ما يصاب به الناس من المصائب قد ســـبق بذلـــك قضـــاؤه وقـــدره وثبـــت جميع ذلك في أم الكتاب فقوله ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ﴾ مـــن قحـــط مطـــر ، وضعـــف نبات ، ونقص ثمار . ﴿وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ بـــالأمراض والأســـقام وضيـــق المعـــاش والهـــم والغـــم والحزن ﴿إِلا فِي كِتَابٍ﴾ إلا وهي ثابتة في اللوح المحفـــوظ وقولـــه ﴿مِـــنْ قَبْـــلِ أَنْ نَبْرَأَهَـــا﴾ أي من قبل أن نوجد المصيبة والأنفس والأرض كلها بخمســـين ألـــف ســـنة ﴿إِنَّ ذَلِـــكَ عَلَـــى اللَّـــهِ يَسِيرٌ﴾ وإثبات ذلك ، والعلم به على كثرة أمره يسير على الله غـــير عســـير . إذاً كـــل مصـــائب الأرض وابتلاءات الأنفس لكل الخلق مثبته في اللـــوح المحفـــوظ .

* * * * *

قال تعالى : ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى(٥٢)﴾ (طـه) .

عندما أخبر موسى عليه السلام فرعون بأن ربه هو الذي أرسله ، وهو الذي خلقه ورزقه وقدر فهدى ودعاه للإيمان ، شرع فرعون يحتج بالقرون الأولى أي الذين لم يعبدوا الله فقال ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾ أي ما بالها وهي لم تقر بالرب الذي تدعو إليه يا موسى ، بل عبدت الأوثان ونحوها من المخلوقات فأجابه موسى ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ أي إن علم هؤلاء الذين عبدوا الأوثان ونحوها محفوظ عند الله في كتابه سيجازيهم عليها فهي مثبته في اللوح المحفوظ ﴿لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ أي لا يشذ ولا يغيب عنه شيء ولا يفوته صغير ولا كبير ولا ينسى شيئا ، فعلمه تعالى بكل شيء محيط ، تبارك وتقدس .

إذاً ففي اللوح المحفوظ كل أحداث التاريخ وكل ما فعلته القرون التي عاشت على الأرض ، وقد أخبر تعالى في القرآن بما كان من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع وما قبلهم وما بعدهم .

* * * * *

قال تعالى : ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (النمل:٧٥) أي ما من شيء مخفي عن خلقه وغائب عنهم فهو مبين في اللوح المحفوظ .

* * * * *

وقال تعالى : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ (ق:٦) أي ما تأكله الأرض تذيبه فيها من أجسادهم فإن ذلك لا يغيب عن الله فلو غابت أجساد الموتى في الأرض وبليت وذ.. في بقاع الأرض براً أو بحراً فإن علم ذلك مسجل في اللوح فإذا كانت الأرض تنقص فالكتاب يحفظ .

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (...

. هذه الآية تجمل ما في اللوح ، وهو علمه سبحانه وتعالى في السماء والأرض . وهذا أمر على الله يسير فهو الخالق ، القادر ، العليم . وهذه الآية تبينها وتفصلها الأحاديث .

فالأحاديث تبين أن المكتوب في اللوح هو علم الله في خلقه منذ خلقهم . بل قبل ذلك بخمسين ألف سنة . إلى يوم القيامة . وهذا الأمر هو الذي يفسر لنا بسهولة مسألة الـ..ر ، والاختيار والجبر . وتجيب عن سؤال الناس الخالد إلى يوم القيامة : هل الإنسان مسير أم مخير ؟

إذ أن الأخبار والآثار تقول بأن الله تعالى كتب علمه في خلقه . فما الإجبار في هذا ؟ إنه تعالى كتب للناس ولم يكتب عليهم فالقلم أمر بأن يكتب علم الله في خلقه ، وقضاؤه فيهم . فكل ما ستفعله الخلائق إلى قيام الساعة كتب ، لعلم الله به . لأنه تعالى (بكل شيء عليم) .

ونعلم أن هذا الكتاب ينسخ منه كل الكتب لذا سمي بأم الكتاب ، فجميع الكتب المنزلة نسخت منه ونزلت بها الملائكة على الأنبياء .

وقد نزل القرآن بعد نسخه من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ليلة القدر كذلك تخبرنا الأحاديث أن ثمة كتب أخرى نسخت من اللوح المحفوظ .

فهناك كتابان نسخا من اللوح المحفوظ . هذان الكتابان لم يكتب فيهما ما ستفعله الخلائق ، بل أسمائهم فيشمل أحدهم أحدهم على أسماء أهل الجنة كلهم . والثاني يشمل على أسماء أهل النار عن آخرهم .

وهؤلاء وأولئك لم يكتب الله تعالى عليهم مصائرهم ولكن كتب علمه فيهم روى الترمذي في سننه عن عبد الله بن عمرو قال : خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان ، فقال : " أتدرون ما هذان الكتابان ؟ " فقلنا : لا يا رسول الله إلا أن تخبرنا . فقال للذي في يده اليمنى " هذا كتاب رب العالمين ، فيه أسماء أهل الجنة ، وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل عن أخرهم ، فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً " ثم قال للذي في شماله : " هذا كتاب رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل عن أخرهم ، فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً " فقال أصحابه : ففيم العمل يا رسول الله ، إن كان أمر قد فرغ منه ؟ قال : " سددوا وقاربوا (السداد : الصواب في القول والعمل والقصد فيهما) فإن أصحاب الجنة يختم لهم بعمل أهل الجنة وإن عملوا أي عمل . وإن أصحاب النار يختم لهم بعمل أهل النار وإن عملوا أي عمل " . ثم قال رسول الله ﷺ بيديه فنبذهما ثم قال : " فرغ ربكم من العباد فريق في الجنة ، وفريق في السعير " . قال الترمذي : حديث حسن غريب صحيح . ولهذا الحديث شاهد هو حديث حذيفة عند البخاري في باب القدر .

وظاهر قوله : فنبذهما بعد قوله (في يده كتابان) أنهما كانا مرئيين لهم . والله أعلم فهذان الكتابان نسخا من اللوح المحفوظ الذي فيه كل شيء عن الخلائق ، أعمالهم وأسمائهم .

كما شمل اللوح أيضا على كل كائن من خلق الله من قطر ونبات ، أو نفس ، أو رزق ، أو أجل .

كذلك يشمل اللوح تصريف الله في خلقه من إحياء وإماتة وخلق ومغفرة للذنوب ، وتفريج للكروب ، ورفع لأقوام وخفض لآخرين ، وإعزاز لأناس وإذلال لآخرين ، كل ذلك ثابت في أم الكتاب فذلك تفسير قوله تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن:٩) قال عبد الله ابن عباس : إن لله عز وجل في كل يوم ثلاثمائة وستون نظرة في هذا اللوح له في كل نظرة شأن ، يخلق ويحيى ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء .

ومجمل القول في المكتوب في اللوح :

* كل أسماء الخلائق مدونه في الكتاب : أسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم .

** كل ما تفعله الخلائق منذ إيجادهم في الدنيا إلى دخولهم الجنة أو النار.

* * * كل ما يفعله الله تعالى فيهم من تصريف وتدبير إلى قيام الساعة ، وهذا تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ (التوبة:٥١) وقوله ﴿لَنَا﴾ وليس علينا أي ما كتب سيكون في صالح الخلائق لا ضدهم ، لأنه تعالى ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام:١٢) وهذه هي مشيئة الله تعالى في خلقه . وهو على كل شيء قدير . وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأنه تعالى علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون .

الإيمان بالقدر :

الإيمان بالقدر – وهو علم الله المثبت في كتابه – واجب ، ولا يكمل إيمان المؤمن إلا بالتسليم به . لكن لا يجب أن يحتج به أحد على ترك العمل وعلى مخالفة ما أمر الله ، وإنما يحتج بالقدر على المصائب دون المعايب .

وقد روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال :

" احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز . وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان " .

قال ابن تيمية : ومما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها إيمانهم مع إيمانهم بالقضاء والقدر وأن الله خالق كل شيء وأنه ما لم يشأ لم يكن وأن الله يضل من شاء ويهدى من يشاء ، أن العباد لهم مشيئة وقدرة ، يفعلون بقدرتهم ومشيئتهم ما أقدرهم الله عليه مع قولهم : إن العباد لا يشاءون إلا أن يشاء الله وهذا القدر هو ما ينبغي أن يعلم ولا يجب الخوض أكثر من ذلك ، ولا المجادلة فيه لأن العقل لا يطيق ذلك . ولأن الشيطان يفتح هنا باباً واسعاً ليدخل فيه ، لذلك غضب الرسول غضباً شديداً عندما خرج على أصحابه يوماً وهم يتنازعون في القدر ،

حتى احمر وجهه كأنما فقيء في وجنتيه الرمان فقال : " أبهذا أمرتم ، أبهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حينما تنازعوا في هذا الأمر عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه " من صحيح سنن الترمذى .

اللوح فوق العرش :

روى البخاري عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : " لما قضى الله الخلق كتب في كتابه ، فهو عنده فوق العرش ، إن رحمتي غلبت غضبي " .

ويستفاد من هذا الحديث أمران :

الأول : أن شعار هذا الكتاب " إن رحمتي غلبت غضبي " . أي إن تعلق الرحمة غالب وسابق على تعلق الغضب ، لأن الرحمة مقتضى ذاته المقدسة ، وأما الغضب فإنه متوقف على سابقة عمل من العبد الحادث ، كذلك تعنى الغلبة : الكثرة والشمول ، وعلى ذلك استمرت أحوال الأمم بتقديم الرحمة في خلقهم بالتوسع عليهم في الرزق وغيره ، ثم يقع بهم العذاب على كفرهم .

قال الطيبي : في سبق الرحمة إشارة إلى أن قسط الخلق منها أكثر من قسطهم من الغضب ، وأنها تنالهم من غير استحقاق ، وأن الغضب لا ينالهم إلا باستحقاق . فالرحمة تشمل الشخص جنينا ورضيعا وفطيما وناشئا ، قبل أن يصدر منه شيء من الطاعة ، ولا يلحقه الغضب إلا أن يصدر عنه من الذنوب ما يستحق معه ذلك .

الثاني : يستفاد من هذا الحديث : أن الكتاب " عنده فوق العرش " ولا محذور في ذلك كما قال ابن حجر شارح صحيح البخاري أن يكون الكتاب فوق العرش لأن العرش خلق من خلق الله . وقال بعضهم إن اللوح عن يمين العرش وكون اللوح فوق العرش يقتضي انفراد الله سبحانه وتعالى بعلم ما فيه وأنه محفوظ من الشياطين أن تعلم ما فيه ، أو حتى الملائكة فهي أيضا لا تعلم ما فيه إلا بالقدر الذي يعلمهم به الله ليسجلوا ما يستنسخونه منه .

الرحمن على العرش استوى

لم يتناول التجريبيون في كتبهم أو نظرياتهم العرش بذكر أو إشارة ، لأنهم لا يؤمنون به . أما المؤمنون به فإن معظمهم الآن لا يؤمنون باستواء الله علي العرش ، ويقولون فيه بما لم يقل الله تعالى فيه عن نفسه ، ولا قاله رسوله ولا علماء الأمة قبل عصر الإلحاد . بل ذهب كثير

من علماء اليوم المتأثرين بهذا العصر إلى أن الله ليس على العرش ، وليس هو في السماء ولا في أي مكان بل هو في كل مكان .

هذا الكلام الخطير ، والذي يعتبر مرحلة بين الكفر والإيمان لأنهم يؤمنون بوجود العرش ، ولا يؤمنون باستواء الله عليه ، ويؤمنون بالله ولا يؤمنون بأنه في السماء بل بأنه في كل مكان ، ويحل في كل شيء . وقد قال بهذا القول قديماً فئة سماها المسلمون (المعطلة ، والمعتزلة ، والجهمية) ، أما الآن فيقول بهذا القول (التجريبيون) وبنفس أسلوب التبعية يقوله كثير من علماء المسلمين الآن .

وقد ذكرنا مقالة الدكتور (كلارنس إبرسولد) التي قال فيها عن الإله الذي يؤمن به وأنه ليس مستوٍ على عرشه كما تقول الكتب السماوية ، إذ قال الرجل : " والحق أن التفكير السليم والاستدلال المستقيم يفرضان على عقولنا فكرة وجود الله ولكن هل لله وجود ذاتي كما يعتقد الكثيرون ؟ أما وجهة نظر العلم فإنني لا أستطيع تصور الله تصوراً ذاتياً ، بحيث تستطيع أن تدركه الأبصار أو أن يحل في مكان دون آخر أو أن يجلس على كرسي أو عرش كما تصف لنا الكتب المقدسة الإله " .

وكما تأثر علماء الإسلام بهؤلاء في علومهم تأثروا بهم في عقيدتهم . ذكرنا مقولة الشيخ (عبد الرازق نوفل) وهو يعبر عن معظم علماء المسلمين والتي قال فيها " من يدعو الله سبحانه وتعالى فيبسط يده بالدعاء ويرفع بصره إلى السماء فكأنه بذلك يحدد مكان الله في السماء – دون قصد يقينا – فالله سبحانه وتعالى في كل مكان " .

هكذا وصل الحال بعلمائنا الذين اتبعوا سنن من قبلهم شبرا بشبر ، يذكرون الآن للمؤمنين في دعوتهم ووعظهم أن الله ليس في السماء بل هو في كل مكان وأنه تعالى ليس مستوٍ على العرش وإنما مستولٍ عليه . وهو كلام جد خطير ، يقول الله أنه في السماء ، ويقولون : ليس في السماء بل في كل مكان . والله يقول أنه (استوى على العرش) وهم يقولون لم يستو عليه بل استولى .

سنورد هنا رأي الإسلام في هذا الأمر الجلل والذي جهله الكثير من دعاة الإسلام ولخطورة الأمر فإننا سنستدل في قولنا على المصادر الثلاثة الأولى للأحكام الشرعية المتفق عليها وهي (الكتاب والسنة والإجماع) . أما الجدال والتفلسف وأقوال المتكلمين وما شابه فلا تلزمنا بعد هذه الثلاثة ونطبق ما أمر الله به ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء:٥٩) .

الله في السماء

لقد أخبر خاتم الأنبياء أن اليهود افترقت إلى واحد وسبعين فرقة والنصارى إلى اثنين وسبعين فرقة وأن أمته ستفترق إلي ثلاث وسبعين فرقة وأن كلها في النار إلا واحدة .

قالوا : وما هي يا رسول الله ؟ قال : " مثل الذي عليه أنا وأصحابي " .

وعن الذي كان عليه رسول الله وأصحابه في هذا الأمر يحدثنا ابن تيمية رحمه الله في كتاب (الأسماء والصفات) والذي يرد فيه على الذين يعتقدون ويقولون : أن الله تعالى ليس في السماء وإنما هو في كل مكان قال رحمه الله : قال رسول الله ﷺ " تركتكم على المحاجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك . ما بعث الله نبياً إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم " .

وقال أبو ذر " قام فينا رسول الله مقاما فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه " .

وقال أيضا " لقد توفي رسول الله . وما طائر يطير بجناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علما " . يقول ابن تيمية : فكيف يكون هؤلاء المحجوبون ، المنقوصون ، المسبوقون ، المفضولون ، الحيارى ، المتهوكون ، أعلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكم في باب ذاته وآياته من السابقين الأولين ، من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان من ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل وأعلام الهدى ومصابيح الدجى الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا ، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر أتباع الأنبياء ، فضلا عن سائر الأمم الذين لا كتاب لهم وأحاطوا من حقائق المعارف ، وبواطن الحقائق ، بما لو جمعت حكمة غيرهم إليها لاستحيا من يطلب المقابلة .

وإذا كان كذلك فهذا كتاب الله من أوله إلى آخره ، وسنة رسوله ﷺ من أولها إلى آخرها ، ثم عامة الصحابة والتابعين ، ثم كلام سائر الأئمة ، مملوءة بما هو إما نص وإما ظاهر في أن الله سبحانه وتعالى هو العلي الأعلى وهو فوق كل شيء وهو على كل شيء ، وأنه فوق العرش ، وأنه فوق السماء . مثل :

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يرفعه﴾ (فاطر:١٠)

﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ (آل عمران:٥٥)

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ (النساء:١٥٨)

﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ (الملك)

﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ (المعارج:٤)

﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ (السجدة:٥)

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (النحل:٥٠)

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ (الأعلى:١)

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ (غافر).

فقوله تعالى مخبراً عن فرعون دليل على أن موسى عليه السلام أخبر فرعون بأن إلهه في السماء، فأراد أن يلتمس الأسباب للوصول إليه تمويها على قومه، فأمر وزيره هامان أن يبني له الصرح، ثم عقب على ذلك بقوله ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ﴾ أي موسى ﴿كَاذِبًا﴾ فيما أخبر به من كون إلهه في السماء، فمن إذاً أشبه بفرعون وأقرب إليه نسباً. إن فرعون كذب موسى في أن إلهه في السماء، وهو نفس ما يقوله هؤلاء (أي أنهم يؤيدون فرعون ويكذبون موسى) ثم الآيات التي تتحدث عن الكتب التي أنزلها الله على عباده وكذلك الآيات التي أنزلها عليهم لتدل على أن الله في السماء ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت:٤٢) ﴿مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ (الأنعام:١١٤) ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ (المائدة:١١٥).

وفي الأحاديث الصحاح والحسان ما لا يحصى إلا بالكلفة مثل قصة معراجه ﷺ ونزول الملائكة من عند الله وصعودها إليه، وقوله في الملائكة الذين يتعاقبون فيكم بالليل والنهار:

" فيعرج الذين باتوا فيكم إلى ربهم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم ".

وفي الصحيح من حديث الخوارج " ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحا ومساءً ".

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن أبي حاتم عن أبي الصديق الناجي قال: " خرج سليمان بن داود يستسقي بالناس، فمر على نملة مستلقية على قفاها رافعة قوائمها

إلى السماء وهي تقول : اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن رزقك . فإما أن تسقينا وإما أن تهلكنا . فقال سليمان للناس : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم " .

وفي حديث الرقية " ربنا الذي في السماء ، تقدس اسمك ، أمرك في السماء والأرض ، كما رحمتك في السماء ، اجعل رحمتك في الأرض . اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين ، أنزل رحمة من رحمتك ، وشفاءً من شفائك على هذا الوجع " . قال ﷺ : " إذا اشتكى أحد منكم ، أو اشتكى أخ له فليقل : " ربنا الذي في السماء " .

وقوله في حديث قبض الروح " حتى يعرج بها إلى السماء التي فيها الله تعالى " .

وقوله في الحديث الذي في المسند " إن الله حيِيٌّ كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرا " .

وقوله : " يمد يديه إلى السماء يقول : " يا رب ، يا رب " .

وفي حديثه ﷺ للجارية : " أين الله ؟ " قالت : في السماء .

قال : " فمن أنا ؟ " قالت : أنت رسول الله . قال : " اعتقها فإنها مؤمنة " .

وقولة أمية بن أبي الصلت الثقفي الذي أنشد للنبي ﷺ هو وغيره من شعره فاستحسنه وقال : " آمن شعره وكفر قلبه " حيث قال :

مجدوا الله فهو للمجد أهل ربنا في السماء أمسى كبيرا

وقول عبد الله بن رواحة الذي أنشد للنبي ﷺ وأقره عليه :

وإن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمين

إلى أمثال ذلك ، مما لا يحصيه إلا الله ، مما هو من أبلغ المتواترات اللفظية والمعنوية التي تورث علما يقينياً من أبلغ العلوم الضرورية ، أن الرسول ﷺ المبلغ عن الله ، ألقى إلى أمته المدعوين : أن الله سبحانه على العرش وأنه فوق السماء . كما فطر الله على ذلك جميع الأمم ، عربهم وعجمهم في الجاهلية والإسلام ، إلا من اجتالته الشياطين عن فطرته .

أقوال السلف في الاستواء

يقول ابن تيمية : وللسلف في ذلك من الأقوال لو جمع لبلغ المئين ، أو الألوف . ولم يقل واحد منهم قط أن الله ليس في السماء ، ولا أنه ليس على العرش ، ولا أنه بذاته في كل مكان . ولا أن جميع الأمكنة بالنسبة إليه سواء ، ولا أنه لا متصل ولا منفصل ولا أنه لا يجوز الإشارة إليه بالأصابع ونحوها ، إشارة حسية . فإذا كان أصل هذه المقالة (أن الله في كل

مكان) مأخوذ عن تلامذة المشركين والصابئين والفلاسفة ، فكيف تطيب لنفس مؤمن – بل نفس عاقل – فضلا عن نفس عالم أن يأخذ سبيل المغضوب عليهم أو الضالين . ويدع سبيل الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين .

وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدسة ، المذكورة بأسمائه وصفاته ، ولا في أفعاله ، فكما نتيقن بأن الله سبحانه له ذات حقيقة وله أفعال حقيقية ، فكذلك له صفات حقيقية .

وهو ليس كمثله شيء ، لا في ذاته ولا في أفعاله ، ولا في صفاته ، وكل ما أوجب نقصاً أو حدوثاً فإن الله منزه عنه حقيقة ، فإنه سبحانه مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه .

فإن قال قائل : لو كان الله فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش أو أصغر ، أو مساويا ، وكل ذلك من المحال ، ونحو ذلك من الكلام .

والقول الفاصل ما هو عليه الأمة الوسط ، من أن الله مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله ، ويختص به ، فكما أنه موصوف بأنه بكل شيء عليم ... ونحو ذلك ورضي الله عن الإمام مالك ابن أنس حيث قال :

" أوكلما جاءنا رجل أجدل من رجلٍ تركنا ما جاء به جبريل عليه السلام إلى محمد ﷺ لجدل هؤلاء " .

قال أبو حنيفة في رجل قال : لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض : فقد كفر لأن الله يقول : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه ٥) وعرشه فوق سبع سموات .

فهذا تصريح من أبي حنيفة بتكفير من أنكر أن الله في السماء . واحتج على ذلك بأن الله في أعلى عليين . وأنه يدعي من أعلى لا من أسفل ، وكل من هاتين الجملتين نظرية عقلية ، فإن القلوب مفطورة على الإقرار بأن الله في العلو . قال يحيى بن معاذ الرازي : " إن الله على العرش ، بائن من الخلق ، وقد أحاط بكل شيء علما . وأحصى كل شيء عددا " .

وقد أجمع اليهود والنصارى وأهل الأديان مع المسلمين على أن الله على العرش . وقال محمد بن إسحاق إمام الأئمة : " من لم يقل إن الله فوق سمواته على عرشه ، بائن من خلقه ، وجب أن يستتاب ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه ثم ألقي على مزبلة لئلا يتأذى بريحه أهل القبلة ولا أهل الذمة " .

وروى الإمام أحمد عن مالك ابن أنس قال : " الله في السماء ، وعلمه في كل مكان ، لا يخلو من علمه مكان " . وقال الشافعي : " خلافة أبي بكر الصديق حق قضاه الله في السماء . وجمع عليه قلوب عباده " .

وفي الصحيح عن إنس بن مالك قال : كانت زينب تفتخر على أزواج النبي ﷺ تقول : " زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات " . هذا مثل قول الشافعي .

قال أبو عبد الله محمد بن عبد الله أبي زمنين من أئمة المالكية في كتابه (أصول السنة) قال : ومن قول أهل السنة أن الله عز وجل خلق العرش واختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلق . ثم استوى كيف شاء كما أخبر عن نفسه في قوله :﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ .

ومن قول أهل السنة أن الكرسي بين يدي العرش وأنه موضع القدمين . وذكر حديث أنس الذي فيه التجلي يوم الجمعة في الآخرة وفيه " فإذا كان يوم الجمعة هبط من عليين على كرسيه . ثم يحف الكرسي الذي وسع السموات والأرض لموضع القدمين ، ولا يعلم قدر العرش إلا الذي خلقه . وقال : ومن قول أهل السنة أن الله ينزل إلى السماء الدنيا ويؤمنون بذلك من غير أن يحدوا فيه حدا .

وقال : واعلم بأن أهل العلم بالله وبما جاءت به أنبياؤه ورسله ، يرون الجهل بما لم يخبر به نفسه علما . والعجز عن ما لم يدع إليه إيمانا . وأنهم إنما ينتهون من وصفه بصفاته وأسمائه إلى حيث انتهي في كتابه على لسان نبيه .

ودين الله تعالى بين الغالي فيه ، والجافي والمقصر عنه .

فإذا قلنا يد وسمع وبصر وما أشبهها فإنما هي صفات أثبتها الله لنفسه ، ولسنا نقول : أن معنى اليد القوة أو النعمة . ولا معنى السمع والبصر العلم ، ولا نقول إنها جوارح ، ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل ، ونقول : إن القول إنما وجب بإثبات الصفات لأن التوقف ورد بها ، ووجب نفي التشبيه عنها . لأن الله ليس كمثله شيء .

(وكل ما خطر في بالك فالله غير ذلك) .

وقال أبو نعيم الأصبهاني : " طريقتنا طريقة المتبعين للكتاب والسنة وإجماع الأمة . قال : فمما اعتقدوه أن الأحاديث التي ثبتت عن النبي ﷺ في العرش واستواء الله يقولون بها

ويثبتونها . من غير تكييف ، ولا تمثيل ولا تشبيه. وأن الله بـــائن مــن خلقـــه ، والخلـــق بـــائنون منه .. لا يحل فيهم ولا يمتزج بهم ، وهو مستوٍ على عرشه في سمائـــه دون أرضـــه وخلقـــه " .

وقـــال الحافظ أبو نعيم في كتابه (محجبة الواثقين) : وأجمعوا أن الله فـــوق سمواتـــه عـــالٍ علـــى عرشه ، مستوٍ عليه لا مستول عليه . وأنه سبحانه مستوٍ على عرشـــه بـــائن مـــن خلقـــه والخلـــق منه بائنون ، بلا حلول ولا ممازجة ولا اختلاط ، ولا ملاصقة ، لأنه الفـــرد البـــائن مـــن الخلـــق ، والواحد الغنى عن الخلـــق .

وأن الله عـــز وجـــل سميـــع ، بصـــير ، عليـــم ، خبـــير ، يتكلـــم ، ويرضـــى ، ويســـخط ، ويضحك ، ويعجب ، ويتجلى ، وينزل كل ليلة إلى السماء الدنيـــا كيـــف شـــاء بـــلا كيـــف ولا تشبيه ، ولا تأويل ، فمن أنكر النزول أو تأول فهو مبتدع ضـــال وســـائر الصفـــوة مـــن العـــارفين على ذلـــك .

وقال الشيخ الأمام أبو محمد (عبد القادر بن صالح الجيـــلاني) – مـــن أعـــلام الصوفيـــة – في كتاب (الغنية) : " ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان . بل يقـــال : أنـــه في الســـماء علـــى العـــرش وكونه على العرش ، مذكور في كل كتاب أنزل على كل نبي أرســـل ، بـــلا كيـــف " .

وقال القاضي (أبو بكر : محمد بن الطيـــب البـــاقلاني) – أشـــعري – : " فـــإن قـــال قـــائل : فهل تقولون أنه في كل مكـــان " ؟

قيل له : معاذ الله ، بل هو مستوٍ على عرشه ، كمـــا أخـــبر في كتابـــه . ولـــو كـــان في كـــل مكان لكان في بطن الإنسان وفمه ، والحشوش ، والمواضع الـــتي يرغـــب ذكرهـــا " قـــال محمـــد خليل هراس : ومن الخطأ القول أن مذهب السلف هـــو (التفويـــض) : فـــإن الســـلف لم يكونـــوا يخوضون في علم المعنى ، ولا كانوا يقرءون كلاماً لا يفهمون معناه ، بـــل كـــانوا يفـــهمون معـــاني النصوص من الكتاب والسنة ، ويثبتونها لله عز وجل ، ثم يفوضـــون فيمـــا وراء ذلـــك مـــن كنـــه الصفات أو كيفتها كما قال مالك حين سئل عـــن كيفيـــة اســـتوائه علـــى العـــرش : " الاســـتواء معلوم والكيف مجـــهول " .

وعن قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ هذه الآيـــة المحكمـــة من كتـــاب الله عـــز وجـــل هـــي دستور أهل السنة والجماعة في باب الصفات ، فإن الله عـــز وجـــل قـــد جمـــع فيـــها بـــين النفـــي والإثبات ، فنفي عن نفســـه المثل وأثبت لنفســـه سمعا وبصرا فدل علـــى أن المذهـــب الحـــق ، ليـــس هو نفي الصفات مطلقا كما هو شأن المعطلة ولا إثباتها مطلقاً كما شأن الممثلـــة ، بـــل إثباتهـــا بـــلا تمثل .

فأهل السنة والجماعة لا يقولون بأن الله تعالى في كل مكان بذاته ، بـل إنهـم يعتقـدون بـأن الله تعالى : في السماء مستوٍ على عرشه ، بائن من خلقه ، بالكيفية التي يعلمـها هـو جـل شـأنه ، كما قال مالك وغيره (الاستواء معلوم والكيـف مجـهول) .

أما ما يشغب به أهل التعطيل من إيراد اللـوازم الفاسـدة علـى تقريـر الاسـتواء فـهي لا تلزمنا لأننا لا نقول بأن فوقيته على العرش كفوقية المخلـوق علـى المخلـوق .

أما ما يحاولون به صرف الآيات الصريحة عن ظواهرها بالتأويلات الفاسـدة الـتي تـدل علـى حيرتهم واضطرابهم ، كتفسيرهم استوى بمعنى : استولى أو حملـهم ﴿عَلَـى﴾ وجعلـها بمعـني (إلى) و﴿اسْتَوَى﴾ بمعنى (قصد) إلى آخر تأويلاتهم ، فكلها تشغيب بالبـاطل ، وتغيـير في وجـه الحـق ، ولا ندرى ماذا يريد أولئك الذين يعطلون أسمـاء الله وصفاتـه . أيريـدون أن يقولـوا : ليـس في السماء رب يقصد ، ولا فوق العرش إلـه يعبد ؟ فـأين يكـون إذاً ؟

ولعلهم يضحكون منا حين نسأل عنه بـأين ، ونسـوا أن أكمـل الخلـق وأعلمـهم بربهـم صلوات الله وسلامه عليه قد سأل عنـه الجاريـة : بـأين الله . ورضـى بجوابهـا حـين قـالت في السماء . وقد أجاب كذلك من سأله : بأين كان ربنـا قبـل أن يخلـق السـموات والأرض بأنـه كان في عماء . ولم يرووا عنه بأنه زجر السائل ، ولا قال له إنـك غلطـت في السـؤال .

وقصارى ما يقوله المتحذلقون منهم عن الله : (كان ولا مكان قبـل خلـق المكـان) .

بل الحق أن يقال : " كان الله ولم يكـن شـيء قبلـه ، ثم خلـق السـموات والأرض وكـان عرشه على الماء ، ثم استوى على العرش " وثم هنا للترتيب الزمـاني لا لمجـرد العطـف .

* * * * *

آيات الاستواء:

في سبع آيات لا غير في القرآن يذكر عز وجـل أنـه :

﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾

(١) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّـهُ الَّـذِي خَلَـقَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضَ فِـي سِـتَّةِ أَيَّـامٍ ثُـمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَـرْشِ﴾ (الأعراف:٥٤)

(٢) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّـهُ الَّـذِي خَلَـقَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضَ فِـي سِـتَّةِ أَيَّـامٍ ثُـمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْـرَ﴾ (يونس:٣)

(٣) ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ (الرعد:٢)

(٤) ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه:٥)

(٥) ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ (الفرقان:٥٩)

(٦) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ (السجدة:٤)

(٧) ﴿هوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾(الحديد:٤) .

من هذه الآيات السبع نرى أن الله تعالى ذكر الاستواء بعد خلق السموات والأرض حتى الآية (٥) من سورة طه سبقتها الآية (٤) وفيها ﴿تَنزِيلا مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ ثم ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ و(ثم) هنا كما هو معلوم للترتيب أي أن الاستواء تم بعد خلق السموات والأرض . وفي الأحاديث " كان الله ولم يكن شيء غيره . وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض " .

فالعرش مخلوق قبل السموات والأرض ، لكن الاستواء كما هو واضح من الآيات بعد خلق السموات والأرض .

وقد ورد بإنجيل متى (٢٢/٢٣) على لسان المسيح عليه السلام : " ومن حلف بالسماء فقد حلف بعرش الله وبالجالس عليه " .

الرد على من تأول الاستواء

لم يظهر القول بأن الله تعالى في كل مكان في عصور السلف إلا من فرق سماها العلماء (المعطلة ، والمعتزلة ، والجهمية) وذلك بعد ترجمة كتب الفلاسفة ، وكتب الصابئين والمشركين .

وقام أهل السنة والجماعة بالرد عليهم حتى انتهت الفتنة وأخمدت نيرانها . لكنها عادت وظهرت من جديد بعد عصر الإلحاد (عصر النهضة) وانتشر بين علماء المسلمين لا عوامهم أن الله تعالى في كل مكان ، أما الاستواء فقد أولوه بالاستيلاء . واحتجوا بآيات (المعية) و(القرب) كقوله ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ وكقوله ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾

وكقوله ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وقوله ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ﴾ (الواقعة:٨٥) .

وورد ابن تيمية على هؤلاء في كتاب (الأسماء والصفات) وعلى حججهم فقال : " ليس في القرآن وصف الرب تعالى بالقرب من كل شيء أصلا . بل قربه الذي في القرآن خاص لا عام . كقوله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة:١٨٦) فهو سبحانه وتعالى قريب ممن دعاه .

وكذلك في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري أهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر ، فكانوا يرفعون أصواهم بالتكبير ، فقال : " يا أيها الناس ، أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائب إنما تدعوا سميعا قريبا " .

إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته " . فقوله " إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم " ولم يقل أنه قريب من كل موجود .

وكذلك قول صالح ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ (هود:٦١) ومعلوم أن ﴿قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ مقرونة بالتوبة والاستغفار . فأراد أنه قريب مجيب للتائبين إليه ولاستغفار المستغفرين . ومعلوم أنه لا يقال : مجيب لكل موجود ، وإنما الإجابة لمن سأله ودعاه . وكذلك قربه سبحانه وتعالى .

وكذلك أسماء الله المطلقة كاسمه : السميع ، البصير ، الغفور ، الشكور ، المجيب ، القريب ، لا يجب أن تتعلق بكل موجود بل يتعلق كل اسم بما يناسبه ، واسمه العليم ، لما كان كل شيء يجب أن يكون معلوما ، تعلق بكل شيء . وأما قوله تعالى : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ﴾ (الواقعة:٨٥) . ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق:١٦) . فالمراد به قرب ملائكته .

أما ألفاظ المعية كالتي في سورة المجادلة ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٧)﴾ . وفي سورة الحديد ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

يقول ابن تيمية : قد ثبت عن السلف أنهم قالوا : هو معهم بعلمه . وهذا كما قال ابن عبد البر وغيره إجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولم يخالفهم أحد يعتد بقوله : قال ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ هو على العرش وعلمه معهم .

أما آيات القرب فإن سياق الآيتين يدل على أن المراد : الملائكة ، فإنه قال : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق) فقيد القرب بهذا الزمان وهو زمان تلقي المتلقيين ، قعيد عن يمين وقعيد عن شمال ، وهما الملكان الحافظان اللذان يكتبان كما قال تعالى ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ومعلوم أنه لو كان المراد قرب ذات الرب لم يختص ذلك بهذه الحال . ولم يكن لذكر القعيدين والرقيب والعتيد معنى مناسب .

وكذلك قوله في الآية الأخرى ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ﴾ فلو أراد قرب ذاته لم يخص ذلك بهذا الحال ، ولا قال ﴿وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ﴾ وإنما هذا يقال إذا كان هناك من يجوز أن يبصر في بعض الأحوال ، ولكن نحن لا نبصره . والرب تعالى لا يراه في هذه الحالة لا الملائكة ولا البشر . وأيضا فإنه تعالى قال ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ فأخبر عمن هو أقرب إلى المحتضر من الناس الذين عنده في هذه الحالة . وذات الرب سبحانه وتعالى إذا قيل : هي في مكان ، أو قيل قريبة من كل موجود . لا يختص بهذا الزمان والمكان والأحوال . ولا يكون أقرب من شيء إلى شيء ولا يجوز أن يراد به قرب الله الخالص كما في قوله : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ فإن ذلك إنما قربه إلى من دعاه أو عبده ، وهذا المحتضر قد يكون كافراً أو فاجراً أو مؤمناً ولهذا قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ وغير ذلك من الآيات . ومما يدل على ذلك أنه ذكره بصيغة الجمع وكل ما جاء في القرآن بصيغة الجمع فإنما تدل على أن المراد أنه سبحانه يفعل ذلك بجنوده وأعوانه من الملائكة .

وكذلك قوله : ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ (ق:١٦) فإنه سبحانه يعلم ذلك وملائكته يعلمون ذلك . كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال :

" إذا هم بسيئة لم تكتب عليه ، فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة . وإن تركها لله كتبت حسنة " . فالملك يعلم ما يهم به العبد من حسنه وسيئة ، وليس ذلك من علمه بالغيب الذي اختص الله به .

وقد روى ابن عيينة أنهم يشمون رائحة طيبة فيعلمون أنه هم بحسنة . ويشمون رائحة خبيثة فيعلمون أنه هم بسيئة ، وهم وإن شموا رائحة طيبة ورائحة خبيثة فعلمهم لا يفتقر إلى ذلك ، بل ما في قلب ابن آدم يعلمونه ، بل يبصرونه ويعلمون وسوسة نفسه ، بل الشيطان يلتقم قلبه ، فإذا ذكر الله خنس وإن غفل قلبه عن الذكر وسوس . ويعلم هل ذكر الله أم غفل عن ذكره . ويعلم ما تهواه نفسه من شهوات الغي فيزينها له وقرب الملائكة والشياطين من قلب ابن آدم تواترت به الآثار ، سواء كان العبد مؤمناً أو كافراً . وأما أن تكون ذات الرب في قلب كل واحد كافراً أو مؤمناً فهذا باطل ولم يقله أحد من سلف الأمة ، ولا نطق به كتاب ولا سنة . بل الكتاب والسنة والإجماع يناقض ذلك . انتهى كلام ابن تيمية .

وهناك من يستدلون على أن الله تعالى في كل مكان بالآية ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (الزخرف:٨٤) . فإن أقوال المفسرين جميعا على أن معناه : أنه سبحانه معبود في السماء ومعبود في الأرض ، أو مستحق للعبادة في السماء ومستحق لها في الأرض .

قال قتادة : يعبد في السماء والأرض . قال أبو علي الفارسي : المعنى على الإخبار بألوهيته ، لا على كونه فيهما .

والاستواء مختص بالعرش باتفاق المسلمين مع أنه مستولٍ مقتدر على كل شيء من السماء والأرض وما بينهما . فلو كان استواؤه على العرش بمعنى استيلائه فهو تعالى قادر على السماء والأرض وما بينهما ولا يخص العرش .

ولفظ الاستواء الموجود بالكتاب والسنة وكلام العرب يمنع ذلك المعنى . قال ابن الأعرابي : إن العرب لا تعلم استوى بمعنى استولى ومن قال ذلك فقد أعظم واختصاصه تعالى بالاستواء على العرش يدل عليه قوله تعالى : ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ (البروج:١٥) فلم يقل (ذو الأرض) أو (ذو السماء) . بل لم ينسب شيء لله تعالى بـ (ذو) إلا العرش ، والمعارج التي هي مصاعد الملائكة إليه تعالى ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ (المعارج:٢) .

العرش عظيم والله أعظم

روي عبد الرحمن بن منده عن عبد الله بن خليفة عن عمر عن النبي ﷺ قال : " إن عرشه أو كرسيه وسع السموات والأرض وانه يجلس عليه فما يفضل منه قدر أربع أصابع " رواه ابن جرير الطبري في تفسيره ، وغيره .

وهذا يدل علي عظمة الله عز وجل ، وهو أعظم من العرش ، فإن العرش علي هذه العظمة التي وصفت في الكتاب والسنة . فالرب مستوٍ عليه كله لا يفضل منه قدر أربع أصابع وهذه غاية ما يقدر به في المساحة من أعضاء الإنسان ، فإن الناس إذا أرادوا نفي القليل والكثير قدروا به . كما يقول في النفي ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (النساء: ٤٠) ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (فاطر: ١٣) ونحو ذلك فبين الرسول ﷺ أنه لا يفضل من العرش شيء ، ولا حتى هذا القدر اليسير ، الذي هو أيسر ما يقدر به وهو أربعة أصابع .

والعرش على عظمته صغير في عظمة الله ، فقد روى أبو حاتم في قوله : ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ (الأنعام: ١٠٣) عن رسول الله ﷺ قال : " ولو أن الجن والإنس والشياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن فنوا صفوا صفا واحدا ما أحاطوا بالله أبدا " .

ومعلوم أن العرش لا يبلغ ذلك فله حملة وله حول ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ (غافر: ٧) . ليس قولنا أن الله على العرش أي مماس له متمكن فيه أو متحيز في جهة من جهاته ، بل خبر جاء به التوقف فقلنا له به ، ونفينا عنه التكييف إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١) .

* * * * *

خلق السموات والأرض

مضى خمسون ألف سنة منذ أن خلق الله القلم ، واللـــوح ، وكتـب القلـم مـا سيكون في خلق الله ، وقد علمنا أن هذه الكتابة قبل خلـــق السموات والأرض بخمسين ألـف سـنة . في هذا الوقت كان الله ، الذي كان قبل كل شيء ، وكان العرش ، وكـان أيضـا المـاء . ﴿وَهُـوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَـــوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُـــهُ عَلَـى الْمَـاءِ﴾ (هود:٧) . إذاً فلـم يكن ثم إلا العرش والمـاء .

هناك حديث يثبت وجود شيء آخر من أوائـل المخلوقـات ، وهـو الهـواء . فقـد أخـرج سعيد بن منصور عن أبي عوانة عن أبي بشر عن مجاهد قال : " بـــدء الخلـق : العـرش ، والمـاء ، والهواء . وخلقت الأرض من الماء " ذكره ابن حجـر في شـرح البخـاري . ومـن هـذا الأثـر نعرف أن الأرض التي نعيش فيها خلقت مـن المـاء .

ولكن قبل أن نفصل هذا الأمر ، نسأل : هل سـنكتفي في معرفـة كيفيـة خلـق السموات والأرض بالمصادر الإسلامية والتي بدورها مصدرهـا جميعـا الوحـي . وهـذا مـن عنـد الله . أم سنستعين في ذلك بأقوال العلماء في أي علم وفن . خاصة وهناك آيـة تقـول ﴿قُـلْ سِـيرُوا فِـي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (العنكبوت:٢٠) . ألا يعطينـا هـذا الحـق في أن نبحـث ونقـف لنجيب على السؤال : كيف بدأ الخلق ؟ ونستعين في ذلك بكل ما أتيح لنـا مـن إمكانيـات ومـا وصلنا إليه من علوم ؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول أولاً : إن المؤمنـين دائمـا يتبعـون آيـات الله . ومن شأن المؤمن أن تكون حركته وسكنته بتوجيه الله ، وهذه الآيـة فيـها طلـب بـل أمـر بالسير والبحث عن إجابة هذا السؤال ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَـانظُرُوا كَيْـفَ بَـدَأَ الْخَلْـقَ﴾ إن الأمر يستوجب أن نسأل أيضا عن هذا الأمـر .. لمـن ؟

بالبحث في القرآن لم نجد إلا آية واحدة تأمر بـالبحث في ﴿كَيْـفَ بَـدَأَ الْخَلْـقَ﴾ غـير أن الآية السابقة عليها توضح أن الأمر ليس للمؤمنين ، بـل لغـيرهم فتقـول ﴿أَوَلَـمْ يَـرَوْا كَيْـفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِـيرٌ﴾ (العنكبوت:١٩) والخطـاب ليـس للمؤمنـين ويؤكد ذلك أيضا الآية السابقة على هذه ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَـمٌ مِـنْ قَبْلِكُـمْ وَمَـا عَلَـى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (العنكبوت:١٨) ، وما يقطـع بـأن الخطـاب لغـير المؤمنـين أن الآيـات قبلها تحدثت عن تكذيب قوم نوح لنوح وتكذيب قوم إبراهيم لإبراهيـم . وجـاءت آيـة السـير في الأرض بعد حوار إبراهيم مع قومه حتى قيل أن هذا الأمر ، كـان لقـوم إبراهيـم .

فإذا كان هذا خطاب لغير المؤمنين فما مدلول هـــذا الأمـــر ؟

إنه يطلب من الكافرين بالله وآياته ورسوله أن ينظروا في دليل آخر غير الوحي ويبحثوا في كتـــاب آخر غير المنزل وهو كتاب الكون طالما كذبوا بالوحي . وأن كل شيء في الكون يدل على أن الله قادر على إعادة الخلق كما بدأه . بل إن الإعادة أهون وأيسر وإن كان كل شيء في حق الله سهل وهـــين . ففي كل يوم إحياء وإماتة ، شروق وغروب ، طلوع وأفول . في النبتة التي تصير شجـــرة كبـــيرة ثم تموت ، ثم تعاد ببذرة أخرى ، في البيضة ، في الحيوان ، في الشمس والقمر والنجوم ، في الطفل الجنـــين ثم صيرورته رجلاً كبيراً ثم في موته ، ثم في ظهور ذريته التي تعيد نفس الكرة . في كل ذلك آيـــات ، إن كانوا يكذبون الوحي .

أما المؤمنون فإنهم ليسوا مخاطبين بها! فهم يؤمنون بالغيب ، ثم هـــم قـــد فصـــل لهـــم الخلـــق ، وخلق كل شيء ، فصل لهم بالوحي تفصيلا . حيـــــث لا يبقـــى بعـــده إبهـــام أو غمـــوض . ثم إن طلب السير يكون للوقوف على قدرة الله وعلى إثبـــات اليـــوم الآخـــر . أمـــا غـــير ذلـــك مـــن البحث والاستطلاع ، سواء لاستكشاف المجـــهول ، أو للمعرفـــة والثقافـــة ، وللتقـــدم المـــادي . فإن كل هذه الأهداف لا تندرج تحت الآية لأنه تعالى يقول بعـــد الأمـــر بالســـير :

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُـــمَّ اللَّـــهُ يُنشِـــئُ النَّشْـــأَةَ الآخِـــرَةَ إِنَّ اللَّـــهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ثم إنه تعالى أمر فقط بالســـــير في الأرض فـــلا يكـــون البحـــث في الفضـــاء لأنه .. (فضـــاء) .

وترى .. هل كان غير المؤمنين الذين ســـاروا في الأرض وســـبحوا في الســـماء يبحثـــون عـــن هذه الأمور : المبدأ والميعاد وإن الله على كل شيء قدير؟ لـــنرى : لقـــد أتيحـــت للبشـــرية بعـــد عصر النهضة وسائل وأدوات لم تكن في متناول من كان قبلـــــهم . بـــل لم تخطـــر للغـــابرين علـــى بال .

هذه الوسائل اختصرت المسافات ، ووفرت الجهد ، وقربـــت البعيـــد ، وأظـــهرت المخفـــي ، وأخرجت الخبأ . وأصبح السير في الأرض يســـتغرق دقـــائق أو ســـاعات بعـــد أن كـــان يتـــم في أشهر وسنوات ، ووصل الأمـــر إلى أن أصبحـــت الأرض كلـــها مـــن مشـــرقها إلى مغربهـــا بـــين أيديهم ونصب أعينـــهم .

فهل استفادوا بذلك للبحث في ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّـــهُ يُنشِـــئُ النَّشْـــأَةَ الآخِـــرَةَ إِنَّ اللَّـــهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيـــرٌ﴾ .

* الدكتور (إدوارد لوثر كيسيل) عالم الأحياء يقول عن الهدف من سيرهم في الأرض :
" وطبيعي أن البحوث العلمية لم يكن يقصد منها إثبات وجود الخالق . فغاية العلوم هي البحث عن خبايا الطبيعة واستغلال قواها ، وهي لا تدخل في البحث عن مشكلة النشأة الأولى فهذه من المشكلات الفلسفية " .

** السير (جيمس جينز) الفلكي الأشهر والطبيعي الأكبر يقول بعد سيره الطويل في الأرض .. بل وفي السماء : " إن هذا الوجود (الكون) ليس له وجود فعلي ، بل هو مجرد صورة في أذهاننا وأننا نعيش في عالم من الأوهام " .

*** أما (يورى جاجارين) أول من سبح في الفضاء فقد قال بعد أول تجربة قام بها في الخروج من الأرض والصعود في الفضاء قال عندما نزل إلى الأرض : " صعدت لأبحث عن الله فلم أجده " .

إذاً فقد كذب هؤلاء بالوحي ، ورفضوا أن يسيروا في الأرض لينظروا كيف بدأ الخلق وكيف يبدأ الله الخلق ثم يعيده . فكيف يكون لديهم علم بالأرض أو السماء ومن أين ؟ وقد حكم الله عليهم بأن يكونوا في الظلمات ، وأخبرنا بأنهم (لا يعقلون ، ولا يعلمون ، ولا يفقهون ، ولا يبصرون) وأنهم (غافلون) .

ليس أمامنا إذاً غير مصدر واحد وهو الله ، خالق كل شيء ، وهو أصدق القائلين ، وهو الذي بين لنا كل شيء ، وهو الذي فصل لنا كل شيء . أما ما وصل إليه هؤلاء من علوم ونظريات فهي لا تلزم المؤمنين في شيء ، فهي كما قال (إيرل تشستر ريكسي) بأمانة :
" النظريات الحديثة التي تفسر نشأة الكون والسيطرة عليه بصورة تخالف ما جاء في الكتب السماوية ، تعجز عن تفسير جميع الحقائق وتزج بنفسها في ظلمات اللبس والغموض ، وإنني شخصيا أومن بوجود الله وأعتقد في سيطرته على هذا الكون " .

إن هذه النظريات " التي تفسر نشأة الكون والسيطرة عليه بصورة تخالف ما جاء بالكتب السماوية " تبناها علماء المسلمين بشدة وأخذوها بقوة ، سواء منهم العلماء التجريبيون أم علماء الشرع ، أما علماؤنا التجريبيون – فلكيون وطبيعيون وغيرهم – فقد تركوا آيات الله وراءهم ظهرياً . واستمسكوا بنظريات الغرب وكأنها (وحي يوحى) بل فضلوها على الوحي ، وانبهروا ولا يزالون ، بكل ما يقولونه حتى ولو خالف نص القرآن صراحةً . وأصبحت هذه النظريات هي قرآنهم ، فراحوا يتدبرونها ويترنمون بها ، ويشرحونها

ويفسروها ، ويستخرجون منها العبر والعظات ويدرسونها على طلاب العلم ، ولا يستحلون نقدها من أحد منهم ، أما لو نقدها واحد من الغربيين فله ذلك وهم أهل لهذا .

أما علماء الشرع فالمصيبة ادهي وأمر ، إذ نجد علماء الغرب التجريبيين يعتبرون ما توصلوا إليه (نظريات) أي وجهات نظرهم في الأمر . أما علمائنا فعندما يعرضون هذه النظريات فإنما يفعلون ذلك على أساس أنها حقائق علمية مثبتة تم التوصل إليها .

هل هناك أعجب من هذا ؟ أصحاب النظريات يفترضون ، وأتباعهم يثبتون !!

واستطاع علمائنا من كل لون أن ينشروا هذا المذهب التجريبي ، وهذا الدين الجديد (العلمانية) الذي ينتزع خصائص الإله ويعطيها إما للطبيعة وإما للمكتشفين ونجحوا باقتدار على أن ينسخوا قول الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾ (فاطر:٤١) ويثبتوا قول نيوتن أن الأجرام السماوية تتحرك بقانون الجاذبية . ولو سألنا طالب علم أو تلميذ صغير عن علمه بالآية فإنه سينفي أي معرفة بها ، وسيخبرك دون تفكير أن القانون الذي يحكم كل ما في الأرض أو السماء هو قانون الجاذبية – وبالطبع – لنيوتن وليس لله . وهكذا كل ما في الكون من ظواهر كان الله تعالى ينسبها لنفسه أصبح الآن من المعلوم تماما أن لها قوانين تحكمها ليس منها ..(الله) .

لذلك ..

فإنني أعلن كفري بكل هذه النظريات ، وأعلن إيماني بالله وحده وبآياته ، وإن كانوا يقولون : (لا يعرف الشوق إلا من يكابده) فإننا نقول : (ولا يعرف الكون إلا خالقه) . وصدق الله ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (الكهف:٥١) .

فلسنا في حاجة إذاً لنظرياتهم فهي باطلة ، ولسنا في حاجة لأن نسير في الأرض لننظر كيف بدأ الخلق ، لأننا نؤمن بالوحي ، ونصدق الله تعالى ، ونشهد بأنه الخلاق العليم ، وأنه سبحانه يبدأ الخلق ثم يعيده . وأنه على كل شيء قدير وقد أخبرنا تعالى عن قصة الخلق في القرآن بتفصيل دقيق ، وبيان كامل ، لا يبقى بعده جهل ، أو غموض .

والقرآن في ذلك لم يدع سراً ، ولم يأت بجديد ، فكل الكتب المنزلة تحدثت في ذلك لمن نزلت إليهم . وكل الأنبياء والمرسلين أخبروا أممهم بهذا ، وكان ذلك جزءاً من المهمة التي كلف بها الأنبياء ، ولأنها أيضا ضرورة من ضرورات العبادة المطلوبة من الإنسان ، أن يتعرف

على الكون من حوله ، وعلى شـركائه في العبودية ، والكـون كلـه عـابد . فمعرفـة خلـق السموات والأرض وما بينهما وما فيهما من آيات قاسم مشترك بـين الأمـم والقـرون .

بل من البشر من رأى هذه الآيات عياناً ، وأطلعه الله علـى الملـك والملكـوت ، كمـا فعـل تعالى مع إبراهيم عليـه السـلام ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام:٧٥) وكما تم لموسى عليه السـلام ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ (طه:٢٣) وكما تم أيضا لمحمد ﷺ ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (النجم:٢٣) وعلـى ذلـك فكل ما صدر عن هؤلاء من كلام عن الخلق ليس وجهة نظر ، بـل هـي رؤيـة نظـر ، شـهدوا بأعينهم وسمعوا بآذانهم وأخبروا من ربهم . فهي من ثم حقائق وليـس افتراضـات ونظريـات .

لذلك لا نعجب إذا رأينا قصة الخلق قـد ذكـرت في العـهد القـديم بقريـب مما جـاء في القرآن ، ومتشابهة أيضا إلى حد كبير مع ما ذكرته الحضـارات الغـابرة ، خاصـة أقدمـها علـى الأرض كحضارة المصريين القدماء . وهي كلـها تتشـابه ، ويجمـع بينـها – الكتـب المقدسـة والقرآن والحضارات – رابط عام . وفي نفس الوقت تختلف قصة الخلـق في هـذه المصـادر عـن قصة التكوين في نظريات العصر الحديث التي هي أبعد مـا تكـون عـن العقـل والمنطـق . ومـع ذلك تبناها علماء الإسلام الآن وألبسوها ثوب المشروعية بإدعـاء أنها متوافقـة مـع القـرآن . وهم إذ يقولون ذلك يحسبون أن القرآن وحده هو الذي سـبق في ذكـر قصـة الخلـق والحقيقـة غير ذلـك .

فقد فصل الله قصة الخلق لكل الأمم وفي كل الكتـب ، وآخرهـا القـرآن .

فكما قال تعالى عن القرآن ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ .

فقد قال تعالى عن التوراة : ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام:١٥٢) . وقال تعالى : عن كل الأمم ﴿ولقـد جئنـاهم بكتـاب فَصلناهُ عَلى عِلم هُدىً وَرَحمةً لِقَوم يُؤمنُـونَ﴾ (الأعـراف:٥٢) .

إذاً فدعوى سبق القرآن هي تكذيب لآيات الله وتكذيـب للقـرآن .

ورب قائل يقول : أن الذي يدفع علمائنا لاستدلالهم بهذه النظريـات علـى صـدق القـرآن هو حرصهم على الدعوة للدين وأنه يشفع لهم حسـن النيـة .

نقول : بأننا لا نشك بالطبع في إخلاص علمائنا ، ولا في سـلامة نيتـهم ، ولكـن ... المبـدأ القائل بأن الغاية تبرر الوسيلة . ليس مبدأ إسلاميا بل لا ينتمي إلى أي ملـة . والقـرآن قـد حـدد وسائل الدعوة ، ورسم الطريق الذي ينبغي أن يسـير عليـه الدعـاة وأي تجـاوز سـيحيد عـن

الطريق وقال تعالى : ﴿وأنَ هَذَا صراطِي مُستقيماً فَاتبعوهُ وَلا تَتبعُوا السُبُل فَتَفرقَ بِكُم عَن سَبِيله﴾ (الأنعام:١٥٣) وقد قال تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (يوسف:١٠٨) وقد أمر الله تعالى رسوله أن يدعو بالقرآن ﴿فذَكِر بِالقُرآنِ مَن يَخَافُ وَعِيد﴾ (ق) وأمره بأن يلتزم بالقواعد التي وضعها له سبحانه وتعالى في دعوته : ﴿فاستَقِم كَمَا أُمِرتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطغَوا﴾ (هود:١١٢) وليس فقط يلتزم بالقواعد الربانية ، بل وأيضا لا يلتفت إلى المشركين وإلى أقوالهم ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعِرض عَنِ المُشركِينَ﴾ (الحجر:٩٤) .

ولقد عاتب الله رسوله أشد معاتبة جاءت في القرآن لتجاوزه - بحسن نية - عن قاعدة صغيرة من هذه القواعد ، أنه أعرض عن أعمى فقير حرصا علي دعوة الكبراء والسادة . وقد تجاوز دعاة اليوم الحدود المرسومة لهم من ربهم ، وسلكوا سبيلا غير سبيله تعالى ، فكانت النتيجة التي نراها ، أصبح القرآن تابع لا متبوع ، وأصبح المسلمون خلف الركب وأصبح الشباب مفتقد الهوية ، مسلوب الإرادة ، معدوم الانتماء ولو جبت الأرض مشرقها ومغربها فلن تستطيع أن تميز من بين سكان الأرض من المؤمن ومن الكافر وما ذلك إلا لعدم التمييز ، واختلاط المفاهيم ، وتداخل الثقافات ، وتميع المعتقدات ، لكنك ستجد فرقا بين شعوب متقدمة وأخرى متخلفة وهو أمر واضح جلي ولو سألت عن هؤلاء وهؤلاء لعلمت أن المسلمين هم المتخلفون والآخرين هم المتقدمون وليس العيب في الإسلام إنما العيب في حامليه .

* * * * *

مقتطفات من أقوالهم :

سنورد بعضا من أقوال علمائنا وآراءهم في مسألة الخلق وما يقولنه عن توافق هذه النظريات الحديثة مع القرآن ، وكيف يعرضونها كحقائق ثابتة على جماهير الناس بينما أصحاب هذه النظريات أنفسهم لا يقولون بثباتها .

الدكتور (مصطفي إبراهيم فهمي) يقول في كتابه (علوم القرن الحادي والعشرين) وهو صادر من (دار المعارف) وهي دار نشر رسمية لجمهورية مصر العربية ، الإسلامية : " لقد بدا كوكبنا - يقصد الأرض - بالانفجار الذي حدث منذ ما يقرب من عشرة بلايين من السنين ، ولم تتكون المجموعة الشمسية إلا بعد مرور بليون سنة أخرى أو تزيد . ثم حدث تطور بيولوجي بطيء من الكائنات البسيطة الأولى وحيدة الخلية ، ولم تظهر الكائنات المركبة متعددة الخلايا إلا منذ ٦٠٠ مليون سنة ، وأخيراً منذ فترة تحسب بالآلاف لا غير ، ظهر

الإنسان العاقل ، المدرك ، الذي يستطيع أن يسأل أسئلة ذكية عن وجود حياة على الكواكب الأخرى " .

إن الدكتور يوحي لنا أن ما يقوله مسلمات علمية ، فواضح هذا من عرضه " لقد بدأ كوكبنا " وهذا ما لم يقل به أحد أبداً . فإن القائلين بنظريات الخلق أنفسهم لم يثبتوا ولم يؤكدوا ، بل عرض كل منهم ما يراه ، وكل واحد منهم مختلف عن الآخر في رؤيته ولم يقل قائل منهم أن هذا ما تم حقيقةً ، بل " يفترض " و " يرى " و " يبدو " و " يحتمل " وهكذا يعرضون نظرياتهم .

فنظريات بدء الخلق قال بها كثيرون (كانت ، بيير لابلاس ، ولمولتون ، وتشامبرلين وجيتر ، وهابل ، وليتليتون ، وأوتوشميت ، وفيسينكوف ، وإمبار سوميان) ... وغيرهم وغيرهم ، لكل واحد منهم نظريته عن الخلق تسمى باسمه وكل هؤلاء لم يتفقوا على رأي ، وكل منهم وضع تصورا يراه لبدء الخلق لا شأن له بالنظرية الدينية ، ولم يضع أحد منهم في اعتباره وجود إله خالق . ولا يمكن تلخيص هذه الآراء وجمعها في نظرية واحدة ، فعلى أي أساس ذكر الدكتور نظرية الخلق بالطريقة التي ذكرها .

وكما نرى من مقولة الدكتور أن الكون حدث نتيجة انفجار وليس خلق ، وهذه في الحقيقة وجهة نظرهم جميعا ، وهم لا يقولون خلق وإنما يقولون " ظهور" . كما نلاحظ أيضا أن الخلق أو الظهور كما يقولون لم يتم في ستة أيام - كما قال الله - وإنما حدث خلال بلايين السنين .

وملحوظة أخيرة نراها في كلام الدكتور : أن الإنسان ظهر - وليس خلق - حسب هذه المقولة نتيجة نشوء وارتقاء . بدءً من خلية واحدة ، إلى كائن متعدد الخلايا ، إلى إنسان يفكر هذا التفكير . أي أن الإنسان وجد نتيجة مصادفة . وليس خلق .

هذا المثال الذي ذكرناه هو ما يقول به معظم علماء الإسلام من التجريبيين إلا النذر اليسير . ويعلم هذا لطلبة العلم من المدارس الابتدائية حتى الجامعات ، ويعرف للناس في كل مكان .

أما علماء الشرع فقد استطاعوا تجميع هذه النظريات المختلفة والمتباينة وولفوا بينها وألفوا . ثم قالوا لنا أنها قد ثبتت علميا ، وأن القرآن قد نص عليها من فوق سبع سموات

ومنذ أربعة عشر قرنا من الزمان . ولا ندرى أي من هـــذه النظريـات الثلاثـين أو أكـثر ، الـتي نص عليها القرآن وأيدهـــا .

إنها طامة ، أن يأتي واحد ليقول بذلك ، فما بالنـــا إن كـــان الكـل يقـول ذلــك . ومــن ؟ علماء الشرع والديـن .

قال الدكتور (محمد أحمد العمراوي) في كتاب (الإسلام في عصر العلـم) تحـت هـذه الآيـة : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًـا فَفَتَقْنَاهُمَـا﴾ (الأنبياء: ٣٠) .

" تقرر الآية في إعجـاز علمـي سـبقت بـه علمـاء الفلـك المحدثـين ، أن الكـون كلـه كـــان كيانا سديمياً ، غير متميز بعضـه عـن بعـض قبـل أن تتشـكل عوالمـه ، ومجراتـه ونجومه ، ثم أخذ يتميز ويتطور ، حتى صار إلي ما هو عليه ، ممـا يشـاهدون ويدرسـون " .

ويقول الدكتور (محمد جمال الدين القندي) في كتاب (لماذا أنـا مؤمـن) تحـت نفـس الآيـة : " ومهما يكن من شيء فإن الآية الكريمة تقـرر إعجـاز علمـي واضـح ، أن السـموات والأرض كانتا شيئاً متصلاً ، أو وحدة متجانسـة ، ثم تم انفصالهمـا وظـهورهما بمعـالم خاصـة " ثم يقـول الرجل " وهو عين ما يقرره العلم ، وتحاول تفسـيره النظريـات " .

ويقول الأستاذ (عبد الرازق نوفل) في كتـاب (دنيـا الزراعـة والنبـات) عـن هـذه الآيـة أيضا : " ولقد كانت السموات والأرض سديما واحدا عبارة عـن دخـان إذ أنـه غـازات عالقـة بها ذرات لعناصر ، وانفجر هذا الكيان لأسباب عجز العلـم عـن تفسـيرها وبقـوة عجـز عـن تقديرها ليتكون من هذا الانفجار السديمي السموات والأرض " . وهـذا مـا اتفـق فيـه وعليـه كل العلمـاء .

في كتاب (الإسلام يتحدى) يقول (وحيـد الديـن خـان) : " هـذه هـي الفكـرة العلميـة الجديدة عن الكون ، فقد توصل العلماء ، خـلال أبحاثـهم ومشـاهداتهم لمظـاهر الكـون إلي أن (المادة) كانت جـامدة وسـاكنه في أول الأمـر وكـانت في صـورة غـاز سـاخن ، كثيـف ، متماسك ، وقد حدث انفجار شـديد في المـادة قبـل ٥٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سـنة علـي الأقل فبدأت المادة تتباعد وتتمـدد " .

الشيخ (عبد المجيد الزنداني) في كتاب (توحيد الخالق) يقول تعليقا على الآية : " لقد ثبت لدى العلمـاء بصفة فعلية أن الأرض انفصلت عما في السماء ، ولكن الاختلاف بين الباحثين ينحصر في تحديد الجزء

الذي انفصلت عنه . فمن نظرية تقول بأن الأرض انفصلت عن الشمس ، ومن قائل : انفصلت عن نجم .

وإذا كان يصعب على الإنسان تصور أن هذه الأرض ، كانت جزءً من السماء فإن البدوي أكثر الناس سخرية من هذا القول ، غير أن هذه الحقيقة الكونية قد أجراها الله على لسان رجل أمي لا يعرف القراءة والكتابة قبل أربعة عشر قرنا من الزمان فيما أوحي إليه من القرآن " .

نكتفي بهذا العدد من العلماء ، وبهذا القدر من توفيقهم ، وما هو بتوفيق ولكنه شيء أخر . ومن ذكرت من أسماء – لهم عند الناس مكانة وعندي أكثر . ولهم على الناس فضل علمهم وعليّ أكثر – ولكن الحق دعانا لأن نسمي الأشياء بأسمائها .

أولا: من الذي قال من التجريبيين أن شيئا من ذلك قد (ثبت) ؟

لم يقل أحد منهم أبدا أنه قد ثبت لديه ما قالوه ، ولكنهم جميعا يفترضون . فقط .

ثانيا: من الذي قال من التجريبيين أن الأرض انفصلت عن السموات ؟

اقسم بالله العظيم أن أحد منهم لم يقل ذلك ، لا تصريحا ولا تلميحا ، لا من قريب ولا من بعيد ، فمن أين أتى علمائنا بهذا الكلام ؟ لم يذكر أحد من أصحاب نظريات الكون شيئا عن السموات والأرض التي تتحدث عنها الآية ، لم يقل واحد منهم بذلك أبدا ، أن السموات والأرض كانتا كتلة واحدة .

بل إن غاية نظرياتهم أن نجما اصطدم بالشمس ، أو أن الشمس انفجرت من ذاتها . فهم يريدون أن يقولوا : أن الأرض والشمس وبقية الكواكب التسعة كانوا جميعاً شمسا فانفجرت ، أو نجما فاصطدم ولم يذكروا سموات أبدا في كلامهم . وأما الآية التي يعلقون عليها بكلامهم فلم تذكر أبدا شمساً ولا نجماً ولا كوكبا وإنما تقول أن السموات التي فوقنا كانت كلها ملتصقة بالأرض التي تحتنا ففتقهما الله .

أما الشمس والقمر والنجوم والكواكب فقد خلقهم الله بعد ذلك ، ولا علاقة لهم بمسألة الفتق أو الرتق هذه ، وأن الشمس والقمر والنجوم ليسوا من الأرض ولا من السماء ، بل خلق مستقل ، سيفصل فيه الأمر بإذن الله .

إن النظريات التي طرحها أصحابها لم تأت كما قال علمائنا نتيجة ، تحليل أو تجريب ، أو رؤية ، أو مشاهدة ، ولا حتى بحث ، بل كما ذكرنا (أي كلام) يعني أنهم يفترضون فرضا ،

ومن الظلم البين مقابلة ما قالوه مع كلام الله عز وجل . ثم ما هو وجه المقابلة بين (الرتق) الذي قـالت عنه الآية للسموات والأرض وبين (السديم) أو النجم أو الشمس الذي قالت عنه النظريات .

وما علاقة (الفتق) الذي تقول عنه الآية . و(الانفجار) الـذي تفترضـه هـذه النظريـات . في أي تفسير من التفسيرات يكون معنى (ففتقناهما) : الانفجـار ؟

وبأي لغة وبأي عقل وبأي منطق يبدأ الكون بالانفجـار والدمـار ؟

إن التفسيرات تخبرنا بأن السموات والأرض كانتا شـيئين ملتصقـين ، ففتقـهما الله ، وليـس شيئا واحدا وانفجر . ثم الآية تقرر أن الله هـو الـذي فتـق ، والنظريـات تقـول أن الانفجـار نتيجة للتصادم (حادث سماوي) ولا علاقـة لله بـه .

ماذا نسمي هذا ؟ أنسميه توفيـق ؟

إن هذا نموذج لآية واحدة ، وسنذكر فيما بعد بعض آيات أخـرى بـإذن الله وإنمـا ذكرنـا هـذا الآن كنموذج ومثال . ولا ندرى ماذا يقصد علمائنا مـن ذلـك ؟ أيريـدون إسـلام الكـافرين ؟ أم يريدون توثيق إيمان المؤمنين ؟ الحق أننا لا نرى أثـر هـذا أو ذاك . لا نـرى إلا افتتـان النـاس بأصحاب هذه النظريات الذين يؤيد القرآن كلامـهم . وسـبحان الله القـائل :﴿مَـا أَشْـهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْـقَ أَنفُسِـهِمْ وَمَـا كُنـتُ مُتَّخِـذَ الْمُضِلِّـينَ عَضُـدًا﴾ (الكـهف: ٥١) .

بـدء الخلق في النظريـات الحديثـة

تتعدد النظريات وتتباين في تفسير بدء الخلق وكلها تتعارض – عـن عمـد – مـع مـا قالـه الله تعالى . وهي لا تتعرض لخلق السـموات لأنهـا لا تعـترف بوجودهـا . ومـن ثم لا تعـترف بعرش ولا بكرسي ، ولا بملائكة ولا أي غيب فالكون عندهم هو المشـاهد والمحسـوس أمـا غـير المشاهد فهو مجهول يحاولون مع الوقـت كشـفه .

وكثيرة تلك النظريات التي تتحدث عن نشأة الأرض ومجموعـة الكواكـب والـتي يسـمونها جميعا (المجموعة الشمسية) ومن ثم فهم لا يتعرضون لباقي مـا في السـماء مـن نجـوم أو مجـرة أو غيرهما . وسنذكر بعض هذه النظريات التي تعـرض وجهـة نظـر صاحبـها في كيـف تكونـت المجموعة الشمسية التي نعيش في واحدة منـها وهـي (الأرض) :

(١) نظرية كانت (١٧٢٤ – ١٨٠٤):

يرى (كانت) أن الكون يزخر بأجسام صغيرة صلبة في حالة ثبات ، ولكنها كانت تختلف عن بعضها في الحجم والكثافة . ثم بدأت هذه الأجسام تتجاذب فتحركت الأجسام الصغيرة منها نحو الكبيرة ، وأخذت تتصادم مع بعضها وتلتحم مكونة لأجسام أكبر ، واستمرت هذه الأجسام الكبيرة تجذب إلى مجالها الأجسام الأصغر حجماً .

فنشأ عن ذلك تكوين عقد ضخمة من المواد الكونية .

وقد أخذت هذه العقد تتجاذب وتتصادم . ونتج عن تصادمها توليد حرارة هائلة كانت كافية لصهرها ، ثم تحويلها إلى غازية متوهجة ، تشبه السديم وأصبح هذا السديم يدور حول نفسه بسرعة كبيرة ، وبدأت تنفصل منه حلقات غازية نتيجة لقوة الطرد المركزية ، كل حلقة منها لها قوة جاذبية خاصة بها . وهي الجسم المركزي الذي تمثله شمسنا الحالية . وبالتدريج تكاثفت مواد كل حلقة في هيئة نيازك أخذت تتحد ببعضها بتأثير قوى الجذب مكونة لكوكب .

وهكذا تكونت مجموعة الكواكب المعروفة التي تدور حول الشمس انتهى (كانت) من عرض رؤيته عن تكون المجموعة الشمسية وقبل أن ندخل في غيرها نذكر بأن (كانت) لم ير شيئا ، ولم يجرب شيئا ، ولم يختبر شيئا ، ولم تدرك حواسه شيئ ، وإنما يقول (كلام) . يدرس هذا (الكلام) في الجامعات كذلك لم يذكر (كانت) فاعلا للأفعال التي ذكرها ، فلم يقل لنا من الذي يحرك هذه الأجسام ومن يؤلف بينها . لكنه ذكر أن ذلك بفعل (الجاذبية) ، فالمحرك لهذه الأجسام هي الجاذبية ، ولو سألناه : ما هي الجاذبية ؟ لقال : لا أعرف .

(٢) نظرية (لابلاس : ١٧٤٨ – ١٨٣٧):

يدعي صاحب هذه النظرية أن المادة التي تكونت منها الشمس والكواكب وتوابعها كانت عبارة عن جسم غازي ملتهب (سديم) كان يدور حول نفسه (لسبب غير معروف) وبسبب تجاذب مكوناته بدأ السديم يتكاثف عند مركزه ، وقد أدى هذا إلى تكوين الشمس وفي البداية كانت الشمس ما تزال مغلفة بالسديم الذي كان يدور حولها .

وقد أخذت حرارة السديم تنخفض تدريجياً . إذ كانت تشع في الفضاء وبالتالي أخذ يبرد بالتدريج وينكمش . وقد أدى هذا إلى ازدياد في سرعة دورانه ، حتى بلغت تلك السرعة درجة تفوقت عندها قوة الطرد على قوة الجذب المركزية . ونتيجة لهذا بدأ السديم يفقد

شكله الكروي ، ويتحول إلى شكل شبيه بالكرة ، فانبعج عند خط استوائه ، وبدأ يتحلل في شكل حلقات عديدة ضيقة ورفيعة . وبسبب عدم تساوى وانتظام التبريد تحطمت الحلقات ، ثم نتيجة لقوى الجذب المتبادل بين الأجزاء المحطمة تكونت الكواكب السيارة حول الشمس . انتهي (لابلانس) من عرض رؤيته ، ونذكر بأن الرجل لم يرى شيئا ولكنها (وجهة نظره) .

(٣) نظريه (مولتون – تشمبلولين) ١٩٠٤ :

ترى أن الكواكب قد تكونت نتيجة تأثير متبادل بين نجم وشمس ، حيث اقترب ذلك النجم من الشمس وجذبها إليه ، فحدث فيها تمدد عند جانبيها المقابل والمظاهر للنجم .

كما حدث انفجار في جسم الشمس نتيجة للضغط الشديد الواقع على أجزائها الداخلية ، ونجم عن هذا وذاك أن انفصلت عن جسم الشمس أجزاء أو ألسنه ملتهبة من المنطقتين اللتين أصابهما المد على دفعات متتابعة ، ثم أخذت تلك الأجزاء تتلاحم ويجمع الكبير منها – بدرجات متفاوتة – الأجسام الصغيرة المبعثرة التي تعرف بالكويكبات وأخذت تنمو إلى أن وصلت إلى حجم الكواكب العشرة المعروفة التي تتكون منها المجموعة الشمسية . (نذكر بأن هذه وجهة نظره) .

(٤) نظريه الفريد هابل (١٩٤٦) :

يفترض هابل أن النجم المصاحب للشمس وسماه (نوفا) كان يفقد كميات هائلة مما يحتوى من الأيدروجين بالإشعاع . وقد تسبب هذا في تقلصه وانكماشه ، وبالتالي ازدادت سرعة دورانه فانفجر بشدة وعنف . ويعتقد هابل أن عنف الانفجار النجمي قد أدى إلى طرد نواة هذا النجم المصاحب للشمس بعيدا عن مجال جاذبية الشمس ، ومنه نشأت وتكاثفت الكواكب المعروفة فيما بعد . (انتهي) .

هذه بعض نظريات نشأة المجموعة الشمسية وليس في أي منها سموات أو أرض ، أو فتق ، أو رتق . وليس هناك أي تشابه ولو بسيط بين ما تخبرنا به الآية القرآنية وما تفترضه هذه النظريات ، والتي ما تعددت وكثرت إلا لآن كل نظرية تجد من الانتقادات والتناقضات ما يدفع آخر بأن يأتي (بأي كلام) ثم بعد ذلك ينتقد هو الآخر ويمر بنفس الصعوبات التي مرت بها النظريات السابقة ... وهكذا . وصدق الله ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ .

هل في هذه النظريات ما يتوافق مع كلام الله ؟ هل في هذا الكـــلام مـــا هـــو ثـــابت علميـــا ؟ هل يقبل العقل ويستسيغ هذا الهـــــراء ؟

هذه النظريات معتمدة رسميا ، وتدرس في المدارس الابتدائيـــــة وفي الجامعـــات ولم يوضـــع مـــن بين هذه النظريات ما قاله القرآن عن بدء الخلق . لا يمكن أن تجـــــد أبـــدا في كتـــاب مـــن كتـــب العلوم أو الجغرافيا أو الفلك أو غيرها مما تتحدث عن بـــــدء الخلـــق أي ذكـــر للنظريـــة القرآنيـــة والطريقة الإلهية ، وهذا في كل بلاد الله والإسلامية منها علـــى وجـــه الخصـــوص .

* * * * *

بدء الخلق في التوراة

أما بدء الخلق في الكتاب المقدس ، فهو أقرب ما يكون إلى العقـــــل وإلى الديـــن وهـــو مشـــابه إلى حد كبير مع ما جاء في القــــرآن .

يقول العهد القـــديم :

" في البدء : خلق الله السماء والأرض وكـــانت الأرض خربـــة وخاليـــة ، والظلمـــات تغطـــى اللجة وروح الله يرف على المبـــــاه " (الإصحـــاح الأول:١:٢) .

" وقال الله : " ليكن نور ، فكان نـــور ، ورأى الله أن النـــور حســـن ، وفصـــل بـــين النـــور والظلمـــات ودعا الله النور نهارا والظلمات ليلا . وكان مســـاء وكـــان صبـــاح : اليـــوم الأول " الآيات مـــن (٣:٥) .

" وقال الله : ليكن جلد وسط المياه ، وليكن فاصل بين مياه وميـــــاه . وكـــان كذلـــك فعمـــل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلـــد ودعـــا الجلـــد : سمـــاء . وكـــان مساء وكان صباح : اليوم الثـــاني " (الآيـــات مـــن٦:٨) .

" وقال الله : لتجتمع المياه تحـــت الســـماء إلي مكـــان واحـــد في كتلـــة واحـــدة ، ولتظـــهر اليابسة . وكان كذلك . ودعا الله اليابسة أرضا . ومجتمع الميـــــاه دعـــاه (بحـــارا) ورأى الله ذلـــك حســـن " .

" وقال الله : لتنبت الأرض خضرة عشبا يحمل بذراً من جنســـــه ، وشـــجرا يعطـــي ثمـــراً مـــن جنسه بذراً . ورأي الله ذلك أنـــــه حسن . وكان مســـاء وكـــان صبـــاح : اليـــوم الثـــالث " (الآيات مـــن ٩:١٣) .

" وقال الله : لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل ، وتكون علامات للأعياد ، كما للأيام والسنين ولتكن أنوار في جلد السماء لتضيء الأرض . وكان كذلك . وعمل الله المنيرين العظيمين المنير الأكبر لحكم النهار ، والمنير الأصغر لحكم الليل – والنجوم . وجعلها الله في جلد السماء لتنير الأرض ، ولتحكم علي النهار والليل . ولتفصل بين النور والظلمة . ورأي الله ذلك أنه حسن ، وكان مساء وكان صباح : اليوم الرابع " (الآيات من:١٤:١٩) .

" وقال الله : ولتعج المياه بعجيج الكائنات الحية ولتطر طيور فوق الأرض وعلي وجه جلد السماء . وكان كذلك " وخلق الله كبار ثعابين البحر ، وكل الكائنات الحية التي تنزلق وتعج في البحار ، كل بحسب جنسه ، وكل ذي جناح بحسب جنسه . ورأي الله ذلك أنه حسن وباركها الله قائلا : أثمري واكثري واملئي البحار ، وليتكاثر الطير علي الأرض . وكان ليل وكان نهار : اليوم الخامس " (الآيات من ٢٠ :٢٣) .

" قال الله : لتخرج الأرض الكائنات الحية كجنسها ، كبهائم ، ودبابات ، ووحوش ، كجنسها ، وكان كذلك ، فعمل الله الوحوش كجنسها ، والدواب كجنسها ، وكل دواب الأرض كجنسها . ورأى الله أنه حسن " .

" وقال الله : لنعمل الإنسان علي صورتنا كشبهنا . ويتسلطون (كذا بالنص) علي سمك البحر ، وعلي طيور السماء ، وعلي البهائم وعلي كل الوحوش والدبابات التي تزحف علي الأرض " .

" فخلق الله الإنسان علي صورته ، وعلي صورة الله خلقه ، ذكراً وأنثي خلقهما وباركهما الله وقال لهما : أثمرا واملأ الأرض ، وأخضعاها وتسلطا علي سمك البحر ، وطيور السماء ، وعلي كل حيوان يدب علي الأرض " . " وقال الله : اني قد أعطيتكما كل بقل يحمل بذراً علي وجه الأرض وكل شجر فيه ثمر ويحمل بذراً ، لكما يكون طعاما . ولكل الوحوش ، ولكل طيور السماء ، ولكل دابة علي الأرض وكل كائن حي أعطيت كل خضرة النباتات طعاماً . وكان كذلك .

" ورأى الله كل ما عمله : فإذا هو حسن جـــداً . وكـــان صبـــاح . وكـــان مســـاء : اليـوم السادس " (الآيات مـــن:٤٢: ٣١) .

ثم يكمل الكاتب قصة الخلق بثلاث آيات من أول الإصحاح الثاني : " فأكملت السـموات والأرض . بكل جندها . وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل . فاستراح من جميع عمله للخلق . هــذه مبادئ السموات والأرض حين خلقت " .

هذه هي آيات الخلق بالكتاب المقدس ، وواضح أنها ســبقت القــرآن بحــوالي ٢٠٠٠ ســنة . وواضح أن بدء الخلق فيها أقرب للقرآن من نظريات بـــدء الخلــق الحديثــة وذلــك لأن القصــة من عند الله في كلا الكتابين غير أن رواية الكتاب المقدس ليست النـــص الأصلــي ، بــل واضــح تماما أن دخل عليها تحريف ترفضه العقيدة الدينيـــة الصحيحــة ، وذلــك في افــتراض (الراحــة) التي يزعم هذا النص الكهنوتي أن الله – تعـــالى عـــن ذلـــك علـــوا كبـــيرا – اســـتراح في اليـــوم السابع . على حين لا يشير النص اليهودي ، الـــذي يســـبق النـــص الكـــهنوتي بعـــدة قـــرون إلى راحة الله الذي تعب من عمله طيلـــة الأســـبوع .

أما القرآن فإنه يكذبها صراحـــة في ســـورة (ق) .

قصة الخلق في الحضارات

ألف مجموعة من علماء الغرب كتاب (معجم الحضارة المصريـــة القديمـــة) الـــذي يتكلـــم عـــن أول الحضارات التي قامت على الأرض ، فيذكـــر الكتـــاب في مـــادة : (أســـاطير الخليقـــة) عـــدة نظريات قديمة لبدء الخلـــق :

النظرية الأولى :

تقول أنه كان هناك سطح مائي متسع ، إنعدمت فيـــه الحيـــاة في ذلـــك الوقـــت وقـــد أطلـــق المصريون على هذا السطح المائي اســـم (نـــون) .

يقولون : ورغم انعدام الحياة على سطح هذا الماء إلا أنه كـــان يحتـــوى علـــى جميـــع عنـــاصر الخليقة التي ستأتي بعد ذلـــك .

" أتى الرب خالق المستقبل ، ذات يوم في جوف هذه المياه ليـــدرك نفســـه ، وأضفـــي شـــكلا مادياً على فكرة نفسه التي تكونـــت في روحـــه " .

" بدا خلق نفسه دون أي مساعدة خارجية غير نفسه ، وبنفسه وحدها . ثم وجه اهتمامه إلى العمل الضخم لخلق العالم وأطلق على هذا الخلق الأول اسم (تاتنن) أي الأرض التي تبرز ، وشبه نطقها كلمة تدل علي سطح مائي ليستقر فوقه رب الخليقة وخليقته " .

النظرية الثانية : تقول :

بأن الإله لم يولد من شيء ، بل خلق نفسه بنفسه . ووضع الخليقة كلها من نفسه وكانت يده تعمل له . فصار الواحد ثلاثة ، بمولد الأول (الجو) و(الرطوبة) ثم انجب هذان بدورهما زوجا آخر جديداً هما : (السماء) و(الأرض) الذي فصل بينهما (الجو) . وبذا وضعت المظاهر الطبيعية للعالم الأرضي في مواضعها الصحيحة .

النظرية الثالثة : وهي مكملة لسابقتيا وتقول :

إن الإله الذي ضم مبادئ الخلق في شخصه ، صنع العالم المنظم بفعل قلبه ، هو نفسه ، الذي استوعب فكرة الشيء الذي يخلقه ، وبفعل لسانه الذي نطق بهذه الفكرة فأقام بدايات الخليقة بكلمته " الكلمة التي خلقت كل قوى الحياة . وكل ما يؤكل ، وكل ما يحبه أو يكرهه الإنسان " فقد أوجد الخالق النباتات والكائنات الحية ، خطوة خطوة . وفي ترتيب متغير ، غير أن عناصر هذه الخليقة لم تكن مرتبة بحسب أهميتها فكل ما خرج في بدء الخلق من يد الخالق أو من روحه كان على قدم المساواة مع غيره .

وكانت جميع المخلوقات مهمة . وكل له حقه ونصيبه وما من أحد كان أكثر أهمية من الآخر واعتبر غرض الخليقة والعالم هو الإنسان .

فقد كان البشر قطيع الإله ولذا حباهم بحظ ممتاز . فصنع لهم الأرض والسماء ، وطرد عنهم المياه المهددة . وصنع الرياح لتعطيهم هواء تتنفسه أنوفهم . لأنهم على صورته . وهو يضيء في السماء من أجلهم .

وبنفس هذه الطريقة صنع لهم النباتات والحيوانات والأسماك لتكون طعامهم " .

هذه هي (قصة الخلق) في الحضارة المصرية القديمة ورغم تعدد نظرياتها إلا أنها مكملة لبعضها البعض . ولا تبعد كثيرا عن النظرية الإسلامية للكون وذلك لأن مصر وجد فيها أنبياء كثيرون . وقد كان إدريس أول الرسل إليهم ويقال أنه (أوزوريس) المعروف أسطورته هو ذاته (إدريس) عليه السلام مع التحريف في الاسم والتحريف في القصة والأحداث .

كذلك جاء إبراهيم عليه السلام الذي رأى ملكوت ربه إلى مصر . كما ولد موسى وتربى وعاش في مصر ، وإلى حاكمها أرسل وبعث . كما أتت مريم وابنها أيضا إلى مصر . وجاء يوسف عليه السلام إلى مصر صغيرا وتربى وعاش ومات فيها ، واعتلى أعلى المناصب فيها (رئيس الوزراء) ، وغيرهم وغيرهم من الأنبياء الذين تذكرهم المصادر الإسلامية ويطمس ذكرهم التاريخ المزور . وما من شك أن هؤلاء جميعا قد ذكروا للمصريين قصة الخلق وكيف بدء الخلق ، غير أنها حرفت على مر السنين ، إلا أن خطوطها العريضة متفقة مع الكتب السماوية ومختلفة تماماً (جملة وتفصيلا) مع النظريات الحديثة . فالمصريون لم يقولوا هذا اكتشافاً ، أو اختراعاً ، أو افتراضا ، أو رأيا ، ولكنه وحي أوحاه الله إلى أنبيائه ولكن هذه النصوص لحقها التحريف كما لحق الكتب السابقة على القرآن .

بدء الخلق في القرآن

بأندى الكلمات ، وأرق العبارات ، وأبسط المبادئ والمعلومات ، يحدثنا أخر التنزيلات بكم زاخر من الآيات .

ليست هذه كلمات (كانت) ولا (لابلانس) ولا (هابل) ولا (مولتون) وليست كلمات (متى) ولا (مرقس) ولا (يوحنا) ولا (لوقا) . وليست كلمات (كهنوت) ولا (يهوه) . بل وليست هذه كلمات (محمد) ولا (جبريل) مع علمهما وصدقهما ، إنما أيها السادة الكلمات التي لا تقارن بغيرها ، ولا ترقى إليها كلمات ، إنما كلمات ربي ﴿قُل لَو كَانَ البَحرُ مِداداً لِكلمَاتِ رَبِي لَنفِدَ البحرُ قَبلَ أَن تَنفَدَ كَلماتُ رَبِي وَلَو جِئنـاَ بِمِثلِه مَدَداً﴾ (الكهف:١٠٩) .

هذا هو النص الأصلي لكلمات الله والتي لا يجرؤ عالم أن يتحمل مسئولية أن يقول أن على وجه الأرض كلمات أخرى تأخذ نفس القوة . وأنها فعلاً كلمات الله .

ولقد قال (موريس بوكاي) حقا ، ونطق صدقاً ، بعدما أجرى نموذجاً بشريا غاية في الدقة والأمانة للبحث في كل ما يقال أنها كلمات الله وخلص إلى أن : " صحة القرآن التي لا تقبل الجدل تعطى النص مكانة خاصة بين كتب التنزيل ولا يشترك مع نص القرآن في هذه الصحة ، لا العهد القديم ، ولا العهد الجديد " .

" إن القرآن قد استأنف التنزيلين الذين سبقاه ، لا يخلو فقط من متناقضات الرواية ، وهي السمة البارزة في مختلف صياغات الأناجيل ، بل هو يظهر أيضا لكل من يشرع في دراسته بموضوعية وعلي ضوء العلوم طابعه الخاص وهو التوافق التام لكل المعطيات

العلمية الحديثة . بل اكثر من ذلك وكما أثبتنا يكتشف القارئ فيه مقولات ذات طابع علمي من المستحيل تصور أن إنساناً في عصر محمد ﷺ قد استطاع أن يؤلفها ، وعلى هذا فالمعارف العلمية الحديثة تسمح بفهم بعض الآيات القرآنية التي كانت بلا تفسير صحيح حتى الآن " .

" ولا يستطيع الإنسان تصور أن كثيرا من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر ، وهذا بسبب حالة المعارف في عصر محمد ﷺ .

لذا فمن المشروع تماماً ان ينظر إلي القرآن علي انه تعبير الوحي من الله وأن تعطي له مكانة خاصة جداً . حيث أن صحته أمرا لا يمكن الشك فيه ، وحيث أن احتواءه علي المعطيات العلمية المدروسة في عصرنا تبدو أنها تتحدي أي تفسير موضوعي .

عقيمة حقا المحاولات التي تسعي لإيجاد تفسير للقرآن بالاعتماد فقط علي الاعتبارات المادية " .

هذه شهادة (موريس بوكاي) أحد علماء القرن العشرين .

وهذه شهادة لأحد صناديد الكفر في القرن الأول الهجري ، إنه (الوليد بن المغيرة) قال رغم كفره ، وشهد بعظمة القرآن وهو الذي عاصر تنزيله :

" إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمثمر ، وإن أعلاه لمغدق وإنه ليعلو ولا يعلى عليه " .

ببساطة بالغة ، وإحكام شديد ، وسحر أخاذ ، وبجمال رائع ، وباطمئنان من التحريف والتخريف ، يتحدث القرآن إليكم ، عن بدء الخلق ، حديثا مفصلاً لا يبقي بعده غموض ، أو إبهام ، أو مجهول كما يقولون عن هذا الفضاء الذي يلفنا ، فليس في السموات والأرض غيب في خلقهما ، لأن الله أعلمنا بكل شيء عنهما . ولم يعد هناك غيب يتشوف إليه الإنسان ، ويضحي بوقته وجهده من أجل الوقوف عليه ، إلا ما أعده الله كذلك من أمور أختص بها تعالى نفسه .

﴿ولله غَيبُ السَمٰوَاتِ وَالأَرضِ﴾ (هود:١٢٣) ﴿وعندَهُ مَفَاتحُ الغَيبِ لا يعلَمُهَا إلا هُوَ﴾ (الأنعام:٥٩) ذكر تعالى في كتابه أنه خلق سبع سموات ، ومن الأرض مثلهن ، وذكر تعالى كيف خلقهما ، وذكر تعالى مما خلقهما ، والمدة التي استغرقت خلقهما ، وآيات خلقهما ، وكل ما هو متعلق بوجودهما .

وحث تعالى مخلوقاته البشرية أن تنظر في بديـــع صنعـــه ، وجمـــال خلقـــه ، والتدبـــر في هـــذا الخلق ، واستثنى تعالى أمورا هي من خصائص ربوبيته لم يكلفـــهم البحـــث عنـــها ، أو فيـــها فـــهل يبقي بعد ذلك ، كما يقول الغـــافلون ، مجـــهول .

إن المتأمل لآيات الله تعالى ســـيجد فيـــها تفـــاصيل لا توجـــد في أي علـــم أو فـــن أو تـــاريخ ونكرر مرة أخري أن هذه الآيات لقوم يعلمـــــون ، أو يفقـــهون ، أو يؤمنـــون ، أو يذكـــرون ، أو يتفكرون ، أو يعقلون ، أو يتقـــــون .

قول تعالى في سورة فصلـــت :

﴿قُل أَئِنكم لَتكفرُونَ بالذِي خَلَقَ الأرضَ فِي يومَينِ وتَجعلُونَ لَـــهُ أَنـــداداً ذَلـــكَ رَبُّ العَـــالِمِينَ (٩) وَجعلَ فِيهَا رَوَاسي مِن فَوقِها وَبَاركَ فِيهَا وقَدَرَ فِيهَا أقوَاتَهَـــا فِي أربَعـــة أيـــام سَـــوَاءً لِلسَـــائلِين (١٠) ثُمَ استوَى إلَى السَماءِ وَهي دُخَان فَقَالَ لَهَا ولـــلأرضِ ائتِيَـــا طَوعـــا أو كَرهـــا قَالَتَـــا أتَينَـــا طَائِعِين (١١) فَقَضَاهُن سَبع سَموَات فِي يَومين وأوحي فِي كُلِ سَماءٍ أمرهَـــا وَزَيَنَـــا السَـــمَاءَ الدُنيَـــا بمصابِيحَ وَحِفظًا ذَلِكَ تَقدِيرُ العَزِيـــزِ العَلِيـــمِ (١٢)﴾ .

من وجهة نظري الشخصية أن الملفت والعجيب في هذه الآيات أن الله سبحانه وتعـــالى خـــاطب الكافرين . أي أن هذه المعلومات يعرضها الله تعالى للكافرين ، إن هذا التفصيل في مسألة الخلق كـــان للكافرين ، لأنهم هم الذين يقولون الآن أن الأرض خلقت من انفجار الشـــمس ، أو اصطـــدام نجـــم بالشمس ، لهؤلاء الكافرين يفصل الله تعالى قصة الخلق تفصيلا . كما تعالى : ﴿أَوَلَم يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَـــوَاتِ وَالأَرْضِ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَـــقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَـكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء) .

ومثـــل قولـــه تعـــالى : ﴿أَأَنْتُـــمْ أَشَـــدُّ خَلْقًـــا أَمْ السَّـــمَاءُ بَنَاهَـــا(٢٧)رَفَـــعَ سَـــمْكَهَا فَسَوَّاهَا(٢٨)وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْـــرَجَ ضُحَاهَـــا(٢٩) وَالأَرْضَ بَعْـــدَ ذَلِـــكَ دَحَاهَـــا (٣٠) أَخْـــرَجَ مِنْهَا مَاءها وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعـــاً لَكُـــم وَلأَنْعَـــامِكُم (٣٣)﴾ (النازعـات) .

هذه الآيات من سور (فصلت ، والأنبياء ، والنازعات) من اكبر الآيـــات الـــتي تتحـــدث عـــن تفصيل الخلق ، وهي كما نري تخاطب الكافرين ، لان المؤمنـــين يؤمنـــون بـــالغيب ويؤمنـــون بـــالله

وبقدرته بمجرد أيمانهم بالوحي وليسوا في حاجة لإقناعهم بقدرة الله ، فهم مؤمنون بذلك ، لذا فالله تعالى يعرض هذه الآيات الكونية علي الكافرين إذ لم يؤمنوا بآيات الوحي القرآنية .

في هذه الآيات عرض لقدرة الله تعالى وقوته التي لا تضارعها قدرة ولا قوة ، والتي توحي بأن كل ما عبد في تاريخ البشرية لم يكن لهم يد في هذا الخلق وليس لهم قدرة ولا قوة ، ومع ذلك اتخذ الكافرين مع الله أو من دونه أندادا يتعبدونهم ويتذللون إليهم ، فما من أحد يستحق العبادة والتذلل سوي الله وأنه ﴿لا إِلَهَ إلا اللَّهُ﴾ (الصافات:٣٥) التي لأجلها خلق الله الخلق ، وأوجد هذا الكون بكل ما فيه .

أخرج ابن جرير والنحاس وأبو الشيخ والحاكم وصححه مرداويه والبيهقي : أن اليهود أتت النبي ﷺ فسألته عن خلق السموات والأرض . فقال : " خلق الله الأرض في يومي الأحد والاثنين ، وخلق الجبال وما فيهن من منافع يوم الثلاثاء ، وخلق يوم الأربعاء : الشجر ، والحجر ، والماء ، والمدائن ، والعمران ، والخراب فهذه أربعة أيام . فقال تعالى : ﴿قُل أئِنكم لَتكفرُونَ بالذي خَلَقَ الأرضَ في يومَين وَتجعلُونَ لَهُ أَنداداً ذَلكَ رَبُ العَالِمينَ (٩) وَجعلَ فِيهَا رَوَاسي مِن فَوقَها وَبَاركَ فِيها وقَدرَ فِيهَا أَقوَاتَهَا في أَربَعة أيَام سَوَاءً لِلسَائلِين (١٠)﴾ وخلق يوم الخميس السماء ، وخلق يوم الجمعة ، النجوم ، والشمس ، والقمر ، والملائكة إلي ثلاث ساعات بقين منه فخلق في أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال (حين يموت من يموت) ، وفي الثانية ألقي فيها من كل شيء مما ينتفع به ، وفي الثالثة خلق آدم وأسكنه الجنة وأمر إبليس بالسجود له وأخرجه منها في آخر ساعة .

قالت اليهود ثم ماذا يا محمد ؟ قال : ثم استوي علي العرش . قالوا : قد أصبت لو أتممت ، ثم استراح . فغضب النبي ﷺ غضباً شديدا ، فنزل ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨) فَاصبِر عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ (ق) .

وروي أحمد وبن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : قلت يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي ، وقرت عيني ، فأنبئني عن كل شيء . قال " كل شيء خلق من الماء " .

وروي ابن عباس وعن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي : أنه قال تبيانا لقوله تعالى : ﴿هُو الَذِي خَلَقَ لَكُم مَا في الأرضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ (البقرة:٢٩) .

" أن الله كان عرشه علي الماء ، ولم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء . فلما أراد أن يخلق الخلق ، أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق الماء فسما عليه (أي علا) فسماه : سماء . ثم ايبس الماء فجعله أرضا واحدة ثم فتقها فجعل سبع أراضين في يومين " .

هذه باختصار هي (النظرية الإسلامية) لبدء الخلق . وكما هو واضح ليس فيها شمس ولا نجم . وليس فيها انفجار ولا اصطدام ورغم أنها النظرية الصحيحة الوحيدة التي توافقها الكتب المقدسة وأيضا تاريخ الحضارات البشرية إلا أنها الوحيدة التي لا تذكر في الكتب العلمية ولو حتى من ضمن باقي النظريات .

ألا يشرفنا أيها العلماء أن توضع (نظرية محمد) بجوار (نظرية كانت) أو (نظرية الفريد هـلبل) ؟؟

تفصيل (النظرية الإسلامية)

طبقا لنظريتنا فأصل الخليقة (الماء) وهو الذي عليه العرش ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء﴾ (هود:٧) .

وطبقاً أيضا لهذه النظرية (الحقيقية) فقد تم الخلق في ستة أيام ،وعلي ثلاث مراحل يومان مشتركان تم فيهما إيجاد السماء والأرض ويومان لدحو الأرض ويومان لتسوية السماء .

وقد ورد في القرآن آيات تفصل الخلق تفصيلا حيث تجعل قارئ القرآن كأنه يرى بدء الخلق مشهداً مشهداً ، ولحظة بلحظة ، ومرحلة مرحلة ،حتى لكأنه يحدث أمامه توا .

ورغم ذلك فنعترف أن بعض المفسرين للقرآن التبس الأمر عليهم ، لا لشيء إلا لكثرة التفاصيل المبهرة ، ولعجزهم عن متابعة الأحداث أولا بأول رغم سلاستها ، وأيضا لعدم استعانتهم بالأحاديث المبينة لبعض الدقائق .

وقد توزعت الآيات التي تحدثت عن بدء الخلق في كثير من سور القرآن . وإن كانت سورة فصلت قد جمعت مراحل الخلق الثلاثة في أربع آيات ، يقول تعالى فيها : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾ .

لقد فصلت هذه الآيات الأربع مراحل الخلق الثلاثة ، وكـان مـن الممكـن أن تذكـر هـذه المراحل الثلاث في ثلاث آيات ، ولكـن الله عـز وجـل ذكرهـا في أربـع آيـات وذلـك لأن مراحل الخلق تخللها حدث هام لم يفطن إليه قراء القرآن ، هذا الحـدث تحكيـه الآيـة (١١) مـن هذه السورة والتي سنفصل الأمر فيها في حينه ، وعلـي ذلـك فسـنتحدث عـن هـذه المراحـل كـالآتي :

المرحلة الأولي : مرحلة خلق السموات والأرض والتي تمت في يومـي الأحـد والاثنـين .

المرحلة الثانية : مرحلة الدحو والتي تمت في يومي الثلاثـاء والأربعـاء .

الحدث المتخلل : تم بعد اكتمال الأيام الأربعـة تمامـا .

المرحلة الثالثة : مرحلة السموات والتي تمت يومي الخميـس والجمعـة .

المرحلة الأولي : يومي الأحد والاثنين :

لم تبين الآيات أسماء لأيام الخلق ولكـن بينـت ذلـك الأحـاديث الـتي ثبتـت نسـبتها إلي رسـول الله ﷺ والتي أخبرت بأن بدء الخلق كان يوم الأحد ، وقـد اتفـق علـي ذلـك جمـهور علماء المسلمين ، وموافق أيضا لما في الكتـاب المقـدس .

وليس في سورة فصلت ماذا حدث يومي الأحد والاثنـين ، يومـي خلـق الأرض ، وكذلـك لا يوجد ذكر لخلق السماء فيها . بيـد أن الآيـة (١٢) توضـح أن الله تعـالى بعـد أيـام خلـق الأرض الأربعة استوي إلي السماء وهي دخـان ، نفـهم منـها أن السـماء كـانت موجـودة في اليوم الخامس ولكنها كانت دخان ، وعلي ذلك فقد خلقت السماء قبـل اليـوم الخـامس .

بقراءة آيات بدء الخلق من سورة النازعات نجـد أن السـماء ذكـرت أولاً ، يقـول تعـالى : ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا(٢٧) رَفَـعَ سَـمْكَهَا فَسَـوَّاهَا(٢٨) وَأَغْطَـشَ لَيْلَـهَا وَأَخْـرَجَ ضُحَاهَا(٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْـرَجَ مِنْـهَا مَاءهَـا وَمَرْعَاهَـا (٣١) وَالْجِبَـالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعاً لَكُم وَلأَنعَامِكُم (٣٣)﴾ والقـارئ غـير المتدبـر سـيجد أن آيـات سـورة النازعات قلبت الوضع عما في آيات سورة فصلـت . فبينمـا ذكـرت سـورة فصلـت الأرض كبداية للخلق فقد ذكرت سورة النازعات السماء كمبدأ للخلـق ، وبينمـا نجـد إرسـاء الجبـال ذكر آخر الآيات في سورة النازعات نجدها قد ذكرت كأول مـا تم لـلأرض في سـورة فصلـت ، لذلك التبس الأمر علي البعض : أيهما خلق أولا : الأرض كمـا أفصحـت سـورة فصلـت . أم السماء كما يفهم من سورة النازعات لقوله تعالى بعـد ذكـر السـماء وبناءهـا ﴿وَالأَرْضَ بَعْـدَ

﴿ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ وقد انتصر لكل رأي منهما فئام من الناس ، البعض يسلم بـــأن بـــدء الخلـــق كـــان (الأرض) لسورة فصلت والبعض يؤكد أنها (السماء) لسورة النازعـــات . وحقيقـــة الأمـــر أنـــه لا هـــــــــذا ولا ذاك .

عندما اخبرنا الله في سورة فصلت أنه خلق الأرض في يومين ، وهيئها لأهلها في يومين آخريـــن ، أخبرنا تعالى انه استوى إلي السماء في اليوم الخامس فالسماء إذا كانت موجودة .

وعندما أخبرنا تعالى في سورة النازعات أنه خلق السماء أو بـــالأحرى ﴿بَنَاهَـــا﴾ وأنـــه هيئـــها بالهيئة التي وصفها قال ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَـــا﴾ . فـــالأرض إذاً كـــانت أيضـــا موجـــودة ، لأنه تعالى قال ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ أي أن الأرض كانت كائنـــة بـــالفعل ، ثم قـــال ﴿دَحَاهَـــا﴾ أي ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءها وَمَرْعَاهَا﴾ ولم يقل خلقها ، أو أوجدها ، ولم يخبرنا تعـــالى أنـــه خلـــق هـــذه أولاً أو هذه أولاً ، ولا يوجد أي حديث أو أثر يفهم منه أن أحدهمـــا خلـــق أولاً ، وذلـــك فعـــلا لأن أحدهما لم يسبق الآخر في الخلـــق .

ولعل هذا الأمر هو الذي تبينه الأحاديث ، ولم لا وهـــذا دورهـــا ؟ ﴿وَأَنزَلْنَـــا إِلَيْـــكَ الذِّكْـــرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل:٤٤) ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلا لِتُبَيِّـــنَ لَـــهُمُ الَّـــذِي اخْتَلَفُـــوا فِيهِ﴾ (النحـــل:٦٤) .

ففي الحديث الذي رواه ابن عباس وابن مســـعود أن النـــبي ﷺ قـــال : " إن الله تعـــالى كـــان عرشه على الماء ، ولم يخلق شيئا مما خلق قبل الماء ، فلما أراد أن يخلق الخلـــق : أخـــرج مـــن المـــاء دخان فارتفع فوق الماء فسما عليه (أي عـــلا) فســـماه : سمـــاء ، ثم أيبـــس المـــاء فجعلـــه أرضـــا واحدة ثم فتقها فجعل سبع أراضـــين في يومـــين " .

إن هذا الحديث قد فصل ما حدث في المرحلة الأولى مـــن الخلـــق ، وأزال اللبـــس الـــذي قـــد يدخل على قارئ القرآن دون تدبر ، فهل نستطيع أن نحـــدد مـــن هـــذا الحديـــث أيـــهما خلـــق أولاً : الأرض أم الســـماء ؟

يخبر الحديث أن أصل الخلق الماء . وواضح أيضا من الحديث أن هذا المـــاء هـــو الـــذي كـــان عرشه تعالى عليه . وأن الخلق بدء عندما أخـــرج تعـــالى مـــن المـــاء دخانـــا ، وهـــو مـــا يســـميه المفسرون بخار الماء ، وارتفع هذا الدخان (البخار) فوق المـــاء ، وعمليـــة الارتفـــاع هـــذه تســـمى (سمو) فكان ذلك اسما لهذا الدخان فســـماه (سمـــاء) .

كانت هذه عملية أولى من المرحلة ، أما العملية الثانيـــة مـــن هـــذه المرحلـــة أيضـــا أن هـــذا الدخان المتكون أعلى الماء جمد الله تعالى قلبه ، ويبســـه بـــالقدرة العظيمـــة حـــتى أصبـــح لدينـــا ،

يابس يحيطه ماء ويحيط بالاثنين الدخان (البخار) ثم فصل الله تعالى بين هذا الدخان وما بداخله من (يابس وماء) وسمى تعالى هذا الأمر (فتق) ، أي فصل ، بعد أن كان كلا منهما متصل بالآخر ، أي كان الدخان محيطا بهذا اليابس الجامد . وهو الذي أخبر عنه الله تعالى في سورة الأنبياء بقوله ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠)﴾ . إن هذا الفتق ليس فتقا واحد بل ثلاث ، هذا ما تقول به الآية ، وما يبينه الحديث ، فمنها نفهم أن الأرض كانت رتقا ، أي كتلة واحدة ، ففتقها سبع أراضين ، وأن السماء كانت رتقا أي كتلة واحدة ، ففتقها سبع سموات ، وأن كلاهما (الأرض والسماء) كانتا رتقا ، ففتقهما عن بعضهما .

وإن كان هذا فهما خاصا لي ، إلا إنني استمده من هذه الآية أولاً ، ومن الحديث ثانيا .

فالآية والحديث يوضحان أن ثمة فصول تمت .

فالفصل الأول هو فصل السماء عن الأرض : " أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق الماء فسما عليه ، أي علا فسماه سماء " وقد ذكر ابن عباس أن الله تعالى فتق بينهما بالريح .

كذلك يتوافق الكتاب المقدس في التكوين مع هذا الفصل الأول الذي تم بين السماء والأرض . فالآيات من ٦ : ٨ من سفر التكوين الإصحاح الأول تقول :

" وقال الله : ليكن جلد وسط السماء ، وليكن فاصل بين مياه ومياه ، وكان كذلك ، فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد ، ودعا الله الجلد : سماء وكان مساء وكان صباح : اليوم الثالث " .

أما الفصل الثاني : فهو ما أخبر عنه رسول الله ﷺ : " ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة ، ثم فتقها فجعل سبع أراضين في يومين " . إنه الفتق الذي تم للأرض المكونة من (يابس وماء) فتم فتق هذا اليابس الذي كان في البدء كتلة واحدة إلى سبع أراضي أي سبع قارات ، يتخللها الماء بالمحيطات والبحار . وواضح أن هذه القارات لو قربنا بينها لكوّنت كتلة يابسة واحدة في وسط المياه .

أما الفصل الثالث فهو ما تم للسماء في يوميها ، وهو ما سنذكره في حينه .

إن الحديث الذي نحن بصدده يحدد أن فتق الأرض إلى سبع أراضي تم في يومين ، ولعلهما يومي الدحو ، يومي المرحلة الثانية ، وقد كان العرب يطلقون على هذه الأراضي (الأقاليم السبع) بينما نطلق عليها نحن الآن (القارات الست) مع أنها في الحقيقة (سبعة) .

تفصل بعد ذلك الآيات ما حدث للسماء وما حدث للأرض في هذين اليومين المشتركين ، واللذان لا نستطيع أن نحدد فيهما من خلق أولاً : الأرض أم السماء ؟ وذلك لأنهما وجدا معاً .

ماذا حدث للسماء : بعض الآيات تفصل ما حدث في هذين اليومين الأولين بشأن خلق السماء وهذه آيات (النازعات) تخصها بالذكر ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا(٢٧)رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا(٢٨)وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا(٢٩)﴾ . سمك السماء : هو كثفها ، وغلظها ، وجرمها . وهو من الدخان كما ذكرت الآية ، وبينه الحديث بأنه الذي ارتفع من الماء الذي تكونت منه السماء والأرض فلما كانت السماء ، دخانا محيطا بالأرض فقد رفع الله ذلك الدخان بعدما فتق بينهما بالريح ، ثم سواها الله تعالى (أي السماء) فلم يجعل فيها أي اعوجاج ، أو فتوق ، أو فروج ، أو تشققات وجعلها بحيث يكون بيننا وبينها مسيرة خمسمائة عام . إذاً فهذه الآيات من سورة النازعات توضح كيفية تكوين السماء وتسويتها بعد إيجاد مادتها (الدخان) .

- وعندما تم هذا الأمر حدث خلق جديد .

* * * * *

خلق الليل والنهار

لا أظن أن أحداً سيصدق أن الليل والنهار خلقا في المرحلة الأولى ، وربما في اليوم الأول ، وأن الشمس والقمر خلقا في المرحلة الثالثة والأخيرة وأيضا في اليوم الأخير . ولكن ذلك ما تم بالفعل .

ولا ضير أن تعتقد البشرية كلها عكس ذلك وأن الليل والنهار جاءا مع خلق الشمس والقمر ، أقول لا ضير ما دمنا نتحدث بالدليل ، وما بالكم لو كان الدليل هو القرآن ، وأيضا كل الكتب المقدسة .

يخبرنا القرآن أن الله تعالى خلق الليل والنهار قبل الشمس والقمر ، بل بينهما خمسة أيام . ودليلنا على ذلك سبعة أدلة :

أولاً: ما ذكره الله تعالى في القرآن ، وفي التوراة . فقد فصل الله تعالى في القرآن آيتي الليل والنهار تفصيلاً ، وبين أمرهما تبيينا . ونعلم من القرآن أيضا أنهما خلق مستقل ، مستقل عن السموات والأرض ، ومستقل عن الشمس والقمر .

يقول تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٠) لقد قرن الله تعالى بين السموات والأرض وبين الليل والنهار وقال بأنهم جميعا آيات للعاقلين بل إنه تعالى في آية غيرها قدم الليل والنهار على السموات والأرض فقال ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّموَاتِ وَالأَرْضِ لأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ (يونس:٦) فلا وجود هنا لذكر الشمس والقمر بالمرة .

إن آيتي الليل والنهار أعظم بكثير من آيتي الشمس والقمر . بل إنه تعالى لم يذكر أن الشمس والقمر آية إلا مرة واحدة في كل القرآن ، بينما ذكر الليل والنهار كآية من آياته تعالى (٧) مرات . وحتى الآية التي قال تعالى أن الشمس والقمر آية ذكر الله معها الليل والنهار ، بل وقدم ذكر الليل والنهار فيها .

آيات الليل والنهار :

(١) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤)

(٢) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٠)

(٣) ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيات لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ (يونس:٦)

(٤) ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ (الإسراء:١٢)

(٥) ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ (يس:٣٧)

(٦) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (فصلت:٣٧)

(٧) ﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(الجاثية:٥) .

هكذا ذكر الله الشمس والقمر مرة واحدة كآية تلت ذكر آية الليل والنهار بينما تتحدث باقي الآيات السبع عن (الليل والنهار) فقط .

بل إن الله تعالى لم يذكر خلق الليل والنهار والشمس والقمر إلا في آية واحدة تقدم فيها ذكر الليل والنهار على ذكر الشمس والقمر أيضا .

يقول الله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء :٣٣) .

فالليل والنهار ليس فقط آيتين مستقلتين كالشمس والقمر ، بل يسبقا ذكراً ويكثرا عدداً في آيات القرآن .

وكما ذكر تعالى للشمس والقمر تسخير ، فقد ذكر ذلك لليل والنهار . بل وفي الآية ١٢ من سورة النحل يسبق ذكر تسخير الليل والنهار متقدما على ذكر الشمس والقمر تماما كما سبق ذكرهما في الخلق . يقول تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

ثانياً: وقد ذكر لليل والنهار أحوال كتلك التي للشمس والقمر سواء بسواء . فقال تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (إبراهيم:٣٣) بل هناك آية أخرى وأخيرة لهذا التسخير لليل والنهار ولكن يسبق ذكرهما الشمس والقمر﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ (النحل:١٢) وذكر لهما جرى مستقل عن جرى الشمس والقمر ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ

مُسَمًّى﴾ (فاطر:١٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ (لقمان:٢٩) ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ (الزمر:٥) .

* * * * *

وحكى الله تعالى في القرآن حالات خاصة لليل والنهار ليست للشمس والقمر :

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾ (النور:٤٤)

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ (الأعراف:٥٤)

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ (الحج:٦١)

﴿ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل سمى﴾(الزمر:٥) .

ثالثاً: وقد أخبر القرآن في أكثر من آية أن الله تعالى خلق الليل والنهار قبل أن يخلق الشمس والقمر ، والحق أن المفسرين للقرآن لم يفطنوا لهذا الأمر ، رغم أن الله تعالى أخبر عن ذلك ، ليس فقط في القرآن ، بل في كل الكتب السماوية ، ولا تزال التوراة التي بأيدي الناس الآن تشهد على ذلك ومن أول آية فيها . كما أخبرتنا الأحاديث بذلك أيضا .

يقول تعالى في سورة النازعات التي تذكر آيات بدء الخلق ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا(٢٧)رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا(٢٨)وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا(٢٩)﴾ إن هذه الآية لتتحدث صراحة عن خلق الليل والنهار بمجرد أن رفعت السماء عن الأرض في اليوم الأول . وقبل أن تخلق الشمس بأيام ، وقبل حتى أن تهيأ الأرض بهذه الهيئة ، وذلك واضح تماماً من الآيات ، ولا يفهم غير ذلك منها . وفي قوله تعالى بعد الحديث مباشرة عن رفع السماء عن الأرض (إذ كانتا ملتصقتين) ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ فهذه الآية لا تذكر شمساً ولا قمراً ، وإنما تذكر غطشاً لليل وإخراجاً للضحى ، ثم يذكر تعالى ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ فما تم لليل والنهار كان قبل دحو الأرض فبمجرد أن تم فتق السماء عن الأرض أغطش الله ليل السماء ، وأخرج ضحها ، وليس للأرض هنا أي ذكر ، كما يتوهم أهل الأرض الآن من المؤمنين وغيرهم ، أن الأرض هي التي تحدث الليل والنهار بدورانها .

وقد عبر تعالى للإنسان عن خلق الليل والنهار بأعظم وأبلغ بيان بهذه الكلمات الأربع . فقد ذكر هنا (الليل والضحى) وذكرت عملية الخلق بفعلين . هما : (أغطش ، وأخرج) . ومعنى

أغطش هي أظلم ، والفرق بين الغطش والظلام أن الغطش هو أشـد حـالات الظـلام ، الظلمـة الحالكة التي لا يبين منها أي شيء لذلك تعبر العرب عن عـدم الاهتـداء ، والتعـامي بـالغطش .

أما الضحى فهو أشد حالات النهار وضوحاً واستنارة وبياناً . والمعنى أنـه تعـالى أحلـك ليـل السماء بالظلمة الشديدة ، وأضاء نهارها بنور وضاح . ليس هو نور الشـمس ولكـن مـن نـوره عز وجل لأنه تعالى كما أخبر عن نفسه ﴿نُـورٌ عَلَـى نُـورٍ﴾ ونـور السـموات والأرض – ولا شك أن فيهما نوراً – هو من نور الله تعالى وليـس نـور الشـمس ﴿اللَّـهُ نُـورُ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (النـور:٣٥) .

ولعل ما يؤكد هذا ما ورد بأول سورة الأنعام من قولـه تعـالى :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَـلَ الظُّلُمَـاتِ وَالنُّـورَ ثُـمَّ الَّذِيـنَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ . وقد ورد عن وهب بن منبه أن أول التـوراة هـو أول سـورة الأنعـام . وهو ما نجد أثره بالفعل في التوراة الموجودة بين أيدينا الآن وأول آيـة فيـها : " في البـدء : خلـق السموات والأرض ، وكـانت الأرض خربـه وخاليـة ، والظلمـات تغطـي اللجـة . وروح الله يرف على الميـاه " .

" وقال الله : ليكن نور، فكـان نـور ، ورأي الله أن النـور حسـن ، وفصـل بـين النـور والظلمات ، ودعا الله النور نهارا ، والظلمات ليلاً وكان مسـاء وكـان صبـاح اليـوم الأول " .

وقد جانب الصواب (موريس بوكاي) عندما خطـأ الكتـاب المقـدس وانتقـده عندمـا أورد ذكر الليل والنهار في اليوم الأول ، بينما ذكر الكتاب المقدس خلـق الشـمس والقمـر في اليـوم الرابع فقال : " وعمل الله المنيرين العظيمين ، المنير الأكبر لحكم النـهار، والمنـير الأصغـر لحكـم الليل ، وجعلهما الله في جَلَد السـماء لتنـير علـى الأرض ، ولتحكـم علـى النـهار والليـل ، ولتفصل بين النور والظلمة ورأي الله ذلك أنه حسـن . وكـان مسـاء وكـان صبـاح : اليـوم الرابـع " .

والحقيقة أن الكتاب المقـدس لم يخطـئ في هـذا وإنمـا أخطـأ (موريـس بوكـاي) في فـهم الآيات ، وأخطأت البشرية كلها لأنها تفهم أن الليل والنهار مـن صنـع الشـمس والقمـر ، بـل إنهما من صنع الأرض التي تدور حول نفسها كل يوم مرة ، وكل هـذا غـير صحيـح ، والكتـب المقدسة هي الأصح . لقد خلقت الشمس ، وكذلـك القمـر في المرحلـة الثالثـة مـن مراحـل الخلق ، وتحديداً في اليوم السادس ، أما الليل والنهار فقـد خلقـا في المرحلـة الأولى كمـا قـال الله . تؤكد سـورة النازعـات ذلـك ، وأول سـورة الأنعـام ﴿الْحَمْـدُ لِلَّـهِ الَّـذِي خَلَـقَ

السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ إن الظلمات والنور (الليل والنهار) جعلهما الله فور خلق السموات والأرض ، أي بعد الفتق بينهما مباشرةً . لأن الظلمات والنور ليس من فعل الشمس وإنما من فعل الله عز وجل .

وتؤكد ذلك سورة (الشمس) ذاتها ، وفيها :

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ .

فالنهار هنا هو الذي يجلي الشمس ويوضحها ، وليس كما يظن الناس ، أن الشمس هي التي تصنع النهار . والليل أيضا هو الذي يغطي الشمس ، أي يغطيها ويسترها ، وهذا ما تقوله الآيات .

ولكن كما توضح آيات سفر التكوين من العهد القديم ، أن الله جعل المنير الأكبر (الشمس) لحكم النهار ، ولتحكم على النهار والليل ، ولتفصل بين الظلمة والنور فقد تم ذلك بعد خلق الشمس ، فأنها جعلت فاصلا بين الظلمة والنور وعلامة لها . وإلا فإن الليل والنهار في السموات أيضا وليس فيهما شمس ولا قمر ، بل والليل والنهار سيظل بعد يوم القيامة بعد فناء الشمس والقمر .

رابعاً : نستدل أيضا من أن الليل والنهار خلق مستقل عن الشمس والقمر مما ورد بسورة الأعراف الآية (٥٤) وفيها يقول تعالى :

﴿إنَ ربَكمُ الله الذِي خَلَقَ السَمَوَات والأرضَ فى سِتَة أيَام ثُم استَوَى عَلى العَرشِ يُغشِي الليلَ النهار يطلبُهُ حَثيثا والشَمسَ والقمرَ والنّجومَ مُسَخرات بأمره ألا لَهُ الخَلقُ والأمرُ تبارَك الله رَبُ العَالمينَ﴾ . إن هذه الآية لتخبرنا بأن لليل والنهار فعل خاص ومستقل بهما :﴿يغشى الليلَ النهار يطلبُهُ حَثيثا﴾ . ثم هناك فعل أخر وغير مرتبط بفعل الليل والنهار تذكره الآية للشمس والقمر والنجوم . وهو التسخير ، فكيف نقول بأن الليل والنهار تصنعه الشمس . أو الأرض ؟ أنهما خلق مستقل .

خامساً : في السموات ليل ونهار ، رغم أنه لا شمس ولا قمر ، وهذا ما يفهم من قوله عن الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٠) . ولا يعني ذلك أن يكون ليلهم حالك السواد كليلنا لأنهم جميعا نور ، وليس أيضا بلازم أن يكون نهارهم كنهارنا لكن المؤكد أن عندهم ليل ونهار لقوله تعالى ذلك .

سادساً : وعندما تقوم الساعة سيكون هناك أيضا الليل والنهار رغم فناء الشمس والقمر وليس بلازم أن يكون الليل بهذا السواد عند أهل الآخرة ولا النهار بهذا الضوء المبهر المؤذى للعين أحيانا ، والمهيج للنفس . ولكن بطريقة مغايرة تماما لأنه لن يكون ثم شمس . يقول عز وجل عن أهل الجنة :﴿لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا﴾ (الإنسان:١٣) .

غير أن الله تعالى يذكر في سورة مريم الآية (١٢) ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ وهذا عن أهل الجنة ، فرغم غياب الشمس وانتهاء دورها إلا أن هناك بكرة وعشيا . ولكن ليس البكور والعشي كبكور أهل الأرض وعشيهم الذي كان متأثرا بوجود الشمس في النهار وغيابها في الليل فيكون ليلا حالكاً ونهارا مبهراً ولكن لغياب الشمس سيختلف الأمر ، فسيكون هناك أضواء وأنوار .

سابعاً : روى أحمد في مسنده عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : " الشهداء على بيارق نهر بباب الجنة . في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة . بكرة وعشيا " وهم يعرفون مقدار الليل والنهار بالحجب فيكون الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب ، ويكون النهار برفع الحجب وفتح الأبواب .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من طريق أبان عن الحسن وأبي قلابة قالا : قال رجل : يا رسول الله هل في الجنة من ليل ؟ قال : وما هيجك على هذا ؟ قال سمعت الله يذكر في الكتاب ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فقلت : الليل ، من البكرة والعشي . فقال رسول الله ﷺ " ليس هنالك ليل ، وإنما هو ضوء ونور ، يرد الغدو على الرواح والرواح على الغدو " وليس في قول رسول الله " ليس هناك ليل " نفي لليل والنهار لأن الآية تثبتهما ولكن يقصد نفي الظلام الذي فهمه الصحابي السائل لذلك قال له : " وإنما ضوء ونور " فالليل ضوء والنهار نور ، إذ ثبت في السنة أن هناك أيام في الجنة ، وأفضلها يوم المزيد (يوم الجمعة) الذي يلتقي فيه أهل الجنة بربهم ويرونه ويفيض عليهم بنوره وبهائه .

نخلص من ذلك أن الليل والنهار قد خلقا قبل الشمس والقمر . وكان ذلك الخلق في المرحلة الأولى . وقد ذكر القرآن حدوداً لوقت النهار غير متعلقة بطلوع الشمس أو غروبها ولعل في ذلك ما يوضح لنا الفرق بينهما فقال تعالى ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ (البقرة:١٨٧) فالصوم إذاً يكون في نهار شهر رمضان وهو لا يبدأ من طلوع الشمس بل من بداية ظهور أول خيوط الصباح . وينتهي الصوم بالليل كما جاء في الصحيحين " إذا أقبل الليل من هاهنا وأدبر

النهار من هاهنا فقد أفطر الصائم " وكان من الأسهل على رسول الله ﷺ أن يقول (إذا غربت الشمس) ، رغم توافقها مع دخول الليل . كذلك قال تعالى ﴿وَأَقِمْ الصَّلاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ﴾ (هود:١١٤) وطرفي النهار هما وقت تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، والطرف الآخر وقت إدبار النهار وإقبال الليل وفي الصحيحين أيضا يقول الله " يؤذيني إبن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار " .

المرحلة الثانية : يومي الثلاثاء والأربعاء

إن هذه المرحلة هي التي تحدثت عنها الآية (١٠) من سورة فصلت بقوله تعالى :
﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ وهي التي سماها الله باسم (الدحو) لقوله تعالى في سورة النازعات ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءها وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ .

وهناك سور عديدة فصلت وبينت ما أجمل هنا . وهذا الإجمال هو :

(١) جعل رواسي في الأرض .

(٢) جعل البركة فيها (الماء والمرعى) .

(٣) تقدير الأقوات فيها .

ولأن ذكر الجبال في سورة فصلت قد قدم على غيره ، فإنه تأخر في سورة النازعات وقد تم ذلك لعلة سنذكرها في حينها وسنؤخر الحديث عن الجبال إلى نهاية الحديث عن هذه المرحلة إتباعا لنهج سورة النازعات .

لم يحدث أي شيء للسماء في هذه المرحلة ، فهي مرحلة خاصة بالأرض وحدها ، تم فيها كل شيء متعلق بالأرض وتهيئتها لمن سيسكن فيها . فكل ما نراه الآن في شكل وهيئة الأرض فقد تم في يومي الثلاثاء والأربعاء ، من تقسم الأرض إلى قارات وبسطها وفرشها وتمهيدها . وإخراج الماء ، وإنبات المرعى وتقدير الثروات المعدنية وموارد الأرض التي يستعين بها الإنسان في صناعته الآن ، كل ذلك قد وجد في هذين اليومين ، وخلق الكائنات الحية من حيوانات وأسماك وطيور وما يسر لكل دابة من رزق فقد تم أيضاً في هذه المرحلة .

وسنتحدث عن هذه الأمور بشيء من التفصيل فنقول بتوفيق الله :

طحو الأرض

يقول الله تعالى في سورة الشمس ﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ وقد بين الحديث معنى (الطحو) والذي عبر عنه رسول الله ﷺ بالفتق وقال : " ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة ثم فتقها فجعل سبع أراضين في يومين " فهذا الفتق لذات الأرض التي كانت متجمعة في مكان واحد فجعل منها سبع قارات في يومين " فهذا هو (الفتق الثاني) وهو غير فتق السماء عن الأرض .

وقلنا أن الحديث تبين لمعني الطحو ، كما أن العرب تطلق لفظ الطحو علي الذهاب يقول أبو عمرو بن العلا : طحى الرجل إذ ذهب في الأرض . وعلي ذلك يكون المعني : أن الله تعالى قسّم الأرض المتجمعة إلي أقسام وأذهب كل قسم بعيدا عن الآخر في الماء .

وقد روى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه ﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ (الشمس:٦) أي قسمها .

إذاً فقد تكونت القارات السبع التي سماها رسول الله ﷺ : " الأراضين السبع " في يومين ، ولم يتم ذلك في ملايين السنين كما يقول التجريبيون ويقوله من وراءهم المسلمون في نظريتهم المعتمدة في بلاد القرآن بأن هذه القارات إنما تكونت بعملية الإزاحة والتحرك التي استغرقت ملايين السنين حتى أصبحت كما هي عليه الآن ، وأن هذه العملية (التزحزح) لازالت مستمرة حتى الآن رغم قول الله تعالى ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ (القمر:٣) ولم نسمع صوتا لعالم يصحح هذا الخطأ الشنيع الذي يتعارض تماما مع قول الله ﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ ومع قوله تعالى عن قدر الأيام التي خلق فيها الأرض والتي قدرها بأربعة أيام ، والذي يتعارض أيضا مع قول رسول الله ﷺ أن فتق الأرض (الطحو) تم تحديدا في يومين ، بينما هم يقولون أن ذلك تم في بلايين السنين ولا يزال .

لا يذكر العهد القديم عملية الطحو هذه وإنما ذكر عملية تكوين اليابس والماء : " وقال الله : لتجتمع المياه تحت السماء إلي مكان واحد ، في كتلة واحدة ولتظهر اليابسة . وكان كذلك ، ودعا الله اليابسة (أرضا) ، ومجتمع المياه دعاه (بحاراً) . ورأي الله ذلك انه حسن " (التكوين ٩/١) .

ثم فصلت عدة آيات من القرآن ما تم للأرض بعد طحوها :

يقول تعالى : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا﴾ (نوح:١٩) .

فبعد أن تم تجزئة اليابس إلي سبع قارات بسط الله هذا اليابس وجعله منبسطا ممدوداً ، حتى يتسنى المعاش علي الأرض بالحركة والسير ، ولهذا قال تعالى بعد هذه الآية : ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ (نوح: ٢٠) أي طرقا واسعة مختلفة . ويقول تعالى ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ (طه:٥٣) . وقال ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ (الزخرف:١٠) فقد مهد الله تعالى الأرض تمهيدا بعد بسطها وجعلها كالفراش اللين ، وفي هاتين الآيتين كلمتين مختلفتين (سلك وجعل) وهما لتأكيد أن الله عز وجل هو الذي جعل في هذه الأرض التي مهدها سبلاً أي طرقاً ، وأنه تعالى هو الذي سلك هذه الطرق داخل أي شيء من شأنه أن يعوقها كالجبال مثلا .. وقد سلك هذه الطرق مما يجعلها مهيأة تماماً لسير سكانها إلى حيث يريدون .

وقال تعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ (البقرة:٢٢) .

وقال تعالى : ﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ (الذاريات:٤٨) .

إن هذه الآيات ليقشعر منها البدن خجلا مما فعله الله لراحة بني آدم وما رد به بنو آدم من جحود ونكران . وعندما يتملى المرء في آية فرش الأرض وتهيئتها بهذه الصورة المريحة والجميلة قبل أن يأتي الإنسان إلي الأرض ، ويهيأ له كل شيء لاستقباله بكل العناية والكرم ، ويأتي الإنسان بعد ذلك ليكفر بالله ويكذّب الله ، ويدعي أن أحداً لم يفعل ذلك بل تم ذلك صدفة ، ولا يشكرون الله تعالى علي هذا الكرم ، ولا حتى يعترفون به ، فهو أمر مؤسف من الإنسان وسيدفع الثمن غاليا .

يخبر تعالى أنه سوي الأرض للإنسان وأصلحها ، ووطئها ، وفرشها له من كل فراش أرضي . فهذه مفروشة بالتراب ، وهذه بالرمال ، وذلك بعد أن هيئها له ليستفيد منها استفادات مختلفة حسبما يكون من قشرة كل أرض ، فجعل كل بقعة منها مهيأة لأمر غير البقعة الأخرى ، من السهول والوعار والبراري والقفار والتراب والصخور والحجارة والرمال ، كل ذلك لتختلف المصنوعات وتختلف أنشطة السكان وطرق معايشهم حسبما يشتهون ويرغبون .

* * * * *

خلــق الأنهار

في سورة فصلت يقول تعالى ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ وفي سورة النازعات يقول ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءها وَمَرْعَاهَا﴾. لذلك نرى أن تفسير البركة هنا يعني إخراج الماء والمرعي ، هذا فضلا عن البركة المعنوية التي أضفاها الله على الأرض .

أما إخراج الماء فالمقصود به الماء العذب وليس الملح الأجاج ، فهذا قد تم خلقه في المرحلة الأولي مع اليابس ، لكن المقصود هنا بالماء هو الماء العذب الفرات .

فهذه الأنهار التي تجري في الأرض قد خلقت في يومي المرحلة الثانية للخلق ولا صحة أبدا لما يقوله التجريبيون أن هذه الأنهار قد تكونت بفعل الماء ، بل إن الثابت أن الأنهار شقها الله عز وجل ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا﴾ (عبس: ٢٦) وليست من فعل الماء ، ويقول تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾ (الرعد:٣) وواضح من الآية أن الأنهار مخلوقة ، وليست متكونة ، هذا أيضا غير العيون التي فجرها الله من الأرض .

والقارئ للآيات التي ورد فيها ذكر الأنهار يجدها مرتبطة بذكر الجبال الرواسي الشامخات وذلك لأن الأنهار تجري ومن ثم ستكون دائما في حاجة لمدها بالماء ، فهو تعالى قد خلق الأنهار بادئة من وراء الجبال الرواسي حتى إذا ما نزل ماء السحاب عليها لم يتفرق في كل جهة بل يتجه إلي حيث يوجهه الله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ﴾ (السجدة:٢٧) .

فحتى جرى الماء في نهره بفعل الله عز وجل . وكل الآيات التي تتحدث عن الأنهار قد وردت مع آيات الجبال كقوله تعالى :

﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا﴾ (النحل:١٥) .

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ (المرسلات:٢٧) .

والأنهار جعلها الله تعالى من أهم منافع الدنيا ، بل إنها ستكون من متع الآخرة . فإنه تعالى عندما يرغب المؤمنين في الجنة يذكرهم بأنهارها ، وأن أهلها ستجرى من تحتهم الأنهار .

ولا يخفي عنا مدى أهمية الأنهار بالنسبة لسكان الأرض الآن . من حيث الحياة ذاتها ومن حيث بناء الحضارة ، فإن الحضارات العظيمة ، إنما نشأت حول الأنهار .

إن سورة النازعات لتخبرنا أن هذه المياه خرجت من الأرض . أي أن أول مياه تجرى في هذه الأنهار كانت من مياه الأرض لقوله ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا﴾ (النازعات:٣١) غير أن أحاديث صحيحه رواها البخاري ومسلم وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه أخبر أن نهر النيل ونهر الفرات أصلهما وعنصرهما من الجنة . وعلى ذلك فعلى غير كل مياه أنهار الأرض ، كانت

أول مياه جرت في النيل والفرات من مياه أنهار الجنة ، بعد ذلك جرى النهران بماء السحب كما هو معلوم ومشاهد الآن .

وقد روى البخاري في صحيحه عن مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ لما ذكر (سدرة المنتهى) قال : " فإذا يخرج من أصلها نهران باطنان ، ونهران ظاهران . فأما الباطنان ففي الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات " .

وفي رواية أخرى عند البخاري أن رسول الله ﷺ أخبر عن هذه الأنهار أن عنصرهما من الجنة ، أي مادتها وشكلها مما في الجنة . بل ولا يمنع أبدا أن يكون ماء السحاب الذي يجرى منه النيل والفرات قد يؤتى به بواسطة الملائكة من الجنة . والله أعلم .

وشاءت حكمة الله تعالى أن يجعل الأنهار جارية والبحار راكدة ، لأن في ركودها نعمة ودفع مضرة . كما أن البحار تصب فيها الأنهار . كذلك لا تزيد البحار ، بقدرة الله تعالى ، لأنه سبحانه يحبسها لكي لا تغرق العباد .

ومن نعمة الله تعالى في الأنهار ، أنها تسوق الماء من الأماكن التي يكثر فيها المطر إلي الأماكن التي يقل فيها ، لأنها أرض جرز لا تمسك الماء إذا نزل عليها ، فينزله الله في مكان آخر يمسك الماء ثم يسوقه تعالى في نهر إلي الأرض الجرز ، كما يحدث مثلا لأرض مصر والتي فسر العلماء ﴿الأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ بمصر في قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ (السجدة:٢٧) .

وكلمة ﴿نَسُوقُ﴾ تدل على أن الله تعالى هو الذي يسيّر الماء حيث يشاء ، سواء كان الماء في السماء أو في الأرض ، وليس الأمر من قبل الطبيعة .

وصف النيل :

ذكر ابن كثير في كتاب (البداية والنهاية) النيل فقال : " هو النهر الذي ليس في أنهار الدنيا له نظير في خفته ، ولطافته ، وبعد مسراه ، فيما بين مبتدئه إلى منتهاه " .

قال ابن سينا : " له خصوصيات دون سائر مياه الأرض : منها أنه أبعدها مسافة من مجراه إلى أقصاه . ومنها أنه يجرى على صخور ورمال ليس فيه خز ولا طحلب ولا أوحال . ومنها أنه لا يخضر فيه حجر ولا حصاة ، وما ذاك إلا لصحة مزاجه وحلاوته ولطافته ، ومنها أن زيادته في أيام نقص سائر الأنهار والعكس " .

وقد أورد ابن كثير (في البداية والنهاية) حادثة مع النيل تدل على أن الأنهار يجريها الله تعالى وليس أمرا طبيعيا . فقد روى عن عبد الله بن لهيعة عن قيس بن الحجاج عن من حدثه قال : " لما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إليه حين دخل شهر بؤنة فقالوا : أيها الأمير . إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها ، فقال وما ذاك ؟ قالوا : إذا كان لثنتي عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها ، وجعلنا عليها من الثياب والحلي أفضل ما يكون ثم نلقيها في هذا النيل ، فقال لهم عمرو : إن هذا لا يكون في الإسلام . وإن الإسلام يهدم ما قبله .

فأقاموا بؤنة والنيل لا يجرى لا قليل ولا كثير . وأقاموا أبيب ومسرى وهو لا يجرى حتى هموا بالجلاء .

فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك . فكتب إليه عمر :

أنك قد أصبت بالذي فعلت ، وإني باعث إليك بطاقة داخل كتابي هذا ، فألقها في النيل ، فلما قدم كتابه أخذ عمرو بطاقة عمر وفتحها فإذا فيها :

" من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر (أما بعد) :

فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله أن يجريك . فألقى عمرو البطاقة في النيل ، فأصبح يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة . وقطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم " .

خلق النبات

لقد ورد بالقرآن كثير من الآيات التي تتحدث عن الزرع والنبات ومعظمها يصف الله فيها قدرته ونعمته بإنزاله الماء من السماء ، وما ينبت به من زرع ونبات ، وليست هذه الآيات هي المتعلقة ببدء خلق النبات ، لكن بعضاً منها فقط هو ما يخبرنا فيه عز وجل عن خلق النبات الذي تم في يومي الدحو (المرحلة الثانية) من ذلك آيات سورة (ق) يقول تعالى :

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ(١١)﴾ . هذه الآيات تخبرنا عن عملية (الإنبات) مرتين ، الآية (٧) والآية (٩) أما

الإنبات في الآية (٧) فهو الإنبات الأول في بدء الخلق ، الذي تم في يومي الدحو ، وهو ما تم بواسطة الله وحده ومباشرة ، ولا علاقة له بالمطر .

وأما إنبات الآية (٩) فهو الإنبات الذي تم بواسطة البشر عن طريق الزراعة بالمطر وما شابه . إذاً الآية (٧) هي التي نعنيها في بدء الخلق .

﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ .

وهناك عدة آيات في عدة سور يفصل فيها عز وجل خلق النبات فقال تعالى في سورة فصلت ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ وقد شرحت معنى هذه البركة سورة النازعات ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ .

ومن هذه الآيات قوله تعالى في سورة الرعد الآية (٣) : ﴿هُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ وفي سورة الرحمن يفصل تعالى تفصيلاً آخر يقول : ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ(١٠)فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ(١١)وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ(١٢)﴾ . فمن هذه الآيات وغيرها نعلم أن الله قد خلق أنواعا من النبات في بدء خلق السموات والأرض وكان ذلك في المرحلة الثانية مرحلة الدحو ، وكان ذلك يومي الثلاثاء والأربعاء . ولعل هذه العملية تحديدا كانت يوم الثلاثاء فقد أوجد الله المرعى ، والأشجار والغابات والورود والرياحين ومن كل زوج من الفاكهة والحبوب .

* * * * *

تقدير الأقوات

يقول تعالى ﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ (فصلت: ١٠) أي أن البركة وتقدير الأقوات تم في يومين ، فتم للأرض أربعة أيام كاملة .

والأقوات هي كل ما يصلح لمعايش سكان الأرض وتشمل ذلك الموارد التي نسميها طبيعية وهي (ربانية) والثروات المعدنية ، وكل ما هو في باطن الأرض من أحجار ومعادن من حديد ونحاس وألمونيوم ومنجنيز وماغنسيوم وبوتاسيوم وفضة وذهب وأحجار كريمة ، والبترول والفحم كل ذلك من تقدير الله عز وجل وليس من صنع الطبيعة كما يقول المنكرين لصنع الله . فآية تقدير الأقوات تدل على أن كل ما في الأرض من خيرات وثروات

من تقدير الله الذي خلقه في يوم واحد من يومي الدحو ولم يتكون ذلك على مدار ملايين السنين كما يقول التجريبيون الكافرون بالله ويتبعهم في ذلك المسلمون المؤمنون بالله .

يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف:١٠) فهذه الآية تؤكد أن كل ما قدره الله في الأرض ﴿لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ وهذا البترول الذي تتعيش منه دول كثيرة ليس من صنع الطبيعة كما يقولون ، ولا أنه تكون من تحلل وتعفن أعضاء حيوية وكائنات ميتة على مدار ملايين السنين .

وقد كذبوا في ذلك ، ولا وجهه للتشابه بين البترول وبين هذه المواد التي يقولون بأنها تحللت وتعفنت ، إذ المعروف أن كل ما يموت من الكائنات الحية أو ما يتخلف من الشجر والنبات كل ذلك يتحلل في الأرض ويعود ترابا ، لذلك يقول عز وجل ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا(٢٥)أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا(٢٦)﴾ (المرسلات) أي أن الأرض جعلها الله كافية لكل المخلوقات التي توجد عليها وتخلق فيها من بدء الخلق إلى يوم القيامة ، مهما بلغت لأنها عندما تنمو فإنما تنمو من الأرض وعندما تموت تعود إليها وتتحلل فيها ، فلا تتكوم وتتراكم لكي تتعفن وتتحلل ، ولو كان البترول يأتي من هذا العفن ، فمن أين أتى الذهب ، وباقي الأحجار الكريمة والمعادن الموجودة في باطن الأرض ؟؟

صدق الله ﴿قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف:١٠) أيخلق الله ، ويعبد غيره ؟ أيرزق ويشكر سواه ؟

خلق الدواب وبثها :

يقول تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (الشورى:٢٩) .

فالدواب هي من المعايش التي خلقها الله في يومي الدحو ووزعها ونشرها وبثها في بقاع الأرض وقاراتها السبع ، وبثها في التراب ، والطين ، والصخور والحجارة وفي البحار ، والأنهار ، وفي الغابات ، والبراري ، والقفار ، وفي جو السماء . وقد جعل تعالى من الدواب ما يتناسب مع المكان الذي أودعها سبحانه وتعالى فيه .

وقد ذكر تعالى في القرآن لفظ (دابة) ١٤ مرة فقط . وأنه جعل في كل من السماء والأرض ما يدب فيهما ، وهذا الرقم ليشمل المنطقتين ، فسبع في السموات السبع ، وسبع

في الأرضين السبع . ومن يدب في السموات هم الملائكة ، وما يدب في الأرض هم أنعامها وأسماكها وطيورها ، ووحوشها وحشراتها وزواحفها فضلاً عن إنسها وجنها يقول تعالى :

﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ (النحل) .

وقد ورد تفصيل ذلك أيضا بالإصحاح الأول من سفر التكوين بالعهد القديم :

" وقال الله : لتجتمع المياه بعجيج الكائنات الحية ، ولتطر طيور فوق الأرض وعلى وجه جلد السماء ، وكان كذلك وخلق الله كبار ثعابين البحر ، وكل الكائنات الحية ، التي تنزلق وتعج في البحار كل بحسب جنسه ، وكل ذي جناح بحسب جنسه ورأي الله ذلك أنه حسن . وباركها الله قائلا أثمري وأكثري واملئي البحار ، وليتكاثر الطير على الأرض . وكان مساء وكان صباح " (الآيات من ٢٠ :٢٣) .

" قال الله : لتخرج الأرض الكائنات الحية كجنسها كبهائم ودبابات ، ووحوش كجنسها ، وكان كذلك ، ورأي الله ذلك أنه حسن " .

روى الحافظ أبو يعلى عن بن الخطاب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : خلق الله ألف أمة ، منها ستمائة بالبحر وأربعمائة في البر . وأول شيء يهلك من هذه الأمم : الجراد ، فإذا هلك تتابعت مثل النظام (العقد) إذا قطع سلكه " .

خلق الجبال

من المؤكد أن خلق الجبال تم في يومي الدحو (الثلاثاء والأربعاء) فإنها ذكرت في سورة فصلت في أول المخلوقات التي خلقت في هذين اليومين ولكنها ذكرت في آخر المخلوقات في سورة النازعات ، لذلك ذكرناها نحن في آخر المخلوقات إتباعا لما ورد بسورة النازعات .

لكننا نرى رأيا بشأن خلق الجبال يدفعنا للقبول به هذا الاختلاف في الذكر في السورتين . ويؤيد ذلك عدة أحاديث .

فنقول أن الجبال كانت من أول المخلوقات كما ورد بسورة فصلت ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ . ولكنها أيضا لم تستعمل في إرساء الأرض إلا بعد اكتمال المخلوقات وذلك كما ورد بسورة النازعات ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ

بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا(٢٨)وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا(٣٢)﴾ .

وكما أزلنا اللبس الذي التبس على البعض من هاتين السورتين نفسيهما ، عندما أوردت سورة فصلت الأرض كبدء للخلق ، بينما أوردت سورة النازعات أن البدء بالسماء واحتار البعض أيتهما خلق أولاً ، وأثبتنا أن كلتاهما (الأرض والسماء) خلقتا معاً .

فإننا بإذن الله سنزيل ما قد يعتري القارئ من لبس عندما يقرأ في أهم سورتين تفصلان بدء الخلق أن (فصلت) تبدأ بالجبال ، بينما (النازعات) تنتهي بها .

ذكرنا أن الله تعالى لا يذكر الأنهار إلا ويذكر معها الجبال ، ذلك لأننا نعلم أن الأنهار إنما تجرى مبتدئة من وراء الجبال التي ينزل عليها الماء بغزارة ولكن هذا الذي شاهدناه عندما وجدنا على الأرض ، لكن هناك ملحوظة صغيرة ولكنها هامة وردت بالقرآن . إذ ورد بسورة النازعات أن الماء الذي جرى في الأنهار قد خرج من الأرض ، أما الجبال فقد ورد بسورة فصلت أنها جاءت للأرض من فوقها . وهذا الأمر بالطبع مناقض لما نراه في الحياة الدنيا الآن ، أن الماء الذي يجرى في الأنهار يأتي من السحاب الذي في السماء ، وأما الجبال فنجدها راسخة في باطن الأرض ، ولكن هذا بعد أن تم الأمر وسارت الأمور إلى ما هي عليه الآن .

أما في بدء الخلق فالأمر مختلف ، يقول تعالى ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا﴾ والآية واضحة . أن الماء في البدء خرج منها . أما في (فصلت) فيقول ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا﴾ وواضح أيضا من الآية أن الجبال جاءت للأرض من فوقها . وفي أكثر من آية نعلم أن الجبال جاءت للأرض من خارجها ثم ألقيت فيها :

﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ (ق:٧) .

﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ (لقمان:١٠) .

فهذه الجبال ألقيت من فوق الأرض لترسيها ، وإنما ألقيت بعد أن استقر كل شيء على الأرض .

وإن كانت الجبال من أوائل المخلوقات كما ذكر تعالى في سورة فصلت ، فإن السورة أيضا تبين أن الله تعالى عندما خلق الأرض لم يرسى الجبال فوقها مباشرة ، وإنما جعلها ﴿مِنْ فَوْقِهَا﴾ وهذه الإضافة لم ترد إلا هنا فقط إذاً فقد خلقت الجبال وأودعت في مكان ما فوق الأرض . لتستقر على الأرض في اليوم السادس وهو اليوم الأخير من أيام الخلق . وهذا ما

يفسر لنا لماذا ذكرت الجبال في سورة النازعات كآخر المخلوقات ، ولنتأمل جيداً في الآيات :

﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا(٢٩)وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢)﴾ .

وهناك أحاديث عديدة تؤكد هذا الأمر منها الحديث الذي رويناه عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ المتعلق ببدء الخلق والذي فيه : " وخلق يوم الجمعة النجوم و الشمس والقمر ، والملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه ، فخلق من أول ساعة من هذه الثلاث : الآجال (حين يموت من يموت) ، وفي الثانية ألقى فيها من كل شيء مما ينتفع به ....

نعلم من هذا الحديث أن الملائكة خلقت يوم الجمعة وهو اليوم الأخير من أيام الخلق دون خلاف . ثم بعد ذلك ألقى الله في الأرض (من كل شيء ينتفع به) . وهذا الإلقاء تفسره باقي الآيات ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ (لقمان:١٠) ويبين ذلك أيضا الحديث الذي رواه أحمد عن أنس بن مالك عن النبي قال " لما خلق الله الأرض جعلت تميد (تتمايل) فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت فتعجب الملائكة من خلق الجبال (أي من قوتها) وهذا يدل على أن الملائكة رأت الأرض وهي تتمايل ، أي أن الأرض ظلت بحالتها حتى رأتها الملائكة التي خلقت في اليوم الأخير . ويؤكد ذلك ما رواه الحسن وسعيد عن قيس ابن عبادة أن الله لما خلق الأرض جعلت تميد . وفي رواية أخرى (لما خلقت الأرض كانت تميد) فقالت الملائكة : ما هذه بمقرة على ظهرها أحد ، فأصبحوا وفيها رواسيها ، فلم تدر الملائكة مما خلقت الجبال " .

فإن هذا الحديث ليدل على أن الملائكة رأت الأرض وهي تميل وقد بقيت فترة كذلك ، حتى فوجئوا بها ثابتة بإرساء الجبال عليها .

وفي حديث أحمد : " فتعجبت الملائكة من خلق الجبال : فقالت : يا رب هل من خلقك شيء أشد من الجبال ؟

قال : نعم . الحديد . قالت : فهل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟

قال : نعم . النار . قالت : فهل من خلقك شيء أشد من النار ؟

قال : نعم . الماء . قالت : فهل من خلقك شيء أشد من الماء ؟

قال : نعم . الريح . قالت : فهل من خلقك شيء أشد من الريح ؟

قال : نعم . ابن آدم ، يتصدق بيمينه يخفيها من شماله " .

إذا فقد ورد ذكر الجبال في آخر مراحل الخلق في سورة (النازعات) خلافاً لما ورد بسورة (فصلت) لعلة حكيمة ، ذلك أن الله تعالى آخر أرساها آخر أيام الخلق رغم أنها من أول المخلوقات . أما الحكمة من إرجاء إرساء الجبال رغم وجودها فذلك ما سنعرفه في الصفحات التالية بإذن الله . بعد أن نذكر كلمة عن منافع الجبال ودورها في الأرض .

فائدة الجبال :

الفائدة العظمى والدور الأول للجبال أن الله تعالى أرسى بها الأرض ، بعد أن كانت تميد . ولولاها لما أقرت الأرض على ظهرها أحد كما عبر عن ذلك الملائكة الذين شاهدوها وهي تميل .

هناك دور آخر ذكره الله تعالى للجبال في القرآن فقال تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾(النحل:٨١) والأكنان جمع : كن . وهو ما يستكن به من المطر ، وهي المغارات في الجبال جعلها الله للخلق يأوون إليها ، ويتحصنون بها ، ويعتزلون عن الخلق فيها .

دور آخر للجبال فضلاً عن الإرساء والإكنان هو ما قال عنه تعالى : ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ (النحل:٦٨) أي ألهم النحل أن يتخذ من الجبال بيوتا يسكن فيها .

كذلك أودع الله تعالى في الجبال المعادن التي توزن ، والتي تعتبر خامات للإنسان يستعين بها في معايشه . ويقول تعالى ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (النحل:١٩) فقد قال البعض بأن الضمير في قوله (فيها) يعود على الرواسي . والمعنى : أنبتنا في الجبال من كل شيء موزون ، يعنى كل ما يوزن من الذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد ونحو ذلك ، وهو ما تحتويه الجبال بالفعل .

ورغم أن الجبال خلقت لثقل الأرض وتثبيتها إلا أن الله تعالى عندما أرسها في الأرض جعل منها أيضا ألوان مختلفة لتكون زينة للناس بتعدد ألوانها وأشكالها وأطوالها يقول تعالى﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (فطر:٢٧) أي أن الله كما أخرج من تراب الأرض ثمرات مختلفة الألوان منها الأحمر والأصفر وغيرها ، فكذلك الجبال جعلها الله ذات

طرائق وخطوط مختلفة الألوان ، بيض وحمر ومختلفة في الشدة والضعف مع أن أصلها واحد .
وهذه الآية توضح لنا أن الجبال مختلفة في ألوانها وفي صخورها . وهو ما يقر به علمائنا الآن ، غير أنهم يدعون – تبعا للتجريبيين – أن هذه الصخور تأتي من باطن الأرض (كالصخور النارية) والبعض يتكون من عوامل التعرية وغيرها (كالصخور الرسوبية) وليس لقولهم دليل من الصحة .

فهذه الجبال يؤكد القرآن في آيات أنها خلقت خلقاً خاصاً وأنها ليست من الأرض ، ولذلك فإن مكونات الجبال تختلف تماما عن مكونات الأرض . حيث أن الجبال بعد خلقها ألقيت (هكذا قال الله) على الأرض من فوقها . فصخورها ليست من الأرض في شيء .

وواضح أن كل ما يكون من شأن الله وأمره يحوله الكافرون بالله إلى فعل غيره ، وبعد أن كانت الجبال مخلوقة خلقا خاصاً ، نجدها جزءً من الأرض ، وبعد أن يخبرنا الله أنه هو الذي خلقها بقدرته ، يقولون لنا : أن الأرض هي التي أوجدتها بظروف طبيعية .

هكذا خلق الله تعالى الأرض وهيئها بهذه الصورة التي نشاهدها وبالطريقة التي ذكرت لنا . ولا نرى في كلام الله أي انفجار ، ولا اصطدام ولكن نرى خلق ، وحكمة وعناية ، وكرم ، وتكريم .

الأرض بعد الدحو

يذكر علماء التفسير والمتكلمون عن العروض والأطوال والبحار والأنهار من علماء العرب القدامى أن الأرض بعد دحوها وتهيئتها ، أخذت الشكل الحالي لها وأصبحت عبارة عن كرة من الماء العظيم إلا مقدار الربع . أي أن اليابس ٩٠ درجة والماء ٢٧٠ درجة . وقد اقتضت العناية الإلهية ، والحكمة الربانية ، أن ينحسر الماء عن هذه المساحة ، لتعيش عليها الحيوانات ، وتنبت فيها الزروع والثمار ، كما قال تعالى : ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾ (الرحمن:١٠) . قالوا : والمعمور من هذه الدرجات التسعون اليابسة البادية من الماء قريب من الثلثين أي ٦٥ درجة وباقي اليابسة غير معمور .

وجعل الله تعالى ما يقابل الأرض اليابسة بحرا محيطا (المحيط الهادي) وهذا هو البحر الرئيسي في الأرض ، قال المفسرون : وهو الذي فيه الجزائر الخالدات ، المتاخمة لبلاد المغرب (يقصدون الأمريكتين) والتي تفصل بينها وبين ساحل بلاد المغرب ١٠ درجات أي مسيرة

شهر تقريبا (هكذا قدروها) ، وقالوا : هو بحر لا يمكن سلوكه ولا ركوبه لكثرة أمواجه ، واختلاف ما فيه من الرياح والأمواج . ولا يستخرج منه شيء .

هذا وصف للبحر المحيط (المحيط الهادي) موجود بكتب التفسير كلها وقد ذكره ابن كثير المولود سنة ٧٠١ والمتوفي سنة ٧٧٤ هجرية . وقد ذكر رحمة الله أقوال العلماء الذين ذكروا أن الأمريكتين في المحيط الهادي بعد بلاد المغرب بعشر درجات وسموها (الجزائر الخالدات) والتي ينسب اكتشافهما إلي (كريستوفر كولومبس) مع أن ذكرهما وجد في كتب العرب والمسلمين في أوائل التاريخ الهجري . بل أنهم ذكروا أن سليمان عليه السلام ذهب إليهما بجنوده ، بواسطة الريح التي سخرها الله له . وقد ترك هناك علامات ودلائل موجودة حتى اليوم ، يذكرونها هناك بآثار الحضارة (الهيليسينية) وهي حضارة سليمان عليه السلام ثم أنهم حددوا سواحل هذا المحيط تحديدا دقيقاً وذكروا أبعاده وأسماء البلاد المتاخمة له ، وأسماء البحار المتفرعة منه .

فذكروا منها أنه ينبعث من المحيط الشرقي بحار أخر فيها جزائر كثيرة حتى يقال أن بحر الهند فيه ١٧٠٠ جزيرة فيها مدن وعمارات ، سوى الجزائر العاطلة ، يقال له البحر الأخضر ، فشرقيه بحر الصين ، وغربيه بحر اليمن ، وشماله بحر الهند وجنوبه غير معلوم .

وذكروا أن بين بحر الهند وبحر الصين جبال فاصلة بينهما ، وفيها فجاج تسلك المراكب بينها ، يسيرها لهم الذي خلقها ، كما جعل مثلها في البر أيضا قال الله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (الأنبياء:٣١) .

هذا هو البحر المحيط . ثم إن الله تعالى فرّع من هذا البحر المحيط سبعة أبحر تتخلل اليابس . وهي التي ذكرها تعالى في سورة لقمان بقوله ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان:٢٧) . فالشجر هنا تعبير عن شجر الأرض كله وهي بلاغة تفيد : لو إنما في الأرض من شجر أقلام ، فوحد الشجرة ، لما تقرر في علم المعاني من استغراق المفرد أشمل . والبحر المحيط مع سعته يمده السبعة أبحر الموجودة في الأرض . وكتب بها معلومات الله وعجائبه في مصنوعاته الدالة على قدرته ووحدانيته لنفد هذا البحر قبل أن تنتهي وتنفد تلك المعلومات . كل هذا رغم أن القرآن والتوراة وسائر الكتب كان فيها تبيان كل شيء .

* * * * *

إتيان السماء والأرض

لقد اكتملت الأيام الأربعة تماما . وفي بداية اليوم الخامس حدث حادث وتم أمر رغم أنه كان على درجة كبيرة من الأهمية ، ورغم حدوثه مرة واحدة في تاريخ الكون ورغم أن الله تعالى ذكره في كتابه بإيضاح شديد إلا أن علماء التفسير لم يدركوا المعنى الصحيح لهذا الحديث .

وذكرنا في بداية حديثنا عن مراحل الخلق أنها ثلاث مراحل بينها (حدث متخلل) ولعل ذلك يبين لماذا ذكرت مراحل الخلق في سورة فصلت في أربع آيات ، وذلك لأن مراحل الخلق تخللها حدث هام ، كان هذا الحدث بعد اكتمال المرحلة الثانية ، أي أنه تم في أول المرحلة الثالثة .

يقول تعالى في سورة فصلت الآية ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ .

إن هذه الآية توضح عملا وقولا صدراً من السماء والأرض للمرة الأولى والأخيرة في حياة الكون وكان عملهما أنهما (أتيا) وكان قولهما أنهما قالتا (أتينا) ولم ينسب للأرض أو للسماء بعد ذلك أي عمل قاما به حتى قيام الساعة . ولكي نعرف المكان الذي أتيا فيه ، نعود إلى حديث بدء الخلق الذي رواه البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال : " كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض " وكذلك حديث ابن عباس وابن مسعود أن النبي ﷺ قال : " إن الله تعالى كان عرشه على الماء ، ولم يخلق شيئا مما خلق قبل الماء ، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه سماء ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة ثم فتقها فجعلها سبع أراضين في يومين " إن هذين الحديثين ليدلان على أن أصل الخليقة : الماء . وأن هذا الماء هو الذي كان العرش عليه ، وأن بدء الخلق كان بارتفاع الدخان منه ثم توالت الأحداث ، حتى إذا ما اكتمل بناء السماء وتهيئة الأرض للحياة عليها ، انتقلتا من مكان خلقهما إلى مكانهما الحالي ، تحتل الأرض المركز فيه . فلم يتم الخلق بداهة في هذا المكان الذي نحن فيه الآن ، بل تم في مكان آخر ثم صدر أمر الله تعالى لهما بالإتيان للمكان الذي نحن فيه الآن . وكانت هذه هي الحركة الوحيدة التي قامت بها السموات والأرض ، وقد صدرت منهما أيضا الكلمة الوحيدة التي نطقا بها ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ .

إن الآية واضحة الدلالة تماما ، ومنطقية تماما مع توالى الأحداث ، ورغم ذلك فلم يقل المفسرون بهذا . وإنما قالوا : إن الله تعالى أمر السماء والأرض بأن تأتى كلا منهما ما بداخلها من أمور . أي أنه

تعالى قال للسماء : أطلعي شمسك وقمرك ونجومك . وأما أنت يا أرض فأطلعي نباتك وأخرجي ثمارك وشقي أنهارك .

هذا ما يقوله المفسرون وهو كلام غير معقول ، وغير مقبول . أيأمر الله الأرض بأن تأتي ما فيها بعد ما أخبر أنه خلق كل ما فيها في أربعة أيام ؟ ويأمر السماء أن تأتي بما فيها ثم بعد ذلك يأمرها مرة أخرى بعد يومين بأن تأتي ما فيها ؟ .

إن الآية واضحة وضوحاً تاماً لا يقبل خلافاً أن الأرض والسماء انتقلتا من مكان إلى مكان . وهذا ما كان لابد منه ، لأن السماء والأرض لم تخلقا في مكانهما الحالي ، وإنما خلقتا فوق الماء الذي كان العرش عليه ، ثم أتيا إلى هذا المكان الذي هما فيه الآن ووضعها الله تعالى وأقرهما فيه . لذلك يقول تعالى ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾ (الرحمن: ١٠) .

والوضع لا يأتي أبدا إلا إن كان قبل ذلك غير موضوع ، أي كان قبل ذلك محمولا وهذا ما حدث للسماء والأرض وقد كانتا محمولتين فوق الماء ثم وضعتا في مكانهما الحالي ووضعت الأرض في مركز هذا العالم وكانت الأرض في مكانها هذا تميد ثم بعد أن سوى الله السموات السبع وأوحي في كل سماء أمرها ، وانتهي أمر الخلق وكمل ، أقر الله كل شيء ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ (القمر:٣) فأقر الله الأرض بالجبال ، فألقاها عليها ، وقد كانت معلقة فوق الأرض كالنجوم والكواكب ، وقد فوجئت الملائكة بالأرض وهي مستقرة ثابتة بعدما رأتها قبل ذلك تتمايل وأعجبت من قوة الجبال الرواسي .

من أجل ذلك قلنا أن الله تعالى خلق الجبال في بداية المرحلة الثانية ، تماما كما ذكر في سورة فصلت ، ولكنه لم يرسيها في الأرض إلا بعد اكتمال الخلق وانتقال الأرض إلى مكانها الحالي ، تماما كما ذكر في سورة النازعات ، وذلك لأن الجبال رواسي ، والأرض في مكان خلقها لم تكن رست بعد ، وليس هو بمكانها الذي ستستقر فيه ، فلما أتت إلى مكانها هذا ثبتها الله تعالى بالجبال .

لذلك قال تعالى في سورة (فصلت) ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا﴾ وقد كان ذلك في بدء الخلق وفي مكان تخلقها . ثم قال في سورة (النازعات) ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢)﴾ ومعروف أن هذه السورة ذكرت المخلوقات بترتيب حدوثها ، فوضح هنا أن الجبال تم بالفعل إرسائها في الأرض بعد أن كانت ﴿مِنْ فَوْقِهَا﴾ .

وفي حديث ابن عباس وابن مسعود في بدء الخلق إن رسول الله ﷺ أخبر بأن الله تعالى خلق يوم الجمعة المخلوقات السماوية ، إلي ثلاث ساعات بقين منه ، ثم خلق الآجال في أول

ساعة من هذه الثلاث الباقية من اليوم ، ثم ألقى في الأرض ما ينفعها . ولا شك أن لفظ الإلقاء في القرآن إنما يعود على الجبال .

لم يرد في العهد القديم في آيات بدء الخلق ، أي ذكر عن الجبال لا خلقها ولا إرسائها .

وقد تنبه نفر قليل من علماء المسلمين قديما وحديثا إلي الإرساء للجبال عملية مستقلة عن الخلق وأنه تم من فوق الأرض واستدلوا على ذلك بلفظ ﴿أَلْقَى﴾ . جاء بكتاب (الإسلام في عصر العلم) لمحمد أحمد الغمراوي وأحمد عبد السلام الكردي صـ ٣٤١ ما نصه :

ولكن الدلالة في ﴿أَلْقَى﴾ أخص منها في (جعل) وقد لاحظ ذلك ابن عطيه فيما ذكره ابن حيان عن تفسير الآية رقم ١٥ من سورة النحل ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ إذ نقل عنه قوله :

" قال المتأولون : ﴿أَلْقَى﴾ بمعنى خلق وجعل ، وهي عندي (الكلام لابن عطية) أخص من (خلق) و(جعل) وذلك أن ﴿أَلْقَى﴾ تقتضي أن الله أوجد الجبال ليس من الأرض ولكن من قدرته واختراعه ويؤيد هذا النظر ما روى في القصص . إلى أخر ما قال عنه الحسن ووهب بن منبه " .

المرحلة الثالثة : الخميس والجمعة

بعد اكتمال الأربعة أيام ، تكون المرحلة الثانية قد اكتملت . ومع بداية المرحلة الثالثة أتى الله تعالى بالسماء والأرض إلي مكانهما الحالي . تتميز هذه المرحلة عن سابقتيها أن الخلق فيها تم بالأمر. من أولها إلى آخرها بداية من الأمر للسماء والأرض بأن يأتيا ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ إلى خلق ما في السموات السبع . أما الخلق في المرحلتين الأوليين فقد كان بالخلق المباشر من الله تعالى ، أي كان بيد الله عز وجل كقول ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ (الذاريات.٤٧) . فالسماء والأرض خلقتا في المرحلة الأولى بيد الله تعالى ثم تهيئة الأرض في المرحة الثانية كان بيده عز وجل . أما المرحلة الثالثة وهي خلق ما في السموات فقد كان بأمر الله تعالى . يوضح ذلك قوله تعالى وهو يخبرنا عن الخلق في المرحلة الثالثة : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ(١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾ (فصلت) .

يخبرنا تعالى أنه كما فتق الأرض إلى سبع أراضين (القارات السبع) فإنه تعالى فتق السماء إلى سبع سموات (السموات السبع).

وبناء السماء وجعلها سبعا، تحول أيضاً الدخان الذى أصل السماء إلى بناء عظيم جميل مكون من سبع طوابق فى غاية الحسن والبهاء والروعة والجمال وهذا معنى قولة تعالى (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ) [الذاريات:٧] وبعد أن كانت السماء مادة واحد اختلفت كل سماء عن غيرها فى الحجم واللون والشكل، رغم تطابقها على بعضها البعض. إذ أنها متناسبة فى التكوين بحيث لو زال ما بينها من فراغ لعادت مرة أخرى كتلة واحدة ككرة عظيمة.

وتحول الدخان إلى شكل جديد جميل ليس غريباً علينا، فالإنسان أصلة من طين وتحول إلى لحم ودم وشكل جميل، والأرض التراب يخرج منها ثمرات مختلف ألوانها، فكذلك السماء

* * * * *

المرحلة الأولى		المرحلة الثانية		المرحلة الثالثة	
الأحد	الأثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	الجمعة
اليوم الأول من المرحلة الأولى ، كتلة واحدة من الماء - ظل ما فى النواة يتماسك ويتجمد . وهو الذى يمثل الأرض . أما ما يحيط بالمركز فهو يخف ويعلو كدخان وهو الذى يمثل بعد ذلك ... السماء .	اليوم الثانى : بعدما تجمدت الأرض وأخذ الدخان غايته - ثم فتق السماء عن الأرض وخلق الظلمات والنور وتم تسوية السماء ورفع سمكها وبنائها وأصبحت المسافة بينها وبين الأرض بما عليها الأن .	اليوم الثالث : أول المرحلة الثانية وهى خاصة بالأرض وحدها تم فيها تجميع اليابس فى الماء المحيط به وبدء فى هذا اليوم دحو الأرض بتهيئتها للحياة وإيداع ما فيها من منافع . وكذلك تم طحو الأرض إلى قارات .	اليوم الرابع : أخر المرحلة الثانية ، وتم فيها طحو الأرض وتقسيمها إلى سبع قارات يتخللها الماء واكتمل فيه دحو الأرض وإخراج الماء العذب منها وإيداع الأقوات فيها وأخذت شكلها الذى نراه الأن .	اليوم الخامس ، بداية المرحلة الثالثة والذى تم فيه فتق السماء إلى سبع سماوات متطابقات بناها عز وجل وتكون من ذلك سبع أرضيات تحت السماوات فأصبح هناك سبع سماوات وسبع أرضيات لهن .	اليوم السادس والأخير الذى كمل فيه خلق كل شىء وأوحى الله فى كل سماء أمرها فخلق فيها الملائكة وزين السماء الدنيا بالشمس والقمر والنجوم ثم خلق الله الإنسان ليكتمل الخلق بذلك فى هذا اليوم السادس .

عدد السموات

كما فصل الله تعالى القول في دحو الأرض وما أودعه فيها من آيات ، فقد فصل عز وجل القول أيضا في خلق السموات وما فيها من آيات ، تفصيلا غاية في البلاغة والتنسيق والبيان .

إن الرقم (٧) له عند الله شأن ، فإنه تعالى خلق خلقه مكون من هذا الرقم فخلق تعالى السموات سبعاً والأرض سبعاً . ولهذا سنرى مدى العلاقة الوثيقة بين الرقم (٧) وبين السموات والأرض وما فيها وما بينها من آيات .

وقد ذكر ابن القيم الجوزية فضيلة الرقم سبعة في كتاب ذاد الميعاد فقال :

" وأما خاصية السبع فإنها قد وقعت قدرا وشرعا ، فخلق الله عز وجل السموات سبعاً ، والأراضين سبعاً ، والأيام سبعاً ، والإنسان كمل خلقه في سبعة أطوار ، وشرع سبحانه لعباده الطواف سبعاً ، والسعي بين الصفا والمروة سبعاً ، ورمى الجمار سبعاً سبعاً ، وتكبيرات العيدين سبعاً في الأولي ، وقال ﷺ مروهم بالصلاة لسبع ، وإذا صار للغلام سبع سنين خير بين أبويه في رواية ، وأمر النبي ﷺ في مرضه أن يصب عليه من سبع قرب ، وسخر الله الريح علي قوم عاد سبع ليال ، ودعا النبي ﷺ أن يعينه على قومه بسبع كسبع يوسف ، ومثل الله سبحانه ما يضاعف به صدقة المتصدق بحبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والسنابل التي رآها صاحب يوسف سبعاً ، والسنين التي زرعوها دأبا سبعاً ، وتضاعف الصدقة إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافا كثيرة ويدخل الجنة من هذه الأمة بغير حساب سبعون ألفاً ، فلا ريب أن لهذا العدد خاصية ليست لغيره .

والسبعة جمعت معاني العدد كله ، وخواصه ، وللأطباء أعتناء عظيم بالسبعة . وقد قال بقراط كل شيء من هذا العالم فهو مقدر على سبعة أجزاء ، والنجوم سبعة ، وأسنان الناس سبعة أولها طفل إلى سبعة ثم صبي إلى أربعة عشر ثم مراهق ثم شاب ثم كهل ثم شيخ ثم هرم إلى منتهى العمر . والله تعالى أعلم بحكمته وشرعته وقدره بتخصيص هذا العدد " .

وقد ذكرنا أن الله تعالى فتق الأرض إلى سبع أرضين وهي القارات السبع التي نعرفها نحن الآن بهذه الأسماء :

١- آسيا ٢- أفريقيا ٣- أوربا

٤- أمريكا الشمالية ٥- أمريكا الجنوبية ٦- استراليا

٧- القارة القطبية الجنوبية .

كما فرع الله تعالى من البحر المحيط (المحيط الهادي) سبعة أبحر تتخلل الأرض اليابسة .

وفي سبع آيات لا غير من آيات القرآن يذكر تعالى عدد السموات التي خلقها وهي سبع سموات . يقول تعالى :

(١) ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ (البقرة:٢٩)

(٢) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ (المؤمنون:١٧)

(٣) ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ (فصلت:١٢)

(٤) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ (الطلاق:١٢)

(٥) ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ (الملك:٣)

(٦) ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ (نوح:١٥)

(٧) ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ (النبأ:١٢) .

لقد ذكرت السماء في القرآن ١٢٠ مرة والسموات ١٩٠ مرة ومن كل هذه الآيات ذكر الله ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ ٧ مرات فقط في كل القرآن الكريم .

إن التجريبيين لا يعترفون بالسموات ، ولا حتى بسماء واحدة ، وهم يطلقون على السماء الدنيا (الفضاء) فهم لم يتركوا أمرا مما نص عليه الدين إلا وخالفوه ، لأنهم لهذا بعثوا ، وأرسلوا ، فهم رسل إبليس الذي لعنه الله . فهم يستبدلون آيات الله بالنظريات ويستبدلون كتب الله المنزلة بكتبهم المؤلفة ، وهم قد صرحوا بذلك دون خوف أو حياء .

وقد طبقت نظرياتهم حرفيا ، وترك كتاب الله حتى في بلاد المسلمين تركوه وراءهم ظهريا . واقتصر أمره على مجرد التلاوة ، أو الحفظ ، أما الاتباع والتطبيق فقد كان من نصيب نظريات التجريبيين .

يقول تعالى في كتابه أنه خلق سبع سموات ، ولم يرد لذكر السموات السبع كلمة واحدة في كل مؤلفات التجريبيين الكونية ، واتبعهم في ذلك علماء المسلمين أو معظمهم – حتى علماء الشرع منهم ، وأنكروا وجود سبع سموات ويعتبرون الرقم (٧) هو صيغة مبالغة ويشبهونه بقوله تعالى ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٨٠) فالرقم (٧٠) هنا صيغة مبالغة ولا يقصد منه ذات العدد فلو استغفر لهم (٧٠٠٠٠) مرة أو أكثر فلن يغفر الله لهم .

ويقولون أن كل كوكب سماء لنا ، ونحن سماء لكل كوكب ، فهناك إذاً ملايين السموات وملايين الأراضي (كذا يقولون) ، فكل جرم سماوي هو أرض لمن فوقه ، وفي نفس الوقت هو سماء لمن تحته . هكذا وصل الأمر بعلماء المسلمين من بعد عصر النهضة ، حتى الآن ، ومن لا يزال معتقدا من علماء المسلمين بوجود سموات سبع ، لا يقوم بالرد على من ينكر وجودها ، وكأن الأمر مجرد مسألة قابلة لهذا الرأي أو ذاك .

ولكننا نبين لهؤلاء بالدليل على أن السموات سبع ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال:٤٢) . والقول في السبعين أنها صيغة مبالغة ومثلها الرقم (٧) غير صحيح . إذا أن العرب كانت تستخدم رقم (٧٠) للتكثير ولازلنا نستعمل ذلك حتى الآن . وكانت العرب تجريه مجرى المثل . وقد ذكر الشوكاني أن الله تعالى ذكر السبعين لأن العدد سبعة عدد شريف ، فهو عدد السموات والأراضين ، والبحار والأقاليم والنجوم السيارة وأيام الأسبوع .

إن آيات القرآن والأحاديث الصحيحة المستفيضة لتؤكد هذا العدد . ووجود الملائكة في السموات ، وسدرة المنتهي والبيت المعمور ، والأنبياء الذين رآهم رسول الله ﷺ في رحلة المعراج ليؤكد ذلك . وكذلك إجماع كل المسلمين قبل عصر النهضة على ذلك لم يشذ منهم واحد .

سبع أراضين

اختار كثير من العلماء في تفسير هذه الآية :

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الطلاق:١٢) .

هذه الآية تخبرنا أن الله تعالى خلق سبع سموات ، وخلق من الأرض مثلهن وكلمة مثلهن تعني أنها مثل السموات تماما ، ليس فقط في العدد وإنما أيضا في الشكل والتطابق والتسوية . إن الله تعالى عندما استوى إلى السماء وهي دخان ، سواهن سبع سموات أي فتق السماء وجعلها سبعا ، وأصبح بين كل طبقة وأخرى من هذه السبع فراغ ، وهذا الفراغ متساو لكل طبقة . هذا الفراغ هو السماء والطبقة ذاتها هي أرضية لهذه السماء فتكون بعد هذا الفصل أو التسوية أو الفتق سبع سموات من ضمنها السماء التي فوقنا ، فهي السماء الدنيا . وأيضا سبع أرضيات لهذه السموات من ضمنها أرضنا وهي السابعة ، لأننا عندما نعد سبع

سموات نعدها من أسفل إلي أعلي أي سماءنا هـذه هـي الأولى (السـماء الدنيـا) إلى أعلـى حـتى السماء السابعة ، وهي أعلى السموات وهي فـوق السـموات السـتة .

أما عندما نعد الأراضين ، فإننا نعد من أعلى إلى أسفل عـدا تنازليـا ، فـإن أرضنـا تكـون الأرض السابعة ، فالأرض نزول ، فتعد من أعلـى أولاً إلى أسـفل والسـماء علـو فتعـد مـن أسفل إلى أعلى ، فأرضنا هي السابعة ، لكن السماء فوقنـا هـي الأولى . وقولـه تعـالى ﴿يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ فمعلوم أن الأمر يتزل بين السموات وهو في نفـس الوقـت بـين أرضيـات هـذه السموات حتى يتزل الأمر إلى أرضنا هذه وهي الأرض السابعة . وهـذه الأرضيـة سماهـا رسـول الله ﷺ (كثف) أي أن السماء عندما فتقت وفصلـت وأصبحـت سـبعا كـان بـين كـل منـها فاصلاً هو هذا الكثف أو هذه الأرضية . فأرضيـة السـماء السـابعة هـي أول أرض ، وأرضيـة السماء الأولى (الدنيا) هي سـابع أرض .

أما من ناحية الشكل والخلقة والصنعة ، فلا يوجـد مثيـل لأرضنـا لا في السـموات السـبع ولا في غيرها . ولا يشبه أي كوكب أرضنا ، فالجبال والبحـار والأنهـار والأشـجار والحيوانـات والغلاف الجوى والزروع والثمار والمعـادن والـثروات والمعـايش والأقـوات ، لا توجـد إلا في هذه الأرض . وهي الوحيد بهذه الصورة ، أما بكونها أرضية للمخلوقـات ففوقـها سـت أراضـى أخرى تقل الملائكة ، وأرضنا هذه واحدة منها وهي السفلى ، أو كمـا قـال تعـالى :
﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ في سورة (التين) ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَـنِ تَقْـوِيمٍ (٤) ثُـمَّ رَدَدْنَـاهُ أَسْفَلَ سَـافِلِينَ(٥)﴾ .

لقد ذكرت السماء بالجمع أي : سموات ١٩٠ مـرة ولم تذكـر الأرض بصيغـة الجمـع مـرة واحدة ، وقد ورد ذكر الأرض في القـرآن ٤٥٠ مـرة كلـها بصيغـة المفـرد حـتى في سـورة الطلاق عند ذكر السبع سموات لم تذكر الأرض بصيغة الجمع مثـل السـموات بـل قـال تعـالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِـنَ الأَرْضِ مِثْلَـهُنَّ﴾ .

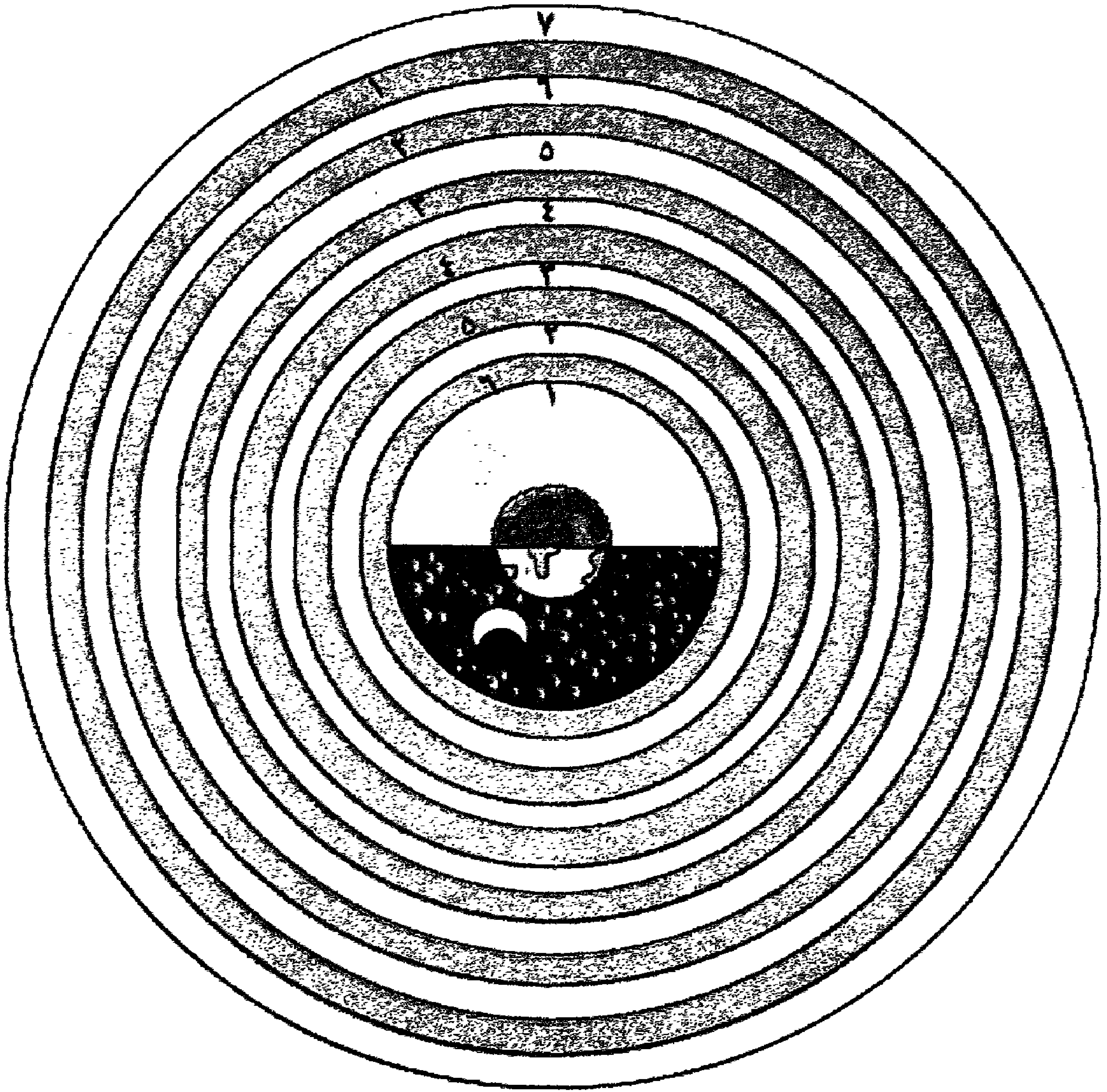
عندما أعلم الله تعالى الملائكة أنه سـيجعل في الأرض خليفـة ، لم تسـأل الملائكـة : أي أرض هي ؟ فلو كان هناك غير أرضنا هذه لقالت الملائكة أي أرض ؟ ولكنـهم قـالوا بمـا يفـهم مـن قولهم أنهم عرفوا الأرض التي يعنيها الله تعالى لا لشيء إلا لأنهـا أرض واحـدة ﴿وَإِذْ قَـالَ رَبُّـكَ

للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ (البقرة ٣٠)

ذكر الله تعالى أن الأرض مثلهن عقب ذكره ﴿ سبع سموات ﴾ مما يعنى أنها مثل السموات تماما ، وهذا لا يمكن إلا حالة أن تكون للسموات أرضيات مثلها ، وقوله : ﴿ يتنزل الأمر بينهن ﴾ يؤكد أنها فوق بعضها تتخلل السموات . فالأمر من وحى وتدبير لشئون الخلق يتنزل من عند الله ويمر بهذه السموات وأرضياتها .

لم يخبرنا عز وجل فى القرآن فى أى آية ، عن وجود أرض أخرى ، أرسى عليها جبالا أو أخرج منها ماء أو أنبت فيها زرعاً ، أو أوجد عليها مخلوقات وأرسل إليها رسلاً لكى يتنزل الأمر عليهم . لم يثبت خلال تاريخ البشرية أن هناك أرضاً غير أرضنا ، أو مخلوقات غير مخلوقات هذه الأرض .

* * * * *



شكل تقريبى يوضح السموات السبع والأرضون السبع وأرضنا مركزها . وواضح من الشكل أن أسماءنا هى الدنيا أى رقم ١ حتى السماء السابعة آخر سماء . أما أرضنا فهى الأرض السابعة . بينما أرضية السماء السابعة هى الأرض الأولى . فعندما نعد السموات نبدأ من أسفل ونصعد . وعندما نعد الأرض نبدأ من الأرض العالية وننزل للأرض السفلى . والأرضيات العليا عليها الملائكة والسفلى عليها الجن والإنس .

نظرية تمدد الكون

يرى التجريبيون – ومن ورائهم علمائنا – أن المجرات حدثت منذ عشرين ألف مليون سنة نتيجة دوى (انفجار) هائل وبشيء أقرب إلى السياق ، من نقطة بدء واحدة ومن مادة واحدة ، ضغطت بشدة حتى صارت كرة واحدة ساخنة للغاية . ثم حدث الدوي الهائل الذي أطلق المادة في كل الاتجاهات . ثم بردت المادة بمرور الوقت . وتكونت هذه المجرات التي ما زالت تسرع وتبتعد ، لذلك فالكون يتمدد ويتوسع .

وتخيلوا لهذا الغرض بالونا من المطاط توجد نقاط مطبوعة على سطحه ، فإذا بدأت في نفخه بالتدريج يتمدد سطحه إلى أحجام أكبر وأكبر ، وتتباعد المسافات بين كل نقطة والأخرى باستمرار بحيث تصل إلى مرحلة معينة ثم تعود إلى الانكماش مرة أخرى .

يقول (جورج جاموف) في كتاب (بداية بلا نهاية) وهو أحد أشهر علماء الفيزياء في القرن العشرين (١٩٠٤ : ١٩٦٨) يقول هذا التجريبي عن ظاهرة التمدد هذه .

" بدراسة الأطياف الصادرة عن هذه المجرات البعيدة لاحظ علماء مرصد (ولسون) ومعهم (هابل) أن خطوط الطيف تنحاز قليلا نحو الحد الأحمر من هذا الطيف ، وأن هذه الإزاحة المعروفة (بالإزاحة الحمراء) تكون أقوى في المجرات البعيدة ، ووجد في الحقيقة أن الإزاحة الحمراء في المجرات المختلفة تتناسب طردياً مع بعد المجرة عنها .

وأنسب تفسير لهذه الظاهرة أن نفترض أن كافة المجرات تبتعد عنا بسرعة كبيرة تتزايد كلما زادت المسافة بيننا وبينها .

وهذا التفسير يعتمد على ما يطلق عليه (ظاهرة دوبلر) وهي تجعل الضوء الآتي إلينا من مصادر تبتعد عنا يغير لونه نحو الإتجاه الأحمر من الطيف " .

ثم يتساءل (جاموف) : " والآن نستطيع ان نسأل أنفسنا عن القوى المسئولة عن تمدد الكون ؟ وهل سيتوقف هذا التمدد ؟ وهل سيتحول إلى انكماش ؟ وهل هناك احتمال في أن كتل الكون المتمدد سوف تنقلب علينا وتضغط نظامنا (درب التبانة) ونظامنا النجمي والشمسي والأرض والبشر عليها إلى فقاعة ذات كثافة نووية .

وفقا للاستنتاجات المعتمدة على أفضل المعلومات المتاحة نستطيع أن نقول بأن ذلك يستحيل أن يحدث " .

ثم يشكك الرجل في كل ما لديهم من معلومات قائلا : " ووفقا لأفضل المتاح من بيانات عن كتل المجرات يبدو أن الطاقة الحركية للمجرات المتباعدة أكبر بعدة مرات من طاقة

الوضع المتبادلة بينها مما يترتب عليه أن هذا الكون سيستمر في التمدد إلى ما لا نهاية دون أن تكون هناك أي فرصة لانكماشه أو تقاربه مرة أخرى " .

" ومع ذلك ينبغي أن نتذكر أن أغلب البيانات الرقمية الخاصة بالكون ليست دقيقة تماما بصفة عامة ، ومن الممكن أن تسفر الدراسات المستقبلية عن عكس هذا الاستنتاج " .

" لكن حتى لو توقف الكون عن التمدد فجأة ، وانقلب اتجاه حركته فسوف يكون أمامه بلايين الأعوام قبل أن يحل هذا اليوم الرهيب الذي وصفته الأغنية الزنجية بـ (يوم تتهاوى النجوم) وقبل أن تسحقنا السماء المنهارة " .

وصدق الله إذ يقول ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ (المعارج) . ويقول ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩)﴾ (المرسلات) ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ(٣)﴾ (التكوير) فهذا قول الله وليس الأغنية الزنجية .

أرأيتم أيها السادة علماء المسلمين ماذا يقول الذين تتبعونهم . وعلى كلٍ ، فالتجريبي الذي قال هذه المقالة والذي لا يعترف بإله لهذا الكون ، ولا يعترف باليوم الآخر هو في كل ما قال (يفترض) ولا يثبت : ولا يزعم ذلك الإثبات . أما علمائنا الإجلاء ، فلم يردوا هذا الكلام ولم يدحضوه ، ولم يعرضوا كلمة الله في هذا الكون ، إنهم لم يفعلوا ذلك وليتهم سكتوا ، بل المفجع أنهم شهروا أقلامهم للدفاع عن هذه الأقوال الكافرة بالله واليوم الآخر ، وليس هذا فقط بل إنهم يعتبرون ما قاله التجريبيون هو الحق ، وليس مجرد افتراض . ثم يصلون إلى آخر مطافهم – وسيسألون عن ذلك – إلى تأكيد افتراءاتهم بآيات القرآن .

وإليكم أمثلة :

الداعية الإسلامي الشيخ "عبد المجيد الزنداني" في كتاب (توحيد الخالق) قال : " قرر علم الفلك الحديث (وانتبهوا إلى : قرر) بأن السماء لا زالت في اتساع دائم في تكوين مدن نجومية جديدة باستمرار ، أو في تباعد هذه النجوم باستمرار . ويقول تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ .

وفي كتاب آخر للشيخ يقول " اكتشف علم الفلك الحديث تمدد الكون " .

الداعية الإسلامي الشيخ " عبد الرازق نوفل " في كتابه (السماء وأهل السماء) :

" أين تبدأ السماء ؟ وأين تنتهي ؟ .. لعل مما يوضح قدر أسرار هذا العمق ، ما وصل إليه العلم أخيرا من أن السماء منذ وجدت وهي تتمدد من كل جهاتها وإلى غير حد وأن سرعة اتساع السماء وتمددها تزداد باستمرار .. وما زالت السماء تتمدد وتتسع وبسرعة هائلة تبلغ ١٤ ألف ميل في الثانية وقد ظلت على هذا الاندفاع ملايين الملايين من السنين ، وما زالت تندفع في السماء دون أن تصل إلى حافتها .. فأين نهايتها ؟ ويقول القرآن الكريم عن هذه الحقيقة العلمية ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ " .

الدعية الإسلامي الشيخ " ابن خليفة عليوي " ذكر في كتاب (سبعون برهانا علميا على وجود الله) ما ذكره التجريبيون عن تمدد الأجرام السماوية في الفضاء وسرعة تمددها قال : " لو كان الكون أزاليا كما يدعون من قبل لما كان قابلا للتمدد والتغيير باستمرار ، ولما لم يكن كذلك كان الكون حادثاً وكل حادث لا بدله من محدث وليس ذلك المحدث إلا الله تعالى القائل في محكم آياته : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ " .

وحتى لا نطيل نكتفي بهذا القدر من أقوال علمائنا الأجلاء ، ولا أظن أن هناك مخالفا لما يقولونه وآية ذلك ما نختم به هذا الأمر بما ورد من تفسير (المنتخب) الذي أعده لجنة من كبار علماء الإسلام بجمهورية مصر العربية . قال المؤلفون عند قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ تشير هذه الآية إلى أن التوسعة مستمرة على الزمن ، وهو ما أثبته العلم الحديث أيضا وعرف بنظرية التمدد التي أصبحت حقيقة علمية في أوائل هذا القرن . وحاصلها أن السدم خارج المجرة التي نعيش فيها تبتعد عنا بسرعات متفاوتة بل إن الإجرام السماوية في المجرة الواحدة تبتعد بعضها عن بعض " أ . هـ .

﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ . قبل أن نذكر رأي القرآن والسنة وعلماء الأمة – قبل عصر الإلحاد – أذكر بأن (جورج جاموف) التجريبي الذي ذكرنا قوله عن التمدد ، يفترض هو وزملاء ولم يقل الرجل (ثبت علميا) أو (قرر العلم) أو (حقيقة علمية) .

ويؤكد تجريبي آخر بأن هذا مجرد فرض ، بل إنه لا يعترف به فيقول ".دونالد روبرت كار " (دكتوراه في الطبيعة) : " أما الرأي الذي يقول بأن هذا الكون دوري ، أي أنه ينكمش ثم يتمدد ، ثم يعود فينكمش من جديد ... ألخ ، فإنه رأي لم يقم على صحته دليل ، ولا يمكن أن يعتبر رأيا علميا ، بل مجرد تخمين . ومن ذلك نرى أن القول بأن للكون بداية

يتفق مع ما جاء مثلا في الإنجيل " لقد خلق الله في البداية السموات والأرض " وهو رأي تؤيده قوانين الديناميكا الحرارية والأدلة الفلكية والجيولوجية " .

لقد كان هذا الرجل أمينا مع الناس ، مؤمنا بدينه ، ورفض الافتراضات العلمية ، لأن في إنجيله آية تقول : " لقد خلق الله في البداية السموات والأرض " .

أما علماء القرآن الأجلاء فإننا نذكرهم بسبع آيات لا ثامن لها تقرر أن السموات ، لم تعد دخانا كما كانت وإنما تحولت إلى بناء متين بناه الله بيده بناءً بلغ من قوته ومتانته أن الله تعالى جعله من غير أعمده أو أن له أعمدة ولا نراها كما فسرها ابن عباس ولنر هذه الآيات السبع التي لم يذكر في القرآن أن الله تعالى بنى شيئا غير هذه السموات السبع :

١- ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ (الشمس:٥)

٢- ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (النازعات:٢٧)

٣- ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ (النبأ:١٢)

٤- ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ (ق:٦)

٥- ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات:٤٧)

٦- ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ (البقرة:٢٢)

٧- ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ (غافر:٦٤) .

وعلى ذلك فالسماء مبنية ، البناء المعروف في الذهن : لبنة لبنة . ففي الآية الأولى يقسم تعالى أنه بنى السماء ، وفي الآيتين الأخيرتين يخبر بأنه تعالى جعل الأرض قرار وأساسا وقاعدة لهذا البناء .

والآية الثانية تقرر أن بناء السماء أشد من خلق كل الناس ، فإذا كان الناس من القوة بحيث لا يعثروا في الأرض ، بل هم يتحركون بهدف ، وبقدر ، وهم جميعا إنما يدورون بين أماكن معيشتهم ومستقراهم ، فإذا كانوا هم كذلك ، فالسماء أشد منهم .

أما الآية الثالثة فهي تقرر أن فوقنا سبع سموات ، شدت وقويت حتى إنها من شدها وقوها ، لا تحتاج إلى أعمدة . ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ (الرعد:٢) وهي إذا كانت سبعاً فبعضها فوق بعض فكيف تتمدد السموات السبع ؟ لأنه من المفهوم أن السماء الدنيا إذا تمددت واتسعت فإن السماء الثانية سيكون لها ذلك .. وهكذا كل السموات . وكيف تستقر الملائكة في السماء وهي تتمدد بهم وتسرع في التوسع ؟

ثم إن الله تعالى يلفت نظرنا إلى السماء فوقنا هل يحدث بها أي تغيير عما كانت عليه ؟ إن شكل السماء كما هو منذ عهدناها صغارا وتغيرنا نحن وكبرنا وتمددنا وتبدلنا ولم تتغير هي ولم تتمدد لأنها عندما تتمدد فيكون ذلك قيام الساعة ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ (الطور:٩) ولو حدث تمدد لحدث لها تشقق والله تعالى ينفي عنها ذلك فيقول ﴿فَارْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ(٣)ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (الملك:٤) وعندما يحدث في السماء فطور ، أي تشقق فاعلم أنها القيامة . ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ (الانشقاق:١) .

وقد نسي علمائنا أن التجريبيين الذين يتبعونهم لم يقولوا أبدا بتمدد السماء واتساعها وإنما يقولون بتمدد وانكماش النجوم وفرق بين السماء وأجرامها التي أودعها الله فيها دون انفجار ودون دمار .

ثم إن النجوم والقمر والشمس نراها كل يوم وليلة ولا يحدث تغيير في مواضعها منذ أن خلقها الله ، وقد أخبر بذلك أهل الفلك لدى الحضارات القديمة أنها نفس النجوم ونفس المطالع ونفس المواعيد ، لم تتغير ثانية واحدة .

نأتي إلى معنى الآية التي يلفقونها لتطابق مع أقوال التجريبيون :

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُون﴾ (الذاريات:٤٧) .

لا يوجد تفسير واحد من التفاسير يقول بأن معنى الآية : أن السماء تتمدد حتى تفسير المنتخب لمجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة فإنه عند شرح الآية يقول : " والسماء أحكمناها بقوة . وإنا لقادرون على أكثر من ذلك " إنه نفس تفسير السلف ولا غبار عليه ، فكيف بعد ذلك يعلقون على هذا الشرح بما ينفيه لأن التمدد والتوسع الذي قالوا به خلاف (الإحكام والقوة) الذي فسروا به .

يقول (ابن كثير) في تفسيره لهذه الآية : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ جعلناها سقفا محفوظاً رفيعا ﴿بِأَيْيدٍ﴾ بقوة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُون﴾ قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هي .

وهكذا تتفق كل التفاسير على هذا المعنى الذي ينفي أي تغيير في السماء . وكيف يكون ذلك وكل قوانين الكون ثبتها الله لينتفع الناس بما في الكون يقول تعالى ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌ﴾ ولو تخيلنا تغير درجة غليان الماء لأكثر من مائة درجة أو أقل . ماذا سينتج عن ذلك ؟ ماذا لو تغيير قانون ونظام الطفو في الماء ولو تغيير نظام التبخير والتكثيف ، وقانون الاحتكاك

للأرض ، وقانون التعادلية بين النسل للحيوانات والتعادلية بين الأكسجين والكربون من الإنسان والنبات إلى آخر القوانين ؟ إن الكون بذلك سينفرط عقده . تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا . أليس الله تعالى يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ﴾ فكيف تتفلت السماء وقرب من إمساك الله لها ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (فاطر:٤١) .

النظرية الإسلامية والنظريات المعاصرة

هذه هي النظرية الإسلامية ، وهي الحقيقة العلمية ، والتي تختلف تماما ، جملة وتفصيلا عن النظريات الكونية الحديثة ، والتي وضعها رجال لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا بأي كتاب سماوي وهذه النظريات المخالفة رغم أنها وجهات نظر لم تثبت علميا ، ولا يدعي أصحابها ذلك ، إلا أنها أخذت صفة الحقيقة العلمية التي لا تقبل النقض ، واعتمدها علماؤنا لتدرس ، ووافق علماء الشرع على هذا النهج ، بل وأيدوا ذلك بآيات قرآنية ، ونسخ العمل بكل ما قلنا من حقائق الكتاب والسنة ، ولم يعد يدرج ما قاله الله ورسوله من أمور متعلقة ببدء الخلق بين النظريات ، وأصبحت الآيات والأحاديث التي تنص على ذلك من التراث شأنها شأن ليالي ألف ليلة وليلة ، وحكايات أبو زيد الهلالي ، وأغاني الأصفهاني سواء بسواء لا تفرق عنها في شيء إلا أن آيات القرآن يتبرك بها بالقراءة ، ويتعبد بها في الصلاة .

أما أن يدرس على طلاب العلم آيات الله في الكون بديلا عن نظريات التجريبين ، فهذا ما لا يكون . أيستبدلون نظرية تكوين الأرض التي تقول أن الأرض تكونت في خمسة بلايين من السنين بقول الله ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ؟ وأنها ظلت بليون عام آخر حتى بردت وأصبحت بحالتها الراهنة ويأتون بقول الله ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ ؟

لقد رأينا مدى الجهالة والعمى فيما يقوله التجريبيون من أقوال لا يقبلها العقل السليم . فأي عقل هذا الذي يقبل القول بأن الأرض جزء من الشمس ؟ وإن كانت كذلك فلماذا بردت الأرض ولم تبرد الشمس ؟ وأي نجم ذلك الذي انفجر فخرجت منه هذه الكواكب التي يختلف كل كوكب منها حجما وشكلا وسرعة واتجاهاً عن الآخر ؟ وكيف أصبحت الأرض بهذه الصورة البديعة المتناسقة ، المتناسبة وبهذا التقسيم وهذا البسط وهذا التناسق

وهذا التمهيد وهذا التنوع مما لا يوجد في سائر الكواكب التي تكونت كلها من أصل واحد ؟

وكيف أتت البحار إلى الأرض دون سائر الكواكب وكيف جرت الأنهار عليها بهذه الصورة ؟ وكيف رست فيها الجبال دون غيرها ؟

لماذا هي من بين جميع الكواكب التي يحدث لها ذلك وأصلهم جميعاً واحد ؟ أيقتنع رجال الكنيسة بذلك ؟ أيعتقد علماء الإسلام بهذا ؟ أيؤمن أحبار اليهود بهذا الهراء ؟ إن كانوا جميعاً يقتنعون ويعتقدون ويؤمنون بهذا ، فإنهم والله للكفر أقرب منهم للإيمان . وإن لم يكونوا كذلك فلماذا يسكتون ؟ لم لا ينطقون ؟ لم لا يصححون ؟ أيقول الله بأنه طحى الأرض وقسمها ، ويقولون بل هي التي تزحزحت .. ويسكتون ؟ أيقول الله أن هذه الجبال أتت للأرض ﴿مِنْ فَوْقِهَا﴾ (فصلت) وألقيت فيها ويقولون بل تكونت الجبال من باطن الأرض .. ويسكتون ؟

أيقول الله أنه أودع في الأرض معايش أهلها وأقواتهم ، ويقولون أن هذه ثروات طبيعية أتت بها الطبيعة ، وتحللت في باطنها بعض الكائنات على مدار بلايين السنين وكونت بترولا وفحما وغير ذلك ويسكتون ؟

هل هذا هو الإيمان الذي يريده الله من المؤمنين ؟ وهل هذه هي العبودية التي يريد الله أن يتعبدوه بها ؟

إذا كان الأمر كذلك فقد كان أبو جهل وأبو لهب أعبد منهم جميعا إن قالوا بذلك ، وقد كانا يؤمنان بالله وبخلقه لكل شيء وبقدرته على كل شيء وبتدبيره لكل شيء يقول تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّا يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت) .

اللهم إني أبرأ إليك مما يقولون وأشهد أن ما قلته هو الحق ، وأن ما يقولونه هو الضلال المبين . وصدقت إذ قلت : ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (الكهف ٥١) .

* * * * *

غيب السموات والأرض

دائما ما ينظر الناس إلى السماء - إذا نظروا - على أساس أنها المجهول واللانهائية والتيه ، والغموض والأسرار ، والإبهام ، وكل ما يمكن أن يقال من قاموس اللغة ، في هذا الشأن ، وهذه ليست نظرة إيمانية ، بل إنها نظرة تشككيه ، نظرة من لا يلتزم بدين ولا يتبع آيات .

إن المؤمن له نظرة غير هذه ، نظرة الموصول بالله ، خالق السموات والأرض ، المرتبط بالوحي ، والتابع للأنبياء والرسل اللذين رأوا ملكوت الله إما رأي العين ، وإما بإخبار الله لهم والثانية لا تقل صدقا عن الأولى .

والمؤمن بالقرآن وبأنه منزل من عند الله . وبأن آياته احتوت على تفاصيل كل شيء في هذا الكون ، ويؤمن بنبوة محمد ﷺ الذي توفي وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لأمته منه علماً ، الذي بيّن كل شيء لأن هذه كانت مهمته وذلك كان واجبه ، يعلم أن الله تعالى قد بين وفصل ما في السموات وما في الأرض سواء في خلقهما أو ما فيهما من آيات ، ومن ثمّ فلا يوجد في خلق السموات أو الأرض غيب مهما كان . وإلا ما كان الله ليأمر عباده بقوله ﴿انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (يونس:١٠١) إذا كان ما فيهما مجهول وغامض وغيب وسر . بل إنها آيات واضحة بينة .

ولقد أنفق في سبيل استكناه ما سموه بالغموض بلايين الجنيهات ، مما كان يكفي لإشباع قارة جائعة لعدة أعوام ، وهلك من الرجال والنساء والدواب ما هلك . ولأن الله قد حكم عليهم بالجهل فإنهم لم يعلموا ، ولن يعلموا شيئا .

قال تعالى ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف:١٤٦) .

فأنا لهؤلاء أن يقفوا على آيات الله وقد صرفهم الله عنها ، مهما ذهبوا في الفضاء ومهما دخلوا في الأشياء ، فإنهم مصرفون عن العلم ، والذين يعطيهم الله من فضله صنف محدد معلوم . وهم المتقون ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٨٢) ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة:١١٨) أما غيرهم فلا سبيل لهدايتهم لآياته ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر ٣) فهل يعقل أن يأخذ المؤمنون ممن ختم الله على قلوبهم وعلى

أسماعهم وعلى أبصارهم ، كيف ننتظر من هؤلاء نورا وهم يعيشـــون في الظلمـــات ؟ بــل كيــف ننتظر منهم علما وقد حكم الله عليهم بالجهالـــة ؟ أم كيــف ننتظــر منـــهم هــدىً وهــم الذيــن اختاروا لأنفسهم الضلالـــة .

ووالله ما علم رواد الفضاء في كل رحلاتهم ، وبكـــل محـــاولاتهم عــن النجــوم مثلمــا علــم الأعرابي البدوي ، البسيط ، الذي لا يجيد قراءة ولا كتابة . ووالله مـــا خــرج رواد الفضـــاء بعــد كل ما فعلوه بأي جديد يفيد الإنسان ، لأن الله تعـــالى قضـــى بـــأن لا يعلمـــهم وأن لا يفقهـــهم ، وأنه تعالى يصرفهم عن آياته ، فمهما حاولوا لن يصلـــوا إلى شـــيء إلا بـــإذن الله .

﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَـــاءَ﴾ (البقرة:٢٥٥) .

وليجب على هذا السؤال أي واحد من علماء الفلك : ماذا تعلمتـــم مــن رحــلات الفضـــاء وما نتيجة كل أبحاثكم عن الكـــون ؟؟

إنني على يقين أنهم لم يصلوا إلى شيء ولن يصلوا . لأن الإجابـــة الصحيحـــة أنهــم لم يتعلمــوا شيئا . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَـاءً حَتَّـى إِذَا جَـاءَهُ لَـمْ يَجِـدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَـرِيعُ الْحِسَـابِ﴾ (النـور:٣٩) .

إنهم يلهثون وراء سراب ، لن يصلوا إلى شيء ، حتى إذا ما جاءوا إلى مـــا ظنــوا أنــه علمــاً ، إذا به سراب . ولكن الله فضلا عن أنه يصرفهم عن آياته فإنه تعـــالى يســـتدرجهم مــن حيــث لا يعلمون وهو تعالى يملي لهــم .

يقول كبيرهم السير " جيمس جيتر " في كتابه (النجوم ومسالكها) عـــن مـــا وصلـــوا إليـــه : " أبعد ما توصل إليه العلم الفلكي الحديث (وانتبهوا أيها السادة إلى هـــذا التلخيــص الهــام لأبعــد ما توصلوا إليـــه) :

(١) الأرض ليست إلا فردا من أفراد المجموعـــة الشمســية .

(٢) الأسرة الشمسية ليست إلا فردا من أفراد المجموعـــة المجريـــة .

(٣) المجموعـــة المجريـــة ليســـت إلا فــردا مــن أفـــراد المـــدن النجميـــة الـــتي في الفضـــاء " .

ثم يضيف الرجل " وإن كان وراء ذلك شيء فـــلا يمكــن أن يكــون ســوى أكــوان أخــرى كاملة لا تفاعل بينها وبين كونـنـــا " .

فهذا أعظم وأبعد ما توصل إليه العلم ، وهي معلومات خاطئة . نعم إن وراء كوننا أكوان وأكوان ، سموات بعضها فوق بعض ، وفيها ملائكة كرام ، وبيننا وبينهم وثائق وروابط وشيجة .

فماذا نأخذ من هؤلاء ؟ الظلام ، الضلال ، السراب ؟

أخيرا يقول هذا التجريبي ، يأساً مما وصلوا إليه من التيه والضياع " أمامكم عرض كبير من النظريات المختلفة لتختاروا منها ما تشاءون . ولكني شخصياً لا أضع ثقتي في أي منها " .

وهذا الفلكي الأشهر (أدوين هابل) يقول : " وهكذا انتهى استكشاف الفضاء إلى موقف الحيرة والالتباس ، فكلما ازداد تقدمنا إلى أعماق الفضاء تضاءلت معلوماتنا فتلاشت سريعا " .

آمنت بالله ، وصدق الله . أرأيتم ما يقوله كبراؤهم عما توصلوا إليه ؟ وماذا يقول كبراؤنا من أتباعهم ؟ أنهم وصلوا إلي الحقائق العلمية ، والقول الفصل . إن أي كلام يقوله أي واحد من التجريبيين الغربيين حتى ولو كان فرضا ، أو لغوا ، أو كلمة هو قائلها ، يعتبرها كبراؤنا حقيقية علمية ، وإثبات علمي .

هل يعقل أن (هابل) هذا و(جيتر) تدرس أقوالهما ونظرياقمما التي يعتبروهما هم : " لا شيء " و" أنهم كانوا في حيرة والتباس " علي طلاب العلم في مدارسنا وجامعاتنا ؟

ثبت عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : " يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول : قال رسول الله ﷺ . وتقولون : قال أبو بكر وعمر " . سبحان الله حجارة من السماء ؟ لماذا ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله . لأنهم يقابلون ما يقوله رسول الله ﷺ بما يقوله أبو بكر وعمر رضى الله عنهما . وهما لا يقولا ما يتعارض مع قول رسول الله ﷺ .

فماذا ننتظر نحن من السماء ونحن ندع ما يقوله الله ورسوله ، ونقول : قال " نيوتن " قال " أينشتاين" ؟ .. اللهم عفوك ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور:٦٣) .

إن الله تعالى الذي أنزل القرآن لم يترك شيء لأن القرآن ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل:٨٩) ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام:٣٨) ففي القرآن كل ما يهمنا أو نحتاج إليه ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الزمر:٢٧) .

أيخبرنا القرآن عن (الحيض) ولا يخبرنا عن الكون ؟ أيحدثنا عن (التيمم) ولا يحدثنا عن الشمس والقمر ؟ أيخبرنا عن النمل والبعوض ولا يخبرنا عن سكان الكواكب الأخرى إن كان ؟ لقد حدثنا القرآن عن كل شيء ، تفصيلاً لا يبقى بعده غموض ولا طلاسم . إلا أن هناك أمور اختص الله تعالى بها نفسه لتحقيق الغاية التي خلق لأجلها الخلق ، وللدلالة على قدرة الله تعالى ونفاذ مشيئته . وهذه الأمور سماها تعالى (الغيب) . وهي في هذا الكون كله خمسٌ فقط . وعلى رغم أهميتها للإنسان إلا أن الله غيّبها عن الخلق واختص بها نفسه يقول تعالى في سورة لقمان الآية (٣٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

فالله تعالى وحده ﴿عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ فلا يعلم ذلك جبريل أعلم أهل السماء ، ولا محمد ﷺ أعلم أهل الأرض .

﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ في الأوقات التي جعلها الله والأماكن التي تنزل فيها على من يشاء من عبادة ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ من الذكور والإناث ، والصلاح والفساد ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ﴾ من النفوس كائنة ما كانت بما فيها الملائكة والأنبياء والجن والإنس ﴿مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ ماذا سيحدث لها غدا وماذا ستكسب من خير أو شر ، من كسب الدنيا ، أو كسب الدين ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي : بأي مكان يقضى عليها بالموت . وهذه الخمس هي التي لا ينبغي لأحد علمها .

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (الجن:٢٦) ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ (آل عمران:١٧٩) . وهذا الغيب لا يعلمه أحد ولا ينبغي لأحد ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ﴾ (الأنعام:٥٩) . وقال تعالى حاكيا عن النبي ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ (هود:٣٠) .

هذا هو غيب السموات والأرض . غير أن لدينا ثلاث آيات يخبرنا الله تعالى أنه أطلع رسوله على الغيب وهذه الآيات هي ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ (هود:٤٩) وردت مرة . وقوله تعالى ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ وردت مرتان .

وبتدبر هذه الآيات ، نجد أن الغيب المقصود هنا ليس غيب السموات والأرض ، بل هو غيب الحضور عن أحداث تاريخية لم يكن هو ولا أحد من قومه قد حضرها . ولا علم بها من

مصدر موثق ، وقد كانت الآيات الثلاث يختم بها ثلاث قصص لثلاث من الشخصيات ، الأولى عن نوح مع قومه ، والثانية عن يوسف مع أخواته ، والثالثة عن مريم مع زوج أختها ، فهي أحداث حدثت بالفعل وليست من غيب السموات أو الأرض بل هي غيب علي من لم يحضرها أو يعاصرها . لذلك قال تعالى في سورة هود بعد ذكر قصة نوح عليه السلام : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود:٤٩) وفي سورة يوسف يقول تعالى بعد سرد قصته عليه السلام ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف:١٠٢) وفي سورة آل عمران بعد إخبار الله لرسوله عن أمر مريم عليها السلام وكفالة زكريا عليه السلام لها قال تعالى ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (آل عمران:٤٤) .

لقد بدأت الآية الأولى بكلمة ﴿تِلْكَ﴾ والأخريان بكلمة ﴿ذَلِكَ﴾ ، ومعروف في علم اللغة العربية أن تلك للبعيد ، وذلك كذلك ، كذلك فقد كانت أحداث قصة نوح بعيدة جدا فقومه أول قوم أهلكهم الله بذنوبهم ، أما يوسف ، ومريم فهما أقرب زمنا من نوح كذلك لم يقل تعالى في الآيتين الأخيرتين ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ كما قال في الآية الأولى ، بل قال ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ وذلك لأن قصة يوسف يتعلق أمرها باليهود والثانية بالنصارى وقد كان لهما أتباع من اليهود والنصارى أثناء نزول القرآن ، ولا يستبعد أن يعلم بأمرهما أحد من قومه ، ولكن أن يكون لديهم فهذا مستحيل ، لذا أخبر ﷺ بأمور لا يعرفها أهل الكتاب .

هذا الغيب ، كما قلنا غيب الحضور مثل ما قاله تعالى عن الصالحات : ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ (النساء:٣٤) والغيب هنا : غيبة الزوج . وكل ما أوحي لرسول الله ﷺ تحت هذا النوع الذي شاء الله أن يعلمه الناس .

وخلق السموات والأرض من النوع الثاني أيضا ، فقد أخبر الله تعالى بما حدث في خلقهما مفصلا فقال ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران:١٩٠) وقال ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الجاثية:٣) ومن هنا نرى أنه ليس في الأمر أسرار ، ولا مجهول ، يستحق أن يفنى البشر في سبيله المال والجهد والروح .

ولقد قلنا أن أمر الله للناس بالبحث في بدء الخلق كان لغير المؤمنين بالوحي وتوجيه لهم باستقراء الكتاب المنظور والآيات المرئية وهي آيات مباشرة ليس دونها نبي أو رسول ، بل هي آيات من الله دون واسطة إن كان في هذه الواسطة عائق - بزعمهم - أو على غير هواهم ، أو يجدون في أنفسهم حسداً ، أو حرجاً للإيمان بالله عن طريقه أو لأي مبرر يدعونه فقد وجههم الله للكون وما فيه من آيات وهي كما اخبرنا تعالى (في السموات والأرض) وهي أيضا (في خلق السموات والأرض) وهي كلها لا تحتاج أكثر من النظر، لذلك قال ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا﴾ أما الأمر بالسير ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ فليس السير للنظر في آيات الكون ، لأن آيات الكون في كل مكان ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (ق) . وإنما كان الحث على السير في الأرض للوقوف على مآل المكذبين من الأقوام وقد كانوا هنا وهناك في مصر الفرعونية ، وبابل الآشورية ، والشام الفينيقية ، واليمن السبأية ، وفي قرى قوم لوط وفي مدين والحجر والأحقاف... وهي حولهم في كل مكان ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأحقاف:٢٧) .

لذلك حث الله المكذبين بالوحي في سبع آيات لا ثامن لها في كل القرآن على السير في الأرض ليروا بأعينهم كيف فعل الله بالمكذبين الذين خلوا من قبلهم ، الذين أبقى الله من آثارهم بعد تدميرهم ما يكون به عبرة لمن بعدهم كما قال تعالى عن قوم لوط بعد تدميرهم : ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ (الذاريات:٣٧) وأخبر تعالى أنه نجى فرعون ببدنه فقال تعالى ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ (يونس:٩٢) . أما آيات الله السبع التي حثهم فيها على السير فيقول تعالى فيها :

(١) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (النمل:٦٩)

(٢) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ (الروم:٤٢)

(٣) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (الأنعام:١١)

(٤) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ (العنكبوت:٢٠)

(٥) ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (النحل:٣٦)

(٦) ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (آل عمران:١٣٧)

(٧) ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ (سبأ:١٨) .

وفي سبع آيات أخر ينكر تعالى عليهم كفرهم بعد سيرهم ورؤيتهم للهالكين من قبلهم بهذا الأسلوب البليغ ﴿أَفَلَمْ﴾ ﴿أَوَلَمْ﴾ فيقول :

(١) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (يوسف:١٩)

(٢) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ﴾ (غافر:٨٢)

(٣) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ (محمد:١٠)

(٤) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج:٤٦)

(٥) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ (الروم:١٠)

(٦) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ (فاطر:٤٤)

(٧) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ (غافر:٢١) .

هذه آيات الله تعالى في السماء والأرض وهي مكشوفة واضحة إما بقول الله وإما بترك أثارهم لمن بعدهم ، فيكون الماضي كله معروض أمامهم في حاضرهم فلا أسرار ولا غموض في هذا الكون يستره الله عن الإنسان الذي كرمه وميزه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا . حتى التاريخ معروض حولهم في الأرض . حتى المستقبل فقد عرض الله تعالى من أحداثه الكثير وكشف للإنسان ما سيؤول إليه مصيره إن آمن ، وما سيؤول إليه إن كذب .

ولم يكلف الله الإنسان بالتعب والنصب للبحث في الكون ، وأن يلقى بنفسه في التهلكة ، وقد قدم له كل ما يحتاج إليه ، وكشف له تفصيلا كيف بدء الخلق ، وبين له آياته في السماء والأرض . ويكفي الإنسان ليطلع على آيات ربه أن يقرأ آياته المكتوبة ، أو أن

ينظر في آياته المبثوثة في كل مكان حوله . مجرد النظر ، دون تعب ودون كلفه وغزم .
﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم﴾ (ق:٦) ﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض﴾ (الأعراف:١٨٥) ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ (يونس:٢٦) .

فالأمر لا يحتاج أكثر من ذلك .

أخبرنا تعالى أنه خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ، ثم أخبرنا بأنه تعالى يعلم غيبهن في سبع آيات لا ثامن لها من كل آيات القرآن ، يقول تعالى :

(١) ﴿إني أعلم غيب السموات والأرض﴾ (البقرة : ٣٣)

(٢) ﴿ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله﴾ (يونس:١٢٤)

(٣) ﴿ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾ (النحل:٧٧)

(٤) ﴿قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع﴾ (الكهف:٢٦)

(٥) ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون﴾ (النمل:٦٥)

(٦) ﴿إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور﴾ (فاطر:٣٨)

(٧) ﴿إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون﴾ (الحجرات:١٨) .

بكل هذه الصيغ المختلفة (أعلم – عالم – يعلم – لا يعلم إلا هو – له وحده غيب السموات والأرض) يقطع الله تعالى الرجاء في أن يعرف أحد ذرة في هذه السموات أو الأرض إلا بما شاء .
﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض﴾ (البقرة:٢٥٥) وشاء الله ألا يحيط بعلمه إلا المتقون ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم﴾ .

وهاهي أكبر وكالة فضائية في الأرض (ناسا) التي تصب لها الأموال صبا هل استطاعوا أن يعلموا من كون الله ذرة من علم فوق ما علمه الله تعالى للناس في كتبه ؟ إنهم يخدعون شعبهم الذي يمول أبحاثهم بإعلانهم عن كشف جديد بين وقت وآخر ، ولو جمعنا كل ما أعلنوه من اكتشافات فإنه في الحقيقة لن يزن مثقال ذرة . وإنني لأؤكد أن علماء هذه الوكالة مجتمعين لا يعلمون من الفلك والفضاء والنجوم ما كان يعلمه راعي غنم بدوي كان يعيش في صحراء العرب منذ قرون .

* * * * *

مبدع السموات والأرض وفاطرهما

إن العمارات العظيمة التي أبدعها الإنسان على الأرض ، قد يكون لها مصمم وآخر منفذ يشتركان في إيجادها ، وعلى قدر روعة التصميم ، ودقة التنفيذ ، يكون جمال المبنى ، وأجمل وأضخم بناء في هذا الوجود هو بناء السموات والأرض .

ولله المثل الأعلى ، فقد أخبر تعالى أنه جل شأنه هو الذي أبدع تصميم هذا الكون الفريد (السموات والأرض) فهو تعالى الذي أبدع تشكيلهما بكل ما فيهما من روعة وجمال ، وحسن وبهاء ، على غير مثال ، وهو تعالى المنفذ وحده لما صممه وأبدعه تنفيذا دقيقا بحيث لا تقل إحكام خلق الذرة في الكون عن إحكام خلق المجرة فيه ، هذه الدقة التي تجعل كل ما في الكون العظيم يتناغم وينسجم مع بعضه البعض ، بحيث لا تصطدم ذرة فيه مع أخرى ، ولا نجم مع آخر ، ولا يكون فيه خلل أو عيب أو خطأ .

وقد صمم تعالى هذا الشكل الجمالي للسموات على نسق واحد فهن متساويات ومتطابقات ، وصمم الأرض تصميم آخر مخالف لتصميم السموات إن هذا التصميم الرائع لكلاهما سماه تعالى : إبداعا ، وهذا التنفيذ الدقيق سماه : فطورا . والبديع والفاطر هما من أسمائه وصفاته عز وجل . فالبديع هو الخالق على غير مثال سابق . والفاطر : هو المنشئ والمنفذ لما أبدعه . لذلك ورد في القرآن أنه تعالى (بديع) مرتين اثنتين فقط ، وذكرتا مع السموات والأرض ، وذلك لأن كلا منهما كان له تصميم خاص وإبداع منفرد أما (فاطر) فقد ذكرت سبع مرات وذلك لأنه تعالى فطر السموات والأرض ونفذهما وهم سبع سموات ومن الأرض مثلهن .

فقال تعالى عن الإبداع :

(١) ﴿بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾ (البقرة:١١٧)

(٢) ﴿بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم﴾ (الأنعام:١٠١) .

أما عن تنفيذ ما صممه الله تعالى وأبدعه فيقول عز وجل في سبع آيات لا غير في كل القرآن :

(١) ﴿قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض﴾ (الأنعام:١٤)

(٢) ﴿فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة﴾ (يوسف:١٠١)

(٣) ﴿قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض﴾ (إبراهيم:١٠)

(٤) ﴿الحمد لله فاطر السموات والأرض﴾ (فاطر :١)

(٥) ﴿قُلْ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ (الزمر:٤٦)
(٦) ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جعلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ (الشورى:١١)
(٧) ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ﴾ (الأنبياء:٥٦) .

وعن أبي حاتم والبيهقي أن عبد الله بن عباس قال : كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها يقول : ابتدأتها .

آيات خلق السموات والأرض

لقد أفاض القرآن في ذكر آيات السموات والأرض لتكون فيها الكفاية للمؤمنين بالوحي والمتبعين للآيات ، مما يغنيهم عن البحث في غيرها . فيؤكد ربنا تبارك وتعالى في سبع آيات لا ثامن لها أنه ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ لينفي أنهما تكونتا بدمار ، أو انفجار، أو اصطدام ، أو صدفة أو لهوا ، أو عبثا ، أو باطلا ، فيقول تعالى :

(١) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (الأنعام:٧٣)
(٢) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (إبراهيم:١٩)
(٣) ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النحل ٣)
(٤) ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (العنكبوت:٤٤)
(٥) ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ (الروم:٨)
(٦) ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ (الزمر:٥)
(٧) ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (الجاثية:٢٢) .

ومن إعجاز القرآن في ذكر الرقم (٧) أنه ذكر ما في السموات وما في الأرض من آيات متنوعة فجمع كل نسق مترابط مع بعضه بعضا برابط معين في سبع آيات .

فمثلاً نجد أن الله عز وجل ذكر خلق السموات والأرض بلفظ (خلقنا) في سبع آيات وذكر تعالى لفظ (خلْق) بتسكين اللام في سبع آيات أيضا ، كما أورد تبارك وتعالى إقرار الكافرين بأنه تعالى خلق السموات والأرض في صيغ كهذه ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أو كهذه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ بنفس

العدد (٧) . وأورد لفظ (خلَــق) بفتح اللام ومع كــل آيــة معلومــة جديــدة في آيــات (٧) ثم لأنه تعالى رب السموات السبع والأراضـــين الســبع ولا رب لهمــا ســواه فقــد وردت ﴿رَبُّ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ١٤مرة فقط في كل القـــرآن الكــريم .

وهكذا .. تتناسب آيات السموات والأرض وهي تبلغ أكثر مـــن نصــف ألــف آيــة بحيــث تتناغم كل (٧) آيات لعلم من العلوم ، لأنه تعـــالى أحكــم آياتــه ، وكمــا جعــل الله آياتــه في الكون سبعا ، فقط جعل لهذا الرقم آية في كتابه . والتي ينبغي علــى علمــاء المســلمين أن يبحثــوا في كتابه تعالى وفي كونــه إن أرادوا ، ولا يــتركوا آيــات الله في كتابــه دون تدبــر ولا اتبــاع ، ويتركوا آياته في كونه دون بحث وإطلاع ، تاركين البحث فيــها للتجريبيــين وحدهــم ، معلنــين استسلامهم التام لكل ما يقولونه وكل ما يفترضونـــه بإســلوب مخــزِ ، قــانعين في خنــوع بــأن يكون لهم دور الذنب ، بينما يريد الله لهم أن يكونوا شــهداء علــى النــاس .

أيام الخلق

تنص الكتب السماوية صراحة على أن الخلق تم في ستة أيــام . لكــن النظريــات المعــاصرة ، تخالف ذلك مخالفة فجة حيث يقدرون أن الكون تكــون – وليــس خلــق – في بلايــين الســنين ، وما يدفعهم لهذا التقدير ، أن هذا الكون تكون من تلقـــاء نفســه وليــس بفعــل قــوة قــادرة ، آمرة ، عالمة ، حكيمة ، فكان لا بد لكي يصل الكون إلى هــذه الحالــة الــتي هــو عليــها الآن أن يمر بعدة مراحل تستغرق بلايين الســـنين .

(أحمد بن تيمية) و(مصطفي إبراهيم فهمي) نموذجان عربيـــان ، الأول منحــه علمــاء عصــره لقب (شيخ الإسلام) . والثاني منحه علماء عصره لقب (دكتور) . يقول ابـــن تيميــة معــبرا عــن الحقيقة الإسلامية : " وأهل الملل متفقون على أن الله خلـــق الســموات والأرض في ســتة أيــام . وخلق ذلك من مادة كانت موجودة قبل هذه الســموات والأرض وهــي الدخــان . كمــا قــال تعالى ﴿ثُمَّ استَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَــا طَوْعًــا أَوْ كَرْهًــا قَالَتَــا أَتَيْنَــا طَائِعِينَ﴾ وهذا الدخان هو بخار الماء الذي كان حينئــذ موجــودا . كمــا جــاءت بذلــك الآثــار الواردة عن الصحابة والتابعين وكما دل أهل الكتــاب ، وتلــك الأيــام لم تكــن مقــدرة بمقــدار حركة هذه الشمس وهذا الفلك فإن هذا مما خلق في تلـــك الأيــام ، بــل تلــك الأيــام مقــدرة بحركة أخــرى " .

أما دكتور (مصطفي إبراهيم فهمي) فيقول معبرا عن النظريات المعاصرة :

" إن كوكبنا بدأ بالانفجار العظيم ، الذي حدث منذ ما يقرب من عشرة بلايين سنة (١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ سنة) ولم تتكون المجموعة الشمسية إلا منذ خمسة بلايين سنة (٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠ سنة) ولم يبدأ ظهور الحياة إلا بعد مرور بليون سنة أخرى وتزيد .

ثم حدث تطور بيولوجي بطيء من الكائنات البسيطة الأولى وحيدة الخلية ولم تظهر الكائنات المركبة متعددة الخلايا إلا منذ (٦٠٠٠٠٠٠٠٠ سنة) ، وأخيرا منذ فترة تحسب بالآلاف لا غير ظهر الإنسان العاقل " .

وعلى قول الدكتور فالأرض لم تخلق كما قال الله وأخبر رسوله وأجمع علماء الأمم واتفق أهل الملل في ستة أيام ، اختص الأرض منها أربعة أيام فقط بل تكونت الأرض خلال عشر بلايين سنة .

فمن نصدق ؟؟

إنني أصدق الله ... وأصدق رسوله ... وأصدق التوارة والإنجيل والقرآن . أما علماء الأرض الآن جميعا فهم يصدقون ما يقوله الدكتور مصطفي لا لشيء إلا لأنها نظرة الأسياد والكبراء الغربيين للكون . وهذه النظرية هي المعتمدة علميا والتي تدرس لطلاب العلم .

أما (موريس بوكاي) وهو عالم مؤمن فقد حاول أن يوفق بين ما يقوله الله وبين ما يقوله التجريبيون ، وقال بأن كلمة الأيام التي ذكرها القرآن لا تعنى اليوم المعروف لنا وإنما تعني مراحل ، وخطأ الأستاذ كلمات التوراة التي تنص صراحةً أنها أيام كأيامنا .

وللمرة الثانية أقول بأن الأستاذ بوكاي هو الذي أخطأ الفهم ، ولم تخطئ التوراة في هذا الأمر ، كما أن القرآن لم يقصد بكلمة (أيام) أنها مراحل . ولا نجد مبررا لأن يستبدل الله كلمة مراحل بكلمة أيام ، وكأن هذه الكلمة كانت غائبة عن علم الله جل شأنه . إن القرآن استخدم كلمة الأطوار في خلق الإنسان لأن الأمر كان كذلك ، ولم يستخدمها لخلق السموات والأرض لأنها لم تكن كذلك . قال (موريس بوكاي) : " يقول القرآن ضمناً بفترات زمنية طويلة رقمها بالعدد ٦ ولا شك أن العلم الحديث لم يسمح للناس بتقرير أن عدد المراحل المختلفة للعمليات المعقدة التي أدت إلى تشكيل العالم هو ستة مراحل ، ولكنه أثبت بشكل قاطع أنها فترات زمنية طويلة جدا ، تتضاءل إلى جانبها الأيام كما نفهمها وتصبح شيئا تافها " .

إذاً فبوكاي يرى أن الأيام هنا لا تعني اليوم الذي نعرفه ، ولا حتى اليوم الذي قال عنه البعض أنه بألف سنة ، لأن التجريبيين قالوا فيها أن الفترة كانت بلايين السنين ، والمشكلة أيضا أن العلم الحديث لم يقل بأنها حتى ٦ مراحل ، بل قال ببلايين السنين .

مقدار الأيام

من وجهة نظر الدين فلا خلاف أن السموات والأرض خلقتا في ستة أيام غير أن هناك من يقول بأنها ليست أياما بقدر أيامنا هذه المعروفة . ولكن يرى جمهور علماء المسلمين أن هذه الأيام بقدر أيامنا هذه ، وإن لم يكن الشمس ولا القمر قد وجدا بعد .

أما القائلين بأنها أيام غير أيامنا هذه فهم يحتجون بأن هذه الأيام مقدرة بحركة الشمس حول الأرض ، والشمس خلقت بعد الأرض . وهو رأي له وجاهته . بخلاف القول بأن الأيام هي مراحل أو أطوار فقول بلا دليل . فضلا عن مخالفته الصريحة للنص ، لذلك فلن نلتفت إلى هذا القول .

وحتى نرجح أحد الرأيين لابد أن نعود - كما تعودنا - للقرآن والأحاديث فبنفس طريقة القرآن المعجزة ، ذكر الله تعالى أيام الخلق في (٧) آيات فقط لا ثامن لها ، حيث ذكر تعالى في هذه الآيات السبع أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام :

(١) ﴿إِن رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ (الأعراف:٥٤)

(٢) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ (يونس:٣)

(٣) ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ (الفرقان:٥٩)

(٤) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (السجدة:٤)

(٥) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا﴾ (هود:٧)

(٦) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (ق:٣٨)

(٧) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد:٤) .

قبل البحث عن مقدار الأيام الستة نسجل بعض الملاحظات على الآيات :

١ إن الآيات السبعة ذكر فيها خلق السموات والأرض في ستة أيام .

٢ – في ستة آيات منها يذكر العرش ، وفي خمس آيات من هذه الست يذكر تعالى الاستواء عليه . وفي الآية السادسة يذكر أن العرش كان عند خلق السموات والأرض على الماء . وفي حديث لابن عباس يذكر أن الماء محمول على متن الريح ، كما أن لفظ الاستواء هنا يذكر على أنه تم بعد خلق السموات والأرض لقوله تعالى ﴿ثُمَّ﴾ وهي للترتيب الزماني .

٣ – في الآية السابعة التي لم يذكر فيها العرش ذكر الله تعالى أنه لم يمسه ﴿مِنْ لُغُوبٍ﴾ واللغوب يعني التعب والنصب . وذلك ردا على ما ذكره مؤلف النص الكهنوتي للعهد القديم أن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام واستراح في اليوم السابع ، فنفى تعالى عن ذاته اللغوب (مجرد المس) فهو تعالى القادر على كل شيء ، والذي لا يعجزه شيء ، فقال : ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ ولم يذكر في هذه الآية التي تنفي التعب والنصب عن الله (الاستواء على العرش) حتى لا يتبادر إلى الذهن أنه تعالى استوى على العرش من التعب والنصب .

كذلك ذكر في هذه الآية لفظ (خلقنا) بصيغة الجمع وليس خلق لتوحي بعظمة الله تعالى لفظ الجمع إذا ذكر في حق الله فإنه يعني العظمة والكبرياء أما في حق العبد فيعني التواضع .

كرر في السبع أنه تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام للتأكيد على المدة والمقدار .

وأن كان الحق ليس في الآيات أي تكرار لأنه تعالى في كل آية يمن على عباده بعلم جديد من عنده عن خلق السموات والأرض لم يذكره قبل ذلك .

نأتي لمقدار هذا اليوم : فالجمهور على أنه كيوم من أيام الدنيا ، والبعض على أنه يوم من أيام الآخرة التي مقدارها ألف سنة ، فيكون الخلق قد استغرق ٦٠٠٠ سنة . وقول الجمهور هو الأولى والأصوب ، ويؤيده القرآن والسنة والكتاب المقدس ، أما القول الآخر فلا حجة له إلا أن الشمس لم تكن موجودة أثناء خلق السموات والأرض كما يستدلون بالآية :

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج:٤٧) .

إن تكرار مدة الخلق وأنها ستة أيام ، في أكثر من آية (٧ آيات) ، وكون الخاطبين أمة أمية ، وكون الآيات لم تبين مقدارها ببيان آخر ، خاصة وفي أمر آخر متعلق بزمن حدد تعالى أنها ﴿مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ ممـا يعد منطبقا علي أي زمن يذكر ، يعطي انطباعا أنها أيام قدر أيام الدنيا ، خاصة والمخاطبين لا يعرفـون غيرها .

ولم يقل أحد من علماء التفسير أن هذا اليوم محدد بالشمس ، يقـول ابـن تيميـة : " وتلـك الأيام لم تكن مقدرة بحركة هذه الشمس وهذا الفلك ، فإن هذا ممـا خلـق في تلـك الأيـام ، بـل تلك الأيام مقدرة بحركة أخـرى " .

ذلك أن مقدار اليوم لا تحدده الشمس بل حدده الله تعالى ، وقبل خلـق الشـمس بـل وقبـل خلق السموات والأرض ، وقد كتب الله تعـالى هـذا المقـدار في الكتـاب الـذي عنـده فـوق العرش ، إذاً فمقدار اليوم محدد كما هـو الآن قبـل خلـق السـموات والأرض بخمسـين ألـف سنة . كما ورد في حديث بدء الخلـق .

إن الشمس بالنسبة لليوم هي فقط علامة ودليل على بدايتـه ونهايتـه ، تمامـا مثـل (سـاعة اليد) التي تبين الوقت وأصبحت منتشرة ، إن هذه الساعة لم تصنـع بـالصورة الـتي هـي عليـها الآن إلا منذ بضع سنين فهل كان اليوم قبـل اختـراع هـذه السـاعات غـير معـروف أو غـير موجود ، بل كـان اليـوم موجـودا ومعروفـا أيضـا بعـلامات أخـرى كالسـاعة الرمليـة والإسطرلاب والمزوالة ، وظل الشـمس ...

والساعة لم تحدد اليوم بل هي دليل عليه ، كذلك الشمس كـانت دليـلاً علـى الأيـام . لأن اليوم بمقداره كان محددا قبل خلق السـموات والأرض وسـيظل أيضـا بعـد انتـهاء السـموات والأرض .. يوم القيامـة .

ليلة القدر

في حديث بدء الخلق الذي رواه البخاري " كان الله ولم يكن شـيء غـيره ، وكـان عرشـه علي الماء ، وكتب في الذكر كل شـيء وخلـق السـموات والأرض " .

وعند مسلم عن رسول الله ﷺ أنـه قـال : " كتـب الله مقـادير الخلائـق قبـل أن يخلـق السموات والأرض بخمسين ألف سنة . وكان عرشه علـى المـاء " .

فخلق السموات والأرض كان بعد كتابة مقادير الخلائق بخمسين ألف سنة أي أن وقت كتابة المقادير كان بداية الزمن بالنسبة للخلائق ، وهذا الذي حدد علي أساسه حساب الخمسين ألف سنة ، ومن ثم فهو كالتقويم بالنسبة للكون الذي كان قبل خلق الشمس والقمر ، وكان قبل خلق السموات والأرض ، بخمسين ألف سنة . ولا شك أن هذا الوقت له عند الله شأن وقدر ، حتى أنه تعالى بعد مرور هذه الخمسين ألف بالتمام أي جاء هذا الوقت بعد هذه المدة فبدأ الله تعالى فيه خلق السموات والأرض ، أي أنه تعالى أيضا بدأ خلق السموات والأرض من هذا الوقت الذي قدر فيه مقادير الخلائق ، وبعد ستة أيام خلق الله القمر الذي هو تقويم السموات والأرض وبدأ القمر عمله بتكملة هذه الأيام الست ، فدار دورته مكملا دورة كاملة في ٣٥٤ يوم ، حيث أن درجات الدائرة ٣٦٠ فأتم القمر في أول دورته ٣٥٤ يوم تتمة للأيام الستة وكانت نهاية دورة القمر الأولي عند هذا الوقت الذي قدر فيه مقادير الخلائق .

ولقدر هذه الأيام الست التي خلقت فيها السموات والأرض أنقصت من السنة ، وأصبح القمر يكمل السنة بدورته ٣٥٤ يوما فقط .

لذلك فإننا نرى أن هذا الوقت الذي كتب فيه مقادير الخلائق ، والذي بدء فيه خلق السموات والأرض . هو وقت مبارك ولا شك ، ولذلك أيضا نرى أن هذا الوقت هو الذي سماه الله تعالى بليلة القدر ، أي ذلك الوقت الذي تم فيه كتابة المقادير ، والذي بدأ فيه خلق السموات والأرض .

ومما يؤكد هذا الرأي أن الله تعالى أنزل فيه آخر رسالاته الخاتمة على البشر وقال تعالى ﴿حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ(٥)رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الدخان) . ويقول تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ(٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ(٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ (القدر) .

فقوله تعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ يعنى أن هذه الليلة كانت موجودة قبل ذلك ولم يوجدها نزول القرآن ، وبمعنى آخر أن القرآن بلغ من قدره أن الله تعالى أنزله في هذه الليلة المباركة التي تحدد ت فيها مقادير الخلائق ، والتي يتزل فيها كل عام ما يكون مما سيقضيه الله

في خلقه في هذا العام . واعتبر الله هذه الليلة خير الليالي ، وأخبر أنه تعالى سيكافئ فيها من تقرب إليه ، وسيستجيب فيها لمن دعاه .

الأيام الستة

من ذلك نري مقدار الأيام حدد أيضا في اللوح المحفوظ وسجل مقداره قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، أي قدر مقدار اليوم في ليلة القدر ، وتم خلق السموات والأرض في أيام حدد مقاديرها سلفاً ، غير أن خلق السموات والأرض كان هو العمل الأول في شأن الكون الذي سار على هذا المقدار المحدد وكان أول تطبيق للأيام في خلق السموات والأرض الذي تم في ستة منها .

يقول تعالى في سورة التوبة ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ إن هذه الآية يفهم منها أن الزمن حدده الله تعالى وثبت هذا التحديد في كتابه وأنه عز وجل حدده بالمقدار الذي نتعارف عليه الآن وهو السنة اثني عشر شهرا . وعلى ذلك لا يقال أن الزمن تحدد يوم خلق السموات والأرض ولكن بدء التطبيق الفعلي للزمن من يوم خلق السموات والأرض . ثم بعد خلق الشمس والقمر جعلهما الله للسنين والحساب (*بالنسبة لنا*) قال تعالى ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ . أما الزمن ذاته فلا تكونه الشمس ولا يكونه القمر ولكنهما علامتين عليه . وفي الحديث الصحيح الذي يرويه رسول الله ﷺ عن ربه " لا تسبوا الدهر ، فأنا الدهر ، أقلب الليل والنهار " . فلا الشمس ولا القمر هما اللذان يقلبان الليل والنهار ، إنما يقلبهما الله .

وفي تفسير " فتح القدير " للشوكاني يقول عن الآية : " أي عدد الشهور للسنة عند الله في حكمه ، وقضائه وحكمته اثني عشر شهرا ثابتة في علمه في أول ما خلق الله العالم . ويجوز أن يكون ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي مثبتة في اللوح المحفوظ . وفي هذه الآية بيان أن الله تعالى وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على هذا الترتيب المعروف يوم خلق السموات والأرض . وأن هذا الذي جاءت به الأنبياء ونزلت به الكتب ، وأنه لا اعتبار بما عند العجم والروم والقبط من الشهور التي يصطلحون عليها ويجعلون بعضها ثلاثين يوما ، وبعضها أقل . وقوله تعالى : ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ هي : ذو القعدة ، ذو الحجة ، والمحرم ، ورجب ، ثلاثة سرد

وواحد فرد . ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي كون الشهور كذلك ومنها الأربعة الحرم هو الدين المستقيم . والحساب الصحيح . والعدد المستوفي " أ . هـ .

وعلى هذا التفسير للآيات يكون اليوم عند الله هو اليوم الذي نعرفه في الدنيا ويؤيد ذلك ما قاله رسول الله ﷺ في حجة الوداع : " إن الزمان قد استدرا كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض " فالزمان أصبح له هيئة أي شكل فعلي تطبيقي ، يوم خلق الله السموات والأرض ، وليس يوم خلق الله الشمس والقمر .

وقد اتفق أنه ﷺ حج في تلك السنة من ذي الحجة وأن العرب كانت قد نسأت النسيئ يحجون في كثير من السنين ، بل أكثرها ، في غير ذي الحجة والأربعة الحرم كانت العرب تحرمها في الجاهلية كما حرمت في الإسلام ، غير أنها في الجاهلية كانت تستبدل الشهور بغيرها حسبما يقترح عليهم (النسأة) .

وإنما كانت الأشهر الحرم أربعة لأجل أداء مناسك الحج والعمرة ، فقد حرم الله ذو الحجة لأن فيه المناسك ، وحرم شهر قبله وشهر بعده ، للذهاب والعودة فيأمن فيه الحاج . وحرم رجب في وسط الحول لأجل البيت والاعتمار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب ، فيعتمر ويعود آمنا .

كذلك وردت أحاديث صحيحة على الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض وأن بدايتها كانت يوم الأحد ونهايتها يوم الجمعة .

أما من استدل بأن اليوم ليس كيوم الدنيا ، بل بألف سنة بالآية ٤٧ من سورة الحج ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ .

قال الشوكاني عن هذه الآية في تفسيره : " يقول تعالى : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ .

أي يستعجلونك بالعذاب لأنهم كانوا منكرين لمجيئه أشد الإنكار فاستعجالهم له هو على طريقة الاستهزاء والسخرية ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ قال الفراء : إن هذه الآية وعيد لهم بالعذاب في الدنيا والآخرة . قال (الزجاج) : إعلم أن الله لا يفوته شيء وإن يوما عنده وألف سنة في قدرته سواء . لا فرق بين وقوع ما يستعجلونه من العذاب وتأخره في القدرة . إلا أن الله تفضل بالإمهال وخطابهم في ذلك كمال حلمه لكون المدة القصيرة عنده كالمدة الطويلة عندهم كما في قوله ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا(٦)وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ . وقال الفراء : أي يوم من

الآخرة كألف سنة . وقيل المعنى : أن يوما من الخوف والشدة في الآخرة كـألف سـنة مـن سـني الدنيا فيها خوف وشدة . وكذلك يوم من النعيم قياساً " . أ . هـ

ويقول (سيد قطب) في كتابه (في ظلال القرآن) : ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ يقول : " ذلك دأب الظالمين في كل حين ، يرون مصارع الظالمين ويقرءون أخبارهم ويعلمون مصائرهم ، ثم هم يسلكون طريقهم غير ناظرين إلى نهاية الطريق ، فإذا ذكروا بما نال أسلافهم استبعدوا أن يصيبهم ما أصابهم ، ثم يطغى بهم الغرور والاستهزاء إذا أملى لهم الله على سبيل الاختبار ، فإذا هم يسخرون ممن يخوفهم ذلك المصير ، وإذا هم من السخرية يستعجلون ما يوعدون ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ فهو آت في موعده الذي أراده الله وقدره وفق حكمته . واستعجال الناس به لا يعجله كي لا تبطل الحكمة المقصودة من تأجيله . وتقدير الزمن في حساب الله ، غيره في حساب البشر ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ " .

ويقول (ابن كثير) في تفسيره ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أي هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر ، كما قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال:٣٢) وقالوا ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ وقوله ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ من إقامة الساعة ، والانتقام لأعدائه والإكرام لأوليائه . ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي هو تعالى لا يعجل ، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه هو كيوم واحد عنده بالنسبة لحكمه ، لعلمه أنه على الانتقام قادر وأنه لا يفوته شيء وإن أنظر " أ . هـ .

وما نسب لابن عباس أن هذا اليوم من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض لا يصح نسبه لابن عباس ، وإنما هو لتلميذه مجاهد . أما الذي ثبت عن ابن عباس فهو رأى مخالف . كما أن الآية لم ترد في تقرير الخلق وإنما وردت في الحكم ، وفي الإمهال والاستعجال . ثم إن تفسير الآيات عند كل المفسرين لا يعطي هذا المعنى . وقد أيد ابن تيمية هذا الرأي وقال بأن " تلك الأيام لم تكن مقدرة بحركة هذه الشمس وأن مقدار هذا اليوم سيكون ثابتا حتى بعد قيام الساعة ، وعندما تنشق هذه السموات ويدخل أهل الجنة سيكون هناك أيام ، قال تعالى ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (مريم:٦٢) وقد جاءت الآثار عن النبي ﷺ بأن الله تبارك وتعالى يتجلى لعبادة المؤمنين يوم الجمعة ، وأن أعلاهم منزلة من يرى الله

تعالى كل يوم مرتين . فذكر هنا اليوم وليس في الجنة شمس ولا قمــــر . ولا هنــاك حركــة فلــك ، بل ذلك الزمان مقدر بحركة أخرى وأمر آخر كما جــاء في الأثــر أهــم يعرفــون ذلــك بــأنوار تظهر من جهة العــرش " .

وعلى هذا المعني الذي قال به علماء الإسلام فان اليوم عنـــد الله هــو ذاتــه اليــوم في الدنيــا ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَـــرَ شَــهْرًا فِــي كِتَــابِ اللَّــهِ يَــوْمَ خَلَــقَ السَّمَـــوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ فالأيام والشهور عند الله هي التي حددها في كتابه وهي الــتي خلــق عليــها الســموات والأرض والتي حرك الشمس عليها . وليــس هنــاك أي دليــل مــن الكتــاب ولا مــن حديــث رسول الله ﷺ يقول بأن اليوم عند الله يعادل ألف سنة مـــن أيامنــا ، ولا أنــه خلــق الســموات والأرض في ستة آلاف سنة مما نعـــد .

والآية التي التبس على البعض معناها فسرها جمهور العلمـــاء بــالمعني الــذي ذكرنــا كمــا أن شرح الآية لغويا لا يقبل هذا المعني الذي قال بـــه بعضـــهم .

كما أن حرف (الكاف) أتي في كل القـــرآن بمعـــني (مثـــل) أي للتشـــبيه وليـــس للمســـاواة والآيات التي ورد بها هذا الحرف تأتي كلها بهذا المعــــني : ﴿كَأَنَّــهُنَّ بَيْــضٌ مَكْنُــونٌ﴾ ﴿كَأَنَّــهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيـــهَا مِصْبَــاحٌ﴾ ﴿وَلا يَكُونُــوا كَــالَّذِينَ أُوتُــوا الْكِتَــابَ﴾ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَـــيْءٌ﴾ ﴿كَــالأَعْلامِ﴾ ﴿كَالْمُــهْلِ﴾ ﴿كَصَيِّــبٍ﴾ ﴿كَــزَرْعٍ﴾ ﴿كَسَــرَابٍ﴾ ﴿كَلَمْحِ بِالْبَصَرِ﴾ ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ﴾ ﴿مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ ﴿كَالَّذِي يُغْشَـــى عَلَيْــهِ﴾ ﴿طَلْعُــهَا كَأَنَّــهُ رُءوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ ﴿كَأَنَّهُمْ يَــوْمَ يَرَوْنَــهَا﴾ ﴿كَمَثَــلِ الْحِمَــارِ يَحْمِــلُ أَسْــفَارًا﴾ ﴿كَمَثَــلِ الْكَلْبِ﴾ ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ ﴿كَأَلْفِ سَــنَةٍ مِمَّــا تَعُــدُّونَ﴾ .

فكل هذه الأمثلة وغيرها يأتي بها الله للتشبيه والتمثيل ، وليس للفعـــل والواقــع فمثــلا قولــه تعالى : ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أتت للتشبيه . وهذه غــير قولــه تعــالى ﴿وَجَرَيْــنَ بِــهِمْ بِرِيــحٍ طَيِّبَةٍ﴾ فالباء هنا للفعل والحقيقة غير الكـــاف في الآيــة الأولي . وكذلــك قولــه تعــالى ﴿أَنِّــي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ﴾ فهذه علي الحقيقة وليست للتشـــبيه . ولــو أراد الله تعــالى أن يخبرنــا بأن اليوم عنده يساوى مقدار ألف سنة من مقدار أيامنا لقال (وإن يوما عنـــد ربــك بــألف ســنة مما تعدون) لجاء بحرف (الباء) مثل ما هو في آيـــة الملائكـــة وغيرهـــا ولم يـــأت بحـــرف (الكـــاف) الذي هو للتشـبيه والتمثيـــل .

وسياق الآية إنما يدل على أن الله لا يستعجل بعجلة أحد لأن الوقت لا يؤثر فيه تعالى فاليوم والألف عند الله سواء ، والطول والقصر في الوقت كذلك ، لأن تعالى هو الدهر .

المسافة بين السموات والأرض

صرح القرآن ، وتواترت الأحاديث ، وأجمع علماء الإسلام على أن المسافة بين السماء والأرض حوالي سبعة مليون كيلو متر (٧٠٠٠٠٠٠كم) والمسافة بين كل سماء والتي تليها (٧٠٠٠٠٠٠كم) أيضا . أن هذا القول الآن يعتبر غاية في الغرابة ، وقد يعد ضرباً من الجنون ، خاصة ووكالة (ناسا) الفضائية الأمريكية ، قالت بأن الشمس تبتعد عن الأرض بمسافة ١٥٠ مليون كيلو متر وهي أقرب النجوم إلينا . وإنني لألتمس العذر لمن يرميني بهذا ، وذلك لأن علماء الفلك الآن والمنجمين يفترضون أن الناس لا عقول لهم ، بل هم استطاعوا أن يغيبوا عقولهم ، يفهم هذا من المصطلحات والأرقام التي يتكلمون بها .

واستطاع هؤلاء أن يحتكروا منطقة السماء أو كما يسمونها (الفضاء) وهم يشترطون على من يحاول الاقتراب من هذه المنطقة أن ينحي عقله جانبا ويتبعهم .

ولو خاطر وغامر أحد اتباعا لأمر الدين وراح يقلب ناظريه إلي السماء وتفكر فيها وتدبر ، فإنه لا محالة سيفقد عقله ولن يعود إليه ، وهنا لا يلومن إلا نفسه لأنه لم يستجيب لنصيحة المنجمين – علماء النجوم والفلك – ولم ينحي عقله جنبا ويتبعهم ثم بعد انتهاء التأمل والتفكر يلبس ويركب عقله مرة أخري .

بل إنني أيضا أنصحك بهذه النصيحة ولا أطلب منك أن تنحي عقلك جانبا بل أحذرك أن تفكر بعمق فيما أعرضه عليك من معلومات أقدمها لك وقد استقيتها من المنجمين وحتى أسهل لك الأمر سأشرح بعضاً من مفرداتهم . فإنهم عندما يقيسون المسافات فلا يقيسونها بالوحدات التي تعارفنا عليها أو تعارف عليها البشر منذ الخليقة بل اخترعوا مصطلحات حديثة يتفاهمون بها كما يتفاهم زملاء المهنة الواحدة بمفردات خاصة بهم . رغم أن السماء والأرض ليست حكرا على مهنة أو فئة من الناس ، إلا أن المنجمين استطاعوا ببراعة فائقة أن يستولوا على السماء ولم يقدر أحد على مجرد النظر فيها فضلا عن التدبر أو التفكر في آياتها ولو سألنا ربنا يوم القيامة عن عدم الاستجابة لآياته وعدم التفكير فيها ، لكان لنا العذر ، فأي عاقل يمكنه أن يغامر بما تبقي له من عقل الآن – ويفعل ما يريده منه الله :

١) ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأعراف:١٨٥)

٢) ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (يونس:١٠١)
٣) ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (ق:٦)
٤) ﴿إِنَّ فِي السَّموَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الجاثية:٣)
٥) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِلآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران:١٩٠)
٦) ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (آل عمران:١٩١)
٧) ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (الحجر:١٦) .

فلو كان الأمر كما يقول به المنجمون فيكون من الصعب ، بل من المستحيل النظر والتفكر والتدبر في خلق السموات والأرض وما بينهما . ولكن الأمر ليس كذلك ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، لا يكلف الله نفسا إلا ما أتاها . ومن المستحيل أن الله تبارك وتعالى يكلف عباده بأن يتفكروا في السماء وقد جعلها تعالى بهذا التعقيد . بل حاشا لله ، فآيات الله واضحة ، بيّنة ، ميسرة للذكر والفكر ، ولا عذر لأحد في تركه لآيات السماء ، ولا حجة له في ما فعله المنجمون والفلكيون في معلومات السماء ، لأنه تعالى أوحى إلي رسوله بالمعلومات الصحيحة ، والتي هي على النقيض مما يقول به هؤلاء ، يقول تعالى ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء:٣٢) . فكما أنهم استبدلوا أيام خلق الأرض الأربعة وقالوا أنها تكونت في عشرة بملايين سنة ، فكذلك قالوا عن أبعاد الأجرام السماوية ، ناهيك عن السماء ذاتها وخالفوا بكل ما قالوه ما أوحى به الله لرسوله ، وسكت علمائنا على هذه المخالفات بل إنهم أيدوهم في ما قالوا ، ودون استثناء ، بآيات القرآن ، وأعتقد أنه لو كان في الدنيا عجائب فهذا الأمر أولها عجبا .

لقد وصل الأمر بأهل الفلك أنهم بعدوا بين الأجرام السماوية للحد الذي عجزوا هم أنفسهم عن تتبع وحساب ما قالوا به . فراحوا يضعون قواعد ومصطلحات جديدة حتى يستطيعون هم أنفسهم أن يفهمون أنفسهم .

إنهم يقولون إن الأبعاد بين الأجرام السماوية كبيرة جدا ، وقد كانوا يتحدثون بالملايين فطرحوا هذه الأرقام وقالوا بالبلايين ، ثم قالوا بأن الأمر أكبر بكثير جدا ، بدرجة لا يتصورها العقل من الأرقام ، فاخترعوا (السنة الضوئية) . فقالوا : إن الضوء ينطلق بسرعة معينة ، هي أكبر سرعة عرفوها حتى اليوم " على حد قولهم " فهو ينطلق بسرعة ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية الواحدة ، هكذا يقولون . وعلى ذلك فهو ينطلق في الدقيقة بسرعة ١٨

مليون كم ، أما في الساعة فهو يقطع مسافة ١٠٨٠٠٠٠٠٠٠٠(مائـــة وثمانيــة مليــار) ، أمــا في اليوم فيقطع مسافة ٢٥٩٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠ (خمسة وعشــرون ألــف وتســعمائة وعشــرون مليارا كم) وبالتالي فإنه يقطــع في الســنة ٩٤٦٠٨٠٠٠٠٠٠٠٠٠ (ولم أســتطيع قــراءة هــذا العدد البسيط) . هذا الرقم يقطعه الضوء في العام فســموها الســنة الضوئيــة .

يقول الدكتور " إمام إبراهيم أحمد " في كتاب (عــالم الأفــلاك) :

" الحمد لله لقد وقفنا أخيرا إلي مقياس مناسب ، على أساســه أصبــح بعــد أقــرب نجــم إلينا حوالي ٤ سنين ضوئية فقط ، وإن كانت عجائب الســماء الــتي ســيرد ذكرهــا فيمــا بعــد تبعد عنا ملايين السنين الضوئية . وثمة وحدة أخــرى اتخذهــا الفلكيــون لقيــاس أبعــاد النجــوم والمجرات هي (البارسيك) وهذه الوحدة تعادل ٣,٢٦ ســنة ضوئيــة وهــي قيمــة تم اســتنتاجها عن طريق عمليات رياضية لا مجال لذكرها ، لكن المهم أن هذه الوحــدة تقلــل أرقــام المســافات إلي حوالي ربع السنين الضوئية " أ . هـــــ .

فإذا كان أقرب نجم إلينا يبلغ بعده عنا المسافة التي قــالوا بهــا ٤ ســنين ضوئيــة فمــا هــى مسافة أبعد نجم عنا ؟ ، ويقولون أن أقرب مجرة إلينا (المــرأة المسلســلة) ويمكــن رؤيتــها بــالعين المجردة أحيانا وهي تبتعد عنا بنحو ٧٠٠٠٠٠ سنة ضوئية أي أنهــا تبتعــد عنــا بــالكيلو مــترات ٦٦٢٢٥٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ هذا بعد أقرب مجــرة إلينــا وذاك أقــرب نجــم ولا أستطيع أن أقدم مثلة أبعد من أقرب الأجرام السماوية إلينا ، أفــلا يغفــر لنــا ربنــا إذا لم نتدبــر ونتفكر في خلق السموات والأرض ، وأن نكتفي بمجــرد النظــر دون غــيره . ويجــوز أن نــترك النظر من باب سد الذرائع للحفاظ علــى عقولنــا .

التجريبيون يريدون أن يقولوا لنا : " أن هذه هي أبعاد أقرب الأجــرام الفضائيــة الــتي يريــد منكم أهكم أن تتفكروا وتتدبروا فيها فمــا رأيكــم ؟ " .

ولقد نقل إلينا هذه الرسالة علمائنا الإجلاء . وأكدوا لنا أن كل مــا يقولــه التجريبيــون قــد ثبت فعلا علميا وليس مجرد افتراض ، ولو سألناهم : ما هي أدلتكم ؟ لــن ينطقــوا بكلمــة .

ترى ما الذي يدفع التجريبيين لأن يقولوا هــذا الهــراء ؟

لقد ذكرنا في مدخل هذا الكتاب بعضا من أقوالهم الــتي تعــبر عــن كفرهــم بــالله وإنكــار وجوده بالكلية . حتى سمى هذا العصر وبحق (عصر الإلحاد) وهم يســمونه (عصــر النهضــة) .

لقد بدءوا كفرهم بقولهم أن هذا الفضاء (لانهائي) ولقد فقد بسبب هذه المقولة واحدا منهم وهو " جيردانو برونو " الفلكي الإيطالي الذي حكمت عليه الكنيسة بالإعدام حرقا بسبب اعتقاده بلا نهائية هذا الفضاء عام ١٦٠٠ ميلادية في روما .

وعلمهم إبليس الدرس فلم يقل أحد منهم بعد ذلك صراحة بلا نهائية الفضاء ، بل راحوا يطلقون هذه الأرقام حتى انتهى جهدهم في عدها ، فاخترعوا مصطلحات تزيد البعد حتى إذا ما رسخ في الأذهان – وذلك بعد سنوات طويلة – المسافات اللانهائية ظهرت مرة أخري دون خوف أو وجل مقولة اللانهائية . بل أن علماء القرآن ذاتهم سقطوا – بحسن نية – في هذا الشرك . وذكرنا مقولة " محمد الغزالي " رحمه الله في كتاب " مائة سؤال وجواب في الإسلام " والتي نصها : " قال – يعني محاوره – تعني أن السموات السبع هي الأفلاك ؟

قلت : لا أجزم بشيء من هذا ، ولا العلم يجزم هو الآخر بشيء عن حقيقة الفضاء وطبقاته الذاهبة في الغيوب . والذي أراه وأحس به ، أننا نتحرك في إطار معين إذا تجاوزناه إلي أعلي أو إلي أدنى لن نصل إلي نهاية " .

وباللانهائية قال " جاليليو " و" نيوتن " و" أينشتاين " . ولكي يكون لكلامهم سند وقبول فإنهم راحوا يوزعون الملايين أو البلايين علي النجوم والمجرات . وبالطبع هذه البلايين لا يغرمها أحد ، وليست من (جيب) أحد ، فهي تلقى جزافاً دون حساب . فلا دليل ولا برهان ولا علم ولا سلطان ولا هدى ولا كتاب منير فقط بعض النظريات والفرضيات قال عنها كبيرهم السير " جيمس جينز " :

" **أمامكم عرض كبير من النظريات المختلفة لتختاروا منها ما تشاءون ، ولكني شخصياً لا أضع ثقتي في أي منها** " .

أما زميله " هابل " فقال : " **وهكذا انتهى استكشاف الفضاء إلي موقف الحيرة والالتباس** " .

ونترك نحن الكتاب والسنة ونأخذ من حيرتهم والتباسهم ما نأخذ ، والذي هم أنفسهم يزهدون فيه . ويستشعرون ، بل يعلمون إنه غش وخداع .

أما أنا فإنني أسجل هنا شهادتي وأشهد عليها ربي ، أنني أكذب " جينز " و" هابل " و " جاليليو " و " نيوتن " و " أينشتاين " في كل ما قالوه عن كون الله . وأصدق محمداً ﷺ

الذي أوحي الله تعالى إليه قرآنا وسنة بين فيهما ليس فقط بعد النجوم والمجرات ، بل بعد السماء ذاتها .

قد لا أجد مصدقا لما أقول ، وقد يستهزئ المستهزئون ويسخر الساخرون من قولي أن المسافة التي بيننا وبين السماء حوالي (٧) مليون كيلو متر ، ومما سيزيدهم استهزاء وسخرية أنه ليس للكنيسة الآن رجال يدافعون عن الدين ، ولا رجال للإسلام ينصفون الكتاب والسنة ، وقد أعلن عن انتصار التجريبيين الآن ، ولم تعد للكنيسة قائمة ولا صوت ، أما علماء الإسلام فبعد ذهاب الخلافة الإسلامية تفرقوا إلي ثلاث فرق ، لكل فرقة أتباعها ، فريق راح يناوئ الحكام وآخر يساندهم والثالث ترك هؤلاء وأولئك وراح يتتبع خطى التجريبيين حذو القذة بالقذة حتى دخلوا وراءهم جحر الضب . وتفرع من هذه الفرق جماعات وقله قليلة اعتزلت كل تلك الفرق ، وآثرت السلامة واكتفت بالحديث عن اللحية والجلباب والإسبال والنقاب وما شابه ، زعماً بأن هذا هو الهدى ودين الله الحق الذي أرسل الله تعالى له رسولا ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

أحاديث المسافة

(١) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرازق حدثنا يحيى بن العلاء عن عمه شعيب، بن خالد حدثني سماك بن حرب عن عبد الله بن عميرة عن الأحنف بن قيس عن عباس بن عبد المطلب قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ بالبطحاء فمرت سحابة فقال رسول الله ﷺ : " أتدرون ما هذا ؟ " قلنا : السحاب قال : " والمزن " قلنا : والمزن . قال : " والعنان " فسكتنا فقال : " هل تدرون كم بين السماء والأرض ؟ " قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : " بينهما مسيرة خمسمائة سنة ومن كل سماء إلي سماء مسيرة خمسمائة سنة وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة . وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض . والله فوق ذلك وليس يخفي عليه شيء من أعمال بني آدم " .

(٢) وعند الترمذي :

روى أبو هريرة رضى الله عنه قال : بينما النبي ﷺ جالساً وأصحابه إذ أتي عليهم سحاب فقال ﷺ : " هل تدرون ما هذا ؟ (يعني السماء) " قالوا : الله ورسوله أعلم . قال :

" هذا العنان (السحاب) هـذه روايـا الأرض تسـوقه إلى قـوم لا يشـكرونه ولا يدعونـه " ثم قال : " هل تدرون كم بينكم وبينها ؟ " قـالوا : الله ورسـوله أعلـم . قـال : " بينكـم وبينـها ميسرة خمسمائة عام " ثم قال : " هل تدرون مـا فـوق ذلـك ؟ " قـالوا الله ورسـوله أعلـم . قال : " فإن فوق ذلك سماء بعد ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة " حـتى عـد سـبع سمـوات بـين كل سماءين كما بين السماء والأرض ثم قـال : " هـل تـدرون مـا فـوق ذلـك ؟ " قلنـا : الله ورسوله أعلم . قال : " فإن فوق ذلـك العـرش " .

(٣) روى ابن أبي عاصم في كتاب السـنة :

عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال : " بين سمـاء الدنيـا والـتي تليـها خمسـمائة عام . وبين كل سماء خمسمائة عام . وغلظ كل سماء خمسمائة عام ، وبـين السـماء السـابعة وبـين الكرسي خمسمائة عام . وبين الكرسي وبين المـاء خمسـمائة عـام . والعـرش فـوق المـاء . والله فوق العرش لا يخفي عليه شيء مـن أعمـالكم " .

(٤) وروى هذا الحديث أيضاً " ابن ماجة " من حديـث سمـاك ووقفـه .

(٥) ورواه أيضا " شريك " من حديث سمـاك أيضـاً .

(٦) ورواه " ابن خزيمة " في صحيحه عـن أبي ذر مرفوعـا .

(٧) ورواه " الطبراني " بنحـوه .

(٨) ورواه " أبو داود " عن عبد المطلب وصححه " ابـن خزيمـة " :

" هل تدرون ما بين السماء والأرض ؟ " قلنا الله ورسوله أعلـم . قـال إحـدى أو اثنتـان أو ثلاث وسبعون " . " قال " وما فوقهما مثل ذلك " حتى عـد سـبع سمـوات " ثم فـوق السـماء السابعة البحر من أسفله إلى أعلاه مثل ما بين سماء إلى سمـاء . ثم فوقـه ثمانيـة أوعـال مـا بـين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء . ثم العرش فوق ذلك ، بين أسـفله وأعـلاه مثـل مـا بين سماء إلى سماء ثم الله فوق ذلـك " .

قال ابن حجر في شرحه لصحيح البخاري : " والجمع بـين اختـلاف هـذا العـدد في هـاتين الروايتين أن تحمل الخمسمائة على السير البطيء كسير الماشـي علـى هينتـه ، وتحمـل السـبعين على السير السريع كسير السـعاة " .

وقد اتفق علماء الحديث وعلماء التفسير على أنه ليس هناك تعارض بين الروايتين (الخمسمائة) و(السبعين) إلى أن المسافات تختلف مقاديرها باختلاف المقدر به فالخمسمائة عام مقدرة بسير الإبل والسبعين بسير البريد ، وهو يقطع قدر ما تقطعه الإبل سبعة أضعاف كما هو معلوم .

وكما هو واضح من الأحاديث أن المقياس هنا بالسير سواء على الأقدام أم بسير الإبل فكلاهما واحد . فليست السرعة هنا بالسنة الضوئية أو بالصاروخ أو بالسيارة ولكن مقياس المسافة وسيلة مشتركة بين كل الناس في كل العصور . ومما يعقله العقل ويتحمله فكر الإنسان العادي .

ومعنى الأحاديث أن بيننا وبين السماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام وبين السماء الدنيا والثانية مسيرة خمسمائة عام وبين الثانية والثالثة خمسمائة عام وهذا حتى السماء السابعة . و(غلظ) أو (كثافة) كل سماء خمسمائة عام ، والغلظ أو الكثف هو الذي قلنا عنه أنه (أرضية) كل سماء لأن لكل سماء (أرضية) أو أرض فسمك هذه الأرض مسيرة خمسمائة عام . وسمك السماء كذلك .

لم يختلف أحد من العلماء حول هذه المسافة ولم يشذ واحد منهم وقال بخلاف ذلك ولم يضعف أحد هذه الأحاديث التي أوردنا بعضها فكلها أحاديث صحيحة .

إنني على يقين أن علمائنا ستأخذهم الدهشة من هذا الكلام . ولكنها الأحاديث ، وأحاديث رسول الله ﷺ وليس كلامي ، وهو موجود في بطون الكتب . ولكن علمائنا يكتمونه ولا يبينونه للناس ، أما الذي يبين للناس فهو ما يقوله التجريبيون الذين يؤمنون بأي شيء إلا الله ، ويبينون للناس هذه (اللانهائية) التي لم يقل بها الله ولا رسوله ولا واحد من العلماء المعتبرين .

ورب سائل يسأل : أليس القرآن تبيانا لكل شيء ، وتفصيلاً لكل شيء ، وفيه من كل شيء مثلا ، فكيف لا يذكر هذا الأمر ، وقد فصل في خلق السموات والأرض هذا التفصيل ؟

نقول : أن القرآن لم يغفل هذا الأمر ، وهذه الأحاديث التي ذكرناها لم تكن سوى تبيانا لما ذكره الله عن المسافة التي بين السماء والأرض . بل والمسافة التي بين السموات والأرض . بل إن الله منّ علينا وعرفنا المسافة التي بيننا وبين عرشه المجيد .

ولا تأخذ الذين يقرؤون القرآن ولا يجاوز حناجرهم الدهشة من هذا القول . وأذكر بما اتفقنا عليه أن بيننا وبينهم ، كتاب الله وسنة رسوله وإجماع علماء الأمة (قبل عصر الإلحاد) : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا﴾ (النساء:٥٩) .

بعد السماء في القرآن :

يقول تعالى في سورة السجدة ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ(٤) يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ(٥)﴾ .

إن الله تعالى في هذه الآية يخبرنا بأن أمره يترل من السماء إلى الأرض ثم يعرج مرة أخرى في يوم . هذا اليوم مقداره بأيامنا نحن ألف سنة ، أي ما يقطعه الأمر ذهابا وإيابا في يوم نقطعه نحن في ألف سنة ذهابا خمسمائة سنة وإيابا خمسمائة سنة كما اخبر رسول الله ﷺ .

وهذا ما قالت به التفاسير جميعا (تفاسير ما قبل عصر الإلحاد) . قال (ابن كثير) في تفسيره : " أي يترل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة كما قال تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا ، ومسافة ما بينهما وبين الأرض خمسمائة سنة .

وقال مجاهد والضحاك : الترول من الملك في مسيرة خمسمائة عام وصعوده في خمسمائة عام ولكنه يقطعها في طرفة عين " أ . هـ .

ويقول الحسن البصري الماوردي في تفسير " النكت والعيون" : " إن الملك يترل ويصعد في يوم مقداره ألف سنة فيكون مقدار نزله خمسمائة عام ومقدار صعوده خمسمائة عام . وقوله ﴿مِمَّا تَعُدُّون﴾ أي تحسبون من أيام الدنيا " .

وقال أبو على الفضل بن الحسن الطبرسي في تفسير " مجمع البيان " : " أي يدبر الأمور كلها ويقدرها على حسب إرادته فيما بين السماء والأرض ، وينزلها مع الملك إلى الأرض ثُمَّ ﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ الملك ، أي يصعد إلى المكان الذي أمره الله أن يصعد إليه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي يوم كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة مما يعده البشر . خمسمائة عام نزوله ، وخمسمائة عام صعوده ، فيترل الملك بالتدبير أو الوحي ويصعد إلى السماء فيقطع في يوم واحد من أيام الدنيا مسافة ألف سنة مما تعدونه أنتم لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام لابن آدم . وهذا معنى قول ابن عباس والحسن والضحاك وقتادة " أ. هـ .

وقال الشوكاني في تفسيره " فتح القدير " :

" لما بين سبحانه خلق السموات والأرض وما بينهما بين تدبيره لأمرها : أي يحكم الأمر بقضائه وقدره من السماء إلى الأرض ، والمعنى : ينزل أمره من أعلى السماء إلى الأرض السابعة كما قال تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ ومسافة ما بين السماء الدنيا إلى الأرض التي تحتها نزولاً وطلوعاً ألف سنة من أيام الدنيا . وقيل المراد بالأمر : المأمور به من الأعمال ، أي ينزله مدبراً من السماء إلى الأرض ، وقيل يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة وغيرها نازلة أحكامها وآثارها إلى الأرض . وقيل العرش موضع التدبير ، كما أن ما دون العرش موضع التفصيل . كما في قوله ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ وما دون السموات موضع التصرف . قال الله : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ ثم لما ذكر الله تعالى تدبيره للأمر قال : ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي ثم يرجع ذلك الأمر ويعود ذلك التدبير إليه سبحانه في يوم مقداره ألف سنة من أيام الدنيا . وذلك باعتبار : مسافة النزول من السماء والصعود إليها من الأرض كما قدمنا ، وقيل يدبر أمر الحوادث اليومية بأثباقا في اللوح المحفوظ فتترل بها الملائكة ، ثم تعرج إليه في يوم مقداره ألف سنة من أيام الدنيا . وقيل المعنى : أن الملك يعرج إلى السماء في يوم كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة لأن ما بين السماء إلى الأرض مسافة خمسمائة عام " أ . هـ .

نكتفي بما أوردنا وإلا فكما قلنا كل التفاسير التي كتبت قبل عصر النهضة (عصر الإلحاد) فسرت الآية بأن بعد السماء عن الأرض مسيرة خمسمائة عام . وإن كانت الآية

ليست في حاجة إلى تفسير ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ فالقرآن لم يترك هذا الأمر كما قلنا .

وإنما ذكرت أن التفسير الصحيح للآية ورد قبل عصر النهضة لأن ما وقع في يدي من تفاسير مؤلفة بعد ذلك حارت واحتارت ودارت وناورت في التفسير ، ومنها ما يخالف المعنى الظاهر للآيات لكي يتوافق مع ما يقوله التجريبيون .

ففي تفسير (المنتخب) مثلاً نجد أن شرحهم وتفسيرهم لهذه الآية يحتاج إلى شرح وتفسير ولو تركوا الآية كما هي دون تفسير لكان أبين وأفصح ، لاستغناء الآية بنفسها ، قال العلماء المؤلفون :

" يدبر شئون الخلق من السماء إلى الأرض . ثم يصعد إليه أمرها في يوم مقدر بألف سنة من سنى الدنيا التي تعدونها " ففضلاً عن أن هذا التفسير لم يقل به أحد من علماء ما قبل النهضة فإنه غير مفهوم فماذا يعنون بقولهم " مقدر بألف سنة من سنى الدنيا " وأين التفسير لقوله تعالى ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ إنهم لم يفعلوا أكثر من التحريك لحروف الآية وحولوا الآية من : ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ إلى (مقدر بألف سنة) من الذي قال هذا : أنه مقدر بألف سنة . لقد أدخلوا أنفسهم والقارئ لهم في حالة (اللبس والحيرة) التي قال عنها (هابل) المنجم والفلكي .

أما المسافة بين كل سماء والتي تليها فقد ذكرها القرآن أيضا ، بل في آية واحدة ذكر هذه المسافات كلها وجميع المسافات التي توجد في ملك الله من العرش إلى الفرش .

المسافة من العرش إلى الفرش :

يقول تعالى في سورة المعارج ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ(٢)مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ(٤)﴾ .

بنفس الغموض واللبس والحيرة يقول المؤلفون لكتاب (المنتخب) والذي ألف بعد عصر النهضة ، يفسرون الماء بعد الجهد بالماء فيقولون عن هذه الآية ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ .

" تصعد الملائكة وجبريل إلى مهبط أمره في يوم كان طوله خمسين ألف سنة من سني الدنيا " إن هذا الشرح يحتاج إلى شرح والتفسير يحتاج تفسير ، وأيا ما كان الآمر فليس هذا هو تفسير الآية . والتفسير نوعان : تفسير بالمأثور وتفسير بالرأي وهو لا هذا ولا ذاك .

ولفهم تفسير الآية نعود إلى علمائنا قبل عصر النهضة :

يقول (الطبرسي) وهو من علماء القرن السادس في تفسير (مجمع البيان) : " ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أي تصعد الملائكة ويصعد الروح أيضا معهم وهو جبريل ، خصه بالذكر من بين الملائكة تشويفا و﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى الموضع الذي لا يجرى لأحد سواه فيه حكم جعل سبحانه عروجهم إلى ذلك الموضع عروجاً إليه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي : تعرج الملائكة إلى الموضع الذي يأمرهم الله به في يوم كان مقداره من عروج غيرهم خمسين ألف سنة . والمراد أن الآدميين لو احتاجوا إلى قطع هذا المقدار الذي قطعته الملائكة في يوم واحد لقطعوه في خمسين ألف سنة " .

أما ابن كثير فقد ذكر فيه أربعة أقوال وجعل أولها :

" إن المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل سافلين ، وهو الأرض السابعة وذلك مسيرة خمسين ألف سنة . الرأي الثاني : المراد بذلك مدة بقاء الدنيا منذ أن خلق الله العالم إلى قيام الساعة . (الثالث) : وهو رأي غريب جدا كما قال ابن كثير إنه اليوم الفاصل بين الدنيا والآخرة (الرابع) : إن المراد بذلك هو يوم القيامة وعن ابن عباس أنه قال : هو يوم القيامة جعله الله تعالى على الكافرين مقدار خمسين ألف ستة . وروى أحمد عن أبي سعيد قال : قيل لرسول الله ﷺ ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ما أطول هذا اليوم ؟ فقال " والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا " . وهو بهذا المعنى الأخير يصف يوم القيامة وطوله ، وهي مسألة حسية لكل واحد حسب عمله . فهو علي المؤمن كوقت صلاة يصليها . وهو علي الكافر كأنه خمسين ألف سنة . غير أنه في حديث أخر عن معاذ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : " يحاسبهم الله بمقدار ما بين صلاتين لذلك سمي : سريع الحساب وأسرع الحاسبين " . وأن الناس لو تركوا ليحاسبوا أنفسهم لظلوا خمسين ألف سنة .

وقال الشوكاني في تفسيره :

" إن الملائكة إذا عرجت من أسفل العالم إلي العرش كان مسافة ذلك خمسين ألف سنة . وأنهم إذا عرجوا من هذه الأرض التي نحن عليها إلي باطن هذه السماء التي هي سماؤنا الدنيا

كان مسافة ذلك ألف سنة لأن ما بين أسفل السماء إلي الأرض خمسمائة عام وغلظ كل سماء خمسمائة عام " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال : منتهى أمره من أسفل الأراضين إلي منتهى أمره من فوق السموات العلي مقدار خمسين ألف سنة وعن ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال : يعني بذلك ينزل الأمر من السماء إلي الأرض ومن الأرض إلي السماء في يوم واحد فذلك مقدار ألف سنة . لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أيضا قال : " غلظ كل أرض (أرضية) خمسمائة عام وغلظ كل سماء خمسمائة عام . وبين كل أرض إلي أرض خمسمائة عام ، ومن السماء إلى الأرض خمسمائة عام . فذلك أربعة عشر ألف عام . وبين السماء السابعة إلى العرش مسيرة ستة وثلاثين ألف عام . فذلك قوله : ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ " .

وهذا التفصيل الأخير لابن عباس في غاية الدقة وروعة البيان . ورضي الله عنه فقد دعي له رسول الله ﷺ بأن يفهمه الله القرآن . وقد كان .

إن عدة أحاديث تتضافر كلها دون تناقض لتؤكد أن المسافة بين الأرض والعرش يسيرها ابن آدم في خمسين ألف سنة لو قدر له السير . أما الملائكة والروح فتقطعها في يوم واحد . يؤكد ذلك الأحاديث التي رواها عدة رواة عن بعد السماء عن الأرض وأنه خمسمائة عام سيرا وأن بين كل سماء والتي تليها مسيرة خمسمائة عام وكثافة كل سماء خمسمائة عام أيضا وقلنا أن هذا تفسير ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي النزول إلى الأرض والعودة إلي السماء إذاً فلدينا مسافة ثابتة وهي خمسمائة عام ، وهي وحدة قياس لأنها بعد ما بين كل سماء والتي تليها ، وهي غلظ كل سماء وبعد ما بين الماء والسماء السابعة وبعد ما بين الكرسي والماء . وغلظ الكرسي . وبعد ما بين العرش والماء .

وكثف العرش ذاته ، وهكذا جميع المسافات الموجودة في الكون من الأرض السابعة إلي العرش مسيرة ثابتة (خمسمائة عام) لأي شيء بينهما سماء ، أو ماء ، أو كرسي، أو عرش ، أو كثافة ، أو ما بينهما .

هناك حديث صحيح عن رسول الله ﷺ رواه البخاري والطبراني " إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله . ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض " .

وهذا لفظ البخاري ولفظ الطبراني : " ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام " .

ورواه الترمذي بزيادة . " لو أن العالمين اجتمعوا في إحداهن لوسعتهم " . وتكملة الحديث عندهم جميعا " فإذا سألتم الله فسألوه الفردوس . فأنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن " .

فهذا الحديث الصحيح يبين لنا أن الجنة مائة درجة فأن بين كل درجتين كما بين السماء والأرض أي مسيرة خمسمائة عام . وان أعلاها جميعا الفردوس لأنها تحت العرش . إذاً فالجنة منتهاها تحت العرش . وبدايتها ستكون من فوق الأرض لأن النار ستكون تحت الأرض وليس بين الاثنين إلا حجاب . كما قال تعالى في سورة الأعراف ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي سور ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (الحديد:١٣) فهذا الحديث يحدثنا صراحة عن المسافة التي بين الأرض إلى العرش وأنها مائة درجة في الدرجة خمسمائة عام فيكون المجموع ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ .

وقال العلماء المتحدثون والمفسرون في صفة العرش أن بعد ما بينه وبين الأرض خمسين ألف سنة ، وبعد ما بين قطريه أي اتساعه خمسين ألف سنة .

سبعة مليون كيلو متر

إذا اتفقنا علي أن بعد السماء عن الأرض مسيرة خمسمائة عام ، ولابد أن نتفق علي ذلك كمؤمنين لأدلة الكتاب والسنة ولإجماع علماء الأمة ، ولا يوجد مخالف واحد .

بقي أن نوضح الآن ، كيف تكون المسافة بهذا التحديد سبعة مليون كيلومتر . أي أن مسيرة خمسمائة عام = ٧٠٠٠٠٠٠ كم .

لقد كان الأسلم لنا أن نكتفي بتوضيح الآيات والأحاديث التي تتحدث عن المسافة بين السماء والأرض وأنها مسيرة خمسمائة عام وكفي . خاصة ولم يقل أحد أبدا بهذا التحديد الدقيق لا من السلف ، ولا من الخلف .

كنا نود أن نقف عند هذا الحد ، ولكن حتى لا يفهم أحد قدر مسافة الخمسمائة عام فهم خاطئ فنكون بذلك لم نفعل شيء ، لأنهم الآن يستخدمون مصطلح السنين أيضا ، فضلا عن البلايين المبلينة التي يلقونها بدون حساب لأقرب الأجرام السماوية . ثم ثالثا لأن الناس في هذا العصر لا يعرفون قدر هذا المقياس . لذلك كان واجبا على المسلمين أن يبينوا

للناس وأن يصححوا المفاهيم المغلوطة التي اكتسبت على مدار أكثر من ثلاثة قرون من الزمن .

وحيث سكت العلماء عن التبيين ، فشعرت – وأنا طالب علم – أنه فرض عين عليّ طالما عرفت أن أعرف الناس .

والأمر ببساطة شديدة مستقٍ أيضا من الكتاب والسنة وإجماع علماء المسلمين . وسنتوصل إلى هذا التحديد بأكثر من طريقة :

الطريقة الأولى :

إن الأحاديث تصرح دون أي لبس أو غموض ، أن مسيرة الخمسمائة عام هي سيراً لا جرياً ولا طيراناً . وببساطة نستطيع أن نحسب كم كيلو مترا في هذه المدة .

من المعلوم أن الإنسان العادي يسير في الساعة ٥ كم . ومن المعلوم أن يوم المسير هو ٨ ساعات . إذاً يسير الإنسان العادي في اليوم ٤٠ كم .

ومن المعلوم أيضا أن السنة مقدارها ٣٥٤ يوما فتكون المسافة المقطوعة في العام هي ٤٠ × ٣٥٤ = ١٤١٦٠ كم وعلى ذلك فالمسافة في الخمسمائة عام هي ١٤١٦٠ × ٥٠٠ = ٧٠٨٠٠٠٠ كم (سبعة مليون وثمانون ألف كيلو متر) .

الطريقة الثانية :

نعلم من السيرة وتاريخ العرب أن للعرب رحلة سنوية للشام صيفا ومثلها لليمن شتاءً ونعلم من هذه المصادر أيضا أن الرحلة كانت تستغرق شهرا ذهابا وشهرا إيابا . وعلى ذلك فقد كانت (مسيرة شهر) وحدة قياس معلومة لكل العرب آن ذاك لأن حياة قريش كانت تقوم على هذه الرحلات السنوية .

لذلك عارضت قريش قول رسول الله ﷺ عندما قال لهم أنه أسرى به إلى بيت المقدس في ليلة واحدة ، بأنهم يذهبون إليها في شهر . والمسافة بين مكة والشام حوالي ١٢٠٠ كم يقطعونها في شهر . إذاً يقطعون في السنة ١٢٠٠ × ١٢ = ١٤٤٠٠ ويقطعون في الخمسمائة عام ١٤٤٠٠ × ٥٠٠ = ٧٢٠٠٠٠٠ كم (سبعة ملايين ومائتي ألف كيلو متر) .

الطريقة الثالثة :

وهذه الطريقة من القرآن الذي اتخذ (مسيرة الشهر) وحدة قياس . فقال تعالى : ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ (سبأ:١٢) وقد اتفق المفسرون أن الريح كانت تسير بالغداة مسيرة شهر وتسير بالعشي مثلها ، أي أنها في اليوم الواحد (غدواً وعشيا) تسير مسيرة شهرين .

قال الحسن : كان النبي سليمان يغدو من دمشق فيقيل بإصطخر وبينهما مسيرة شهر للمسرع ، ثم يروح من إصطخر فيبيت بكابل ، وبينهما مسيرة شهر . وبالنظر إلى خريطة العالم نجد أن المسافة التي قسنا بها في الطريقة الثانية كانت من مكة إلى الشام وهي مسيرة شهر هي نفس المسافة تماما بين إصطخر بإيران ودمشق ، وهي نفسها بين اصطخر وكابل بأفغانستان ، وبذلك يكون القرآن قد اعتمد هذا المقياس(مسيرة شهر) وهي حوالي ١٢٠٠كم .

الطريقة الرابعة :

في سورة النمل سرعتين ذكرهما الله تعالى ، واحدة لعفريت من الجن ، والثانية لمن عنده علم الكتاب . يقول تعالى ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ . يقول المفسرون أن مقام سليمان الذي يجلس فيه لقضاء الأحكام حوالي نصف يوم وعلى ذلك فسرعة عفريت الجن في أن يأتِ بالعرش من اليمين التي تبعد عن مملكة سليمان بحوالي ٢٤٠٠ كم أي حوالي مسيرة شهرين يقطعها في نصف يوم .

أما العرش فقد جيء به في غمضة عين ، أو ارتداد جفن العين أي حوالي خمس ثوان تقريبا بمعدل ٤٨٦ كم / ث . لذلك نرى أن العرش قد جاء بالأمر (بسرعة الأمر) وقد اتفق مفسرو القرآن على أن العرش جاء بالدعاء ولم يأت به بشر ، وأن وزير سليمان (آصف بن برخيا) دعا الله باسمه الأعظم ، وكان يعلمه ، فجيء له بالعرش قبل أن يغمض سليمان جفنه الذي نقدر أنه استغرق ٥ ثواني تقريبا . إذاً نحن بحاجة أن نحسب سرعة (الأمر) التي جاء بها العرش .

لقد أخبرنا الله تعالى أن سرعة الأمر الذي ينزل من السماء إلى الأرض ثم يعـــود مــرة أخـــرى في يوم . نقطعه نحن في ألف ســـنة إذاً ســـرعة الأمـــر في اليـــوم تســـاوى ١٤٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ كـــم (مسافة السماء ذهابا وإيابا) ÷ ٨ (ساعات مســـيرة اليـــوم) = ١٧٥٠٠٠٠٠٠٠ كـــم / ســـاعة ، أي حوالي ٢٩١٦٧ كم / دقيقة ، أي ٤٨٦ كم / ث . وهـــي نفـــس الســـرعة الـــتي قدرناهـــا أول هذه الطريقة والتي تتناسب تماما مع سرعة الأمر والتي سنفصل الكـــلام فيـــها في البـــاب الســـابع .

الطريقة الخامسة :

ثبت في القرآن أن الجن كانوا يصعدون إلى السماء ويتخـــذون منـــها مقـــاعد للســـمع يقـــول تعالى : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَـــدِيدًا وَشُـــهُبًا (٨) وَأَنَّـــا كُنَّـــا نَقْعُـــدُ مِنْـــهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ (الجن) ونعلم مـــن الآيـــات أن الجـــن كـــانت تجلس من السماء مجلساً بحيث تكون في مرمى الشهب وفي نفس الوقـــت علـــى مقربـــة للســـمع . وكما عرفنا أن إمكانية الجن في الطيران محدودة إلى حد ما ، فهاهو عفريـــت منـــهم يعـــرض علـــى سليمان عليه السلام أن يأتيه بعرش ملكة سبأ الذي يبعـــد عنـــهم بحـــوالي ٢٤٠٠ كـــم في فـــترة تبلغ نصف يوم ، إذاً فبعد السماء ليس ببلايين السنين الضوئية كما يزعـــم المفـــترون ، بـــل هـــي على بعد يقبل الصعود إليه من بعض المخلوقات كالجن وسرعتهم ليســـت بســـرعة الضـــوء .

الطريقة السادسة :

ثبت عن رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد عن عبد الله بن عمـــرو قـــال :

" لو أن رضاضة مثل هذه – وأشار إلى جمجمـــة – أرســـلت مـــن الســـماء إلى الأرض وهـــي مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليـــل " . وهـــذه الســـرعة متناســـبة تمامـــا مـــع ســـرعة (الأمر) الموجودة بالآية (٥) من سورة السجدة ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنْ السَّـــمَاءِ إِلَـــى الأَرْضِ ثُـــمَّ يَعْـــرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ وهي مســـافة ٧ مليـــون كـــم فكـــأن الرضاضـــة أرسلت بسرعة (الأمـــر) .

الطريقة السابعة :

وهذه الطريقة نحسب بها بعد الســـماء بصـــورة تقريبيـــة . وهـــي عـــروج رســـول الله ﷺ إلى سدرة المنتهي وهي في السماء السابعة ثم نزوله مرة أخـــرى وذلـــك في ليلـــة واحـــدة . إن هـــذه الرحلة المباركة نعتقد أنها استغرقت حوالي ٧ ســـاعات حيـــث عـــرج برســـول الله بعـــد العشـــاء وعاد قبل الفجر ولا يوجد أي حديث أو أثر يحدد وقـــت العـــروج أو الـــنزول بـــالضبط لذلـــك

قلنا بأنها ٧ ساعات على وجه التقريب ، وهـذه الرحلة صعد فيها رسول الله ﷺ بصحبة رئيس الملائكة جبريل علية السلام ، ولقد توقف رسول الله في كل سماء للسلام على من فيها من الأنبياء وللاستفسار عن بعض الآيات التي رآها ثم فرضت عليه وعلى أمته الصلاة التي يصليها المسلمون الآن وهي خمسون صلاة خففت إلى خمس . إن السرعة التي صعد فيها ـه للسموات هي سرعة الملائكة والروح التي قال عنها الله ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج:٤) .

وذكرنا أن الملائكة والروح تعرج في يوم لو سرنا نحن هذه المسافة لاستغرقت خمسين ألف سنة . وذكرنا أيضا أن هذه المسافة مقدارها ٧ مليون كم في مائة درجة أي ٧٠٠٠٠٠٠٠٠ كم (سبعمائة مليون كيلو متر) يسيرها الملك في يوم ، إذاً سرعته في الساعة ٠٠٠ ٠٠ ٥ ٨٧ كم أي ١٤٥٨٣٣٣ كم / دقيقة ، أي ٢٤٣٠٥ كم / ثانية . وصعود السموات السبع (١٤طبقة) استغرق حوالي ساعة والنزول مثلها وباقي الليل وهو حوالي خمس ساعات استغرقت المقابلات والمحادثات والرؤى . ومسافة السماء التي ذكرناها ٠٠٠ ٠٠٠ ٧ كم تتفق مع معطيات هذه الرحلة والوقت الذي استغرقته والسرعة التي استخدمت فيها . أما لو قدرناها كما يقول التجريبيون ببلايين السنين الضوئية فكانت الرحلة تحتاج لبلايين البلايين من السنين الضوئية وليس لليلة واحدة .

صفة جبريل تحدد المسافة :

روى البخاري ومسلم من حديث عامر الشعبي عن مسروق قال : كنت عند عائشة رضى الله عنها فقلت : أليس الله يقول ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ (التكوير:٢٣) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (النجم:١٣) قالت : أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ عنها فقال إنما ذاك جبريل لم يره إلا في صورته التي خلق عليها إلا مرتين ، رآه منهبطا من السماء إلي الأرض سادا عظيم خلقه ما بين السماء والأرض " .

وروى أحمد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ رأيت جبريل على سدرة المنتهى وله ستمائة جناح فسالت عاصما عن الأجنحة فلم يخبرني فأخبرني بعض أصحابه أن ما بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب . قال ابن كثير سنده قوي جيد .

هذا الحديث حدد تماما المسافة عندما عرفنا أن الجناح تقريبـــا قطـــر الأرض مـــا بـــين المشـــرق والمغرب وقطرها ١٢٠٠٠ (كما يقولـــون) × ٦٠٠ (جنـــاح) = ٧٢٠٠٠٠٠ كـــم وهـــذا مـــا سنؤكده بأدلة أخـــري .

* * * * *

الأدلة العقلية لبعد السماء

إن تحديد بعد السماء الدنيا عن الأرض بمقـــدار ٧ مليــون كــم ، ليــس مــن تقديرنــا ولا استنتاجنا ، ولم نفعل نحن أكثر من تحويل مسيرة الخمسمائة عــام إلى كيلــو مــترات ، ربمــا تزيــد قليلا أو تقل قليلا عما حددنـــا .

وهذا التحديد بالطبع لا يتناسب أبدا مع معطيات رجـــال الفلــك عــن الأبعــاد في الفضــاء وهي أبعاد لا تقبلها الآيات ولا الأحاديث ولا العقول السليمة ، فلو قلنـــا أن بعــد الســماء عــن الأرض يقدر بخمسمائة سنة ضوئية وليس (مسيرة) ، لما وصلنا إلى أقرب مجــرة والــتي تبعــد عنــا كما يقولون ٧٠٠ ٠٠٠ سنة ضوئية وهي مجرة المرأة المسلسلة أمــا إذا اعتبرنــا الخمســمائة عــام سيرا كما أخبر الرسول ﷺ فلن نصل فيها إلى الشمس الــتي تبعــد عنــا بزعمــهم ١٥٠ مليــون كم بل سنحتاج إلى حوالي ١١ ألف ســنة .

إن معطيات التجريبيين لتتناقض تناقضا صارخاً مــع معطيــات الآيــات الــتي تتحــدث عــن السموات والأرض . وعلى سبيل المثال : يقول تعالى في ســورة الحــج الآيــة (٦٥) ﴿وَيُمْسِـكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إلا بِإِذْنِهِ﴾ إن السماء يمكـــن أن تقــع علــى الأرض لــولا رحمــة الله الممسكة بها ، لكن هل يتصور عقل أن الســـماء يمكــن أن تقــع علــى الأرض في ظــل الأرقــام الفلكية التي يعطيها رجال الفضاء المنجمون بالنسبة للنجوم والمجــرات وأحجامــها وأبعادهــا مــن الأرض ، وهي تعتبر أقل مــن ذرة رمــل في صحــراء الأرض ، هكــذا يصورونهــا لنــا بالنسـبة للفضاء كله فإنه لا يمكن أن ترى بالعين المجردة ولا حــتى بالميكروســكوب العــادي .

إن هذا التصور فضلا عن أن العقل لا يطيقه ، فإنه يتناقض بــالطبع مــع هــذه الآيــة . فــأي أرض تلك التي ستقع عليها الســماء ؟

إنهم يقيسون بعد بعض المجرات ببلايين الســنين الضوئيــة .

يقول المهندس (سعد شعبان) في كتابه " الطريق إلى الكواكب " : " أنه أمكن التغلغل إلى أعماق في الفضاء تعادل ثلاثة أمثال ما كان متيسرا بالتليســـكوب البصريــة العاديــة فوصلــوا إلى مســافة ٦٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ (ستة آلاف بليون سنة ضوئية) " .

فأين بالله الأرض التي يخبرنا أنه يمسك السماء أن تقع عليها ؟ وهل هــذه آيــة لقــوم يعقلــون كما يخبر ربنا في كتابه فأي عقل يطيق ذلك ؟ إن هذا الرقم الذي قــالوا بــه ليــس بــالكيلومترات إنما بالسنين الضوئية أي أنه يساوى بــالكيلو مــترات :

٩٤٦٠٨٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ كم (السنة الضوئية) × ٦٠٠٠ ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ (العمق الذي وصلوه) = ٥٦٧٦٤٨٠ ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ كم (ولم أستطع قراءة الرقم) .

إنني أطلب من علمائنا الاحتفاظ بعقولهم حتى نختم هذا الفصل لأننا في حاجة إليها ، لأنه لو كان هذا البعد ثبت التوصل إليه كما يدعون فما بعد السماء ذاتها ؟

ثم ما مقدار السماء الثانية فالثالثة ... ما مقدار السموات السبع ؟ وهذا السؤال للمؤمنين بالسموات السبع . وقبل أن تفقدوا عقولكم من التفكير في الأرقام والأعداد ، هل من المعقول أن يخاطبنا الله في كتابه في أكثر من خمسمائة آية عن (السموات والأرض) . فأي أرض تلك التي يضيفها الله للسموات ؟

هل يعقل أن يضاف مالا يدرك بالتلسكوبات إلى السموات بهذه الأرقام الفلكية التجريبية ؟ أليس في ذلك تعارض مع آيات القرآن لقد حكم رجال الكنيسة في القرن السابع عشر على (جيردانو برونو) بالموت حرقاً لمقولة تعارضت مع آية واحدة بالكتاب المقدس . فما بال رجال الدين وعلماء الإسلام يسكتون على مخالفة آيات في القرآن الكريم ؟

وليتهم يسكتون وحسب .. إنهم يثبتون ذلك !! وبالقرآن أيضا !!

إن علمائنا يوردون هذه الأرقام ثم يقولون مقولتهم الشهيرة :

" لقد سبق القرآن العلم الحديث في هذا الاكتشاف " ثم يقولون مستدلين بآيات الله " فيقول تعالى ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (الواقعة) فقد أثبت القرآن منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة أن المسافات بين النجوم وبعضها مسافات عظيمة حتى أن الله تعالى أقسم بها وبذلك يكون القرآن قد سبق العلم الحديث " . إنهم يقولون ذلك ، ولا أدرى من أين جاءوا بهذا التفسير لقوله تعالى ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ .

أورد " سيد قطب " في كتابه " في ظلال القرآن " وهو من أحدث التفاسير نقلا من كتاب (الله والعلم الحديث) هذه الفقرة : " ويقول الفلكيون إن هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم ، مما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة ، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه . هذه كلها تسبح في الفلك الغامض ، ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر ، أو يصطدم بكوكب آخر ،

إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي يسيران في اتجاه واحد وسرعة واحدة وهو احتمال بعيد جدا إن لم يكن مستحيلا " .

هذا ما يستدل به صاحب الظلال مع أنه من أقل العلماء تتبع للتجريبيين . وهذا التفسير لمواقع النجوم وبأنه أبعادها الفلكية التي قال بها المنجمون لم يقل به أحد أبداً من علماء الأمة قبل عصر النهضة ، وليس هناك أي وجه تقارب بين هذا الذي قالوه والمعنى المراد للآيات .

وقد أخرج النسائي وابن جرير ومحمد بن نصر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال : انزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة ، ثم فرق في السنين ، وفي لفظ ، ثم نزل من السماء الدنيا نجوما (أي متفرقا) ثم قرأ ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ (الواقعة:٤٦) .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردوية عنه : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ قال القرآن ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ قال القرآن .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضا في الآية قال : نجوم القرآن حين ينزل .

وقال الفراء والزجاج : المراد بمواقع النجوم نزول القرآن ، والضمير في ﴿وَإِنَّهُ﴾ على القسم الذي يدل عليه أقسم . والمعنى أن القسم بمواقع النجوم لقسم عظيم لو تعلمون ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (الواقعة:٧٧) أي كرمه الله وأعزه ورفع قدره على جميع الكتب .

فهذا هو تفسير السلف لمواقع النجوم ، وحتى لو كان المعنى على مواقع نجوم السماء فإن الآية لا علاقة لها بما يقولون من هذه الأبعاد التي لا يقبلها نقل ولا عقل .

من الأمور أيضا التي لا يقبلها العقل طبقاً لأقوال التجريبيين : أمر الوحي .

إن القرآن قد نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة إلى السماء الدنيا كان ذلك ليلة القدر ثم نزل القرآن بعد ذلك على الأرض منجماً أي مفرقاً على مدار سنين بعثة رسول الله ﷺ . فكانت تنزل بعض آيات إجابة لسؤال سائل أو تعليقاً على حدث ، أو تعقبا على غزوة ، أو توجيهاً ، أو عتابا ، أو تحذيرا أو حكما ، أو فتوى أو تصحيحا لفهم خاطئ ... وهكذا .. وكان الملك المكلف بإنزال الوحي هو جبريل عليه السلام ، وهو المسئول عموماً عن إنزال الوحي على كل الأنبياء فقد كانت هذه مهمته .

وطبقا لما قلناه من سرعة الملائكة وإنها ٢٤٣٠٥ كم / ث ، وعلى ذلك فإنه لكي ينزل جبريل عليه السلام من السماء الدنيا بالوحي على رسول الله ﷺ فإنه يستغرق في النزول إلى الأرض ٤,٨ دقيقة ، ولو أضفنا إليها مسافة كثف السماء فستكون المدة أقل من عشر
دقائق ، وهي مدة مناسبة تماما مع ما كان ينتظره رسول الله ﷺ ليوحي إليه بآيات إجابة لسؤال معين سئل فيه .

ولقد وردت إلينا مناسبات عديدة كان رسول الله ﷺ يسأل في أمر لا يعرفه فينزل إليه جبريل بعد دقائق ، وقد حدث له هذا الأمر عندما سئل عن الروح وذي القرنين وعندما سألته (خولة بنت ثعلبة) عن يمين الظهار الذي صدر من زوجها . وعن أسماء الكواكب ، وغيرها مما كان رسول الله ﷺ يسأل فيه فينتظر الإجابة من جبريل ، وكانت الإجابة أحيانا بأحاديث وكثيرا بآيات قرآنية ، ولهذا يقال أن القرآن نزل منجماً .

والسؤال الآن طبقا لما يقال عن الأبعاد المهولة واللامعقولة لأجرام السماء وأنها تبلغ بلايين السنين الضوئية ، أي أن الضوء على سرعته المهولة (٣٠٠٠٠٠) كم / ث يستغرق بلايين السنين حتى يأتي إلينا صادرا من بعض النجوم . نسأل : كيف يأتي إلينا جبريل عليه السلام من السماء الدنيا وسرعته ٢٤٣٠٥ كم / ث ؟ . وإن كنتم ترون أن هذه السرعة لا تتناسب مع جبريل فإننا سنضاعف هذه السرعة ١٠ أضعاف . أيكفي هذا ؟ سنضاعف ١٥ ضعف حتى نتقارب مع سرعة الضوء التي قالوا بها . فكيف يأتي جبريل عليه السلام من السماء اللانهائية إلى الأرض ليرد على سؤال ؟

نشرت مجلة الأزهر على مدار ثلاث سنوات عدة مقالات للدكتور " منصور محمد حسب النبي " بعنوان (المعجزة القرآنية في حساب السرعة الضوئية) . وقد حاول الدكتور على مدار هذه السنوات أن يثبت ما قاله التجريبي " أينشتاين " أعلم علماء عصره على حد تعبير الدكتور عن نظرية النسبية ، ومدى توافق سرعة الضوء مع معطيات القرآن ، وأن سرعة الضوء هي سرعة الأمر في قوله تعالى ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ وما قاله أينشتاين بالطبع لا يؤكد ما جاء بالقرآن ، لأن أينشتاين لا يؤمن أصلا بالقرآن ولا بغيره من الكتب المقدسة .

وقال الدكتور – غفر الله لنا وله – إن المقصود من الآية أن الأمر يتحرك بسرعة الضوء التي قال بها أينشتاين وهي ٣٠٠ ٠٠٠ كم / ث أو بدقه أكثر ٢٩٩٧٩٢,٥ كم / ث .

ولأنني طالب علم لا دراية لي بالمصطلحات الضخمة التي يتكلم بها الدكاترة فإنني سأسلم بما يقوله الدكتور ، بأن جبريل عليه السلام كان يتحرك بسرعة الضوء طبقا لتفسير الآية الخامسة من سورة السجدة ، وإنني بداية أعتذر إلى رسول الله ﷺ الذي فسر الآية بأن مسيرة السماء مسيرة خمسمائة عام سيرا على الأرجل أو بالإبل ، بخلاف ما يقوله الدكتور أنها بسرعة الضوء ، وأعتذر لكل علماء الأمة الذين جاءوا قبل أينشتاين لإجماعهم على أن مسافة السماء مسيرة خمسمائة عام ، وأعتذر لكل علماء التفسير الذين جاءوا قبل أينشتاين وقالوا بأن معنى الآية الخامسة التي يتحدث عنها الدكتور بأنها تعني أن الملك أو الأمر يقطع المسافة من السماء إلى الأرض ثم العودة في يوم نقطعه نحن لو قدر وفعلنا ذلك في ألف سنة سيراً .

نعتذر لهؤلاء جميعا ولتاج رأسي الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ وأفترض أن جبريل عليه السلام كان ينطلق بسرعة الضوء طبقا للآية (٥) سورة السجدة كما قال الدكتور . فإنه طبقا لما قال به علماء الفلك زملاء أينشتاين بأن أقرب المجرات إلينا – أكرر أقرب – هي مجرة المرأة المسلسلة تبعد عنا (٧٠٠٠٠٠) سنة ضوئية .

أي أن الضوء وهو ينطلق بسرعة ٣٠٠٠٠٠ كم / ث سيستغرق لوصوله إلينا من هذه المجرة ٧٠٠٠٠٠ سنة . أي أن جبريل عليه السلام لو أتانا فقط من أقرب مجرة وسرعته هي سرعة الضوء وهي أكبر سرعة كونية كما يدعون ، فسيصل إلينا بعد ٧٠٠ ألف سنة .

هل هذا يعقل ؟

علمائنا الأفاضل أليس هذا ما تقولونه وتستميتون في إثباته . إننا نقر لكم به الآن – على سبيل الافتراض – نقر أن الأمر يتحرك بسرعة الضوء وأن جبريل عليه السلام ينطلق بسرعة الضوء . ولو قال الدكتور " حسب النبي " أن جبريل والملائكة لا تخضع لنفس سرعة الضوء ، وإنما هذه السرعة سرعة الأمر أما الملائكة فتزيد سرعتها على ذلك وأنه لابد لها من سرعة قصوى ، لأن كل أمر (مستقر) كما يخبر ربنا . ونحن أيضا نسلم له بهذا ولكن سيظل السؤال باقيا إن أمر الله حتى يصل إلينا يحتاج لملايين السنين وليس ليوم واحد كما يقول الله

لأن أقرب مجرة تبعد عنا ٧٠٠ ألف سنة ضوئية أي أن الأمر لـــو نـــزل إلينـــا مـــن أقـــرب مجـــرة لوصل إلينا بعد ٧٠٠ ألف سنة والله تعالى يقول ﴿فِــــي يَــــوْمٍ﴾ .

أما جبريل عليه السلام فيقول عنه الدكتور حسب النبي أنـــه يعتقـــد في وجـــود ســـرعة أكـــبر من سرعة الضوء " ربما يكون ذلك في عـــالم الجـــن أو الملائكـــة لأن هـــذه العـــوالم يجـــوز لهـــا أن تتحرك بسرعة أكبر من سرعة الضوء . لأنها لا تخضـــع لعالمنـــا المقيـــد بمبـــدأ أينشـــتاين . وكـــل مخلوق ميسر لما خلق له وكل شيء عنده بمقدار وأؤكد أن عالم الجن والملائكـــة مقيـــدا أيضـــا بحـــد أقصى في سرعته وليس اعتماداً علـــى التخيـــلات لأربـــط الظـــن بـــاليقين " . هـــذا مـــا يقولـــه الدكتـــور .

وإنني لأجد نفسي متفقا مع الدكتور في بعض ما قـــال وأخالفـــه في البعـــض الآخـــر : أخالفـــه لقوله أن سرعة الجن قد تكون أكبر من سرعة الضوء ، حيث عرفنا مـــن ســـورة النمـــل قـــدرات أحد عفاريت الجن المسخرة لسليمان وهي لا تتجـــاوز ٢٤٠٠ كـــم / ســـاعة . كمـــا أخالفـــه في قوله أن عالمنا يخضع لمبدأ أينشتاين . فعالمنا يخضع لقوانـــين الله عـــز وجـــل ولا شـــأن للعـــالم بهـــذا الذي ذكـــره .

واتفق معه في أن للجن والملائكة سرعة قصـــوى ، لأن كـــل شـــيء عنـــد الله بمقـــدار ولكـــن ترى ما تبلغ السرعة القصوى هـــذه للملائكـــة ؟

إن الدكتور يقول بأن : أينشتاين اكتشف المبدأ الأساســـي للنظريـــة النســـبية والـــذي علـــى أساسه ظهرت قوانين ، وثبتت صحتها عمليا وتجريبيا على مـــدى قـــرن مـــن الزمـــان ولم يتجـــرأ أحد أن يدعي بأن هناك سرعة أكبر من سرعة الضوء في الفـــراغ " وقـــد طلـــع علـــى الدكتـــور حسب النبي دكتور آخر هو الدكتور " عبد الرحمن أحمـــد الســـمان " قـــال بـــأن هنـــاك ســـرعة أكبر من سرعة الضوء هي سرعة (الفوتونـــات) ١.٧ قـــدر ســـرعة الضـــوء . وأصـــر الدكتـــور حسب النبي على أن أحدا لا يمكن أن يخطئ أينشتاين . إن كلا العـــالمين لم يقومـــا بتجريـــب هـــذا أو ذاك بنفسيهما وإنما هو النقل والاتباع لرجال الغرب ، والتسليم المطلـــق بمـــا يقولـــون .

ويبقى سؤلنا : ما هي سرعة الملائكة ومنها جبريل عليه الســـلام ؟ مـــاذا لـــو قلنـــا أن ســـرعة جبريل عليه السلام أكبر من سرعة الضـــوء ، كســـرعة ذلـــك الشـــيء الـــذي ذكـــره الدكتـــور السمان ، لنعطى جبريل سرعة هي ضعـــف ســـرعة الضـــوء . لا .. بـــل ضعفـــين .. بـــل نعطيـــه عشرة أضعافها ، وآخر الكلام سنعطيه ألف سرعة الضوء !! ولا يسأل أحـــد كيـــف ذلـــك فأنـــا لن أدفع من جيبي ولا من جيب الدكاترة ولا من جيـــب أحـــد .

أيها السادة سنعطى جبريل عليه السلام ألف قـــدر ســرعة الضــوء ؟ حــتى يتمكــن عليــه السلام من أداء مهمته بأقصى سرعة ممكنة . تصوروا أيها الســادة أن جــبريل ولــه هــذه الســرعة التي لا يتصورها عقل ولا يقبلها . سيحتاج إلى ٧٠٠ سنة ليصل إلينـا مــن أقــرب مجــرة (المــرأة المسلسلة) ترى فمتى سيصل إلينا لو جاء من أبعد مجــرة ؟ ومــتى ســيصل إلينــا لــو جــاء مــن السماء ؟ بل متى سيصل لو جاء من السماء السابعة ؟ ومتى ســيصل إلينــا لــو جــاء مــن تحــت العرش ؟

ترُى أين الحق وأين الباطل ؟ أين الصواب وأين الخطأ ؟ لا يمكن أن يكون أينشتاين أعلم علمــاء عصره – كما يقول علماء المسلمين – مخطئ ، ولا يمكن أن يكون كل علماء الفلــك – غربيــين وشرقيين ، مؤمنين ، وكافرين – مخطئين في حساباتهم الفلكية وأرقامهم التي ذكرنا بعضها وقد اتفقــوا عليها جميعا . إذاً فلم يعد أمامنا إلا أن نكذب ما جاء به محمد ﷺ ذلك الذي يتحدث بلغــة الجمــل .غة ، فلا يمكن تخطئة من يتحدث بالفوتونات والإلكترونات والكهرومغناطيســيات والتاكيونــات والميونات إلى آخر الألفاظ التي يقولون بها .

بني أيها السادة أصدق محمد رسول الله ﷺ وأكــذب أينشــتاين وكــل علمــاء الأرض لــو اتفقوا على معارضة حرف واحد مما جاء بـــه ﷺ .

إن علمائنا يعتقدون ، كما يعتقد جميع المؤمنين أن القرآن نزل ليتواءم مــع كــل عصــر لأنــه الرسالة الأخيرة ، وأنه لابد أن يتحدث في كل عصــر بلغتــه ، وهــم غــير مخطئــين في عقيدتهــم هذه ، لكن خطأهم أنهم لا يعلمون أن القرآن وإن كان مناسبا لكل العصــور ، فأنــه أيضــا جــاء بلغة مشتركة بين كل العصور وآياته وأدلته مشتركة لكل زمــان ولكــل مكــان .

لقــد كان القــرآن متمشيا مع كل عصر وكل مكان عندمــا قــال لمخاطبيــه : ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ (ق:٦) ولم يقل (إلى الطائرات فوقــهم) لأن آيــة الســماء فــوق كــل كائن حي مهما كان وفي كل زمان ومكــان .

وكان القرآن عصريا عندما قال ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَــى الإِبِــلِ كَيْــفَ خُلِقَــتْ﴾ (الغاشية:٧) لأن الإبل لا يجهلها أحد في أي عصر ولا في أي مصر . ولم يقــل القــرآن (أفــلا ينظــرون إلى مكــوك الفضاء) لأنه لم يكن موجودا قبل ربع قــرن مــن الآن ولا يعرفــه معظــم ســكان الأرض حــتى الآن .

وحدثنا الله عن آية الجبال ولم يحدثنا عن الإنترنت لأن معظم سكان الأرض حتى في وقتنا هذا لا يعرفون الإنترنت .

وعندما تحدث القرآن عن مسافة السماء لم يقل بمسيرة الضوء أو الفوتونات لأن القرآن عندما نزل لم يكن المخاطبين يعرفون ما هي سرعة الضوء ، بل لا يعرفون الضوء نفسه إلا من الشمس ، ولم يكن في ليلهم ضوء ولم يكن حتى مسجد رسول الله ﷺ يضاء آنذاك ولا حتى بفتيل الزيت ، ولكنه كان بالطبع مضاء بمحمد ﷺ والذين معه .

علماء الإسلام : خاطبوا الناس على قدر عقولهم . وكلموهم باللغة التي نزل بها القرآن . لأن سوي ذلك تكلف .

لقد أتى علمائنا في هذا العصر بأمور لم يقل بها الله ورسوله ، وإنما قال بها التجريبيون وهم جنود إبليس فأتونا بالمجموعة الشمسية والأبعاد الفلكية واللانهائية والنسبية والجاذبية وغيرها .

وهذا ليس آخر المطاف ولا أول الطريق . فعلى مدار تاريخ الإسلام ونزول القرآن جند إبليس جنده ليصد عن سبيل الله بكل وسيلة . ولكل عصر جنود وأتباع ولكل أتباع مفردات ومصطلحات . وقد ظهر الشيعة والخوارج والمرجئة والمعطلة والمجسمة والجبرية وأهل الكلام والفلاسفة والماسونية والشيوعية والاشتراكية والعلمانية التي نعيش دولتها الآن .

ولكل عصر مفرداته ، وقديما أتى (أهل الكلام) بقضية خلق القرآن التي استغرقت وقتا وجهدا ، وأخذاً ورداً ، حتى انتهت واندحرت وجاء غيرها . وفي كل مرة كان العلماء أو الفرقة الناجية تقف لهذه البدع وتدافع عن الدين ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ (الرعد:١٧) .

إلا أن هذا العصر الذي قل فيه العلم وكثر فيه الجهل وانتشرت فيه البدع وصدق في أهله قول رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذي عن ابن عمر رضى الله عنهما " ليأتين على أمتي كما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك . وإن بنى إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة ، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة " قالوا : من هي يا رسول الله ؟

قال : " ما أنا عليه وأصحابي " .

وقال الأوزاعي اصبر نفسك على السنة وقف حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا ، وكف عما كفوا عنه . واسلك سبيل سلفك الصالح . فإنه يسعك ما وسعهم .

وأخرج الترمذي وصححه عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي قال : أتينا العرباض بن سارية وهو ممن نزل فيه ﴿ولا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ (التوبة:٩٢) فسلمنا وقلنا أتيناك زائرين وعائدين ومقتبسين . فقال عرباض : صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح ذات يوم ثم أقبل علينا بوجهه ، فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب . فقال قائل : يا رسول الله ، كأن هذه موعظة مودع . فماذا تعهد إلينا .

فقال : " أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدا حبشيا فإنه من يعيش بعدى فسيرى اختلافا كثيرا . فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى . تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور. فإن كل محدثه بدعة وكل بدعة ضلالة " .

يقول تعالى : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف : ١٠٨) .

* * * * *

سفن الفضاء والأبعاد

لعل البعض يسأل : كيف تكون السماء على مسافة ٧ ملايين كيلو متر بينما سفن الفضاء تقطع في رحلتها للفضاء ملايين الكيلو مترات ، بل إن السفينة الأمريكية (فواجير) أو (الرحالة) قطعت مسافة ٥,٥ بليون كم عام ١٩٨٦؟

نجيب على ذلك بأن نقول أننا لا نثق في كل أرقامهم وكل معلوماتهم التي يعطوها لنا . هذا أولا .

وثانيا : نقول بأن السفن الفضائية لا تسير في خط مستقيم إلى الهدف ، بل تسبح في مسار دائري ، وبذلك قد تدور السفينة حتى تنتهي الحياة ولا تصل إلى هدف طالما هي تدور حول الأرض حتى ولو انتقلت من مدارها . والمعروف أن الاتجاهات تفقد تماما في الفضاء ، ولذلك يستوي لدى رجال الفضاء النوم وقوفا أو جلوسا أو استلقاء .

إن ما وصلنا إليه من معرفة بعد السماء عن الأرض وبعد العرش ، وأنها مسافات لا تقارن بما يقال من أرقام عن أبعاد الفضاء ، فإننا لم نبتدع في الأمر ، بل كان دليلنا الكتاب والسنة وما قال به علماء الأمة . وإنه لمن نافلة القول أن ننبه أننا لا نقيس قدرة الله وعظمته بطول أو قصر المسافات . فلو كان القول كذلك لكان قول التجريبيين هو الأقرب للإيمان لأنهم يقولون بلانهائية الكون . فيكون كذلك الأمر لقدرة الله وعظمته لأنه لا نهاية لهما .

ولكن الأمر لا علاقة له بالإسراف في الأبعاد . نحن فقط نفينا اللانهائية وأثبتنا ما أثبته الله ورسوله . وضبطنا الأمر بمقياس نفهمه نحن اليوم . ولا أقول أن المسافة بالزمن لم تعد مستعمله ، بل هو المقياس المتفق عليه بين كل البشر ، فإن كانت الأمم تختلف في وحدات القياس ، فمن تقيس بالذراع ، وأخرى بالقصبة ، وثالثة بالمتر ، وغيرها بالكيلو ، والميل ، وهناك من يقيس بالفرسخ أو القدم أو الياردة أو المتر أو الدونم أو الهكتار ولكنهم جميعا يتفقون على مقياس مشترك وهو وحدة الزمن ، فيحسبون الأبعاد بالوقت .

* * * * *

الباب الثاني

خلق الكائنات العاقلة

الملائكة - الجن - الإنس

خلق الملائكة

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ..﴾ (فصلت:١١) .

بعد أن خلق الله السموات السبع في المرحلة الثالثة والأخيرة من الخلق أوحى في كل سماء أمرها ، وكان ذلك الأمر في اليوم السادس . وكان هذا الذي أوحاه الله في كل سماء : أهلها .

وهم الملائكة . خلقهم الله تعالى من نور لما رواه مسلم عن النبي ﷺ قال " خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم " .

* وقد خلقهم الله ليكونوا جنوده ، الذين يقومون علي شئون الخلق بأمر الله تعالى وتدبيره .

* وقال بعض علماء التفسير أن أصل خلق هذه الكائنات من الماء الذي قلب نورا فخلق منه الملائكة ، وقلب نارا فخلق منه الجان ، وقلب إلي طين فخلق منه من خلق وما خلق .

وقد خلقهم الله تعالى في صورة جميلة . وخلق لهم أجنحة ، بها يتحركون . لأن حركتهم كما قال تعالى سباحة فقال ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ وهم متفاوتون في القوة والقدرة وعدد الأجنحة . قال تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فاطر:١) وهم لا يوصفون بالذكورة أو الأنوثة كسائر خلق الله .

* تسكن الملائكة في السموات وهم أهلها ولا ينزلون إلى الأرض إلا بالأمر من الله . وهم ينزلون لتدبير شئون الخلق . قال عنهم تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ واتفق العلماء على أنهم الملائكة لأن كل شيء في الكون تقوم عليه ملائكة بتكليف من الله تعالى . وكما حسن الله خَلق الملائكة فقد حسن خُلقها حتى وصفها الله تعالى بقوله ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ وأخبرنا رسول الله ﷺ بأن من خلقهم الحياء .

* والملائكة لا تأكل ولا تشرب ، كما أنهم لا يتعبون ولا يملون .

* أما عددهم فهو مما استأثر به في علم الغيب عنده فقال ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلا هُو﴾ وهم كثيرون حتى أنه لا يوجد في السموات السبع موضع قدم إلا وفيه ملك . وقد أخبرنا أن

البيت المعمور الذي في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألـــف ملـــك لا يعـــودون إليــه آخـــر ما عليهم . كما روى الشيخان وغيرهمــــا .

* وللملائكة أسماء وقد أخبرانا القرآن والسنة عـــن أسمـــاء بعضـــهم . ومـــن الذيـــن ذكـــروا في القرآن : جبريل وهو رئيس الملائكة وأكثرهم ذكرا في القـــرآن وقـــد وصفـــه الله بصفـــات جليلـــة ﴿الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ (الشعراء:١٩٣) ﴿رُوحُ الْقُـــدُسِ﴾ (النحل:١٠٢) ﴿إِنَّـــهُ لَقَـــوْلُ رَسُـــولٍ كَـــرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ(٢٠) مُطَاعٍ ثَـــمَّ أَمِـــينٍ﴾ (التكوير) ﴿ذُو مِـــرَّةٍ فَاسْـــتَوَى﴾ (النجم:٦) وهو له ستمائة جناح ما بين كل جناحين كما بين المشـــرق والمغـــرب .

وجبريل عليه السلام موكل بالوحي . وبعقوبة مـــن يكـــذب بـــالوحي . فـــهو عليـــه الســـلام الذي ائتمنه الله تعالى على الوحي فكان رسول الله تعـــالى إلى الأنبيـــاء . وقـــد كـــانت آخـــر مـــرة ينزل فيها جبريل إلى الأرض عندما نزل ليصلي على رســـول الله ﷺ بعـــد وفاتـــه .

وعندما أعلنت اليهود أنها تكره جبريل وأنه عدوهم أنزل الله تعـــالى : ﴿قُـــلْ مَـــنْ كَـــانَ عَـــدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْـــهِ وَهُـــدًى وَبُشْـــرَى لِلْمُؤْمِنِـــينَ(٩٧) مَـــنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّـــهَ عَـــدُوٌّ لِلْكَـــافِرِينَ(٩٨)﴾ (البقرة) .

ومن الملائكة أيضا ميكال أو ميكائيل : وهـــو مـــن أشـــرف الملائكـــة المقربـــين موكـــل بـــالمطر والنبات . وقد رأى رسول الله ﷺ كلا الملكـــين . رأى جـــبريل مرتـــين علـــى صورتـــه الحقيقـــة : مرة في الأرض يسد ما بين السماء والأرض ومرة في السماء عندمـــا عـــرج إليـــها .

وروى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ سأل جـــبريل : " مـــا لي لم أر ميكـــائيل ضاحكـــا قـــط ؟ فقال : ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النـــار " . ولميكـــائيل ملائكـــة معـــاونون يصرفـــون الريـــاح والسحاب كما يشاء الله ويـــأمر .

ومن الملائكة المصرح بأسمائهم في القرآن " مالك " خازن النـــار قـــال عنـــه تعـــالى : ﴿وَنَـــادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ(٧٧) لَقَـــدْ جِئْنَـــاكُمْ بِـــالْحَقِّ وَلَكِـــنَّ أَكْـــثَرَكُمْ لِلْحَـــقِّ كَارِهُونَ(٧٨)﴾ (الزخرف) ومعه معاونون أيضا ﴿وَقَـــالَ الَّذِيـــنَ فِـــي النَّـــارِ لِخَزَنَـــةِ جَـــهَنَّمَ ادْعُـــوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾(غافر) ووصفـــهم الله تعـــالى بقولـــه : ﴿عَلَيْـــهَا مَلائِكَـــةٌ غِـــلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُـــونَ مَـــا يُؤْمَـــرُونَ﴾ (التحريم:٦) وذكـــر تعـــالى عددهـــم فقال ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ(٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّـــارِ إِلا مَلائِكَـــةً﴾(المدثر) .

ومنهم أيضا (هاروت وماروت) قال عنهما تعالى ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ (البقرة:١٠٢) .

هؤلاء هم الملائكة الذين ورد ذكرهم في القرآن بالاسم . وباقي أسماءهم أخبرنا بها رسول الله ﷺ :

منهم إسرافيل الذي ينفخ في الصور . ومنهم رضوان خازن الجنة . ومنكر ونكير الموكلان بسؤال القبر . وقيل أن ملك الموت يسمى عزرائيل .

وملك الموت معه أيضا معاونون يأتون الإنسان المراد قبض روحه على حسب عمله . قال تعالى عن ملك الموت ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (السجدة:١١) وعن أعوانه قال ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (الأنعام) .

وروى ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد قال : سمعت أبي يقول : نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار . فقال له النبي ﷺ : " يا ملك الموت ارفق بصاحبي فانه مؤمن " فقال ملك الموت : يا محمد طب نفسا وقرعينا فإني بكل مؤمن رفيق . واعلم أن ما في الأرض بيت مدر (بيت من طين) ولا شعر في بر ولا بحر إلا وأنا أتفحصهم في كل يوم خمس مرات حتى إني أعرف بصغيرهم وكبيرهم بأنفسهم والله يا محمد لو أني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها " .

وقد أعطى الله الملائكة القدرة على التشكيل بغير أشكالهم . وقد كان رسول الله يأتيه جبريل في صورة رجل شبيه بالصحابي " خليفة بن دحية الكلبي " . وأتى جبريل إلى مريم في صورة بشر ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (مريم:١٧) وجاءت لإبراهيم ملائكة في صورة بشر . وكذلك ذهبوا إلى لوط .

والملائكة منظمون تماما في عبادتهم وفي كل شئونهم . وقد قال ﷺ لأصحابه يوما وهو يسويهم " إلا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟ " قالوا : وكيف يصفون عند ربهم ؟ قال " يكملون الصف الأول فالأول يتراصون في الصف " رواه الجماعة إلا البخاري .

وأخبر ﷺ ما امتازت به أمته عن الأمم " جعلت صفوفا كصفوف الملائكة " رواه مسلم . ويقول تعالى عن إتيان الملائكة يوم القيامة ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا

صَفًّا﴾ (الفجر:٢٢) وعن وقوفهم يوم القيامة ﴿يومَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النبأ :٣٨) . وقد دلت أحاديث المعراج أن الملائكة لا تفتح لأي أحد إلا إن كان قد أذن له في الدخول .

وظيفة الملائكة :

يخبرنا القرآن الكريم وأحاديث الرسول أن الملائكة لها مع الله شأن وهو العبادة . ومع خلق الله شأن وهو التدبير .

أما عبادتها : فإنهم يسبحون ، ويصلون ، ويحجون ، ويطيعون الله ولا يعصونه ، ويخشونه تعالى .

تسبيحهم : فالملائكة عملهم الدائب وشغلهم الشاغل وروح حياتهم التسبيح يحملون العرش يسبحون ، ويطوفون حول العرش يسبحون ، يفعلون أي شيء يسبحون وكما قال تعالى : ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ (الأنبياء:٢٠) ويقول ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ (غافر:٧) .

وروى أن أربعة منهم يقولون : (سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك) وأربعة يقولون : (سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك) . وفي سورة الصافات يقول تعالى ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ وفي سورة الشورى يقول ﴿تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ .

روى مسلم في صحيحه ، عن أبي ذر قال : سئل رسول الله ﷺ:
أي الذكر أفضل ؟ قال : " ما اصطفي الله لملائكته أو لعباده : سبحان الله وبحمده " .

صلاتهم : روى الطبراني عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ :

" ما في السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا فيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راكع . فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعا : ما عبدناك حق عبادتك " .

وروى الطبراني أيضا عن حكيم ابن حزام قال : بينما رسول الله ﷺ في أصحابه إذ قال لهم : أتسمعون ما أسمع ؟ قالوا : ما نسمع من شيء قال " إني لأسمع أطيط السماء ، وما تلام أن تئط وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم " .

حجهم: يحج الملائكة إلى كعبتهم التي في السماء السابعة واسمها " البيت المعمور" الذي أقسم به تعالى في سورة الطور ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ .

وقد روى البخاري ومسلم وغيرهما من حديث المعراج قول رسول الله ﷺ " ثم رفع بي إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم " .

خشيتهم من الله تعالى: يقول تعالى عنهم : ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء:٢٨) .

وروى عن رسول الله ﷺ : " إن لله ملائكة حول العرش تجرى أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة . تميد كأنما تنفضهم الريح من خشية الله تعالى ، فيقول لهم رب العزة كما في الحديث القدسي : " { ياملائكتي ، ما الذي يخيفكم وأنتم عندي ؟ } فيقولون : يا رب لو أن أهل الأرض اطلعوا من عزتك وعظمتك على ما اطلعنا عليه ، ما أساغوا طعاما ولا شرابا ، ولا انبسطوا في فرشهم ، ولخرجوا إلى الصحاري ، يخورون كما تخور البقر " .

وقال محمد بن المنكدر : لما خلقت النار طارت أفئدة الملائكة من أماكنها فلما خلق آدم عادت .

وحدث ابن وهب قال : حدثنا ابن زيد قال : لما خلق الله النار ذعرت منها الملائكة ذعراً شديدا وقالوا : ربنا لم خلقت هذه النار ؟ ولأي شيء خلقتها ؟ قال : { لمن عصاني من خلقي } ولم يكن لله يومئذ خلق إلا الملائكة ، والأرض ليس فيها خلق إنما خلق آدم بعد ذلك . . وقرأ قوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُوراً﴾ قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ليت ذلك الحين . ثم قال : " وقالت الملائكة : ويأتي علينا دهر نعصيك فيه ؟ لا يرون له خلقا غيرهم قال لا { إني أريد أن أخلق في الأرض خلقا وأجعل فيها خليفة } " .

وروي عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ " إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة ، أو قال رعدة شديدة ، خوفا من الله عز وجل ، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدا ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام فيكلمه الله تعالى من وحيه بما أراد " رواه ابن أبي حاتم وابن خزيمة والطبراني وابن جرير .

وفي الطبراني عن جابر أن رسول الله ﷺ قال " مررت ليلة أسري بي بالملأ الأعلى وجبريل كالحلس البالي من خشية الله تعالى " والحلس كساء يبسط في أرض البيت .

هذه عبادتهم أما عملهم : فقد أخبرنا الله تعالى في القرآن أن لهم أعمالا متعلقة بخلقه ، فهم جنوده . يقول ابن عباس " وكلهم الله بأمور عرفهم العمل بها والوقوف عليها . بعضهم لبني آدم يحفظون ويكتبون . وبعضهم بالأمطار والنبات ، والخسف والمسخ والرياح والسحاب " .

وقد وكل تعالى بالرحم ملكا ، وبالجبال ملكا ، وبالبحار ملكا ، كما وكل تعالى للجنة ملائكة موكلون بعمارتها وعمل آلاتها وأدواتها وأوانيها وغراسها وفراشها ونمارقها وأرائكها . . .

وللنار ملائكة موكلة بعمل ما فيها ، وإيقادها ، ولأغلالها وسلاسلها . وللأفلاك ملائكة تحركها وتديرها ، وللشمس والقمر والكواكب وسائر ما في السماء . وبالرياح ملائكة تصرفها وبالسحاب ملائكة تسوقه إلي حيث أمرت به : ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال " بينما رجل بفلاة من الأرض إذ سمع صوتا في سحابة يقول : اسق حديقة فلان . فتتبع السحابة حتى انتهت إلي حديقة فأفرغت ماءها فيها . فنظر فإذا رجل في الحديقة يحول الماء بمسحاة . فقال له : ما اسمك يا عبد الله ؟ فقال فلان . الاسم الذي سمعه في السحابة . فقال : إني سمعت صوتا في هذه السحابة الذي هذا ماؤها يقول اسق حديقة فلان . فما الذي تصنع في هذه الحديقة ؟ قال إني أنظر ما يخرج منها فاجعله ثلاثة أثلاث : ثلث أتصدق به وثلث أنفقه علي عيالي وثلث أرده فيها " .

كما وكل الله تعالى ملائكة يصلون على معلمي الناس الخير . وملائكة يبلغون رسول الله ﷺ من صلى عليه من أمته . وملائكة يقفون على أبواب المساجد قبل الجمعة يكتبون الأول فالأول ، حتى إذا صعد الخطيب على المنبر طووا صحفهم ، وجلسوا يستمعون الذكر . وملائكة يؤمنون على من يدعون لإخوانهم بالغيب ويقولون: آمين ولك مثله . وملائكة تبتلي بنى آدم كما ورد في حديث الأبرص والأقرع والأعمى الذي رواه البخاري ومسلم .

وملائكة يقاتلون مع المؤمنين كما فعلوا في معركة بدر وقد كانوا من أفضل الملائكة وفضلهم في غيرهم كفضل من شهد بدرا من الصحابة على غيرهم .

وكما قاتلوا أيضا في غزوة الخندق . وثبت في الصحاح أن جبريل جاء رسول الله ﷺ بعد رجوع الأحزاب وعلى ثنايا جبريل النقع (الغبار) وكان رسول الله يغتسل فقال

لرسول الله ﷺ : " أوضعتم سلاحكم ، فإنا لم تضع سلاحنا بعد . فقال : إلى أين ؟ فأشار إلى بني قريظة " .

وهناك ملائكة موكلة بحفظ المدينة ومكة من الدجال . وملائكة باسطوا أجنحتهم على الشام .

وهناك ملائكة يلعنون المرأة التي لا تستجيب لزوجها ، كما في الحديث الذي رواه البخاري عن رسول الله ﷺ " إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح " .

وتلعن من أشار إلى أخيه بحديدة وإن كان أخاه لأبيه وأمه . كما في حديث مسلم . وملائكة تلعن من يسب أصحاب رسول الله ﷺ . ومن يحولون دون تنفيذ شرع الله . ومن يؤوي محدثا .

وروى البخاري " ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا . ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا " .

وعنه ﷺ قال " ما من يوم طلعت فيه الشمس إلا وبجنبتيها ملكان يناديان يسمعهما خلق الله كلهم إلا الثقلين : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ، إن ما قل وكفى ، خير مما كثر وألهى ، ولا غربت شمسه إلا وبجنبتيها ملكان يناديان " .

وروى في الصحاح عن رسول الله ﷺ أنه قال : " إن لله ملائكة سيارة فضلاء يتبعون مجالس الذكر فإذا وجدوا مجلسا فيه ذكر قعدوا معهم وحف بعضهم بعضا بأجنحتهم حتى يملئوا ما بين السماء والأرض فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء . فيسألهم الله عز وجل وهو أعلم بهم : من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عباد الله في الأرض يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك . قال : وماذا يسألوني ؟ قالوا : يسألونك جنتك . قال : وهل رأوها ؟ قالوا : لا يا رب . قال : كيف لو رأوها ؟ قالوا : ويستجيرونك . قال : ومما يستجيروني ؟ . قالوا : من نارك يا رب فيقول : قد غفرت لهم فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا . قال ، يقولون : رب ، فيهم فلان خطاء إنما مر فجلس معهم . فيقول : وله غفرت هم القوم لا يشقى بهم جليسهم " اللفظ لمسلم .

هذا ما تقوم به الملائكة في الأرض ومع أهلها مما كلفهم به الله وأمثال ذلك كثير وإنما اقتصرنا على بعض أعمالهم . وهذه وإن كانت أعمال عامة لكل الناس فإن لكل واحد منا عدد من الملائكة ملزمون به .

رحلة الملائكة معك :

رحلة طويلة ، يصحبك فيها كوكبة من الملائكة الكرام . تبدأ من وجودك في بطن أمك مضغة ، ثم تدوم ما دامت السموات والأرض .

وهذه الرحلة دليل – للمؤمنين فقط – بأن الكون قائم على المبدأ الإنساني القوى . هذا المبدأ الذي يتبناه المؤمنون ويعارضه التجريبيون ، ينص عليه القرآن صراحة فيقول : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء:٧٠) ويقول تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ (الجاثية:١٣) ومع ذلك وجد من المسلمين من أنكر هذا المبدأ ورفض هذه النعمة واستعلى على أن يقبل التكريم من رب العالمين .

وعن هذا المبدأ يقول الدكتور مصطفى إبراهيم فهمي : " هناك من يرى أن كوكبنا الأرض هو في أغلب الاحتمال الكوكب الوحيد الذي ظهرت فيه الحياة ، وبالتالي فإن الإنسان هو محور الكون . والكون بكل تاريخه وبنيته وخواصه إنما يمهد لأن تظهر عليه الحياة البشرية الواعية . وهذا المبدأ يستبعد وجود أي حياة على الكواكب الأخرى بدليل أنه بعد مرور ما يزيد على عشرة بلايين سنة من عمر الكون لم يتوصل أحد بعد لأي برهان يثبت وجود حياة على كوكب آخر . وهذا ما يسمى بالمبدأ " الإنساني القوى " ويعترض علماء كثيرون على المبدأ الإنساني القوى ، لأنه يجرى مضاد لاتجاه مسار العلم الحديث .

لقد كانت النظريات القديمة لأرسطو وبطليموس ترى أن الأرض ليست هي مركز الكون بإنسانها الذي فيها . ولكن كوبرنيقوس وجاليليو أثبتا أن الأرض ليست هي المركز ، وإنما هي تدور حول مركز آخر هو الشمس ثم انتهت الأبحاث إلى أن الأرض مجرد كوكب متوسط الحجم يدور حول نجم متوسط هو الشمس وذلك على الأطراف من مجرة عادية تسمى درب التبانة . هذه المجرة ليست سوى مجرة واحدة بين ما يقرب من مليون المليون من المجرات فيما يمكن رصده من الكون . فكيف يزعم أي مبدأ أن هذا البناء كله إنما يوجد من أجلنا نحن في كوكبنا المتروي هذا ؟ " .

ثم يضيف الدكتور " أن هذا زعم فيه عجرفة وسخف يذكران بالفلسفات القديمة التي كانت تصمم على أن الإنسان والأرض هما المحور والمركز ، وأن النجوم مجرد ثقوب صغيرة وضعت في السماء ليبتهج الإنسان بمرآها " .

ولكي نقف على وجهة النظر الأخرى نذكر ما قاله " سيد قطب " في ظلال القرآن تفسيرا لقوله تعالى من سورة البقرة ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة:٢٩) يقول : " إن كلمة ﴿لَكُم﴾ هنا ذات مدلول عميق ، وذات إيحاء عميق ، إنها قاطعة في أن الله خلق هذا الإنسان لأمر عظيم ، خلق ليكون مستخلفا في الأرض مالكا لما فيها . فاعلا مؤثرا فيها إنه الكائن الأعلى في هذا الملك العريض والسيد الأول في هذا الميراث الواسع ، ودوره في الأرض إذاً وفي أحداثها وتطوراتها هو الدور الأول إنه سيد الأرض وسيد الآلة .

إنه ليس عبداً للآلة كما في العالم المادي اليوم .

والنعمة التي يمتن الله بها على الناس هنا - وهو يستكر كفرهم به - ليست مجرد الإنعام عليهم بما في الأرض جميعا . ولكنها - إلى ذلك - سيادتهم على ما في الأرض جميعا . ومنحهم قيمة أعلى من قيم الماديات التي تحويها الأرض جميعا هي نعمة الاستخلاف والتكريم فوق نعمة الملك والانتفاع العظيم " .

إنه لأمر خطير أن يدخل بعض الناس الدنيا ، ويخرج منها ، ولم يعرف دوره وقيمته . رغم كل آيات الله المكتوبة والمكنونة لوضعه على الطريق .

يقول أمية ابن أبي الصلت :

لم تخلق السماء والنجوم … والشمس معها قمر يقوم
قدرها المهين القيوم … والحشر والجنة والحميم
إلا لأمر شأنه عظيم

ليت بنو آدم يدركون قيمتهم عند الله . تلك القيمة التي بلغت إلى الحد الذي بلغ أن الله عز وجل لم يجعل خطا فاصلا بين عبادة الملائكة له عز وجل وبين دعائهم الدائم لبني آدم . ولعل هذا الأمر هو الذي يوضح لنا كيف سخر لنا الله ما في السموات . إننا نفهم أن كل ما في الأرض مسخر لنا فهذا ما نراه بالفعل . ولكن كيف سخر لنا الله ما في السموات كما أخبرنا في قرآنه ؟

يقول تعالى عن حملة العرش ومن حوله في سورة غافر - ولنتأمل كيف سخرت لنا أرفع الملائكة مكانا ومكانة - ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ

بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُم وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

ويقول تعالى عن باقي ملائكته في السموات ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الشورى:٥) . ولا نعلم من الملائكة أعلى قدرا من جبريل عليه السلام وقد كانت وظيفته تبليغ الوحي لبنى آدم . فكان يقطع المسافة بين السموات والأرض نزولاً وصعوداً على مدار تاريخ البشر من آدم عليه السلام حتى محمد ﷺ . فما بالنا بمن دون جبريل من الملائكة .

أيها الإنسان كم كرمت ، وفضلت وميزت عن كثير من المخلوقات . وكم فعل الله تعالى من أجلك . وأنت لا تعرف قيمتك ولا نعمة ربك عليك .

ثلة من الملائكة كلفها الله تعالى بك وأمرها أن تقوم عليك تبدأ معك من بطن أمك .

اللقاء الأول : روى الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : " إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك . ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح . ويؤمر بأربع كلمات يكتب : رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد " .

هذا هو اللقاء الأول بالملائكة ملك يأتيك وينفخ فيك الروح ويكتب لك شهادة ميلادك الحقيقية لا شهادة السجل المدني التي تحتوى على بيانات لا تنفع في الآخرة في شيء . فيدون أربع بيانات : (رزقك : كم يكون وكيف . وأجلك : متى تموت وأين . وعملك : خير هو أم شر . ثم مصيرك : شقي أنت أم سعيد) .

اللقاء الثاني : أما لقاءك الثاني مع الملائكة فعندما يكتمل مدة حملك في بطن أمك ٩ أشهر ويبدأ موعد خروجك إلى الدنيا . فيرسل الله إليك ملكا ليخرجك ، وهو الملك الموكل بالأرحام يقول تعالى في هذا الحديث القدسي : { يا ابن آدم : جعلت لك قرارا مكينا في بطن أمك . وغطيت وجهك بغشاء رقيق حتى لا تتأذى برائحة الطعام . وحولت وجهك في ظهر أمك حتى لا يؤذيك التنفس . وجعلت لك متكأين ، متكأ عن يمينك ، ومتكأ عن شمالك . أما الذي عن يمينك فالكبد وأما الذي عن شمالك فالطحال وعلمتك القيام والقعود وأنت في بطن أمك . أفيقدر على هذا أحد غيري ؟

ولما حان موعد وضعك أرسلت إلى الملك الموكل بالأرحام ليخرجك . فأخرجك على ريشة من جناحه . وأنت ليس لك منا تقطع بها ولا يدا تفتح بها ولا رجلا تمشي عليها . وجعلت لك عرقان رقيقان في صور أمك يخرجان لك لبنا سائغا حار في الشتاء ، بارد في الصيف . وجعلت الحنان في قلب أبويك ، فلا يأكلان حتى تأكل ولا يشربان حتى تشرب . أفيقدر على هذا أحد غيري ؟

ولما قوى عودك . واشتد ظهرك بارزتني بالمعاصي في الخلوة ومع الجماعة ولم تستح مني . ومع ذلك إن سألتني أعطيتك . وإن دعوتني أجبتك . وإن استغفرتني غفرت لك . يا ابن آدم : من أكثر مني جودا وكرما . وأنا الجواد الكريم ؟ } .

اللقاء الثالث : عندما تخرج إلى الدنيا يستقبلك ملكان يحفظان جسدك ويؤمّنان حياتك حتى يأتي أمر الله فيخليا بينه وبينك . يقول تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ (الطارق) . ويقول ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾ (الأنعام:٦١) . إنها حراسة خاصة لكل إنسان على حده ، لا يفارقانه من ميلاده إلا عند موته . وينتهي دورهما . يقول تعالى ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد) .

وروى أبن المنذر وأبو الشيخ عن على رضى الله عنه في هذه الآية : ليس من عبد إلا ومعه ملائكة يحفظونه من أن يقع عليه حائط أو يتردي في بئر ، أو يأكله سبع أو غرق أو حرق . فإذا جاء القدر خلوا بينه وبين القدر .

اللقاء الرابع : يتم هذا اللقاء عندما تبلغ الرشد والحلم . فيرسل الله إليك ملكين يحفظان لك أعمالك وأقوالك جميعا يقول تعالى ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (الانفطار) . ويقول تعالى ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق) .

قال ابن عباس في قوله ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى إنه ليكتب قولة : أكلت ، شربت ، ذهبت ، جئت ، رأيت ، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فاقر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقى سائره . وذلك قوله تعالى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد:٣٩) . وقال الحسن

البصري في هذه الآية : " يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان . أحدهما عن يمينك ، والآخر عن يسارك ، فأما الذي عن يمينك فيحفظ الحسنات . وأما الذي عن يسارك فيحفظ السيئات . فاعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت في عنقك معك في قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول تعالى ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (الإسراء) ثم يقول الحسن : عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك " .

وروى الطبراني في معجمه الكبير عن أبي أمامه أن رسول الله ﷺ قال " إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطئ ، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها ، وإلا كتبت واحدة " .

اللقاء الخامس : مع ملك من الملائكة جعله الله لك قرينا يلهمك الخير ويحثك عليه ، وهو مقابل للقرين من الجن الذي يحث على الشر والمعصية ومخالفة الرحمن واتباع الشيطان . روى مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : " ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرنيه من الجن وقرينه من الملائكة " . وهذا تبيان لقوله تعالى ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد:١٠) ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس) .

اللقاء السادس : يروى البخاري عن أبي هريرة لقاءك السادس مع الملائكة الكرام . قال : قال رسول الله ﷺ " الملائكة يتعاقبون ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر . ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم فيقول : كيف تركتم عبادي فيقولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون " . وهذان الملكان المتعاقبان غير الحفظة والكتبة فهم موكلون لرفع تقرير عام يومي عنك إلى الله تعالى .

هذا ويعرف الملائكة في السموات حالك مع باقي بني آدم ، وذلك من بعضهم البعض ويذكرون بني آدم بالاسم . فقد روى عن رسول الله ﷺ : أن ملائكة الله يعرفون بني آدم ويعرفون أعمالهم . فإذا نظروا إلى عبد يعمل بطاعة الله ذكروه بينهم وسموه وقالوا : أفلح الليلة فلان . نجا الليلة فلان . وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله ذكروه بينهم وسموه وقالوا : هلك فلان الليلة " .

كما أنهم وهم في السموات يتحاورون في شئون بنى آدم التي تنفعهم وترفع درجاتهم عند الله . في سنن الترمذي ومسند أحمد عن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ قال : " أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة (أتاه في المنام) . فقال { يا محمد هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ } قلت : لا . فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي ، فعلمت ما في السموات وما في الأرض . فقال { يا محمد هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ } قلت : نعم . في الكفارات والدرجات . والكفارات : المكث في المساجد بعد الصلوات . والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإسباغ الوضوء على المكاره . قال {صدقت يا محمد ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه وقال : يا محمد . إذا صليت فقل : اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وان تغفر لي وترحمني . وتتوب علىّ . وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون } . والدرجات : إفشاء السلام ، وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام " .

اللقاء السابع : أما لقاءك الأخير في الدنيا مع الملائكة فيكون عند قبض روحك فكما أن الذي نفخ فيك هذه الروح ملك . فإن الذي يقبضها أيضا ملك . ستلتقي بملك الموت . الذي يأتيك ومعه أعوان ومساعدون : ﴿حتى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾ (الأنعام:٦١) . وسترى الملائكة حسب عملك . حيث يختلف النزع لروح المؤمن عن روح الكافر من حيث شكل الملائكة وأسلوب النزع والتعامل مع المحتضر . يقول تعالى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الأنعام:٩٣) .
ويقول ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (الأنفال:٥٠) .

وأحاديث رسول الله ﷺ تبين بتفصيل أكثر ، طريقة نزع الروح وأسلوب التعامل مع صاحبها .

أما المؤمنين فلهم شأن آخر ، وأسلوب مغاير . هو في غاية الرقة والتلطف والبشر يقول تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢)﴾ (فصلت) .

وعندما تنزل في قبرك لا تكون في مثواك الأخير كما يقولون ، بل هي مرحلة بين الدنيا والآخرة . تسمى بحياة البرزخ . فعندما تنزل قبرك ويتركك المشيعون ، أهلك وجيرانك وأحبابك ، وتبقى وحدك في بيت الغربة ، بيت الوحدة ، بيت الوحشة بيت الظلمة ، بيت الدود . تسمع من ينادى عليك : { عبدي رجعوا وتركوك . وفي التراب دفنوك . ولو ظلوا معك ما نفعوك ولن ينفعك إلا أنا . وأنا الحي الذي لا يموت } . وهنا تلتقي بالملائكة ، ولكن في لقاء فريد ، فتراهم بعد أن كنت لا تراهم .

يروى هذا اللقاء الصحابي الجليل البراء ابن عازب عن رسول الله ﷺ ، أن المؤمن إذا نزل في قبره " فيأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن . فذلك حين يقول الله عز وجل ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ فيقول : ربي الله ، ديني الإسلام ، ونبيي محمد ﷺ . وينادي مناد من السماء : أن صدق عبدي " .

أما العبد الكافر أو الفاجر" ويأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه لا أدرى . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه لا أدري . فيقولان : فما تقول في الرجل الذي بعث فيكم ؟ فلا يهتدي لاسمه . فيقال : محمد . فيقول : هاه .. هاه لا أدرى ، سمعت الناس يقولون ذلك . فيقولان : لا دريت ولا تليت . فينادي مناد أن كذب عبدي " رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

أما يوم القيامة فإنه يكون اللقاء الأكبر بين الإنسان والملائكة لأن يوم القيامة من أسمائه ﴿يَوْمَ التَّلاقِ﴾ . حيث يلتقي سكان الأرض بسكان السماء ويلتقي الأولون بالآخرين ، ويلتقي الخالق بالخلق . يقول تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (ق) فالسائق والشهيد من الملائكة . أما السائق فسيكون دليلا لك لمكان الحساب وللموقف الذي ستقف فيه ، وأما الشهيد فإنه سيقدم تقريرا موجزا عن حالتك التي عرفها عنك . ويبدو أن هذا الشهيد هو نفسه القرين الذي التقى بك في اللقاء الرابع . يقول تعالى ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ . أما قرينه الآخر ، فهو قرين الجن ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ .

وسيأتي رب العزة في ظلل من الملائكة والغمام ، وستصف الملائكة حول الخلائق . وسيقومون بالإشراف على حسابهم من رب العالمين . ثم وبعد الحساب فإنهم يسوقون المؤمنين إلى الجنة مهنئين ومسلمين ، ومرحبين ، ومبشرين . ويسوقون الكافرين إلي جهنم وبئس المصير فيلقونهم في النار إلقاءً ويدعونهم دعاً ، ويأخذونهم بالنواصي والأقدام ، في مشهد صعب ومهين .

حتى إذا ما أدرك بعضهم بعضا وألقوا في جهنم داخرين تلقتهم زبانية جهنم من الملائكة يبكتونهم ويقرعونهم ، ويوبخونهم ، يقولون ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ (الزمر:٧١) .

أما المؤمنون فلهم شأن آخر :

﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (الأنبياء:١٠٣) .

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد) .

وهكذا تنتهي بك الرحلة في إحدى الدارين . ليكون تلاق ليس بعده فراق .

وقد كان لبني آدم مع الملائكة مواقف متباينة ، فبينما أنكر وجودهم البعض عبدهم آخرون . وادعى آخرون أنهم بنات الله وأنهم إناثا .

وعقيدة الإسلام في الملائكة : أن نؤمن بهم وبأنهم عبيد لله ، وجنوده ، ورسله إلى الناس ، وأنهم بالوصف والكيفية التي وصفت لنا من الله تعالى أو من رسوله ﷺ . وأنهم سيموتون يوم القيامة كما تموت كل الخلائق . ويعود الأمر كما كان أولا قبل بدء الخلق . " كان الله ولا شيء معه ، ولا غيره ، ولا قبله " ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ .

الجن والشياطين

خلق من خلق الله . يسكنون الأرض معنا . ولكنهم يستطيعون صعود السماء .

ورغم انهم يملئون البر والبحر فإننا لا نراهم . وليسو ملائكة . ورغم أن لهم قدرات أكثر من الإنس ، إلا أن الإنس أعلى منهم مرتبة . وسموا جنا لاجتنانهم أي استتارهم عن العيون ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (الأعراف:٢٧) . يخبرنا تعالى عن خلقهم بقوله : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ (الحجر) . فهذه الآية الأخيرة تنص علي أصل خلقهم ووقته .

أما أصلهم : فكما تخبر الآية ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ والسموم : الريح الحادة النافذة في المسام . ويقول تعالى : ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ (الرحمن:١٥) . قال ابن عباس : أي من طرف اللهب . وقال النووي : المارج : اللهب المختلط بسواد النار .

أما وقت خلقهم: فالآية توضح الهم خلقوا قبل الإنس لقوله ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ .

والجن أصناف كما اخبر ﷺ فيما رواه عنه الحاكم والطبراني والبيهقي بإسناد صحيح " الجن ثلاثة أصناف : فصنف يطير في الهواء ، وصنف حيات وكلاب ، وصنف يحلون ويظعنون " . أي يقيمون ويرتحلون .

والجن من سكان الأرض وإن كانوا يفضلون الأماكن الخالية من الإنس كالصحراوات ، ومنهم من يسكن في جزائر البحور ، ومنهم من يسكن في المزابل والخرابات ومنهم من يسكن مع الإنس . وروى ابن حجر عن ابن أبي الدنيا ، وأبو بكر ابن عبيد في مكايد الشيطان كلاهما عن يزيد بن يزيد " ما من أهل بيت من المسلمين إلا وفي سقف بيتهم من الجن من المسلمين إذا وضع غداؤهم نزلوا فتغدوا معهم ، وإذا وضع عشاؤهم نزلوا فتعشوا معهم يدفع الله بهم عنهم " .

وروى ابن ماجة والنسائي وأبو داود والإمام أحمد عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال : " إن هذه الحشوش محتضرة فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل : اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث " . ومحتضرة : حاضرة . كذلك يسكن الجن الشقوق والجحور ، وقد روى النسائي عن النبي ﷺ " لا يبولن أحدكم في جحر " .

أما طعامهم: فقد وردت عدت أحاديث صحيحة تبين أنهم يأكلون ويشربون . وروى مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : " إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب أحدكم فليشرب بيمينه فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله " . وقال وهب بن منبه : ليس كل الجن يأكلون فمنهم صنف من الريح لا يأكلون ولا يشربون .

قدراتهم: يقول تعالى : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ . وتروى الأحاديث الصحيحة أنهم يتشكلون ويتصورون بأشكال الإنس أو الحيوانات . وروى ابن حبان والطبراني وصححه الألباني ان رسول الله ﷺ قال : " الحيات مسخ الجن كما مسخت القردة والخنازير من بني إسرائيل " . وقال ابن تيمية : الكلب الأسود شيطان الكلاب والجن

تتصور بصورته كثيراً وكذلك بصورة القط الأسود لأن السواد أجمع للقوى الشيطانية من غيره وفيه قوة حرارة " أ . هـ .

وروى البخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ كان إذا دخل الخلاء قال : " اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث " .

عقائدهم ودياناتهم: والجن في هذا الأمر كالإنس أديان ، وملل ، ومذاهب ، وهم مكلفون بالتكاليف الشرعية المكلف بها الإنس . يقول تعالى : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ (الأنعام:١٣٠) وان كانت النبوة والرسالة تكون من الإنس ، وليس من الجن رسل ، ولكن منهم منذرين . ونظرا لتكليفهم كالإنس فإن منهم المسلم والنصراني واليهودي وغيرهم ، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر، ومنهم الطائع ومنهم العاصي ، والتقي والفاجر . وقد اخبرنا تعالى بذلك عنهم إذ قالوا ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ (الجن:١١) . كما أن الغاية من خلقهم هي العبادة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن وهب بن منبه أنه سئل عن الجن هل يأكلون ويشربون ويموتون ويتناكحون ويتناسلون ؟ فقال : " هم أجناس : فأما خالص الجن فهم ريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون ، ومنهم أجناس يأكلون ويشربون ويموتون ويتناكحون " .

ولأن الإنس أكرم من الجن وأرفع درجة وأعلى مقاماً فإنهم يحسدونهم وأيضا يخافون منهم . وهم يعرفون مكانة بنى آدم في الكون ربما اكثر من بنى آدم أنفسهم .

قال ابن القيم : " العين عينان : عين إنسية وعين جنية " . وقد روى البخاري ومسلم عن أم سلمة رضى الله عنها أن النبي ﷺ رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة فقال : " استرقوا لها فإن بها نظرة " والسفعة : نظرة . يعنى من الجن .

الاستعانة بالجن :

نظراً لقدرات الجن التي لا يمتلكها الإنس كالطيران والصعود إلى السماء وسماعهم ما لا يسمعه الإنس من حديث الملائكة ، وإمكانية رؤية الإنس مع عدم رؤية الإنس لهم ، فقد تم تعاون بين بعض الإنس والجن ، وهو تعاون محرم ﴿وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ونتج عن هذا التعاون ما نسميه (الكهانة) و(السحر) ، ففي كلاهما يستعين الإنسي بالجني في استخدام القدرات التي ذكرناها وذلك في إضلال إخوانه من الإنس وغشهم

وخداعهم . وفي مقابل ذلك يتسود الجني على الإنسي – والأصل العكس – فيقوم الإنسي بطاعة الجني ، وتلبية أوامره ، وجعل الناس الذين كرمهم الله وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلا ، يتذللون لهم وينادونهم بالأسياد ، وإظهار الجني بمظهر الأكرم والأرفع وربما يصل الأمر إلى العبادة . حيث يطلب الإنسي منهم العفو والصفح ، فضلا عن شفاء الأمراض ، ومعرفة الغيوب ، والكشف عن المخبوء . ويستعذب الجني ذلك فيطلب ما لا يؤتى إلا بمشقة وكلفة . ويلبي الإنسي ما يطلبون حتى لو طلبوا " لبن العصفور" كما يقولون . وقد يغالي الجني في التدلل والتأله ويطلب من الإنسي أعمالا كفرية صريحة ، ولا يتورع الإنسي عن فعلها .

وأصل الكهانة كما عرفنا أن الشياطين يصعدون في السماء ليتسمعوا الأخبار ، ثم يلقونها على الكهان ومعها مائة كذبة . ورغم انه قد حيل بينهم وبين خبر السماء لتشديد الحراسة في السماء بعد بعثة النبي ﷺ إلا أن الكهانة مازالت موجودة بين الناس حيث توارثوها جيلا بعد جيل . ورغم أن الجن فقدوا هذه القدرة بمنعهم من مصدر المعلومات إلا أنهم مازالوا يضحكون على كثير من الإنس ، بأنهم مازالوا على عهدهم وسلطانهم ، وأنهم يعلمون الغيب .

وكذلك السحر فهو تعاون بين جنى مارد وبين إنسي كافر ، يقوم فيه الجني بأعمال شيطانية مستعينا بعدد غفير من بنى جنسه من الجن المغلوب على أمره فيأتون بأعمال على يد الإنسي فيخفون أشياء ويظهرون أخرى ، ويرفعون أشخاصاً في الهواء ، وما شابه ذلك ، كذلك يقومون بأعمال فيها خداع لأعين الناس ، أو أن يقوموا بعمل ما يسمى " التنويم المغناطيسي " والذي يتلبس فيه الجني الإنسي ثم يسأله إنسي وسيط عن أمور ينطق بها الجني على لسان الإنسي المنوم ، كبيانات لبطاقات الهوية أو أشياء خاصة لأحد الجالسين معهم ، والجني بالطبع يرى ما لا نراه .... وهكذا .

وقد حرم الإسلام كل هذه الأمور تحريماً بلغ بها حداً أن أعتبرها من الكبائر . يقول تعالى : ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (الجن:٦) . ويقول تعالى ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ

وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:١٠٢) . وآيات سورة الجن تتحدث عن الاستعاذة وآيات سورة البقرة تتحدث عن الاستعانة ، وكلاهما محرم في الإسلام .

روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : " كانت الجن يفرقون – أي يخافون – من الإنس كما يفرق الإنس منهم أو أشد ، فكان الإنس إذا نزلوا واديا هرب الجن . فيول سيد القوم نعوذ بسيد أهل هذا الوادي – يعني من الجن – فقال الجن : نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم ، فدنوا من الأنس فأصابوهم بالخبل والجنون " .

وجاء الإسلام وأبطل هذه العادة الجاهلية ، فروي مسلم عن خوله بنت الحكيم قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول " من نزل منزلاً ثم قال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك " .

وذكر القرطبي في تفسيره عن خزيم بن فاتك أنه قال : أضللت إبلا لي فخرجت في طلبها حتى إذا كنت ببارق العراق فأنخت راحلتي ثم عقلتها ثم أنشأت أقول : أعوذ بسيد هذا الوادي ثم وضعت رأسي علي جمل فإذا بهاتف من الليل يهتف ويقول :

ألا فعذ بالله ذي الجلال ... ثم اقرأ آيات من الأنفال

ووحد الله ولا تبالي ... ما هول الجن من الأهوال

فانتبهت فزعا فقلت :

يا أيها الهاتف ما تقول ... أرشد عندك أم تضليل

فأجابني :

هذا رسول الله ذو الخيرات ... أرسله يدعو إلي النجاة

ويترع الناس عن الهنات ... يأمره بالصوم وبالصلاة

وكان هذا سببا في إسلامه .

* * * * *

الشيطان

أشهر مخلوقات الله علي الإطلاق وكان من أعبد عباد الله . ولكنه لم يكن مخلصا في عبادته ، فسقط في أول ابتلاء ، وبدا ما كان يضمره في نفسه من الكبر والاستعلاء ، وحب النفس إلي درجة الأنانية ، وحب الشهرة ولو بآي ثمن ، حتى أنه فرط في مكانة سامية بين الملائكة ، وجنة عالية عند ربه حبا في الشهرة والاستعلاء . وأوصلته عبادته لأن يسكن مع الملأ الأعلى في السموات رغم أنه مخلوق أرضي ، وأن يعيش مع الملائكة رغم أنه من الجن . إلا أنه لم يقنع بما وصل إليه ، إذ وجد نفسه رغم فضيلة المكان والسكان ليس له مكانة متميزة عن غيره ، وأنه أصبح واحد في بلايين من الملائكة .

وكان الله يعلم ما يدور في نفسه ومع ذلك رقاه ، وعلاه حتى يكون السقوط مريعا وأيضا لحكمة يريدها عز وجل ، وهي أن يجعل منه فتنة وبلاء للمخلوقات التي هيأ لها أرضه وهم البشر .

ونال الشيطان ما أراد وأصبح الأشهر في المخلوقات حتى فاقت شهرته شهرة الملائكة جميعا ، والأنبياء قاطبة ، وليس من مخلوق في أي مكان وفي أي زمان إلا ويعرف الشيطان . بل أنه عُبد من دون الله ، وظهر كثير من خلق الله علي الأرض لا يعرفون الله ولكنهم يعرفون الشيطان .

هل أفلح الشيطان بذلك ؟ بالطبع خسر خسرانا مبينا ، وكما قال الكتاب المقدس " ما الفائدة لو كسبت العالم كله ، وخسرت نفسك ؟ " .

" الشيطان " في كلام العرب يطلق علي كل عات متمرد . وأطلق علي هذا المخلوق لعتوه وتمرده علي ربه .

من أسمائها أيضا الطاغوت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء:٧٦) . ومن أسمائه أيضا " إبليس " بمعني من لا خير فيه . وأبلس : يئس وتحير.

يقول تعالى عن أصل إبليس ﴿إلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ (الكهف:٥٠) . وفي هذا دليل واضح وصريح علي أن أصل إبليس من الجن ، ولا نلتفت إلي قول من قال أن إبليس كان من الملائكة واستدلوا علي ذلك من قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ (البقرة:٣٤) . فإن كان قد التبس عليهم الأمر من هذه الآية . فقد أزال الله اللبس صراحة ﴿إلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ وعلي ذلك نفهم من الآية الأولي أن الأمر كان

للملائكة وإبليس كان يعامل معاملتهم لذلك كان الأمر يشمله ، ولم يتكسر إبليس أنه من الجن بل قال ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾ ومعلوم من القرآن أن الذي خلق من النار الجان .

فنحن بذلك نجزم أن إبليس كان من الجن ، ولم يكن أبدا من الملائكة وإن كان يعامل معاملتهم . ولكن الذي لا نستطيع أن نجزم به هل إبليس هو أبو الجن كما أن آدم هو أبو البشر ؟ لم يصل إلينا في هذا الأمر دليل .. وهو أمر لا يعنينا أن يكون هو أبوهم أو أحدهم .

ولقد أهلك إبليس نفسه عندما عصي ربه عن سبق إصرار ، عامدا متعمدا وذلك عندما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم فكان كما قال : ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إلا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ ﴾ لم تكن خطيئة إبليس سهوا أو خطأ في الفهم أو عن غير قصد وإنما كان كما قال الله تعالى كفرا واستكبارا ، وأعطاه الله الفرصة ليراجع نفسه ، ويندم علي ما فعل ويستغفره فيغفر له . ولكن إبليس لم يفعل . فاستحق ما وعده الله به . ولعنه وطرده من جواره ، وأخرجه من بين الملائكة وأنزله إلي أسفل سافلين .

وعلم إبليس بهذا المصير ، وأن مصيره النار .. داخلها .. داخلها ، فقد عمد إلي آدم وبنيه وراح يتفنن كيف يغويهم . ونجح إلي حدا كبير بل نجح نجاحاً عظيماً : قال تعالى في سورة سبأ ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إلا فَرِيقًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إلا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ .

* * * * *

خلق الإنسان

تاريخ الميلاد : يوم الجمعة ، اليوم السابع من أيام الأسبوع ، كان ميلاد أول البشر الإنسان الأول . وأصل البشرية جميعا ذكورا وإناثا . ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:١) .

فضيلة من إحدى الفضائل أن يخلق آدم - وهذا هو أسم المخلوق البشرى الأول - يوم الجمعة . روى مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال " خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة . فيه خلق آدم . وفيه أدخل الجنة . وفيه أخرج منها . وفيه تقوم الساعة " .

وكان من فضل الله علي آدم وبنيه أن الله خلقه بعد أن أصبح كل شيء معد ومهيأ لوجوده في السماء والأرض .

يخبرنا القرآن عن خلق الإنسان بأدق التفاصيل وعن مراحل خلقه جميعا في حوالي ٧٠ آية والتي نعلم منها أن الإنسان خلق في ٧ أطوار . يقول تعالى ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (نوح) .

هذه الأطوار السبع جمعها تعالى في آية واحدة من سورة الحج : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ .

وفي سورة (المؤمنون) يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ .

فهذه الآيات تقرر أن أصل الإنسان من طين أو ﴿سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ أي نوع مميز ومنقى من الطين . أما الآية السابقة من سورة الحج فتقرر أن أصل الإنسان تراب . وفي الحديث الذي رواه البخاري عن رسول الله ﷺ قال " إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم علي قدر الأرض فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود .. وبين ذلك والخبيث والطيب .. والسهل والحزن وبين ذلك " .

فالطين : تراب وماء . والماء هو أصل كل الكون ، وكل الخلائق . وكل الأحياء يقول تعالى :

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء:٣٠)

﴿واللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاء﴾ (النور:٤٥)

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ (الفرقان:٥٤) .

فهذه الآيات تفيد أمورا ثلاثة : الأمر الأول : وهي الآية الأعم ، تقرر أن كل شيء يوصف بالحياة من الماء . وعلي ذلك يدخل فيها النبات والحيوان والإنسان .

والآية الثانية : أخص من الأولي فهي تخبر أن كل دابة خلقت من ماء . وتعني الحيوان والإنسان .

أما الآية الثالثة : فهي خاصة بالإنسان وحده .

ثم هناك ٤ آيات أخرى يقرر فيها عز وجل أنه خلقنا من تراب . وتشترك هذه الآيات الأربع مع آيات الماء الثلاثة السابقة لتكون معا بآياتها السبع .. الطين . هكذا ٣ آيات للماء و ٤ آيات للتراب ، ولعل هذه النسبة بينهما ٣ : ٤ حتى كانت درجة الطين من التماسك واللزوجة التي قال عنها تعالى ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾ (الصافات:١١) أي : سلهم من أشد في الخلق خلقهم أم خلق المخلوقات الأخرى من سماوات وما فيها من ملائكة وأجرام سماوية . وأرض وما فيها من شياطين وجبال . فهم مخلوقون من طين لاصق أي أن مادة خلقهم من طينة على درجة من الليونة واللزوجة بحيث كانت تلصق وتلزق باليد . فلو زادت نسبة التراب عن هذه النسبة لكان الطين من التماسك بحيث لا يلزق باليد عند الإمساك . ولو زاد الماء عن نسبته لما تماسك الطين .

فهذه معلومات جيدة ودقيقة تشعرنا بأن الأمر يتم أمام أعيننا ونلمسه بأيدينا . ومن هذا نجد أن الإنسان خلق من ماء بنسبة ٣ : ٤ مع التراب ، وتكون منه الطين اللازب .

ثم يؤكد لنا ربنا أن تشكيل الإنسان الأول تم من هذا الطين في سبع آيات أخر سوي الآيات السبع المشترك فيها الماء والتراب . كقوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ (الأنعام:٢) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (المؤمنون:١٢) .

أرأيتم إلي الدقة العجيبة في المعلومات التي بين أيدينا عن خلقنا ؟

ثم يحدثنا القرآن عن مرحلة جديدة علي الطين فيقـــول تعـــالى ﴿وَلَقَــدْ خَلَقْنَــا الإنسَــانَ مِــنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر:٢٦) . فالآيــــة توضـــح مرحـــلة أخـــرى مـــن مراحـــل التحـــول للطين ، فإن الإنسان وهو آدم بعد ما صـــور في هيئتـــه الـــتي خلقـــه الله عليـــها تـــرك علـــي تشكيله هذا حتى أسود الطين أي أصبح حمـــأ وتغـــير ريحـــه أي أصبـــح مســـنونا فيـــبس وأنـــتن ، وصار كما قال الله تعالى ﴿صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (الرحمن:١٤) طين يـــابس لـــو طرقـــت عليـــه لأصـــدر صوتا كأنك تطرق علي الخزف لفـــراغ جوفـــه .

وعندما وصل الطين إلي هذه الحالة أصبح كتمثـــال مـــن الفخـــار قـــد تم تشـــكيله في أحســـن صورة ، كان هذا التمثال بطول ٦٠ ذراعـــا وعـــرض ٧ أزرع .

وأخبر الله تعالى ملائكته بأمر هذا المخلوق الجديد ، وأمرهم فيـــه بـــأمر .

قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِـــنْ صَلْصَـــالٍ مِـــنْ حَمَـــإٍ مَسْـــنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَـــاجِدِينَ﴾ (الحجر) .

وقال تعالى ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِـــنْ طِـــينٍ (٧١) فَـــإِذَا سَـــوَّيْتُهُ وَنَفَخْـــتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَـــاجِدِينَ﴾ (ص:١٧) .

لم تسجد الملائكة لمجرد الطين ، ولو أمروا لفعلوا ، ولكـــن الأمـــر صـــدر لهـــم بـــأن يســـجدوا بعد أن ينفخ فيه مـــن روح الله .

وروى السدي عن أبي مالك وعن ابن عباس وعن مرة الهمـــداني عـــن ابـــن مســـعود في قصـــة خلق آدم عليه السلام قال : " فبعث الله جـــبريل عليـــه الســـلام إلي الأرض ليأتيـــه بطـــين منـــها ، فقالت الأرض : أعوذ بالله منك أن تنقص مني أو تشـــينني . فرجـــع ولم يـــأخذ شـــيء وقـــال : يـــا رب إنها عاذت بك فأعذتها . فبعث ميكائيل . فعاذت منـــه ، فأعاذهـــا . فرجـــع فقـــال كمـــا قـــال جبريل . فبعث ملك الموت ، فعاذت منه ، فقال : وأنـــا أعـــوذ بـــالله أن أرجـــع ولم أنفـــذ أمـــره . فأخذ من وجه الأرض وخلط ، ولم يأخذ من مكـــان واحـــد . وأخـــذ مـــن تربـــة حمـــراء وبيضـــاء وسوداء . فلذلك خرج بنـــو آدم مختلفـــين . ولذلـــك سمـــي آدم ، لأنـــه أخـــذ مـــن أديم الأرض . فصعد به فقال الله تعالى له { أما رحمت الأرض حـــين تضرعـــت إليـــك } فقـــال : رأيـــت أمـــرك أوجب من قولها ، فقال : { أنت تصلح لقبـــض أرواح ولـــده } .

فبل التراب حتى عاد طينا لازب (يلتصق بعضـــه ببعـــض) ثم تـــرك حـــتى أنـــتن ﴿مِـــنْ حَمَـــإٍ مَسْنُونٍ﴾ . قال : منتن . ثم قال للملائكـــة ﴿إِنِّـــي خَـــالِقٌ بَشَـــرًا مِـــنْ طِـــينٍ (٧١) فَـــإِذَا سَـــوَّيْتُهُ

وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فخلقه الله بيده لكي لا يتكبر إبليس عليه ، يقول : { أتتكبر عما عملت بيدي ولم أتكبر أنا عليه } .

فخلقه بشرا فكان جسدا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه ، وكان أشدهم منه فزعا إبليس ، فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار، تكون له صلصلة ، فذلك حين يقول ﴿صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ ويقول : لأمر ما خلقت .

ودخل من فمه وخرج من دبره فقال إبليس للملائكة لا ترهبوا من هذا فإنه أجوف ولئن سلطت عليه لأهلكنه .

ويقال : إنه كان إذا مر عليه مع الملائكة يقول : أرأيتم هذا الذي لم تروا من الخلائق ما يشبهه ، إن فضل عليكم وأمرتم بطاعته ما أنتم فاعلون ؟

قالوا : نطيع أمر ربنا فأسر إبليس في نفسه لئن فضل عليَّ فلا أطيعه ولئن فضلت عليه لأهلكنه .

فلما بلغ الحين الذي أراد الله أن ينفخ فيه الروح قال الله للملائكة ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فلما نفخ فيه الروح ودخل الروح في رأسه عطس ، فقالت له الملائكة : قل الحمد لله . فقال : الحمد لله . فقال الله له : { رحمك ربك } فلما دخل الروح رجليه قام عجلان إلي ثمار الجنة ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (الأنبياء:٣٧).... " .

هذه باختصار شديد قصة آدم عليه السلام في رأى الدين أما علماء الفلك والطبيعة أو كما نسميهم : التجريبيون ، فلهم قول آخر من جنس ما قالوه في الكون . فهم لا يعترفون بأن الإنسان وجد هكذا علي صورته التي هو عليها الآن ، بل إنهم يقولون أن الإنسان ينحدر من أصل آخر يختلف عن أصل آدم . ويقولون بأن حياته بدأت بجرثومة ، ظهرت علي السطح ثم تحولت إلي حيوان صغير ، ثم تدرج هذا الحيوان فأصبح ضفدعا ، فسمكة ، فقردا ، ثم ترقي هذا القرد وتمدن فصار إنسانا ، فالإنسان في نظرهم قرد متمدن . وقد استطاع ذلك القرد بعبقريته ، وبنبوغه أن يتطور ويتغير إنسانا ذكيا بعد أن كان قردا غبياً .. وهذا الذي يقولونه هو خلاصة نظرية النشوء والارتقاء لداروين . ومعظمهم قد اقتنعوا بنظريته ، وقد أوردنا في مدخل الكتاب بعض ما قالوه عن هذه النظرية وأن قناعتهم بها تأتي من أنهم وجدوها بديلا عن الإله الذين ينكرونه بالمرة .

وأعتقد أن هذه النظرية إن كان دارون يقصد بها نفسه وأنه أنحدر من فصيلة القرود فالرجل لم يخطئ ، وقوله صحيح . فقد أنبانا الله في القرآن أنه مسخ بعض اليهود إلي قردة فقال تعالى ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (البقرة:٦٥) . وذكر الكتاب المقدس كلام لعيسى عليه السلام كهذا القول ، ونحن نعرف أن " دارون " يهودي فلعل أصله كان من أحد هذه القرود وإن كنا نعلم أن القرود التي مسخت لم تتناسل . ولكن من يدرى ؟

أما إن كان " دارون " يقصد بكلامه كل الجنس فقوله باطل وباطل ما يقول . وعلي غرابة ما يقوله هؤلاء ، إلا أنه متوقع منهم ، ولم لا وقد قال الله عنهم ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف:١٧٩) .

ولكن ما كان غير متوقع أن نجد من علماء المسلمين من يؤيد هذه النظرية حتى وصل الأمر إلي بعض علماء القرآن ، بل والذين تعلمنا علي أيديهم ، وشببنا علي علومهم ، قالوا أقوالا نرجو ألا تكون هذه خاتمة أقوالهم . والأعمال بخواتيمها ، لذا نسأل الله لهم الهداية ولنا التثبيت .

وصدق من قال : " الناس هلكى إلا العالمون . والعالمون هلكى إلا العاملون . والعاملون هلكى إلا المخلصون . والمخلصون علي خطر عظيم " .

ولماذا لا يكونون علي خطر عظيم والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء .

ولماذا لا يكونون علي خطر عظيم وقد علمنا أن أحدنا ليعمل بعمل أهل الجنة حتى يكون بينه وبينها خطوة فيسبق عليه الكتاب .. فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها .. اللهم سلم سلم . . اللهم سلم سلم .

اللهم اقبضنا إليك غير مفتونين .. ولا ضالين ولا مضلين .. واختم لنا بخاتمة السعادة يا أكرم الأكرمين .

فقد أكتشف أخيرا ونحن علي أعتاب يوم القيامة أن آدم ليس أبو البشر هكذا أكتشف نفرا من أعز وأنفس علماء المسلمين . وهو أمر ينذر بخطر عظيم ، وينبأ بأن باطن الأرض أولي لنا من ظاهرها .. ويدفعنا أن نقتني بعض غنمات ونذهب في الجبال نتتبع منازل القطر والأعشاب وأن نعتزل الدنيا وما فيها . لأن أهل الذكر أصبحوا علي هذه الحالة .

ويقول هؤلاء أن آدم ليس أبو البشر ، بل هو أبـو الإنسـان – لا حـول ولا قـوة إلا بـالله – لأنه فرق لدى هؤلاء بين البشـر والإنسـان ، فالبشـر ظـهروا قبـل الإنسـان مجـرد مخلوقـات متحركة حيوانية ، وأنهم ظلوا كذلك ليـس بينـهم وبـين الإنسـان إلا انتصـاب القامـة والسـير علي قدمين ، ملايين السنين حتى تزود هذا المخلـوق بملكـات وقـدرات عليـا ، الـتي جوهرهـا العقل والحياة الاجتماعية ، وبدأ بعد ملايين السنين يتكلم ويمشـي علـى قدمـين ، وتحـررت يـداه ورجلاه وأصبح هذا المخلوق جـاهزا مـن الناحيـة الفسـيولوجية ومؤهـلا لـتزويده بنفحـه الله الروحية ليكون عندئذ . وعندئذ فقـط " الإنسـان " .

آدم إذاً جاء بعد ملايين السنين من وجود البشر علي الأرض الـتي كـانت تعيـش كمـا قـال دارون كالقرود والأنعام ثم تطورت هذه البشرية بعـد ملايـين السـنين ، ثم اصطفـي الله آدم مـن بين البشر لينفخ فيه من روحـه وليصبـح الإنسـان الأول . أي أن الله تعـالى لم ينفـخ في الطـين وإنما نفخ في بشر هكذا فهموا من قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّـي خَـالِقٌ بَشَـرًا مِـنْ طِـينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُـوا لَـهُ سَـاجِدِينَ﴾ (ص) . فـالله خلـق البشـر مـن الطين ثم خلق أو استخلص الإنسان من البشر بعد ملايـين السـنين .

وخالف هؤلاء قول الله ورسوله واتبعوا غير سـبيل المؤمنـين وخـالفوا إجمـاع الأمـة الـتي لم يشذ واحد منها ويقول بما قاله هؤلاء . خالفوا قول الله الـذي قـال ﴿الَّذِي أَحْسَـنَ كُـلَّ شَـيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَـاءٍ مَـهِينٍ﴾ (السجدة) .

وخالفوا قول رسول الله ﷺ الذي قال فيما رواه عنه الإمـام أحمـد في مسـنده عـن العربـاض ابن سارية أنه ﷺ قـال :

" إني لعبد الله ، مكتوب خاتم النبيين وإن آدم لمنجـدل في طينتـه . وسـأنبئكم بـأول ذلـك : دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورؤيا أمـي ، رأت حـين ولدتـني كأنـه خـرج منـها نـورا أضاءت له قصور الشـام " .

فالرسول الذي يؤمنون به يقول أنه مكتـوب خـاتم النبيـين وآدم منجـدل في طينتـه ، وهـم يقولون أن آدم أصل بشرى ولم يكن طينـا . ثم يقولـون أنـه أبـو الإنسـان وليـس أبـو البشـر ورسولهم يقول في حديث الشفاعة المروي في الصحيحـين وفيـه أن النـاس يلتمسـون مـن يشـفع لهم من هول يوم الزحام فيذهبون إلي آدم يسألونه الشـفاعة فيقولـون لـه : " يـا آدم أنـت أبـو البشر ، خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسـجد لـك ملائكتـه وأسـكنك جنتـه ألا تـرى

إلي ما نحن فيه ؟ ألا تشفع لنا عند ربك ؟ فيقول نفسي نفسي اذهبوا إلي غيري .. " الحديث .

وخالفوا إجماع الأمة دون استثناء وقد ذكر هذا الإجماع " محمد علي الصابوني " في كتاب " النبوة والأنبياء " حيث قال تحت عنوان " آدم أول البشر " فقال : " حدثنا القرآن الكريم عن خلق آدم عليه السلام وأخبرنا أنه أول مخلوق من البشر ظهر علي سطح الأرض في هذا الوجود . فهو إذاً أبو الخلائق ، وأصل هذا العالم ، وإليه ينتمي جميع سكان الأرض وليس قبله مخلوق من النوع الإنساني علي الإطلاق أما من غير البشر فقد كان هناك ملائكة قبله ، وكان من الجن مخلوقات قبله .. " .

" لقد جاءت النصوص القرآنية مؤيدة أن آدم عليه السلام هو أول المخلوقات ، وأنه لم يكن قبله أحد من هذا النوع البشري .. وكذلك الكتب السماوية كلها قد أجمعت علي هذا ، وبذلك تضافرت الأخبار عن جميع أهل الملل والأديان بأن آدم أبو الخليقة ، وأنه أول مخلوق من البشر علي الإطلاق " .

الخطيئة العظمى

إنما أول الخطايا ، وأعظمها علي الإطلاق . لم يعصى الله أحد مثل ما عصى إبليس . أن الكافرين ، والملحدين والمشركين في تاريخ الكون لم يروا الله . ولم يسمعوه وإنما . أرسل الله إليهم رسلا من جنسهم ، أما إبليس فالأمر يختلف . إننا نرى ونسمع حوارا مباشرا ، إن الأمر جد مختلف ، لن يتكرر هذا المشهد أبدا . ذلك الذي كان في الملأ الأعلى .

ولنري ذلك المشهد . فالله جلت قدرته يصفه لنا كأننا نراه رأى العين : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إلا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (ص) .

إن الملائكة فور سماعها للأمر خرت ساجدة ، الملائكة كلهم أجمعون ، دون استثناء سجدت ، وعندما رفعت من السجود رأت إبليس واقفا وحده بين جموع الملائكة التي لا يعلم عددها إلا الله . كان يقف وحده .

إنني كلما تخيلت هذا الأمر وجدتني لا أستطيع استجماع ملامح هذا المشهد الرهيب ، لا أستطيع مجرد تخيل ، أن كل من في الملأ الأعلى ساجد بعدما أمر الله وإبليس وحده يقف شامخاً أمام الجبار منتصبا وقد هوى الجميع أمامه وحوله سجودا لأمر الله ، كيف احتمل إبليس هذا المشهد المهول .

لم تتصور الملائكة أن إبليس امتنع عن السجود ، وظنوا أنه لم يسمع ، أو أنهم تعجلوا في السجود أو أي تبرير آخر لموقف إبليس هذا ، ولم يخطر على بالهم أنه يرفض السجود ، وسجدوا مرة أخرى ليعطوا لإبليس الفرصة لأن يسجد . ورفعوا مرة أخرى من السجود فوجدوا إبليس لا يزال واقفا غير عابئ بالأمر ، فعلموا بحجم الكارثة . فنحن إحياءً لهذه الذكرى نسجد مرتين في كل ركعة .

ورغم أن الموقف لا يحتاج إلي دليل على أن إبليس عصي ربه . ورغم أننا لا يمكن أن نلتمس لإبليس العذر في ما فعل ، ورغم أن الأمر واضح تمام الوضوح إلا أن الأمر متعلق بالرحمن الرحيم ، بالغفور الودود ، ذو العرش المجيد ، متعلق باللطيف ، بالصبور ، بالحليم ، بالكريم ، بالعظيم ..

ويعلم الله تعالى ما في نفس إبليس لماذا لم يسجد ، يعلم الله ذلك تماما إلا أن المربي العظيم يعلم عباده درسا من أنفع الدروس وهو : ألا نتعجل في الحكم دون أن نلتمس العذر ، وأن نعطي فرصة للمخطئ ليدافع عن نفسه .

أننا نكاد أن نرى هذا المشهد بأعيننا ونسمعه بآذاننا وندركه بقلوبنا والحليم يتكلم فيقول : ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (الحجر:٣٢) ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ إِذ أَمَرْتُكَ﴾ (الأعراف:١٢) ﴿قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَاسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنْ الْعَالِينَ﴾ (ص:٧٥) . أن الله عز وجل لا يرضى لعباده الكفر ، ويكره لهم أن يتعذبوا لأن عذابه أليم شديد . وهو تعالى يفعل كل ما من شانه أن يعيد عباده إلي الصواب بإرادتهم وإلي ما يرفع عنهم مقته وغضبه ، حتى إذا ما بدا منهم ألا سبيل إلي الرجوع كان أخذه ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود:١٠٢) . ورغم كل ذلك ماذا فعل إبليس ؟

وماذا رد على خالقه عز وجل :

﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ (الإسراء:٦١)

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (ص:٧٦)

﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر:٣٣) .

لقد صدر حكم الله تعالى على إبليس وتحدد مصيره منذ البداية :

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنْ الصَّاغِرِينَ﴾ (الأعراف:١٣) .

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ(٣٥)﴾ (الحجر)

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ(٧٨)﴾ (ص).

وعرف إبليس أنه لا سبيل إلي الرجوع في هذا الحكم لقوله تعالى ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (ق:٢٩). وعلم إبليس انه وارد النار وأنه قد أتى بأعظم معصية ممكن أن تكون. وانه مهما فعل بعد ذلك فلن يأتي بأعظم مما أتى. فقد صمم على أمر ما. وعلمه الله تعالى لأنه يعلم السر وما يخفي. ومع ذلك فقد أراد الله لحكمة يريدها أن يترك إبليس يفعل ما يشاء. ولأنه تعالى الكريم الأكرم، والحكم العدل، فقد استجاب لكل مطلب طلبه إبليس في الدنيا، لأن الدنيا لا تعدل عنده جناح بعوضة. وبالغ إبليس في طلباته وجرأه حلم الله وكرمه. ماذا طلب إبليس ؟

﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ (الأعراف).

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (ص).

ولما ضمن إبليس أنه لن يؤاخذ إلا يوم القيامة، لأنه تعالى وعده ووعده حق، ويعلم إبليس ذلك تماما، وهو علي ما كان منه يعلم قدر الله.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأعراف).

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (الحجر:٤١).

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ (الاسراء).

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص) .

وعلي رغم هذا الموقف الذي تم في الملأ الأعلى وفصله لنا الله تفصيلا والذي بدا منه كم الحقد والغيرة والحسد والضغينة التي يحملها إبليس لآدم وذريته . وعلي الرغم من تحديه السافر لبني آدم واستعراضه لسيناريوهات الحرب معهم ، وتعريفهم بالجهات التي سيأتيهم منها ، والطرق والوسائل التي سيستخدمها معهم ، وعلي رغم التحذير الصريح من الله تعالى الذي حذرنا فيه من إبليس قائلا ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ (الأعراف:٢٧) علي الرغم من كل ذلك إلا أن معظم بني آدم سيقعون تحت إغوائه وفتنته . لذلك يقول تعالى وقد جاء بنو آدم يوم القيامة واستوجب معظمهم النار ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (يس) .

خلق حواء

يقول تعالى : ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات:٤٩) لقد شاءت إرادة الله عز وجل أن يقوم الكون على الزوجية لينفرد هو عز وجل وحده بالوحدانية ، فخلق تعالى الزوجين ذكراً وأنثى في كل شيء خلقه . وفي القرآن ورد لفظ الذكر ١٢ مرة ، ولفظ الأنثى ١٨ مرة أي بنسبة ٢ : ٣ وأعتقد أن هذه النسبة هي الموجودة في الكون بالفعل ، حتى في البشر ، ٢ ذكور : ٣ إناث .

الوجود كله قائم على هذا النظام ، في الحيوان وفي النبات ، في الذرة وفي المجرة ، في الساكن وفي المتحرك ، في كل شيء . فالذرة تحتوى على إلكترون سالب ، يقابله البروتون الموجب ، وفي الكهرباء سالب وموجب وفي النبات بمختلف أشكاله وأنواعه وأصنافه كما قال تعالى :

﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ (الرعد: ٣) .

وفي الحيوان بمختلف أنواعه من وحيد الخلية إلى متعدد الخلايا ، إلى الثدييات ، إلى الإنسان ، كلها تحمل الزوجية ، وتحمل شارة الذكورة والأنوثة إما متصلة أو منفصلة . حتى الجسيمات الملونة داخل الخلايا تتجمع على هيئة أزواج: ثلاث وعشرين زوجاً . يقول تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ (يس:٣٦).

ويتفرد تعالى وحده بالوحدانية :

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

والإنسان كسائر المخلوقات ، يقول تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (فاطر:١١) . لذلك جعل الله لآدم زوجا ، يقول تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ (الأعراف:١٨٩) .

حكى السدي عن أبي صالح وأبي مالك عن بن عباس وعن مرة عن بن مسعود وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا : " أخرج آدم من الجنة فكان يمشي فيها وحشي ليس له زوج يسكن إليها فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة ، خلقها الله من ضلعه . فسألها : " من أنت ؟ " قالت : " امرأة " . قال : " ولم خلقت ؟ " قالت : " لتسكن إليّ " . فقالت الملائكة ينظرون ما بلغ علمه : " ما اسمها يا آدم ؟ " قال : " حواء " قالوا : " ولم كانت حواء ؟ " قال : " لأنها خلقت من شيء حي " .

وذكر ابن إسحاق أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم ولأم (أصلح) مكانه لحما ومصداق ذلك قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (النساء:١) .

وفي الصحيحين من حديث زائد عن ميسرة الأشجعي عن أبي حازم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : " استوصوا بالنساء خيراً ، فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه وإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً " .

أين مسكن الزوجية

قال تعالى : ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (البقرة:٣٥) . لا نرى في هذه الآية أي لبس في أن الله تعالى أسكن آدم وزوجته الجنة . الجنة المعروفة في الذهن وهي جنة الخلد ، خاصة وهي معرفة بأداة التعرف (ال) .

وإن كانت هذه الآية لا تكفي لمعرفة حقيقتها ومكانها . فماذا نقول في وصف هذه الجنة الذي ورد في سورة طه : ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾ .

وهذا الوصف لا ينطبق إلا على جنة الخلـــد .

وإن كانت هذه الآيـات لم تفصح عن حقيقة هـــذه الجنـــة فكيــف لا نصــدق خــبر رســول الله ﷺ الذي رواه مسلم في صحيحه عــن أبي هريــرة رضــي الله عنــه عــن رســول الله ﷺ أنــه قال : " يجمع الناس فيقوم المؤمنون حين تزدلف لهم الجنة فيــأتون آدم فيقولــون يــا أبانــا اســتفتح لنا الجنة فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئـــة أبيكــم " .

وإن كان دخول آدم لم يفصح عن مكـــان وحقيقـــة هـــذه الجنـــة . أفـــلا يـــدل علـــى ذلـــك خروجه منها حيث قال تعـــالى :

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُــوا بَعْضُكُــمْ لِبَعْــضٍ عَــدُوٌّ وَلَكُــمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِـــينٍ﴾ (البقـرة :٣٦) . فكيــف ســتكون الأرض مســتقر لهــم إلا إن كانوا قبل ذلك في الســـماء ؟

وهل يمنع أن تكون الجنة في السماء لأن إبليس دخلها والمفترض أنـــه طـــرد مـــن المـــلأ الأعلـــى وحكم عليه بالخروج والهبـــوط ؟

إن إبليس قد صدر عليه الحكم بالخروج والهبوط ولكـــن الله تعـــالى لم ينفـــذ فيـــه هـــذا الحكـــم فورا للحكمة التي يريدها عز وجل . فإن كان قد طـــرد فـــهو لم يعـــود إليـــها مســـتقرا ، بـــل لأداء مهمة واحدة ولحكمة يريدها الله فقد تركه يفعل مـــا يشـــاء . لأن الأصـــل أن آدم مخلـــوق لـــلأرض ولعمارتها والخلافة فيـــها .

ثم في قوله تعالى ﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾ وقوله ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْـــضٍ عَــدُوٌّ﴾ (الأعــراف) .

وقد ذهب إلى القول بأنها جنة الخلد الـــتي في الســـماء جمـــهور العلمـــاء . وقـــال القرطـــبي إن أهل السنة مجمعون على أن جنة الخلد هي التي أهبط منها آدم ، وأن الذين خـــالفوا كـــانوا مـــن المعتزلة والقدرية . وعموما الاختلاف هنا أمـــره هـــين .. ولا يســـتحق إهـــدار الجـــهد في إثبـــات أصح الرأيـــين .

خطيئتنـــا الأولـــى :

حكم على إبليس بالطرد ، والخروج من الملأ الأعلى والهبوط إلى الأرض ، ولم يكـــن هـــذا بـــالأمر الهين على إبليس لذلك صمم إبليس ألا ينزل إلا ومعه آدم (يده على يده ورجله على رجله) . ولم يكـــن

في ذلك تحدى لإرادة الله . لأنه تعالى قد خلق آدم للأرض وأخبر بذلك ملائكته ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:٣٠) .

وقد أراد تعالى قبل أن ينزل آدم إلى الأرض أن يؤكد له عداوة إبليس الشديدة له ، وأن ما قام به إبليس من رفضه السجود له لم يكن إلا لبغضه الشديد له ، ولما وجده في نفسه من الحسد والحقد . لهذا الأمر أدخل الله آدم الجنة ولم ينفذ أمر الطرد لإبليس إلا بعد أن يقضى هذا الأمر . وبدقة بالغة وتفصيل رائع يبين عز وجل ما تم في هذا الأمر حتى لكأننا في الجنة مع آدم وزوجته نرى ونسمع ما يدور . يقول تعالى﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف:١٩) .

أدخل الله آدم وزوجته الجنة ومنحهما كل شيء فيه ﴿وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ (البقرة:٣٥) كل شيء مباح في الجنة إلا أمرا واحداً هو ألا يأكل من شجرة عينها له ربه وأراها له ﴿هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ وزيادة في الاحتياط نهاهما عن مجرد الاقتراب ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ وحذرهما الله من مغبة المعصية ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ونصحهما وبين لهما ما سيكون لهما في الجنة وما سيحدث لهما لو خرجا منها : ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾ (طـه) .

ولعلنا نلاحظ أن الله تعالى خاطب آدم دون زوجته في كل الآيات التى أمامنا :

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (الأعراف:١٩) .

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (البقرة:٣٥) .

﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ (طـه:١١٧) .

وذلك لأن الله تعالى قد حدد – ومن البداية – أن الرجل قيما على المرأة . كما قال : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ (النساء:٣٤) . فآدم مسئول عن نفسه ومسئول عن أهله . وحواء مسئولة عن نفسها فقط . وحديث كلكم مسئول عن رعيته ، يحدد أن الرجل مسئول عن كل مؤسسة الأسرة برمتها . والمرأة مسئوله عن ما يخصها . لذلك يوضح الله تعالى ذلك لآدم وأن المسئولية سيتحملها هو بالذات ﴿فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (طـه) إنسه تعالى يحذرهما بلفظ المثنى ﴿فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ ولكن العاقبة بلفظ المفرد ﴿فَتَشْقَى﴾ .. وهكذا كل رجل .

لم يمكثا بالجنة كثيرا حتى جاءهما إبليس . وليست القضية : كيف دخل إبليس الجنة ، فله قدرات لأن يفعل ذلك وطالما لم ينفذ حكم الطرد بعد . لكن القضية كيف بعد ما رأى آدم بعينيه ، وسمع بأذنيه ما كان من إبليس ، عندما رفض أن يسجد له . وكيف بعد كل ما نصحه الله به . وكيف وكل شيء في الجنة مباح له . وليس عليه آية تكليفات ، ولا أي أوامر ولا أي نواه إلا نهيا واحدا ورغم كل ذلك يعصي آدم ربه كما عصاه إبليس ؟ لقد كان لآدم حجة سيخبرنا عنها بعد قليل .

الآن ننظر كيف تمت هذه المعصية ، وكيف استطاع إبليس أن يغوى آدم . وهل طبق إبليس نفس السيناريوهات التي أعلنها ؟ نحن الآن أمام مشهد الخطيئة لحظة بلحظة :

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف) .

هذه أول تجربة للشيطان في الغواية . فعل فيها تماما مثل ما صرح أمام ربه والمبدأ الإبليسي " الغاية تبرر الوسيلة " .

نجده في هذه التجربة واضح تماما . إننا نكتشف أن هناك غاية لإبليس لم يكشف عنها إلا في هذه الآية ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾ .

إنه هدف غريب .

هل كان يعلم إبليس أن المعصية تعرى ؟ يبدو ذلك . إن الآية لتكشف لنا بالفعل أن هدف إبليس لم يكن مجرد إنزال آدم من مكانه ومكانته . فهو سينزل . إن هدف إبليس أن يعرى العورات التي أمر الله أن تستر. إذاً له مغزى من هذا الأمر .

إننا تعارفنا أن نرفع الراية فوق الأشهاد دليلا على النصر . إن هذا الرمز بالفعل ما يفعله البشر في أي معركة ، لابد من نصب الراية التي لا معنى لها إلا أنها دليل واضح ظاهر على انتصار أصحابها ، حتى عندما كانت أمريكا وروسيا تتباريان في السفر إلي الفضاء والصعود إلى القمر والكواكب الأخرى ، كان أهم ما في الرحلة أن ينصب الفضائيون على سطح القمر أو تنصب آلات السفن على سطح الكواكب راية دولتهم .

إذاً فعلامة انتصار إبليس ورايته أن ننزل نحن رايتنا . وهي تلك التي نستر بها عورتنا . وإبليس لا يعتبر نفسه منتصرا إلا إذا نزع لباسنا وكشف عورتنا وزيادة في القهر والإذلال

يجعلنا نحن بأيدينا ، نترع عنا لباسنا . لنكشف نحن عورتنا أمام بعضنا البعض . هذا هو هدف إبليس وهذه هي رايته التي تعنى أنه انتصر ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ .

ولننظر في الآيات ولنرى كيف تمت الغواية ، وكيف كان إبليس حريصا عليها وعلى تحقيق أهدافه . وكيف كان يأتيهما كما قال لربه ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف:١٧) . وكيف استخدم كل أسلوب ممكن .

نعود للآيات : ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ .

نحن أمام نص الحوار الإبليسي كاملا ، ونلاحظ أنه استخدم فيه وسائله الثلاثة بالتدريج : (وسوس ، وقال ، وأقسم) وبدأ بالوسوسة وانتهى بالقسم وهو بالطبع يحلف كذبا .

إن الشجرة كانت بعيدة عن آدم وحواء ، لذا نهاهما الله عن مجرد الاقتراب . إلا أننا نكتشف من هذا النص أن إبليس يقول لهما : ﴿هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ فكلمة : ﴿هَذِهِ﴾ تدل عن القريب بخلاف (تلك) التي تدل على البعيد وقد استعملت هذه الكلمة (تلك) ولكن بعد وقوع المحظور عندما قال لهما الله ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ إذاً فقد استطاع إبليس في أول خطواته معهما أن يقربهما من الشجرة . ونجد أن عملية التقريب هذه جاءت بعد الوسوسة . فبمجرد أن آدم وزوجته يقفان أمام الشجرة حتى ان الشيطان يقول لهما ﴿هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ فقد ارتكبا المعصية ، وأتيا ما نهى الله عنه وقد كان النهي صريحا ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ .

لقد نجح إبليس من أول مرحلة وفي أولى خطواته معهما ، واستطاع بمجرد الوسوسة أن يسقطهما في الامتحان . وقد كان هذا القدر يكفي . لكن إبليس يريد أن ينصب راية الانتصار ورفع الراية بالنسبة له أن يترع لباسهما وكأن راية إبليس هي " لباسهما " .

وانتقل إبليس من مرحلة الوسوسة إلى مرحلة القول الصريح ليؤكد انتصاره الذي حققه بأن قرب آدم من الشجرة التي كان بعيدا عنها جدا ، يدل ذلك ما قاله تعالى في سورة طه ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾ ولننظر إلى الفرق الكبير . إنه هنا يقول ﴿هَلْ أَدُلُّكَ﴾ وخطوة خطوة ، خطوة خطوة ، وبالوسوسة

وحدها نجد أنفسنا أمام الشجرة ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ . أصبحت ﴿هَذِهِ﴾ للإشارة عن القريب ، من أجل ذلك يحذرنا الله تعالى ليس فقط من الشيطان وإنما أيضا من خطوات الشيطان ﴿ولا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة:٢٠٨) .

كما يحذر تعالى في بعض المحظورات المقيتة من مجرد الاقتراب . مثل قوله تعالى :

﴿لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ (النساء:٤٣)

﴿ولا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا﴾ (الإسراء :٣٢)

﴿ولا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (الأنعام:١٥١)

﴿ولا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ (الإسراء:٣٤) .

هذا النهي الأخير لخطورته ورد مرتين في آيتين من سورتين . الأنعام (الآية :١٥٢) و(الإسراء :٣٤) .

والجهد الأكبر يبذله إبليس للاقتراب . وبعد ذلك يسهل الأمر . لأن النفس والهوى سيشاركان الشيطان ويكونان ظهيران له على صاحبهما .

وبعد أن كان الأمر وسوسة ، أصبح إبليس يقول ، وقد علا صوته ﴿وَقَالَ﴾ وهذا (القول) يكشف لنا عن مدى الغش والخداع الذي يستخدمه الشيطان ولعل هذا كان أول غش في تاريخ الإنسانية ، يكون من الشيطان للإنسان ، لذلك السلف يقولون : لقد رأينا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة ، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله الشياطين . والغش محرم في الدين لذا يقول رسول الله ﷺ " من غشنا فليس منا " ، وكذب إبليس على آدم عندما قال له أن هذه الشجرة ﴿شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ وهو خبث من إبليس لا يزال يكرره ، أن يغير الاسم المنفر ، ويضع مكانه الاسم الجميل ولكنه مزور . لقد كانت الشجرة محرمة ولم تكن أبدا شجرة الخلد . ويغير إبليس الاسم من الشجرة المحرمة إلى شجرة الخلد ، وهو أسلوب متكرر يعمل به الآن ، ووسيلة من أهم وسائل نجاحه .

فقد تنفر الخمور باسمها الأصلي" خمور " أو " أم الخبائث " ، فيغير الاسم لتصبح " مشروبات روحية " . وليتحول اسم الربا إلى الفوائد ، ويسمى العرى تحررا والحرية اسم جميل ومسمى أجمل . ثم يسمى المجون واقتراف الرذائل على مرأى ومسمع من الناس فنا . وهكذا .

ومن أحدث أسمائه التي استبدلها في مصر اسم " مس إيجيبت " أي " آنسة مصر " هذا بالنسبة لمصر . فقد وجد إبليس إحجام بنات مصر عن الاشتراك في مسابقته العالمية التي سماها " مسابقة ملكة

الجمال " وذلك لطبيعة أهل مصر المتدينة ، وعلمهم أن الله يحرم على المرأة أن تظهر زينتها إلا لمحارمها ، فغير الاسم الأصلي إلي " اختيار مس إيجييت " أما المضمون للمسابقة فهو هو ، اختيار أفضل حجم للأرداف والنهود والخصور والعيون والقدود .

ومن أغرب أسمائه التي اخترعها اسم أطلقه على شاطئ للعراة بمنطقة العجمي بالإسكندرية سماه إبليس " شاطئ الفردوس " والفردوس كما نعلم أعلى الجنة وأوسط الجنة وسقفها عرش الرحمن وتنطلي الخديعة على الكثيرين من الغافلين .

ثم في مرحلة ثالثة يستخدم فيها إبليس كل ما أوتى من خبث ودهاء وكذب وخداع فيحلف بالله على صدق ما يقول . يقول تعالى ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ . وبذا سقطت آخر الحصون لدى آدم . إن إبليس يقسم لهما بالله . ولا يمكن أن يقسم أحد بالله كذبا – هكذا اغترا – وحتى لو كان كذلك فإنه يتحمل المسئولية لحلفه كذبا . وهذا من تلبيس إبليس .

ويحدثنا الله تعالى في سورة طه عن معلومات جديدة وكيف أثر إبليس على آدم وزوجته ، وكيف دخل لهما . ومن أي باب دخل . يقول تعالى : ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾ . لقد لمس إبليس عليه اللعنة وترا حساسا في آدم ووضع يده على مهلكيه (الحرص والأمل) ، حب التملك ، والأمل في طول البقاء ، الحرص على الاستحواذ ، وطول العمر . التفاني في جمع المال ، والخوف من الموت . كل هذا لمسه إبليس فقال غاويا : ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾ .

وعلى ذلك فإن كانت أول معصية حدثت في الملأ الأعلى بسبب الحسد وكانت من إبليس فإن أول معصية تحدث من آدم – وفي السماء أيضا – هي من الحرص . وكان الدافع ﴿شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾ تماماً كما كان الدافع لمعصية إبليس : الكبر والاستعلاء .

وكانت النتيجة :

﴿فَدَلاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ (الأعراف:٢٢) . لقد تدليا وهما ما زالا في السماء . لقد أسقطهما في الاختبار الذي وضعا فيه .

ونجح إبليس . في أول تجربة له مع آدم . وسقط آدم في أول تجربة له مع إبليس .

وكانت نتيجة السقوط في الامتحان أن تعريا وبدت لهما سوآتهما . ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال:٥٣) .

وصل إبليس إلى النتيجة التي كان يبتغيها ، وتعرى آدم وحواء وبدت لهما سؤاقما ، وبـــذا يكـــون قد رفع الراية ، ويتقهقر إبليس ، وهما يحاولان في خجل وفي حياء وقد اســـقط في ايديـــهما ، يحـــاولان تغطيه عوراقما ، ستر نفسيهما ، وهما يجريان هنا وهناك ، ويبتسم الشيطان في نفســـه ، ولعلـــه قهقـــه منتشيا ، واختفي من المشهد بعد أن انتهى كل شيء .

يقول بعض العلماء المحدثين – حبا في المخالفة – أن معنى ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ ليـــس ظـــهور الأعضاء التناسلية لهما ، ولكن بدا لهما أن هذا العمل الذي فعلاه كان سيء ومن هنا جـــاءت الســـيئة والسيئات . وهذا القول لم يقل به أحد من علماء الإسلام قبلا ولا بعدا إلا نفرا قليـــلا علـــى أعتـــاب القرن الواحد والعشرين مخالفين لله ورسوله والمؤمنين ، ومتبعين نصا محرفا في العهد القديم والذي يقـــول بأن الحية – لا إبليس – هي التي دلت حواء على الشجرة وكانت من أحســـن الأشـــياء وأعظمـــها ، فأكلت حواء عن قولها وأطعمت آدم فعند ذلك انفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فوصلا مـــن ورق التين وعملا ميازر . وإن كان في هذا النص أنهما كانا عريانين من قبـــل ولم يكتشـــفا ذلـــك إلا بعـــد المعصية ، فإن هـــؤلاء النفر المخالفين يقولـــون بأن شيئا لم يحدث لهما ، إنما فقط اكتشفا أنهما ارتكبـــا سيئة .

ورغم أن هناك قاعدة أساسية في أصـــول الأحكـــام تقـــول : لا اجتـــهاد مـــع النـــص . إلا أن المجترئين على الله ورسوله لن يخلوا منهم زمان أو مكـــان . فـــالله تعـــالى يقـــول :

﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْـــرَجَ أَبَوَيْكُـــمْ مِـــنَ الْجَنَّـــةِ يَـــنْزِعُ عَنْـــهُمَا لِبَاسَـــهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَـــوْآتِهِمَا﴾ (الأعـــراف:٢٧) .

﴿فَلَمَّـــا ذَاقَـــا الشَّـــجَرَةَ بَـــدَتْ لَـــهُمَا سَـــوْآتُهُمَا وَطَفِقَـــا يَخْصِفَـــانِ عَلَيْـــهِمَا مِـــنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ (الأعـــراف:٢٢) .

ويقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه ابن أبي حـــاتم عـــن أبي بـــن كعـــب " إن الله خلـــق آدم رجلا طوالا كثير شعر الرأس كأنه نخلة ســـحوق (طويلـــة) فلمـــا ذاق الشـــجرة ســـقط عنـــه لباسه فأول ما بدا منه عورته فلما نظر إلى عورتـــه جعـــل يشـــتد في الجنـــة فـــأخذ شـــعره شـــجرة فنازعها فناداه الرحمن عز وجل : { يا آدم منى تفر؟ } فلما سمـــع كـــلام الرحمـــن قـــال : يـــا رب لا . ولكن اســـتحياء " .

وروى الحافظ بن عســـاكر من طريق محمد بن إسحاق عن الحســـن عـــن ذكـــران عـــن الحســـن البصري عـــن أبي ابـــن كعـــب قـــال : قـــال رســـول الله ﷺ " إن أبـــاكم آدم كـــان كالنخلـــة

السحوق . ستين ذراعا كثير الشعر ، موارى العورة ، فلما أصاب الخطيئة في الجنة بدت له سوأته فخرج من الجنة فلقيته شجرة فأخذت بناصيته ، فناداه ربه { أفرارا مني يا آدم } قال : بل حياء منك والله يا رب مما جئت به " . وللحديث طرق أخرى .

وبما أن التعري علامة انتصار الشيطان ، ومخالفة الرحمن . فإن البشرية الآن بما وصلت إليه الآن من التعري ، ونزع اللباس ، وكشف العورات ، قد أعلنت انتصار الشيطان عليها ، ورفعت له الراية ، أو رفعت له لباسها .

لقد استطاع الشيطان أن يفتن البشرية على الأرض ، كما فتن أبوهم وأمهم في السماء .

روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " حاج موسى آدم عليهما السلام فقال له : أنت الذي أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم . قال آدم : يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، أتلومني على أمر قد كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني أو قدّره عليّ قبل أن يخلقني .

قال رسول الله ﷺ فحج آدم موسى " .

* * * * *

ولكن ..

لم تنته المعركة بعد ..

ولا زال في عمر الإنسان بقية ..

وإن كانت سنوات أو أيام معدودة

قبل أن تطلع الشمس من مغربها ..

لا يزال طريق الرجوع إلى الله موجودا ..

ولا يزال باب الله أمام الظالمين ، والعاصين مفتوحاً

ولا يزال الله تعالى الغفور ، الرحيم ..

باسطا يديه بالليل ليتوب مسيء النهار وباسطا يديه بالنهار ليتوب مسيء الليل .

ولم تنته الفرصة بعد .

والدعوة عامة :

للجميع ، ومهما كان الذنب ، ومهما بلغت الخطيئة ، ولو كانت الذنوب إلى عنان السماء ، ولو كانت الخطايا تملأ الأرض . فهناك أمل في النجاة ، أمل في الفلاح ، أمل في الله . لقد عصى آدم ربه . وكذلك إبليس عصى ربه .

لقد نهى آدم عن نهي واحدا فأتاه . وأمر إبليس بأمر واحد فلم يأتيه . كلاهما عصى ربه . فلماذا كان آدم (عليه السلام) وكان إبليس (عليه اللعنة) . لماذا اختلف مصير كلا منهما مع انهما فعلا فعلاً واحدا " المعصية " .

آدم نهي عن الأكل من الشجرة ، فأكل . وإبليس أمر بالسجود لآدم فأبى .

ومع ذلك اختلف مصير كل منهما ، هذا في النعيم ، وهذا في الجحيم .. لماذا ؟؟

لقد أخبرنا الله تعالى عن جواب إبليس عندما سأله تعالى :

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ كان رده :

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (الأعراف:١١) .

أما آدم فتعالوا لنرى ما حدث معه بعد معصيته :

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾(الأعراف:٢٢) إنها نفس الفرصة التي منحها تعالى لإبليس عندما عصى . منحها أيضا لأبوينا . وناداهما بهذا النداء . فماذا كان جوابهما ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف:٢٣) .

هذا هو الفرق بين آدم وإبليس . أمر بسيط وغاية في السهولة واليسر مهما كان الذنب فالتوبة تمحوه . فقط بأن يعود المذنب إلى ربه ، يعترف له بالذنب – ويعترف له وحده لا لغيره – ويطلب منه العفو . وسيجد الله . عفوا غفورا توابا رحيما . جوادا كريما . إلها عظيماً . ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر:٥٣) .

وبلغ من كرم الله أنه تعالى ليس فقط يغفر الذنوب ، بل إنه تعالى قد يحولها جميعا إلى حسنات ومهما بلغت فقط أن يتبع ذنوبه بالعمل الصالح :

﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ (الفرقان) .

* * * * *

الباب الثالث

الأرض ثابتة

لقد أقسم إبليس على الغواية ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص) ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الحجر) وكفر إبليس بمخالفته أمر الله تعالى وهو يعمل جاهدا لأن يجعل بني آدم كذلك . وإلى درجة كبيرة نجح إبليس في تنفيذ خطته ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إلا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سبأ:٢٠) .

لقد اتبعت معظم البشرية إبليس عليه اللعنة في مخالفة الله . وتتحسر عندما تجد النبي يبعث في آلاف مؤلفة من الناس فلا يتبعه إلا قليل .

لقد أرسل نوح إلى أهل الأرض بعدما خالفوا الرحمن واتبعوا الشيطان ، ومكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الإيمان بالله ، وعندما تنتهي مهمة نوح مع قومه ويأمره الله بأن يركب الفلك مع المؤمنين به ، يعتصرك الأسى وأنت تقرأ قوله تعالى ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلا قَلِيلٌ﴾ (هود:٤٠) .

وتتعجب عندما تعلم حصيلة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام في دعوته لقومه كم آمن به في المرحلة الأولى من دعوته (في بابل) ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ (العنكبوت:٢٦) .

وإذا ذهبت إلى قرى لوط السبعة لتبحث فيها عن المسلمين فلا تجد أحدا على الإطلاق إلا بيت لوط ولم يكتمل عدده لكفر امرأته ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الذاريات:٣٦) .

وقرية أرسل الله فيها ثلاثة من المرسلين فلم تكن الحصيلة إلا رجلا واحدا قتله قومه لاتباعه المرسلين . فانتقم الله منهم أجمعين وجعل الله هذا الرجل من المكرمين . وهكذا الحال في كل الأمم ، مع كل المرسلين ، باستثناء موسى عليه السلام ، الذي اتبعه عدد لا بأس به . ومحمد ﷺ الذي أرسل رحمة للعالمين وكان من أكثر الأنبياء اتباعاً .

واستحق إبليس عليه اللعنة غضب الله وقال تعالى له : ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص) أعتمد إبليس في تلبيسه على الناس بمخالفة الله بتحريضهم على تحريف كلماته المنزلة فحرفوها حتى نزل القرآن وتكفل الله تعالى بحفظ هذا الكتاب من التحريف وعلم إبليس أنه لا سبيل لتحريف كلمات الله هذه فحول نشاطه إلى تحريف معانيها .

ولأن أهداف إبليس كبيرة وبعيدة العمق ، فهو لا يعجل وإن كان يحث الناس على العجلة ، فهو يضع خطته ويرسم أهدافه ، وينفذها بخطوات ، خطوة ، خطوة . المهم ، أن

يصل في النهاية بالناس إلى مخالفة قوله وأوامره ، وفطرته . وبذلك استطاع عليه اللعنة أن يقلب أفكار الناس ، وأحوالهم ، وفطرهم رأسا على عقب .

فهل يتصور عقل سوى أن سبع قرى بكامل أهلها تقلب فطرها فيشتهي الرجال بعضهم بعضا ويزهدون في النساء ؟ لقد تم ذلك في قوم لوط .

وهل يتصور عقل سوى أن أمة بأسرها يقلب حالهم فيعتبرون خير الكسب وأفضل العيش أن يسرق بعضهم بعضا ويغش بعضهم بعضا ؟ لقد حدث ذلك مع قوم نبي الله شعيب .

وهل يتصور عقل سوى أن أمة بأسرها ينقلب فكرها فتظن الخير والنفع في حجارة يعلمون أنها لا تنطق ولا تسمع ؟ لقد كان ذلك في قوم إبراهيم .

هل يتصور عقل سوى أن أمة أكرمها الله تعبد عجلاً صنعته بأيديها وخلقته بنفسها ؟ لقد فعل ذلك بنو إسرائيل بعد أن أنجاهم الله من فرعون وجنوده ورؤيتهم آيات الله في ذلك .

ولو رحنا نحصي عجائب البشر في انتكاس فطرها ومخالفتها ليس فقط لأوامر الله بل لأبسط قواعد العقل والفطرة ، فلن ننتهي .

ولعل من أكبر الأمور عجبا وأعظمها غرابة أن يستطيع إبليس إقناع أكثر من خمسين ألف مليون من البشر هم سكان الكرة الأرضية علي مدار قرن من الزمان بأن هذه الشمس التي يرونها بأعينهم تدور حولهم ، والتي ظلت البشرية منذ فجر التاريخ وما قبل التأريخ ، أي منذ وجود الإنسان علي الأرض وهم متفقون جميعا علي أن الشمس تدور حولهم ، وعلي رغم قول الله في كتبه كلها أن الشمس تجري وتدور حول الأرض ، وعلي الرغم من بعث مائة وأربعة وعشرين ألف نبي ورسول إلي البشر ، لم يقل واحد منهم بغير ذلك ، إلا أن إبليس نجح نجاحاً منقطع النظير أن يقلب كل ذلك ويقلب فطرة كل سكان الأرض ريكذبوا أعينهم ويخالفوا ربهم ورسلهم وأسلافهم ممن عاش قبلهم علي الأرض فيقولون أن الشمس هي مركز عالمهم ، وأن الأرض التي يقفون عليها ويعيشون فيها هي التي تدور بهم ومدنهم وقراهم حول الشمس ، وكذلك كل الكواكب الدراري تدور حول الشمس التي سموها (أم) في آخر الزمن .

هل يتصور عقل سوي أن ذلك يكون ؟ وممن ؟ من الجيل الـــذي صعـــد إلى الفضـــاء ومشـــى على القمر . وجعل الأرض مثل الكرة بين يديه . الجيل الـــذي ظـــهرت فيـــه أعظـــم المخترعـــات وأخطر الاكتشافات ، الجيل الذي فيه ملايين المؤمنـــين بـــالقرآن الـــذي يقـــول ﴿الأَرْضَ قَـــرَارًا﴾ ويقول ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾ . وفيهم ملايين المؤمنين بـــالكتب المقدســـة الثـــابت فيـــها أن الأرض ثابتة والشمس هي التي تدور حولها . وفيهم رجال الفكـــر والفـــن والأدب والسياســـة ، يضحـــك إبليس على كل هؤلاء ويستغفلهم ويقلبهم رأسا على عقب كما قلـــب فطـــرة قـــوم لـــوط وقـــوم شعيب وقوم إبراهيم .. وغيرهم وغـــــيرهم .

ورب قائل يقول إن مخترعاهم ومكتشفاهم هـــي الـــتي أدت إلى هـــذا الانقـــلاب كاكتشـــاف من الاكتشـــافات .

نقول : إن إبليس نجح أن يقنع البشر بذلك قبـــل هـــذا الاختراعـــات والاكتشـــافات حـــتى يكون هو صاحب الفضل في هذا التحويل وأنه وحده عليه اللعنة الـــذي قلبـــهم علـــى رؤوســـهم .

أم ترى : هل كانت البشرية كلها والحضارات كلها هي الـــتي كـــانت علـــى ضـــلال وهـــذا الجيل فقط في هذا القرن ، هو الذي عرف الحقيقة التي عميـــت علـــى الأســـلاف ؟ كمـــا يقـــول (عباس محمود العقاد) : " وقد جهل الناس شأن الشمس الساطعة وهي أظـــهر مـــا تـــراه العيـــون ، وتحسه الأبدان . ولبثوا إلى زمن قريـــب يقولـــون بدورانهـــا حـــول الأرض ويفســـرون حركاتهـــا وعوارضها كما تفسر الأحلام والألغاز . ولم يخطر لأحـــد أن ينكـــر وجـــود الشـــمس لأن العقـــول كانت في ظلام من أمرها فوق ظلام ، ولعلـــها لا تـــزل " .

إنه لأمر غريب حقا ، بل لعله من أغرب الأمور الـــتي حدثـــت في حيـــاة البشـــر ، أن يعيـــش الناس ومعهم أنبياؤهم في ظلام طوال تاريخهم على الأرض وقد ظـــهر فيـــهم فلاســـفة ومفكـــرون أثروا في عقول الناس أحقابـــا .

ثم كيف يترك الإله عبيده في ظلام وضلال من هذا الأمـــر طـــول هـــذا الوقـــت ؟ لمـــاذا لم يتطوع أحد الأنبياء المائة وأربعة وعشرين ألفا وينبهوا أممهم لهذا الضـــلال وهـــم الذيـــن حدثوهـــم عن كل كبيرة وصغيرة ؟ أم ترى أن الأنبياء والمرسلين أنفسهم كانوا يجـــهلون هـــذا الـــذي علمـــه كوبرنيقوس وجـــاليليو ؟

رباه .. إنه لأمر محير .. هل كان جاليليو الذي كان عدد النســـوة اللاتـــي كـــان ينـــام معـــهن أكثر من عدد الرجال الذين عرفهم ، أعلم بالكون من محمـــد ﷺ الـــذي كـــان أطـــهر مـــن مـــاء

السماء ؟ هل كان جاليليو الذي لم يتزوج وعاش حياته بين المومسات أعلم من عيسى روح الله ابن الطاهرة البتول ؟ هل كان جاليليو الذي أنجب أولاده جميعا من الحرام أعلم من موسى كليم الله ، المخلص الرسول ؟؟ رباه .. أين الحق ؟ أين الحقيقة ؟ .

لكن ما ضرني إذ لم أعرف الحقيقة ؟ ما ضرني لو كانت الشمس هي التي تجرى حول الأرض أو أن الأرض هي التي تفعل ؟ هل سيغير هذا من الأمر شيء ؟ هل سيؤثر ذلك عليَّ في شيء ؟ ألست مستفادا بالشمس على أي حال ؟

لا .. لا .. الأمر أكبر من استفادتي للشمس .. وأكبر من مجرد علمي أو جهلي بحقيقة أمرها . الأمر أخطر .. إنه جد خطير ، إذ لو كانت الشمس هي التي تجرى والأرض ثابتة فإن ذلك يعنى استنتاجا خطيرا .. أن الأرض كلها ليس عليها رجل رشيد . ولكن هل هذا معقول ؟

ولو كانت الأخرى لكان الأمر أخطر وأفدح . إنه استنتاج لا يمكنني كمؤمن بالله وكتبه ورسله أن أتصوره .

ألا من حل وسط ؟ ولكن أي وسط بين أمرين ليس في الوجود كله أبين منهما . سكان الأرض الآن يقولون بأن الأرض هي التي تدور حول الشمس .. هكذا ثبت لهم الأمر أخيرا .. وسكان الأرض من آدم حتى قبل قرن كانوا يقولون بأن الأرض ثابتة وأن الشمس تجرى حولها . وقد أخبرت بذلك كل الحضارات دون استثناء ، وقد أيدهم في ذلك كل الأنبياء دون استثناء ، وأيدهم جميعا الله في جميع الرسالات من صحف إبراهيم وموسى إلى قرآن محمد صلى الله عليهم أجمعين .

أم ترى أن كلاهما مصيبا في رأيه ، سكان الأرض الآن ، وسكانها قبل قرن ؟ أي أن الشمس والأرض تبادلتا الأدوار منذ قرن أو ثلاث قرون عندما أثبت ذلك جاليليو ؟ أو عندما أكتشفها كوبرنيقوس ؟

إنها أيها السادة مشكلة .. من نصدق ؟ ومن على الصواب ومن على الخطأ ؟ ومن على الهدى ؟ ومن على الضلال ؟

أتكون البشرية الآن بكل مكتشفاتها ومخترعاتها وعلومها وتقدمها على ضلال ؟ أم تكون البشرية قبل ذلك بكل تاريخها وكتبها وأنبيائها هم الذين كانوا على ذلك ؟ وبالطبع لا يمكن أن يكون كلاهما على خطأ أو كلاهما على صواب .

الحق أقول لكم إنني ، عن نفسي ، لست متشككا في أن الأرض ثابتة وأن الشمس وكل ما في السماء يدور جميعا حول الأرض كل يوم دورة . إنني على يقين من ذلك . سبحان الله .. هل أكذب كلام الله ؟ هل أكذب كلام الأنبياء ؟ هل أكذب كل بني آدم من آدم إلى جاليليو أو كوبرنيقوس ؟ هل أكذب عيني ؟ أكذب نفسي ؟

إنني أيها السادة أخالفكم جميعا ، أخالف كل سكان الأرض ، الذين ولدوا بعد عصر النهضة حتى الآن وإلى أن تغيروا رأيكم إلى ما يقوله الله في كل كتبه وما يقوله كل الأنبياء . وما تقوله كل الحضارات . وسموني أن شئتم رجعياً .. أو متخلفاً .. أو حتى مجنوناً . فلا ضير ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ .

إن في إجماعكم أيها السادة على ما تقولون من دوران الأرض حول الشمس انتصار لإبليس . وانتصار لحزبه الذي صنع عصر الإلحاد وسماه تلبيسا عليكم (عصر النهضة) وانتكستم نفس الانتكاسة التي انتكسها أقوام كثيرون ظهروا على الأرض ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

لا تقولوا أن الأمر ليس فيه مشكلة إلى هذا الحد الذي أراه . بدليل أن أحد الفريقين من كان قبل عصر النهضة ومن كان بعده لم تقصر الشمس في حق أي منهما ، تماما كما أن الله تعالى لم يقصر في حق أحدهما ، حتى من كفر به أعطاه حقه غير منقوص . فالأمر أخطر مما تظنون . فالقول بدوران الأرض ومركزية الشمس هو في حقيقته رفع لراية الشيطان وانتصاره ، نرفعها جميعا على أرض الله . لأن فيه مخالفة صريحة للرحمن واتباع كامل للشيطان .

قصة إبليس مع الشمس

إن مقولة دوران الأرض حول نفسها ، وحول الشمس ، ومركزية الشمس للكون ثم التعديل إلي مركزيتها لمجموعة الكواكب ، لها مع إبليس قصة . بل إن الشمس ذاتها لها مع إبليس قصة طويلة .

لقد استطاع إبليس بكل وسائله غير المشروعة ، أن يخرج البشرية كلها متمثلة في (آدم) من الجنة ويهبط بها إلى الأرض بغوايته ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (طه:١٢١) .

ونجح إبليس أن يقنع آدم وزوجته حواء بأن يأتيا النهي الوحيد لهما وأن يأكلا من الشجرة الوحيدة المحرمة من دون كل شجر الجنة . ولم يترك إبليس في سبيل ذلك وسيلة إلا فعلها فوسوس ، وقال ، وأقسم ، وخدع ، وغش ، وفي النهاية .. نجح .

وكان رمز نجاح إبليس أن تعرى آدم وزوجه وكشفت عورتهما . ولولا توبتهما السريعة والصادقة لخسرا خسرانا مبينا .

وقصة إبليس مع الشمس من أكبر قصصه ، فرغم أنها أعبد خلق الله لله ، وأطوع خلق الله لله وأنفع خلق الله لخلق الله ، فقد نجح إبليس أن يعبد معظم الناس الشمس . هذه المسخرة لهم ، المذللة لمنفعتهم ، الدائبة لخدمتهم ، استطاع إبليس أن يقنع الناس باتخاذها إلهاً يعبد من دون الله .

المطالع لتاريخ البشر يجد أن الشمس احتلت المركز الأول بين الآلهة التي عبدت من دون الله . ولم ينل معبود ما نالته الشمس من عبودية من البشر .

لذلك ليس غريباً أن يجعلها الله أول وأكبر علامة على مجيء يوم القيامة بطلوعها يوماً بين يدي الساعة من مغربها . وليس عجيباً أن يكورها الله تعالى يوم القيامة ويلقى بها في النار . وقد كانت من أعظم العباد لله ، وليس ذلك تعذيباً لها ، فهي ستكون في النار مثلها مثل خزنة النار من الملائكة ، ولكن ليراها البلايين الذين أطاعوا الشيطان وعبدوها أنها معهم في النار ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الأنبياء) .

إن أمما بأسرها بحكامها ومحكوميها ، بعلمائها وعوامها ، بحكمائها وسفهائها ، برجالها ونسائها . أغواهم الشيطان فعبدوا الشمس التي هي خادمة لهم ومسخرة .

هذه أمة من أسعد الأمم ، وحضارة من أكبر الحضارات يغويها الشيطان بالشمس وقص الله علينا في سورة (النمل) خبرها فقال تعالى حاكيا عن هدهد سليمان : ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ .

القدماء المصريون وصلوا إلى حضارة خلدها التاريخ ، ورغم أن الله تعالى دمرها فقد أبقى بعض أطلالها لتشهد لهم بما أوتوا ، وبقدرة الله عليهم ، رغم ذلك . يقول تعالى : ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (الأعراف : ١٣٧) فإذا كانت هذه

الآثار العظيمة الموجودة حتى الآن هي جزء لا يذكر مما دمره الله لهم فكم تكون صناعتهم وحضاراتهم . هؤلاء بحضارتهم وعظمتهم غرر بهم الشيطان وعبدهم للشمس ، فكانت أعظم آلهتهم وأول معبوداتهم ، فبنوا لها المعابد ، وسموا باسمها المدن ، واتخذ كثير من الأسر الفرعونية قرص الشمس رمزا لهم ، وتاجاً على رؤوس ملوكهم . وكانت على المدى الطويل الإله الرئيسي بين الآلهة .

وكانت الشمس في أجزاء متعددة من بلاد الشرق موضوعاً بارزاً للعباد ففي بلاد (إليريا) (منطقة قديمة كانت على ساحل البلقان) وجد تراث قديم لعبادة الشمس .

وفي سوريا كانت المدينة التي نسميها مدينة " بعلبك " معروفة عند اليونان باسم " هليوبوليس " أو مدينة الشمس .

وكذلك في بلاد ما بين النهرين حيث انتشرت عبادة الكواكب .

أما في فارس فقد كانت الشمس أحد الضباط الأساسين لأهورا مزدا في صراعه في الظلام ، وكان لـ (سول) إله الشمس عبادة قديمة في روما ومع تحرك مركز الجاذبية للإمبراطورية الرومانية تجاه الشرق أن تزداد عبادة الشمس قوة ، ولقد كانت قوية بالفعل في الدعاية للإمبراطورية فكان بيت نيرون الذهبي مسكنا ملائما للشمس المجسدة . كما أضفى أنطونيوس ، الإمبراطور الروماني على الشمس احتراما خاصاً . ولقد أصبحت عبادة الشمس مهيمنة في عهد أسرة سيفروس فكان إله الشمس يصور مع لحية سيفروس (من أباطرة الرومان) المتميزة . واتخذ الإمبراطور لقب (الذي لا يقهر) وكان هو اللقب الخاص بالشمس ، وكان ذلك تطورا طبيعيا ، فالشمس كانت رمزاً توحيدياً ونقطة تجمع للإمبراطورية بأسرها .

وفي عام ٢٧٤ م نصب أورليان إله الشمس إلهاً أعظماً للإمبراطورية الرومانية . وقال أرنست رينان (إمبراطور روماني) لو أن المسيحية انهارت لسادت في العالم عبادة الشمس .

وقد كانت مسيحية الإمبراطور قسطنطين مسيحية مبهمة غامضة فأسرته كانت تدين بالولاء التقليدي لإله الشمس .

ونظرا للدور الذي لعبه الشيطان مع البشر باستغلال الشمس ، فقد كان للشمس دور بارز وشأن آخر في الإسلام ، فقد أعيد للشمس وضعها الصحيح ووضعت في مكانها الطبيعي ، ونفي عنها ما ليس لها . وأثبت لها ما خلقت له ، فهي في العقيدة الإسلامية جرم

من أجرام السماء تعمل في خدمة الإنسان فهي مسخرة له ، تدور حول الأرض دائبة ، طائعة لربها ومسخرها ، ليس لها من أمرها شيئا ، إنما أمرها لله .

وبعد أن كانت الشمس قبل ظهور الإسلام أشهر الآلهة ، وأول معبود ، فقد أصبحت أكبر رمز للعبادة ، والعلامة الرئيسية لعبادات المسلمين الكبرى لله الواحد الأحد . فبها تتحدد مواقيت الصلوات الخمس . وبها يبدأ وينتهي صوم رمضان ، وبغروبها تجب زكاة الفطر . والوقوف بعرفة في الحج ، وبطلوعها يتحدد مواقيت صلاة العيدين ، حتى عندما تكسف تشرع صلاة الكسوف ، وهي كلها عبادات تؤدى لله سبحانه وليس لها . ثم بطلوع الشمس من مغربها إيذانا بانتهاء عمر أمة الإسلام . وعند ذلك تنتظر الأرض ومن فيها والسماء ومن عليها قيام الساعة .

هكذا جعلت أمة الإسلام الشمس دليلا على عبادة الله على غير كل الأمم . يقول تعالى : ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ (الإسراء :٧٨)

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ (طـه: ١٣٠).

وغلقاً لباب الفتنة وسدا للذرائع نهي رسول الله ﷺ عن الصلاة حال شرق الشمس أو غروبها . لعدم التشبه بعبادها .

وهكذا أعيد الوضع الطبيعي والصحيح للشمس ، أنها عابدة لا معبودة ، وأنها مسخرة لخدمة أهل الأرض .

وبالطبع لا يرضي هذا إبليس فبدأ يعمل مرة أخرى لتغيير الوضع ، ولأن قصته مع الشمس ، لا تنتهي إلا بنهاية الشمس ، فهو عليه اللعنة اتخذ لنفسه عرشاً ، وجعله تحت الشمس مباشرة ، ليرضي بذلك غروره ، متوهماً أن الشمس تسجد له عندما تسجد لله ، وأنها تطلع من عنده عندما تطلع من مستقرها . وقد ثبت عن رسول الله ﷺ " أن الشمس تطلع بين قرني الشيطان " والمؤكد أنه لا علاقة للشمس بالشيطان ، ولا شأن لها به ، لكنه هو الذي جعل عرشه تحت مستقرها ، ثم هو ينتصب بقرنيه كلما وصلت الشمس إلى هذا المستقر ليبدو أنها تشرق أو تغرب من بين قرنيه .

وقد عمل عليه اللعنة بصبر وتؤده على ان يغير الناس نظرتهم إلى الشمس وخاصة المسلمين الذين أنهوا عبادة الشمس بين الناس ، وظلت بعقيدتهم التي نشروها تدور مسخرة حول الأرض لعدة قرون ، وكأن إبليس يقول للبشرية : تكفيكم هذه القرون من تعبيد الشمس لله ، ولتعد للشمس قداستها .

وجاء كوبر نيقوس : (١٤٧٣ - ١٥٤٣)

وطبقا لخطة محددة من إبليس بدأ بتنفيذ خطواقــا خطــوة خطــوة ، أوحــي إلى كوبرنيقــوس بالفكرة ، وذلك لتغير الأوضاع القائمــة ، لا لشــيء أكــثر مــن مخالفــة الله ، وبتغيــير وضــع الشمس التي طال استقرارها أكثر ممــا ينبغــي .

ووضع كوبرنيقوس ما أوحاه إليه الشيطان في كتــاب سمــاه(حركــات الأجــرام الســماوية) قال فيه : " في هذا المعبد الكبير ، من ذا الذي يستطيع أن يضع تلــك الشــعلة المضيئــة في مكــان آخر سوى المركز ، حيث تضئ كل الأشياء في وقــت واحــد .

فهذه الشمس هي نور العالم ، بل هي روحه بل هي التي تتحكــم فيــه وهــي جالســة علــى عرشها القدسي ، ترشد أسرة الكواكــب إلى طريقــها " .

كانت هذه أيها السادة الآية الشيطانية الأولى في كتــاب كوبرنيقــوس الــذي كــان الســبب في الانقلاب الكبير ، فلم يكن الأمر بأدلة أو باكتشــاف خطــأ البشــرية القــديم ، بــل كــانت البداية ملحدة ، كافرة ، أن الشمس من فوق عرشها القدسي تســير وترشــد وتتحكــم في العــالم . وهذه صفات الربوبية والألوهة ، تعطى للشمس لكي تعبــد مــن جديــد مــن دون الله . ثم جــاء كوبرنيقوس بأدلة بعد ذلك (مسروقة) ليثبت بها ألوهيــة الشــمس . والحقيقــة أن هــذه الأدلــة التي سرقها كوبرنيقوس كانت تثبت عبودية الشــمس وحركتــها وتســخيرها ، ولكنــه بــالغش والخداع استبدل الألفاظ بغيرها على الوضع الــذي ســنراه .

يقول " أحمــد ســعيد الدمــرداش " في عرضــه لكتــاب (حركــات الأجــرام الســماوية) لكوبرنيقوس : " لأول وهلة عند قراءة كتاب كوبرنيقــوس الــذي يتــألف مــن ســتة أجــزاء لا يستطيع المرء أن يفرق بينه وبين كتاب المجسطي للخوجه نصر الديــن الطوســي ، نفــس الــترتيب ونفس جداول القسي وأوتارها وجداول القســي وجيوبهــا ، فقــط غــير كوبرنيقــوس موضــع الشمس بموضــع الأرض " .

ثم يضيف (الدمرداش) " أما في جــداول حركــات أوســاط القمــر وجــداول الاختلافــات الجزئية ، وجداول اختلافــات منــاظر النــيرين في دائــرة الارتفــاع ، وجــداول الاجتماعــات والاستقبالات ، فتكاد تكون نقلا ، ذلــك لأن كوبرنيقــوس لا يعقــل أن يقــوم بكــل الأرصــاد التي أخذت من الذهن البشرى آلافا من السنين قبلــه ، فــهو اكتفــي بذكرهــا بعــد إدخالهــا في إطار نظامه الجديــد " .

هذا هو الكتاب الذي استبدلت كلماته بكلمات الله ، كتاب مسروق ، كل ما فيه هو تماما ما في كتاب تحرير المجسطي للخوجه نصر الدين الطوسي . ولم يأت فيه كوبرنيقوس بجديد كل ما فعله أنه استبدل كلمة الأرض بكلمة الشمس والعكس ، وانقلب نظام الكون بهذا الأسلوب .

والحقيقة أن فكرة دوران الأرض لم يكن كوبرنيقوس هو مفكرها ومبتدعها إنما قال بها قبله الفيلسوف الإغريقي فيثاغورث – الذي ظهر قبل ميلاد المسيح -- ولم تحظ مقولته بقبول أو اهتمام ولم يلتفت لها أحد ، ولم تخرج من الورق الذي كتبت فيه ، والتي وقعت في يد كوبرنيقوس فأخذ الفكرة ووجدها مناسبة لحل بعض معضلات أراء بطليموس في تفسيره لحركة الأجرام السماوية ، وقد وجد بها كوبرنيقوس تعقيدا ، لأن الدوران الذي فسر به حركة الكواكب كان يعتمد على دوران كل كوكب حول نقطة معينة ، هذه النقطة تدور بدورها حول الأرض وسمى بطليموس هذا الفلك الذي يدور فيه حول مركز وهمي أنه فلك التدوير بموجبه يكون الكوكب السيار الدائر حول الأرض مقتربا من الأرض حينا ومبتعداً حيناً آخر، أثناء دورانه ، على أن الفرق بين البعد والقرب ليس كبيرا . وهذا تفسير خاص ببطليموس كتفسيرات غيره التي لا تعتمد على دين ولا على علم حقيقي لأنهم جميعا لم يشهدوا خلق السموات والأرض .

ورغم أن هذا التفسير لم يرق لكوبرنيقوس إلا أنه جاء بتفسير أعقد ، أخذ الفكرة فيه من فيثاغورث الذي قال فيها قولا فلسفيا ، غير أن كوبرنيقوس حوره على أساس تجريبي رياضي حيث قد بدأ في أوروبا آنذاك ظهور علامات الاتجاه التجريبي الذي كان ولادته على يد جاليليو الذي يعتبرونه رائد لهذا المذهب . وهو مذهب ينبذ النظريات الفلسفية التي تعتمد على مجرد الفكر والتأمل والاعتماد على التجربة والمشاهدة مع تنحية فكرة (الإله) جانبا . ليتحركوا في تجاربهم دون قيود من دين أو فلسفة .

بنى كوبرنيقوس نظريته على الأسس التالية :

(١) لا توجد مراكز لجميع الدوائر والكرات السماوية .

(٢) مركز الأرض ليس مركز الكون بل هو مركز الثقل لها فقط .

(٣) أن الشمس هي مركز الكون وجميع الكرات تدور حولها .

(٤) بعد الأرض عن الشمس يعتبر ضئيلاً بالنسبة لارتفاع كرة النجوم الثوابت .

(٥) للأرض حركة دورانية حول نفسها كل يوم وما يشاهد من حركات النجوم نتيجة لحركة الأرض .

(٦) للأرض حركة أخرى سنوية حول الشمس .

(٧) للأرض حركة ترنحية (مثل حركة النحلة التي يلعب بها الأطفال) فإنها تترنح عند دورانها .

(٨) تدور الأرض في دائرة ليست الشمس في مركزها . بل مركزها نقطة أخرى هذه الأخيرة تدور حول الشمس .

ووقع كوبرنيقوس في تعقيد أشد مما أخذه هو على تفسير بطليموس السكندري لحركات الكرات السماوية ، وتعرض لنقد عنيف نتيجة التناقض الكبير في تفسيره ونظريته .

وشعر كوبرنيقوس بخطورة ذلك التحول الفكري ، وتصادمه مع المحسوس ، وتناقضه مع الدين ومعتقدات الناس جميعا فاستشهد بإحدى قصائد شاعر الرومان " فرجيل " الذي يقول :

" إننا نبحر في الميناء

نرى البلاد والمدائن تتحرك إلى الوراء .

هذه حواسنا التي تخدعنا كل يوم .

فما نراه متحركا هو في الحقيقة ساكنا .

والنجوم نشاهدها كل يوم تتحرك ، وهي ليست كذلك ،

إن الأرض التي نقف عليها هي التي تتحرك " .

وعلى هذا فقد أنكر كوبرنيقوس كل الظواهر المرئية واعتبرها نتيجة لدوران الأرض أي أنه في مقابل إثبات بطليموس لحركات غير مرئية للأجرام السماوية حيث أنها تدور حول نقطة معينة ثم وهي تدور حول الأرض . فهكذا قال بطليموس وأرسطو . فيأتي كوبرنيقوس ليلغى هذه الحركة الغير مرئية ، ويقابلها أيضا بإلغاء الحركة المرئية الظاهرة ويقول بتفسير حركاتها بدوران الأرض حول نفسها بينما هي ثابتة .

هذه هي نظرية كوبرنيقوس ، لان بطليموس أثبت للكواكب حركة غير مرئية فيلغى هو ، ليس فقط الحركة الغير مرئية بل الحركة المرئية أيضاً . ثم تكون أدلته من كتاب نصر

الدين الطوسي ، بل الكتاب ذاته بعد أن يستبدل مواضع الشمس بالأرض ينسب الكتاب إلى نفسه . ولم يفطن أحد لهذه السرقة إلا في أيامنا هذه .

وقوبلت نظرية كوبرنيقوس بانتقادات شديدة منها :

أن الحركة السريعة التي أثبتها للأرض حول نفسها وحركتها حول الشمس كفيلة بأن تقذف جميع الأجسام الموجودة عليها إلى الخارج فلا يبقى على الأرض شيء .

وكان رده على هذا النقض بأن أرسطو أيضا يقول بأن النجوم الثوابت معلقة كالقناديل في كرة شفافة هي الفلك الأخير رغم أنها أسرع دورانا من أي كرة فإن النجوم لا تتناثر في الفضاء ، هذا هو رده ، فكما أن النجوم لا تتناثر من فلكها المسرع فكذلك الأشياء التي على الأرض .

كما اعترضوا على نظريته بأننا إذا أطلقنا قذيفة عمودية فوق الأرض فإنها بعد مدة ستسقط في مكانها ولو كانت الأرض تتحرك وتدور فلن تسقط القذيفة في مكانها . ورد كوبرنيقوس بقوله : إن الجسم المقذوف يأخذ حركتين ، حركة لمركز الأرض بطبيعته وحركة دورانية حول الأرض وهذه الثانية لا نراها .

يقول (الدمرداش) : " قام كوبرنيقوس بالرد على الاعتراضات بنمط هجين تصورات أرسطاطاليسية مع أفكار أخرى غريبة ، وفي الواقع إن نظرية مركزية الشمس للكون التي نادى بها كوبرنيقوس في متنه الكبير ، قد خلقت ناقصة التكوين واحتاج الأمر إلى سنين أخري ليظهر عباقرة أمثال جاليليو وكبلر ونيوتن يقومون بتدعيمها فيزيقيا ورياضيا " .

لقد كتب كوبرنيقوس متنه هذا ليس على أساس أن ما توصل إليه فيه هو الحق ، بل إنه كان مفترضاً لما يقول . ويقال أنه لعدم قناعته الكاملة بنظريته ولنقص الأدلة العلمية ، ولخشية السخط العام ، فإنه لم ينشر نظريته حتى توفي ، فقام " رثيكوس " أحد تلامذته بنشر الكتاب بعد ثلاثة عشر عاماً من تأليفه وذكر في مقدمته أنه يعرض النظرية ليست على أساس ثبت علمي بل كافتراض قابل للعكس . لهذا ظلت نظرية كوبرنيكوس قرنا من الزمان لا يرد عليها نظرا لتهافتها وللقناعة التامة من جماهير الناس بعكس ما يقول كوبرنيقوس ، لذلك لم يحدث صداماً بين كوبرنيقوس والكنيسة ، وقد كانت آراء كوبرنيقوس معلومة للكنيسة ولأوساط العلماء والتجريبيين والفلاسفة ، قبل أن ينشرها في كتاب ، لأنه نشرها قبل ذلك في مقالات ، وذكرها في محاضرات . إذ أن الكنيسة رأت أن ما يعرضه " مجرد افتراضات

لا تؤثر في الحقيقية أو واقع الأمر شيئاً " بل كان مفكري عصره يتندرون على آرائه كلما ذكرت . يقول " مارتن لوثر " : " أرى الناس يصغون إلى منجم جديد يبذل جهده في البرهنة على أن الأرض هي التي تتحرك لا السماء وما فيها من أفلاك وكيف يريد هذا المعتوه أن يقلب أساس علم الفلك ، والكتاب المقدس يخبرنا بأن يوشع أمر الشمس بالوقوف لا الأرض " .

ويؤيد (كالفن) ذلك القول بقوله بعد الإشارة إلى أحد نصوص التوراة : " إن الأرض ثابتة بحيث لا يمكن تحريكها ، ومن ذا الذي يتجاسر بأن يضع رغبة كوبرنيقوس فوق إرادة القدرة الإلهية " .

وإن لم تكن الكنيسة قد تدخلت ، فقد انتقد المفكرون كوبرنيقوس ذاته بشدة وذلك لأنه قال ما يعارض الدين بهذه النظرية التي ليست فقط تفترض دوران الأرض وثبات الشمس ، بل بإلغاء فكرة العلة الإنسانية لنظام الكون وهي مبدأ أساسي في الدين ، كذلك تلغي نظريته فكرة وجود محرك لهذه الكرات السماوية ، بل إنها تتحرك بإرادتها وبتأثير الشمس وليس أمر آخر . وجاء نيوتن وأكد ذلك بنظرية الجاذبية التي ألغت فكرة الإله بالمرة .

إن كتاب كوبرنيقوس عن الحركات للكرات السماوية ، وكتاب جاليليو " الحوار " الذي أيد فيه هذه النظرية وحاول إثباتها ، أتمنى أن يقرأهما علماء المسلمين ليروا كيف أن هذين الكتابين الذين أحدثا الانقلاب الكوني كما نرى كانا أساسا لمعارضة فكرة الدين وإلغاء كل المبادئ الدينية ، ذلك الذي أثار حفيظة رجال الكنيسة ، وليروا كم كانت ضربتهم هم للدين قاصمة لتأييدهم أفكار هذين الرجلين ، واتهامهم لرجال الكنيسة بالجمود والتسلط .

رائد عصر الإلحاد : جاليليو جاليليه

لقد كان من الممكن أن تدفن أفكار كوبرنيقوس في طي النسيان حيث مر قرابة قرن من الزمان ولم يتغير في الكون شيء ، ولم يكن ثم جديد عن الشمس والقمر ، لولا أن سخر إبليس جندياً جديداً من جنوده الذي كان أجدل من كوبرنيقوس . إنه جاليليو جاليليه الذي ولد في ١٥ فبراير عام ١٥٦٤ في مدينة (بيزا) الشهيرة ببرجها المائل ، وتلقى علومه بجامعتها وعين مدرسا للرياضات بتلك الجامعة . ثم بدأ اهتمام جاليليو بعلم الفلك وقرأ كتابات

كوبرنيقوس واقتنع بها وراح يناصرها في محاضراته وكتاباته . وكان أكثر ما جذب جاليليو لأفكار كوبرنيقوس معارضتها لمبادئ الدين الأساسية .

وبدأ جاليليو أولا بإبراز عدم تنافر التعاليم الكوبرنيقية مع تعاليم الكنيسة . ثم بعد ذلك طالب جاليليو رجال الكنيسة بعدم تدخلهم في الأمور العلمية وتركهم يقولوا ما يقولون حتى لا تبدو الكنيسة في موقف العاجز في المستقبل .

وعلى الجانب الأخر بدأ جاليليو يدعو لتعاليم كوبرنيقوس . جرأة منه ومن علماء عصره في تناول قضايا تمس صميم الدين ، فحرمت بعض الكتب العلمية وهي ليست بالطبع علمية بالمعنى الصحيح للعلم ، بل كانت في الحقيقة كتبت كفرية . ووجهت الكنيسة تحذيرا إلى جاليليو للكف عن مناصرة الآراء الكوبرنيقية .

وفي عام ١٦٣٢ أنهي جاليليو كتابه وطبع (الحوار) وهو الكتاب الذي غير نظام الكون رأساً على عقب رغم أنه لم يأت بأدلة جديدة على أدلة كوبرنيقوس غير أنه عمل على الرد على جميع الانتقادات التي وجهت للنظرية ، هذا فضلا عن احتواء الكتاب لأراء تنطوي على كفر صريح بالدين وتكذيب لأمور الغيب من الجنة والنار والعرش والملائكة وغيرها ولولا خشيته من رجال الكنيسة لأنكر وجود الله . بيد أنه وإن كان قد اثبت للكون إلها فقد كان إله كالعدم فقد سلبه جميع خصائص الألوهية والربوبية ليصبح إلها خاصاً بعلماء عصر النهضة شبيها بعض الشيء بإله أبي جهل وأبي لهب إلا أن الأخيرين على كفرهما أكثر إيمانا من جاليليو وأتباعه .

وإزاء هذا الموقف من جاليليو فقد حذرت الكنيسة بيع الكتاب بعدما احتال جاليليو على طبعه ، وإذ لم يمتثل جاليليو بقرار الحظر تم تشكيل محاكمة لمحاسبته بسبب ذلك .

وخلال أربع جلسات للمحكمة تراجع جاليليو عن آرائه وتنصل من كتابه وتبرأ من كوبرنيقوس وأشيع الأن كذبا أن جاليليو ظل يصرخ في الجلسات وفي محبسه بمقولة . أراد علماء اليوم أن يصنعوا بها من جاليليو بطلا أسطوريا .

وإن كان في الحقيقة قد أصبح كذلك دون حاجة لأي كلام إذ أشيع أنه كان يردد هذه العبارة حتى صارت مثلاً " ومع ذلك فالأرض تدور " . بل إن الذي يعلمه المطلعون والباحثون أن جاليليو تبرأ راكعا من كل ما قال . وقال :

" إنني لم أتمسك بالآراء الكوبرنيقية ، كما أنني لم أتمسك بها منذ أن صدر لي الأمر بالكف عنها وعلى كل حال ، فإنني أؤيدكم فلتفعلوا إذاً ما ترونه " .

ومثلما فعل كوبرنيقوس بكتابه (حركات الكرات السماوية) وقال فيه : إن هذه الكرات لا يحركها محرك من خارجها بل تتحرك بإرادتها وبتوجيه من الشمس . وكانت هذه هي البذرة لإلغاء وجود الله . ذلك الذي لم يصل إليه كفار العرب عندما قال عنهم الله في سورة العنكبوت الآية (٦١) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ ، فقد فعل ذلك أيضا جاليليو بكتابه الحوار الذي جاء ليقضي على أهم المبادئ التي قام عليها الدين ويجتثها من الجذور ، حتى قال البابا (أوروبان الثامن) " لقد كان جاليليو باعثا لأكبر فضيحة للمسيحية " .

نعم إلى هذا الحد تشبع جاليليو بالأفكار الإبليسية والتعاليم الكوبرنيقية ووجه سهاها مسمومة إلى المبادئ الأساسية للدين . وأصاب جاليليو الغرض وانتشر سمه ليس فقط في أوروبا بل في كل القارات ، وليس فقط في المسيحين بل وفي المسلمين واليهود على السواء .

جاء بمقدمة الحوار ، وقد كتبت له مقدمات إحداها لأينشتاين : لقد كان مبدأ جاليليو هو تعديل لما روجت له الكنيسة من أحكام علمية منها :

(١) أن الأرض تشكل شيئا دنيئا ممتلئا بالرذيلة بينما السماء هي دار الفضيلة ومن ثم فإن الأرض تختلف عن السماء في الجوهر والمرتبة .

(٢) أن كل ما في السماء من كواكب ونجوم قد خلقت لعلة الأرض ومن أجل إنارتها وإسعادها . ومن ثم فيتحتم أن تكون الأرض في المركز من السماء وأن كل الأجرام السماوية تدور في أفلاكها حول هذه الأرض .

(٣) أن فوق أرضنا هذه سبع سماوات بعضها فوق بعض ، طبقة فوق طبقة ثابتة حول الأرض .

(٤) أن الأرض خلقت لعلة الإنسان وجعل ما في الكون لعلته وخدمته .

هذه أيها السادة المبادئ التي كانت تروج لها الكنيسة والتي من أجلها كما يقول واضعوا مقدمات الكتاب ألف جاليليو كتابه ، وهو فعلا ما يفهم من الكتاب الذي وضعه جاليليو في ثلاثة أجزاء ليبطل بالدليل ما تروج له الكنيسة من تعاليم .

ورغم أن جاليليو بكتابه هذا هو الذي أيقظ الفتنة النائمة القائلة بدوران الأرض وثبات الشمس ومركزيتها للكون . فإنه لم يأت بدليل على ذلك سوى دليل واحد لا غير في كل

أجزاء كتابه الثلاث وفيها أكثر من ألف صفحة ، وباقي الكتاب دحض لتعاليم الكنيسة التي ذكرناها بكم هائل من الفلسفة ، والسفسطة والجدل العقيم ، الذي لا يمكن بأي حال أن يقنع سوى الكاره للدين المنكر لوجود إله لهذا الكون . وقبل أن نذكر دفوع جاليليو على هذه التعاليم نوجه سؤلا لعلماء الإسلام الإجلاء :

هل في هذه التعاليم المسيحية ما يتعارض مع العقيدة الإسلامية ؟

تعالوا الآن لنرى دفوع جاليليو التي أوردها في كتابه الذي غير به الأحوال :

أما عن الدفع الأول :

فقد عمل جاليليو على إثبات أن الأرض متحركة مثلها مثل الأجسام السماوية الأخرى . وهي تمتلك صفاقا ، وجوهر الأرض لا يختلف عن جوهر هذه الأجسام ، بل إنها تتفاعل معها وتؤثر فيها كتأثير الند للند ، وهي في سلسلة من الكواكب تدور حول الشمس ليست هي أول أو آخر أفرادها . فإن كان الحال هكذا فلم التطلع إلى السماء باعتبار أن فيها الدار الأسنى والتي تسكنها الملائكة وتستقر فيها الأرواح الخيرة بعد تركها تلك الأجسام المتعفنة ، وإن كان الحال كذلك فلم تكون الجنة في السماء ، أو النار في كوكب كذا وكذا .

هذا هو الدفع الأول الذي دفعه جاليليو وأراد إثبات أن الأرض لا تختلف عن غيرها من الأجرام السماوية وهي لذلك تدور مثلها . وأنه ليس هناك شيء اسمه أدنى وآخر أسمى . وليس في السماء ملائكة ، ولا أرواح المؤمنين ، ولا جنه ثم ولا نار، فالكون كله ليس إلا أعداد هائلة من الأجرام السماوية السابحة في الفضاء الذي ليس له نهاية . استغرق الرد على هذا الدفع الجزء الأول من كتاب جاليليو (الحوار) .

أما الدفع الثاني

تمثل في القول بأن الكون يحتوى على عدد لا نهائي من النجوم التي تحيطها الكواكب ، تختلف في أبعادها عن مركزها ، كاختلاف أبعاد كواكب المجموعة الشمسية عن مركزها وهو الشمس . ومن ثم فإن احتمال توفير ظروف جوية مماثلة لتلك السائدة فوق الأرض ، أو باختصار احتمال وجود عدد لانهائي من الأراضي في هذا الكون يظل قائما ما قامت الأرض ، وما وجدت مجموعتنا الشمسية نفسها . إذاً فالأرض ليست مركزا لمجموعتنا الشمسية . أو لكوننا الصغير . ولا هي مركز للأكوان الصغيرة الأخرى . كما أن احتمال

وجود حياة فوق ملايين الأراضي المحتملة فوق هذا الكون تنفي أن يكون الكـون كلـه قـد خلـق لعلة الإنسان الأرضي ، أو هي على الأقل ، لم تحسم بعد مـن الناحيـة العلميـة . هـذا مـا قالـه ليثبت عدم أهمية الأرض وأن غيرها في الفضاء ملايين ، ومن عنـد جـاليليو بـدأت تظـهر هـذه الأرقام الضخمة التي تسمى بالأرقام الفلكية . وحتى الآن وبعد غـزو الإنسـان للفضـاء ، وبعـد تعمقهم بأجهزتهم إلى عمق ٦٠٠٠ بليون سنة ضوئية كما يزعمـون لم يكتشـفوا أرضـاً ثانيـة .. كأرضنـا .

أما الدفع الثالث :

ردا على قول الكنيسة " إن فوق أرضنا سبع سمـاوات بعضـها فـوق بعـض " فقـد دفـع جاليليو بقوله " إن الكون إنما هو فراغ شاسع مليء بالمجموعات الشمسـية المتنـاثرة تتحـدد فيـها الظواهر وفقا للوضع النسبي بين الأجسام الكونية المختلفة وهـو لذلـك لا يحتـوى علـى فـوق مطلق ولا على تحت مطلـق " .

وعلق الدكتور (على حلمي موسى) الـذي وضـع مقدمـة الترجمـة العربيـة علـى مقولـة جاليليو : " إن الكون إنما هو فراغ شاسع " فقال : " لم يشأ جاليليو بـالقول بـلا نهايـة الكـون الـتي أدت بالكنيسـة إلى الحكـم علـى الفيلسـوف (جـيوردانو برونـو) بـالموت حرقـا في ١٧ /٢ / ١٦٠٠ ، وإن هذا ما يفهم ضمناً مـن الحـوار " .

وهذا القول وغيره في حواره فهمت منه الكنيسة اعتقاد جـاليليو بـلا نهايـة هـذا الفضـاء وأنه لا توجد فوق الأرض أي سماوات وكان ذلك مـن أسـباب محاكمتـه .

أما الدفع الرابع :

ردا على قول الكنيسة " بأن الأرض خلقت لعلـة الإنسـان وجعـل مـا في الكـون لعلتـه وخـدمته " قال جاليليو " إن احتمال وجود حيـاة فـوق ملايـين الأراضـي المحتملـة في هـذا الكون ، تنفي أن الكون كله قد خلق لعلة الإنسـان الأرضـي " .

هذه هي دفوع جاليليو على تعاليم الكنيسـة . أمـا دليلـه الوحيـد في كتابـه عـن دوران الأرض فقد كان ظاهرة " المد و الجزر " أي أن حركـة الأرض هـي الـتي تسـبب المـد والجـزر فقال : " إنني أكرر وأركز على أنه لا توجد حتى الآن إمكانية أخـرى لتعليـل حركـات الميـاه في البحر المتوسط التي نستطيع مشاهدتها فعلا ، إذا كـانت الأحـواض المحتويـة علـى مياهـه غـير متحركـة " .

هذا الدليل على حركة الأرض لحركة المياه في البحار . أبطله كل علماء الأرض عندما قالوا بأن المد والجزر إنما هو من تأثير جاذبية القمر . وبذلك لم يعد في كتاب الحوار لجاليليو ما يدعو لأن يغير نظام الكون .

في مقدمة الترجمة الألمانية لكتاب الحوار لجاليليو يقول " إميل شتراوس " مخبرا عن تعاليم جاليليو وموقف الكنيسة منها : " لقد علمت الفلسفة الجديدة الناس أن الأرض نجم ككل النجوم ، وأن النجوم أراض مثل أرضنا . لقد تكتلت المدارس المسيطرة آنذاك ضد هذه المعلومة ، كما أن هذه الجملة كانت أساساً هي الفكرة التي هبت الكنيسة للدفاع ضدها . فحتى ذلك الحين اعتبر الناس الأجسام السماوية خالدة لا تتغير إلى الأبد ، بل إنها أشياء سامية رفيعة لا ينبغي مقارنتها بحسالة هذا الكون القذر ، وهي الأرض . فمع أن الإنسان لم يعد يعتقد في أنها مسكونة بالآلهة - كما كان يعتقد الإغريق والرومان - إلا أنه اعتقد أنها مليئة بالأنوار الملائكية ، وبرغم من ذلك فقد رأى أيضا أنها قد خلقت جميعها من أجل خدمة هذه الأرض . لقد كان تحرير العقول من هذه الآراء الدينية التي تضع أهمية كبرى للإنسان في الكون ، وتعليمها أن الأجسام السماوية - وإن لم تكن مطابقة تماما للأرض إلا أنها يمكن مقارنتها بها ، يمثل الخطوة الأولى تجاه المعرفة الخطرة - ولقد تحسست ذلك القوة المحافظة بغريزتها - التي تقول بأن الإنسان لم يخلق لعلة أشباح معينة ، وأنه ليس ثمة أشباح قد خلقت لعلته وأنه عليه أن يمسك بزمام أمره ويوجه خط سيره في الحياة حسبما هيئ له طبيعته " .

تلك هي تعاليم الكنيسة - عن الكون وخالقه - ويعلم الله أنها نفس تعاليم الإسلام ، وأن دفوع جاليليو كلها تحمل كفرا بواحاً ، لا يقل عن كفر فرعون وهامان .

فتعاليم الإسلام تؤيد ما تقوله الكنيسة في هذا الأمر تماما :

فالأرض ثابتة والشمس هي التي تدور حولها بل إن كل ما في السماء يدور حول الأرض وأن كل هذه الأجرام مسخرة فعلا لأهل الأرض . وأن هذه الأرض ليس لها مثيل في هذا الكون ، وأن فوقها سبع سموات بعضها فوق بعض ، وأن الجنة في السماء ، وأن الملائكة تسكن السموات وهي أجسام نورانية ، وليست أشباح ، وأنها أيضا مسخرة لخدمة الإنسان . وأن مستقر أرواح المؤمنين في السماء ، وأن الأرض حقا ممتلئة بالرذيلة ، والسماء هي دار الفضيلة لأن السماء تسكنها الملائكة التي لا تعصى الله طرفة عين ، والأرض يسكنها الإنس والجن وقد أفسدوا فيها وسفكوا الدماء ، حتى قال تعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ

﴿وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم:٤١) ورغم ذلك فإن الإنسان هو علة هذا الكون لقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (هود:٧) أي أن الله تعالى خلق السموات والأرض في المدة التي ذكرها لابتلاء الإنسان واختباره . وقال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية:١٣) .

هذه هي التعاليم التي كان رجال الكنيسة يروجون لها ، وهي نفسها التي كان رسول الله ﷺ يروج لها ، وهي التي نقم عليها جاليليو والملحدون معه .

وقد كان الفضل في صدهم لرجال الكنيسة آنذاك ، ثم كان الفضل لنشر تعاليم جاليليو وإحياءها بعد أن وئدها رجال الكنيسة يرجع الآن إلى علماء المسلمين الذين عظموا جاليليو وكل من جاء بعده الذين لم ينطقوا إلا كفرا . فقد أحيا المسلمون تراثهم وأيدوا قولهم وأثبتوا ما عجزوا هم عن إثباته بزعمهم أن آيات القرآن تثبت كل ما قالوه . وراحوا يعلمون الناس تعاليمهم ، ويدرسون على التلاميذ نظرياتهم ، وأسبغوا على صناع هذا العصر نعوت التقديس والتبجيل .

وفي نفس الوقت يسمون رجال الكنيسة بكل نقيصة ، أقلها الجهل والجمود ولقد ارتسمت صورة في ذهني في مراحل دراستي الأولى عن رجال الكنيسة أنهم ذو أنياب يتقطر منها الدم ، وأظافر أو بالأحرى مخالب ملتصق بها بقايا لحوم آدمية وعيون كجمرات النار يتقد منها الشرر ويتطاير ، وقد علقوا في أسقف الكنائس رجالا ودعاة طيبين يرسمون على شفاههم ابتسامات الصالحين وفي عيونهم نظرات الأنبياء الطيبين .

وقد أفنوا أعمارهم في إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الغي إلى الرشاد .

وهذا واحد من أرجح علماء المسلمين عقلا وأوسعهم إطلاعا وأكثرهم حرصا وأعفهم لسانا وأرقهم فؤاداً في هذا العصر ، يقول في كتاب من أفضل ما أنتجه الفكر المعاصر هو كتاب " ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين " . إنه عالم الهند الأشهر أبو الحسن الندوي (رحمه الله) يقول عن هؤلاء وأولئك : تحت عنوان : (اضطهاد الكنيسة للعلم) :

" كان من أعظم أخطاء رجال الدين في أوربا ومن أكبر جناياتهم على أنفسهم وعلى الدين الذي كانوا يمثلونه أنهم دسوا في كتبهم الدينية المقدسة معلومات بشرية ، ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية ربما كانت أقصى ما وصلوا إليه من العلم في ذلك العصر ، ولعلهم فعلوا ذلك بحسن نية ولكن كان أكبر جناية على أنفسهم وعلى الدين فإن ذلك كان سببا للكفاح المشئوم بين الدين والعقل والعلم الذي انهزم فيه الدين . ذلك الدين المختلط بعلم البشر الذي فيه الحق والباطل هزيمة منكرة ، وسقط رجال الدين سقوطاً لم ينهضوا بعده حتى الآن ، وشر من ذلك كله وأشأم أن أوربا أصبحت لا دينية .

وكان ذلك في عصر انفجر فيه بركان العقلية في أوربا ، وحطم علماء الطبيعة والعلوم سلاسل التقليد الديني فزيفوا هذه النظريات الجغرافية التي اشتملت عليها هذه الكتب وانتقدوها في صرامة وصراحة ، واعتذروا عن عدم اعتقادها والإيمان بها بالغيب ، وأعلنوا اكتشافاتهم العلمية واختباراتهم ، فقامت قيامة الكنيسة وقام رجالها المتصرفون بزمام الأمور في أوربا وكفروهم واستحلوا دماءهم وأموالهم في سبيل الدين المسيحي . وأنشئوا محاكم التفتيش التي تعاقب أولئك الملحدين والزنادقة .. وكان منهم العالم الطبيعي المعروف "جيردانو بورنو" . نقمت منه الكنيسة آراء من أشدها قوله بتعدد العوالم ، وحكمت عليه بالموت حرقاً . وهكذا عوقب العالم الطبيعي الشهير (جاليليو جاليليه) بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس .

هنالك ثار المجددون المتنورون وعيل صبرهم وأصبحوا حربا لرجال الدين وممثلي الكنيسة والمحافظين على القديم ، ومقتوا كل ما يتصل بهم ويعزى إليهم من عقيدة وثقافة وعلم وأخلاق وآداب ، وعادوا الدين المسيحي أولا ، والدين المطلق ثانيا . وكانوا إذا ذكروا الدين ، ذكروا تلك الدماء الذكية التي أريقت في سبيل العلم والتحقيق ، وتلك النفوس البريئة التي ذهبت ضحية لقسوة القساوسة ووساوسهم " : انتهى .

الكنيسة المفترى عليها :

وعندما تحريت الأمر ، واطلعت على سيرة رجال الكنيسة آنذاك وسيرة العلماء أصحاب " الدماء الذكية " و" النفوس البريئة " علمت إلى أي حد يفتري التاريخ الذي كان يكتبه على مدار حياة البشرية ، علمانيون . وأسفت إلى حال رجال الكنيسة الآن وقد صاروا لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً . أما رجال الإسلام وعلماء المسلمين فلا أملك

إلا أن أتحسر عليهم وأردد قوله تعالى ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ وللأمانة التي يفرضها علينا الدين أسجل هنا موقفين لأولي الأمر من المسلمين في عصرهم الذهبي (القرن الثاني الهجري) . وأولي الأمر من رجال الكنيسة في أسوأ عصورهم التي يقال أنهم وقفوا فيها ضد العلم والعقل وكيف تصرف رجال الكنيسة في عهد الظلمات ، أو العصور الوسطى ، أو محاكم التفتيش مع أحد الكافرين بكل الأديان ، وبكل الكتب وبكل الآلهة .

يقول محرر مدخل " كتاب الحوار " إميل شتراوس " عن معاملة جاليليو أثناء المحاكمة بالجزء الأول من الحوار صـ ١٣٨ فإن جاليليو لم يتلق تعذيباً جسدياً ولكنه فقط واجه ما يسمى بالفزعة الخفيفة " .

وفي يونيو سنة ١٦٣٣ حكم على جاليليو بالحكم الذي جاء في حيثياته :

" وبما أنه قد صدر منذ فترة وجيزة كتاب طبع في السنة الماضية في فلورنسا ويبين عنوانه أنك مؤلفه ، وبما أنه قد قيل للمجلس المقدس أنه كنتيجة لنشر الكتاب المذكور قد شاع الرأي الخطأ القائل بحركة الأرض وسكون الشمس يوما بعد يوم :

فقد تم فحص الكتاب المذكور بكل عناية وقد وجد أن الكتاب يحتوى على انتهاك سافر للأمر المذكور أعلاه والذي تم إبلاغه لك آنذاك وذلك أنك قد دافعت في الكتاب المذكور عن التعليم التي قد لعنت سابقا والتي وصفت لك صراحة بأنها ملعونة ، كما أنك قد اجتهدت في الكتاب المذكور من خلال تحويرات مختلفة أثارت الرأي بأنك نفسك تعتبرها لم تتقرر بعد ، وأنها بالتحديد محتملة ، وهو ما يعتبر في ذاته خطأ فادح للغاية وذلك لأن كل رأى تم إقراره وتعريفه كنقيض للكتاب المقدس ، لا يمكن أن يكون بأي حال : محتمل أو قابل للوقوع " .

" بعد أن تحددت لك فترة زمنية متوازية للدفاع عن نفسك تقدمت بشهادة مكتوبة .. كي تعتذر عن خطئك هذا ، ولكن كي لا يعزي إلى نيتك السيئة ، بل إلى طموحك الغرور . بيد أن الشهادة المذكورة ، التي أحضرتها أنت من أجل الدفاع عن نفسك تعتبر ملائمة فقط لإدانتك بقدر أكبر . وذلك لأنك مع أن الرأي المذكور قد اعتبر مناقضا للكتاب المقدس قد تجرأت بشرح هذا الرأي والدفاع عنه وعرضه وكأنه قابل للوقوع . كذلك فإن التصريح ، الذي تحايلت في الحصول عليه بطريقة ماكرة خبيثة ، لا يبرر أنك لم تقل شيئا عن الأمر الذي صدر لك " .

" وبما أنه قد ظهر آنذاك أنك لم تقل الحقيقة كلها بصدد نزعتك (أو مذهبك الديني) فقد رأينا أنه من الضروري إجراء التحقيق السخيف معك . وأثناء هذا التحقيق فإنك قد أجبت بخصوص نزعتك أو الذي قد ثبت ضدك - كما ذكر أعلاه بأنك كاثوليكي ومن ثم فقد وصلنا بعد أن تدبرنا بعمق وفحصنا موضوعك هذا من جميع جوانبه ، واعترافاتك جميعها التي ذكرت ، وأعذارك ،وكل النواحي القانونية الأخرى إلى الحكم المحدد ضدك والمذكور أسفله " .

" وبعد التوسل إذاً للاسم المقدس لسيدنا يسوع المسيح ، وأمه مريم المجيدة العذراء في كل زمان ومكان فإننا نقول نحن المجتمعون كهيئة المحكمة ، ونعلن ونحكم ونقر : بأنك يا جاليليو المذكور أعلاه من خلال الأشياء التي ثبتت في المحاكمة والتي اعترفت أنت بها . قد حملت هذا المجلس المقدس على الشك فيك بشدة بتهمة الزندقة ، وانك اعتقدت في التعاليم المضللة التي تتناقض مع الكتب المقدسة الإلهية . والتي تقول : (بأن الشمس هي مركز الكون ، وهي لا تتحرك من الشرق إلى الغرب وبأن الأرض تتحرك وهي ليست مركز الكون) وفي أنك اعتبرتها تعاليماً حقة حتى بعد أن أعلن أنها نقيض للكتاب المقدس ، وقلت : أنه من الممكن لرأى ما حتى لو كان مناقض للكتاب المقدس أن يعتبر كرأي محتمل ويدافع عنه بوصفه كذلك - وأنك بناء عليه قد وقعت تحت جميع العقوبات وأنواع الحظر التي أعلنت من خلال الكتاب المقدس والدساتير الأخرى العامة والخاصة ضد أولئك الذين سقطوا بطريقة مماثلة لك . أننا نصدق على انك برئ من كل هذه العقوبات والمحظورات بشرط أنك أولا تلعن وتسب أمامنا بقلب مخلص وعقيدة صافية كل الضلالات والزندقات المذكورة ضدك ، وكل الضلالات والزندقات المعارضة للكنيسة الكاثوليكية الرسولية في روما" .

كانت هذه المحاكمة في عصر النهضة الذي أعتبر الملحدون فيه هم رسل المحبة والسلام ورجال الدين هم البرابرة ، ومصاصي الدماء في القرن السابع عشر .

وحادث مشابه - ولا نقول محاكمة مشابهة لأنه لم يتم ذلك - حدث في عصر النهضة الإسلامي وهو القرن الثاني الهجري . ولكن مع الفرق فقد كان أولى الأمر الذين أنيط بهم الحفاظ على الدين وحماية الكتاب المقدس من المساس هم الذين يروجون لتعليم مخالفة للكتاب ، في حين أن العلماء المسلمين صناع عصر النهضة ذلك هم الذين كانوا يتمسكون بالكتاب وبنشر تعاليمه كما يريد الله ، متبعين سبيل رسول الله دون أن يحيدوا .

يحكي ابن كثير في كتاب البداية والنهاية عن هذه الفتنة فيقول :

إن الخليفة المأمون كتب إلى نائبه ببغداد (إسحاق بن إبراهيم بن مصعب) يأمره بأن يمتحن القضاة ، والعلماء بالقول بخلق القرآن وأن يرسل إليه جماعة منهم ، وكتب إليه يستحثه في كتاب مطول ، محتجا بأن القرآن محدث وكل محدث مخلوق ، وهذا احتجاج لا يوافقه عليه كثير من المتكلمين ، فضلا عن العلماء ، وقد عين المأمون جماعة من المحدثين ليحضرهم إليه ، فلما حضروه امتحنهم بخلق القرآن ، أي أن يقولوا بأن القرآن مخلوق ، فأجابوه إلى ذلك وأظهروا موافقته ، وهم كارهون فردهم إلى بغداد وأمر نائبه في بغداد " إسحاق بن إبراهيم " أن يمتحن كل علماء الحديث والفقه وأئمة المساجد وغيرهم وأن يذكر لهؤلاء موافقة النفر من المحدثين الذين وافقوا المأمون وهم معروفون بينهم ولم يكن منهم أحمد بن حنبل ، فأجاب كل من امتحن بالموافقة فوقعت فتنة عظيمة بين الناس .

أحمد بن حنبل ..... وجاليليو جاليليه :

لا يوجد في تاريخ البشرية حادثان متشابهان ومتناقضان في آن واحد مثل هذان الحادثان ، ووجه الشبه بينهما : أن كلاهما حدث في عصرين للنهضة : عصر النهضة الإسلامي وعصر النهضة المسيحي . وتعلق الحادثان بمخالفة الكتاب المقدس لكل منهما ، وتعرض بطلي الحادثين لمحنة واحدة والتصقت في كلا الحادثين صفة التشدد لمن تمسك بنص الكتاب . كذلك خرج بطلا القصتين من محنتيهما متوجين . هذا وجه التشابه . ووجه التناقض هو أن ما حدث في محنة جاليليو كان بعكس ما حدث لفتنة " أحمد بن حنبل " بطل المحنه الأخرى .

فقد كان أحمد بن حنبل هو الوحيد في عصره الذي تمسك بتعاليم الكتاب المقدس (القرآن) وكان جاليليو هو الوحيد في عصره الذي تمسك بمخالفة الكتاب المقدس . رغم انصياع جميع زملاء جاليليو وجميع زملاء ابن حنبل لضغوط أولى الأمر .

كما كان عصر النهضة الإسلامي هو عصر أحمد بن حنبل حيث بدأت حركة تدوين الأحاديث وتفسير القرآن وظهور المذاهب الفقهية الإسلامية الكبرى . فقد كان عصر النهضة العلماني هو عصر جاليليو جاليليه حيث بدأت فيه المذاهب التجريبية التي حلت محل المذاهب الفلسفية .

ومن أوجه التناقض للمحنتين ، أن أولى الأمر في محنة أحمد كانوا هم المخالفين لنصوص الكتاب ، والذين ينشرون تعاليم لم يقل بها الله ولا رسوله . بينما كان أولى الأمر في عصر جاليليو هم المتمسكون بنصوص الكتاب المقدس وتعاليمه .

ومن أوجه التناقض أيضا أن أحمد بطل المحنة الأولى تعرض لأشد تعذيب ، نتيجة تمسكه بالكتاب المقدس وعدم مخالفته في كلمة واحدة ، مجرد كلمة أن يقول (القرآن مخلوق) بينما عومل جاليليو معاملة كريمة لم يتعرض فيها لأي أذى رغم مخالفته الشديدة للكتاب المقدس وعدم تمسكه بأي مبدأ من مبادئه .

ومن أوجه التناقض أيضا أن جاليليو بعد هذه المحنة أصبح رائد عصر النهضة وأصبح أحمد رائد المتشددين حتى أصبح مثلا يسب به كل متعنت (أنت حنبلي ؟) كذلك الحال مع رجال الكنيسة الذين تمسكوا بالكتاب المقدس أصبحوا عنوانا للتشدد والظلم والقهر . افتراء عليهم .

ثم كان التناقض في موقف الشخصيتين : فبينما نجد تمسك أحمد بالكتاب رغم كل المحاولات من وعد ووعيد وإغراء وتعذيب وطول حبس وقيام الخليفة بنفسه بامتحانه وتعذيبه بالصورة التي سنراها الآن . نجد جاليليو قد خر راكعاً متذللا نادما ، وعلى الصورة المزرية التي سنراها بعد قليل . هذا رغم أنه لم يتعرض لأي أذى . وأغرب ما في الأمر أن يخرج جاليليو بعد ذلك بطلا ورائدا ورمزا . ولا حوله ولا قوة إلا بالله .

يقول ابن كثير عن فتنة (خلق القرآن) ومحنة (أحمد بن حنبل) :

أحضر إسحاق جماعة من الأئمة والأعلام ومنهم " أحمد بن حنبل " وقرأ عليهم كتاب " المأمون " وأخبرهم عن موافقة الفقهاء والمحدثين ، وأئمة المساجد . ثم راح يمتحنهم واحدا واحدا ، وأكثرهم امتنع من القول بخلق القرآن ، حتى جاء دور أحمد بن حنبل فقال له : أتقول أن القرآن مخلوق ؟ فقال أحمد : القرآن كلام الله لا أزيد على هذا . فقال له ما تقول في صفات الله ؟ فقال : ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . فقال رجل من المعتزلة : إنه يقول سميع بأذن ، بصير بعين . فقال له إسحاق : ما أردت بقولك سميع بصير ؟ فقال : أردت منها ما أرد الله منها . وهو كما وصف نفسه . ولا أزيد على ذلك .

فكتب إسحاق إجابات الحاضرين الممتحنين جميعا وأرسل بها إلى المأمون . وقد كان من الممتحنين من أجاب إلى القول بخلق القرآن مصانعةً مكرهاً . لأنهم كانوا يعزلون من لا يجيب

من وظائفه . وإن كان له رزق على بيت المال قطع . وإن كـــان مفتيـــاً منــع مــن الإفتـــاء ، وإن كان شيخ حديث ردع عن الإسماع والأداء ، ووقعت فتنة صماء ومحنـــة شـــنعاء وداهيـــة دهيـــاء ، ولا حول ولا قوة إلا بـــالله .

يقول ابن كثير : فلما وصلت إجابات القوم إلى المـــأمون بعـــث إلى نائبـــه يمتدحـــه علـــى مـــا فعل ثم أمره بأن يجمع الممتنعين منهم عن القول بخلـــق القـــرآن ويمتحنـــهم مـــرة أخـــرى . ومـــن أجاب منهم يطلق سراحه ويشهر أمره في الناس ومن لم يجـــب منـــهم يرســـله إلى أمـــير المؤمنـــين مقيدا حتى يرى فيه رأيه . وقد كان رأيه أن يضرب عنق من لم يقـــل بقولـــه . وإزاء ذلـــك أجـــاب القوم جميعا مكرهين متأولين قوله تعالى : ﴿إلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُـــهُ مُطْمَئِـــنٌّ بِالإِيمَـــانِ﴾ (النحل:١٠٦) ولم يمتنع إلا اثنين " أحمد بن حنبل " و " محمد بـــن نـــوح الجنـــد يســـابوري " فأرســـلا مقيـــدان إلى المأمون . وفي طريقهما إليه أرسل المأمون إلى نائبه أنه قد بلغـــني أن القـــوم إنمـــا أجـــابوا مكرهـــين متأولين قوله تعالى : ﴿إلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ وقـــد أخطئـــوا في ذلـــك خطـــأ كبـــيرا فأرسلهم إليّ جميعا ، وكان أحمد ومحمد بن نوح قد ســـبقا النـــاس . وفي الطريـــق دعـــا أحمـــد الله عز وجل ألا يريهما المأمون ولا يراهما ولا يجتمعا به . واســـتجاب الله دعـــاء ابـــن حنبـــل وهلـــك المـــأمون قبل أن يصلوا إليه . ورد النـــاس إلى بغـــداد .

يقول ابن كثير : أن المأمون كان قد استحوذ عليـــه جماعـــة مـــن " المعتزلـــة " فـــأضلوه عـــن طريق الحق إلى الباطل ، وزينوا له القول بخلق القرآن ونفي الصفات عـــن الله عـــز وجـــل .

يقول : فلما كانا في طريق جاءه رجل من الأعراب من العباد يقال لـــه " جـــابر بـــن عـــامر " فسلم على الإمام أحمد وقال له : " يا هذا إنك وافد الناس فلا تكـــن شـــؤما عليـــهم وإنـــك رأس الناس اليوم ، فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونـــك أليـــه فيجيبـــوا مثلـــك فتحمـــل أوزارهـــم يـــوم القيامة . وإن كنت تحب الله فاصبر على ما أنت عليه فإن مـــا بينـــك وبـــين الجنـــة إلا أن تقتـــل ، وإنك إن لم تقتل تمت وإن عشت ، عشت حميدا " . قـــال أحمـــد : " وكـــان كلامـــه ممـــا قـــوى عزمـــي " .

فلما اقتربا من جيش الخليفة جاء خادم وهو يمسح دموعـــه بطـــرف ثوبـــه ، ويقـــول : " يعـــز علي يا أبا عبد الله أن المأمون قد سل سيفا لم يسله قبل ذلك . وأنـــه يقســـم بقرابتـــه مـــن رســـول الله ﷺ ، لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلك بذلـــك الســـيف " فجثـــا الإمـــام أحمـــد علـــى

ركبتيه ورمق بطرفه إلى السماء . وقال : " سيدي غر حلمك هذا الفاجر حتى تجرأ على أوليائك بالضرب والقتل . اللهم فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤنته " .

قال : فجاءهم الصريخ بموت المأمن في الثلث الأخير من الليل .

وفي طريق العودة إلى بغداد مات محمد بن نوح وهو في قيوده ، وصلى عليه أحمد ولما وصل إلى بغداد أودع في السجن نحوا من ثمانية وعشرين شهرا وقيل نيفا وثلاثين شهرا ثم أخرج إلى الضرب بين يدي المعتصم .

ولما توجه للمعتصم زادوا عليه في القيود حتى انه كان يجرها جرا . فلما دخل عليه أدناه المعتصم منه . وقال : " لولا أنك كنت في يد من كان قبلي لم أتعرض إليك " ثم قال لعبد الرحمن ابن أبي دؤاد وكان بجانبه : " ألم أقل لك يا عبد الرحمن وأمرتك أن ترفع المحنة ؟ " ثم قال المعتصم : " ناظره .. كلمه " . فقال عبد الرحمن : " ما تقول في القرآن ؟ فلم أجبه (يقول أحمد) فقال المعتصم : " أجبه " فقلت : " ما تقول في العلم ؟ فسكت . فقلت : القرآن علم الله . ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر بالله " فسكت . فقالوا فيما بينهم (الحاضرون) : " يا أمير المؤمنين كفرك وكفرنا " فلم يلتفت إلى ذلك . فقال عبد الرحمن : " كان الله ولا قرآن " . فقلت : " أكان الله ولا علم ؟ : فسكت . فجعلوا يتكلمون من هاهنا وهاهنا . فقلت " يا أمير المؤمنين ، أعطوني شيئا من كتاب الله أو سنة رسوله حتى أقول به " فقال : عبد الرحمن " وأنت لا تقول إلا بهذا ؟ فقلت : " وهل يقوم الإسلام إلا بهما " .

وجرت مناظرات طويلة ، واحتجوا بقوله ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ وبقوله ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وأجاب بما حاصله أنه عام مخصوص وبقوله ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ فقال عبد الرحمن بن أبي دؤاد : " هو والله يا أمير المؤمنين ضال مضل ، مبتدع وهنا قضاتك والفقهاء فسلهم " فقال لهم : ما تقولون ؟ فأجابوا بمثل قول ابن أبي دؤاد .

لم يكن المعتصم يريد ضرا بالإمام أحمد .فأحضره في اليوم الثاني ليناظرهم ويناظروه ، ثم اليوم الثالث كذلك . في كل يوم يعلو صوت أحمد عليهم وتغلب حجته حجتهم ، وتنوعت بهم المسائل في المجادلة ولا علم لهم بالنقل . فجعلوا يضعفون الأحاديث وينكرونها . وفي غيون ذلك كله يتلطف به الخليفة ويقول : " يا أحمد أجبني إلى هذا حتى أجعلك من خاصتي وممن يطأ بساطي . فيقول أحمد : " يا أمير المؤمنين يأتوني بآية من كتاب الله . أو سنة رسول الله ﷺ أجيبهم إليها " .

وظلوا يستعدون الخليفة بكل وسيلة فقالوا : " يا أمير المؤمنين هـذا كـافر ضـال مضـل " وقال له إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد : " يا أمير المؤمنين ليس مـن تدبـير الخلافـة ، أن تخلـي سبيله ويغلب خليفتين " وأيـدهم ابـن أبي دؤاد . عندئـذ حمـي واشـتد غضـب المعتصـم ، وكان ألينهم عريكة فقال لأحمـد : " طمعـت فيـك أن تجيبـني " ثم قـال : " خـذوه واخلعـوه واضربـوه " .

يقول ابن حنبل : " وجيء بالضرابين ومعهم السياط فجعـل أحدهـم يضربـني سـوطين ويقول له المعتصم شد قطع الله يـدك . ويجـيء الآخـر فيضربـني سـوطين ثم الآخـر كذلـك فضربوني أسواطاً فأغمى عليّ ، وذهب عقلي مراراً . فإذا سـكن الضـرب يعـود علـيّ عقلـي . وقام المعتصم إليَ يدعوني إلى قولهم فلم أجبه . وجعلوا يقولـون : ويحـك الخليفـة علـى رأسـك فلم أقبل . وأعادوا الضرب ثم عاد إليّ فلم أجبه . فأعادوا الضـرب ثم جـاء إلى الثالثـة فدعـاني فلم أعقل ما قال من شدة الضرب . ثم أعادوا الضرب ، فذهب عقلـي فلـم أحـس بـالضرب .

وأرعبه ذلك من أمري . وأمر بي فأطلقت ، ولم أشعر إلا وأنـا في حجـرة مـن بيـت . وقـد أطلقت الأقياد من رجلي . وكان ذلك في اليوم الخامس والعشـرين مـن رمضـان سـنة إحـدى وعشرين ومائتين . ثم أمر الخليفة بإطلاقه إلى أهله . وكان الإمام أحمد رجـلا طويـلا رقيقـاً أسمـر اللون كثير التواضع . رحمه الله . وجعل أحمد كـل مـن آذاه في حـل إلا أهـل البـدع . وكـان يتلوا قول الله تعالى ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ . وكـان يقـول : مـاذا ينفعـك أن يعـذب أخـوك المسلم بسـببك " .

قال البخاري : " لما ضرب أحمد بن حنبل كنا بـالبصرة ، فسـمعت أبـا الوليـد الطيالسـي يقول : لو كان أحمد في بنى إسرائيل لكان أحدوثة . وقال إسماعيل ابن الخليـل : لـو كـان أحمـد في بنى إسرائيل لكان نبيا . وقال حرملة : سمعت الشـافعي يقـول : خرجـت مـن العـراق فمـا تركت رجلا أفضل ولا أعلم ولا أروع ولا أتقى من أحمـد بـن حنبـل " .

قال رسول الله ﷺ : " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهـم مـن خـذ لهـم ولا من خالفهم حتى يأتيَ أمر الله وهم علـى ذلـك " .

سادتي العلماء : أعتذر إليكم عن تسببي في إيلامكم بذكـر هـذه المواجـع ، وتلطيفـا للأمـر أنتقل بحضراتكم سريعا إلى روما سنة ١٦٣٢ وتحديـدا شـهر يونيـو لـنرى جـاليليو في سـاحة المحكمة وهو راكع على ركبتيه أمام هيئة المحكمة المكونـة مـن عشـرة مـن المطارنـة . ولنسـمع جاليليو رائد عصر النهضة وبطل هذه المحنة وهـو يقـول :

" أنا جاليليو جاليليه ابن المتوفى فنشنتسيو جاليليه من فلورانسا ، البالغ من العمر سبعين عاماً ، الماثل شخصياً أمام المحكمة ، والراكع أمام سموكم أصحاب المقام الرفيع السادة مطارنة محكمة التفتيش العامة ضد الشرور والزندقة في كل العالم المسيحي ، وأمام عيني توجد الأناجيل المكرمة التي ألمسها بيدي ، أقسم إنني قد اعتقدت دائما ، والآن أعتقد وبمساعدة الإله سوف أعتقد في المستقبل في كل ما تعتبره الكنيسة الرسولية المقدسة في روما ، وكل ما تعظ به وتعلمه . ولكن بما إنني وبعد أن صدر الأمر القانوني من هذا المجلس المقدس ، إنني يتحتم على الكف تماما ، عن الرأي الخاطئ القائل بأن الشمس هي مركز الكون وهي ليست متحركة وأن الأرض ليست المركز ، وهي متحركة . وليس من المسموح إلى اعتبار هذه التعاليم الخاطئة بأنها حقه أو الدفاع عنها أو تدريسها بأي طريقة سواء شفهياً تحريرياً . وبعد أن كشف إلى أن هذه التعليم تتناقض مع الكتاب المقدس . قمت بتأليف كتاب وتسليمه للطبع وشرحت فيه التعاليم التي لعنت سابقا وقدمت فيها بدرجة كبيرة من دلائل تعضدها دون إضافة نقد لها ، وبما إنني من خلال ذلك قد جعلت هذا المجلس المقدس يشك بشدة في إنني زنديقاً ، أي إنني اعتبرت أن الشمس هي مركز الكون وهي لا تتحرك وأن الأرض ليست هي المركز وهي تتحرك . لذلك وبما إنني آمل من سموكم ومن كل مسيحي مؤمن رفع هذا الشك الشديد الموجه ضدي بحق فإنني تبت ، والعن وأسب بقلب مخلص وعقيدة صافية ، الضلالات والزندقات المذكورة . وعلى الإطلاق كل وأي ضلالات أخرى تتناقض مع الكنيسة المقدسة المذكورة ، وأنني أقسم إنني في المستقبل ، لن أقول ، أو أزعم شفاهياً أو تحريرياً شيء آخر يمكن للمرء أن يستشعر منه شكا مماثلا ضدي . وأنني عندما أتعرف على زنديق أو أي فرد مشكوك في أنه زنديق ، فإنني سأبلغ عنه المجلس المقدس أو المدعى العام لمحكمة التفتيش ، أو القس العام للجهة حيثما أكون .

إنني أقسم أيضا ، وأعد بالوفاء بدقة ومراعاة كل الكفارات التي سنت أو ستسن لي في هذا المجلس . ولو أنني حاشا للإله قد أخلفت بأي من الوعود أو التعهدات ، أو الأقسام المذكورة فإنني أضع نفسي تحت كل العقوبات والإصلاحيات المحددة والمعلنة بواسطة القانون المقدس ، وكل الدساتير الأخرى ، العامة والخاصة ، ضد أولئك الذين يتصرفون بهذه الطريقة ، وبقدر ما يوفقني الإله وأناجيله المقدسة هذه التي ألمسها بيدي .

أنا المدعو جاليليو جاليليه تبت وأقسمت ووعـــدت ، وألزمــت نفســي كمــا هــو مذكــور أمامي ، وللتصديق فقد قطعت هذه الشهادة التي قرأتهـــا كلمــة كلمــة علــى نفســي ووقعتــها بيــدي " .

(روما في دير المينرفا – في ٢٢ من يونيو ١٦٣٣)

يقول إميل شتراوس في مقدمته لكتاب جاليليو " ومع أنه قد عومل برفـــق علـــى عكـــس مـــا أراد خصومه ، إلا أن العقبات قد وضعت في طريـــق نشـــاطه المســـتقبلي " .

ولعل ذلك يوضح أن جاليليو لم يتراجع خوفا أو تقية ، بـــل كـــانت توبـــة ، رغـــم أن أتباعـــه من المسيحيين أو المسلمين لم يتوبـــوا .

ودخل جاليليو التاريخ واعتبر أبا للعلوم الحديثة نظـــرا لإحلالـــه طريقـــة التفكـــير التجريـــبي العلمي ، محل التفكير المبني على الاستنباط العقلي . غير أن البعـــض مـــن علمـــاء عصـــره يذهـــب إلى أنه لم يستند في كتاباته إلى التجارب بمعناها الحديـــث وإنمـــا اســـتند فقـــط إلى تجـــارب فكريـــة على نسق مفكري العصور الوســـطى .

وقال " ستيلمان دراك " في مقدمة الطبعة الألمانية الجديـــدة لكتـــاب الحـــوار : " إن اكتشـــاف مخطوطات ترجع إلى العصور الوسطى أوضح ظاهريـــا أن الكثـــير مـــن " الحـــوار " لجـــاليليو قـــد اقتبس من أعمال كتبت في القرن الرابـــع عشـــر " .

وعن نظرية " المد والجزر " وهي دليل جاليليو علـــى دوران الأرض الثنـــائي (حـــول نفســـها وحول الشمس) يقول دراك : " وفي سنة ١٦١٨ نـــوه جـــاليليو في أحـــد خطاباتـــه إلى أنـــه أراد نشر نظريته حول المد والجزر ولو حتى كـ " لعبة فكريـــة شـــيقة " .

من كان يتخيل أن " لعبة جاليليو الشيقة " تطيح بكـــلام الإلـــه المحكـــم – أي عقـــل ســـليم يصدقّ هذا وأي منطق يقبله ؟ لكن ذلك قـــد حـــدث .

الجزاء من جنس العمل :

وقبل مغادرة روما نقف على نهاية جاليليو الذي قال عنه أتباعه " انـــه كـــان يتمتـــع بحـــواس ثائرة وكان يجد سرورا لا يعادله سرور في صحبـــة الغـــواني وعلـــى الأخـــص في صحبـــة واحـــدة منهن تدعى " . . . " ولم يتزوج جاليليو أبداً ، وقد كان لجـــاليليو ثلاثـــة أبنـــاء دون أن يـــتزوج .

يقول جاليليو عن نهايته بعد أن سلبه الله النعمة التي لم يستفد منها ، ولم يؤمـــن رغـــم كـــل مـــا رآه من آيات ، فكف بصره ، واستبد به الأسى : " إن هذا الكون الـــذي كبرتـــه مئـــات المـــرات

بكشوفي الغريبة وآلاتي العجيبة . قد انكمش بالنسبة لي من الآن فصاعداً إلى مجرد الحيز الصغير الذي يشغله جسماني " .

هكذا انتهى الحال بالرجل الذي حرك الأرض وأوقف الشمس ، ضيق الله عليه الأرض بما رحبت حتى ضاقت عليه نفسه وهو الذي قال باللانهائية للفضاء .

يقول " إميل اشتراوس " في الثامن من يناير سنة ١٦٤٢ ، السنة التي ولد فيها إسحاق نيوتن مات جاليليو في حضور ابنه وزوجة ابنه وتلميذيه وممثلين اثنين عن المجلس المقدس .

وحول مراسم دفنه قادم صراع (كريه) تقرر في نهايته دفنه في سكوت تام في رواق جانبي صغير بكنيسة سانتا كروس بفلورنسا " .

لعل من الواجب علينا أن ننتقل الآن إلى بغداد لنلقي نظرة وداع على الإمام العظيم بطل المحنة الأولى " أحمد بن حنبل " .

يقول ابن كثير : في ليلة الجمعة ، الثاني عشر من ربيع الأول – الشهر الذي ولد فيه وتوفي رسول الله ﷺ – اشتد بالإمام الوجع . وروى ابنه عبد الله وابنه صالح أيضا أنه قال : " حين احتضر أبي جعل يكثر أن يقول : لا بعد ، لا بعد ، فقلت يا أبه ما هذه اللفظة التي تلهج بها في هذه الساعة ؟ فقال يا بني إن إبليس واقف في زاوية البيت وهو عاض على إصبعه وهو يقول : فتني يا أحمد ؟ فأقول لا بعد لا بعد يعني لا يفوته حتى تخرج نفسه من جسده علي التوحيد – لأن أحمد يعلم أنه جاء في الحديث أن إبليس قال : يا رب وعزتك وجلالك ما أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم . فقال الله { وعزتي وجلالي ولا أزال أغفر لهم ما استغفروني } .

وأحسن ما كان من أمره أنه أشار إلي أهله أن يوضئوه ، فجعلوا يوضئونه وهو يشير إليهم أن خللوا أصابعي وهو يذكر الله عز وجل في جميع ذلك . فلما أكملوا وضوءه توفي رحمه الله صبيحة الجمعة . وحضر غسله نحو من مائة من بيت الخلافة من بني هاشم ، فجعلوا يقبلون بين عينيه ويدعون له ويترحمون عليه رحمه الله . وخرج الناس بنعشه والخلائق حوله من الرجال والنساء ما لم يعلم عددهم إلا الله . ولم يستقر في قبره رحمه الله إلا بعد صلاة العصر وذلك لكثرة الخلق .

هذا وقد قام بإحصاء المشيعين غير واحد ، بل تم إحصاء رسمي من الأمير محمد بن طاهر وذلك (لعدم) سابقة تجمع هذا العدد . يقول البيهقي فبلغت ألف ألف وسبعمائة ألف سوي من كان في السفن (أي مليون وسبعمائة ألف رجل وامرأة) . قال البيهقي رواية عن

عبد الوهاب الوراق أنه قال : ما بلغنا أن جمعا في الجاهلية ولا في الإسلام اجتمعوا في جنازة أكثر من الجمع الذي اجتمع علي جنازة أحمد بن حنبل . وقال الوركاني : (جار أحمد بن حنبل) أسلم يوم مات أحمد بن حنبل عشرون ألف من اليهود ، والنصاري والمجوس . وروي البيهقي عن الحجاج بن محمد الشاعر أنه قال : ما كنت أحب أن أقتل في سبيل الله ولم أصل علي الأمام أحمد . وروي عن بعضهم قال : دفن اليوم سادس خمسة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز وبن حنبل .

* * * * *

انتقال الصراع إلي المسلمين

في الربع الأول من القرن العشرين استطاع إبليس بضربة مزدوجة من إسقاط رمزين ، أحدهما في الأرض والآخر في السماء .

أما رمز الأرض فهو الخلافة الإسلامية التي أسقطها عام ١٩٢٤ وكانت تحملها الدولة العثمانية ، آخر دول الخلافة حتى الآن . وقد كانت رمزا لوحدة المسلمين وتجمعهم والتفافهم حول راية واحدة علي اختلاف أعراقهم . وتفتت الدولة السلامية إلي دويلات ، ولم تقم للمسلمين قائمة بعد ذلك وحتى الآن .

وأما الرمز الثاني الذي نجح إبليس في إسقاطه هو الرمز السماوي ، عندما جعل الشمس هي مركز الكون بعد أن كانت تدور حول الأرض .

رفع الحظر عن كتاب " الحوار " بعد ..٢ سنة وذلك في ٢٥ من سبتمبر ١٨٢٢وحتى هذا التاريخ ولعدة سنوات بعده ظل الناس علي رأيهم بأن الأرض ثابتة والشمس تدور حولها . ولكن مع بداية القرن العشرين بدأت في الظهور من جديد . ولكن هذه المرة علي يد المسلمين .

لم تدخل أفكار كوبرنيقوس وجاليليو إلي البلاد الإسلامية إلا بين يدي الاستعمار الأوربي وبواسطة المسلمين " المستغربين " أنفسهم الذين فتنوا بحضارة الغرب ولا يزالون ، ولم تجد هذه التعاليم صدي في بلاد الإسلام في بادئ أمرها ، لرفض علمائنا لها واعتبارها مخالفة صريحة وواضحة لا تحتاج إلي تأويل ، لقوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾ فكيف تكون مركز الكون . وكيف تدور الأرض حول نفسها وحول الشمس والله تعالى يقول ﴿جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا﴾ . ومثلما حدث في القرن الثالث الهجري مع فتنة خلق القرآن ، فقد حدث في القرن

العشرين فتنة (جريان الأرض) . ومثلمـــا روج " المعتزلـــة " لفريـــة خلـــق القـــرآن قديمـــا . روج (المستغربون) لفريـــة دوران الأرض حديثـــا .

وبـــــدأ صراع مشابه لما حدث في القرن الســـابع عشـــر الميـــلادي بـــين رجـــال الكنيســـة والتجريبيين ، فقد قام في بلاد الإسلام صراع جديـــد بـــين علمـــاء الديـــن والمســـتغربين غـــير أن الصراع انتهى في الغرب بانتصار رجال الكنيســـة وتمســـكهم بتطبيـــق الكتـــاب المقـــدس أمـــا في الشرق فقد انتهى بانتصار التجريبيين " المستغربين " ونســـخت آيـــات القـــرآن الكـــريم وتوقـــف العمل بكل ما هو متعلق بـــــالأمور الكونيـــة ، وخلـــق الســـموات والأرض ، ولم يكـــن انتصـــار المستغربين رغم قلتهم يرجع لقوة حجمهم ، بل كـــــان يرجـــع لضعـــف علمـــاء المســـلمين ، الذين انتهت دولتهم بسقوط الخلافـــــة .

استمر صراع المستغربين (وهـــم المسلمون الذيـــن بعثـــوا إلى الـــدول الأوربيـــة للتعـــليـــم والتنوير) مع رجال الشرع عدة سنوات استنفدت تقريبا الربع الأول مـــــن القـــرن العشـــرين .

كيف بدأ الصراع ؟

عندما بدأ الاستعمار الغربي يقسم تركة الرجل المريـــض (الدولـــة العثمانيـــة) أراد أن يســـتفيد من " المستشرقين " الذين كانوا يدرسون بتكليف من حكومـــاتهم لغـــة الشـــرق وديـــن الشـــرق وحضارة الشرق ، وذلك لخدمة أغراضهم الاستعمارية ، كذلك اســـتجلبوا نفـــرا مـــن المســـلمين ممن عرف عنهم التمرد على أوضاعهم ، وقاموا على تربيتـــهم كمـــا يريـــدون .

كان المستشرقون يعلمون أن القرآن مثله مثل الكتـــاب المقـــدس ينـــص علـــى ثبـــات الأرض وجريان الشمس ، وتنفيذا لمخطط استعماري أرادوا شغل المســـلمين بـــأي قضيـــة يختلفـــون فيـــها ويفترقون وقد كان شعارهم (فرق تســـــد) ، فلـــم يجـــدوا لذلـــك أنجـــح وأفضـــل مـــن تعـــاليم كوبرنيقوس وجاليليو التي جربت في القرن السابع عشر الميلادي . فبـــدءوا يحيـــون هـــذه النظريـــة بعد مواتها ، ولكن هذه المرة ليس بينهم في الغرب بـــل بـــين المســـتغربين مـــن المســـلمين ، الذيـــن فتنوا بحضارة الغرب أفتاناً جعلهم يتنصلون من كل ما هو شـــرقي حـــتى الديـــن .

وأوحى المستشرقون للمستغربين بالفكرة ، ونقلـــها الآخـــرون لبلادهـــم ، ولم يتقبـــل علمـــاء الشرع هذه النظرية لمخالفتها الصريحة لكتابهم ولسنة نبيـــهم ولإجمـــاع ســـلفهم .

وبدأ الصـــراع ..

المستغربون يتهمون علماء الشرع بنفس ما اقم بـــه رجـــال الكنيســـة ، الجمــود والتحجــر والرجعية والتخلف . وعلمـــاء الشـــرع يتـــهمون المســـتغربين بـــالانحلال والفســـوق والابتـــداع والولاء للغرب . وظلت سنوات ولم يكتب لهذه النظرية أي قـــدر مـــن النجـــاح .

وكان لابد من طريقة للاختراق إزاء تمســـك علمـــاء الشـــرع بموقفـــهم . فكـــانت الفكـــرة الجديدة والرائعة . ففجأة أعلن عن كشـــف جديـــد .

ما هـو ؟؟

إن الشمس تجـــرى .

كانت المفاجأة كبيرة جداً لعلماء المسلمين ، واعتبر انتصار كبـــير للقـــرآن . ولكـــن مـــا هـــي تفصيلات هذا الكشف العلمي الجديـــد ؟

قالوا : ثبت علميا أن الشمس ليست ثابتة كما كان يقول كوبرنيقـــوس وجـــاليليو بـــل إنهـــا تجـرى .

ولكـــن ..

إنها لا تجرى حـــول الأرض !!

لا تجرى حول الأرض؟ فحول مـــاذا تجـــرى إذن ؟

إنها تجرى حول المجـــرة .

المجرة !! أي مجـــرة ؟

مجرتنا .. درب التبانـــة .

درب التبانة ؟ ما هذا ؟ ولماذا درب التبانـــة بـــالذات ؟

هكذا أثبت العلـــم .

الشمس تدور حول درب التبانة ؟ وما شأن درب التبانـــة بالشـــمس ؟

هكذا أثبت العلـــم .

العلم أثبت أن الشمس تدور حول المجرة ؟ وكيف تدور حـــول المجـــرة في يـــوم ؟

إنها لا تدور في يـــوم .

لا تدور في يوم ؟ ففي كم إذن تدور ؟ في يومين ؟ إن هذا أمـــر غريـــب وعجيـــب !!

لا لا .. إنها تـــدور في ٢٥٠ .

الشمس تدور حول ما تسمونه هذا في ٢٥٠ يوما ؟؟ كيـــف يكـــون ذلـــك ؟؟

بل تدور حول المجرة في ٢٥٠ مليون ســـنة .

وترك المستغربون علماء الشرع يضربون أخماساً في أسداس .

ويوما بعد يوم ، تغير الموقف ، وتحول الصراع إلى صف علماء الشرع ولم يعد صفا بل صفوفاً . ونجحت الخطة الإبليسية .

فقد رأى البعض أن ما حدث نصر للقرآن وأنهم عارضوا عندما كان كلام المنجمين يتعارض مع القرآن أما وقد أثبتوا ما أثبته الله فلا مبرر للمعارضة الآن .

وقال آخرون إن القضية كما هي فالله تعالى لم يقل إن الشمس تجرى حول المجرة . كما أن الشق الثاني يظل قائما وهو : أن الأرض لا تدور وقد أثبت الله أنها قراراً . ورد الأولون بأن الله بالفعل لم يقل بأنها تجرى حول المجرة ولكنه أيضا لم يقل أنها تجرى حول الأرض . كما أن قول الله بأن الأرض قرارا فهي كذلك بالنسبة لمن عليها وليس بلازم أن تكون قرارا لباقي الأجرام السماوية . ثم ذكروهم بما وصل إليه الحال في أوربا التي تشددت أمام العلم ، كيف فقدت الكنيسة سلطانها ، وضاعت هيبتها وكيف أن جيردانو الذي كان زنديقا أصبح اليوم شهيدا ، وجاليليو رائدا ، وكوبرنيقوس فتح له التاريخ أبوابه . وانتهى الأمر بأن أصبحت أوربا بلا دين بعد أن اختارت العلم وتدينت بالعلمانية ولم يعد الله يعبد عندهم إلا أيام الآحاد من بعض العجائز ولا يدخلون الكنائس إلا عند عقد الزواج ، ولا يسمعون آيات الكتاب المقدس إلا على المقابر .

وكانت الفتنة ، و محنة ، والداهية الدهياء . خاصة وقد بدأ زحف المستعمرين على بلاد الإسلام ، وقد رأى المسلمون مظاهر القوة والحضارة والتقدم واضحة عليهم . وأشار إليهم المستغربون بأن هؤلاء ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بانفتاحهم وتحررهم وأنهم أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله . ويجب على المسلمين أن يحذوا حذوهم ويتبعوا أثرهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه وراءهم . وفي نفس الوقت لا يتركوا دينهم ، ولكن لا يخرجوا به من المساجد .

ويوما بعد يوم كان الحال قد تغير ، ولكي يثبت علماء الشرع للمستغربين والمستشرقين أنهم ليسوا ضد العلم ، والإسلام يحث على العلم ، وإنما هم فقط ضد الإلحاد ، فقد عكفوا على إثبات صحة كل ما قاله التجريبيون بآيات القرآن الكريم ، وتبارى علماء المسلمين وتسابقوا في ذلك . فقد كان علماء الغرب يخترعون ، وهم يؤيدون .. يكتشفون ، وهم يثبتون ... وبالقرآن .

ووقف إبليس يرنو إلى أطراف العالم في زهو ، وكيف نجح في أن يؤلف بين قلوب المؤمنين والكافرين . وكيف نجح في أن يثبت علماء المسلمين – وليس رجال الكنيسة – كل آراء الملحدين ... بالقرآن .

واستبدلت من كتب المسلمين الآيات القرآنية ليوضع مكانها (النظريات العلمية) وأصبح علماء الشرع قبل غيرهم يعلمون الناس أن الأرض لم تخلق في أربعة أيام فقد أثبت العلم أنها بلايين السنين . وأنها لم تخلق بالعناية الإلهية ، بل باصطدام نجم مع الشمس في عملية تدميرية . وأن كل الأجرام السماوية يحكمها قانون نيوتن للجاذبية وليس قانون القدرة الربانية وأن السماء التي بناها الله تتمدد . وأن الأرض التي أقرها وأرساها تتحرك وأن الشمس التي كانت تجرى لمستقرها ، أصبحت تجرى حول المجرة .

* * * * *

اللاعبون بالآيات

استفاد التجريبيون الغربيون من هذه التبعية الكاملة من علماء الإسلام لهم وكأنهم عرفوا أن نبوءة نبي الإسلام قد تحققت ، وأن جيلا من المسلمين سيأتي وسيتبعونهم شبرا بشبر ، وذراعا بذراع . واستفاد إبليس أيضا من هذا الوضع أيما إفادة وأوحى إليهم بلعبة شيقة اسمها الحقيقي " اللعب بالآيات " واسمها المعلن " سبق القرآن " وهذا الأسلوب إبليسي معروف يقلب الحقائق وتغيير الأسماء منذ ﴿شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ وقد تفتق ذهن إبليس بهذه اللعبة " اللعب بالآيات " ما دام لا يقدر على تحريفها . واللعبة مكونة من فريقين علماء الغرب واسم فريقهم (فريق الرؤوس) وعلماء الإسلام واسم فريقهم (فريق الأذناب) .

واللعبة شبيهة في قواعدها بلعبة الكلمات المتقاطعة ، وشبيهة في شكلها بلعبة الكرة على أن تستبدل الكرة بالآيات . ولأنها لعبة شيطانية فمن الصعب تعريفها . لذلك سنضرب مثالاً لإحدى التلاعبات .

يعلم المستشرقون وعلماء الغرب أن القرآن يخبر عن الأرض بأنها مبسوطة وممدودة ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ (ق:٧) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا﴾ (نوح:١٩) ﴿وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية: ٢٠) فطلع علماء الغرب وأهل الفلك والمنجمون على العالم بأنهم اكتشفوا أن الأرض ليست مسطحة ولا مبسوطة ولا ممدودة ولكنها كروية .

وأخرج علماء المسلمين قرآنهم – طبقا لقواعد اللعب وبحثوا ، وبعد حين صاحوا فرحين " لقد سبق القرآن العلم الحديث في إثبات كروية الأرض في أكثر من آية منها " :

﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ (الزمر:٥) . وعلى رغم إجماع سلف الأمة على كروية الأرض والسموات ، إلا أن علمائنا لم يفطنون إلى ما وصل إليه سلفهم إلا بعد أن أعلن أهل الفلك أن الأرض كروية .

بعد عدة سنوات أعلن رجال الفلك الغربيين أنهم اكتشفوا أن الأرض ليست كروية وإنما هي بيضاوية الشكل ، وتملك الحزن علمائنا ، وأمسكوا عن القول بكروية الأرض . وسكتوا عن الكلام في أمر الأرض من قريب أو بعيد ، حتى جاء اليوم الذي انتفضوا فيه مهللين وأعلنوا قوله تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ هاهو القرآن الذي نزل قبل ألف وأربعمائة عام يقرر حقيقة علمية أثبتها العلم الحديث الآن وهي أن الأرض بيضاوية الشكل يقول تعالى ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (النازعات:٣٠) فقد اكتشفوا أن بعض أهل ريف مصر يطلقون على البيضة لفظ : دحية . فمن الذي أخبر محمداً ﷺ هذه الحقيقة التي اكتشفت في هذا العصر الحديث .

والغريب في الأمر أن أحدا من علماء التفسير أو حتى علماء الإنتاج الحيواني لم يقل أن هذا هو معنى الآية . ومراد الله عز وجل المتفق عليه على هذه الآية والتي لم يخالف فيها أحد أن معنى دحاها هو ما فسره عز وجل ذاته ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا﴾ أي أن الدحو هو تهيئة الأرض بالصورة التي تحدثنا عنها والتي تمت في اليومين الأخيرين للأرض . هذا هو المعنى القرآني للكلمة ، أما معناها اللغوى فهو : البسط .

ولم تدم فرحة المسلمين للمرة الثانية . فلم يمض وقت حتى أعلن علماء الفلك أنه ثبت لديهم : أن الأرض ليست بيضاوية ، إنما ثبت علميا أن الأرض مستديرة ولكنها مشطوفة القطبين ، أي قطرها الاستوائي يزيد عن قطرها القطبي بعدة كيلومترات . فقد اكتشفوا أن نصف قطرها القطبي هو ٦٣٥٧ كم بينما يبلغ نصف قطرها الاستوائي ٦٣٧٨ كم .

ترى ماذا يصنع علماء القرآن في هذا المأزق ؟

يقيني أنهم لن يعجزوا ، ولن يعدموا حيلة . وقد تمرس علماء القرآن الآن في الكشوف القرآنية ليطابقوها ويوافقوها مع كل ما أنتجته العبقرية الغربية من اكتشافات وما وصلوا إليه من اختراعات . لم تمض سنوات قليلة حتى أفحم علماء المسلمين رجال الفلك الغربيين ، بأنهم مهما فعلوا فلن يسبقوا القرآن ، الذي ذكر الله فيه كل شيء ، وأنهم لن يستخرجوا

كل ما فيه جملة واحدة بل إنهم سيفاجئون العالم حينا بعد حين ، إذا ما قيلت نظرية فإنهم سيردون عليها – تأييدا – بالقرآن .

وبنفس المقدمة : " أن القرآن قد سبق الكشوف العلمية بألف وأربعمائة عام عندما قرر بأن الأرض مشطوفة القطبين – إذا أن الله تعالى ذكر في سورة الرعد : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (الرعد:٤١) .

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الأنبياء:٤٤) .

ورغم أن الآيات واضحة تمام الوضوح في أنها لا تتحدث عن أمور كونية بل عن أمور حكمية . إلا أنهم استدلوا بهذه الآيات ، إذ أن ظاهر الآيات ممكن أن يحمل على هذا ، أما معنى الآيات فلا يهم .

إن الله تعالى في كلا الآيتين يتحدث عن أخذه للكافرين ، وأن هذا الأمر قدره في اللوح المحفوظ وهو سنة جعلها الله لمن يكذب أو يظلم من الأمم فإنه تعالى يجازيهم في الدنيا قبل الآخرة يقول تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (الإسراء:٥٨) .

أي ما من أهل قرية إلا سيهلكون بموت أو بعذاب يستأصلهم ، والمراد بالقرية أهلها والقرية هي المدينة الكبيرة . وكذلك المراد بأطراف الأرض : جوانبها ونواحيها . وإنما قيل ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لأن يوم القيامة ستهلك كل القرى . بكل أهلها الصالحون والطالحون . أما هذا الإهلاك في الدنيا فيخص الكافرين والظالمين ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (القصص:٥٩) وهذا أمر مقدر ومسطر في اللوح المحفوظ .

ولقد رأى كفار قريش ذلك فيمن حولهم ، قرى لوط والأحقاف وهي في طريقهم للشام ، والحجر وهي في طريقهم لليمن وغيرهم ممن حولهم . وبذلك تنقص الأرض باستمرار من أهلها الفاسقين ويستبدلوا بغيرهم . يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ﴾ (الأحقاف:٢٧) .

وأرى أن أنسب تعليق على قول هؤلاء بأن نقص أطراف الأرض هو نقصها من القطبين هو ما قال " سيد قطب " في ظلال القرآن . فقال رحمة الله عن هذه الآية ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ قال :

" وإن يد الله القوية لبادية الآثار فيما حولهم ، فهي تأتي الأمم القوية الفتية حين تبطر وتكفر وتفسد ، فتنقص من قوتها وتنقص من ثرائها ، وتنقص من قدرها . وتحصرها في رقعة من الأرض ضيقة بعد أن كانت ذات سلطان وذات امتداد . وإذا حكم الله عليها بالانحسار فلا معقب لحكمه ولابد له من نفاد " .

قال سيد قطب بالهامش معلقا على شرحه : " هذا هو المعنى المتعين لهذا النص ، لا ما يخبط فيه دعاة " التفسير العلمي للقرآن " من دلالة هذه الآية على نقص أطراف الأرض عند القطبين وانبعاجها عند خط الاستواء . إلى آخر هذا الهراء . إن السياق القرآني يحدد مدلول العبارات فيه . فليتق الله من يخبطون في هذا المجال دون فقه وبصيرة بطبيعة هذا القرآن " .

وآية نقص الأرض حول روسيا الشيوعية ، ومن قبلها بريطانيا العظمى التي كانت لا تغرب عنها الشمس ، وفرنسا التي امتد ملكها للدول الإسلامية ، وألمانيا التي غزت العالم ، والدولة العثمانية ، وغيرها من الدول التي انكمشت الأرض تحتها ، تثبت المعنى الصحيح .

ورغم معنى الآية الواضح فقد حرف هذا المعنى إلي معنى آخر بعد عصر النهضة .

وعلى ما يبدوا أن التجريبيين قد ضاقوا ذراعا بمطاردة المسلمين لهم بالقرآن الذي هربوا من آياته وكفروا به قبل أن يقرءوه . ولأنه ليس ما يفعله أعداء الدين من اكتشاف النظريات إلا هدماً للدين وليس التوصل إلى حقيقة الكون . فإن مسألة العقيدة لا تبرح ذهنهم ، فإنهم يضعون النظريات ليحاربوا بها فكرة الإله . يقول تعالى : ﴿ولا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا﴾ (البقرة:٢١٧) لذلك تنازلوا بسهولة شديدة عن كل ما قاله كوبرنيقوس وجاليليو من مبدأ ثبات الشمس ومركزيتها للمجموعة الشمسية ، لان المهم لديهم أن يثبتوا ولو بالإدعاء تناقض الكتب المقدسة مع العلم الحديث ، وهذا هو الدور الرئيس لكل النظريات التي أخرجوها .

هذه المرة فتشوا عن وصف للأرض لا يوجد في القرآن ، فهداهم تفكيرهم إلى ما أعلنوه أخيرا عن شكل الأرض وهو وصف " كوميدي " أكثر منه علمي – مادمنا في تسلية " اللعب بالآيات " . فقالوا : " لقد أثبتت الصور الملتقطة للفضاء أن الأرض تبدوا " كمثرية الشكل " . وفسروا ذلك بأنها مستديرة في محيطها إلا جزء منها مقبب ومرتفع عن بقية الأرض . وعلى الفور انكب علماء المسلمين على مصاحفهم لينظروا ماذا يقول القرآن في هذا الكشف العلمي الجديد . ورغم أن الصور المنشورة للأرض لا تقول أبداً بأن الأرض

" كمثرية الشكل " إلا أن علماءنا لا يكذبون أبدا علماء الغرب . وكما قال أحدهم في مجلة الأزهر " أتكذبون وكالة ناسا التي أوصلتنا للقمر ؟ " .

ومنذ إعلان هذا الكشف وهم يبحثون ، ولا يزالون . ووجدوا أثناء بحثهم أن القرآن قد ذكر كثيراً من الفواكه والخضراوات ، ولكنه لم يذكر " الكمثرى " وإن كان ذكرها يندرج ضمن ذكر الفواكه التي ذكرت في القرآن ١٤ مرة ، ولكنهم يريدون ، للإفحام ذكراً خاصاً لها وأن تكون أيضا في آية تتحدث عن الأرض أو آية قريبة منها . ووجدوا بالقرآن : (نخيل وأعناب) و(رطبا جنيا) و(طلح منضود) و(التين والزيتون) وفاكهة أخرى كثيرة . إلا " الكمثرى " ولا يزال البحث جارياً عنها .

غير أن البعض تسرع – إنقاذاً للموقف – وأوردوا آية على أنها دليل " الكمثرى " والحقيقة أنه لا علاقة لها بالكمثرى ، وادعوا أن هذا سبق علمي للقرآن . وللأمانة فإنني سأفشي سرا لعلماء العالم وأقول : بأن هذه الآية ليست كمثرية . كما أنه قد سبق للمستدلين بها أن استدلوا بهذه الآية نفسها على أن الأرض مشطوفة القطبين . وهذان أمران لا يمكن الجمع بينهما ، لأن مشطوفة القطبين أمر والكمثرى أمر آخر . اللهم إلا أن يكونوا لم يروا الكمثرى .

قال " عبد الرازق نوفل " في كتاب (دنيا الزراعة والنبات) وواضح من اسم الكتاب أن له أيضا علاقة بالكمثرى : " بعد أن تمكن العلم الحديث من تصوير الأرض من خارجها في عصر الفضاء ، ومن الأقمار الصناعية أعلن أن الأرض أشبه بحبة الكمثرى وأن أقرب شكل لها هو البيضة " .

ولا ندرى ما وجه الشبه بين البيضة والكمثرى ؟

وقال الدكتور " جمال الدين الفندي " في كتابه " لماذا أنا مؤمن " :

" ثبت أن الأرض غير كاملة الاستدارة . إذ يزيد قطرها عند خط الاستواء على قطرها الواصل بين القطبين بنحو ٢١ كيلو متر مما يجعلها غير كاملة التكور ولكن " كمثرى الشكل " إلى حد ما وتدل القياسات الحديثة على استمرار هذا التباعد على الشكل الكروي ببطيء شديد جدا " . ثم استدل الكاتبان على الكمثرى بالآية : ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ولأن معظم علمائنا غير مطمئنين إلى وجود هذا الشبه بين أي من الآيات التي ذكرت وبين الكمثرى فلا يزال البحث جاريا .

ولأننا نعتبر أن ما يذكره التجريبيون هو حقائق لا تقبل النقض فإن أحدا لم يكلف نفسه عناء البحث – ولو بالنظر للصور المنشورة – عن صحة هذه المعلومة الكمثرية . رغم أنهم قد غرروا بنا قبل ذلك في أمور ادعوا إثباتها علميا ثم تراجعوا ، كما حدث مثلا في قولهم بمركزية الشمس للكون ، وغيرها .

هذا هو حالنا أيها السادة مع علماء الغرب (التجريبيون) ومع آيات الله التي نحمده تعالى أنه تكلف بحفظها من التحريف ، ولم يترك الأمر لنا .

لقد كان علماء السلف قبل ذلك يوجهون بالقرآن جميع علماء الأرض من غير المسلمين إلى تغيير ما لديهم من علوم إذا وجدوها مغايرة لما ينص عليه القرآن وكانوا يستجيبون . ووصلنا إلى زمن علماء الأرض جميعا يناقضون آيات القرآن . وعلماء القرآن يوافقون ويوفقون .

ولا دليل واحد على دوران الأرض

هل يتصور علماء المسلمين أن كوبرنيقوس وجاليليو غيروا نظام الكون وقلبوا وضع الأرض والشمس دون دليل واحد ؟؟

وإلا فما هو الدليل ؟؟

لا يوجد دليل واحد .. واحد فقط .. واحد لا غير يقول أن الأرض هي التي تدور .. وأن الشمس هي الثابتة .

هل يتصور علماء المسلمين المعاصرين أنهم خالفوا آيات الله إلى تعاليم جاليليو دون دليل ؟ لأن دليل جاليليو الوحيد وهو : المد والجزر ، أبطله علماء الغرب أنفسهم ؟

نسأل علماء الأرض قاطبة :

ما هو دليلكم على أن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس ؟

بكل الإيمان بالكتب المقدسة . بكل اليقين في التوراة ، والإنجيل والقرآن . نتحداكم جميعا أن تأتوا بدليل واحد على ما تقولون ؟ دليل واحد فقط .

نحاول أن نجد أي دليل لنتعامل معه ، ونناقشه ، ونرد عليه ، فلا نجد .

ألم تقولوا " لقد أثبت العلم " فما هو دليل الإثبات ؟

أما علماء الإسلام الآن فلديهم الدليل ، وبالطبع من القرآن . الذي ينص على ثبات الأرض ودوران الشمس حولها ، أتوا من القرآن بدليل غريب : عبارة عن جزء من آية في قوله تعالى من سورة النمل : الآية ٨٨ يقول بعضها — الذي استدلوا به .

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ وهذا الاجتزاء من الآية ليس أمانة علمية ، ولا علاقة له بالعلم ، ولا يجوز العمل به لأنه يؤدى إلى عواقب وخيمة ، واستنتاجات باطلة .

فهل يجوز أن نستدل بإجابة الموتى لمن يدعوهم بهذا الجزء من الآية : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى﴾ (الأنعام:٣٦) ؟ هل يجوز الاستدلال بأن الذين يحملون العرش ومن حوله في النار لقوله تعالى في سورة غافر ﴿أَصْحَابُ النَّارِ (٦) الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ ؟ هل يجوز الاستدلال بجواز الإشراك بالله لأن القرآن ذكر ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ (المائدة:٧٣) ؟ إن هذا الاجتزاء للآيات يؤدى إلى أمور خطيرة وباطلة بطلانا مطلقا . بل انه لا يجوز في آيات أن تقرأ كاملة ، بل لابد من تجزئتها في القراءة والعرض وإلا ما كان على الكافرين من حرج لأنهم قالوا حقا إذا قرأت الآية هكذا : ﴿ولا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (يونس:٦٥) فهل قولهم إن العزة لله جميعا يحزن ولكنهم لم يقولوا أصلا ذلك . فالجزء الثاني من الآية هو من قول الله عز وجل . وعرفنا علم التجويد وهو علم معنى بقراءة وترتيل القرآن أن هناك وقف لازم بعد قوله ﴿ولا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُم﴾ ونقف ثم نكمل ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وكذلك الأمر في قوله تعالى ﴿فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (يس:٧٦) ومن ثم فالاستدلال بالآيات أو بأجزاء منها لا يكون اعتباطا ولا بأي صورة ، ولقد مر النبي ﷺ على رجل يخطب في قومه وقال : " من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما " فقال ﷺ : " بئس الخطيب أنت" ثم قال ﷺ موضحا خطأ الخطيب هذا " فقد كان ينبغي أن يصل كلامه فيقول : ومن يعصهما فقد غوى أو يقف على : ورسوله فقد رشد " .

فإذا كان هذا مكروها في الخطب ففي كلام الله أشد .

وهذا هو للأسف الذي يتعامل به دعاة " التفسير العلمي للقرآن " وهو أسلوب يعطى لأي أحد أن يدلل على قوله من القرآن ، أيا كان ما يقول ، وأي قضية مهما كانت يمكن إثباتها ونفيها بهذا الأسلوب .

وهاك مثال : " إن الصلاة ليست فرضا على المؤمنين ... بل إن هناك نهي عن الصلاة . يقول تعالى في سورة النساء ﴿لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ﴾ بل إنه تعالى يتوعد المصلين أشد وعيد فيقول ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ (الماعون:٤) وأثبت القرآن أن قوما أعلنوا التزامهم ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ وبما أن التجريبيين الغربيين لا يصلون ، فيكون القرآن قد سبقهم وسبق العلم الحديث بأكثر من ألف وأربعمائة سنة .

ما رأيكم أيها السادة في هذا الإثبات ، أليس من القرآن ؟ ألم نفعل مثلكم ؟ أم أنه حلال عليكم حرام علينا ؟

ولكن بالطبع إن هذه القضية لا يقول بها إلا مغيب العقل كمن يقول لصاحبه :

دع المساجد للعباد تسكنها ... وطف بنا حول خمار يسقينا

لم يقل ربك ويل لأولى سكر ... بل قال : (ويل للمصلينا)

بهذا الأسلوب يتعامل علمائنا في إثبات ما لم يثبته الله ولا رسوله ، وتعاملوا مع كل النظريات المعاصرة في إثباتها بالقرآن بهذه الطريقة . ولقد رأينا كيف رفض السلف القول بخلق القرآن لمجرد أن الله لم يقل بذلك ولم يقل به رسوله . رغم استناد المروجين لهذا القول بآيات من القرآن وبنفس أسلوب ذلك المخمور .

نأتي إلى الآية التي يثبت بها علماء المسلمين ويستشهدون بها على دوران الأرض يقول تعالى ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ(٨٩)وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

إن هذه الآية التي يستدلون بها على دوران الأرض ، ذكرها الله تعالى ضمن آيات توضح مشهداً من مشاهد يوم القيامة . ولا علاقة لهذه الآية بالحياة الدنيا لأن الله تعالى أخبر في القرآن أن الجبال ثابتة ، راسية ، منصوبة وليست في الدنيا بأي حال من الأحوال متحركة وإلا فكيف يخبرنا تعالى أن الجبال ثابتة ثم نكتشف بعد ذلك أنها ليست ثابتة وإنما هي تمر مر السحاب ؟

إن الله تعالى يخبرنا بأن الجبال في الدنيا ثابتة ، ولكنها في اليوم الآخر لن تكون كذلك ، وهذا لأن كل ما في الكون سينقلب إلى ضده فالثابت سيتحرك والمتحرك سيثبت والمنير

سينطفئ والمنطفئ سيشتعل ، والمشتعل سيبرد والبارد سيتوهج ، وما في الباطن سيظهر وما كان في الظاهر سيبطن . باختصار شديد سينقلب كل شيء إلى ضده يقول تعالى ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٤) . فهذا الكون الممتلئ بالنشاط والحيوية والحركة والعمل والنظام والدقة (سيدمر) .

يقول تعالى ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ (الملك :٣) هذا في الدنيا ، ليس في السماء شقوق ، أما يوم القيامة فيقول عنها تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ (الانفطار:١) وهذا يوم القيامة بلا شك . ويقول تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ (الشمس:٥) هذا في الدنيا أما في الآخرة ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ (الانشقاق:١) . أما الأرض فيقول تعالى عنها ﴿جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا﴾(النمل:٦١) هذا في الدنيا أما يوم القيامة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ ﴿إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا﴾ .

والشمس قال عنها في الدنيا ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ أما في الآخرة فيقول ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (التكوير:١) ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ . وقال تعالى عن القمر ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ (يونس:٥) هذا في الدنيا ، أما الآخرة فيقول ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ (القيامة:٨) . ويقول عن الكواكب في الدنيا ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ (الصافات:٦) أما في الآخرة ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ (الانفطار:٢) وعن النجوم في الدنيا ﴿النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ (الأنعام:٩٧) أما يوم القيامة ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ (المرسلات:٨) . والبحر قال عنه تعالى في الدنيا ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ (النحل:١٤) وفي الآخرة ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ (التكوير:٦) ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ (الانفطار:٣) وما من شك أن ذلك سيكون يوم القيامة .

وكذلك الجبال قال تعالى عنها في الدنيا ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ (النازعات:٣٢) ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (النبأ:٧) ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (الغاشية:١٩) أما عن الآخرة فيقول تعالى ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (النبأ:٢٠) ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلا﴾ (المزمل:١٤) ﴿تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ (النمل:٨٨) .

الجبال هي الدليل الأول لثبات الأرض

إنها لواحدة من عجائب علماء المسلمين بعد عصر النهضة أن يأتوا بالدليل الأول والصريح على ثبات الأرض ، وبالأداة التي ثبت الله بها الأرض حتى لا تميل ، ويجعلوها دليل على الدوران .

إن الله تعالى لم يخبر بأنه ثبت الأرض بالجبال في آية ولا اثنتين ولكن في اثنتي عشرة آية يؤكد الله أنه ثبت الأرض بالجبال وخلق الجبال لتثبت الأرض يقول تعالى :

(١) ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ (الرعد:٣)

(٢) ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ (الحجر:١٩)

(٣) ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (النحل : ١٥)

(٤) ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ (الأنبياء : ٣١)

(٥) ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ (النمل:٦١)

(٦) ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (لقمان :٩)

(٧) ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ (فصلت:١٠)

(٨) ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ (ق:٧)

(٩) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ (المرسلات:٢٧)

(١٠) ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ (النازعات:٣٢)

(١١) ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧)﴾ (النبأ)

(١٢) ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (الغاشية) .

بهذه الآيات الإثنى عشر يخبرنا تعالى أنه ثبت الأرض ، فلو كانت الجبال تتحرك هذه الحركات التي ذكرها كوبرنيقوس فما فائدة الجبال ؟ وأي شيء تثبته الجبال ؟

إن أهل الفلك لم ينسبوا للأرض حركة واحدة بل ستة حركات :

(١) حركة حول نفسها بسرعة ١٠٤٤ ميل / ساعة أي ١٦٨٠ كم / ساعة .

(٢) حركة دائرية حول الشمس بسرعة ٦٧ ألف ميل / ساعة أي ١٠٧٨٢٥, ٧٨ / ساعة .

(٣) حركة دائرية مع الشمس حول المجرة بسرعة ٤٩٧ ألف / ميل أي ٨٠٠٠٠٠ كم / ساعة .

(٤) حركة نحو نجم النسر بسرعة ٤٣ ألف ميل أي ٧٠٠٠٠ كم / ساعة .

(٥) حركة لتمدد الكون (مع الشمس) بسرعة ١٤ ألف في الثانية أي ٥٠ مليون ميل / ساعة .

(٦) حركة ترنحية مع نفسها أشبه بحركة ترنح نحلة لعب الأطفال التي تميل وهي تدور ذات اليمين وذات الشمال .

وهناك حركات أخرى ذكرها العلماء ولم نذكرها هنا اختصارا .

فكيف نجمع بين هذين القولين ، قوله تعالى أنه ثبت الأرض بثاني عشر آية ، وقول كوبرنيقوس وأتباعه أن لها أكثر من ستة حركات ؟

لا يمكن الجمع بينهما . فمن نصدق الله أم كوبرنيقوس ؟

إن أهل الأرض جميعا يصدقون كوبرنيقوس . وكوبرنيقوس لا يؤمن بالله .

ولكنى . . . أصدق الله . وأقول بأن الأرض ثابتة ، ولو قال كل سكان الأرض أنها تدور .

لقد ذكرنا أن الله تعالى بعد ما خلق الأرض خلق لها جبالاً رواسي . ولكنه تعالى لم يرس الأرض بالجبال فور خلقها ، وذلك لأن الأرض انتقلت من مكان إلى آخر ، من مكان خلقها إلى مكانها الحالي ، وأتت إليه بالأمر . وبعد ما أتت الأرض مع السموات جعلت تميد كما روى أحمد عن انس ابن مالك عن النبي ﷺ قال : " لما خلق الله الأرض جعلت تميد (تتحرك وتتمايل) فخلقت الجبال فألقاها عليها فاستقرت . فتعجبت الملائكة من خلق الجبال . فقالت : يارب هل من خلقك شيء أشد من الجبال ؟ { قال نعم الحديد } . قالت يارب هل من خلقك شيء أشد من الحديد قال { نعم النار } قالت : يارب فهل من خلقك شيء أشد من النار ؟ قال : { نعم الريح } . قالت : فهل من خلقك شيء أشد من الريح ؟ قال : { نعم ابن آدم يتصدق بيمينه يخفيها من شماله } .

ويوم القيامة ستعود الأرض كما بدأها الله تعالى ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٤) وستمر الأرض بالمراحل التي بدأت بها ولكن ما جعل فيها أخيرا (إرساء الجبال) سينزع منها أولاً . أخرج ابن المنذر عن ابن الجراح قال : قالت قريش : يا محمد كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة فنزلت الآية ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا ولا أَمْتًا﴾ (طه) .

أي أنه تعالى يقلع الجبال من أصولها ثم يصيرها رملا يسيل سيلا ثم يصير كالصوف المنفوش ، تطيرها الرياح هنا وهناك ثم كالهباء المنثور ، فتكون مواقعها بعد ما قلعت منها الجبال قاعا صفصفا ، أي أرضا مستوية ملساء مكشوفة ﴿لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا ولا أَمْتًا﴾ فلا ترى في الأرض يومئذ منخفضاً ولا مرتفعاً ولا شيئا بارزاً من الأرض .

وهنا ستتحرك الأرض ، تزلزل ، وترج ، وتدك :

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾

﴿إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا﴾

﴿إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ .

وكما أتت الأرض فإنها ستعود ، بعد أن تخرج ما أودع فيها ، وتبعثر قبورها ، وتفجر بحارها ، فتعود مرة أخرى . ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ (إبراهيم:٤٨) .

والآية ٨٨ من سورة النمل التي يظن البعض أنها تتحدث عن حركة الأرض ، وهي إحدى أثنى عشر آية تتحدث أيضا عن مصير الجبال في اليوم الآخر ، تماما كما أخبر تعالى عن دور الجبال في الدنيا في أثنى عشر آية ، حتى تكون هذه مقابلة لتلك ولم يقتصر إعجاز القرآن عند حد المساواة التامة بين آيات الجبال في الدنيا وبين آيات مصيرها في الآخرة ، بل في لفتة معجزة أخرى يذكر تعالى هذه الآيات المتعلقة بنهاية الجبال في الآخرة في النصف الآخر من القرآن . الإثنى عشرة آية ذكرت من منتصف سورة الكهف وهو أول النصف الآخر للقرآن حتى سورة القارعة . وقد وردت جميع هذه الآيات الأربعة والعشرين في السورة المكية فقط ، ذلك أن أهل مكة كانوا يكذبون باليوم الآخر . وكما أخبرهم تعالى عن خلقهم أخبرهم عن خلق الجبال الأكبر والأشد منهم ، وكما أخبرهم عن إعادقم يوم البعث أخبرهم عن إعادة الجبال كما كانت . وأنها ستعود مرة أخرى من حيث أتت ، بل وسيرونها وهي تمر من فوقهم كالسحاب .

والآيات الإثنى عشر التي تخبرنا عن مصير الجبال يوم القيامة هي :

(١) ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (الكهف:٤٧)

(٢) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا ولا أَمْتًا﴾ (طه:١٠٥)

(٣) ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠)﴾ (الطور:١٠)

(٤) ﴿إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥)﴾ (الواقعة:٥)

(٥) ﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ (الحاقة:١٤)

(٦) ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ (المعارج:٩)

(٧) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلا﴾ (المزمل:١٤)
(٨) ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ (المرسلات:١٠)
(٩) ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (النبأ:٢٠)
(١٠) ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ (القارعة:٥)
(١١) ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ (التكوير:٣) .

هذه إحدى عشر آية تحدد مصير الجبال في اليوم الآخر ، ولا يوجد غيرها في القرآن إلا الآية ٨٨ من سورة النمل والتي هي دليل البعض على دوران الأرض . فأين نضع هذه الآية ؟ أليس مناسباً أن نضعها هنا لتتساوى آيات الجبال في الدنيا مع آيات الجبال في الآخرة . وليس فقط لتتساوى الآيات بل إن هذه الآية توسطت مشهدا من مشاهد يوم القيامة . بدأ المشهد بقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ وانتهي المشهد بقوله تعالى ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كذلك ورد بهذه الآية فعلا للجبال ﴿تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ وكذلك بقية آيات الجبال في اليوم الآخر فقد نسب للجبال فعلا في جميع الآيات دون استثناء .

(تسير الجبال – ينسفها – تسير – بست – دكت – تكون – ترجف – نسفت – سيرت – تكون – سيرت – تمر) أثنى عشر فعلا كلها حركة تختلف إحداها عن الأخرى . ما بين البس وهو التقطيع والتفتيت ، والرجف والدك والنسف والسير والمرور ...

بينما لا نجد للجبال في الإثنى عشر آية التي تتحدث عنها في الدنيا أي فعل ، فلم ينسب ربنا فعلا واحداً للجبال ، حتى في قوله ﴿والْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ فالهاء هنا تعود على الأرض أي أنه تعالى أرسى الأرض بالجبال .

وقد عرضت الآية ٨٨ بنفس الصورة التي عرضت بها عدة آيات تعرض مشاهد للجبال في اليوم الآخر . كمثل الآية ١٠٥ سورة طه : ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا يَوْمًا (١٠٤) وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ .

وبنفس العرض تأتى الآية ٨٨ من سورة النمل : ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ

تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ .

وكما هو واضح من سياق الآية لكل ذي عقل سليم أن الآية التي يستدل بها بعض علماء المسلمين على دوران الأرض لا شأن لها بذلك .

وقد اتفقت كل التفاسير لعلماء ما قبل عصر الإلحاد و أجمع المحدثون والفقهاء أن هذه الآية تخبر عن يوم القيامة ، والأمر لا يكون إلا كذلك ، وإلا لتناقضت آيات الله من الثبات للحركة . وقد وردت بسورة النمل آيتان للجبال آية تتحدث عن جبال الدنيا والأخرى التي نحن بصددها . ولم تجمع سورة كلا النوعين إلا هذه السورة وسورة النبأ التي يقول تعالى فيها ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ وفي نفس السورة يقول تعالى : ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتْ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ .

أما سورة النمل فقد ذكرت جبال الدنيا في قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ (النمل: ٦١) يقول " سيد قطب " عن هذه الآية " والرواسي الثابتة تقابل الأنهار الجارية في المشهد الكوني الذي يعرضه القرآن هنا والتقابل التصويري ملحوظ في القرآن . وهذا واحد منه . لذلك يذكر الرواسي بعد الأنهار " .

أما عن الآية الأخرى في نفس السورة فيقول " سيد قطب " :

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ : ويصاحب الفزع الانقلاب الكوني العام الذي تختل فيه الأفلاك ، وتضطرب دورتها ومن مظاهر هذا الاضطراب أن تسير الجبال هذا يتناسق مع ظل الفزع الأكبر . ويتجلى الفزع فيه وكأنما الجبال مذعورة مع المذعورين " .

هذا التفسير ورد بكتاب " في ظلال القرآن " وهو من التفاسير المؤلفة بعد عصر النهضة ولم يفلت صاحبه من تأثير هذا العصر ، وإن كان أقلهم تأثيرا ، لذلك كان من القلائل الذين عصمهم الله من التقول عليه بما لم يقله تعالى في هذه الآية .

أما تفسير المنتخب فقد علق مؤلفوه على الآية بالآتي :

" تقرر الآية الكريمة أن جميع الأجسام التي تخضع للجاذبية الأرضية مثل الجبال والبحار والغلاف الجوى .. الخ ، تشترك مع الأرض في دورتها اليومية حول محورها ودورتها السنوية

حول الشمس ولكن هذه الدورة لا تدرك فهي مثل حركة السحاب في الجو يراها الناظرون بعيونهم ولكن لا يسمعون صوتها أو يلمسونها وإن إيراد هذه الحقائق العلمية على لسان النبي – التي لم تكن قد وصلت إلى علمه – دليل على أنها موحى بها من عند الله " .

تحويل الجبال إلى سحاب

إن تفسير الآية بمثل ما قال به مؤلفو " المنتخب " يخرج مدلول الآية عن مراد الله وتعطيل للمعنى الصحيح الذي في هذه الآية بإخفائه ، وهذه الآية من أعجب الآيات وفيها دليل على قدرة الله العظيمة ، وإتقان الله في صنع الأشياء إذ تتحول السحب إلي جبال وهو أمر يتكرر في الأرض كل يوم ، أما في اليوم الآخر فستتحول كل جبال الدنيا إلي سحاب وهو أمر لن يحدث إلا مرة واحدة .

وإن كان علماء عصر الإلحاد المؤمنون فيه والكافرون يستعظمون أن تتحول الجبال إلي سحاب . فإنهم لا يجحدون أن يتحول السحاب إلى جبال في الدنيا . والتجريبيون يعلمون ذلك ولا ينكرونه بعدما رأوا ذلك الأمر من الطائرات ، والمؤمنون يعلمون ذلك من قول الله تعالى لهم في سورة النور ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ(٤٣)﴾ . ففي هذه الآية يخبر الله عن نوع من السحاب واسمه (السحاب الركامي) الذي يتراكم بعضه فوق بعض حتى يصل إلى ارتفاع ٢٠ كيلو متر ، وينزل منه الودق أي المطر كما ينزل منه البرد . أي الثلج . فالسحاب إذاً يتحول إلى جبال في هذا النوع الركامي . أقول يتحول إلى جبال ولا أقول كالجبال كما يقول بعض المفسرين أن السحاب يصبح كالجبال . وهذا لم يقله الله تعالى فالله يقول ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ﴾ ولم يقل من مثل الجبال . فالسحاب يتحول بالفعل إلى جبال من حيث الارتفاع ومن حيث التجمد والصلابة .

أما في الآخرة فستقلب الأمور كما ذكرنا ، وستنقلب الجبال إلي سحاب . ولكي ندرك هذا الأمر سنتحدث عن هذه الآية كلمة كلمة لنرى عجبا .

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ .

﴿وَتَرَى﴾ أنه خطاب لكل منا على حده ، فرغم هول الموقف وجلال الأمر والقلق على المصير ، فان كل منا سيرى هذه الآية ، بل إن عرضها أمامنا سيكون كأن كل منا وحده المعني بها وكأنها معروضة له وحده . ﴿الْجِبَالَ﴾ والرؤية ستكون للجبال وليس لغيرها ، والجبال ليست كما يقول مفسرو العصر أن الأمر ينطبق على الجبال والبحار والغلاف الجوى الخ بل إن الجبال وحدها هي المعنية .

﴿تَحْسَبُهَا﴾ أي تظنها ، والكلمة بهذا الشكل ﴿تَحْسَبُهَا﴾ لم ترد في كل القرآن إلا هنا . ﴿جَامِدَةً﴾ لقد فسرها المفسرون بمعني : قائمة ثابتة ، ولكن المعني أدق من ذلك ، فمعني جامدة : أي صلبة ، وليس معناها ثابتة وإلا لقال تعالى (ثابتة) ولكنه قال ﴿جَامِدَةً﴾ أي تحسبها في الحالة الأولى للمادة ، ونحن نعرف أن للمادة ثلاث حالات جامدة ، وسائلة ، وغازية . ونعرف أن جزيئات المادة (الجامدة) أقوي ترابطا من غيرها ، ومسافتها البينية أقل من غيرها ، وحركة هذه الجزيئات أقل حركة بالنسبة لغيرها من جزيئات السائل أو الغاز . والجبال من المعلوم أنها تندرج تحت الحالة الأولى للمادة ، وهذا العلم بحال الجبال لا يخفى حتى على الأمي . لذلك سنخطئ جميعا في ظننا بحال الجبال يوم القيامة إذ أننا سنظنها بحالتها التي عهدناها وعرفناها بها ، أي جامدة بمعني صلبة وليس بمعني ثابتة لأنه مستحيل أن تنخدع البشرية كلها بالظن في المتحرك أنه ثابت ، فهذا الأمر لا يمكن تصوره ولا الخطأ فيه خاصة والله تعالى يخبر وفي آيات كثيرة أنها تتحرك وتسير يوم القيامة ، ولن ننخدع في ذلك لأخبار الله لنا وللرؤية البصرية . ولكن من الممكن أن تنخدع حواسنا جميعا في حالة المادة فنظن السائل صلباً والصلب سائلاً ، أو الغاز سائلاً والسائل غازاً وهكذا وكثيرا ما يحدث ذلك لنا .

وكما ذكرنا ستتحول الجبال إلى سحاب ، أي تتحول من أول حالات المادة وهي الصلبة ، إلى أخر حالاتها وهي الغازية ، مروراً بالحالة الثانية وهي السائلة . كيف ؟

إن مراحل تحول الجبال إلى سحاب لم يتركها القرآن ليستنتجها العالمون ، ولكن ذكر الله تعالى مراحل التحول بدقة شديدة ، ومرحلة مرحلة ، وكأننا نرها رأى العين فإن الله تعالى سيحمل الجبال ويدكها دكاً ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ (الحاقة:١٤) . وسيرج الله الأرض بما عليها رجا ، فتتفتت منها الجبال ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ (الواقعة:٥) أي تكون قطع ويرجف الله الأرض والجبال ، فتصبح الجبال كالرمل السائل الذي يهال ﴿كَثِيبًا

مَهِيلا﴾ (المزمل:١٤) وينسف الله الجبال نسـفا حـتى تكـون الرمـال المهيلـة كـالصوف المنفـوش بتحول الرمال إلى ذرات دقيقة من الغبار كأنهـا غـاز ، وفي هـذه الحالـة ستسـيرها الريـاح ، وستصعد بها فوق الخلائق الذين ينظرون ويحسبون أنهـا جـامدة ، بينمـا هـي أصبحـت سـحابا فوق رؤوسهم وبذلك تكون الجبال قد تحولت من الحالة الصلبـة أي الجـامدة إلى الحالـة الغازيـة بقدرة الله تعـالى .

وكلمة ﴿جَامِدَةً﴾ لم ترد أيضا في القرآن إلا مرة واحدة هـي هـذه المـرة .

﴿وَهِيَ تَمُرُّ﴾ إنها أيضا كلمة وحيدة بهذا الشكل ﴿تَمُـرُّ﴾ فلـم تذكـر في كـل القـرآن إلا هنا فقط ، مثلها مثل كلمة جامدة غير أن الثانية لم تذكر بمادتها كلـها (جمـد) في القـرآن كلـه إلا هنا . ومعنى تمر أي تسير ، ولكن قد ذكر أكثر من مرة أن الجبـال تسـير .. في أربـع آيـات إذن فالمرور هنا غير السير ، وغير الدوران الذي يريد علماء العصر أن يحملـوه علـى الآيـة، فـالمرور لا يعني أبدا مجرد السير ، وإنما معناه مجاوزة شـيء مـا . ولـو فسـرت الآيـة باللهجـة العاميـة المصرية ، فيكون معناها : تفوت ، أو تعدى ، أو تخطـى . أي أنهـا تتخطـى النـاس منتقلـة مـن مكان إلى آخر . وهذا هو معنى المرور فهو مسألة وقتيـة مكانيـة ، كقولـه تعـالى : ﴿أَوْ كَـالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ (البقرة:٢٥٩) ﴿وَيَصْنَـعُ الْفُلْـكَ وَكُلَّمَـا مَـرَّ عَلَيْـهِ مَـلأٌ﴾ (هـود:٣٨) ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ (المطففين:٣٠) و﴿مَرَّ﴾ هنا في الآيـات فعـل . أمـا ﴿مَـرَّ﴾ في هـذه الآية فاسم ﴿مَرَّ السَّحَابِ﴾ إن هاتين الكلمتين في كل القـرآن الكـريم اللتـين تفسـران حدثـا فريداً لا ولم يحدث في الكون إلا مرة واحد لم تفسره إلا هذه الآية وبـالذات هـاتين الكلمتـين .

﴿مَرَّ السَّحَابِ﴾ ذكرنا أن الجبال تحولت بـالدك والـرج والبـس والنسـف والرجـف إلى سحاب وكأي سحاب ينشأ من الأرض بالريـاح ، ثم يتحـرك السـحاب إلى حيـث يشـاء الله . وبوصوله لما يريد الله يترل مرة أخرى موزعا على الأرض . فإن هذا مـا سـيحدث للجبـال تمامـاً فبعد تحولها إلى السحاب تمر فوق رؤوس الخلائق ، يحسـبونها جـامدة وهـي سـحاب ، تمـر مـر السحاب من فوقهم وبعد أن تتخطاهم تترل إلى الأرض مرة أخرى ، ولكـن ليـس كجبـال بـل ذرات دقيقة من التراب تسوى بهـا الأرض .

﴿صُنْعَ﴾ هذه أيضا لم تذكر في القرآن إلا مرة واحدة هـي هـذه . والصنـاعة تعـني العمـل وتحديداً تحويل المادة من حالة إلى حالـة ، أو تغـير شـكلها ، وهـو المفـهوم حـتى الآن لمعـنى الصناعة ، وهو المعنى الذي يرد في أي آيـة بهـا مـادة (صنـع) ﴿وَيَصْنَـعُ الْفُلْـكَ﴾ أي يحـول

الخشب الخام إلى بناء سفينة . فكذلك تحول الجبال من الحالة الجامدة إلى حالة تشبه الغازية حتى أنها لتسير وتعلو كسحاب . فهي صناعة لا يقدر عليها إلا الله . وهو تعالى القادر على كل شيء .

﴿الَّذِي أَتْقَنَ﴾ وهذه الكلمة أيضا لم ترد إلا مرة واحدة في القرآن كله هي هذه يقول ﷺ : " إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه " وهو سبحانه ﴿الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وما حولنا من الخلق لا يقدر على إتقانه إلا الله القادر الحكيم ، وما أغبى وما أظلم من يقول بأن الكون تكون بالانفجار والدمار ، والمصادفة هي التي أتت بهذا الإتقان البديع . وإن كان تعالى قد أتقن كل شيء إلا أن هذه الكلمة لم ترد إلا في هذه الآية التي تتحدث عن تحويل الجبال إلى سحاب وهي حادثه لن تحدث إلا مرة واحدة في الدنيا والآخرة . لذلك جاءت معظم كلمات الآية مرة واحدة في القرآن هذه الكلمات هي :

١- تحسبها	٢- جامدة	٣- تمر
٤- مر (كإسم)	٥- صنع	٦- أتقن .

فجاءت ست كلمات لأول مرة ولآخر مرة في آية واحدة لتدل على أنه حدث فريد في الدنيا والآخرة .

أدلة ثبات الأرض

كان دليلنا الأول على ثبات الأرض هو تثبيتها بالجبال التي أرساها الله فيها ، وهو دليل في الكتاب . وهذه باقي أدلة القرآن :

الدليل الثاني : نفي الحركة والفعل للأرض

بإحصاء كلمة الأرض التي وردت في القرآن وجدنا أنها ذكرت (٤٥١) مرة . لم يرد مرة واحدة مع كلمة الأرض أي فعل فيه حركة ، بل ولا غير الحركة سوى أفعال التسبيح فقط . بخلاف الشمس التي ذكرت حوالي ٣٠ مرة وردت مع معظمها أفعال حركة .

كذلك كما تذكر الشمس دائما مع القمر ، وكلاهما متحركان ، تذكر الأرض مع السموات وكلتاهما ثابتتان .

الدليل الثالث : نفي السجود للسموات والأرض

أثبت الله تعالى لكل الكائنات عبودية تتعبد بها له سبحانه وتعالى سواء أكانت سموات أو أرض أو شمس أو قمر أو نجوم أو شجر أو جبال أو دواب أو أناس فكلها تعبد الله تعالى

فنسب الله لهم جميعا التسبيح له . ونسب لهم أيضا السجود ما عدا السموات والأرض فلا تسجدان .

فقد نسب لكل ما في الكون التسبيح بما فيه السموات والأرض كما قال ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء:٤٤) . فكل الكائنات هنا تسبح حتى السموات والأرض .

ولم ينسب تعالى للأرض سجودا ولا للسماء مع خضوعهما لله وتسبيحهما ولكن دون هذا النوع من العبادة ، لأن فيه حركة ، والله تعالى قد ثبتهما وأمسكهما لينتفع سكانهما بثباتهما .

فأثبت تعالى للسموات والأرض طاعة كاملة له كشأن الكائنات . فمثلا :

١- ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ هكذا أمر الله ، فكانت الطاعة التامة ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ (هود:٤٤) .

٢- أن السموات والأرض تبكي على المؤمنين الصالحين لفراقهم إذا ماتوا أما غيرهم فلا تبكي عليه ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾ (الدخان:٢٩) .

٣- وأنكرت الأرض على من قال أن لله ولد ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ (مريم) .

٤ – أثبت الله لها وللسموات طاعة من بدئهما حتى نهايتهما . ففي البدء :

﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت:١١) . وفي الختم قال عن كل منهما ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (الانشقاق:٥) .

أما السجود فقد أثبته تعالى لجميع الكائنات والمخلوقات في السموات والأرض ولم يثبته لهما . ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (الحج:١٨) .

فكل هذه الكائنات على عظمتها وحركتها تسجد لله وهو سجود حقيقي باستثناء السموات والأرض . وقد كان الله تعالى قادر على أن يسجدهما . ولكنه تعالى منعهما من ذلك ليثبتهما لمن عليهما .

أفيثبتها الله لنا ونحركها نحن ؟ أيمنعها الله أن تتحرك لتسجد له ونعطـــي لهـــا نحـــن كـــل هـــذه الحركـــات ؟

الدليل الرابع: إتيان السموات والأرض

ذكرنا أن الله تعالى خلق السـموات والأرض في غـير مكانهمـا الحـالي ، في المكـان الـذي خلقهما فيه من الماء ، الذي كان العرش عليه ، وبعد تمام اليـوم الرابـع أمرهمـا تعـالى أن يأتيـا إلى مكانهما الحالي . فقال تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَـالَ لَـهَا وَلِـلأَرْضِ ائْتِيَـا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَـائِعِينَ﴾ (فصلت:١١) .

لقد أتت السماء والأرض إلى هذا المكان الـذي نحـن فيـه . فـإذا كـانت الأرض في هـذا المكان الذي هي فيه ، فإنما جاءته من أول الخليقة بـأمر الله . وطاعـة لله . فكيـف تـترك مكانهـا هذا لتلف وتدور ؟ ولم يخبرنا الله أنه أصدر لها أمراً آخر بعـد إتيانهـا إلى مكانهـا وقـال : أذهبـا بأمر الله . فتذهب الأرض وتتحرك حيـث شـاءت .

بل إن الكلمة ذاتها ﴿أَتَيْنَا﴾ توحي بأن مكانهـا هـذا لم يأمرهـا الله لتذهـب إليـه ، وإنمـا حدد تعالى لها مكانا ثابتا معيناً وقال ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ . فأتت إليـه مـع السـماء .

* * * * *

الدليل الخامس :

الأرض قرارا

القرار هو الثبات والتمكن والسكون والإستقرار . وفي الفقه القانوني (الإقرار سيد الأدلة) لأن المرء يثبت على نفسه ويقر . وفي اللغة القرار : السكون والثبوت .

أخبرنا تعالى بأن الأرض مستقرة بنا . وأخبرنا بأن الأرض مستقرة في مركز العالم . وفي قلب الكون .

يقول تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاء﴾ (غافر:٦٤) .

يقول البعض تفسيراً أنها قارة بالفعل كما قال تعالى ، ولكنها قارة بالنسبة لنا ولما عليها ، ولكنها ليست كذلك بالنسبة للكون .

ولكي لا يكون للناس حجة على الله في أنهم فهموا الآية على هذا الفهم . فقد أورد الله تعالى آية أخرى تعطي نفس المعنى ولكن دون أن يكون فيها ما يدعو للبس أو سوء الفهم فقد كانت الآية السابقة تذكر كلمة ﴿لَكُمُ﴾ في قوله ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ فجاءت الآية الأخرى دون هذه الكلمة ، حتى لا يكون لنا شأن بقرارها ، أي (ليست قارة لكم) فقال تعالى ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا﴾ (النمل:٦١) ليس هنا ﴿لَكُمُ﴾ . إذاً فلو جعلنا معنى الآية الأولى أنه تعالى جعل الأرض قارة بالنسبة لنا وليست بالنسبة للكون ، وتعللنا لهذا المعنى بوجود كلمة ﴿لَكُمُ﴾ فإن الآية الثانية خلت منها ولا حجة لأحد في هذه الآية أن يقول أن مراد الله أنها قارة بالنسبة لنا .

كذلك وردت كلمة ﴿جَعَلَ﴾ في الآيتين . والجعل مرحلة تالية للخلق . وقد علمنا أن الجبال أرساها الله في الأرض بعد أن خلق الأرض ، وبدا أنها غير مستقرة ولاحظت الملائكة ذلك . فالقرار إذاً للأرض جاء كعملية مستقلة للأرض فهي لم تستقر فور خلقها .

يتلاحظ أيضا أن الآية الثانية جاءت في صيغة سؤال فالله تعالى يقول : من الذي جعل الأرض ثابتة مستقرة لا تتحرك ؟ أفتكون الإجابة ، أن نقول : أنها ليست ثابتة ولا مستقرة ؟ هل يقول بذلك مؤمن ؟ مع أن هذا السؤال لم يطرح على المؤمنين وإنما على الكافرين ، الذين قال عنهم تعالى بعد إيراد آية قرار الأرض ﴿بَلْ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ (النمل:٦٦) .

ولقد اتفق سلف الأمة جميعا دون استثناء على قرار الأرض وثباتها وعدم إتيانها بأي حركة . يقول ابن كثير : " ﴿جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارً﴾ أي قارة ، ساكنة ثابتة لا تميد ولا تتحرك بأهلها ، ولا ترجف بهم ، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها عيش ولا حياة " .

ولتثبيت المعنى لمن في قلوبهم شك من أن قرارها يعنى ثباتها قوله تعالى ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (الحج:٥) فقد جاء ذلك بعد قوله تعالى عن المضغة ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ فالمخلقة تثبت وتستقر في الرحم ، وغيرها تنزل منه ولا تستقر فيه ، وقوله تعالى ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ (الأعراف:١٤٣) . هكذا كل آيات القرار في القرآن لا تعنى إلا الثبات .

يلفت انتباه قارئ القرآن المتدبر ، الآيات المستفيضة التي يؤكد فيها تعالى أن الأرض مستقرة ، وغير متحركة وأنه تعالى ثبتها بالجبال الرواسي ، المنتصبة الشاهدة على ذلك ، ويجعلنا هذا الأمر نتساءل : لماذا يؤكد الله تعالى على هذا الأمر بكل هذا التأكيد ؟

من قراءة التاريخ وعلم الكون والفلك نجد الإجابة على تساؤلنا . بأنه كانت ثمة محاولات من بعض الفلاسفة لتغيير معتقدات البشر بحقيقة الكون وباءت هذه المحاولات بالفشل لمخالفة ما يقولونه لما يراه الناس ، ولوجود الأنبياء والمرسلين الذين يعلمون الناس مجددا حقيقة الكون .

غير أن هذه المحاولات كتب لها النجاح منذ قرن تقريبا عندما سرت في أهل الأرض جميعاً قناعة تامة بأن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس . كأنهم وقعوا جميعاً تحت تأثير واحد غامض ، حتى أنهم جميعاً لا يعرفون دليلاً واحد على ما يقولون ، ويصدق فيهم قوله تعالى ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات) .

يذكر التاريخ أن اثنين من الفلاسفة قالوا بدوران الأرض قبل كوبرنيقوس . كان الأول " فيثاغورث " اليوناني الذي رأي من منطلق فلسفي أن الأرض لا يمكن أن تكون نقطة العالم المركزية ، إذ تقطنها نقائض عديدة ، كما أنها في ذاتها مظلمة ويجب أن يكون وسط العالم مضيئا ، لأن الضوء إحدى الطيبات .

فكما نرى لم تكن هذه النظرية مؤسسة على علم ومشاهدة ، إنما مجرد رأي وهوى ومن عجب أمر هؤلاء في اتباع الهوى ، أن فيثاغورث كان من رأيه أن لا تكون الأرض هي المركز لأن بها النقائص وأنها مظلمة . ثم جاء جاليليو ليثبت أن الأرض لا تكون مركزا للكون ، وأنها ليست كما يظن بها نقائص ، وأنها لا تختلف عن غيرها في شيء ، وهي كأي جرم في السماء ، فلماذا نعتبرها مركز الكون ؟؟

ولم يلتفت أحد لما قاله فيثاغورث ، وكأنه لم يقل شيئاً ، ولكن احتفظ التاريخ بنظريته على الورق أكثر مما احتفظ بالكتب المنزلة ، فهكذا التاريخ .

وفي القرن الثالث قبل الميلاد ظهر في " الإسكندرية " فيلسوف آخر هو " إريستاخورس الساموسي " (٢٨٠ ق . م) ورأي الآخر أن يجعل الشمس مركزا للكون . والأرض والكواكب في أفلاك حولها يسبحون . وأن النجوم الثوابت لابد وأن تكون على مسافات شاسعة ، تفسيرا لعدم ملاحظة أية إزاحة ظاهرية لها . وغير هذين لم نسمع أحد ا قال بجريان الأرض ومركزية الشمس . وربما كانت هناك آراء أخرى من هنا أو هناك تقول بمثل هذا من الفلاسفة ولكنها لم تحفظ لشذوذها وخروجها عن إجماع البشر ، ولأنها ثالثا لم تعتمد في دعواها على دليل واحد .

كذلك يذكر التاريخ أن فلاسفة قاموا بالرد ودحض نظريات زملائهم القائلين بمركزية الشمس منهم " أرسطو طاليس المقدوني " وهو فيلسوف إغريقي ولد عام ٣٨٤ وتوفي عام ٣٢٢ قبل الميلاد . وهو التلميذ الأشهر لأفلاطون . ومعلم الإسكندرية الأكبر . أسس عام ٣٢٥ ق . م " المدرسة البريباتية " وهو مؤسس علم المنطق والمذهب الذي يشار إليه باسمه وقد ترجمت جميع كتبه إلى اللغة العربية في القرنين التاسع والعاشر الميلادي .

وقد تصور أرسطو النسق الكوني على أساس التجربة البسيطة المشاهدة واعتبر عناصر الأشياء أربعة (الماء والهواء والنار والتراب) . فهو يقول بان التراب هو أثقل العناصر الأربعة لأنك لو أتيت بإناء به تراب وماء وهواء وهززت ذلك تماما ، فأنك ستشاهد فقاقيع الهواء تتصاعد فوق السطح والتراب يترسب في القاع وإذا أوقدت نارا تصاعد اللهب عاليا خلال الهواء ، وفي النظام الكوني تكون الأرض مكانها القاع (المركز) وطالما استقرت في مكانها وليست من سبب لتحريكها حركة دورانية ، أو أي حركة انتقالية أخرى بينما النجوم والكواكب لم تستقر مكاناً فهي دائما في حركة سنوية حول الأرض الساكنة .

كما جاء كلوديوس بطليموس الفلكي السكندري (١٤٠ : ق . م) ليؤيد نظرية أرسطو وتوسع في تفسير حركات الكواكب والنجوم ثم قام بصياغة نظرية متكاملة عن بناء الكون تعتمد على اعتبار الأرض ساكنة في مركزه والكواكب السبعة بما فيها الشمس والقمر تدور حولها في مدارات ثابتة شبه دائرية . ودون نظريته عن الكون في كتابه الرئيسي" النظام الفلكي الأكبر" ولم يحدث إن استقر نظام كهذا النظام الذي تصوره بطليموس .

ونظام بطليموس في مجمله لا يتعارض مع الرؤية الدينية للكون . ويعتبر كتابه (النظام الفلكي الأكبر) الذي ترجم إلى اللغة العربية باسم " المجسطى " هو من أكبر مؤلفات البشر .

إذاً فتأكيد القرآن على ثبات الأرض لم يكن من فراغ ، ولا لمجرد التأكيد . ورغم كل ذلك فقد خالف المسلمون ربهم . وأولوا آياته ، واتبعوا من كفروا بالله واتبعوا هواهم وكان أمرهم فرطا .

الدليل السادس : الأرض موضوعة :

آية فريدة أيضا في نوعها لا يوجد لها مثيل في القرآن تدل دلالة قاطعة ، ولكن لأولي الألباب ، أن الأرض ثابتة ، أو كما تقول الآية " موضوعة " هذه الآية في كتاب الله تعالى في عروس القرآن " سورة الرحمن " رقمها (١٠) تقول : ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾

ومعنى الآية كما تدل كلماتها واضح ، أن الأرض موضوعة : مرصودة مستقرة ثابتة ، في المكان الذي هي فيه لتستقر بما عليها من الخلق . بكل أنواعهم .

ووضع الأرض في الآية مقابل لرفع السماء ، في الآية السابقة عليها يقول تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ وهنا ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ فكما أن السماء مرفوعة ، فإن الأرض موضوعة ، أي مقرة في السفل ، ثابتة .

وكلمة (وضع) لا تفيد إلا الثبات والقرار فهذا معنى الكلمة في معجم " لسان العرب "، وهو ما يستفاد من كل الآيات التي ورد فيها لفظ (وضع) مثال ذلك قوله تعالى :

﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ (محمد:٤) أي حتى تسكن الحرب وتسكت ويستقر وضعها لكلا المتحاربين . وفي قوله تعالى ﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ (النساء:١٠٢) إن الآية توضح أن الله تعالى رخص للمجاهدين أن يضعوا أسلحتهم أثناء الصلاة إن كانت هناك ضرورة ، من أذى أو مطر . للنظر إذاً إلى ﴿تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ ولنتخيل المحاربين وهم يضعون أسلحتهم ثم وهم يتحركون بدونها هل سيتحرك السلاح بعد وضعه ؟

وفي قوله تعالى عن النساء العجائز ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ (النور:٦٠) هذه أيضا رخصة لهن أن يضعن ثيابهن التي ظللن يتحركن بها في شبابهن وصباهن فعند الكبر يضعن هذه الثياب التي كانت تحجب مواضع الفتنة والإغراء .

وكما يقول تعالى ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ وذلك في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ (النور: ٥٨) . في هذه الآية يعلم الله تعالى المؤمنين أدباً من آداب الأسرة وسلوكاً يحفظ لهم خصوصياتهم : أن يعلموا صغارهم ومواليهم أن يستأذنوا في ثلاث أوقات ، هي أوقات تكشف العورات . الوقت الأول من قبل صلاة الفجر ،

والوقت الثاني ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ﴾ والوقت الثالث ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ . أي وقت الظهيرة إن كانت فيه قيلولة وتحلل من الثياب للراحة ، فهنا وضع الثياب : استقرارها وثبتها بعد أن كان يتحرك بها . وبعد وضعها لن تتحرك هي ، بل يتحرك الجسم بدونها . أما هي : فموضوعة وفي قوله تعالى : ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ (النساء:٤٦) وتحريف الكلم عن مواضعه يعني تحريكه من المكان الذي وضعه وثبته الله فيه .

ومثل ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ (آل عمران:٩٦) ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (الأنبياء:٤٧) وقوله ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ (الزمر:٦٩) فهذه كلها بمعنى تثبيت ما وضعه الله تعالى ، فلا يتحرك . ومن ذلك أيضا وضع الحمل " الولادة " سماها القرآن وضعاً في (٩) آيات وهذا العدد تحديدا هو نفس عدد الشهور التي تحمل وتضع فيها المرأة (٩) أشهر . لذا كان من إعجاز القرآن أن تأتي كلمة الوضع بمعنى " الولادة " (٩) مرات .

كقوله تعالى ﴿وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (الطلاق:٤) . وقوله تعالى ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ (الأحقاف:١٥) فالوضع هنا جاء بنفس معنى وضع الثياب الملبوسة ، والمحمولة ، وهنا وضع الأحمال التي لا تنفك الحوامل عن الحركة بها فعندما تلد تكون قد وضعت الحمل ، ليستقر الجنين بعد الوضع على الأرض ، فتتحرك الأم بدونه بعد وضعه بعيدا عن بطنها . ويظل الجنين ويستقر ويثبت في المكان الذي يوضع فيه ولا يمكن أن يتحرك من موضعه ويظل فترة من الزمن كذلك ، لا يتحرك إلا بمحرك آخر دونه .

هذه هي المعاني التي جاءت في القرآن لكلمة " وضع " لذلك ذكر تعالى أنه : وضع الأرض أي ثبتها في مكانها .

فهل يتصور أن تتحرك الثياب الموضوعة ، أو الأسلحة الموضوعة أو الأحمال الموضوعة . أو الأكواب الموضوعة ؟ هل يمكن أن تتحرك من مكانها بنفسها ؟ ولو حدث وحركها أحد من مكانها فعندئذ لا تعتبر " موضوعة " .

فإذا حمل السلاح فلا يعتبر موضوعاً وإذا لبست الثياب لا تعتبر موضوعة . وإذا حركت الأرض ودارت فلا تعتبر موضوعة . والله تعالى أخبر أنها كذلك "موضوعة " وأنه تعالى هو الذي وضعها ، ولم توضع بذاتها ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾ فإذا وضع الله الأرض فمن ذا الذي يقدر على تحريكها .

وإذا قال الله ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾ فمن ذا الذي يقول (والأرض تميل وتلف وتدور) ؟ ومن يقل بذلك فليرفع صوته لأن الله تعالى سيكتب شهادته . أو لا يرفع فإنه تعالى يعلم السر وأخفى .

الدليل السابع : الأرض قائمة :

" الأرض ثابتة واقفة " ولو كان هناك معنى أخر للثبات غير هذه الكلمات لقلناه كمعنى لهذه الآية الوحيدة بهذا المدلول . وهي قوله تعالى :﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ (الروم:٢٥)

فهذه الآية ليس لها معنىً إلا أن الأرض كالسماء ثابتة في مكانها " واقفة " يعنى : عكس المتحركة . وهذا أيضا ليس من ذاتها ولكن بأمر الله تعالى . وإلا فلن تكون كذلك .

وكلمة (القيام) تعنى في القرآن الثبات وقوفاً دون حركة . ولتوضيح هذا المعنى نورد بعض الآيات :

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ (البقرة:٢٠)

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (المطففين:٦)

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا﴾ (النبأ:٣٨)

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ (الكهف:٧٧)

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ (آل عمران:٣٩)

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (الحج :٢٦)

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران:١٩١) .

فكل هذه الآيات وغيرها ، جاءت فيها كلمة (القيام) بمعنى الوقوف ثباتاً دون أى حركة . وكل مادة (قام) في القرآن التي جاءت في أكثر من مائة آية . لا تعنى إلا ذلك .

ولم يقل تعالى عن الأرض أنها واقفة بل قال أنها قائمة . لأن كلمة الوقوف لم ترد في القرآن سوى أربع مرات وجاءت كلها بمعنى (الحبس) كما في قوله تعالى : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (الصافات:٢٤) يعنى احبسوهم في مكانهم قبل أن ينصرفوا إلى النار ليسألوا . وقوله : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾(الأنعام:٣٠) وهذا كما نقول الآن " محبوس على ذمة التحقيق " وقوله : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ (الأنعام:٢٧) أي حبسوا أمام النار . وقوله : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (سبأ:٣١) أي محبوسون .

يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾(الروم:٢٥) أن هذا كقوله تعالى : ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ﴾ (الحج:٦٥) وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ

يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا ﴾ (فاطر:٤١) وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا اجتهد في اليمين قال : " والذي تقوم السماء والأرض بأمره " أي هي قائمة " .

فالأرض لو لم تكن قائمة : ثابتة في مكانها بأمر الله لذهبت وتحركت وزالت .

الدليل الثامن : الأرض ممسوكة :

هل يمكن للممسوك أن يتحرك ؟

فإن قال الله تعالى أن الأرض ممسوكة ، وقلنا نحن أن الأرض متروكة تتحرك حيث قال كوبرنيقوس أليس هذا تكذيبا لله وتصديقا لكوبرنيقوس ؟ أليس ذلك كفراً وكيف غابت هاتان الآيتان عن علماء المسلمين وهم يقرؤون كتاب الله ويحفظونه ؟ ولو كانتا في بالهم ولم تغيبا عنهم فكيف لم يفهموهما ؟

وإن كانوا قد فهموهما فكيف طاوعهم إيمانهم بالله أن يقولوا أن الأرض تتحرك في كل اتجاه وبحركات مختلفة وبسرعات متفاوتة ، أي أنهم قالوا : الأرض منفلتة . كيف قالوا ذلك ؟ يقول تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (فاطر:٤١) .

يقول ابن كثير : " أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي تقوم بها السموات والأرض عن أمره وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾ أي أن تضطربا عن أماكنهما " .

وهذا الفهم للآية ليس خاصاً بابن كثير ، فكل علماء المسلمين فهموا هذا المعنى وكل المفسرين فهموا ذلك وإنما نذكر ابن كثير لأن تفسيره لدى كل علمائنا الآن .

وحتى نفهم معنى الإمساك نسوق هذا الحديث :

أخرج أبو يعلى وابن جرير وبن أبي حاتم والداقطني وبن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات ، والخطيب في تاريخه ، عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر : " وقع في نفس موسى : هل ينام الله عز وجل ؟ فأرسل الله إليه ملكاً فأرقه ثلاثا وأعطاه قارورتين في كل يد قارورة ، وأمره أن يحتفظ بهما ، فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان ، ثم يستيقظ فيحبس إحداهما عن الأخرى ، حتى نام نومة فاصطفقت يداه وانكسرت القارورتان . قال : ضرب الله له مثلا إن الله تبارك وتعالى لو كان ينام لم تستمسك السموات والأرض " .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن سلام : أن موسى قال : يا جبريل هل ينام ربك ؟ فذكر نحوه .

والإمساك عكس الإرسال والترك ، ولو لم يمسك الله تعالى السموات والأرض لزالتا عن مكانيهما . وهذا بخلاف الطير ، الذي يمسكه الله وهو واقف في السماء ولو أرسل لطار ، ولن ينزل كالسموات والأرض لو أرسلتا يقول تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا الرَّحْمَنُ﴾ (الملك:١٩) .

والله تعالى لم يذكر شيئا في القرآن ممسوكاً بأمره إلا ذلك ، وإلا الروح التي قال تعالى عنها : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر:٤٢) وغير هذا فلم يذكر في القرآن إمساك لشيء في الكون . لأن كل شيء فيه متحرك غير ساكن . فلم يذكر تعالى أنه يمسك بالشمس ولا بالقمر ولا بغيرهما من أجرام السماء ، وإنما هي مرسلة ، متحركة ، مسخرة ، جارية ، سابحة في أفلاكها ، بخلاف السموات والأرض .

ويقول تعالى ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ﴾ (الحج:٦٥) فهو تعالى يمسك السماء أن تقع على الأرض لأن كلتاهما ثابتتان ، الأرض تحت والسماء فوقها ، والله تعالى يمسكهما لأمرين : الأول : ألا تزولا ، والثاني : ألا تقع السماء على الأرض والوقوع بهذه الصورة التي يذكرها لنا الله تعالى كنعمة من نعمه ، غير متحقق بل وممتنع ومستحيل في ظل معطيات الفلكيين والمنجمين عن الأرض والفضاء .

ولكن معطيات القرآن أن السماء هي البناء فوق هذه الأرض ، ومن الممكن أن يقع البناء على القواعد والأساس ، كما يقول تعالى : ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ (النحل:٢٦) . إن الأحجام التي يقدمها القرآن عن السماء والأرض لمتناسبة بحيث يمكن إضافة هذه إلى تلك ، وحيث يتصور وقوع السماء على الأرض . وكذلك الأبعاد . فنسبة الأرض إلى السماء (١:١٠٠٠) ، وليست ذرة تبعد عن غيرها من النجوم بلايين البلايين من السنين الضوئية . فلو كانت الأرض خيمة نصف قطرها متر لكانت بالنسبة إلى السماء في أرض فضاء نصف قطرها ألف متر . أو بنسبة حجرة مساحتها ٤ متر تحت سقف مصنع مساحته ٤ كيلو متر .

هذه إذاً نسبة معقولة تماماً ، ولا ينفر من تخيلها الطبع ، بخلاف ما إذا كانت المقارنة بين ذرة لا ترى بالعين ولا بالتلسكوبات العادية ، وأحجام بملايين وملايين السنين الضوئية .

ثم هذا الإمساك الذي خص الله به السموات والأرض عن غيرهما من الأجرام فيه دلالـــة علـــى ثباتها ، وهذه الحركات التي يعطيها كوبرنيقوس للأرض وهي أكثر من ست حركات ، لا يمكن في ظلها أن تكون ممسوكة .

* * * * *

الدليل التاسع : المسخرات بين السماء والأرض :

لقد ذكر تعالى في كتابه أنه ثبت السموات والأرض ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِـــكُ السَّـــمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾ (فاطر:٤١) ثم أخبر سبحانه بأن كل شيء فيهما متحرك ، أي مسخر ، ومسخر تحديدا للإنســـان ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ (الجاثية:١٣) كذلك لا يتوقـــف التســـخير للإنسان على مدار اليوم كله ، ففي الأربعة والعشرين ساعة تسخير ، في النهار وفي الليـــل ، مـــا في السموات وما في الأرض . حتى أن آيات القرآن قد جاءت بهذا التناسق البديـــع فذكـــر الله تعـــالى المسخرات في (٢٤) آية منها (١٢) آية على المسخرات في السماء ومثلـــها علـــى المســـخرات في الأرض .

يقول تعالى ذاكراً ما سخره في السموات :

(١) ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُـــلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّـــلُ الآيَاتِ﴾ (الرعد:٢)

(٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ (النحل:١٢)

(٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ (إبراهيم:٣٣)

(٤) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (إبراهيم:٣٣)

(٥) ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ (الزمر:٥)

(٦) ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ (فاطر:١٣)

(٧) ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ (لقمان:٢٩)

(٨) ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ (الأعراف:٥٤)

(٩) ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (العنكبوت:٦١)

(١٠) ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ (لقمان:٢٠)

(١١) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ (الجاثية:١٣)

(١٢) ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا اللَّهُ﴾ (النحل:٧٩)

ويقول تعالى عـــن المســـخرات فـــي الأرض :

(١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ (الحج:٦٥)

(٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ (إبراهيم :٣٢)

(٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾ (إبراهيم :٣٢)

(٤) ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ (الجاثية :١٢)

(٥) ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ (النحل:١٤)

(٦) ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ (البقرة :١٦٤)

(٧) ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ إلي قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الحج : ٣٦)

(٨) ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ (الحج:٣٧)

(٩) ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (ص:٣٦)

(١٠) ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ (لقمان: ٢٠)

(١١) ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ(١٢)لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (الزخرف:١٢)

(١٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ (الجاثية:١٢) .

فهذه ٢٤ آية للمسخرات في كل وقت (خلال ٢٤ساعة) وفى كل مكان (السموات والأرض) ويتلاحظ أننا ذكرنا قوله تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ (الجاثية:١٢) ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ (لقمان: ٢٠) مرتين أي في آيات السماء وآيات الأرض وذلك لأنهما آيتين مشتركتين .

شمل التسخير إذاً كل شيء في الأرض وفي السماء وما بينهما حتى الملائكة الكرام وذكرنا في الباب الثاني كيف أن الملائكة مسخرة لبنى آدم . فكل ما تحت العرش مسخر لابن آدم ليكون هو سيدا بينها ، وليكون أيضا عبدا لمن فوق العرش سبحانه وتعالى .

وكما منع تعالى السموات أن تسجد ، وهي أعلى مقامات العبادة وكذلك الأرض . وذلك لئلا تميد بأهلها وتتحرك بمن عليها في سجودها . فإنه تعالى أيضا لم ينسب للسموات أو الأرض تسخيرا وقد ذكر تعالى كل المخلوقات أنه سخرها ولكنه لم ينسب لذات السموات أو ذات الأرض تسخيرا ، بل

ذكر تسخير من فيهما ، وما فيهما جميعا فضلا منه تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ (الجاثية:١٢) منعت السموات والأرض من السجود لله ، وكذلك منعت من التسخير لبني آدم مع قيامهما بباقي أنواع العبادات وذلك لما في السجود والتسخير من الحركة . بالنسبة للسجود : حركة في المكان ، وبالنسبة للتسخير حركة حول المكان . ومعنى التسخير الحركة والتذليل والجري الدائب للمسخر له . لذلك أي شيء في الكون مسخر فهو متحرك (ريح ، سحاب ، شمس ، قمر ، نجوم ، كواكب ، بحر ، نهر ، فلك ، ليل ، نهار ، حيوان ، طير) .

أما الأشياء الثابتة فلم ينسب لها تسخير كالجبال والشجر ، رغم أنهما يسجدان ، ولكن لم يذكر مع أي منهما كلمة سخر ، ولكن ذكر معهما السجود :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ (الحج:١٨)

فذكر للشجر سجودا لا تسخيرا ، لأن حركة الشجر في مكانه واضحة وليست خافية . أما أن يتحرك في الأرض فممتنعة .

أما الجبال فقد نسب لها تعالى تسخيرا خاصة وهي أن تسبح مع داود ، فليس تسخيرها كتسخير غيرها ، بحركة وجرى ودوران وما شابه ذلك من الحركات ، ولكن تسخير من نوع خاص كان فيه معجزة لداود ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء:٧٩) فهو تسخير تسبيح لا تسخير جرى وحركة .

كذلك نسب تعالى للجبال سجودا ، وإن كنا لا نراه ولكنه على أي حال غير ممتنع ولعل الجبال تسجد بالفعل والحركة في الأرض بصورة لا نراها ، ولكنها قد تكون هي المسببة للزلازل والبراكين التي ربما أنها تحدث نتيجة لحركة هذه الجبال في الأرض بالسجود .

وقد أخبرنا تعالى بأن للجبال شعورا وأحاسيس لا تختلف عن مشاعر الإنسان وأحاسيسه ، وربما فاقتها ، يقول تعالى :

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر:٢١) .

﴿تكاد السمواتُ يتفطرن منه وتنشق الأرضُ وتخر الجبالُ هداً (٩٠) أن دعوا للرحمن ولداً﴾ (مريم) .

﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً﴾ (الأعراف:١٤٣) .

فلا يمنع أن يكون تصدع الأرض بالزلازل والبراكين نتيجة لسجود الجبال ، والله أعلم .

أما هذه المسخرات التي ذكرها تعالى في الآيات فهي في حركة دائمة في السماء أو في الأرض أو بين السماء والأرض . ولو كان حقا أن الأرض تجرى وتأتى بهذه الحركات والسرعات الغير معقولة ، لكان الله قد ذكرها من ضمن المسخرات ، ولكن الله تعالى أقرَّ الأرض وثبتها ووضعها وأمسكها ، ولو تحركت كما يقولون ، فلن يستقر عليها الماء ، ولن يستقر على الماء فلك ، ولن يستقر على اليابس ناس ولا دواب ، ولن يكون بين السماء والأرض رياح ولا سحاب .

فتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض له نظام غاية في الدقة فكيف يتم ذلك التصريف للرياح و للسحاب حول الأرض الذي يتم بكل جزء في الأرض ؟ فالرياح تتحرك على الأرض شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا بنظام دقيق بحيث تقلب حرارة الشمس على بقاع الأرض كلها ، وتنقل الماء برفعه من البحار إلى السماء ثم توزعه في السماء . فهذه الرياح التي تفعل ذلك منها يومية وأخرى موسمية وغيرها محلية وغيرها دائمة وكذلك التجارية والعكسية ، كيف تنضبط حركة هذه الرياح جميعا حول أرض تتحرك بجنون في كل مكان وفي كل اتجاه ، وبكل السرعات .

وهذا السحاب الذي يتم توزيعه إلهياً على أقاليم الأرض بنسب دقيقة معينة تختلف بإرادة الله من إقليم إلى آخر ، ومن زمان إلى آخر ، فكيف يتم تصريف هذا السحاب والأرض تدور وتنطلق .

والشمس والقمر والنجوم والكواكب ، كيف تتعامل بهذا النظام الدقيق مع الأرض وهم جميعا يتحركون بدقة بالغة بين مدارىَ الأرض ؟ كل يوم بقدر معين ثابت لا يتغير ولا يتبدل على مر الأيام والشهور والسنين . نظام تنضبط فيه الساعات والدقائق والثواني مع كل شبر في الأرض ، بل كل مغرز إبرة . كيف يتم ذلك والأرض تدور حول نفسها وحول الشمس وحول المجرة ، وحول نجم النسر ، وحول الفضاء المتمدد بزعمهم ؟ ثم هي بعد ذلك تميل ذات اليمين وذات الشمال ؟

هذا بعض ما تيسر لنا من جمعه من أدلة القرآن .

أدلة السنة :

لقد ذكرنا الأحاديث التي أخبر فيها رسول الله ﷺ عن المسافة التي بين السماء والأرض . وهي أحاديث صحيحة متواترة تلقاها المسلمون بالقبول ولم يطعن أي عالم على سند أو متن لأي حديث من هذه الأحاديث . وقد توافقت مع قول الله تعالى في سورة (السجدة :٥) ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ وسورة المعارج ، وهي مسيرة خمسمائة عام أو بالكيلومتر حوالي ٧٠٠٠٠٠٠ كم . وهذه المسافة من كل مكان في الأرض إلى أي مكان في السماء . مما يدل على مركزية الأرض وأيضا على ثباتها ، لأن نقطة المركز في الدائرة هي النقطة الوحيدة التي تتساوى بعد أي نقطة من المحيط عنها .

كذلك أخبرنا صحابة رسول الله ﷺ أنه أخبرهم عن كل شيء في الكون من مبدأ إلى منتهاه ، ولم يترك طائر يقلب جناحيه في السماء إلا وذكر لهم منه علما وعلى أهمية أمر الأرض فلم ينقل أي صحابي أو تابعي أو أحد من سلف الأمة حديثاً صحيحا ولا ضعيفا ولا حتى موضوعاً ، يقول فيه بأن الأرض تتحرك حركة واحدة من هذه الحركات . ولم يرد حديث يقول بأن الأرض ثابتة لأن ثباتها لم يكن بحاجة إلى بيان ، بعد ما ذكرناه من أدلة الكتاب . وكانت عقيدة المخاطبين آنذاك هي : أن الأرض ثابتة لا فرق في ذلك بين المؤمنين والكافرين . ولم تكن الآيات في حاجة إلى بيان من الرسول ﷺ .

ولما كان بدء الخلق للأرض أنها كانت تتحرك ، ثم بعد ذلك ثبتها الله فقد ورد ما يفيد ذلك عنه .. وقد ذكرنا ما ورواه أحمد عن انس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال : " لما خلق الله الأرض جعلت تميد (تتمايل) فخلقت الجبال فألقاها عليها فاستقرت ... " (الحديث) .

البيت المعمور فوق الكعبة :

روى الطبراني عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : " البيت المعموز في السماء يقال له الضراح وهو على مثل البيت الحرام ، بحياله ، لو سقط لسقط عليه ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يرونه قط . فإن له في السماء حرمة على قدر حرمة مكة " يعني في الأرض .

وهكذا قال الكوفي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمه والربيع بن أنس والسدى وغير واحد . وقال قتادة ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يوما لأصحابه : " أتدرون ما البيت المعمور ؟ " قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : " مسجد في السماء بحيال الكعبة لو خر لخر عليها " . إن هذا يدل على أن الأرض ثابتة ، راسخة لا تتحرك قدر أربع أصابع ولو كان ذلك كذلك فلن يسقط البيت المعمور على الكعبة لو سقط .

فلو كانت الأرض تدور حول نفسها لما كانت الكعبة وهي فى الأرض تحت البيت المعمور وهو في السماء ، فكون البيت المعمور فوق الكعبة تماما لدرجة أنه لو سقط لسقط عليها فإن هذا يعني أن الكعبة على الأرض لا تتحرك أبدا ، فما بالكم وأنتم تقولون أن الأرض تدور حول نفسها ، وحول الشمس ، وحول المجرة ... إلي أخر هذه الحركات . كيف سيكون البيت المعمور فوق الكعبة تماما ؟

هل ستدور السماء مع الأرض أثناء دوران هذه الأخيرة حول نفسها وحول الشمس أم أنكم تكذبون هذه الأحاديث وتصدقون كوبرنيقوس ؟

اللهم إهد قومي فإنهم لا يعلمون .

المعراج وثبات الأرض :

أجمع المسلمون على أن رسول الله ﷺ عرج به إلى السماء ، وقضى جزءا كبيرا من الليل حتى نزل قبل الفجر .

فلو فرضنا إن رسول الله ﷺ نزل بعد أربع ساعات من عروجه فإنه سيترل في مدنية (بيضون) بالجزائر ، لأنها تقع بين خطي الطول صفر ومدار السرطان . هذا بافتراض أن الأرض تدور . ولو نزل بعد خمس ساعات لترل في صحراء (إيجيدي) بموريتانيا الواقعة بين خط طول (١٠) ومدار السرطان . ولو تأخر ﷺ ست ساعات في السماء ، فإنه لن يجد يابسة يترل عليها ، إذ أن دورة الأرض ستجعل مكان نزوله المحيط الأطلنطي الذي يبلغ عرضه ثلاث ساعات زمنية أي أنه ﷺ لن يتمكن من الترول على اليابس حتى بعد تسع ساعات . فلابد أن يترل من السماء قبل مرور ست ساعات ، أو بعد مرور تسع ساعات ، ولكنه في الحالة الثانية يكون قد ابتعد مكانا وزماناً ، لأنه بعد تسع ساعات سيترل على المكسيك ، وسيكون وقت الضحى . والثابت عند المسلمين أن الرحلة بدأت ليلا ، وانتهت ليلا قبل الفجر . ما رأي السادة العلماء في هذه المشكلة ؟

كيف نزل رسول الله ﷺ على نفس المكان الذي صعد منه بعد عدة ساعات ؟ ونريد إجابة علمية ومنطقية ، ولا يخف علينا قدرة الله الذي أصعده إلى سدرة المنتهى فوق السماء السابعة ، أن يترله في أي مكان شاء ، ولكن في هذه الحالة سيترل من مكان في السماء غير الذي صعد منه ، وسيضطر إلى الطيران من المكان الذي نزل منه إلى مكة ، أو سيتجه رأساً من السماء إلى مكة رغم دوران الأرض بحيث يترل عليها في أي مكان ذهبت إليه ، ولكن في كل هذه الأحوال كان رسول الله ﷺ سيخبرنا عن هذا الأمر ضمن كل الآيات التي رآها في رحلته ، وهو لم يترك شيء إلا وأخبر به لأنه (رسول) . فلماذا لم يخبر الرسول ﷺ المرسل إليهم بما رآه من حركة دوران الأرض ، وهو الوحيد من البشر الذي يكون قد رأي هذه الآية – إن كانت – وعاد مرة أخرى للناس ليخبرهم بها ، لأن من صعد من الأنبياء قبله كإدريس أو عيسى لم يعودوا بعد ، ليخبروا بهذا الأمر . فهل هذه الآية – دوران الأرض – لم تجذب انتباه الرسول فيحدث بها ؟

نحن نسأل هذه الأسئلة ونفكر هذا التفكير ، طبقا لآيات الله التي تقول ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فها نحن نفكر ونتعقل ونتعلم في هذه المسألة التي نرى أنها غابت عن تفكير علمائنا .

أما عن أول من صعد إلى السماء من غير الأنبياء فهو الروسي " يوري جاجارين " وقد كان من الكافرين ، عندما سئل عن أغرب ما رآه في صعوده قال : " التعاقب السريع لليل والنهار" . ولم يقل

جاجارين الدوران السريع للأرض ، وهذا كافر من الكافرين لم يقل بدوران الأرض وقد صعد بنفسه إلى السماء .

ورسول الله رسول من المرسلين لم يقل بدوران الأرض وقد صعد إلى السماء .

أبواب السماء:

روى الحافظ الموصلي وابن أبي حاتم بنحوه عن انس بن مالك رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : " ما من عبد إلا وله في السماء بابان ، باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل منه عمله وكلامه ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه وتلا هذه الآية : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾ (الدخان:٢٩) وذكر أن آل فرعون لم يكونوا عملوا على الأرض عملاً صالحاً فتبكى عليهم ، ولم يصل لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتفتقدهم فتبكى عليهم " .

وروى ابن حاتم عن عباد بن عبد الله قال : سأل رجل عليا رضى الله عنه : هل تبكى السماء والأرض على أحد ؟ فقال له : لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك . إنه ليس من عبد إلا له مصلى في الأرض ، ومصعد عمله في السماء . وان آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض . ولا عمل يصعد في السماء . وقرأ الآية .

وروى بن جرير عن سعيد بن جبير قال : " أتى بن عباس رضى الله عنه رجل فقال : يا أبا العباس أرأيت قول الله تعالى : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ فهل تبكى السماء والأرض على أحد ؟ قال رضى الله عنه إنه ليس واحد من الخلائق إلا وله باب في السماء ، منه ينزل رزقه وفيه يصعد عمله . فإذا مات المؤمن اغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه ففقده بكى عليه . وإذا فقده مصلاه من الأرض التي كان يصلى فيها ويذكر الله عز وجل فيها بكت عليه . وإن قوم فرعون لم تكن لهم في الأرض آثار صالحة ، ولم يصعد إلى الله منهم خير ، فلم تبك عليهم السماء والأرض .

وقال مجاهد : ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين يوميا صباحا. فقلت : أتبكي الأرض ؟ فقال : أتعجب ؟ وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود ؟ وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوى كدوى النحل . قال قتادة : كان آل فرعون أهون على الله عز وجل من أن تبكى عليهم السماء والأرض .

وفي الحديث الذي رواه الترمذي وقال حديث صحيح ورواه غيره عن زر بن حبيش عن صفوان بن عسال رضي الله عنه أن أعرابيا سأل رسول الله ﷺ : المرء يحب القوم ولما يلحق بهم ؟ قال النبي

ﷺ : " المرء مع من أحب يوم القيامة " فما زال يحدثنا حتى ذكر بابا من المغرب مسيرة عرضه أو يسير الراكب في عرضه أربعين أو سبعين عاماً . قال سفيان (أحد الرواه) قِبَل الشام ، خلقه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض مفتوحا للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه " .

فمن هذا نعلم أن هناك باب عرضه مسيرة أربعين أو سبعين عاما وهو باب عام لكل الناس هو باب التوبة وليس باب خاصا كأبواب الرزق والعمل ، وعرض هذا الباب على أحد الروايتين مليون كيلو متر (مسيرة سبعين عاما) وأن هذا الباب قِبَل الشام أي فوق الشام تماماً ، ولا يمكن أن يكون الباب فوق الشام إلا إذا كانت الأرض ثابتة تماما . لا تلف ولا تدور .

من جملة هذه الأحاديث والآثار نعلم أن بالسماء أبواب يترل منها الرزق ويصعد فيها العمل ، وأن هذه الأبواب متصلة بطرق في السماء معينه ، ما بين السماء والأرض .

وعن هذه الطرق الموصولة من الأرض إلى السماء . يقول تعالى : ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾ وقوله تعالى ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ (غافر) قال ابن عباس ومجاهد : الأسباب : طرق السماء وأبوابها .

وقال تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ (الطور:٣٨) أي مرقاة إلى الملأ الأعلى .

فإذا كانت هناك طرق موصولة بين الأرض وأبواب السماء ، فإن ذلك يلزم ثبات الأرض ، فلا تدور ولا تتحرك .

هذه الطرق الصاعدة في السماء لابد وأنها تمر بين الكواكب والنجوم بحيث تخلوا هذه الطرق منها . وهذا أمر يحتم ثبات الأرض ، لأن هذه الطرق فضلا عن كونها مؤدية لأبواب الرزق . ومصاعد للأعمال ، فإنها تكون ممرا للأمر الذي يدبر في السماء ، ويترل إلى الأرض ، ثم يعرج مرة أخرى . ومثل هذا أيضا الملائكة الذين يترلون من السماء إلى الأرض وهم لا زالوا يترلون إلا جبريل عليه السلام الذي انتهي نزوله بانقطاع الوحي . وقد كانت آخر مرة نزل فيها يوم أن صلى على رسول الله ﷺ بعد موته . فإنها تترل أيضا في طرق السماء المعلومة وتسبح فيها سبحا .

فمثل ذلك لا يكون إلا إذا كانت الأرض ثابتة . وقد ذكرنا الحديث الذي رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ " لو أن رضاضة مثل هذه (وأشار إلى جمجمة) أرسلت من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمسمائة عام لبلغت الأرض قبل الليل " .

فهذا الحديث يدل على أن الأرض ثابتة ، وإلا لما بلغت الرضاضة الأرض أبدا .

إجماع الأمة على ثبات الأرض

أليس يقول ﷺ : لن تجتمع أمتي على ضلالة ؟ إن الأمة الإسلامية – قبل عصر النهضة – لم تجمع على أمر كما أجمعت على ثبات الأرض ولم يشذ عنها واحد . الأمة كلها بكل فرقها الثلاثة والسبعين . بكل مذاهبها ومدارسها الفكرية ، لم يقل واحد أن الأرض تلف وتدور .

وأجمعوا أن الكون كله مستدير . وأن الأرض هي مركز العالم . وأن كل ما في السماء يدور حولها .

يقول ابن تيميه رحمه الله في المجلد الخامس والعشرين من مجموع الفتاوى :

" السموات مستديرة عند علماء المسلمين ، وقد حكى إجماع المسلمين ، على ذلك غير واحد من العلماء أئمة الإسلام مثل الإمام " أبو محمد بن حزم " و" أبو الفرج الجوزي " وذكروا ذلك في كتاب الله وسنة رسوله ، وبسطوا القول في ذلك بالدلائل السمعية وإن كان قد أقيم على ذلك أيضا دلائل حسابية ، ولا أعلم في علماء المسلمين المعروفين من أنكر ذلك " .

" وقال الإمام أبو الحسين أحمد بن جعفر ابن المناوي من أعيان العلماء المشهورين بمعرفة الآثار والتصانيف الكبار في فنون العلوم الدينية من الطبقة الثانية من أصحاب أحمد قال : " لا خلاف بين العلماء أن السماء على مثال الكرة وأنها تدور بجميع ما فيها من الكواكب ، كدورة الكرة على قطبين . غير متحركين ، أحدهما في ناحية الشمال (القطب الشمالي) والآخر في ناحية الجنوب (القطب الجنوبي) .

قال : ويدل على ذلك أن الكواكب جميعها تدور من المشرق تقع قليلا على ترتيب واحد في حركاتها ، ومقادير أجزائها إلى أن تتوسط السماء ، ثم تنحدر على ذلك الترتيب . كأنها ثابتة في كرة تديرها جميعا دورة واحدة .

وكذلك اجمعوا على أن الأرض بجميع جوانبها من البر والبحر مثل الكرة . قال : ويدل على ذلك ، أن الشمس والقمر والكواكب لا يوجد طلوعها وغروبها على جميع من في نواحي الأرض في وقت واحد . بل على المشرق قبل المغرب .

قال : والكرة الأرضية مثبتة في وسط كرة السماء ، كالنقطة في الدائرة . ويدل على ذلك أن جرم كل كوكب يرى في جميع نواحي السماء على قدر واحد . فيدل ذلك على بعد ما بين السماء والأرض من جميع الجهات بقدر واحد . فاضطرار أن تكون وسط السماء " أ . هـ .

ويقول ابن تيميه : فمن علم أن الأفلاك مستديرة وأن المحيط الذي هو السقف هو أعلى عليين ، وأن المركز الذي هو باطن ذلك وجوفه وهو قعر الأرض هو : " سجين " وهو " أسفل سافلين " علم

من مقابلة الله بين العلو والسفل أو بين السعة والضيق وذلك لأن العلو مستلزم للسعة . والضيق مستلزم للسفول . وعلم أن السماء فوق الأرض مطلقا لا يتصور أن تكون تحتها قط . وإن كانت مستديرة محيطة ، وكذلك كلما علا كان أرفع وأشمل " .

وحذر رحمه الله من القول على الله بغير علم وقال : " وقد حرم الله على الرجل أن ينفي ما ليس له به علم . وحرم عليه أن يقول على الله ما لا يعلم ، وأخبر أن الذي يأمر بالقول بغير علم هو الشيطان فقال ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الإسراء:٣٦) وقال : ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٦٩) وقال :

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٣٣) .

الأدلة العقلية

الأشعة الكونية :

من أكبر الألغاز التي تحير رجال الفضاء والفلك والطبيعة منذ عام ١٩١٢ وحتى الآن لغز (الأشعة الكونية) التي تمتلئ بها السماء ، وكل ما يعرفوه عنها أنها جسيمات ذرية معظمها من البرتونات الطليقة ، وتأتى من مكان لا يعلمه أحد منطلقة نحو الأرض بسرعة مائة مليون إلكترون فولت تصطدم بالغلاف الجوى ثم تنهمر على الأرض من كل اتجاه مخترقة كل شيء على الأرض ليل نهار .

وتعتبر هذه الأشعة الكونية من الألغاز المحيرة لهم . يتساءلون : من أين تأتى ؟ ولماذا تختار هذه الأشعة الكرة الأرضية بالذات من بين بلايين الأجرام في السماء ؟

وكذلك قطع الصخور الصغيرة التي يقولون أنها بقايا نجوم متفجرة ، لماذا تنطلق في الفضاء صوب الأرض بسرعة تصل إلى ٤٠ ميلاً في الثانية ، تجعلها هذه السرعة تنصهر عند احتكاكها في الهواء ؟ ونحن نجيب لهم عن هذه الأسئلة .

ليس هناك من سبب يجعل هذه الأشعة والأحجار تنهمر على الأرض دون غيرها من كل مكان ، إلا أن تكون الأرض بالصورة التي ذكرها القرآن والتي خلقها الله عليها إذ أنها مركز العالم ، وأوسط السماء وما ذكرناه آنفا من قول ابن تيمية أن السماء فوق الأرض مطلقا -من جميع الجهات - رغم أنها مستديرة وأنها وسط السماء .

وأن النسبة بينها وبين السماء هي التي ذكرناها (١ : ١٠٠٠) وليست ذرة في فضاء متناه . وأنها أيضا ثابتة في وسط السماء وجميع الأجرام تدور حولها .

أما من أين تأتى ؟ ومن الذي يأتي بها ؟ فيجيب عن ذلك لقمان الحكيم في الآية ١٦ من سورة لقمان ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان:١٦) وفي الباب السابع سنفصل الأمر في ذلك تفصيلا .

الدفوع الفلسفية :

أما دفوع بطليموس وأرسطو اللذان يردان على من يقول بدوران الأرض حول نفسها وحول الشمس فقالا فيها :

(١) إذا كانت الأرض تتحرك حول نفسها أو حول نقطة أخرى بحيث لا تكون هي مركز الكون فإن حركتها ستكون غير طبيعية ، بل حركة عنيفة بالضرورة .

(٢) الأجسام الثقيلة التي تسقط على الأرض من أي ارتفاع فإنها تصل عمودية على الأرض. وبالتالي الأجسام المقذوفة من الأرض إلى أعلى عمودياً تعود خلال نفس الطريق رأسيا إلى أسفل . فإننا إذا قذفنا مقذوفا إلى أعلى فإنه طبقا لدوران الأرض لن يترل من حيث أنطلق ، بل سيقع في مكان بعيد غربا عن مكان انطلاقه ، لأنهم يقولون أن الأرض تدور من الغرب إلى الشرق .

(٣) إننا لو أطلقنا قذيفتين في وقت واحد أحدهما جنوبا والأخرى شمالا ، فإنهما لا يصيبان الهدف . لأن كلا القذيفتين ستقع جهة الغرب لدوران الأرض . وهذا ما لا يحدث .

(٤) كذلك لو أطلقنا القذيفتين معا إحداهما جهة الشرق والأخرى جهة الغرب فإنهما لا يصيبا الهدف أيضا ، لأن القذيفة المنطلقة شرقاً ستكون مسافتها أقل وأخفض والأخرى ستكون أبعد وأعلى . وهذا مالا يحدث .

(٥) إذا كنا نتحرك بسرعة ونحن نركب الخيل (أو سيارة أو أي وسيلة سريعة) فإننا نشعر بالريح يعصف وجوهنا فكم تكون شدة الرياح ، إذا كنا ننطلق في اتجاه الغرب ، أي عكس دوران الأرض . وبالتالي عكس الرياح المتجهة مع الأرض .

(٦) كيف تستطيع الأرض أن تمسك ما عليها من أشخاص وحيوانات وأحجار ورمال ومياه . وبيوت وهي تتحرك بهذه السرعات الكبيرة المختلفة حول نفسها وحول الشمس .

(٧) الأشياء المنفصلة عن الأرض وهائمة في الجو مثل السحب والطيور (وأيضا الطائرات والصواريخ) كيف تحافظ على حركتها في الجو مع وجود الحركات السريعة الأرضية .

(٨) ما أكده الفلكيون من أن جميع الظواهر التي ندركها من حركة النجوم تتفق تماما مع ثبات الأرض .

لم ينجح كوبرنيقوس على إقناع معاصريه برده على هذه الدفوع . وجاء جاليليو بكتاب الحوار الذي هو رد على هذه الدفوع ، والتي هي أيضا لم تقنع على الإطلاق . وقد جاء نيوتن بعد جاليليو وخطأ ما قال . ورغم ذلك فقد اقتنع الناس جميعا الآن بصحة نظرية دوران الأرض ، والتي لم ينجح أصحابها في إثباتها . لذلك نستطيع أن نؤكد أن هذه النظرية لم تنشر ويقول بها الناس إلا لأنها فقط .:. تخالف قول الله . لذلك يقول تعالى :

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف:١٠٣)

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (يوسف:١٠٦)

﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام:١١٦) .

* * * * *

الباب الرابع

الشمس تجرى

أثبتنا بأكثر من دليل أن الأرض هي مركز الكون وأنها كرة وسط كرة السماء وبينها وبين السماء مسيرة خمسمائة عام ، أي حوالي ٧ مليون كم . وإذا كانت الأرض مركز الكون فهي لا تتحرك . وقد ثبتها الله وأرساها بالجبال وبالتالي فإن الشمس هي التي تدور حول الأرض مرة كل يوم .

وليست الشمس مركز الكون ، ولا مركز ما يطلقون عليها بالمجموعة الشمسية بل إن جاز تسميتها بالمجموعة الأرضية لكان أولى ، ولكنها ليست مجموعة شمسية ولا مجموعة أرضية ، بل هي مجموعة سماوية جعلها الله زينة للسماء الدنيا .

فالأرض هي مركز الكون ونسبة المسافة بين نصف قطر الأرض ونصف قطر السماء ١ : ١٠٠٠ وفي السماء شمس واحدة ، وقمر واحد ، وأحد عشر كوكب وعدة آلاف من النجوم ومجرة واحدة ، وشهبا تطلق من هنا وهناك لحفظ السماء ولدحر الشياطين الذين يصعدون للسماء يتسمعون الأخبار من الملائكة وكل ما في السماء لا يخرج عن ثلاث وظائف ، هداية ، وزينة ، وحفظ .

وجريان الشمس حول الأرض ثابت بثبوت الأرض بالأدلة التي ذكرناها . وفيها الكفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . ومع ذلك فسنذكر أيضا الأدلة الخاصة بالشمس وهي أدلة مستفيضة سنحاول بإذن الله ذكر بعضها لكثرتها ولأن تاريخ البشرية بكل ما فيه من حضارات وملل وأديان وثقافات قد أجمع على أن الشمس تجرى وأنها تدور حول الأرض كل يوم .

ولم يذكر التاريخ أن أحدا خالف ذلك قبل عصر النهضة سوى اثنين هما " فيثاغورث " اليوناني و" إريستاخورس " السكندري وكلاهما ظهرا قبل الميلاد . واثنين في عصر النهضة هما " كوبرنيقوس " البولندي و " جاليليو " الإيطالي ولم تلق أقوال الأربعة أي تأييد . وظلت البشرية حتى بداية القرن العشرين وهي تؤمن بقول الله في الشمس وتعتقد على اختلاف مشاربها وأماكنها بأن الأرض ثابتة والشمس تدور حولها .

حتى بدأ العالم الإسلامي يقتنع بالفكرة التي غرره بها الاستعمار ، وما لبث أن اقتنع بها الغرب نفسه الذي رفضها وأنكرها حتى بعد موت جاليليو بمائتي عام أي بعد قرنين كاملين .

ثم أقتنع بها الغرب عندما بدأ المسلمون يؤيدونها بالقرآن الذي لا يوجد فيه آية واحدة ، بل لا توجد فيه كلمة واحدة تقول بأن الشمس ثابتة وأن الأرض هي التي تدور .

ودون أدلة ، ودون جديد في الأمر . ترك اليهود ما في كتابهم ، وترك النصارى ما في كتابهم وترك المسلمون ما في كتابهم . تركت الأمم الثلاثة كتبها الثلاثة التي تؤمن بأنها نزلت من عند الله . والتي تدعي إيمانها بها ، والتي تدعي اتباعها لما فيها تركت هذه الكتب لتتبع كتاباً واحداً اسمه " حركات

الكرات السماوية " لأحد الناس ، ليس بنبي ولا رسول ، ولم يدعى هو أنه كذلك ، ولم يدع أيضا أنه أوحي إليه بما فيه ولم يدع أن ما فيه هو الحقيقة ، بل إن الرجل – وحسابه على الله – قال إنه مجرد فرض . وترك أهل الكتب كتبهم ، ورسلهم ، وآمنوا بما قاله " كوبرنيقوس " بعد مرور ٣٠٠ سنة على موته ، وآمنوا بما قاله " جاليليو " بعد ٢٠٠ سنة من موته وخالفوا جميعا ما نزل على محمد وما نزل على عيسى وموسى عليهم الصلاة والسلام .

معتقدات الشعوب في دوران الشمس

رغم اختلاف أهل الأرض في خالقهم ما بين مؤمن وكافر ، واختلافهم في الأنبياء الذين أرسلوا إليهم ما بين مصدق ومكذب ، إلا أنهم جميعا مؤمنهم وكافرهم لم يختلفوا في أمر الشمس والقمر وأنهما يدوران حول الأرض كل يوم .

وفى كتاب " معجم الحضارة المصرية القديمة " نقرأ عن صورة الكون :

كون المصريون فكرة عن صورة العالم . كانوا يعتبرون العالم أرضا يمرالنيل في وسطها، ويحيط بها الماء ، هذا الماء هو المحيط الدائري الأعظم (وكل هذا صحيح) .. الذي أنتجه الإله الأول " نون" الذي خرجت منه الدنيا . وكان هو منشأ النيل والمطر . وفوق هذه الأرض المسطحة سماء أشبه بطبق مسطح ، يفصله عن الأرض ، الهواء .

أما حواف العالم فاعتقدوا أنها الأماكن التي تنشأ فيها الرياح . وأن حده الشرقي هو المكان الذي تخرج منه الشمس من المحيط في الصباح . ثم تعود ثانية في المساء عند حده الغربي ، وتذهب إلى العالم السفلي .

واختلفت الآراء عن طبوغرافيا العالم السفلي للمعتقدات الدينية ، فاعتقد المصريون أنه نسخة مقلوبة من الدنيا ، سماؤه مقلوبة من الناحية الأخرى من الأرض .. وتخيلوه رقعة متسعة من الماء . حيث تستعيد الشمس قواها . بعد أن تموت في المساء " .

للوهلة الأولى يظن قارئ هذا المعجم أن ما يذكره عن معتقدات قدماء المصريين هو أساطير الأولين ، ولكن المتأمل لهذا الاعتقاد يجده متطابقا تماماً مع عقيدة أهل الكتب السماوية جميعا بعد تنقيح العبارات من أسماء الآلهة التي يذكرونها .

فالعالم الذي علموه : أرض يمر النيل في وسطها ، والمتأمل لخريطة العالم سيجد أن النيل فعلا يمر وسط العالم .

كذلك اعتقدوا بأن هذه الأرض (اليابسة) يحيط بها الماء ويسمونه (المحيط الدائري الأعظم) وذكرنا أن المسلمين يقولون بذلك تماما ، ويسمون هذا الماء الدائري الذي يحيط باليابس " البحر المحيط " و" المحيط الأعظم " .

ويعتقدون بأن خالق هذا البحر العظيم هو الله أي بتسميتهم " نون " خالق الدنيا .

كذلك يعتقدون بأن النيل والمطر مصدرهما هذا البحر المحيط ، الذي يتبخر منه الماء الذي يجرى منه النيل ، ومنه يكون المطر . وأنهم يقولون بأن النيل والمطر من نشأة الله " نون " . وأن هذه الأرض المسطحة فوقها سماء يفصل بينهما الهواء .

واعتقدوا بأن الرياح تأتى من أطراف اليابسة . وأن حدود الأرض اليابسة هو البحر المحيط من الشرق وهو أيضا الذي يحد اليابسة من الغرب . وهو حق إذ أن المحيط الهادي هو حدود القارات من الشرق ومن الغرب .

وكذلك يعتقدون أن الشمس تشرق من هذا البحر المحيط وتغرب أيضا فيه .

أما عن جغرافية الأرض فكما هو واضح ، نفس ما نعرفه ونعلمه نحن عن الأرض . فقد عرفوا أنها مستديرة ، كروية ، وأن النصف الآخر للأرض هو نسخة مقلوبة من هذه الأرض التي نعيش عليها . فالأرض في النصف الآخر عكس هذا النصف . غير أن النصف السفلي رقعة متسعة من الماء . وهو المحيط الهادي . ثم إنهم كانوا يعتقدون بأن الشمس تغرب كل يوم في هذا المحيط وتشرق منه كل صباح .

إن هذا النص موجود بمعجم الحضارة المصرية القديمة صـ ٢٠٧ . يعني هذا أن المصريين كانوا يعتقدون كغيرهم من سكان الأرض في كل زمان أن الشمس تدور حول الأرض الثابتة كل يوم .

وفى كتاب " المعتقدات الدينية لدى الشعوب " نقرأ عن الشمس :

" أنها تعبر السماء يوميا بعربة مبددة الظلام والشر . وتوزع أشعتها بالتساوي على جميع المخلوقات وعلى نحو صارم ودون تفرقة . وفى الليل تعبر العالم السفلي وتواصل دورتها " .

وعن دورة القمر نقرأ : والقمر في قاربه الهلالي يعبر السماء المظلمة بانتظام .

ويقسم السنة إلى أشهر كل منها ثلاثون يوما " . وهذه عقيدة بلاد ما بين النهرين التي قامت عليها أقدم الحضارات الإنسانية (السومريين والبابليين ، والآشوريين) .

ولم تشذ حضارة من الحضارات ولا أمة من الأمم عن هذه العقيدة في الشمس وأنها تدور حول الأرض كل يوم دورة .

دوران الشمس في الكتاب المقدس

لقد تصدت الكنيسة لتعاليم كوبرنيقوس التي أراد بها قلب أوضاع الدنيا والدين بقوله أن الشمس ثابتة وأنها مركز الكون ، وأن الأرض هي التي تدور حولها وحول نفسها ، كما وقفت بحزم لجاليليو الذي جاء بعد كوبرنيقوس بقرنين ، ليحيي تراثه ويردد قوله وينشر مذهبه . ونجحت الكنيسة في ردعه . ولم يكن ذلك تسلطاً من الكنيسة كما يفتري المفترون ، ولم يكن ذلك منها دفاعا عن فلسفات قديمة ، أو أساطير الأولين ، وإنما كان ذلك حماية للدين ، وتمسكا بتعاليم الكتاب المقدس والذي ينص صراحة على أن الشمس هي التي تدور حول الأرض وليس العكس .

ففي سفر (يوشع) الإصحاح العاشر الآية رقم ١٣ نقرأ :

" حينئذ كلم يشوع الرب ، يوم أسلم الرب الأموريين أمام بني إسرائيل . وقال أمام عيون بني إسرائيل : يا شمس دومي على جبعون ، ويا قمر على وادي أيلون . فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه . أليس هذا مكتوبا في سفر ياشر . فوقفت الشمس في كبد السماء . ولم تعجل للغروب يوم كامل " .

دوران الشمس في القرآن

قلنا أن الله تعالى لم ينسب للأرض على كثرة ذكرها أي جري أو أي حركة ، أو حتى أي فعل سوى التسبيح ، والإتيان الذي حدث منها مرة واحدة في بدء خلقها ، ثم أقرها الله تعالى حيث أتت ، وثبتها بالجبال ، وأصبحت في مكانها هذا قائمة موضوعة وممسوكة . حتى التسخير لبني آدم ، بل السجود لله رب العالمين ، منعه الله عنها ، وذلك لفائدة بني آدم .

أما الشمس فقد ذكرت في القرآن ٣٢ مرة ، منهم مرتان عن نهايتها ، والباقي ٣٠ مرة عن حياتها في الدنيا . وهذا الرقم هو نفسه عدد أيام شهرها ٣٠ يوم . وفي هذه المرات الثلاثين ، تذكر الشمس بأفعال الحركة ٢٣ مرة مثل :

(تأتي ، بازغة ، سخر ، تدلك ، تشرق ، تطلع ، تسجد ، تجري ، تدرك ، .....) .

وقد أخبر الله تعالى أنه سخر الشمس . ولا يعني ذلك سوى أنها تدور حول الأرض .

تسخير الشمس

في سبع آيات لا ثامن لها في القرآن يذكر تعالى أنه سخر الشمس :

(١) ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ (الرعد:٢)

(٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ (إبراهيم:٣٣)

(٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ (النحل:١٢)
(٤) ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ (لقمان:٢٩)
(٥) ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ (فاطر:١٣)
(٦) ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ (الزمر:٥)
(٧) ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ (الأعراف:٥٤) .

ومعنى أن الشمس مسخرة أي مذللة ، عاملة في طاعة ، متحركة ، دائبة . فالشمس مسخرة بالمعنى المعروف للكلمة ، والمتبادر إلي الذهن من كلمة (مسخر) .

ولا يمكن أن يتصور تسخير دون حركة . فكل ما سخره الله في الأرض ونص على أنه مسخر فهو يتحرك ويجرى في الأرض أو حولها ، البحر والفلك والسحاب والريح والطير ، والبغال والحمير والخيل فكل هذه مسخرات وكلها تتحرك وتجرى .

لذلك لم ينسب للأرض تسخير وإنما التسخير لمن هو فيها . فإن كان الأمر كذلك فأيهما الثابت وأيهما المتحرك ؟

طلوع الشمس

يقول تعالى ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ (الكهف:١٧) .

إن هذه الآية تخبر عن حدث هام ، سماه الله آية ، وآية ظاهرة . وهذه الآية مرتبطة بالشمس . وهي تحدثنا عن أربعة أفعال للشمس ، منهما فعلان مألوفان يتكرران كل يوم وهما : طلعت ، وغربت .. وفعلان غريبان عن الشمس وهما : تزاور ، وتقرض .

والتزاور من الزور وهو الميل . والقرض : العدول عن الشيء والتجاوز. وإحداث هذين الفعلين من الشمس هو الآية التي ذكرها تعالى في هذا الموضع ، أي أن الشمس ليست فقط تطلع وتغرب ، فهذا الأمر ليس فيه آية خاصة أو غريبة على الشمس ، فطلوع وغروب الشمس هو آية دون شك ، ولكنهما في هذه المناسبة بالذات وفي هذا الأمر ليس آية لكي يخصهما تعالى بالذكر ، لذلك لم يوفق من المفسرين من قال بأن الكهف كان جهة الشمال ، حيث لا تصيبه الشمس في طلوعها ولا في غروبها فلو كان الأمر كذلك ما قال تعالى أن في ذلك آية .

إن الآية تخبر بأمر غير عادى قد حدث ، نستنتج ذلك من ذكر الأفعال الأربعة للشمس ومن وصف الله تعالى لما حدث بأنه آية ، من إمكانية رؤية ذلك الأمر لقوله ﴿وَتَرَى﴾ وهذا الأمر الغير عادى

والذي سماه الله آية هو ميلان الشمس كل شروق وانحرافها كل غروب ، وذلك كل يوم على مدار ٣٠٠ سنة . كذلك تخبر الآية أنها في الصباح تميل عن ذات الكهف ، وفي المساء تنحرف عن ذوات الفتية وليس عن الكهف وهذا واضح من قوله : ﴿تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ ﴿تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ . مما يدل على أن وضع الكهف المتسع في داخله كان يسمح للشمس بالسطوع في مدخل الكهف مما يجعل أشعتها في الغروب تصل إلى داخله .

وحتى لا تؤذى الشمس النائمين داخل فجوة الكهف كانت الشمس تعدل مسارها في طلوعها وفي غروبها ، كآية من آيات الله ، بحيث أننا الآن لو وجدنا هذا الكهف وهو في إحدى قرى الأردن لوجدناه مواجها للشمس بحيث تسقط أشعتها على مدخله في الشروق ولعلها تدخل بأشعتها إلى داخل الكهف عند غروبها وقد كانت أثناء وجود الفتية داخله تنحرف عنه .

هذه الآية دليل قاطع على أن الشمس هي التي تدور حول الأرض وإلا لما نسب الله تعالى هذه الأفعال للشمس .

إن حركة الشمس لا نتوهمها ولا نحس بها ولا نستنتجها ، بل إننا نراها بأعيننا ومع ذلك فإنهم يقولون إن الأمر خلاف ما نرى ونحن جميعا مخدوعون ، أو موهومون فالحقيقة أن الشمس لا تتحرك ، إنما الأرض هي التي تتحرك ، ولكننا لا نشعر بحركتها ، فنتخيل أن كل ما في السماء هو الذي يتحرك . تماما كما يتوهم راكب السفينة عندما تبحر السفينة فيتوهم أن المدينة بكل ما فيها هي التي تبتعد عنه والحقيقة أنه هو الذي يبتعد بسفينته ، والأرض أمامه ثابتة ، وكذلك ، من يركب قطار فيتوهم أن الأرض أمامه والنخيل والأشجار تجرى والحقيقة أنها ثابتة والقطار هو الذي يجرى .

هل يصدق عقل أن هذا هو دليل كوبرنيقوس على دوران الأرض ؟ وأن حالنا كحال راكب السفينة ؟ هل يتصور عاقل أن البشرية من آدم إلى كوبرنيقوس ظلت تعيش في وهم وفيهم الأنبياء والمرسلين ؟

إن كانت النظريات تبنى على التوهم فبإمكاننا أن نثبت أنكم الآن الواهمون في أن الأرض التي نحن عليها تجرى . والحقيقة أن الكون من حولنا هو الذي يجرى .

ودليلنا في ذلك راكب القطار الذي يقف بنا في إحدى المحطات وبجواره قطار آخر يقف ثم يتحرك القطار بنعومة وهدوء وبعد دقيقة أو أكثر نكتشف أنه لم يتحرك بعد من مكانه ، وإنما توهمنا ذلك لحركة القطار المجاور له . هل الدليل فيه الكفاية للمتوهمين ؟

يقول تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ٧٨) .

هذه الآية دليل آخر على حركة الشمس حول الأرض في الكلمتين (بازغة وأفلت) إن كلمة بزغ تعنى طلع ، وكلمة أفل تعنى غاب . وهاتان الكلمتان لم تذكرا في القرآن إلا في هذه الآيات من سورة الأنعام : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)﴾ . لم ترد كلمة بزغ أو أفل في القرآن إلا في هذه الآيات وهي عن حركة الكرات السماوية (الكواكب ، والقمر ، والشمس) وليس الأرض .

أما كلمة طلع التي ذكرت في القرآن ١٩ مرة منها خمس مرات عن طلوع الشمس ومرة واحدة عن مطلع الفجر . ولم يذكر القمر ولا الكواكب بالطلوع .

فهذه الكلمات (طلع ، بزغ ، أفل) تعنى أن الشمس تدور حول الأرض . إذ نسب الله تعالى الأفعال لها ولم ينسبها للأرض ، وهذه الأفعال نسبت لمن فعلها ، وفعلها يحتاج إلى حركة ، لذلك لا يعتبر طلوعاً ولا بزوغاً ولا أفولاً ، لو كانت الأرض هي التي تدور فتظهر هذه الأجرام السماوية ، فإن ذلك لا يسمى بهذه الأسماء .

في كل هذه الآيات نرى ارتباطا وثيقا بين الشمس والقمر ففي آيات التسخير السبع وفي آيتي البزوغ والأفول نجد أن ذكر القمر مقترنا بذكر الشمس في كل الآيات . وهم يقولون بأن القمر يدور حول الأرض ، والقرآن يقرن دائما الشمس بالقمر ، فهي إذاً تدور مثله حول الأرض ، ولم يقترن ذكر الشمس بالأرض أبداً في القرآن .

فلا يقترن ثابت بمتحرك . وإنما يقترن الثابتان (السموات والأرض) ويقترن المتحركان (الشمس والقمر) .

* * * * *

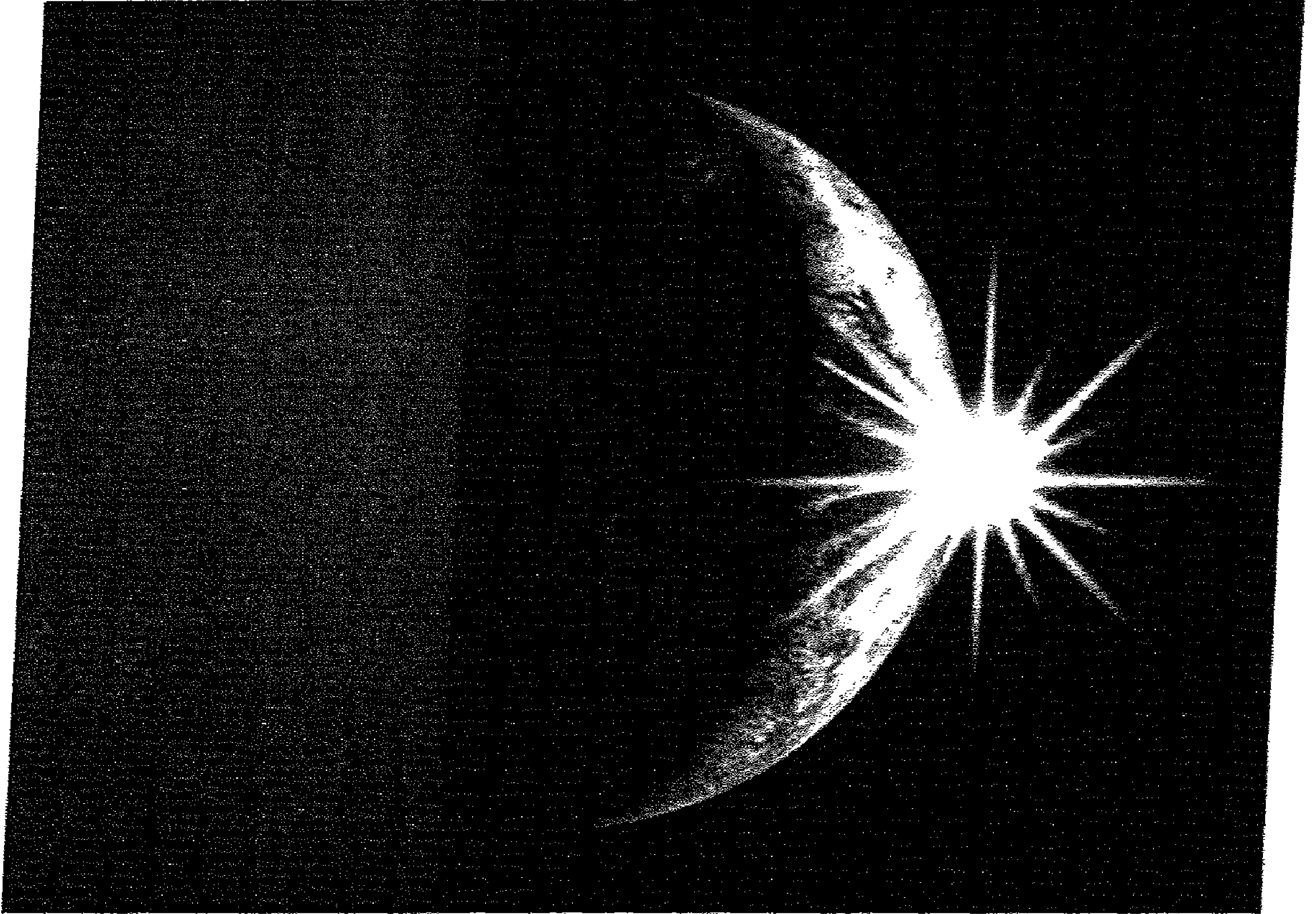
يقول تعالى ﴿أَقِمْ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ (الإسراء:٧٨) .
والدلوك هو الزوال ، وجنوحها للمغيب بعد ما تزول من كبد السماء . فهذا الميلان منسوب للشمس وليس للأرض . وهم يقولون بأن الأرض تميل ميلان دائم بمقدار ٢٣,٥ درجة وهذا أمر غير متصور ويستحيل وقوعه . والحق أن الأرض لا تميل أبدا وإنما الشمس هي التي تميل .

* * * * *

الله يأتي بالشمس

يقول الله تعالى فى سورة البقرة الآية ٢٥٨ :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾



(صورة ملتقطة من الفضاء الخارجى لحظة شروق الشمس عليها)

في أول ذكر للشمس في القرآن ، تكون على لسان أبو الأنبياء إبراهيم ، وتذكر في موضع التحدي والإعجاز ، وبيان للمقدرة الإلهية ، ودليل هذة القدره أن الله ﴿يأتي بالشمس﴾ يقول تعالى :

﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥٨) .

فالشمس ليست ثابتة ، ولكنها تأتى .

وهي لا تأتي وحدها . ولا بفعل جاذبية نيوتن . وليست هي مركز الكون كما قال كوبرنيقوس وأيده جاليليو ثم نيوتن ثم أينشتاين ثم علماء المسلمين من بعدهم .

لم يذكر تعالى هنا أن الشمس تأتي كخبر من الأخبار أو معلومة من المعلومات . بل جاء ذكر إتيان الشمس في موضع التحدي . وبين من ومن ؟ بين نبي من أعظم الأنبياء وهو خليل الرحمن وأبو الأنبياء وأحد أولي العزم من الرسل ، والنبي المجمع عليه من جميع أهل الأديان ، ومتفق على نبوته بين كل الملل ، بل وتدعي كل ملة أنه نبيها الخاص بها . وبين ملك من أكبر ملوك الأرض ، وأول من ملك الأرض ، وقد كان يحكم دولة معبودهم الأول هي الشمس . ويحكم شعبا يعرف عن الشمس والقمر والكواكب أكثر من أي أمة وجدت في التاريخ حتى الآن ، وهو الملك " النمرود " .

بوضوح تام لا يحتمل مجازا ولا تأويلا ولا فلسفة قال إبراهيم :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾

وإبراهيم عليه الصلاة والسلام لا يكذب . وهو أيضا لا يقول من عنده ، وإنما قوله وحي يوحى . أي أن ما قاله هو قول الله عز وجل ولا يعرف الشمس مثل خالقها .

وأنتم بالطبع تقولون : إن الأرض تدور من الغرب إلى الشرق ، وبالتالي تظهر الشمس من الشرق ، فكأنما بظهورها تأتي من هناك .

وهذا القول مخالف تماما للقرآن والسنة ، وللغة العربية ، ولقول إبراهيم عليه السلام . بل إن النمرود الذي اعترض اعتراضا مثل هذا على القضية الأولى التي تحداه بها إبراهيم عليه السلام عندما قال : ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ لم يعترض على قول إبراهيم بأن الشمس تأتي من المشرق ، وقال بأن الأرض هي التي تدور ، تماما كما فعل في القضية الأولى . فقد استغبى الملك وجاء برد مثل هذا الاعتراض في القضية الأولى فقال : ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ ورغم أن هذه المسألة لا تحتمل جدلاً إلا أن الملك جادل وقال ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ . كيف ؟

إنه نفس أسلوب القائلين بأن الأرض عندما تدور تبدو الشمس من المشرق فتكون قد أتت . فشرح الملك لإبراهيم كيف يحيي ويميت ، فقال : أأتي باثنين قد استوجبا الإعدام في حكمي ، فأعفو عن أحدهما فأكون قد أحييته ، وأنفذ في الآخر فأكون قد أمته .

هل قصد إبراهيم عليه السلام من قوله ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ هذا الذي يقول به الملك ؟ بالتأكيد لا . ولكن الملك كان مجادلا متفلسفاً ، متألهاً . فقال بمثل ما يقول به أصحاب دوران الأرض . ورغم أن الملك يبدو ملتويا في مناظرته إلا أنه لم يبد مثل هذا الاعتراض للمسألة الثانية التي ألجم فيها بالحجة وبهت لعجزه عن الرد ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ . لقد كان أمام النمرود وقد عرفنا خبثه والتواءه أن

يقول لإبراهيم عليه السلام : إن الله لا يأتي بالشمس من المشرق ولا يأتي بها من أي مكان بل إنما أصلا لا تأتي وإنما الأرض هي التي تأتي . إذاً فقد كانت الآية واضحة وفهمها الملك كما أرادها إبراهيم ، أن الشمس هي التي تتحرك وتأتي ، فلم يستطيع جوابا ولم ينطق ببنت شفة .

هل يقول أحد من علمائنا أن الله تعالى أراد بقوله ﴿يَأْتِي بِالشَّمْسِ﴾ هو ظهورها لمن على الأرض عند دورانها حول نفسها ؟ والإجابة على هذا السؤال أنه ليس واحدا من علماء المسلمين يقول بذلك وإنما جميعهم يقول هذا .

لذلك سنوضح الأمر ونحتكم إلى كتاب الله لنفصل فيه وننظر في كلمة (أتى) في القرآن : لنعلم أن هذه الكلمة موضوعة في الآية لحكمة وفي مكانها الصحيح ، وإلا لقال إبراهيم عليه السلام . إن الله يظهر الشمس من المشرق ، أو قال يحضر أو يطلع أو يشرق . وهذه الألفاظ استعملها القرآن في أكثر من موضع لكنها لم تستعمل في هذه الآية ، حتى نعلم أن كلمة (أتى) جاءت لتعطى دلالة خاصة ولا يوجد لفظ آخر يعطى مثل دلالة كلمة (أتى) التي تعنى : المجيء عن قصد وإرادة ومن الآتي ذاته .

وهذه بعض آيات القرآن التي توضح هذا المعنى :

﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾ (الإسراء:٩٢) ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ (مريم:٢٧) ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ (الأعراف:١٣٨) ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ﴾ (النمل:١٨) ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ (النمل:٣٩) ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ (الأنبياء:٤٧) ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ (الفرقان:٤٠) ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (فصلت:١١) ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ﴾ (يوسف:٦٠) .

فكلمة أتى في الآيات لا يمكن استبدالها بكلمة أخرى كحضر مثلا . لأن (حضر) تعني الإتيان أيضا ولكن دون قصد وإرادة . بل تعنى مجرد التواجد . أما الإتيان ففوق ما ذكرنا يعني الحركة والهمة والإرادة ، يقول تعالى : ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾(النساء:٨) .

أي إذا كانوا متواجدين أثناء القسمة . فالفعل لا يعنى أنهم طلبوا أو استدعوا ، بل : إذا كانوا حاضرين أثناء القسمة . يختلف هذا تماما عن ما إذا كانت الآية (وإذا أتى القسمة أولوا القربى) فهذه العبارة تفيد أن المال لا يقسم إلا بوجود هؤلاء فإتيانهم شرط للقسمة فإذا أتوا يقسم وإلا فلا . ولكن المراد غير ذلك .

يقول تعالى : ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ «الأعراف: ١٦٣» أي اسألهم عن أمر القرية التي كانت موجودة على شاطئ البحر (بحكم موقعها) ولم تأت هي للبحر عمدا أو بحركة منها .

يقول تعالى ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ «البقرة: ١٩٦» أي أن هذا الحكم يكون لمن يكن أهله من سكان الحرم . وكان الحرم موطنهم . ولو استبدل لفظ حضر بأتى لتغير المعنى تماما بل لا يستقيم المعنى بالمرة .

ويقول تعالى : ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ «الأحقاف: ٢٩» يخبرنا تعالى عن الجن لما جاءوا إلى مكان النبي ﷺ وسمعوا القرآن أعجبوا به وآمنوا من فورهم . ولم يقل تعالى (فلما أتوه) لأنهم لم يأتوا قاصدين مريدين لهذا الأمر ، بل صرفهم الله تعالى إلى هذا المكان وساقهم إليه ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ فرغم انهم حضروا ، ورغم أن الله تعالى أتى بهم إلا إنهم لم يأتوا ، لانتفاء القصد .

والجن في حضورهم كانوا مثل الشمس في إتيانها ، حيث أن الله تعالى في الأمرين هو الآتي بهما ، ولكن انتفاء القصد من الجن نفي عنهم تعالى الإتيان .

وهكذا كل لفظ (أتى) أو حضر لكل منهما معنى رغم اشتراكهما في التواجد والانتقال فالشمس هنا لم تحضر أي لم يكن ظهورها مجرد انتقال ، بل انتقال وعن قصد وعمد وإرادة . فقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ ولم يقل (إن الله يحضر الشمس من المشرق) فربما التبس الأمر على الملتبسين وظنوا أنها تظهر بدوران الأرض وإن كان لفظ حضر أيضا يفيد هو الآخر الانتقال لكن ليس بقصد وإرادة .

حتى العبادات نجد أن اللفظ (أتى) له مدلول هام فيها . فأركان الإسلام الخمس تشترط خمسة أفعال مختلفة ، كل فعل منها يعطي معنى مغايرا تماما عن غيره والأفعال هي (شهد ،أقام ، صام ، أتى ، حج) وكل فعل من هذه الأفعال يدل على عبادة متباينة تماماً عن غيرها . يقول رسول الله ﷺ : " بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا " . فجعل للقلب واللسان عبادة وهي الشهادة ، فلا يحرك إلا اللسان مع إقرار القلب . وجعل للجوارح الظاهرة عبادة وهي الصلاة ويتحرك المصلي في مكانه بقيام وركوع وسجود . وجعل للجوارح الباطنة عبادة وهي الصوم . فيمتنع تحريك أي شهوة في نهار

رمضان . وجعل للمال عبادة في أن يتحرك المال وينتقل من يد المزكي إلى يد المزكي إليه ، وهذا هو الإيتاء . من الفعل أتى ، وهو يتضمن نفس المعنى الذي ذكرناه للإيتاء . فلا تعتبر زكاة ما لم ينتقل المال ويخرج من ملك المزكي إلى ملك المزكي إليه وأن يكون ذلك عن قصد وإرادة فلو تخلفا القصد والإرادة لا تعتبر زكاة . ولو وجد هذا القصد وهذه الإرادة ولم ينتقل المال ويتحرك لا تعبر زكاة .

ثم جعل لكل هذه الجوارح ولهذا المال عبادة مشتركة وهي الحج .

من ذلك نجد أن القول بأن الإتيان هو مجرد ظهور الشمس من جهة الشرق عند دوران الأرض من الغرب إلى الشرق قول باطل لغة وشرعا . فالشمس عندما تأتي تنتقل بنفسها من مكان إلى آخر بقصد وإرادة . وإذا تخلف أحد الأمرين تخلف الإتيان .

فما قول السادة العلماء ؟

مطلع الشمس ومغربها :

في سورة الكهف يقص الله تعالى خبرا عن " ذي القرنين " وهو أحد ملوك الأرض الصالحين . وسمي بذلك لأنه ملك ما بين مشرق الشمس ومغربها . فيخبر عز وجل أن " ذي القرنين " بلغ المغرب أولا فقال تعالى في الآية ٨٦ : ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ وفي الآية رقم ٩٠ يقول تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَل لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ فالآية الأولى تتحدث عن غروب الشمس أي المكان الذي تغرب فيه والفعل منسوب للشمس ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ﴾ أي أن الشمس هي التي تغرب وليست هي التي تغرب . وكذلك الحال في الآية الثانية التي تتحدث عن مطلع الشمس فالفعل أيضا منسوب للشمس وليس للأرض ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ﴾ فالآية الأولى تصف المكان الذي تغرب فيه الشمس والآية الثانية تصف السكان اللذين تطلع عليهم الشمس . فحال المكان ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي ماء وطين . ولو تصورنا ذي القرنين يقف على ساحل المحيط الأطلنطي من بلاد المغرب العربي فإنه سيرى الشمس تغرب في أقصي غرب المحيط ، حيث تكون الشمس في ذاك الوقت ظهيرة على خليج المكسيك .

والآية الثانية تصف حال السكان اللذين وجدهم ذو القرنين عند مطلع الشمس حيث لم يجعل الله لهم حائلاً يظلهم من حر الشمس إذا اشتد . ففي الآيتين نجد أن الفعلين للشمس ولا ذكر للأرض هنا ﴿تَغْرُبُ﴾ ﴿تَطْلُعُ﴾ فكيف يقول تعالى أن الشمس تغرب وتطلع ونقول نحن أنها لا تفعل ذلك . بل إن الأرض تدور من الشرق إلي الغرب ، فتبدو لنا الشمس تغرب وتطلع ، بينما الحقيقة أنها لا تفعل ذلك ؟ كيف يكذب أهل الأرض جميعاً الله عز وجل .

والشمس تجري

كنت كلما قرأت القرآن أتعجب كثيرا من قول أولئك الذين كانوا يعبدون حجارة يصنعونها بأيديهم وقد يعلمون أنها لا تنفع ولا تضر ، ولكنهم مجرد أتباع لآبائهم الأولين . ولا يقل عن ذلك تعجبي من عقول من يزعمون أنهم مؤمنون بالله ، ومتبعون لكتابه . ثم هم يقولون بأن الأرض تجرى حول الشمس ، بينما ربهم يقول في كتابه أن الأرض قارة ثابتة ، وأن الشمس هي التي تجرى .

كيف طاوع المؤمنين إيمانهم وقالوا بأن الشمس ثابتة بالنسبة للأرض ؟

من أجل ماذا يخالفون ربهم ؟ وما دليلهم على هذه المخالفة ؟

إن العقل والعلم يقولان أن أية نظرية تخالف تجربة واحدة مما تقرره هذه النظرية من نتائج تكون نظرية خاطئة . وأن ما بنى على باطل فهو باطل .

ومع ذلك رأينا نظرية ثبات الشمس ودوران الأرض قد أسست على باطل ، ومع ذلك ظلت النظرية سارية . وأثبتت التجارب خلاف ما قال به واضعو النظرية ومع ذلك يتمسكون بصحتها . فقد أسست نظرية دوران الأرض على ثبات الشمس ، ثم ثبت لهم بعد ذلك أن الشمس ليست ثابتة وإنما هي تجرى . وكان هذا حري بأن ينسف بالنظرية من جذورها . هكذا اتفق واضعو ومؤيدو ومروجو نظرية دوران الأرض على أن النظرية أساس بنيانها المتين هو ثبات الشمس ومركزيتها للكون ، وثبت لهم بعد ذلك أن الشمس تجري ، وأنها ليست مركز الكون . ورغم انهيار الأساس إلا أنهم لا زالوا متمسكين بقوة بنيانهم ومتانته وصحته فأنا لهم ذلك ؟

قال فيثاغورث واضع بذرة دوران الأرض : " إن الأرض لا يمكن أن تكون نقطة العالم المركزية ، إذ تقطنها نقائض عديدة . كما أنها في ذاتها مظلمة ، ويجب أن يكون وسط الدنيا مضيئاً لأن الضوء إحدى الطيبات " .

وقال كوبرنيقوس واضع نظرية دوران الأرض ومركزية الشمس : " في هذا المعبد الكبير من ذا الذي يستطيع أن يضع تلك الشعلة المضيئة في مكان آخر سوى المركز ، حيث تضيء كل الأشياء في وقت واحد ، فهذه الشمس هي نور العالم ، بل هي روحه ، بل هي التي تتحكم فيه ، وهي جالسة على عرشها القدسي ، ترشد أسرة الكواكب إلى طريقها " .

وقال جاليليو الذي أقنع سكان الأرض أنها تدور وأن الشمس هي المركز – دون أي دليل : " إن الشمس تقف ساكنة في مركز الكون ، والأرض لا تقف في مركز الكون وإنما تدور يوميا حول نفسها ، وسنوياً حول الشمس " .

هؤلاء الثلاثة هم صناع نظرية دوران الأرض فيثاغورث وكوبرنيقوس وجاليليو . الأول وضع البذرة والثاني سقاها والثالث رعاها . وقد انهدم نصف النظرية وشقها الأساسي . وهو قولهم إن الشمس ثابتة وأنها مركز الكون . وكان ينبغي أن يتبعه النصف الثاني القائل بدوران الأرض .

وكان ينبغي أن يتمسك أهل القرآن بموقفهم ، فقرآنهم لم يخذلهم ، وأن يزيدهم ذلك إيمانا به واستمساكاً . أما أن يغرر بهم ويغويهم الشيطان بأن جريان الشمس لم ينقض نظرية القائلين بثباتها . وإنما ينقض قول أهل القرآن القائل بأن الشمس تجرى ، فهذا أمر لا يعقل ولا يتصور .

ولكن ذلك تم بالفعل وتراجع أهل القرآن عن موقفهم ووافقوا الشيطان والتجريبيين في أن الأرض هي التي تدور ، رغم أنه ثبت لديهم أن الشمس تجرى كما يقول قرآنهم .

هكذا انقض أساس النظرية ، والعقل والعلم يقولان بأن تنقض النظرية كلها ولكن ذلك لم يكن وتمادوا في غيهم وتمسكوا بإفكهم وقالوا : (ومع ذلك فالأرض تدور) . وجريان الشمس ؟ ماذا تفعلون فيه ؟ ففكروا ، ودبروا ، ونظروا ، ثم قالوا : إنما تجرى حول المجرة .

وليس على من صرفهم الله عن آياته وتركهم في الظلمات ، وختم على سمعهم وأبصارهم بغشاوة ، وجعل على قلوبهم أكنة ، ليس عليهم جناح أن يقولوا بهذه الهرطقة والزندقة والشعوذة والخطرفة على حد تعبير المجلس الكنسي أما أن يتبعهم أهل القرآن الذين بين لهم رسولهم ما قاله القرآن ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ وأخبرهم عن مكان هذا المستقر . وأن الشمس بذلك تدور حول الأرض . فهذا لا يكون إلا في الزمن الذي أخبر عنه ﷺ بأن المسلمين سيتبعون فيه الغرب شبرا بشبر حتى لو أتى أحدهم أمه لأتاها . وأحسب أننا نعيش هذا الزمن ، وإيانا كان يعنى رسول الله .

ولو سألنا أهل الأرض الآن ، مؤمنهم أو كافرهم ، القائلين بدوران الأرض . وبأن الشمس إنما تجرى حول المجرة . لماذا تدور الشمس حول المجرة ؟ فلن يجيبوا إلا بأن كل شيء

في الكون يجذب كل شيء فيه يريدون كوناً قائمـــا بذاتـــه ومـــا دامـــت الشـــمس تجـــذب الكواكب والأرض ، فلا بد أنها الأخرى مجذوبة بشيء . هذا الشـــيء هـــو المجـــرة . والمجـــرة لابـــد أن يجذبها شيء آخر . ما هو ؟ المجموعات النجميـــة . والمجمـــوعات النجميـــة مـــاذا يجذبهـــا ؟ إلى هنا : لا يـــدرون .

وأيا ما كان الأمر ، فهنا يظهر مرة أخرى السؤال الملح : لماذا تدور الشمس حول المجرة ؟ وهي لن تكمل دورتها إلا بعد ملايين السنين الضوئية ؟ وما هو دليلكم على ما تقولون ؟ ولماذا لا يكون جريها حول الأرض وهو ما نراه بأعيننا ؟ أهي المخالفة لقول الله وفقط ؟

كان ينبغـــي علـــى المؤمنـــين وهـــم (أولي الألبـــاب ، أولي النـــهي) أن يدركـــوا أن الشـــمس مسخرة للأرض وليس للمجرة ، وأن فلـــك الشـــمس الـــذي تـــسبح فيـــه حـــول الأرض وليـــس حول المجرة . وأن الشمس والقمر في ســـباق حـــول الأرض وليـــس حـــول المجـــرة وأن الله تعـــالى لم يذكر المجرة أبدا في كتابه ، وأن الرسول لم يذكرها أبدا في حديثـــه . إلا أنهـــا تشـــكيل مـــن النجـــوم يتكتل في منطقة معينة من السماء لأمر يريـــده الله وســـنبينه عنـــد الحديـــث عـــن المجـــرة . ثم إن الله تعالى الذي سخر الكون للإنسان لم يقل في القرآن . إني جاعل في المجـــرة خليفـــة . بـــل قـــال ﴿إِنِّـــي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَـــةً﴾ (البقـــرة:٣٠) .

ثم هل أرسل الله إلى المجرة رســـلاً ؟

وهنا قد يقول أحد المغيبـــة عقولهـــم : إن الله لم يقـــل ، ولم يحـــدد اتجـــاه جـــرى الشـــمس . ولم يقل أنها تجرى حول الأرض . فمن الممكن أنها تجـــرى إلى أي مكـــان .

وأشبه بهذا القائل من يتحدث إليه آخر وليس في المكان غيرهمـــا ثم عنـــد نهايـــة الكـــلام يســـأل المستمع المتكلم : هل أنت تكلمني ؟ ولو قلت له : هل هـــذا ســـؤال ؟

فسيقول لك : إن المتحدث لم يقـــل لي في بدايـــة حديثـــه : إنـــني أحدثـــك . ولكـــن الخطـــاب موجه لك وحدك ؟ وليس ثم غـــيرك !!

هذا الحال أشبه بحال الذين يقول الله لهم : أن الشمس تجـــرى ، وأنهـــا مســـخرة لكـــم . وأنهـــا تطلع كل يوم عليكم . وأن الله يأتي بها لكم . ثم يقولـــون : إن الكـــلام لـــيس لنـــا . عندمـــا يقـــول تعالى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْـــرِي﴾ ﴿إِنَّ اللَّـــهَ يَـــأْتِي بِالشَّـــمْسِ مِـــنَ الْمَشْـــرِقِ﴾ ﴿وَكُـــلٌّ فِـــي فَلَـــكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس:٤٠) أهذا حديث يخـــص الأرض أم المجـــرة ؟

وربما لم يقل القرآن صراحة أن الشمس تجرى حول الأرض . ولكنه قال ما هو أدق وأضبط وأبين من ذلك . فحدد مكاناً بعينه تجرى إليه الشمس وهو (المستقر) ثم بين وسوله مكان هذا المستقر تحديدا لا يقبل لبساً أو غموضاً معه ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ وللمؤمنين بالله وكتبه ورسله القائلين بأن الشمس تجرى حول المجرة ، ونحن نختلف معهم ، هل يقبلون أن نحتكم إلى الله ورسوله كما دعانا الله لذلك في قوله ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا﴾ هل يقبلون ذلك ؟

إذاً فلنبحث في القرآن عن وجهة الشمس وهي تجرى . وإن كان والله الأمر لا يحتاج إلى بحث . ولكن لا بأس .

يقول تعالى في سورة يس : ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾ .

هذه الآيات تتحدث عن آية من آيات الله للناس ، ونعمة من نعمه عليهم . في الحياة الدنيا ، فلا شأن لهذه الآيات باليوم الآخر .

فيخبر الله تعالى : أن هذه الشمس المسخرة لنا والتي نراها بأعيننا تأتي من الشرق وتذهب في الغرب . إنما تجرى نحو مستقر لا نراه نحن . وليس الأمر مجرد شروق وغروب . هذا المستقر هو الذي تجرى من أجله ، ومن أجل الوصول إليه ، حتى إذا ما وصلت إليه استقرت فيه لمدة ثم تعاود جريها بعد ذلك ، وهكذا ، والأمر ليس متروكا لتقدير الشمس وجريها وإرادتها ، ولكن الأمر بتقدير الله الذي لا يستطيع أحد أن يعقب على تقديره ، لأن الله تعالى الإله الذي يأمر فيطاع ، وثانيا أوامره وتقديراته بعلم وحكمه .

وهذا القمر الذي نراه بأعيننا يبزغ ويأفل ، له أمور لا نراها بأعيننا ، وهي أن الله تعالى ينزله منازل مقدرة تقديرا ، فيمكث في كل منزل مدة حتى يعود مقوسا دقيقاً كالعرجون اليابس القديم ، الذي قطع من نخلته منذ مدة . فيكون بذلك علامة أنه نزل في كل منازله التي قدرها ربه ، فيبدأ من جديد .

وحركة الشمس والقمر البادية لنا ونراها بأعيننا والتي تتقدم فيها الشمس على القمر نصف الشهر ثم يتقدم القمر النصف الآخر ، فيها أمور لا ندركها نحن بأعيننا ، هي من تدبير

الله تعالى فيهما ، والذي قدر ألا تدرك الشمس القمر لحكمة بالغة ولا تلحقه في جريه ، رغم أنها أكبر منه ، وأسرع منه ، وأضوء منه ، ورغم أنهما تجرى في نفس اتجاهه ، ولكنها لا تلحق به ، وذلك لأنه تعالى جعل حركتهما مستديرة متوازية حول الأرض . وجعل لكل منهما فلك يدور فيه مواز تماما لفلك الآخر . غير أن فلك القمر هو الأقرب للأرض ، وفلك الشمس هو الأبعد والأكبر إذ أن فلكها أربعة أضعاف فلك القمر ، لذلك فرغم سرعتها فإنها لا تدركه ، أي لا تقطع فلكها وتدور في أبراجها وتنزل منازلها في نفس المدة التي يفعل هو فيها كل ذلك . في هذا السباق السماوي .

والشمس والقمر ، لا يصنعان الليل والنهار وإنما هما فقط يجريان فيهما ، فالليل والنهار هما الوقتان اللذان يجري فيهما الشمس والقمر . وكل منهم (الشمس والقمر والليل والنهار) في فلك يسبحون . أي في مدار دائري يسبحون . وليس في مدار بيضاوي أو إهليلجي كما يقولون الآن . ولكل حكمه وعمله .

فهذه هي الآيات التي يفعلها الله للشمس والقمر والليل والنهار مغايرة لما نراه بأعيننا ونحن لا نرى إلا مظاهر هذه الآيات وآثار فعل الله فيها .

تماما كما أخبر تعالى في آيات الأرض التي تسبق آيات السماء هذه وقال فيها : ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ (يس) .

فهذه الآيات تخبر أن الله تعالى هو الفاعل لما تخرجه الأرض من زروع وثمار وأنه تعالى له تدبير في الأرض لا نراه بأعيننا وإنما نرى أثره . واضح ذلك من الآيات ﴿الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ فالذي أحياها هو الله والذي أخرج منها هو الله وفي الكلمات (وجعلنا) (وفجرنا) فهذه أعمال الله في الأرض كما رأيناها في السماء لذلك يقول تعالى في سورة الواقعة ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)﴾ فهذه الآيات الأرضية سبقت هذه الآيات السماوية ، ثم ذكر تعالى بعد ذلك آيات بحرية تخبرنا أيضا أنه تعالى له شأن وأمر في البحر الذي نرى أثره فقط بأعيننا . يقول تعالى ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا

يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٤٤)﴾ (يس) .

فواضح من الآيات أن حقيقة الأمر غير ما نرى ، فليست الفلك هي التي تحملنا رغم رؤيتنا لذلك ، وليس الريح هو الذي يسيرنا ، وليست نجاتنا من الغرق لأن البحر هادئ والريح طيبة ، بل إن الأمر غير ذلك ، فالحقيقة التي لا نراها أن لله الأمر من قبل ومن بعد وله تعالى تدبير في البحر لا نراه ولكننا نرى أثره ، فهو تعالى ﴿حَمَلْنَا﴾ ﴿وَخَلَقْنَا﴾ و ﴿نُغْرِقْهُمْ﴾ ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ . فالأمر من قبل ومن بعد لله .

فآيات السماء التي ذكرها لنا تعالى للشمس والقمر والليل والنهار هي التدابير التي لا نراها بأعيننا وإن كنا نرى أثرها . وما نراه هو ما قاله عنهم تعالى أنهم جميعا يدورون حول الأرض . يقول تعالى ذاكرا الجري لمخلوقاته الأربع (الشمس والقمر والليل والنهار) في أربع آيات لا غير في القرآن الكريم :

(١) ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ .

(٢) ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (فاطر:١٣)

(٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (لقمان:٢٩)

(٤) ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ (الزمر:٥) .

فهذه الآيات الأربع هي التي قال فيها تعالى ﴿كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وفيها الشمس والقمر والليل والنهار . وفي الآيات أيضا خلق السموات والأرض ، وفي الآيات ولوج الليل في النهار والنهار في الليل ، وفي الآيات تكوير الليل على النهار والنهار على الليل ، وما من شك أن هذا الولوج وهذا التكوير حول الأرض وليس حول المجرة ، وهذا الجري في الآيات الأربع أجله المسمى هو يوم القيامة ومكان الجري هو حول الأرض .

ولا ذكر للمجرة هنا على الإطلاق بل لا ذكر للمجرة في القرآن الكريم ابدا .

ما هو المستقر ؟

يقول تعالى : ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ما دمنا قد اتفقنا على أن الشمس تجرى ، فنحن بحاجة أن نقف على معنى (المستقر) الذي تجرى الشمس إليه ، فهو الفيصل بين ما نقوله نحن من أن الشمس تجري حول الأرض ، وبين ما يقوله كل سكان الكرة الأرضية الآن أنها تجرى لتدور حول المجرة .

نريد أيضا أن نتفق أولا أن المستقر ليس هو النهاية ، وهذه الآية كما قلنا تتحدث عن نعم الله تعالى على الإنسان في الأرض والسماء ، في البر والبحر . فمن قال أن المستقر هو مصير الشمس يوم القيامة فقد جانبه الصواب .

والمستقر نقيض المفر . لذلك وردت الكلمتان في مناسبة واحدة في سورة (القيامة) :

﴿يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلا لا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢)﴾ .

فالمستقر يعني الاستقرار في مكان معين فترة زمنية معينة ، سواء كان هذا المكان كبيرا أو صغيرا ، وسواء كان الوقت طويلا أم قصيرا وذلك : بقصد وإراده .

هذا التعرف الذي نراه للمستقر مستقٍ من جملة الآيات المذكورة فيها ، ومن المعنى المتعارف عليه في الذهن .

فعناصر المستقر هي : مكان ، وزمان ، وقصد وإراده .

فالمكان : عنصر جوهري للمستقر وبدونه لا يكون المستقر ، ولا يشترط في المكان مساحة فوجود النطفة في الصلب أو الترائب وهي لا ترى بالعين توجد في مستقر . ورحم الأم مستقر للجنين . والقبر مستقر للميت . والأرض مستقر للإنسان . واستراحات الطريق مستقرات للمسافر . والفنادق مستقرات للمغتربين . والبلاد مستقرات للمقيمين . والجنة مستقر للمؤمنين ، والنار مستقر للكافرين .

أما الزمان : فهو ضروري أيضا للمستقر وإن كانت المدة دائما غير مشروطة .

فقد تكون دقائق معدودة كالاستقرار في الاستراحات . وقد تكون ساعات كالاستقرار في الفنادق . وقد تكون أياما كالاستقرار في الصلب ، أو الترائب . وقد تكون شهورا كالاستقرار في الرحم . وقد تكون سنونا كالاستقرار في البلاد . وقد تكون أحقابا كالاستقرار في القبور . وقد تكون خلوداً كالاستقرار في الجنة أو النار .

غير أنه يشترط للاستقرار مدة من الوقت مهما قلت . ومن ثم لا يكون المرور استقرارا وإن تواجد في المستقر مادام على سبيل المرور ..

كذلك القصد والإراده : فهما عنصر أساسي في المستقر فيكون النزول في المكان لوقت معين وبإرادة الاستقرار . فلو خرج المسافر من بلدته متوجها إلى مكان آخر ونوى أن ينزل في طريقه في استراحة معينة لراحته وراحة دابته فهذه الاستراحة مستقر . أما إن خرج لا ينوى التوقف ثم أصابته ضرورة ألجأته للتوقف في مكان حتى لو كان هذا المكان استراحة في الطريق فلا يعتبر هذا مستقرا . ولو بقي في مكان ما في الطريق لمدة ساعات لعطل أو ضر أصاب سيارته أو دابته فلا يعتبر هذا المكان مستقرا . بل يعتبر هذا (ملجأ) .

وعلى هذا المعنى فالشمس تجرى كل يوم للوصول لهذا المستقر الذي هو بمثابة الاستراحة في طريق رحلتها . استراحة في منتصف المدار الدائري الذي تدور فيه حول الأرض . وهو مكان محدد وتقف فيه مدة معينة ، وتبقى فيه بإرادتها وتذهب إليه بقصد وليس اضطرارا . بل إن الآية لتخبر أن الشمس لا تجرى لتدور حول الأرض ، فهذا لا يعنيها ولكنها تجرى شوقا إلى هذا المكان بالتحديد ، حتى إذا ما وصلت إليه تزودت لغدها . وعاودت كرتها . وهذا معنى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ وقبل أن نعرف ماذا تفعل الشمس في مستقرها نذكر ما قاله مؤلفو " المنتخب " حول هذه الآية لتحسر على ما وصل إليه العلم في عصر الإلحاد ، فهم يقولون : في قوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ :

" والشمس تسير لمستقر لها ، قدره الله زمانا ومكانا ، ذلك تدبير الغالب بقدرته المحيط علما بكل شيء " .

وهذا القول ليس تفسيرا لقول الله ، بل هو مخالفة فجة لقوله عز وجل الذي يقول ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾ وهم يفسرون (والشمس تسير) وهذا ليس تلاعباً بالألفاظ وإنما قلباً للحقائق هل معنى تجرى : تسير ؟ هل المرادف لتجرى : تسير ؟ ولو قال ذلك تلميذ في مراحل التعليم الأولى إجابة على سؤال لكانت إجابته خاطئة .

أما في تعليق العلماء على هذه الآية التي شرحوها بهذا الشرح فقد قالوا : " إن هذه الآيات الكريمة تبين معاني وحقائق علمية لم يتعرف عليها العلماء إلا في أوائل القرن الرابع عشر " .

هذة العبارة الأولى لتعليقهم لا تحتمل السكوت للوصول إلى آخر تعليقهم ، فمن الذى قال أن هذا الذى عرضه مؤلفو المنتخب حقائق علمية ؟ إن غاية ما قالة أصحابها أنها (فروض نظرية) وليست أبدأ حقائق علمية . ومن الذى قال أن هذة النظريات ظهرت فى أوائل القرن الرابع العشر ؟ إنهم أنفسهم يناقضون هذا القول في آخر عرضهم لهذا التعليق . المهم أنهم يقولون :

"والشمس هى إحدى نجوم السماء ، وهى كسائر النجوم ، ولها حركتها الذاتية ، ولكنها تتميز عن النجوم الأخرى لقربها من الأرض وبأن لها مجموعه من الكواكب والأقمار والمذنبات والكويكبات تتبعها دائما وتخضع لقوة جاذبيتها حيث تجعلها من حولها فى مدارات متتابعة بيضاوية الشكل ، وجميع أفراد هذة المجموعه تنتقل مع الشمس خلال حركتها الذاتية .

والخلاصة أن الشمس والأرض والقمر وسائر الكواكب والأجرام تجرى فى الفضاء بسرعة محدودة ، وفى اتجاه محدود ، ويلاحظ إن الشمس ومجموعتها والنجوم القريبة منها ، تقع في داخل سديم عظيم ممتد في السماء يسمى بسديم المجرة ، وقد تبين من الدراسات الحديثة أن سائر أجزاء السديم تدور حول المركز بسرعة تتناسب وعكس بعدها عن المركز .

كما اتضح أيضا أن الشمس والأرض وكواكبها والنجوم القريبة منها تدور بسرعة وفي اتجاه محدد . تبلغ هذه السرعة حوالى ٧٠٠ كم في الثانية . وتتم دورتها حول المركز في مدي حوالي ٢٠٠ مليون سنة ضوئية .

وصفوة القول أن الآية الكريمة التي تنص علي أن الشمس تجريلمستقرها لم يتعرف على معانيها العلماء إلافي أفلاك متوازية فيستحيل أن يتقابلا ، كما يستحيل أن يسبق الليل النهار حيث يجري في أفلاك متوازية فيستحيل أن يتقابلا ، كما يستحيل أن يسبق الليل النهار حيث يتطلب ذلك أن تدور الأرض حول محورها من الشرق إلى الغرب بدلا من إتجاهها الحالي من الغرب إلى الشرق .

والقمر خلال دورتة حول الأرض ، ودورة الأرض حول الشمس يمر بمجموعات من النجوم تسمى بمنازل القمر ، وفي الربع الأول والأخير من الشهر يظهر القمر شكله كالعرجون القديم أي يسير كالبساطة إذا قدمت ويبست واعوجت " .

هذا التعليق للجنة القرآن والسنة التي قامت بتأليف تفسير "المنتخب" وهم كما ذكر في مقدمة التفسير "لجان علمية من جهابذة العلماء وفطاحل الباحثين والمفكرين" . لا يحتوى

على جملة واحدة صحيحة شرعا أو علمياً . وما يعنينا في هـــذا المقـام هـو قولهـم : " أن الشـمس والأرض وكواكبها والنجوم القريبة منها تـدور بسـرعة وفي اتجـاه محـدد ، تبلـغ هـذه السـرعة حوالي ٧٠٠ كم / ث وتتم دورتها حول المركز في مدى حوالي ٢٠٠ مليـون سـنة ضوئيـة " .

هل هذا هو تفسير قوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ فـأين المسـتقر هنـا ؟

إن هذا القول لم يقل به الله ولا رسـوله ، ولا المؤمنـون في أزمنـة العلـم والعلمـاء . ولكـن هذا القول هو خبط الكافرين من صنـاع عصـر الإلحـاد وأهـل الذكـر عندنـا علـى درهـم سـاترون .

ماذا تفعل الشمس في مستقرها ؟

للذين لا يعلمون – ولو بحسن نية – كيـف تجـرى الشـمس ، ولا يعرفـون إلى أيـن تتجـه ولا يعرفون ماذا تفعل عندما تصل إلى وجهتها وهدفـها . فلـهؤلاء نقـدم لهـم شـرح رسـول الله ﷺ لكيفية جريان الشمس ، وماذا تفعـل في مسـتقرها . مـع الوضـع في الاعتبـار أن الشـرح لم يقصد به أن يعرفهم أن الشمس تجـرى حـول الأرض لأن ذلـك كـان مـن المعلـوم بـالضرورة والعادة والفطرة ، ولو قال لهم أن الشمس تجرى حـول الأرض فكأنمـا يقـول لهـم : أن الشـمس تشرق صباحاً وتغرب مساءً . إذ لم يكن أحـد يشـك أبـداً أنهـا تـدور حـول الأرض . ولكـن رسول الله ﷺأراد أن يعلمهم المكان المحدد الذي تجـرى الشـمس إليـه ، ويعلمـهم أمـراً محـددا تفعله الشمس في هذا المكان . كمعلومة جديـدة عليـهم .

قال ابن حجر في شرحه لصحيح البخاري : " ذكر البخـاري سـتة أحـاديث في بـاب واحـد الغرض منه بيان سير الشمس في يوم وليلة ، وظـاهره مغـاير لكـلام أهـل الفلـك : أن الشـمس مرصعة في الفلك ، فإنه يقتضي أن الذي يسير هو الفلك . وظاهر الحديـث أنهـا هـي الـتي تسـير وتجرى ومثله قوله تعالى ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي يـدورون .

قال ابن العربي : أنكر قوم سجودها وهو صحيح ممكن ، وتأولـه قـوم علـى مـا هـي عليـه من التسخير الدائم ، ولا مانع أن تخرج عن مجالهـا فتسـجد ثم ترجـع . قلـت (ابـن حجـر) : إن أراد بالخروج .. الوقوف ، فواضح ، وإلا فلا دليل علـى الخـروج " انتـهى .

فالرسول ﷺ في هذه الأحاديث التي رواها البخاري ومسـلم وغيرهمـا يخبرنـا بدقـة وتفصيـل لا يقبل تأويلا بما يلـي :

روى البخاري قال : حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس " تدرى أين تذهب " ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : " فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يؤذن لها . ويقال : ارجعي من حيث جئت ، فتطلع من مغربها . فذلك قوله . ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ .

هذه رواية البخاري وكتاب البخاري أصح كتاب عند المسلمين بعد القرآن وقد روى الحديث مسلم وأحمد والترمذي والنسائي وغيرهم .

يقول ابن كثير رحمه الله : " وهذا لا يدل على أنها تصعد إلى فوق السموات من جهتنا حتى تسجد تحت العرش " . فابن كثير ينبه على أن الشمس لا تترك مدارها حول الأرض الذي تدور فيه ، فهي لا تتجه نحو المجرة ، ولا السموات ولا شيء من ذلك . ثم يضيف ابن كثير : " بل هي تغرب عن أعيننا وهي مستمرة في فلكها الذي هو فيه ، وهو الرابع فيما قاله غير واحد من علماء التفسير ، وليس في الشرع ما ينافيه ، بل في الحس ما يدل عليه ويقتضيه وهو الكسوفات " .

يؤيد ابن كثير أن الشمس في الفلك الرابع كما يقول كثير من المفسرين ، وكما يؤكده الحس من كسوفات الأجرام السماوية (القمر والزهرة وعطارد) مع الشمس ويقول بأن الشرع ليس فيه ما ينافي ذلك . وهو حرص ابن كثير رحمه الله كغيره من السلف ، والخوف من إثبات أو نفي ما لم يقل به الله . ثم يقول :

" فإذا ذهبت الشمس حتى تتوسط فلكها وهو منتصف الليل مثلا في اعتدال الزمان بحيث تكون بين القطبين . فإنها تكون أبعد ما يكون عن العرش وقت الزوال من جهتنا " .

ومعنى كلام ابن كثير أن الشمس عندما تذهب في غروبها تجرى حتى إذا كانت في منتصف فلكها تماماً ، وكانت بذلك فوق خط الاستواء (وقت اعتدال الزمان) متقاطعا مع الخط الواصل بين القطبين حيث يكون الوقت في مكة آنذاك منتصف الليل وتكون بذلك في أقرب نقطة إلى العرش ، لأنها عندما تكون من جهة مكة وقت الزوال " الظهيرة " تكون في أبعد نقطة من العرش . ثم يقول ابن كثير :

" فإذا كانت ني محل سجودها (المستقر) استأذنت الرب جل جلاله في طلوعها من الشرق فيؤذن لها فتبدو من جهة الشرق وهي مع ذلك كارهة لعصاة بنى آدم أن تطلع عليهم ، ولهذا قال أمية :

تأبى أن تبدو لنا في رسلها   إلا معذبة وإلا تجلد

فإذا كان الوقت الذي يريد الله طلوعها من جهة مغربها تسجد على عادتها وتستأذن في الطلوع من عادتها فلا يؤذن لها . فجاء أنها تسجد أيضا ثم تستأذن فلا يؤذن ثم تسجد على عادتها وتستأن في الطلوع من عادتها ، فلا يؤذن لها وتطول تلك الليلة ، فتقول الشمس :

يا رب إن الفجر قد اقترب ، وإن المدى بعيد فيقال لها أرجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها . فإذا رآها الناس آمنوا جميعاً وذلك حينما لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً وفسروا بذلك قوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قيل : موضعها الذي تسجد فيه تحت العرش " انتهى كلام ابن كثير .

ليس ما ذكرناه عن سجود الشمس في مستقرها سراً من الإسرار ، ولا علماً مقصوراً على أهل الذكر بل كان الأمر معروفاً لكل المسلمين حتى بداية القرن العشرين ثم توقف الحديث عن الكلام في سجود الشمس وامتنعت الكتب المؤلفة بعد ذلك من ذكر هذا الأمر ، وأحجم الخطباء عن ذكر ذلك في خطبهم ، وأمسك العلماء عن الخوض فيه في أحاديثهم ، وأصبح هذا العلم محبوسا في كتب التراث ومكتوما في صدور العلماء والخطباء والفقهاء والوعاظ والدعاة . وكأن الأمر قد نسخ أو أن الشمس قد كفت عن السجود منذ بداية هذا القرن . ومن سمع ولو مرة واحدة من عالم حديثا عن سجود الشمس ، أو قرأ ذلك في كتاب أو مجلة أو جريدة أو سمع في الإذاعة أو التليفزيون فليقل لنا .

يقيني دون أن أقسم أن ذلك لا يحدث ولن يحدث أبداً إلا إذا تحرر علماء المسلمين من التبعية لعلماء الغرب .

سجود الشمس في الحضارة القديمة

أنكر المؤمنون بالله الآن سجود الشمس بدعوى أنها لا تعقل ، وفي نفس الوقت نسبوا لها القدرة على التحكم في كل الكواكب التي حولها . وأنها تشدها إليها جميعا وتجرى بهم جميعا حول المجرة ولا يستطيع كوكب أن ينفلت من جاذبية الشمس . حتى الأرض التي سخر لها كل شيء تتحكم فيها الشمس وتوجهها حيث أرادت إن هذا الكلام الذي لا يمت بصلة للإيمان يقول به المؤمنون بالله الآن . وفي نفس الوقت يستعظمون أن تسجد الشمس لله ولا خيار للمؤمنين في أن يتولوا ويعتقدوا هذا لأن الغرب قالوا ذلك .

هكذا وصل الحال بمؤمني الأرض في سنة ٢٠٠٠ ميلادية ، أما النصوص التي بين أيدينا وعمرها ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد فتوضح لنا أن قدماء المصريين كانوا يعتقدون بدوران

الشمس حول الأرض كل يوم ، ويقولون بسجود الشمس في مستقرها تماما كما ذكر الحديث وكما شرح ابن كثير .

ففي كتاب " معجم الحضارة المصرية القديمة " تأليف نخبة من علماء الغرب . ذكروا اعتقاد المصريين القدماء صـ ٢٠٧ وأن الشمس كانت تطلع من المحيط الأعظم (المحيط الهادي) في الصباح وتعود إليه ثانية في المساء من عند حده الغربي . وتذهب إلى العالم السفلي . وأنهم كانوا يعتقدون أن العالم السفلي نسخة مقلوبة من الدنيا التي نحن نراها ، حيث رقعة متسعة من الماء تقابلها سماء مثل التي فوقنا ، وهو التصور السليم للكرة الأرضية .

هذا الماء هو المحيط الهادي الذي تذهب إليه الشمس " فتستعيد الشمس قواها بعد أن تموت في المساء " . إنه نفس التصور الإسلامي للشمس التي تذهب لمستقرها فتسجد وتستأذن لتستعيد دورها بدوران جديد . ولم أجد وصفا لسجود الشمس الذي قال به القرآن والسنة والذي ينكره المسلمون الآن أدق من هذا الوصف الفرعوني البديع .

المجاز في القرآن

ليس في القرآن آيات ولا في السنة أحاديث يستحي العلماء ويتحرجون من ذكرها سوى آيات وأحاديث السجود للشمس هذه التي نتحدث عنها .

نسخ علماؤنا هذه الآيات والأحاديث ، احتراما لما توصل إليه التجريبيون من علوم ومعارف تتعارض تماما مع هذه الآيات والأحاديث . وحتى لا يكون الإسلام متخلفا عن ركب الحضارة والتقدم فقد كتم علماؤنا هذا العلم ، تماما كما فعلوا مع آيات وأحاديث بُعد السماء عن الأرض ، والاستواء على العرش وكلها آيات صريحة وأحاديث صحيحة ، ولكنهم يخجلون من ذكرها لجماهير الناس ، لأنها لا تتناسب مع عصر " الإنترنت " . ولأنهم إذا ذكروا هذا العلم فإنه سيتناقض ولا شك مع قولهم الذي يقولونه بأن الشمس هي مركز الكون ، أو على حسب آخر إشعار من رؤوسهم في الغرب أنها مركز عالمنا نحن أي المجموعة الشمسية .

ولكن علماءنا قد يتعرضون لأسئلة من عوام الناس عن هذه الأمور التي يكتمونها فعندئذ يلجئون إلى ما يسمى بالمجاز . أو قد تعترض مفسرو القرآن لهذا العصر آيات كهذه فيلجئون إلى الدوران بعيدا عن المعنى الصحيح .

فهاهو " سيد قطب " رحمه الله وهو من أقل المفسرين تأثرا بعصر الإلحاد يقول في قوله تعالى . ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ . قال : " والشمس تدور حول نفسها ولكن عرف أخيرا أنها ليست مستقرة في مكانها ، إنما هي تجرى .. تجرى فعلا . تجرى في اتجاه واحد في الفضاء الكوني الهائل بسرعة حسبها الفلكيون باثني عشر ميلا في الثانية ! والله ربها الخبير بها وبجرياها وبمصيرها يقول : أنها تجرى لمستقر لها . هذا المستقر الذي ستنتهي إليه لا يعلمه إلا سبحانه " .

إن آية المستقر التي نحن بصددها لم تتحدث عن سجود الشمس صراحةً ولكن بين رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري وغيره أنها تذهب لتسجد في مستقرها ثم تعود للشروق ثم تغرب فتذهب لتسجد وتستأذن ثم تعود للشروق .. وهكذا . ولا أظن أن الشيخ سيد قطب قد خفيت عليه هذه الأحاديث التي ذكرها جميع المفسرين دون استثناء مفسرو قبل عصر الإلحاد .

لقد ذكرت سجود الشمس صراحة آية أخرى هي الآية رقم (١٨) من سورة الحج : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ .

لقد ذكرت تفاسير ما قبل عصر الإلحاد أن الشمس كغيرها من الأجرام السماوية وكذلك الكائنات الأرضية تسجد لله عز وجل . كما نسجد نحن لكن ليس بنفس الصورة .

أما تفاسير ما بعد عصر النهضة فيختلف الأمر فيها . فمثلا يقول تفسير المنتخب : " ألم تعلم أيها العاقل أن الله يخضع لتصريفه من في السموات ومن الأرض والشمس والقمر والنجوم الجبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس يؤمن بالله ويخضع لتعاليمه فاستحقوا بذلك الجنة ، وكثير منهم لم يؤمن به ولم ينفذ تعاليمه فاستحقوا بذلك العذاب والإهانة ... " .

هذا تفسير لما بعد عصر الإلحاد ، والتفاسير التي تسبق هذا العصر ، بعضها أيضا استعظم أن تسجد لله فقالوا بسجود الملائكة الموكلة بها ، أو سجودها باستجابتها لأمر ربها كما ذكر " المنتخب " . وقد قالت بذلك قلة لا تذكر من علماء السلف ، أنكر عليهم الجمهور ذلك القول وهذا المسلك باعتقادهم أن القرآن فيه مجاز .

كان نفر قليل من المسلمين لا يذكر ، يقولون بأن القرآن يستخدم المجاز أما المفسرون الآن فجميعهم دون استثناء يعتقدون أن القرآن يستخدم المجاز ومن ثم ينكرون سجود الشمس وينكرون على من قال عنه الله أنه يتكلم . فينكرون أن تقول السموات والأرض ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ . أو تقول النار ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ . أو أن يشهد على الكافرين ﴿سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أو ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ .

ولا يقتنعون بأن الجبال تأوب وتسبح وكذلك الطير ، أو أن جهنم تغتاظ وتزفر أو أن الجمادات تسجد . قائلين بأن كل ذلك لا يحدث لأن هذه الكائنات من الجمادات والحيوانات والنباتات أو الكائنات الغيبية لا تعقل ولا تدرك ومن ثم فإنما يحدث ذلك منهم على سبيل المجاز والتأويل . وفرقوا بين الحقيقة والمجاز .

فالحقيقة ما يفيد اللفظ المطلق أو هو المعنى الذي يسبق إلى الذهن عند الإطلاق . أما المجاز فما لا يفيد إلا مع التقييد . والقول بذلك في القرآن هو تكذيب لله عز وجل . وقد رأينا كيف أن الله تعالى يقول أن من في السموات والأرض والشمس والقمر وغيرهما يسجد لله كما في الآية (١٨) من سورة الحج ، ويقول مفسرو المنتخب أنها لا تسجد وإنما تخضع له . كذلك يقولون عن تسبيح الرعد الذي ذكره تعالى في سورة الرعد الآية (١٣) من قوله : ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ فقالوا : " وأن الرعد خاضع لله تعالى خضوعا مطلقا حتى أن صوته الذي تسمعون كأنه تسبيح له سبحانه بالحمد على تكوينه دلالة على خضوعه " .

فالله تعالى يقول أن الرعد يسبح وهم يقولون : كأنه يسبح . أليس ذلك تكذيب لله تعالى ؟ولا حول ولا قوة إلا بالله .

إن تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز لم يظهر إلا في المائة الثالثة ، وانتشر في المائة الرابعة على يد المعتزلة و نحوهم من المتكلمين . ولم يقل به قبلهم أحد من الأئمة المشهورين في العلم ولا تكلم به أحد من أئمة اللغة والنحو الأوائل .

قال ابن القيم في كتاب " الصواعق المرسلة " : أنهم قد اختلفوا في جواز المجاز في اللغة بين مانع ومجيز ، إلا أن من يجيزه في اللغة يمنعه في القرآن .

وقد أدى القول بالمجاز إلى نفي كثير من النصوص الشرعية . وصرف المعنى الحقيقي لظواهرها إلى معان مغايرة دون وجود قرائن توجب القول بتلك المعاني لذا أنكر أهل السنة وجوده في الشرع أصلا وأجمعوا على بطلان القول به .

وذكر " الشنقيطي " في كتاب " منع جواز المجاز " أن القول بالمجاز يفضي إلى نفي بعض القرآن وأنه كان ذريعة إلى نفي كثير من الصفات الثابتة لله تعالى في القرآن - كاليد والاستواء والنزول ، فنفوا مثل هذه الصفات الثابتة بالوحي عن طريق القول بالمجاز .

ومن جملة ما ادعاه القائلين بالمجاز في القرآن لفظ الكيد والمكر والاستهزاء والسخرية المضاف إلى الله تعالى ، وزعموا أنه مسمى باسم ما يقابله عن طريق المجاز .

وقد رد على القائلة بالمجاز ابن تيمية رحمه الله إذ قال : " وليس كذلك ، بل مسميات هذه الأسماء إذا فعلت بمن لا يستحق هذه العقوبة كانت ظلما له ، وأما إذا فعلت بمن فعلها بالجنة عليه عقوبة له بمثل فعله كانت عدلا كما قال تعالى :

﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ فكاد له كما كادت اخوته ، لما قال له أبوه ﴿يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ (يوسف:٥) وقال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ (الطارق) . وقوله ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾وقال ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة:٧٩) . و لهذا كان الاستهزاء بهم فعلا يستحق هذا الاسم " أ . هـ

ومن الأمثلة التي يستدل بها القائلون بالمجاز في القرآن قوله تعالى﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ (يوسف:٨٢) . فقالوا : إن المراد به أهلها ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وكذلك المجاز في قوله ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ ورد ابن تيمية على المثال الأول بأن لفظ القرية والمدينة والنهر وأمثال هذه أحيانا يعود على الحال والمحل ، كلاهما داخل في الاسم ، وهو أحيانا يعود على الحال وهو السكان ، وأحيانا يدور على المحل وهو المكان ، ففي قوله تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ أراد الحال وهم السكان . وفي قوله ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ أراد المحل وهو المكان لا السكان ، وذلك من غير إضمار ولا حذف . كما أن لفظ الإرادة قد استعمل للجماد . وهو مشهور في اللغة " .

وقال محمد أمين الشنقيطي على مثال الجدار بأنه لا مانع من حمله على حقيقة الإرادة المعروفة في اللغة لأن الله يعلم للجمادات ما لا نعلمه لها كما قال تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ . وقد ثبت في صحيح البخاري حنين الجذع الذي كان يخطب عليه ﷺ . وثبت في مسلم أنه قال : " إني لأعرف حجراً كان يسلم علىّ في مكة " . وأمثال هذا كثيرة جداً . فلا مانع من أن يعلم الله من ذلك الجدار إرادة الانقضاض .

وبهذا المجاز نفي علماء هذا العصر السجود عن الشمس . وهم بالتالي ينفون آيات السجود .

ولا يجب أن يكون سجود الشمس وغيرها من الكائنات التي تسجد ، كسجود الإنسان على سبعة أعضاء ، ووضع الجبهة على الأرض . فهذا سجود مخصوص بالإنسان ، بل إن من الأمم من يعتبر ركوعهم هو السجود كما قال تعالى : ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ والمقصود الدخول في هيئة الركوع فهذا سجودهم . وكما يقول ابن تيمية رحمه الله : السجود اسم جنس ، ولكن لما شاع سجود الآدميين المسلمين ، صار كثير من الناس يظن أن هذا سجود كل أحد .

فالشمس تسجد سجودا حقيقيا وليس مجازاً ، وتسجد كل يوم بعد غروبها وقبل شروقها ، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ ، وهذا يقتضي بالطبع أنها تدور حول الأرض إذ كيف تسجد بعد غروبها وتستأذن للشروق مرة أخرى كل يوم ما لم يكن دورانها هي حول الأرض .

السباق الأبدي

لازلنا في رحاب آيات سورة يس ونحن الآن مع هذه الآية :

﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ .

نفهم من هذه الآية أن سباقا أبديا منذ بداية الخليقة إلى أن تنتهي بين هذين النيرين الشمس والقمر . وأن علاقة حميمة كائنة بينهما .

كذلك نعلم من الآية أن الشمس لا تدرك القمر أبداً ، وليس هذا عجز منها ، بل إنه أدب في هذا التسابق ، أن يكون هو دائما أمامها . نفهم ذلك من قوله تعالى ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ أي لا يجوز للشمس ولا يجب أن تلحق القمر ، فهي من ثم متأدبة بأدب الله ، طائعة لأمر سيدها .

كما نفهم من مبدأ السـباق أن كلاهمـا يجـرى في مـدارٍ مـوازٍ لمـدار الآخـر ، وإلا فمـن المستحيل عقلا أن يكون لكل منهما وجهة وهما في نفـس الوقـت في تسـابق ، لا يجـوز عقـلا أن تكون الشمس متجهة في جريها إلى الدوران حـول مركـز المجـرة ، بينمـا القمـر يـدور حـول الأرض .

ونفس الفهم أيضا من كلمة الإدراك فلا يقبـل عقـلاً أن الله عـز وجـل يخاطبنـا علـى هـذا السباق ويؤكد لنا أن الشمس لا تلحق بالقمر أبداً وذلك لأن لكـل منـهم وجهـة هـو موليـها . بل إن الشمس والقمر يجريان في مسارين متوازيـين . وهـذا مـا لا يفـهم غـيره . لذلـك فـإن تفسير المنتخب لم يستطع الهروب من الاعتراف بمـوازاة المسـارين حـول الأرض . فقـالوا تعليقـاً على هذه الآية " ولا يمكن أن تدرك الشمس القمـر ، لأن كـل منـهما يجـرى في أفـلاك متوازيـة فيستحيل أن يتقابلا وتستحيل أن يسـبق الليـل النـهار " . إنهـم يقـرون بـأن أفـلاك الشـمس والقمر متوازية وهذا الذي يقولوه يتناقض تماما مـع قولهـم بـأن الشـمس تجـرى حـول المجـرة ، والقمر يجرى حول الأرض . فكيف تكون أفلاكهما متوازيـة ؟ أن هـذا التـناقض والتخبـط ليـس من آيات القرآن ، وإنما هو من الفهم الخاطئ لآياتـه ولكـي نعـرف لمـاذا لا ينبغـي للشـمس أن تدرك القمر ، فإننا يجب أن نعـرف معـنى إدراك ولكـي نعـرف معـنى الإدراك فنحـن في حاجـة لمعرفة ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ مـا معناهـا .

هذا الجزء من الآية ورد مرتين في القـرآن كلـه هـذه المرة في سـورة يـس : والأخـرى في سورة الأنبياء الآية (٣٣) . في قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّـذِي خَلَـقَ اللَّيْـلَ وَالنَّـهَارَ وَالشَّـمْسَ وَالْقَمَـرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْـبَحُونَ﴾ .

ففي هاتين الآيتين اجتمعت هذه المخلوقات الأربع الليـل والنـهار والشـمس والقمـر ، وقـال تعالى ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ . والفلك هو مدار دائـري حـول الأرض والفلكـة أيضـا تطلـق على فلكة المغزل . وهي بكرة تدور حـول قطـب ثـابت . والسـباحة هـي الحركـة في سـهول ويسر دون عائق ، وهي نفس ما تقوم به الكائنات في الماء . وبين الفَلَـك والفُلْـك تشـابه .

وردت كلمة الفَلَك مرتين اثنتين وذكـر في كلتاهمـا الليـل والنـهار والشـمس والقمـر أمـا الفُلك فقد ذكرت في القران ٧ مرات وذلك لتتناسب مع الـ ﴿سَبْعَةُ أَبْحُـرٍ﴾ الـتي وردت في القرآن والتي هي بـالفعل في الأرض .

والفُلك والفَلك كلاهما لا يسير على الأرض بل الأول في الماء والثاني في السماء ، وكلاهما يحيط بالأرض . وكلاهما يتحرك بقدرة الله وأمره . وكلاهما محمول بقدرة الله وتتحرك بعيد عن اليابسة . والحركة في الأرض اليابسة تسمى سياحة - بالياء - بينما الحركة في الماء أو في السماء فتسمى سباحة . وكما أن الماء مستدير حول الأرض فكذلك فلك السماء مستدير حول الأرض . والسباحة وإن كانت تعني السير بسهولة ويسر ، فهي بمعنى أدق تعني العوم إذ السير يحتاج إلى أقدام . أما السباحة فلا تحتاج إلى ذلك . لذلك كانت حركة الملائكة في نزولها من السماء إلى الأرض والعودة تسمى سباحة يقول تعالى ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ . فالليل والنهار والشمس والقمر يسبحون في أفلاك حول الأرض .

والشمس لا تدرك القمر ، ولكن لا يعني ذلك أن القمر دائما متقدم عليها . ولكن الإدراك هنا له معنى . فالشمس والقمر يدوران حول الأرض سباحة ، وإنه وإن كانت طريقة الجري أو الحركة واحدة وهي السباحة إلا أن القمر فلكه أصغر وأضيق في محيطه من فلك الشمس ، إذ أن القمر فلكه الأول والشمس فكلها الرابع ومحيط الرابع أكبر وأطول من محيط الأول . لذلك نجد القمر يدور في فلكه ، وينزل جميع منازله ، ويقطع أبراج السماء الإثنى عشر في شهر. أما الشمس فإنها تفعل نفس الأشياء في سنة لطول مدارها .

فالقمر مداره أصغر من مدار الشمس ، فدائما ما يسبق القمر إلى إنهاء دورته إلى دورة جديدة وهذا المعنى هو المفهوم من القرآن . يقول تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ أي لحقه ووصل إليه ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾ نفس المعنى أيضا . وكذلك ﴿لا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى﴾ وقوله ﴿فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ .

وعلى هذا فلن تلحق الشمس القمر في أن تقطع ما قطع من دورته ، حتى ولو حاذته في السير ، أو حتى تخطته فهي في الحقيقة لم تدركه ، لأن القمر يكون عند ذلك قد سبق الشمس ودار بالأرض أكثر من دورات الشمس ، ورغم أن الشمس آية النهار والقمر آية الليل ، ورغم أن القمر يسبق الشمس دائما ألا أن الليل لا يمكن أن يسبق . وهي قدرة الله البالغة في أن جعل آيتي الليل والنهار مستقلتين عن آيتي الشمس والقمر .

وما حال الشمس والقمر في هذا السباق ألا كحال متسابقين في الجري حول ملعب كرة قدم أحدهما يدور حول الملعب في أقرب (حارة) إليه ، أي هو المجاور لدائرة الملعب . والآخر يجري في أبعد (حارة) وهما يدوران في هذا الوضع عدة ساعات فإن المتسابق الذي يجري في

الحارة الأولى يدور حول الملعب أكثر من مرة بينما المتسابق الأخر لم يتمكن من الدوران إلا مرة أو مرتين ، وهو قد يحاذي المتسابق الأول وقد يتخطاه ، ولكنه لن يدركه أبداً وقد يكون أسرع منه لأن دائرة المتسابق الأول أضيق كثيرا من دائرة المتسابق الآخر .

وكذلك الحال مع الطائفين بالبيت الحرام فالذي يدور حول البيت وهو ملاصق له ينهي طوافه سبع مرات بينما الذي يدور من مكان بعيد ربما يكون قد دار دورتين أو ثلاثة أو أقل ، وربما يتجاوز هذا الطائف الأخير الطائف الأول أثناء طوافه ولكنه لا يكون قد أدركه .

ألا يفهم من هذا التسابق أن الشمس تدور حول الأرض ، مثلها مثل القمر . وأهل الفلك يسلمون بدوران القمر حول الأرض ، والقرآن يخبرنا بأنهما في تسابق . إذاً فالأمر واضح ، ولكننا نصحح كمسلمين معلومات أهل الفلك ونقول بأن القمر يدور حول الأرض كل يوم وليس كل شهر ، وكذلك تفعل الشمس .

القمر تابع للشمس

من معلومات أهل الفلك الخاطئة أن القمر تابع للأرض يسير مع الأرض حيثما سارت ويدور حولها حيثما دارت ، والصحيح أن القمر تابع للشمس ، وكلاهما مسخر للأرض .

وكان ينبغي على علماء المسلمين الآن أن يفهموا ذلك ، فكيف يكون القمر تابعا للأرض وربهم قال أن القمر تابع للشمس . في قوله تعالى : ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا (٢)﴾ .

فالله تعالى يقسم بالشمس ونورها المتوهج ، ويقسم بالقمر التابع لها . وهذا هو معنى الآية الواضح .. فالقمر يتلو أي يتبع الشمس وليس يتلو الأرض ولا يتبعها . وليس أيضا معنى الآية أن ضوء القمر يتبع ويخلف ضوء الشمس ، فالآية لا تتحدث أبدا عن ذلك ولم تتحدث عن خلفة الضوء ، كما أن الواقع يخالف هذا ، إذ قد نرى القمر بالنهار والشمس ساطعة ، وقد تغرب الشمس ولا نرى للقمر ضوءا . فالآية لا علاقة لها بنور القمر ، ولكن بجرم القمر ذاته .

كيف يتلو القمر الشمس ؟

ليست تلاوة القمر للشمس كما فهم البعض تلاوة نور هذا لنور هذه ، وليست التلاوة أيضا أن يطلع القمر بعد غروب الشمس فهو يطلع ويظهر قبل غروب الشمس ولكن التلاوة

هنا معناها الاتباع . وهو المعنى اللغوي والشرعي للكلمة . فالأمر بين الاثنين أمر تبعية ، وهو تماما كتبعية علماء المسلمين لعلماء الغرب سواء بسواء ، أو بالأصح شبرا بشبر وذراعا بذراع .

فالقمر كذلك متبعا للشمس ومتتبعا لدورانها ، وهو يدور بين يديها ، أو خلفها ، وهو يستمد نوره منها ، وهو بدون الشمس لا يعتبر قمرا . ولكي يكون قمرا ذو أهلة فلابد من دورانه حول الأرض متبعا الشمس ، حتى لو سبقها ، كالطفل يتبع أمه سواء سار خلفها أو أمامها ، فعينه منها ووجهته وجهتها ، وإلا ضل عنها وضاع . فكذلك القمر يتحرك ذهاباً وإياباً ، سبقا وتأخراً ، ولكنه بين يديها لا يضل عنها ولا يتركها تغيب عنه وإلا يخسف ، وهذا بخلاف الشمس التي لا يتأثر وجودها بوجود القمر فهي موجودة وظاهرة في أوقات طلوعها سواء كان القمر أو لم يكن . لذلك لابد للقمر أن يتبع الشمس حتى لو سبقها ، وهذا الأمر يتصور حال دوران القمر حول الأرض في فلكه القريب من الأرض وهو الفلك الأول ، أما الشمس فهي بعيدة عن الأرض وهي في الفلك الرابع .

لذلك نقول بأن القمر تابع للشمس وليس تابع للأرض . فقد اقترن ذكر القمر بذكر الشمس ١٥ مرة ودائما ما يكون القمر بعد الشمس ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ ولا توجد آية واحدة تقول (القمر والشمس) ولا توجد آية واحدة اقترن فيها ذكر القمر بذكر الأرض . فلم نقرأ مرة واحدة (الأرض والقمر) .

فالأرض إذاً ثابتة ، والشمس تدور حولها ، والقمر يدور أيضا تابعا للشمس .

الأرض ليست تابعة للشمس

الأرض التي خلقها الله ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ بينما كان للسموات السبع يومان ، أصبحت في القرن العشرين أقل من ذرة في هذا الفضاء ، وهي لا تتميز عن غيرها من ملايين الأجرام السماوية أو بلايينها ، وأنها مجرد فرد من أفراد المجموعة الشمسية التسعة ، لا هي أكبرهم ولا أصغرهم ، ولا أبعدهم ولا أقربهم ، وأن الشمس تفضل عليها بمليون مرة ، وأنها تتبع الشمس حيث ذهبت ولا تنفك من أسرها كأنها هي المسخرة لها . هذه عقيدة المقدسين للشمس الآن . ولا تختلف كثيرا عن عقيدة عباد الشمس في أي مكان وأي زمان .

وهذه هي نفسها عقيدة المؤمنين بالله ورسوله وكتابه في الشمس ، وهم يعلمون علم اليقين أن هذه العقيدة في الشمس مخالفة ومناقضة تماما للعقيدة الصحيحة . ولكنهم مطمئنين لهذه العقيدة الوسطية بين تقديس الشمس وإسباغها بما ليس لها ، وبين عبادة الله تعالى ، وهي عقيدة لو ماتوا عليها سيكون موقفهم على الصراط يوم القيامة في غاية الصعوبة . وموقفهم أمام الله محرجا للغاية وهم يرون الشمس التي أسبغوا عليها صفات الألوهية مكورة ، وملقى بها في النار .

الأرض التي خلقها الله في أربعة أيام من أيام الخلق الستة ليست تابعة للشمس التي خلقت في لمح البصر بكلمة ﴿كُنْ﴾ . ولم تشرف كالأرض بالخلق المباشر ، ولكن كما قال تعالى ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾ (فصلت:١٢) . وليست الأرض فردا من أفراد المجموعة الشمسية ، لأنه ليس هناك مجموعة شمسية ، بل هناك مجموعة سماوية إن جاز التعبير والشمس فردا متميزا فيها مع الكواكب والنجوم ، وكلها مسخرات بأمر الله للأرض . وكلها زينة بأمر الله للسماء . ومن اعتقد في غير ذلك فعقيدته باطلة .

الظل دليل دوران الشمس

نعمة من أكبر النعم على المخلوقات ، وآية من أكبر الآيات ، ودليل على حركة الشمس اليومية حول الأرض من أكبر الدلالات .

فلأنها نعمة فهي ستكون من نعم الجنة التي عدها وأعدها الله للمؤمنين ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ (النساء:٥٧) .

وهو آية من أكبر آيات الله ، لأن الله تعالى ذكره من آياته الكبرى التي عددها في سورة الفرقان وعد منها هذه الآية . ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ فقد ذكر تعالى في سورة الفرقان (٧) آيات من آيات الخلق بدأها بالظل ثم الليل ثم النهار ثم الرياح ثم الماء ثم مرج البحرين وذكر قبل كل آية منها أنه تعالى الذي جعلها . وكونها بقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾ . ولكنه خص آية الظل بذكره ذاته تعالى .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ

صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُورًا (٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلا تُطِعْ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا(٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنْ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ .

يقول الشوكاني تفسيرا لآية الظل : " لما فرغ سبحانه من ذكر جهالة الجاهلين وضلالهم ، أتبعه بذكر طرف من دلائل التوحيد مع ما فيها من عظيم الإنعام ، فأولها الاستدلال بأحوال الظل فقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ وهذه الرؤية إما بصرية ، والمراد بها ألم تبصر إلى صنع ربك ، أو ألم تبصر إلى كيف مده ربك ، وإما قلبية بمعنى العلم ، فإن الظل متغير ، وكل متغير حادث ، ولكل حادث موجد ، والتقدير : ألم تر إلى الظل كيف مده ربك يعنى الظل من وقت الإسفار إلى طلوع الشمس وهو ظل لا شمس معه ، وهو من غيبوبة الشمس إلى طلوعها .

قال أبو عبيدة : الظل بالغداة ، والفيء بالعشي . لأنه يرجع بعد زوال الشمس ، سمى فيئا لأنه فاء من المشرق إلى جانب المغرب .

وقال ابن السكيت : الظل ما نسخته الشمس . والفيء ما نسخ الشمس وحقيقة الظل أنه أمر متوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة . وهذا التوسط هو أعدل الطرفين . لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس . والضوء الكامل لقوته ينبهر الحس البصري ويؤذى بالتسخين ، ولذلك وصفت الجنة به . بقوله ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ .

وقوله ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي لو شاء الله سكونه لجعله ساكنا ثابتا دائماً مستقراً لا تنسخه الشمس . أو لو شاء لمنع الشمس الطلوع .

وقوله ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا﴾ أي جعلناها علامة يستدل بها بأحوالها الظل وذلك لأن الظل يتبعها كما يتبع الدليل في الطريق من جهة أنه يزيد بها وينقص ويمتد ويتقلص .

وقوله ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ﴾ أي قبضنا ذلك الظل الممدود ومحوناه عند إيقاع شعاع الشمس موقعه بالتدريج حتى انتهي ذلك الإظلال إلى العدم والاضمحلال .

وقيل المراد في الآية أن الظل يبقى في الأرض من طلوع الفجر إلى شروق الشمس .

فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضاً مقبوضاً وخلفه فى هذا الجو شعاع الشمس فأشرقت على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها . فإذا غربت فليس هناك ظل .

وقوله ﴿قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا﴾ ومعنى إلينا : أن رجوع الظل إليه ، كما أن حدوثه منه .

وقوله ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ : أي على تدريج قليل ، قليل ، بقدر ارتفاع الشمس ، وقيل أيضا سريعا " انتهى كلام الشوكاني .

وقال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية : " شرع سبحانه وتعالى في بيانه الأدلة الدالة على وجوده وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة ، فقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ .

قال بن عباس ومجاهد : هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي دائما لا يزول . وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي الظل ، وقيل الشمس . و﴿يَسِيرًا﴾ أي سهلا ، قال ابن عباس : سريعا .

قال مجاهد : خفيا حتى لا يبقى في الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة .

وقوله ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ أي لولا أن الشمس تطلع عليه لما عرف .

وقال قتادة : دليلا : تتلوه وتتبعه ، حتى تأتي عليه كله " أ . هـ .

هذا ما فهمه السلف للآية ، فالظل هنا ليس مجرد ما يستره الحائط والشجرة من شعاع الشمس وهي موجودة ، بل هو الوقت الذي ذهب فيه الليل بظلامه ولم تشرق فيه الشمس بعد .

وحتى يعلم السادة العلماء القائلين بأن الأرض هي التي تدور لتحدث ذلك الظل يقول تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا﴾ فليست الأرض إذاً هي الدليل ، بل الشمس . والدليل هنا لا يمكن أن يكون ثابتا ، وإلا لم يكن دليلا . أليس كذلك ؟

هل يجوز لغة ، أو شرعاً ، أو عرفا أن يكون الدليل ثابت ؟ لا يمكن .

ولو كانت الأرض هي التي تدور لكانت الآية (ثم جعلنا الشمس عليه علامة) . ولكن أن تكون دليلاً فلابد وأن تكون متحركة حول الأرض .

ولكي تطمئن قلوبكم أسوق لكم الدليل من القرآن . على أن الدليل : لابد أن يتحرك ويسوق إلى ما يدل عليه ، هذه سبع آيات لم يذكر غيرها في القرآن كله ورد فيها كلمة دليل بكل مشتقاها :

(١) ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ منسأته﴾ (سبأ:١٤)

(٢) ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾ (طه:١٢٠)

(٣) ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ﴾ (طه:٤٠)

(٤) ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ (القصص)

(٥) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(سبأ:٧)

(٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الصف:١٠)

(٧) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ (الفرقان:٤٥) .

هذه الآيات السبع واضحة الدلالة على أن الدليل لابد أن يتحرك سواء كان : حيوان ﴿دَابَّةُ الأَرْضِ﴾ أو إنسانا ﴿أُخْتُكَ﴾ و ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أو جن ﴿الشَّيْطَانُ﴾ أو جماد ﴿الشَّمْسَ﴾ . وليس في أي من هذه الأدلة إلا وهو يتحرك ليدل ، وهذه الآيات السبع ذكرت الدليل من كل مخلوق : جماد أو حيوان ، من الإنس أو الجن ، من المؤمن أو الكافر .

ولكننا نلحظ أمرين هنا :

الأول : لم يذكر النبات من ضمن الأدلة ، وذلك لآن النبات ثابت في الأرض ولا يكون نباتا إلا إذا ثبت في الأرض . ومن ثم فلا يصلح دليلا .

الثاني : الآية السادسة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فالخطاب هنا من الله تعالى ، فكيف يكون دليلا وهو تعالى مستوٍ على عرشه ؟ ولابد للدليل من حركة . والأمر ببساطة شديدة أن الله تعالى وهو مستوٍ على عرشه أرسل رسله ليقوموا بهذا الأمر ويكونوا أدلة للناس إلي ما يريده الله تعالى . وهذا ما تبينه الآية السابقة

على هذه الآية يقول تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠)﴾ .

إذاً فقد كان الدليل للمؤمنين هو رسول الله الذي أرسله بهذه الرسالة ليدل الناس على ما ينجيهم من عذاب الله . فرسله هم الأدلة للناس وهم الذين يتحركون للتبليغ والدلالة .

فكذلك الأمر بالنسبة إلى الشمس التي هي أيضا تتحرك ، بل تجرى . والشمس ليست دليلا عادياً ، بل إنها أقوى دليل مادي ، فبها يضرب المثل على الدليل البين الواضح الذي لا يختلف عليه عاقلان .

أحسب أن أهل الفلك والمنجمين وعلماء المسلمين القائلين بدوران الأرض يكفيهم هذا الدليل الذي هو كالشمس ، لا بل هو ﴿الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ .

إن الظل على الأرض ثابت ثم نشعر بحركته بالشمس ، فالشمس دليل على حركة الظل التي لولاها لكان الظل ثابتا بالفعل . وعندما تتحرك الشمس قادمة سريعا من الشرق فإنها تسوق الظل الذي كان موجودا قبل شروقها أمامها ، ويبقى هذا الظل مساقا مادامت السموات والأرض ، ومادامت الشمس متحركة ، وهي دليل على الظل حتى كأنها تسير في وسطه ، وذلك لأن الظل يكون موجوداً قبل شروق الشمس أي أنه أمامها . ويكون موجودا أيضا بعد غروبها أي خلفها . فالظل أمام الشمس ، والظل خلف الشمس متحرك بحركتها ، وهي لا تصنعه . فالشمس تصنع ضوءا ونورا ، ولكنها دليل على وجوده . ودليل له تحركه كلما تحركت ، كأنها هي في وسطه ، لأنه قبل الشروق أمامها وبعد الغروب خلفها .

فالشمس تدور حول الأرض .

* * * * *

اختلاف الليل و النهار

آية ، ونعمة ، ودليـــل .

من أعظم آيات الله في الكـــون ، الليـــل والنـــهار . هكـــذا خلقـــهما الله . وكمـــا ذ كرنـــا أن الليل والنهار آيتـــان مســـتقلتان عـــن الشـــمس والقمـــر ، وخلـــق مســـتقل عنـــهما ، لا علاقـــة لوجودهما أو عدمهما بالشمس أو القمر . وذكرنـــا أن الله تعـــالى خلقـــهما في المرحلـــة الأولى مـــن مراحل الخلق وربما في اليوم الأول . بينمـــا الشـــمس والقمـــر مخلوقـــان قطعـــاً في اليـــوم الأخـــير ، وربما في الساعات الأخيرة منـــه .

فالليل والنهار هما الظلمة والنور ، المخلوقـــان المســـتقلان اللـــذان ســـيبقيان حـــتى بعـــد فنـــاء الشمس والقمر يوم القيامة . واللذان يعمـــل فيـــهما الملائكـــة الـــتي في الســـموات ، رغـــم عـــدم وجود شمس أو قمر في السموات ﴿يُسَـــبِّحُونَ اللَّيْـــلَ وَالنَّـــهَارَ لا يَفْـــتُرُونَ﴾ (الأنبياء:٢٠) واللـــذان يعمل فيهما من في القبور للأمـــوات ، رغـــم عـــدم وجـــود شمـــس أو قمـــر في الأرض الســـفلي : ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُـــومُ السَّـــاعَةُ أَدْخِلُـــوا آلَ فِرْعَـــوْنَ أَشَـــدَّ الْعَـــذَابِ﴾ . واللذان يعمل فيهما النعيم لأهل الجنة ، رغـــم عـــدم و جـــود شمـــس أو قمـــر ، أو حـــتى وجـــود سموات أو أرض : ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْـــرَةً وَعَشِـــيًّا ﴾ (مريم:٦٢) .

وأخبرنا تعالى بأنه خلق الليـــل والنـــهار ، كخلـــق مســـتقل في ســـورة الأنعـــام وفي أول آياتهـــا حيث يقول تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّـــمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَـــلَ الظُّلُمَـــاتِ وَالنُّـــورَ﴾ وقـــد افتتحت التوراة بهذه الآية كما قـــال " وهـــب بـــن منبـــه " أن أول الأنعـــام أول التـــوراة ، وقـــد حدثت التوراة التي بأيدي أهل الكتـــاب الآن أن الظلمـــات والنـــور خلقـــا في اليـــوم الأول بينمـــا الشمس والقمر قد خلقا في المرحلة الأخيرة من مراحـــل الخلـــق .

وقد فصل القرآن كيفية خلق الليل والنـــهار أولا فقـــال تعـــالى في ســـورة النازعـــات ﴿أَأَنْتُـــمْ أَشَدُّ خَلْقًـــا أَمِ السَّـــمَاءُ بَنَاهَـــا (٢٧) رَفَـــعَ سَـــمْكَهَا فَسَـــوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَـــشَ لَيْلَـــهَا وَأَخْـــرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا(٣٠) ﴾ فبين الله تعـــالى أنـــه بمجـــرد فصـــل الســـماء عـــن الأرض ، أظلم الليل وأخرج النهار ، وذكرهمـــا بأشـــد حالاتهمـــا الغطـــش لليـــل وهـــي الظلمـــة الحالكة التي كالعمى . والضحى وهو أضوء أوقـــات النـــهار . وذكـــرت الآيـــات أن الأرض ﴿بَعْـــدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ولم يكن ثم شمس ولا قمـــر ولا غيرهمـــا .

من أجل ذلك بدأ الله بذكر الليل و النهار عندما ذكر خلـق هـذه الآيـات في الآيـة الوحيـدة في كل القرآن التي ذكرت خلقهم فقال عز وجل ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء:٣٣) .

كما أنـه تعـالى خصـهما بـالذكر في كونهمـا آيتـين فقـال ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ (الإسراء:١٢) وقد اجتمعت الآيات الأربعـة (الليـل والنـهار ، والشـمس والقمـر) في عـدة آيات بلغ مجموعها في كل القرآن ٩ آيـات . اجتمعـت فيـها هـذه المخلوقـات الأربـع . وقـد سبق ذكر الليل والنهار في ٧ آيـات :

(١) ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ (فاطر:١٣)

(٢) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (فصلت:٣٧)

(٣) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٣)

(٤) ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ (لقمان :٢٩)

(٥) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ (النحل:١٢)

(٦) ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ (الأعراف:٥٤)

(٧) ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ (الزمر:٥) .

ما أروعها من آيات بينات يمتزج فيها الجمـال بالإعجـاز ، والبيـان والتفصيـل ، عـن الليـل والنهار والشمس والقمر ، وجميعـهم يسـبحون ، ويجـرون ، ويتسـابقون . وكلـهم مسـخرون . هذه الآيات لتدل دلالة قاطعة على أن كل منهم متميز عن الأخـر بـائن عنـه .

ولعظم آيتي الليل والنهار فإن الله تعالى ذكرهما ضمن الآيـات البـاهرات الدالـة علـى قدرتـه ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾ وفي سـورة يونس قدم تعالى ذكر الليل والنهار على كل ما خلـق فقـال تعـالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ .

والليل والنهار نعمة من أعظم نعم الله على خلقه التي لا تتم إلا باختلاف الليل والنهار ، والفائدة والمصلحة والنفع في اختلافهما ، وتعاقبهما وولوجهما وتكورهما وتقلبهما ، وتسبيحهما ، وتسخيرهما ، وجريهما ، وتسابقهما ، وفي إغشاء الليل وسلخ النهار . لذلك أخبر تعالى أن فيهما آيات لأولى الألباب ، ولقوم يوقنون .

يخطئ في حق ربه ، ويظلم نفسه من ينسخ كل هذه الآيات لليل والنهار ويلغي وجودهما تماما عندما يقول أن الليل والنهار إنما يكونا بدوران الأرض حول نفسها .

إن لليل حالات وأحوال ، لا يمكن أن تأتي بمجرد دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس الثابتة بالنسبة لها . فدوران الأرض هذا لا يحدث ليلا ولا نهاراً .

كذلك ليست الشمس هي المحدثة لليل والنهار فيكون نهارا بوجودها وليلا بغيابها ليس الأمر كذلك . إن الليل والنهار كما قلنا مستقلان في الخلق ومستقلان في التسخير حول الأرض . فيقول تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ .

إنما جعلت الشمس عليه دليل ، كما ورد بالعهد القديم :

" لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل . وتكون علامات للأعياد . كما للأيام والسنين . ولتكن أنوار في جلد السماء لتضيء الأرض .

وكان كذلك ، وعمل الله المنيرين العظيمين – المنير الأكبر لحكم النهار ، والمنير الأصغر لحكم الليل – والنجوم . وجعل الله في جلد السماء لتنير على الأرض . وتحكم على النهار والليل . ولتفصل بين النور والظلمة . ورأى الله أنه حسن وكان مساء وكان نهار : اليوم الرابع " .

وهذه المعطيات متفقة جميعا مع معطيات القرآن والسنة ، لا يختلفان معها إلا في الوقت حيث ينص القرآن على أن هذه الأجرام السماوية تمت في اليومين الأخيرين للخلق . وبينت السنة أن ذلك تم في اليوم الأخير منهما . أي اليوم السادس .

والليل والنهار نعمة لأن للناس فيهما شئون متباينة . فقال تعالى :

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١)﴾ (النبأ)

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (الروم: ٢٣)

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ (يونس: ٦٧)

﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ (الأنعام: ٩٦)

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ

إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (القصص) .

وإن كان الله تعالى هو الذى خلق الليل والنهار خلقا مستقلا ، فإنه تعالى يجعلهما يختلفان يقول سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ (الفرقان: ٦٢)

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ (الحج: ٦١)

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (النور: ٤٤)

﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (المزمل: ٢٠) .

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : " يقول الله تعالى : { يؤذيني ابن آدم ويسب الدهر . وأنا الدهر بيدي الأمر . أقلب الليل والنهار } .

وقد ذكرنا حدود النهار عند الحديث عن بدء خلق الليل والنهار ، وقلنا أن ﴿طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ (هود: ١١٤) ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ (طه: ١٣٠) هما وقت يختلف عن طلوع الشمس وغروبها ، فالنهار يبدأ طرفه الأول عندما ﴿يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (البقرة: ١٨٧) وآخر النهار عند اختفاء الضوء ودخول الظلام وروى ابن كثير عن بعضهم أنه إذا جاء الليل قال الرب جل جلاله : { غشى عبادي خلق عظيم ، فالليل تهابه ، والذي خلقه أحق أن يهاب } رواه ابن أبي حاتم .

فليس دوران الأرض هو الذي يحدث الليل والنهار وليست الشمس كذلك . ولكن الله تعالى هو الذي يخلفهما ويقلبهما . أما الشمس فإنها تدور في النهار ، وهي علامته كما أن القمر علامة الليل . وليست الأرض هي محدثتهما لأن الأرض ثابتة ، لا دوران لها ، ولا حراك ولا فعل ولا تسخير ولا حتى سجود .

أحوال الليل والنهار

وللذين في قلوبهم شك من دوران الليل والنهار حول الأرض ، حال ثبات الأرض وأن الشمس تدور في النهار حول الأرض . وليست هي التي تصنع الليل والنهار . وللذين في قلوبهم مرض ، فلا يشعرون بقدرة الله ، وينكرون يد الله التي تعمل لهم الليل والنهار ، وتمسك السموات والأرض ، نعرض لهم أحوال الليل والنهار التي ذكرها تعالى في كتابه :

المحو والإثبات

يقول تعالى ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ (الإسراء:١٢) فالله تعالى جعل الليل والنهار آيتين ، وليس آية واحدة . ولا يمكن للشمس أو الأرض أن تصنعا الآيتين .

وآيتي الليل والنهار : ما في كلا منهما من العجائب التي تحار في وصفها الإفهام ولتعاقبهما وما فيهما من الإظلام والإنارة وسائر ما اشتملا عليه . ومعنى ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ أي طمسناه فجعلناه مظلماً . وهذا يعني أن هذه الظلمة مجعولة ، مصنوعة ، ليست مجرد انعدام الضوء . بل هي جعل مستقل . فالظلمة ليست فضاء أو عدم وإنما هي مادة ، ووجود وحالة كائنة .

وقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي منيرة . فهل دوران الأرض حول نفسها يفعل ذلك ؟

* * * * *

التكوير

يقول تعالى ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ (الزمر:٥) هذه الآية تصف أمراً لله تعالى مع الليل والنهار فهو سبحانه يأتي بالليل فيكوره على النهار ومعلوم أن الأرض كرة ، وإن لم يكن معلوم فهذه الآية تخبر بذلك ، فهي ليست بيضاوية ، ولا كمثرية ولكنها مستديرة كالكرة ، لذلك عندما يغطي الله تعالى النهار بالليل فإنه عز وجل يكوره ثم يكور النهار على الليل وهكذا ... لا تفعل ذلك الأرض ، ولا تفعل ذلك الشمس ، ولو كانت أيتهما تفعل ذلك لقال الله . ولا مانع من ذلك فقد أخبر تعالى أنه يهدى في ظلمات البر والبحر فقال ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (النمل:٦٣) ولكنه تعالى في آية أخرى أخبر أنه يهدينا بالنجوم ، أي أن النجوم هي وسيلة الهداية فقال ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (الأنعام:٩٧) . فلو كانت الأرض هي التي تحدث الليل والنهار بدورانها لقال تعالى ذلك .

* * * * *

وقال تعالى : ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ (النور:٤٤) .
فهذه الآية تؤكد أن الذي يكور ويقلب هو الله . والآية واضحة أن الليل والنهار لا يأتيان نتيجة دوران الأرض والشمس ولكن نتيجة التكوير والتقليب الذي يتم من الله عز وجل .
ويا سبحان الله فرغم وضوح الآية ومعناها إلا أن العبرة فيها ﴿لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ وقليل ما هم .

* * * * *

ومثل ذلك قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ (لقمان:٢٩) وقوله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ (الحج:٦١) وقد ذكر الولوج في خمس آيات لم ينسب فيها إلا لله .

فالله تعالى يدخل هذا في ذاك وذاك في هذا . فالتكوير والتقليب لا يتم برفع هذا والإتيان بذاك . ولكن يتم ذلك بالتداخل بحيث يحل أحدهما مكان الآخر بصورة رائعة ساحرة ، هي من أجمل المشاهد الكونية التي تتكرر كل يوم مرتين مرة بعد الفجر ومرة بعد الغروب . وكيف ؟ أن الليل بظلامه يتخلل النهار رويدا ... رويدا ... بخفة ونعومه وسرعة غير ملحوظة ، وكيف تتغير ألوان السماء من أول درجات الزرقة الأقرب للبياض حتى تصل إلى أعلاها حتى تقترب من السواد ثم تسود بالفعل ، وعكس هذا يحدث بعد الفجر عندما يسفر الصبح ويتنفس . إن هذا الجمال وهذا الجلال لا يحدثه إلا الله ذو الجمال والجلال ، ولا تحدثه أبداً الأرض .

والذين لا يفقهون الآيات القرآنية ، ولا يبصرون الآيات الكونية . فليأخذوا كرة ومصباحا صغيراً في حجرة مظلمة ولينظروا هل يحدث أي تغير في الحجرة أو على الكرة من دوران هذه الكرة أمام مصدر الضوء الثابت . لن يكون هناك أي تغير يلحظ على الإطلاق . أما لو حرك مصدر الضوء وثبتت الكرة ودار الضوء حولها فإن كل شيء أمامه سيتغير وسيحل النور محل الظلام ، والظلام محل النور وهكذا . إنها وربي لآيات . ولكن أين المبصرون ؟

يصور لنا تعالى في مشهد مهيب كيف تتم عملية الولوج بهذه الكلمات : ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ (الأعراف:٥٤) ، إن الليل هنا يحاول تغطية النهار بالدخول فيه ، أو بأن يتخلله ، وهي صورة تعجز الكلمات عن وصفها ولكنها تحس عند التأمل بعد الغروب كيف يتم التبديل والإحلال من النور إلى الظلمة ، من البياض إلى السواد ، ومن النهار إلى الليل ،

يتم تغطية القبة السماوية كلها بمساحتها الشاسعة ، الواسعة . وتغطية الأرض كلها بما فيها ومن فيها – أمام أعيننا – يتم ذلك جميعه في دقائق لا تصل إلى ساعة ، لقد تم الأمر بسرعة كبيرة جدا ولكنها في نفس الوقت لا تدرك ولا يشعر بها وكأن الأمر تم خلسة رغم أننا ننظر ونتأمل ولكننا نفاجأ بأن الكون كله أصبح أمامنا أسوداً معتماً .

إن هذا الأمر السحري هو معنى قوله ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ وهذا هو إعجاز القرآن وجمال اللغة التي أنزل بها . فهذا الوصف لدخول الليل بهذه الطريقة السريعة وفي نفس الوقت بصورة ناعمة حتى أننا لم نشعر بسرعتها ، ولا حتى كيف تم هذا الإحلال ، ولا في أي لحظة من اللحظات تحديداً ، تم هذا التبديل .

إن دوران الأرض لا يحدث هذا الجمال وهذا الإبداع . فما كان ذلك ولا يكون ولكن هذا عمل الخالق ، الجميل ، البديع ، الذي حرك الليل ذاته ليفعل ذلك .

هل الليل ذاته هو الذي تحرك وسار ؟ نعم ولهذا يقول تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ ولم يقل : (والأرض إذا دارت) .

* * * * *

حالات الليل السبعة

لم يكتف القرآن بذكر الليل في دخوله وإحلاله محل النهار ، بل لقد ذكر كل حالات الليل وهي ٧ حالات ، ذكرها تعالى في سبع آيات متشابهات في النسق ، والكلمات والحروف . والعرض .

(١) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ (الليل:١)

(٢) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ (الفجر:٤)

(٣) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ (الضحى:٢)

(٤) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ (التكوير:١٧)

(٥) ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (الانشقاق: ١٧)

(٦) ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ (المدثر:٣٣)

(٧) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ (الشمس:٤) .

لقد عرض الله هذه الآيات جميعا بأسلوب القسم ، والله تعالى لا يقسم إلا ليؤكد لنا تعالى عظم المقسم به أو المقسم عليه . وحالات الليل هذه لا يشعر بعظمتها إلا أولوا الألباب .

وجاءت كل آية منها في ثلاث كلمات . كل آية ١٢ حرف ما عدا الآية الأولى ١٣ حرفا والآية السابعة ١٤ حرفا . ورقم ١٢ هو نفس عدد ساعات الليل غالبا ، لذلك لم تأت كل الآيات بنفس العدد . ونقصت الآية السادسة حرفاً . لأن الليل ينقص ويزيد .

وبهذه الآيات السبع التي أقسم الجبار بها ، تعرض أفعال الليل في الأرض وفي الشمس وفي الخلائق . وأيضا في النهار .

أما فعل الليل في الأرض فهو : (يسر) وأيضا (عسعس) .

وأما فعل الليل في الشمس فهو : (يغشاها) .

وأما فعل الليل في الخلائق فهو : (سجى) وأيضا (وسق) .

و أما فعل الليل في النهار فهو : (يغشى) وأيضا (أدبر) .

وأحوال الليل هذه دليل على وجود الله ، ودليل على قدرته . لأنه تعالى الذي أعلن أنه الفاعل لها جميعا . وهي حقا آيات دالة عليه وأنه سبحانه موجود . وإلا فمن أوجدها ؟ إن غير المؤمنين يقولون بأن الذي أوجدها هو دوران الأرض حول نفسها . ومؤمنو هذا العصر يقولون مثل قولهم ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة:١١٨) وهي آيات دالة على قدرته وحكمته ، وجماله ، ولطفه ، ورحمته ، ووده ، فمن ذا الذي يقدر على ذلك إلا الله ؟ من الذي يقدر أن يفعل هذا بالشمس ، وبالنهار وبالأرض وبكل الخلائق ؟ من ؟

من هذا الذي يدبر الليل ، ويسريه ؟ من هذا الذي يغشى الشمس ويجليها ؟ من هذا الذي يفرض سلطانه وأحكامه على كل الناس وكل الخلائق ولا يقدر أحد على الخروج ؟ من ؟ أهي الأرض التي تدور ؟ ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ .

إن الآيات لتتحدث بإيجاز معجز عن فعل الليل في الكون بما فيه ، ومن فيه . فالآية الأولى : تتحدث عن الليل وهو يدخل ويتخلل النهار ويحل محله ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ والثانية : تتحدث عن سير الليل في الأرض وليس دوران الأرض . فالليل هو الذي يتحرك ويسير على الأرض . ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ . والثالثة : تتحدث عن إظلام الليل للأرض ، حتى تكون الحركة عليها في الليل بالعسعسة . والرابعة : تتحدث عن فعل الليل في الخلائق بسكونه وسكوته وصمته وهدوئه ﴿إِذَا سَجَى﴾ والخامسة : عن لمه ، وضمه ، وجمعه ، وحشره للخلائق والكائنات في أوكارها وأعشاشها ومساكنها ومستودعها . وستره لكل شيء

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ . والسادسة:عن انصرافه وتوليــه تاركـا الأرض بمـن فيـها للنـهار ﴿وَاللَّيْــلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ والسابعة : عن تغطيته لنورها الــذي كـانت تنشـره في الأرض ﴿إِذَا يَغْشَــاهَا﴾ إن هــذا فعل الليل بأمر الله وتدبيره وليس الأمر مجــرد دوران لــلأرض .

سلخ الليل

يقول تعالى ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُــمْ مُظْلِمُــونَ﴾ (يس:٣٧) .

إنها صورة فريدة ، وآية وحيدة ، إن الليل مخلوق ، يســلخ . ويســتخرج منــه ، مــن جوفــه ، ومــن جرابه ، ومن جلده ، النهار ، فــإذا مــا انســلخ النــهار ، وخــرج ، كأنمــا الــروح قــد خرجت ، فهو الموت ، وهي الظلمــة . ويبقــى الغطــاء والغشــاء ، واللبــاس ، يغطــى الكــون . ولكن كيف يعود النهار بعد السلخ والمثل العربي يقــول " لا يضــير الشــاة ســلخها بعــد ذبحــها " فكيف يعود النهار مرة أخرى بعد عملية السلخ هذه . ليســت هنــاك قــوة في هــذا الكــون تعيــد الحياة إلى الميت إلا قوة الله تعالى ، وقدرته فهو سبحانه : ﴿يُخْــرِجُ الْحَــيَّ مِــنَ الْمَيِّــتِ وَمُخْــرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ (الأنعــام : ٩٥) .

أالله يفعل ذلك بقدرته أم الأرض بدورانهــــا ؟

* * * * *

روى أحمد في مسنده : أن هرقل كتب إلى النبي ﷺ يقــول إنــك دعوتــني إلى جنــة عرضــها السموات والأرض . فأين النــار ؟

فقال ﷺ : " سبحان الله فأين الليل إذا جــاء النــهار ؟ " .

يقول ابن كثير : وهذا الرد يحتمل معنيين (أحدهما) : أن يكــون المعــنى في ذلــك أنــه لا يلــزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النــهار أن لا يكــون في مكــان ، وإن كنــا لا نعلمــه وكذلــك النار تكون حيث شاء الله عز وجل . وهـــذا أظــهر . (الثــاني) : أن يكــون المعــنى أن النــهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب فإن الليــل يكــون مــن الجــانب الآخــر . فكذلــك الجنــة ، في أعلى عليين ، فوق السموات تحت العرش . والنار أســـفل ســافلين .

الأرض أكبر من الشمس

لقد غرر المنجمون الغربيون بعلماء المسلمين وعلماء كــل ديــن عندمــا أقنعوهــم بــاطلا بــلا نهائية الفضاء ، وأن بيننا وبين الأجرام الســماوية ملايــين الســنين الضوئيــة وبلايــين أيضــا . وأن الأرض ذرة في الكون ، لا ترى بالتلسكوبات العاديــة . وهــم يقولــون بــاطلا لأنهــم لم يشــهدوا

خلق السموات والأرض . ويقولون باطلا ، لأن الله صرف عنهم آياته ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف:١٤٦) .

وآيات الله وعلمه لا تؤتى إلا بإذن الله وإرادته : مهما استخدمت من وسائل وأجهزة وأدوات فلن تحصل ذرة من العلم إلا بمشيئة الله ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ﴾ وشاء الله أن لا يعطى العلم إلا للمتقين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

وطبقا للأرقام الهائلة التي يلقون بها اعتباطا ، فقد أعطوا للشمس بعضا من الملايين ، لأنهم لا يروها . وأعطوا للأرض بعض الآلاف لأنها لا تساوى ذرة في هذا الكون . فهم يقولون أن حجم الشمس ١٣٢٠٠٠٠ (مليون وثلاثمائة وعشرين ألفا) وعمرها ٤,٥ بليون سنة ، وستظل موجودة ٥,٥ بليون سنة . وأنها تبعد عن الأرض ١٥٠ مليون كيلو متر .

والشمس بهذا الحجم تعتبر نجما أقل من المتوسط بالنسبة لحجم النجوم .

أما الأرض فإن قطرها الاستوائي قدروه بنحو ١٢٧٥٦ كم يقل ٢١ كم في القطر الجنوبي لذلك فقالوا كمثرية . أما محيطها نحو ٤٠٠٧٧ كم .

وكان لابد أن يعطوا للشمس هذه الأرقام ، لأنها حلت محل الإله المحرك الذي كان يحرك الكون من خارجه ، ولكن رأوا أن الكون يحرك من داخله ، والذي يحركه هو الشمس بقدرة ذاتية فيها سموها " الجاذبية " . وما يقولونه هو نفس ما قاله عباد الشمس قديما ، ونفس ما اسبغوه عليها من قدرة وحكمه ، ولم يتميز هذا العصر إلا في الأرقام التي أعطوها للشمس وهي بالطبع بالملايين المملينة ولم لا أليست الإله الجديد .

ونفس العقيدة التي كان يعتقدها عباد الشمس في إلههم (الشمس) هي نفس عقيدة المسلمين الآن ، سواء بسواء لم تزد إلا في الأرقام . فالشمس في قلب العالم ، تحركه وتشده إليها وتمسكه أن يزول . والمجموعة التي سموها الشمسية تقوم بأمر الشمس ، وقدرتها ، وتوجيهها إلى حيث ما شاءت الشمس . ﴿يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ هكذا أصبح حال الشمس ، التي كانت قبل ذلك ، مسخرة دائبة ، ساجدة . تم تحويلها من عابدة إلى معبودة ، ومن مسخرة إلى متحكمة . وتم ذلك مرحلة ، مرحلة ، فقد ألغى لها السجود ، ثم التسخير ، ثم هي الآن موصوفة بصفات الله عز وجل .

والأمر بخلاف ما ذكروا تماما . فالشمس محكومة لا حاكمة ، مسخرة بالأمر حول الأرض وليست هي التي تشد الكواكب إليها . كما أن الأرض أكبر من الشمس .

ما دليلنا على ذلك ؟

كشأننا لن نتحدث برأينا ، بل سنتلمس أدلتنا من معطياتنا الدينية .

عندما تحدثنا عن بدء الخلق ذكرنا أن الأرض استغرق خلقها أربعة أيام تماماً أما السموات السبع فقد استغرق خلقها يومين غير كاملين ، أما الشمس والقمر وغيرهما من الكواكب والنجوم . فساعة من اليوم السادس ، وربما أقل من ساعة ، لأنهم جميعا خلقوا بالأمر وبكن كما قال تعالى ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾ (فصلت:١٢) .

أولا: هل من العقل أن تكون الأرض وبما عليها من بحار وأنهار وجبال وأشجار وغابات ونباتات وحيوانات أصغر من الشمس التي خلقت في دقائق لتكون مسخرة للأرض .

ثانيا: تطمئن النفس لتكرار ذكر الأرض مع السموات مئات المرات أن بينهما نسبة وتناسب ومن ثم فهي أكبر من الشمس .

ثالثا: يقول تعالى في سورة غافر الآية (٥٦) ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ واضح من خاتمة الآية أن هذه المعلومة لا يعلمها أكثر الناس . ففي هذه الآية يذكر تعالى أكبر المقاييس ، وكان تعالى قد ذكر أصغرها فقال ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ:٣) وكونه تعالى يضرب المثل بأكبر مخلوقاته ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي مضيفا الأرض للسموات التي هي أكبر شيء في كوننا فهذا يؤكد أن الأرض أكبر من الشمس وإلا لذكرت الشمس بدلا من الأرض .

إذا فالأرض وحدة قياس كالسموات ، ولكنها من أكبر الوحدات يقول تعالى ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران:٩١) . فهذا يدل على أن الأرض هي أكبر الأجرام بعد السموات .

رابعاً: يقول تعالى في سورة الأنعام : ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي

رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ(٧٩) ﴾ . إن إبراهيم عليه السلام يتحدث عن الأجرام السماوية ، والأرض ، وليس من موقف الشك بل من منطلق اليقين .

فهو قد رأى ملكوت السموات والأرض فليس كلامه مجرد وجهة نظر . بل إنه قد رأى ملكوت السموات والأرض رأى العين . والألوهية منتهى أمرها إلى الله وحده في يقين إبراهيم . ولكنه استخدم مفهم أسلوب الاستدلال الذي استخدمه مع عباد الأصنام . ومع عباد البشر ، وقد كانت عبادة الكواكب منتشرة في بابل ولها معابد فاستعمل معهم العقل والمنطق . وبأسلوب فيه السخرية ، والحط من آلهتهم التي يعبدونها من دون الله .

في هذه الآية نجد السموات والأرض ، والشمس والقمر والكواكب . وقد تناولها إبراهيم حسب ترتيب حجمها ترتيبا تصاعديا ، بادئا من الكواكب ومنتهيا بالشمس التي قال عنها : ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ . أي أن الشمس أكبر ما في السماء ، فأكبر من القمر ومن الكواكب . ولكنها ليست أكبر من الأرض المذكورة مع السموات .

خامساً: في آية بديعة ، محكمة ، فريدة في نوعها ، يذكر تعالى سجود الكائنات مرتبة ترتيبا تنازلياً . وهو أمر واضح دون أي لبس : يقول تعالى في سورة الحج آية (١٨) : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ .

فهذا الترتيب ترتيبا تنازليا من الأكبر إلى الأصغر . ولو كان أحد في شك من وضع الشمس من حيث الترتيب الحجمي ، فليضعها في أي مكان يشاء من الآية ، ولن يجد لها مكانا سوى ما هي فيه .

والذي يؤكد لنا هذا الترتيب الصحيح أن الآية وردت بسورة الحج التي تكرر فيها ذكر أمور وأشياء ، ذكرت مرتبة ترتيبا زمنيا أو مكانيا ، تنازليا أو تصاعديا . وهو أمر متلاحظ في الآيات من أولها إلى آخرها : وهذه بعض الأمثلة ، وإلا فالسورة كلها على هذا النمط .

فأول الآيات ترتب ما ستحدثه زلزلة الأرض الكبرى بالخلق ترتيبا زمنيا ، حسب ما سيحدث : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ .

ثم يذكر عز وجل ترتيب الخلق للإنسان ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ وكل هذا الترتيب الذي لا ريب فيه في آية واحدة (آية٥) . وفي ترتيب عملية النبات يقول تعالى ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ . وعن الساعة يقول ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾.

وترتيب أسباب تطهير البيت الحرام : ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ .

ثم رتب دور العبادة : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ . ثم رتب الأمم المكذبة ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى﴾ .

وهذا الترتيب هو الذي فهمه الصحابة والتابعين وباقي السلف الصالحين . لذلك قال ابن تيمية : في تفسير قوله تعالى : ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(٧)﴾ .

قال : " أقسم الله بالسماء والأرض والنفس ولم يذكر معهم فعلا كما ذكر مع الشمس والقمر والليل والنهار ولكن ذكر فاعلها : ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا(٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧)﴾ . ولم يقسم بفعل النفس لأنها تفعل البر والفجور وهو سبحانه لا يقسم إلا بما هو معظم من مخلوقاته .

وأما السماء والأرض فليس لهما فعل ظاهر يعظم في النفوس حتى يقسم بهما إلا ما يظهر من الشمس والقمر ، والليل والنهار .

والسماء والأرض أعظم من الشمس والقمر والليل والنهار ، والنفس أشرف الحيوان المخلوق . فكان القسم بصانع هذه الأمور العظيمة مناسبا . وكان أقسامه بصانعها تنبيها على أنه صانع ما فيها من الشمس والقمر والليل والنهار . فتضمن الكلام : الأقسام بصانع هذه المخلوقات ، وبأعيانها ، وما فيها من الآثار والمنافع لبني آدم " أ . هـ .

وإنني هنا أسجل تقديري واحترامي لهذا الأستاذ الجليل " ابن تيمية " رحمه الله وقد كان الرجل عالماً في الفلك كعلمه في الشرع يشهد له العلماء والمؤرخون وأصحاب التراجم .

لذلك فكلامه نابع من العلم والإيمان وهما عمقـين بعيدين لم يصلـهما " جـاليليو " الـذي جـاء بعد ابن تيمية بحوالي أربع قـرون .

وابن تيمية ذكر هنا معلومتين هامتين يعبران عن الفهم الإسلامي لحقـائق الكـون همـا :

(١) أن السماء والأرض ليس لهما فعـل ظـاهر يعظـم في النفـوس كمـا للشـمس والقمـر والليل والنـهار .

(٢) إن السماء والأرض اعظم من الشمس والقمـر والليـل والنـهار .

فالمعطيات الدينية تقول بأن السماء والأرض ليس لهمـا أي فعـل ، ولننظـر إلى سـور القـرآن وهي ١١٤ سورة فلن نجد سورة واحـدة باسـم السـماء أو الأرض ، بينمـا نجـد سـور باسـم الشمس والقمر والنجم والليل والضحى والفيـل والنمـل والبقـرة والتـين والطـور والحديـد . وذلك لأن السموات والأرض علي عظمهما وقدرهمـا فـلا دوران لهمـا ولا فعـل ولا حركـة إلا أنهما يقلان المخلوقات جميعـاً .

إذاً فأحجام المخلوقات كما رتبها الله في سورة الحـج وهـي كالتـالي :

السـموات ، فـالأرض ، فالشـمس ، فـالقمر ، فـالنجوم ، فالجبـال ، فالشـجر ، فالدواب ، فالنـاس .

معطيات الإسلام عن الأرض

لنترك ما قالـه التجريبيـون عـن الأرض جانبـاً ، وسـواء أكـانوا فلكيـين أو منجمـين أو طبوغرافيين . أو طبيعين أو رياضيين . فلـم يـر واحـد منـهم الأرض وهـي تخلـق . ونحـن لم نراها ، ولا نقول بما رأيناه ، فلم نر إلا مـا أرانـا الله مـن الآيـات ، ولكننـا سـنقول مـا يقولـه الإسلام عن الأرض . وقد توصلنا بحمد الله وعونـه وإرادتـه إلى هـذه المعلومـات الـتي اسـتقيناها كلها من الديـن :

(١) الأرض من أول مخلوقات الله : اسـتغرق خلقـها أربعـة أيـام ، يومـان لخلـق جرمـها . ويومان لخلـق مـا فيـها مـن منـافع ومصـالح . ولم تخلـق كمـا قـالوا في بلايـين السـنين ، عدوها ١٠ بلايـين .

(٢) لا يعلم على وجه التحديد مـتى خلقـت الأرض . ولكنـها خلقـت بعـد خلـق اللـوح المحفوظ والقلم بخمسين ألف سنه . وتتوافق بدء خلقها مع ليلـه القـدر وليـس عمـر الأرض كمـا يقولون بلايين السنين عدوها ٤.٥ بليون سنه بعدما تكونـت ولكـن المؤكـد أن عمرهـا لا يبلـغ عدة آلاف من السنين . أما نهايتها فليس كما قالوا بعـد ٥,٥ بليـون سـنه ولكـن لا يعلـم أحـد

متى ستنتهي فهو من أول الغيبيات الخمس . ولكن المؤكـــد أنهـا ســتنتهي يـوم القيامــة . بدكــها ورجها. وزلزلتها ثم تبديلـــها .

(٣) الأرض هي أسفل سافلين وهــي مركــز الكــون وفوقــها ســبع سمـوات بكثفــها . أي بأرضياتها . وأرضنا هي الســابعة وسماؤنــا هــي الأولى . وبيننــا وبينــها حــوالي ٧ مليــون كــم (مسيرة خمســمائة عــام) . وهــي كاملــة الاســتواء ، لا بيضاويــة ، ولا مشــطوفة القطبــين ولا كمثرية ، و لكنها كروية تمامــاً .

(٤) والأرض يغطي معظمها المــاء . إلا مقــدار الربــع فــهو يــابس . واليــابس مقســم إلى سبع قارات وهي التي نســميها :

(١) أفريقيا (٢) آسيا (٣) أوربا

(٤) استراليا (٥) أمريكــا الشــمالية (٦) أمريكــا الجنوبيــة

(٧) القارة القطبية الجنوبيــة .

ويتخلل هذا اليابس سبعة أبحر . أما بقية المــاء واسمــه (البحــر المحيــط) فــهو الــذي يقــابل اليابس من الجهة الأخرى ويحيط به من كــل اتجــاه .

(٥) محيط الأرض ٤٣٢٠٠ كيلــو مــتر وليــس كمــا يقولــون ٤٠٠٧٧ كــم . وبمــا أن الأرض دائرة فهي ٣٦٠ درجة . فتكون المسافة بين كــل درجتــين ١٢٠ كــم .

المهم في الأرض دقة محيطها واكتماله . أما القطر فلا يــهم أن يكــون رقمــاً صحيحــا مكتمــلا لأن الأرض هي مركز ويحيط بها كل شيء ويـــدور حولهــا كــل شــيء ومــن ثم فكــان لابــد أن يكون المحيــط منضبطــا وتامــا فــهو ٣٦٠ × ١٢٠ = ٤٣٢٠٠ كــم . أمــا بــاقي الأجــرام السماوية فالمهم فيها القطر لأنها تدور حول محيط الأرض ، وســنرى دقــة أقطارهــا ، وأنهــا أرقــام صحيحة مكتملة بخلاف محيطاتهــا .

(٦) قسمت الأرض تقســيما ذهنيــا ، فرضيــاً إلى خطــوط طــول وخطــوط عــرض . أمــا خطوط العرض فهي خطوط أفقيــة ، متوازيــة . تــدور بــالكرة الأرضيــة ، تمثــل ١٨٠ دائــرة ويقسم الأرض إلى نصفين متساويين خط يسمى بخط الاستواء وهـــو يــدور بــالأرض مــن نصفــها وأعطى لهذا المدار الرقم (صفر) وتزداد الأرقــام شمــالاً وجنوبــاً بزيــادة الدوائــر العرضيــة حــتى

آخر نقطة شمالا وأعطى لها رقم (٩٠) وتسمى نقطة القطب الشمالي . وآخر نقطة في جنوب الكرة مثلها وتسمى نقطة القطب الجنوبي .

وأعطى لبعض الدوائر الأخرى أسماء علاوة على الأرقام ، فهناك مدار السرطان وهو مدار شمال مدار الاستواء وهو عند خط ٢٢.٧٥ عرض . ومدار آخر مماثل جنوبه ويسمى مدار الجدي وهو عند خط عرض ٢٢.٧٥ جنوباً .

وهذه هي الدرجات الصحيحة للمدارين وليس كما يقولون ٢٣.٥ شمالا وجنوباً وستثبت ذلك بإذن الله . وهناك أيضا الدائرة القطبية الشمالية وأخرى جنوبية عند خطي عرض ٦٧.٢٥ شمال وجنوب .

(٧) أما خطوط الطول . فقد قسمت الأرض أيضا إلى خطوط طول متساوية قدرها ٣٦٠ خط بعدد درجات الدائرة ، حيث يكون بين كل خط وآخر درجة واحدة . وبهذه الخطوط جميعها يحدد الزمان والمكان بدقة على الأرض . والمسافة بين الدرجة والأخرى ١٢٠ كم مكاناً و ٤ دقائق زماناً . بحيث يكون لكل ١٥ خط ساعة كاملة .

وهذه الخطوط لم يحددها رجال الفضاء ولا رواد عصر الإلحاد (عصر النهضة) وإنما هي خطوط معروفة منذ آلاف السنين ، وليس تحديدها وتقسيمها بهذا من صنع البشر بل هو تقسيم وتحديد إلهي ستثبت ذلك في حينه بإذن الله .

غير أن أرقام هذه الخطوط هي التي تم تحديدها في أواخر القرن التاسع عشر . وقد انعقد المؤتمر الجغرافي سنة ١٨٨٤ في جرينتش القريبة من لندن وكان ضمن أعمال هذا المؤتمر تحديد خط طول ليكون هو خط الصفر . فاختاروا الخط الذي يمر على قرية جرينتش تيمنا بمكان الانعقاد وجعلوا هذا الخط هو الخط الرئيسي الذي أعطى له رقم صفر وأصبح هو الذي يقسم الكرة الأرضية ، حيث تبدأ الأعداد من يمينه ومن شماله لتنتهي جميعا بخط طول ١٨٠°.

وقد جاء اختيار هذا الخط بالذات ليكون الخط الرئيسي لأن إنجلترا كانت آنذاك سيدة الأرض ليس غير ذلك . ولكن الحقيقة أن هذا ليس هو الخط الرئيسي طبقا للتقسيم الإلهي لخطوط الطول والعرض . وإنما كان هناك خط رباني هام ينبغي على علماء المسلمين أن يتمسكوا به لأنه هو الحق . ولكن علماء المسلمين لا حول لهم ولا طول .

خط الصفر مكة المكرمة

ليس هذا عاطفة دينية لا تعصبا مليا ولكن هذا هو الحق المبين . ولو كان هناك إنصاف لما كان أمام المؤمنين والكافرين سوى هذا الخط الذي يمر بمكة المكرمة ليكون هو الخط الرئيسي الذي تتفرع منه الخطوط يمينا وشمالا فمكة ، والكعبة تحديدا هي التي تتوسط الأرض وسنسوق للمؤمنين أدلة من الكتاب والسنة ، وسنسوق للكافرين أدلة من أطلس الخرائط الجغرافي .

أما أدلة الكتاب :

فهي قوله تعالى :

﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الأنعام: ٩٢، الشورى:٧) فهذا الأمر نزل مرتين في آيتين . والمقصودة بأم القرى هي (مكة المكرمة) فهي الأم والأصل والأساس ومن حولها متفرع منها . كقول تعالى (أم الكتاب) أي الكتاب الرئيسي الذي يتفرع منه وينسخ منه كل الكتب . وكما أن الأم هي الأصل الذي يتفرع منه كل الأفرع فكذلك مكة هي الأم وكلمة ﴿مَنْ حَوْلَهَا﴾ توحي بتوسط مكة تماماً يؤيد هذا أيضا قوله تعالى :

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:١٤٣) .

ومكة هي أعظم القرى لأنها محل البيت الحرام الذي جعله الله لكل الناس ، فوضعه تعالى وسط الأرض . وهو قبلة المسلمين في كل مكان . وهذا يعني أن البيت الحرام تحديدا هو نقطة مركز الأرض . الذي فوقه البيت المعمور الذي في السماء ولو خر لخر عليه .

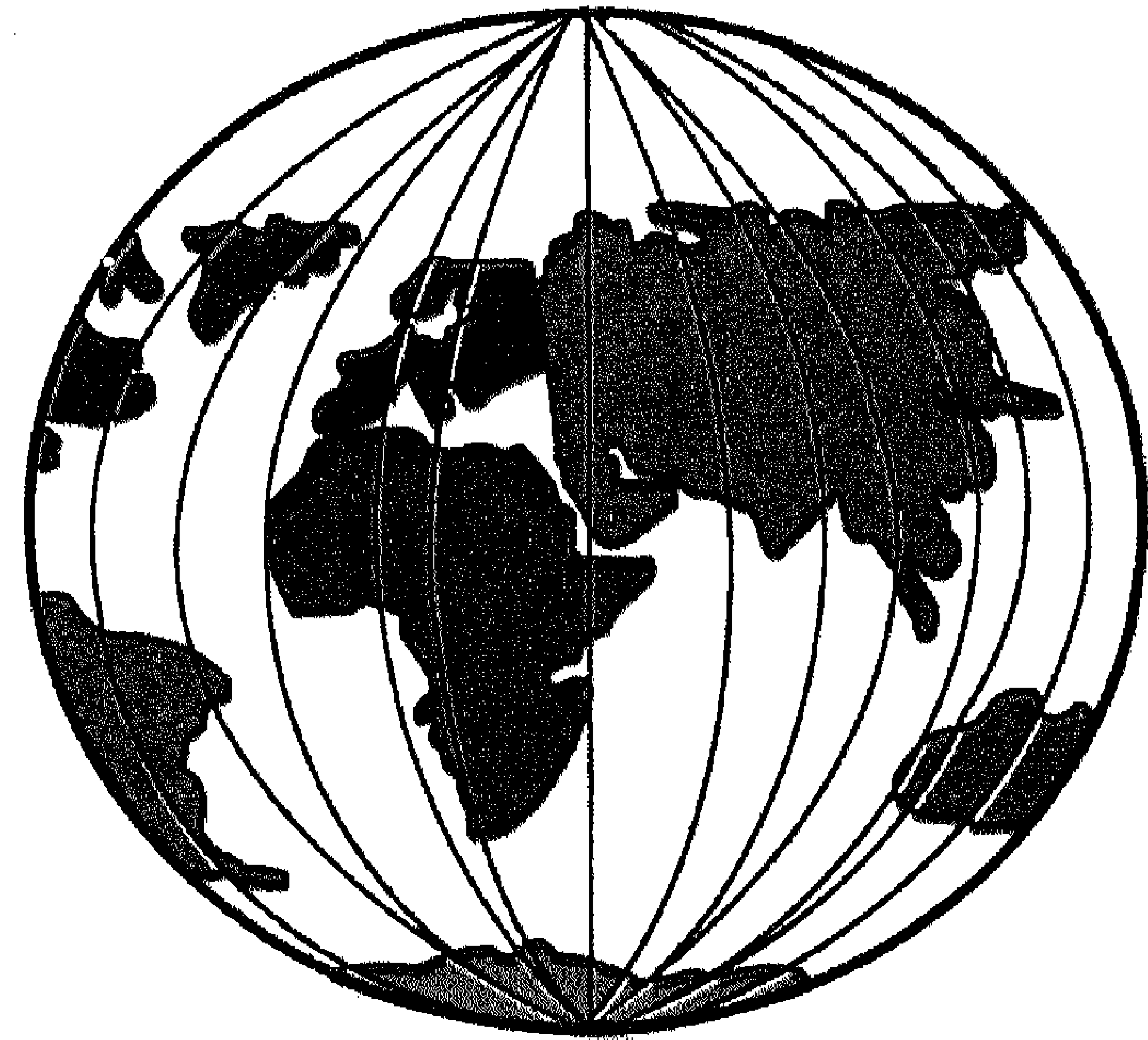
أما أدلة السنة :

فقد روى عبد الرازق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ قال : هي مكة . وبلغني أن الأرض دحيت من مكة . وروى عن عطاء بن دينار نحوه .

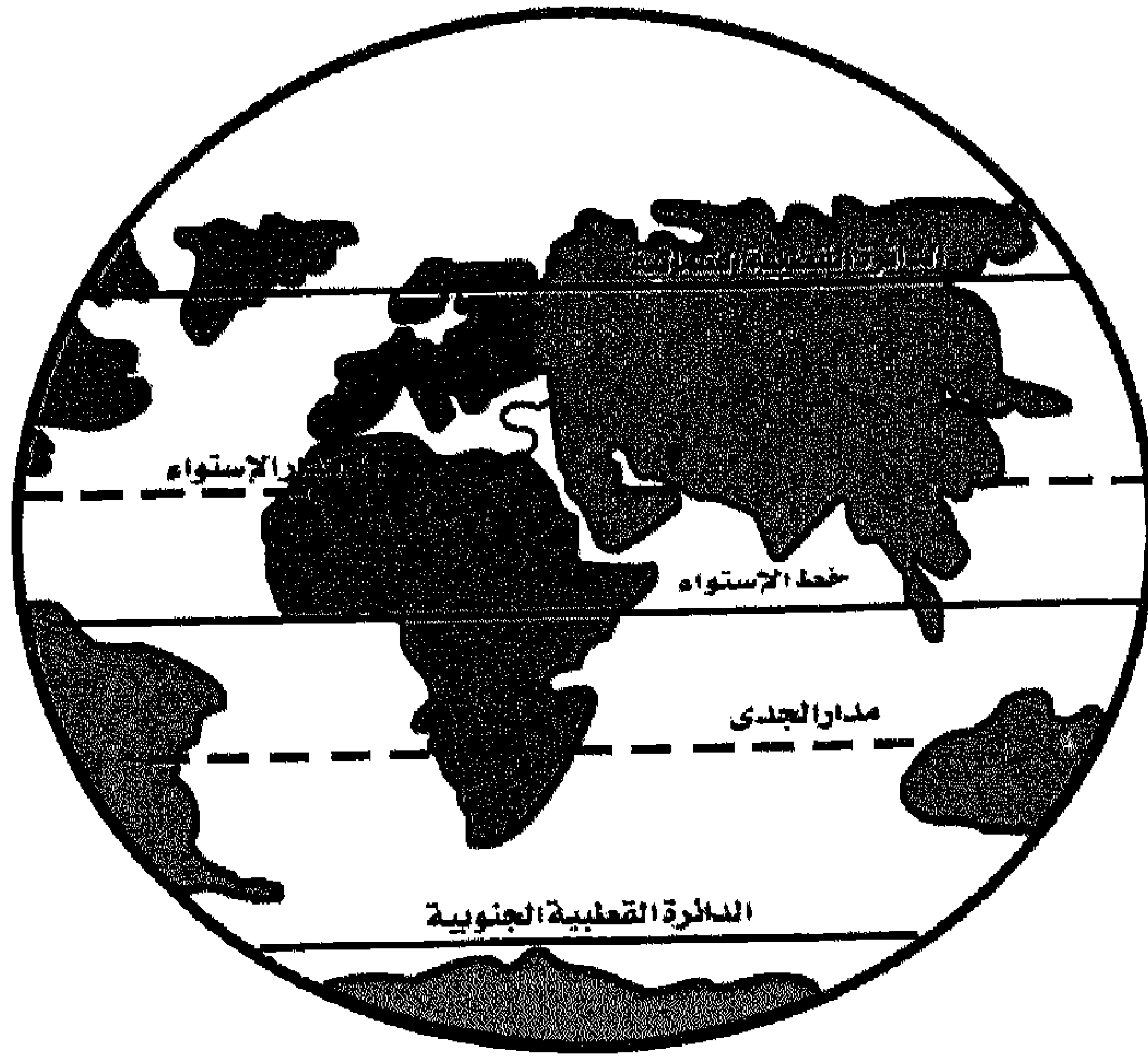
وهو الخط الذي يمر أيضا بقبر رسول الله ﷺ بالمدينة .

فهذا الخط يمر إذاً بالحرمين الشريفين ، ويقابل في نفس الوقت البيت المعمور الذي في السماء السابعة .

أيترك علماء المسلمين هذا الخط ويتخذوا من عزبة أو كفر جرينتش مركزا للأرض .



خطوط الطول (بالنسبة لمكة المكرمة) وهى ٣٦٠ خط تلتقى عند القطب الشمالى والجنوبى بين كل خطين درجة (٤ دقائق زمنية) وخط الصفر يمر على مكة المكرمة والمستقر من الجهة الأخرى.



خطوط العرض (بالنسبة لمكة المكرمة) وهى ١٨٠ خط متوازى ينصف الأرض مدار أو خط الأستواء وهو خط الصفر. وتنتهى بنقطتى القطب الشمالى والجنوبى - وأشهر المدارات مدار السرطان، والجدى، والمدار القطبى الشمالى والجنوبى

أما الأدلة المادية

لو نظرنا في أطلس الخرائط لوجدنا مكة المكرمة تتوسط العالم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . وإذا وضعنا القارتين الأمريكيتين بجوار قارتي أوربا وأفريقيا أي ضممنا القارات الأربع لتعود لوضعها قبل الطحو فسنجد مكة تتوسط اليابسة تماما من كل الجهات ، على غير (عزبة جرينتش) التي يقسم خطها العالم إلى الثلث والثلثين . وجرينتش كما هو واضح أقصى الشمال من العالم .

كذلك نرى خط السرطان الذي يتوسط الأرض اليابسة يمر بين مكة والمدينة تماما علاوة على ذلك فإن الخط الطولي المار بمكة المكرمة وهو الآن (٤٠ °) شرق جرينتش هو خط يمر بأرض الحضارات القديمة والأديان الثلاثة الموجودة في الأرض جميعا والتي مصدرها السماء .

كما أن هذا الخط هو أقرب خطوط الأرض للأرض المقدسة بفلسطين .

وأخيرا فهذا الخط المار بمكة المكرمة هو الخط الفاصل بين قارتي أسيا وأفريقيا ، وأسيا وأوربا .

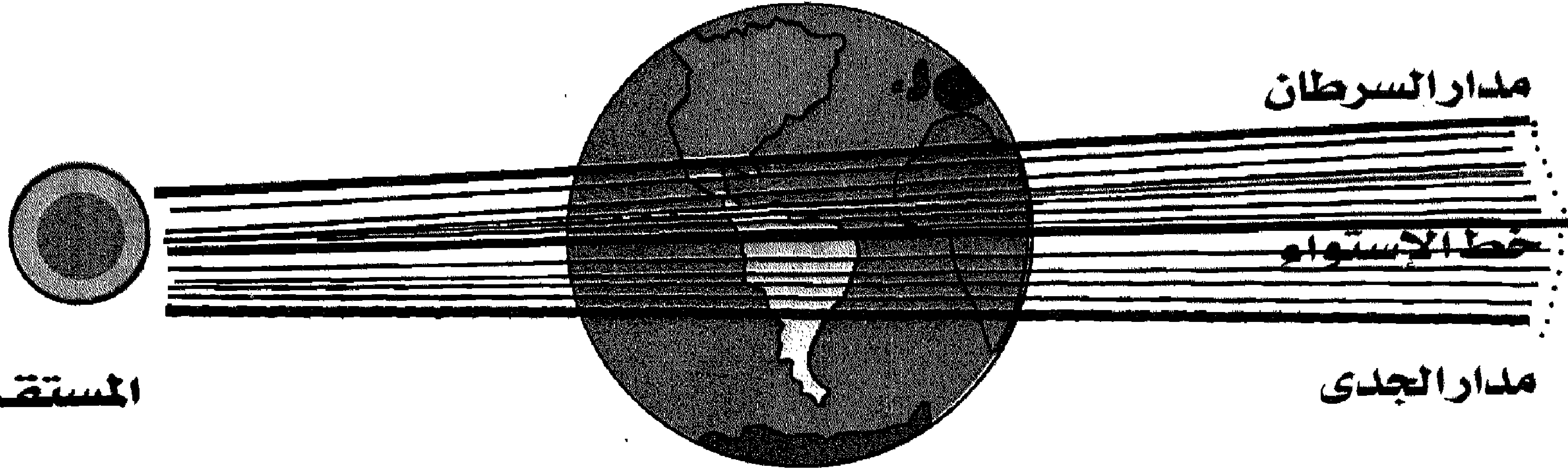
لذا على علماء الأرض تصحيح الوضع في هذا الأمر أيضا . فمكة هي الخط الرئيسي وأما الأمر الذي هو في غاية الأهمية والذي يحتم علينا تغيير خط الصفر من جرينتش إلى مكة . هو مستقر الشمس الذي هو مقابل تماما لمكة من الجهة المقابلة من الأرض .

أين المستقر ؟

يقول تعالى : ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (يس:٣٨) وقد ذكرنا شرح رسول الله ﷺ لهذه الآية وتبيانه لمعنى المستقر ، وماذا تفعل فيه الشمس . فيما رواه البخاري عنه عندما قال لأبي ذر حين غربت الشمس " تدرى أين تذهب ؟ " قلت الله ورسوله أعلم . قال : " فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها . ويوشك أن تسجد فلا يؤذن لها . ويقال ارجعي من حيث جئت ، فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ .

وذكرنا شرح ابن كثير للمكان الذي تذهب فيه الشمس حتى تسجد . وهو في المحيط الهادي فوق خط الاستواء ، وفي المكان الذي يقابل مكة المكرمة ، وهو التقاء خط ١٤٠ مع خط الاستواء .

* * * * *



رسم توضيحى تقريبى يبين مكان المستقر من الأرض وهو فوق المحيط الهادى عند إلتقاء خط الأستواء بالخط ١٤٠ درجة طول وهو المكان المقابل لمكة المكرمة . وتدور الشمس حول الأرض كل يوم مبتدأه من المستقر ومنتهية إلية مع حركتها فوق اليابس بين المدارين (السرطان والجدى مروراً بالاستواء) وذلك على مدار العام .

فهى كل يوم تطلع من مكان ثابت فوق المحيط وهو المستقر ولكنها كل يوم تجدد مطالعها على اليابس بين المدارين

معطيات الإسلام عن الشمس

(١) الشمس خلقت في الساعات الأخيرة من اليوم السادس من أيام الخلق . ولم تخلق كالأرض ، ولكنها خلقت بكن .. فكانت ، عمرها من عمر الأرض إلا أنها تصغر عنها بستة أيام . وستنتهي أيضا مع الأرض في يوم واحد .

(٢) والشمس ليست كروية وإنما هي كقرص الرحى . وهي تدور حول الأرض كل يوم في مدار دائري تماما طوله ٤٣٢٠٠٠٠ كم (أربعة مليون وثلاثمائة وعشرون ألف كم) .

(٣) قطر الشمس ٩٠٠٠كم بينما يبلغ قطر الأرض ١٤٠٠٠كم تقريباً . وتبعد الشمس عن الأرض بمسافة ٦٨٧٢٧٢.٧٢ كم (ستمائة وسبعة وثمانون ألف كم ومائتان واثنين وسبعين كم وسبعمائة وعشرين مترا) .

(٤) تقطع الشمس مدارها في يوم ٢٤ ساعة تقريبا بسرعة ١٨٠٠٠٠ كم / ساعة ، ٣٠٠٠ كم / دقيقة ، ٥٠ كم / ث . وتقف كل يوم لتسجد حوالي ٢.٤٥ دقيقة كل يوم .

(٥) عندما تكون الشمس في الأفق أي متأهبة للغروب (أو الشروق) فإنها تشغل بقرصها ٣/٤ درجة أي أننا لو وضعنا ٤٨٠ قرصا متجاورين متماسين فستحيط بالأرض تماما . ولو فعلنا ذلك بالقمر فإننا سنحتاج إلى ٣٦٠ قرصا تماما لأن قرص القمر عندما يكون مماس للأفق فهو يشغل درجة تماما . كذلك يستغرق قرص الشمس لكي يختفي من الأفق ٣ دقائق ، أما القمر فيستغرق اختفاء قرصه من الأفق ٤ دقائق .

(٦) تدور الشمس في الفلك الرابع حول الأرض بينما القمر في الفلك الأول وعطارد في الفلك الثاني ، الزهرة في الفلك الثالث .

(٧) نسبة محيط الأرض (٤٣٢٠٠ كم) إلى مدار الشمس (٤٣٢٠٠٠٠ كم) هو ١: ١٠٠ .

(٨) يصل ضوء الشمس إلينا في لمح البصر . ولا يستغرق ٨ دقائق كما يقولون .

(٩) تتحرك الشمس بين المدارين (السرطان والجدي) وكلاهما يقع عند خطي ٢٢.٧٥ شمال وجنوب الاستواء . ومجموعهما ٤٥.٥ ^{o} تطلع الشمس بينهما ذهابا ١٨٢ مطلعا وإيابا ١٨٢ آخرين لتتم سنتها ٣٦٤ يوم ، تزيد عليها ٦٢, من اليوم هي إجمالي مدة سجودها كل يوم ٢.٤٥ دقيقة .

وليس كما يقولون أن سنتها ٢٥, ٣٦٥ يوما . وحيث أن الشمس تطلع ١٨٢ مطلع في نصف السنة متخطية ٤٥.٥ ° (ما بين المدارين) فإن ذلك يعني أنها تقطع كل يوم ١/٤ درجة أي ٣٠ كم .

أثر الشمس في القارات

بما أن الشمس يكون طلوعها الدائب طول السنة بين المدوين (السرطان شمالا والجدي جنوبا ، يتوسطهما الاستواء) فإن في أثرها في القارات السبع لآية ، بل آيات :

أ – فقارة أفريقيا هي الوحيدة بين القارات التي يمر عليها جميع المدارات . بل هذه المدارات الثلاثة لتقسم القارة تقسيما دقيقا حكيما مما يوحي بأن يد القدرة قد عملت هذا التقسيم . حيث يمر خط الاستواء في منتصفها فيقسمها نصفين بالتساوي ، بينما المداران يسويان طرفيها الشمالي والجنوبي ، حيث تكون المسافة شمال مدار السرطان مساويا تماما المسافة في جنوب مدار الجدي . لذلك نجد الشمس قد صبغت أهل أفريقيا باللون الأسود عن غيرها من القارات .

ب – ثم هناك قارتين يمر عليها مداران هما آسيا وأمريكا الجنوبية . فآسيا يمر جنوبها مدار السلطان ، وأقصى الجنوب خط الاستواء . أما أمريكا الجنوبية فيمر وسطها مدار الجدي وشمالها خط الاستواء .

جـ – وهناك قارتان يمر بكل منهما مدار واحد . أحدهما شمالا (السرطان) يمر بجنوب أمريكا الشمالية . وجنوبا (الجدي) يمر بوسط استراليا .

د – وهناك قارة وحيدة لا يمر عليها أي مدار من مدارات الشمس وهي قارة أوربا التي لا يصل إليها إلا أشعتها فقط طول العام على معظم أجزائها . وأثر ذلك أيضا على لون بشرة سكانها .

هـ – ثم أخيرا القارة السابعة وهي القطبية الجنوبية (انتاركتيكا) ، وهي فضلا عن بعدها عن المدارات فإن أشعة الشمس لا تصيبها إلا نصف عام فقط . لذلك فهي قارة جليدية .

ملخص مدارات الشمس في القارات :

(١) قارة أفريقيا : الوحيدة التي تمر عليها المدارات الثلاثة بالتساوي .

(٢) قارة أوربا : الوحيدة التي لا يمر عليها أي مدارات .


أمريكا الشمالية
أوروبا
أسيا
مدار السرطان
أفريقيا
خط الإستواء
أمريكا الجنوبية
مدار الجدى
أستراليا
القارة القطبية الجنوبية (أنتراكتيكيا)

(٣) قارة آسيا : يمر عليها مداران (الاستواء ، والسرطان) .

(٤) قارة أمريكا الجنوبية : يمر عليها مداران (الاستواء ، والجدي) .

(٥) أمريكا الشمالية : يمر عليها مدار واحد (السرطان) .

(٦) استراليا : يمر عليها مدار واحد (الجدي) .

(٧) انتاركتيكا : لا يمر عليها أي مدار ، ولا يصلها شعاع الشمس إلا ٦ أشهر في السنة . إن هذا التقسيم البديع ، المحكم صنعته القدرة الإلهية بطحو الأرض إلى قارات متباينة . وبدوران الشمس حولها بين مدرات متساوية منطلقة من مكان واحد هو المستقر هذا التقسيم الذي لون البشرات بألوان متباينة ، وغير اللغات بألسنة مختلفة ، وهذا لا تصنعه الأرض بدورانها . إنما هذا من صنع الله عز وجل ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ (الروم:٢٢) .

وبطلوع الشمس بين المدارين تتحدد الفصول الأربعة ، ويتفاوت طولي الليل والنهار فعندما تطلع الشمس فوق خط الاستواء يكون الخريف والربيع في نصفي الأرض ثم عندما تصل الشمس إلى رأس السرطان يكون الصيف في النصف الشمالي والشتاء في الجنوبي . وعندما تعود الشمس إلى خط الاستواء مرة أخرى يكون الربيع والخريف بالتبادل بين نصفي الأرض . ثم عندما تصل الشمس إلى رأس الجدي يكون الصيف في النصف الجنوبي والشتاء في الشمالي وهكذا .

أما اختلاف طولي الليل والنهار وتباينهما طولا وقصرا فلحركة الشمس اليومية بين المدارين ، فعندما تكون مطالع الشمس ناحية السرطان يطول نهار النصف الشمالي ويقصر ليله . وفي نفس الوقت يقصر نهار نصف الأرض الجنوبي ويطول ليله . وعندما تكون مطالع الشمس ناحية مدار الجدي يحدث العكس . وعندما تكون مطالعها علي خط الاستواء يستوي الليل والنهار في نصفي الكرة الأرضية .

* * * * *

كيفية الدوران وتكون الفصول

تدور الشمس حول الأرض في مدار دائري تماماً طوله ٤٣٢٠٠٠٠ كم تقطع هذا المدار في يوم ٢٤ ساعة تقريبا .

تنهي الشمس دورتها اليومية ، وينتهي مدارها بوصولها إلى المستقر، وهو في فوق منتصف المحيط الهادي (جنوب شرق جزر هاواي) عند التقاء خط الاستواء بخط طول ١٤٠. هذه المنطقة هي التي تنتهي عندها دورة الشمس اليومية ، وهي التي يتم فيها السجود والاستئذان ، ويكون وقت الظهيرة في هذا المكان ، منتصف الليل في مكة . أما بالنسبة لحركتها على اليابسة فهي تنتقل كل يوم من مطلع إلى أخر فتقطع المسافة التي بين المداربين في سنة كاملة وهي ٤٥.٥ ° فتقطع كل يوم ١/٤ درجة فتكون قد طلعت ١٨٢ مطلع ثم تعود أدراجها إلى حيث بدأت في ١٨٢ مطلع آخر ليكتمل لها بذلك ٣٦٤ مطلع في السنة يضاف إليها مدة سجودها كل يوم ٢.٤٥ دقيقة أي في السنة ١٤ساعة و٥٢ دقيقة و٤٨ ثانية أي ٠,٦٢ من اليوم . لتكمل بذلك السنة الشمسية ٣٦٤.٦٢ وليس ٣٦٥.٢٥ .

* * * * *

كيف تدور الشمس بين المداربين ؟

لو اعتبرنا بداية السنة الشمسية من بداية طلوعها من مدار الاستواء . فإن ذلك يكون في ٢١ مارس وهو بداية فصل الربيع في النصف الشمالي ، والخريف في النصف الجنوبي ، فتبدأ الشمس بطلوعها من المستقر بعد استئذانها وتدور في مدار يقطع الأرض نصفين تماما .

وفي هذا اليوم يتساوى الليل والنهار تماما لكل منهما ١٢ ساعة . وتتساوى أشعة الشمس في انتشارها على الأرض . فالشمس توزع أشعتها ٩٠ درجة حولها في كل مكان . ففي هذا اليوم تكون الشمس عمودية تماما على خط الاستواء بينما تصل أشعتها إلى نقطة القطب الجنوبي وكذلك الشمالي بالتساوي ، حتى إذا ما عبرت اليابسة بعدما أشرقت عليها خارجة من المحيط بادئة بالشروق على جزر إندونيسيا مارة بالمحيط الهندي فقارة أفريقيا فالمحيط الأطلنطي فأمريكا الجنوبية ثم تعود إلى المحيط الهادي مرة أخرى من الغرب حتى تذهب إلى مستقرها فتسجد دقيقتين وثمانية وأربعين ثانية . وتستأذن للطلوع فيؤذن لها . فتعود لجريها منطلقة لتشرق على اليابسة من جديد فتطلع من المحيط إلى اليابس ولكنها قد تقدمت شمالا ٣٠ كم .

أي أنها تطلع من مطلع جديد بعد مطلع الأمس ١/٤ درجة شمالاً وتظل فى جريها حتى تغرب عن اليابسة من مغرب آخر شمال مغرب الأمس ١/٤ درجة أي ٣٠ كم .

ثم تواصل جريها حتي تصل إلى مستقرها وهو نفس مكان الأمس فهى لا تغير مستقرها لانه "مستقر" فتسجد لله عز وجل ٤٥ . ٢ق ثم تستاذن فيؤذن لها فتنطلق لتشرق على الأرض اليابسة بيوم جديد ومن مطلع القديم بـــ ٣٠ كم أى ١/٤ درجة وتكون الشمس وقت الظهيرة عمودية تماما على سكان خط الأستواء مع إنحرافها كل يوم ١/٤ درجة فى السمت ، فهي تكون عمودية على سكان ١/٤ الدرجة الذى تطلع منها أما غيرهم فهى تميل وقت الظهيرة بمقدار ما تركتهم . أى أن سكان خط الأستواء تماما تكون الشمس عمودية تماما عليهم يوم ٢١ مارس أما يوم ٢٢ مارس فإنها وقت الظهيرة تميل ١/٤ درجة عن العمود . وتكون عمودية تماما على سكان شمال الأستواء بـــ ٣٠ كم وهكذا فكلما مرت الشمس فوق درجة من الأرض تعامدت وقت الظهيرة على سكان هذة الدرجة وتكون مائلة على غيرهم بمقدار بعدها عنهم .

وهكذا تطلع الشمس كل يوم من مطلع جديد على سكان اليابسة ، لكنها كل مرة تعود فى المحيط إلى نفس مستقرها الذى عيناه ، ولا تتحرك عنه كل يوم إلا بمقدار ما تسجد . وتظل الشمس تتحرك فى شروقها وكذلك غروبها ناحية مدار السرطان كل يوم بنفس القدر ١/٤ درجة إلى أن تصل المدار بعد ٩١ مطلع فتكون قد قطعت ٧٥ . ٢٢ وعند حلولها رأس المدار تكون قد أنهت فصلى الربيع (في شمال الأستواء) والخريف (في جنوبه) وتبدأ فصلين جديدين ، الصيف على سكان شمال خط الأستواء ، لأن الشمس تطلع كل يوم فوقهم أو قريبا منهم . والشتاء على النصف الجنوبى حيث تطلع الشمس بعيداً عنهم . ويكون ذلك ٢١ يونيه . وتبدأ الشمس رحلة العودة من رأس السرطان متجهـــة كـل يـــوم ١/٤ درجة ناحية خط الأستواء وتطلع من مكـان المطلـع السـابق تمامـا ، وبعـد ٩١ مطلـع أى ٩١ يوما تصـل مرة أخرى إلى خط الإستواء فتنتهى بذلك فصلى الصيف والشتاء .

ويبدأ فصلين جديدين الخريف شمالا والربيع جنوبا (أي عكس ما حدث في المرة الأولى عندما كانت الشمس متجهةلمدار السرطان) . ويكون ذلك في ٢٢ سبتمبر .

أما عن الليل والنهار ؛ فإنهما يتساويان عندما تطلع الشمس فوق خط الأستواء ولكنها عندما تطلع بعد ذلك وهى متحركة في مطالعها جهة السرطان ، فإن النهار يطول دقيقة كل

يوم لأن الشمس تطلع كل يوم من مطلع يبعد عن سابقه ١/٤ درجة ، والدرجة ٤ دقائق كما ذكرنا .

وكلما زاد الليل نقص النهار بنفس قدر زيادة الليل . أي أن الليل والنهار يتبادلا هذه الدقيقة فيزيد هذا في ذاك . ثم عندما تعود الشمس من السرطان إلى الاستواء مرة أخرى يزيد ذاك في هذا . حتى يعودا كما كانا متساويين .

كذلك يختلف ليل ونهار المنطقة الشمالية عن ليل ونهار المنطقة الجنوبية لخط الاستواء اختلافاً تبادليا أيضا . فإذا كان في يوم ما ليل شمال الاستواء قصير ، كان في المقابل ليل الجنوب طويل .

ويكون ليل الشتاء طويل سواء أكان في الشمال أو في الجنوب . ونهاره قصير . وذلك لأن الشمس تكون بعيدة فيقصر وقت الشمس . ويكون ليل الصيف قصير ونهاره طويل لنفس العلة .

وزيادة دقيقة أو نقصانها في أحد الوقتين إنما يكون لسكان ما بين المدارين أما خارجهما فالمدة تزيد قليلا أو كثيرا حسب قرب أو بعد المكان من المدارين وهو ما سنبينه في حينه بإذن الله .

ثم ما حدث مع الشمس في النصف الشمالي أثناء تقدمها لمدار السرطان ورجوعها منه ، يحدث بنفس الصورة في النصف الجنوبي مع تبادل الفصول وتبادل طولي الليل والنهار . حتى إذا وصلت الشمس إلى رأس مدار الجدي تكون الشمس أيضا قد طلعت ٩١ مطلعا في ٩١ يوما فيبدأ فصلين جديدين الشتاء في الشمال والصيف في الجنوب ويكون ذلك في يوم ٢٢ ديسمبر ويسمى هذا اليوم (الانقلاب الشتوي) كما يسمى يوم ٢٢ يونيه (الانقلاب الصيفي) . أما في الربيع والخريف فيسمى بدايتهما (اعتدال الزمان) ، لأن فيه يتساوى الليل والنهار .

تبدأ الشمس رحلة العودة إلى خط الاستواء متبعة نفس المطالع السابقة حتى تصل مرة أخرى إليه يوم ٢١ مارس ، فتكون الشمس قد أتمت دورة كاملة ، قطعت فيها ١٢ برجاً وطلعت بين المدارين ١٨٢ مطلعا ذهابا ، ومثلها إيابا . فتكون قد طلعت في السنة ٣٦٤ مطلعا يضاف إليها أوقات السجود وقدرها ٦٢, من اليوم .

علاقة الشمس بسكان ما بعد المدارين

تدور الشمس حول الأرض من الشرق إلى الغرب ولكنها أثناء دورها لا تصل إلى أقصى شمال الأرض (القطب الشمالي) وإلى أقصى جنوبها (القطب الجنوبي) ولكنها تدور فقط متنقلة بين المدارين اللذين على بعد ٢٢.٧٥ شمالا وجنوبا أي ٤٥.٥ ° من ١٨٠° ، فهي تدور في ربع الأرض ولكنه الربع الأوسط والأكبر .

والشمس تتعامد على سكان المدارين حينما تمر فوقهم . ولكنها لا تتعامد أبدا على سكان ما بعد المدارين . بل أنها في أطراف الأرض قد تظهر ليل نهار ، في نصف سنة ، وقد تختفي ليل نهار ، في نصف السنة الأخرى وذلك بالتناوب بين الطرف الشمالي والطرف الجنوبي . وذلك لأن الشمس توزع أشعتها على الكرة الأرضية ٩٠ درجة في كل اتجاه ، فهي عندما تدور حول مدار الاستواء تصل أشعتها إلى القطبين ، ثم عندما تتجه مطالعها نحو مدار السرطان تتقلص أشعتها من عند القطب الجنوبي كل يوم ٣٠ كم أي ١/٤ درجة وفي نفس الوقت ترسل أشعتها إلى ما بعد نقطة القطب الشمالي وبنفس القدر الذي يتقلص من القطب الجنوبي يذهب إلى ما بعد القطب الشمالي حتى تصل الشمس إلى مدار السرطان فعندئذ يتقلص شعاعها حتى خط عرض ٦٧.٢٥ وسمي هذا الخط بالدائرة القطبية الجنوبية .

وتظل أشعة الشمس تتقلص عن هذه المنطقة يوما فيوم حتى يقف التقلص عند الدائرة القطبية الجنوبية يوم ٢٢ يونيه ، بينما يتخطى شعاع الشمس نقطة القطب الشمالي حتى يصل إلى ٢٢.٧٥ درجة زيادة على القطب . أي يصل إلى الدائرة القطبية الشمالية من الجهة المقابلة . أي تظل الدائرة القطبية الشمالية منيرة بالشمس طول ستة أشهر ، تصل في مناطق إلى حد أن ترى الشمس ليل نهار .

وعند القطبين يكون الوضع غريبا جدا لأن الشمس تظل دائرة حول الأرض ليل نهار . أما النصف الآخر فلا يرى الشمس ليل نهار وهكذا بالتناوب . هذا بالنسبة للراصد من فوق نقطتي القطبين تماما .

وتوقف الشمس وسجودها ليس أمرا معنويا ، بل أمرا ماديا ، وإن كان ليس بلازم أن يكون السجود لجميع الكائنات مماثل لسجود الإنسان على سبعة أعضاء .

وبإمكان التأكد من توقف الشمس لمدة ٢.٤٥ دقيقة كل يوم في المستقر .

وهذه المدة هي نفس المدة الـتي يسجدها الإنسـان. فمتوسـط سـجود المسـلم في صلاتـه حوالي ٥ ثواني في السجدة الواحدة. فـإذا كـان المسـلم يصلـي في اليـوم ١٧ ركعـة لخمـس فروض وفي كل ركعة سجدتين. فيكون إجمالي ما يسجده في اليـوم نفس ما تسجده الشمس في مستقرها.

والشمس عندما تجري فهي لا تفعل ذلك لمجرد الجـري، ولا لتـدور حـول الأرض بـل إنهـا تنطلق شرقا إلي مستقرها رغبة في التقرب رالي ربها لأنه، أقرب ما يكون العبد إلي ربه وهو ساجد، كما ثبت عن النبي صلي الله عليه وسلم. ولأن هذه الثواني هي زادها الباقيا لرحله وبه تتقوي وعليه تحيا ومن أجله تجري. وكأنها تحسب عمرها الحقيقي بهذه الدقائق المعدوده التي تتشرف فيها بالسجود والكلام إلي ربها عزوجل.

لقد أخبر تعالى المؤمنين بأن هـذه الأمـور الـتى ذكرناهـا تتـم بثبـات الأرض. واختـلاف مطالع الشمس يرجع لما سماه القرآن (المَشرِقَيْن) وأيضـا (المشـارق).

بـعد المشـرقين ٥٤٦٠ كم

يخبرنا الله تعالى بأن اختلاف الفصول والليل والنـهار لاختـلاف المشارق وتم هذا الأمر في آيات منـها:

(١) ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَـا﴾ (الأعراف:١٣٧)

(٢) ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الشعراء:٢٨)

(٣) ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَـارِقِ﴾ (الصافات:٥)

(٤) ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْـنِ﴾ (الرحمن:١٧)

(٥) ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّـا لَقَـادِرُونَ﴾ (المعارج:٤٠)

(٦) ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا﴾ (المزمل:٩)

(٧) ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْـرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِيـنُ﴾ (الزخـــرف:٣٨)

(٨) ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْـرِقِ﴾ (البقـرة:٢٥٨).

ذكرت الآيـات ﴿الْمَشْرِقِ وَالْمَغْـرِبِ﴾ و ﴿الْمَشْـرِقَيْنِ و الْمَغْـرِبَيْـنِ﴾ و ﴿الْمَشَـارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ إن هذه الآيات أيها السادة تبـين أمـورا لا يرقـى إليـها خيـال التجريبيـن، وهـى أمور لا ينتبه إليها إلا أولو الألباب. وعلماؤنا بإذن الله أهـل لذلك.

هذه الآيات ذكرت مشرق ومغرب مفردا ومثنى وجمعا.

كما ذكرت الآيات بعداً لما بين المشـــرقين .

أما ذكر المشرق والمغرب . بكل الصيـــغ ، مفـــرد ومثـــنى وجمـــع . تـــأكيد لأن الشـــمس لهـــا مشرق تشرق منه ولها مغرب تغـــرب فيـــه وأنهـــا ليســـت ثابتـــة بالنسـبة لـــلأرض ، وأن حركـــة الشمس التي نراها حركـــة حقيقيـــة ، وليـــس كمـــا يقولـــون : " أنهـــا حركـــة ظاهريـــة " " وأن الأرض هي التي تتحرك " " وأنه بمجرد دورانها تظـــهر الشـــمس " .

يمحو القران هذا الوهم بتأكيد أن هناك مشرق ومغـــرب بـــل مشـــرقين ومغربـــين . والمشـــرقين هما مشرق الصيف ومشرق الشتاء ومثلهما للمغربين ، أي مـــداري الســـرطان والجـــدي .

وأما المشارق والمغارب فهي مطـــالع الشـــمس وعددهـــا ١٨٢ مطلـــع في المشـــرق ومثلـــها في المغرب . وهذه المطالع بين المدارين تطلع فيهما الشمس مرتين مـــرة ذهابـــا وأخـــرى إيابـــا لتكـــون الفصول الأربعة ولتكون سنة شمســـية .

أما ذكر الآيات لمشرق ومغرب ولم تذكـــر فيـــها شمـــالا وجنوبـــا ، لأن الأمـــر ليـــس متعلقـــا بجهات للأرض بقدر ما هو متعلق بمطالع ومســـاقط للشـــمس . وممـــا يؤكـــد ذلـــك أن القـــرآن لم يذكر الجهتين الأخريين الذين تعارفنا عليهما الشـــمال والجنـــوب . ولكـــن القـــرآن يذكـــر فقـــط الشـــرق والغـــرب . مما يعـــنى أن الأرض لهـــا اتجـــاهين رئيســـين متعلقـــين بمطـــالع الشـــمس ومساقطها . مما يعنى أكثر أن الشمس لها اتجاهين ثابتين لا غير تـــأتي وتذهـــب فيـــهما .

ويبدو هنا سؤالا ولا تبـــدو لـــه إجابـــة ، وهـــو : هـــل دوران الأرض حـــول الشـــمس كمـــا تقولون سيجعل هناك اتجاهين محدديـــن ؟ إن الأرض بهـــذا الـــدوران فضـــلاً عـــن دورانهـــا حـــول نفسها ، بالإضافة لباقي حركاتها تنفي أن يكـــون لهـــا أي اتجـــاه ثـــابت لا مشـــرق ولا مغـــرب: ولا غيرهما . بل سيصبح الشرق غربا والغرب شرقا بعـــد ١٢ ســـاعة مـــن الـــدوران . فعندمـــا تكـــون الساعة ٧ صباحا تكون الهند في الشرق ونيويورك في الغـــرب ، أمـــا بعـــد ١٢ ســـاعة – أي بعـــد نصف دوره للأرض – سيصبح العكس ، فستكون الهند غربـــا ونيويـــورك شـــرقا .

ولكن الآيات حددت أن الأرض لها مشـــارق ومغـــارب ، أي أمـــاكن تطلـــع منـــها الشـــمس وأماكن تغرب فيها . ويقول تعالى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّـــمْسِ مِـــنَ الْمَشْـــرِقِ﴾ فـــهو اتجـــاه ثـــابت ومكان محـــدد .

أما بعد المشرقين الذى ذكر فى قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ (الزخرف: ١٣٨) فالمشرقين هما : مدار السرطان ومدار الجدى فهما مشرقا الشمس صيفا وشتاء وبعد ما بينهما ٥٤٦٠ كم . هذه المسافة عرفناها بالحساب والاستنتاج والإعجاز العددى للقرآن الكريم .

أما معرفتها بالإعجاز العددي للقرآن فقد حصرنا الآيات التى وردت فيها المشارق والمغارب ويجمع أرقام هذه الآيات وجدنا أنها كالتالى :

السورة	الأعراف	الصافات	المعارج	المجموع
رقم الآية	١٣٧	٥	٤٠	١٨٢

وهو عدد مطالع الشمس وبضرب هذا الرقم فى عدد أيام الشهر ٣٠ فيكون ٥٤٦٠ كم .

أما الحساب فهو بضرب مسافة الدرجة ١٢٠ كم × عدد درجات المدارين ٤٥,٥ فيكون الناتج : ٥٤٦٠ كم .

أين عرش ابليس ؟

قد يندهش جمهور المسلمين إذا أخبرناهم بأحاديث صحيحة عديدة لرسول الله صلى الله علية وسلم يحدد فيها مكان عرش إبليس ولماذا اختار هذا المكان بالتحديد ليكون مقرا لعرشه . ويتسأل بعد ذلك المسلمون ولماذا لا يخبرنا علمائنا بهذه الأحاديث لنولي الأمر أهميته ؟

والإجابة : أن علماء المسلمين يستحون أشد الحياء من هذه الأحاديث التى تخالف ما يقوله السادة التجريبيون . ومع ذلك فتستأذن علمائنا الأجلاء أن نكشف لجماهير المسلمين بعضا من العلم المكتوم .

روى أحمد عن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله علية وسلم قال : "عرش إبليس فى البحر يبعث سرياه في كل يوم يفتنون الناس وأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة للناس" .

وإبليس علية اللعنة يحاكى الله عز وجل ، كفرا منه واستكبارا . فإذا كان للرحمن عرش فإنه يتخذ لنفسه أيضا عرشا . وإذا كان عرش الرحمن على الماء فإن الشيطان يتخذ لنفسه عرشا على الماء

والبحر عند العرب إذا ذكر مطلقا فهو البحر المحيط أي المحيط الهادي . والشيطان يتخذ المحيط الهادي مقرا لعرشه لأنه أولاً أكبر بحر في الأرض ولأنه ثانيا يريد أن يكون متصلا بكل الأرض وأسهل وأمثل وسيلة هو البحر المحيط الذي يتخلل جميع القارات وهو أكثر من نصف الأرض . كما أن البحر عموما هو الموطن الأصلي للجن . وروى البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال " رأس الكفر نحو المشرق " . وروى البخاري أيضا ومسلم عن الزهري عن سالم عن النبي ﷺ أنه قام إلى جانب المنبر فقال : " الفتنة هاهنا . من حيث يطلع قرن الشيطان " أو قال " قرن الشمس " .

وروى البخاري عن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال " إذا طلع حاجب الشمس فدعو الصلاة حتى تبرز . وإذا غاب حاجب الشمس فدعو الصلاة حتى تغيب . ولا تحينوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها ، فإنها تطلع بين قرني شيطان ، أو الشيطان " .

فهذا الحديث وغيره يبين مكان العرش وبالتالي مكان المستقر ، لأن الشمس عندما تصل إلى مستقرها في نهاية وبداية سيرها يكون الشيطان منتصباً تحتها بقرنيه كأنها تسجد له وتستأذنه – هكذا يوهم نفسه – وكأن عباد الشمس الذي يسجدون لها في طلوعها أو غروبها يسجدون له – يوهم نفسه أيضا .

هكذا وجد الشيطان الرجيم أنسب مكان لعرشه وجعله مستقرا تحت مستقر الشمس حيث تسجد هي لربها ، وحيث يسجد لها عبادها . وهي حلقة من قصة إبليس مع الشمس . وكثيرة تلك الأحاديث الذي تؤكد أن الفتنة في الشرق وأن إبليس عرشه في البحر وأن الشمس تطلع بين قرنيه .

ومعرفة مكان عرش إبليس يفسر لنا اللغز المحير لهذا المكان من المحيط الهادي من اختفاء للسفن والطائرات وحوادث يشوبها الغموض .

فلا نتعجب إذا عرفنا مصير سفينة أو طائرة تمر فوق عرش الشيطان .

سورة الشمس

ليس في القرآن سورة باسم الأرض ، وذلك لأن الأرض ليس لها أي فعل ، ولا أي حركة بخلاف الشمس التي لا تتوقف عن الحركة إلا لتسجد ثم تستأذن وتستأنف سيرها :

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا

فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)﴾ .

نزلت سورة الشمس في مكة وترتيبها في النزول (٢٦) ولكن ترتيبها في المصاحف رقم (٩١) وآياتها(١٥) آية .

وقد تبدو السورة للوهلة الأولى غريبة لاختصاص ثمود بالذكر فيها دون كل الأمم أو لأنها ذكرت أصلا في سورة تتحدث عن آيات كونية . لكن المتدبر سيجد أن الأمر عجيب وليس غريب . ومعجز رغم أنه موجز .

ففيها ١٠ آيات تتحدث عن آيات عامة ، و٥ آيات تتحدث عن آيه خاصة ، والآيات العامة ٤ منها عن الشمس وحدها : ضوءها وحرارتها في آية . وحركتها في الثانية ، وإظهارها في الثالثة ، واختفاءها في الرابعة .

وآية عن بناء السماء ، وآية عن تقسم قارات الأرض . و٤ آيات عن النفس : تهيئتها لقبول الخير والشر في آية ، وإيداع علم الخير والشر في النفس ، فتعرف أن هذا خير وهذا شر بالفطرة في آية ثانية . وأن من يزكي نفسه بأن يجعلها تعمل الخير دائما فسوف يفلح ، وهذه التزكية غير التزكية المنهي عنها في قوله : ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ (النجم :٣٢) . فهذه تزكية مرفوضة إذا كانت تزكية إدعاء ، وقول ، وكلام ، بأن ينسب الإنسان لنفسه أو حتى لغيره فردا كان أو جماعة الصلاح والتقوى . فهذا لا يجوز أما أن يزكى نفسه بالفعل والعمل فهذا هو المطلوب والهدف الأساسي من الابتلاء .

وسيخسر خسرانا مبينا من يغمس نفسه في الشر والرذيلة لأنه سيوردها نار جهنم يوم القيامة وهذه خية من الإنسان ما بعدها خيبة .

وهذه الشمس بما تفعله وما يفعله القمر والليل والنهار معها آية لا تخفى على أحد أنها دليل على قدرة الله ووحدانيته ، وأنه المتصرف والمدبر لأمر الشمس وحده بلا شريك . وآية السماء بناءها العظيم المبهر الذي ليس فيه أي عيب أو خطأ أو يشوبه أي خلل ، آية على وجود الله العظيم وجماله وإبداعه .

وآية الأرض بتغطيتها بالماء من كل نواحيها وتوزيع الأرض اليابسة وارتفاعها عن الماء بالقدر الذي يمنع الماء من الطغيان عليها وبالقدر الذي يسمح للشمس أن توزع ضوءها

بتناسق وتباين مراد . حيث تختلف بهذا التقسيم للقـــارات ، عـادات النـاس وتقـاليدهم وألوانهـم وألسنتهم وميولهم ونشاطهم وأعمالهم وثقافاتهم واشـكالهم وأحجامـهم وأطوالهـم . وذلـك ليتـم تبادل العلاقات بينـهم واحتيـاج بعضـهم لبعـض والانجذاب بعضـهم لبعـض . كقولـه تعـالى ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْـدَ اللَّـهِ أَتْقَـاكُمْ﴾ (الحجرات:١٣) . فبـدأ ذلـك بطحو الأرض أي تقسيمها بهذا الشكل المعجز الـذي هـو فعـل الله لا فعـل السنين وهـو مـن قدرته تعالى ، لا من زحزحة القارات عبر ملايـين السـنين .

وآية النفس العجيبة وهي النفس الإنسـانية الـتي تختلـف عـن كـل النفـوس . في قابليتـها لعمل الشيء ونقيضه . والتي من أجلها قام هذا الامتحان الكبير ، ولهـا سـخر كـل شـيء . كـل ذلك آيات بينات باهرات سواء في النفـس أو الآفـاق .

ورغم هذه الآيات التي لا يختلف أحد على عظمتها شـأن الإنسـان أعـرض عنـها ولم يلتفـت إليها ، فأرسل الله إلى الأمم آيات خاصة لهم ، وكان منها آيـة الناقـة .

وسبب ذكرها في سورة الشمس لأنها كانت آية كالشـمس في ضحاهـا . وثمـود هـم الذيـن طلبوها . لقد أعلنت ثمود لصالح أنها لن تؤمن به إلا إذا جاءهم بآيـة فكـان مـا طلبـوا ، وأخـرج لهم الله من صخور الجبل ناقة عظيمة الجسم بديعة الشكل وشـهدوا جميعـا هـذا الحـدث بأعينـهم وعلموا جميعا أنها ناقة الله ومع ذلـك كذبـوا رسـولهم ﴿فَقَـالَ لَـهُمْ رَسُـولُ اللَّـهِ نَاقَـةَ اللَّـهِ وَسُقْيَاهَا﴾ أي .. أليسـت هذه هي الآيـة الـتي طلبتموهـا للإيمـان . ولمـا رأى صـالح طغيـانهم ، خاف عليهم فحذرهم مغبة أن يحدثوا أمرا في الناقة أو مسـقاها . فكـان مـا خشـى صـالح منـه ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْـهِمْ رَبُّـهُمْ بِذَنْبِـهِمْ فَسَـوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَـافُ عُقْبَاهَـا(١٥)﴾ أي أنه تعالى يفعل ما يريد ولا يخاف عاقبة ما يفعل ، فلا معقـب لحكمـه .

البـروج و المنـازل

ذكرت هاتان الكلمات في القـرآن .

أما البروج فقد ذكرت أربع مرات . يقـول تعـالى :

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ (البروج:١)

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّـمَاءِ بُرُوجًـا وَزَيَّنَّاهَـا لِلنَّـاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَـا مِـنْ كُـلِّ شَـيْطَانٍ رَجِيمٍ(١٧) ﴾ (الحجـر)

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُـرُوجٍ مُشَـيَّدَةٍ﴾ (النساء:٧٨)

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (الفرقان:٦١) .

فالسراج وهي الشمس والقمر المنير يسيران ويتنقلان في هذه البروج .

وأصل البروج : الحصون . فهي حصون مشيدة بالنجوم (كأنها قلاع) كشأن الحصون أن تكون في أماكن مرتفعه من الأرض و هي تشيد على أعلى مكان في البلدة كذلك بروج السماء فهي أعلى شيء في السماء . لأنها مكونة من النجوم . وهي محميات براجمات الشهب وهي تدور في السماء . ولقد ضرب الله بها المثل لقدرته تعالى في الموت فقال ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ . لأنها أعلى مكان في السماء ومحفوظة بأقوى أساليب الدفاع .

ولا خلاف بين الأمم في أنها اثنا عشر برجاً . تسميها كل أمة بلسانها ، ويتفقون في المعنى على أسماء العرب لها ويبدءون بما ابتدأت به العرب منها ، وهي : الحمل (الكبش) ، والثور ، والجوزاء (التوأمان) ، والسرطان ، والأسد ، والعذراء (السنبلة) ، والميزان ، والعقرب (الصورة) ، والقوس (الرامي) ، والجدي ، والدلو والحوت (السمكة) .

وسموا الأبراج بهذه الأسماء لأن نجومها كانت مشاكلة للصورة المسماة بأسمائها . فأسماء الأبراج تبعا لما تخيله الناس من صور تكونها النجوم في السماء . وسمي المداران اللذان تدور الشمس بينها باسمي النجمين المقابلين للمدارين في القبة السماوية . فهذا السرطان لأنه يقابل نجم السرطان . وذاك الجدي لمقابلته لنجم الجدي فيها .

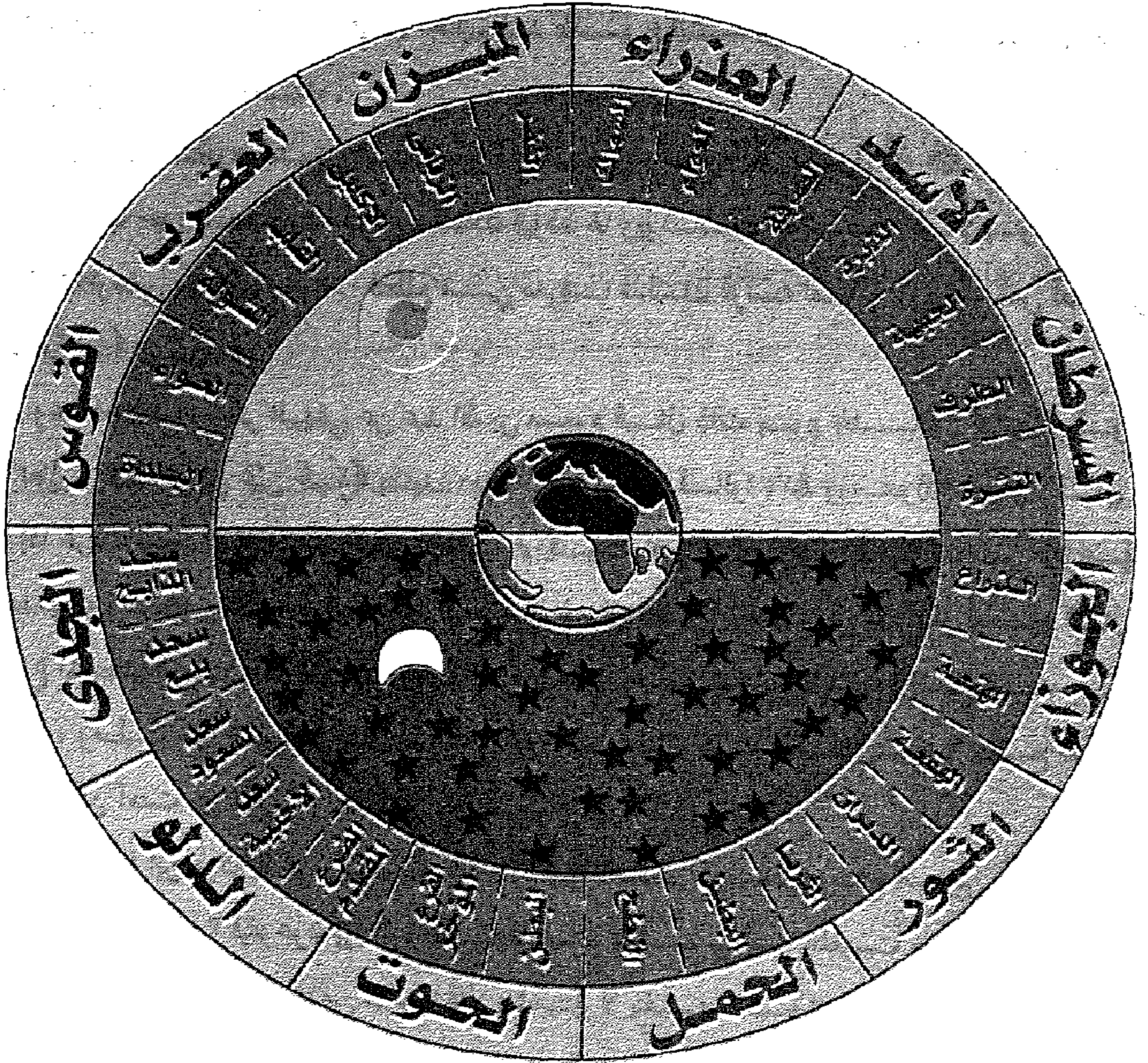
وقسمت هذه الأبراج الإثنى عشر إلى منازل ، هي عند جميع الأمم ثمانية وعشرون منزلا وتسميها كل أمة بلسانها ، ويتفقون في معانيها ويبدءون بما ابتدأت به العرب منها وهي : النطح ، والبطين ، والثريا ، والدبران ، والهقعة ، والهنعة ، والذراع ، والنثرة ، والطرف ، والجبهة ، والزبرة ، والصرفة ، والعواء ، والسماك ، والغفر ، والزباني ، والإكليل ، والقلب ، والشولة ، والنعائم ، والبلدة ، وسعد الذابح ، وسعد بلع ، وسعد السعود ، وسعد الأخبية ، والفرع المقدم ، والفرع المؤخر ، والبطن .

وهذه الاسماء هي أسماء لنجوم تقابل أجزاء شكل البرج ، فمثلا الزراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك هي أعضاء الأسد . والزباني والإكليل ، والقلب ، والشولة ، كلها أعضاء للعقرب . وهكذا .

والأبراج والمنازل هي التي يجري فيها القمر والشمس والكواكب ، فالشمس تبقى في كل برج من هذه الأبراج شهر ، وتنزل كل من هذه المنازل ١٣ يوم .

القطب: نقطة لا تتحرك، يدور حولها الفلك، وفي القاموس نجم تبني عليه القبة وهي نقطة لا تبلغها الشمس والقمر، ولا غيرهما من الكواكب الدراري. والقطب لا يزول كما لا يزول قطب الرحى. وللفلك قطبان. قطب في الشمال، وقطب في الجنوب على نقطتين متقابلتين، تدور الكواكب كلها بين النقطتين. ويرى ذلك سكان المناطق القريبة منهما. وفى إطلاق لفظ القطبين على القطب الشمالى والقطب الجنوبى للأرض لا يعنى أن الأرض تدور حول هذين القطبين. ولكن لأن كلا منهما يقابل نقطة القطب فى القبة السماوية. وكأن القبة رحى تدور حول هذين القطبين المرتكزين بين الأرض والسماء.

* * * * *



شكل تقريبي للأرض والقبة السماوية حولها وبها الأبراج وعددها ١٢ والمنازل وعددها ٢٨ منزلا . والشمس والقمر ينزل هذة المنازل والأبراج . فالشمس تنزل المنزلة وتبقى فيها ١٣ يوما أو تبقى فى البرج شهرا . ويلاحظ فى الأبراج أنها تشغل منزلتين وثلث منزلة فكل برج لة منزلتان وثلث . وأعطيت للمنازل أسماء هي أشهر أسماء النجوم الموجودة بها والذى تكون الشمس قريبة منها وكذلك القمر . وكما هو واضح يشغل نصف السماء ٦ أبراج دائماً . فلا تخلو القبة من وجود ٦ أبراج تختلف شهريا .

طلوع الشمس من مغربها

من الأمور المتفق عليها لدى جميع المسلمين طلوع الشمس من مغربها فقد ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ بأحاديث صحيحة رواها كل رواة الأحاديث لأن طلوع الشمس من مغربها علامة انتهاء الامتحان الكبير والابتلاء العظيم فبعد طلوع الشمس من مغربها لا يقبل إيمان أحد لم يكن مؤمنا قبل ذلك .

وفي حديث سجود الشمس الذي رواه البخاري وغيره أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر : " فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يؤذن لها . ويقال لها ارجعي من حيث أتيت . فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ (يس:٣٨) .

وعن الحافظ أبو بكر البيهقي عن عبد الله بن مسعود قال ذات يوم لجلسائه : أرأيتم قول الله تعالى : ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ (الكهف:٨٦) ماذا يعني ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : أنها إذا غربت سجدت له وسبحته وعظمته ثم كانت تحت العرش ، فإذا حضر طلوعها سجدت له وسبحته وعظمته ثم استأذنته . فيقال لها : البقي . فتجلس مقدار ليلتين قال: ويفزع المتهجدون وينادى الرجل تلك الليلة جاره يا فلان . ما شأننا الليلة . لقد نمت حتى شبعت ، وصليت حتى اعييت ثم يقال لها اطلعي من حيث غربت فذلك يوم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل . أو كسبت في إيمانها خيرا " .

وفيما رواه ابن مردوية عن رسول الله ﷺ : " فبينما هم كذلك صاح الناس بعضهم في بعض فقالوا : ما هذا ؟ فيفزعون إلى المساجد . فإذا هم بالشمس قد طلعت حتى صارت في وسط السماء ، رجعت فطلعت من مطلعها قال : فحينئذ لا ينفع نفساً إيمانها " .

والسؤال هنا : لمن الخطاب ؟ هل هو للشمس أم للارض ؟ كيف ستطلع الشمس من مغربها ؟ هل ستدور إلى الجهة الأخرى ؟

هل ستغير الشمس من اتجاهها تماماً . فبدلا من الدوران حول المجرة ، ستلتفت للأرض وتدور حولها ؟

وفي الحديث الذي رواه أحمد " ثم تستأذن في الرجوع فلا يرد عليها شيء ، حتى إذا ذهب من الليل ما شاء الله أن يذهب . وعرفت أنه وإن أذن لها في الرجوع لم تدرك المشرق قالت : رب ما أبعد المشرق . من لي بالناس . حتى إذا صار الأفق كأنه طوق استأذنت في الرجوع فيقول لها . ارجعي فاطلعي من مكانك ، فطلعت على الناس من مغربها " .

فهذا يؤكد أن الشمس تشرق كل يوم كعادتها مـــن المشــرق ، لقولــه "وعرفــت انــه وإن أذن لها في الرجوع لم تدرك المشــــرق .. " .

وكيف ستعود من حيث أتت إذا كانت هي تجرى نحـــو المجـرة أو نحـو أي شـيء مـن ذلـك الذي يدعونــه ؟

كذلك لا يمكن أن يكون طلوعها من المغـــرب هــو تغيــير دوران الأرض حيــث تــدور مـن الشرق إلى الغــرب .

نعتقد أيها السادة لو لم يكن هناك أدلـــة علـى دوران الشـمس حـول الأرض وثبـات هـذه الأخيرة سوى هذا الدليل لكفـــي . فمـاذا سـتقولون فيــه إرضــاءً لكوبرنيقـوس أو جـاليليو أو غيرهمـا ؟

هل هذه الأحاديث لم تصل ليد علمائنا الأجلاء ؟ ولـــو كــانت وصلتــهم فمـا ردهـم عليـها هل يكذبون رسول الله ؟ هل يكذبون الرواة ؟ هل لديهم فهم خـــاص لهــذه الأحــاديث ؟

* * * * *

الباب الخامس

آية القمر

إحدى آيات الله تعالى ، وبدعا من إبداعاته ، ونعمة تامة للناس ، وهم عنها غافلون ، إنه القمر ، دليل الحيارى ، وسمير المستوحشين ، ورفيق الطريق ، ذلك القرص الأبيض الذي يتحدى في علبائه ظلمات الليل ، والذي يغشى نوره نور كل الكواكب والنجوم . ممتع مرآه هلالاً . وملهم مرآه بدراً .

ذلك الذي من روعته وجماله وجلاله عبد . وما هو إلا آية واحدة من آيات الله في الكون. قد يعرف الكثير من الناس فائدة الشمس ، ولكن الكثيرين جدا يجهلون فائدة القمر .

يقول ابن القيم في وصف الشمس والقمر في كتاب (التبيان في أقسام القرآن) : " ومن تدبير أمر هذين النيرين العظيمين وجدهما من أعظم الآيات في خلقهما وجرمهما ونورهما وحركاهما على نهج واحد لا ينيان ، ولا يفتران ، دائبين ، ولا يقع في حركتهما اختلاف بالبطء والسرعة ، والرجوع والاستقامة ، والانخفاض والارتفاع . لا يجرى أحدهما في فلك صاحبه . ولا يدخل عليه في سلطانه . ولا تدرك الشمس القمر ، ولا يجيء الليل قبل انقضاء النهار . بل لكل حركة مقدرة ، ونهج معين لا يشركه فيه الآخر . كما أن له تأثير ومنفعة لا يشركه فيها الآخر . فهذا القمر جرم أسود مستدير . عظيم الخلق ، يبدو النور بخيط متسخن ثم يتزايد كل ليلة . حتى يتكامل نوره فيصير أضوء شيء وأحسنه وأجمله ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حاله الأولى فيحصل بسبب ذلك معرفة الشهور والسنين . وحساب آجال العلم . من مواقيت حجهم وصلاقم ومواقيت اجائزهم ومداينالهم ومعاملاقم التي لا تقوم مصالحهم إلا بها ، فمصالح الدنيا والدين متعلقة بالأهلة .

فإذا تأمل هذا البصير اللبيب ورأى أن هذا الجرم ، وإلى سيره دائبا لا يفتر مسخر ، مدبر ، وهبوطه تارة وارتفاعه أخرى ، وأفوله تارة وظهوره تارة ، وذهاب نوره شيئا ثم عودته إليه كذلك ، وسبب ضوئه جمله واحدة حتى يعود قطعة مظلمة بالكسوف علم قطعا أنه مخلوق مربوب مسخر ، تحت أمر خالق قاهر مسخر له كما يشاء ، وعلم أن الرب سبحانه لم يخلق هذا باطلا وعلم أن هذه الحركة فيه لابد أن تنتهي إلى انقطاع وسكون ، وأن هذا الضوء والنور لابد أن ينتهي إلى ضده ، وأن هذا السلطان لابد أن ينتهي إلى العزل وسيجمع بينهما جامع المتفرقات بعد أن لم يكونا مجتمعين ويذهب بهما حيث يشاء .

ولو شاء الله تعالى لأبقى القمر على حالة واحدة لا يتغير ، ولجعل التغير في الشمس ، ولو شاء لغيرهما معا . ولو شاء لابقاهما على حالة واحدة . ولكن يرى عباده آياته في أنواع تصاريفها ليعلم على أنه الله الذي لا إله إلا هو الملك الحق المبين ، الفعال لما يريد ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ (الأعراف: ٥٤) .

أما تأثير القمر في ترطيب أبدان الحيوان والنبات . وفي المياه ، وجزر البحر ومده وبحرانات الأمراض وتنقلها من حال إلى حال وغير ذلك من المنافع فأمر ظاهر .

ومن تأمل حكمته سبحانه في ارتفاع الشمس وانخفاضها ولإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة وما في ذلك من مصالح الخلق ، ففي الشتاء تغور الحرارة في الشجر والنبات . وحصول الأفعال و لقوى وحركات الطبائع . وفي الصيف يحزم الهواء فينضج الثمار . وتشتد الحبوب ، ويجفف وجه الأرض ، فيتهيأ للحمل والنبات ، بمنزلة راحة الحامل بين الحملين ، ففي هذه الأزمنة مبدأ ومعاد مشهود ، وشاهد بالمبدأ والميعاد الغيبي . وبمصلحة هذين النيرين تتم مصالح العالم ، وبذلك يظهر الزمان ، فإن الزمان مقدار الحركة . فالسنة الشمسية مقدار سير الشمس من نقطة الحمل إلى مثلها والسنة القمرية مقدرة بسير القمر وهو أقرب إلى الضبط واشتراك الناس في العلم به ، وقدر أحكم الحاكمين تنقلهما في منازلهما لما في ذلك من تمام الحكمة ولطف التدبير ، فإن الشمس لو كانت تطلع وتغرب في موضع واحد لا تتعداه لما وصل ضوءها وشعاعها إلى كثير من الجهات ، فكان نفعها يفقد هناك . فجعل الله سبحانه طلوعها ، دولا بين الأرض لينال نفعها وتأثيرها كل البقاع . فلا يبقى موضع من المواضع التي يمكن أن تطلع عليها إلا أخذ بقسط من نفعها واقتضى هذا التدبير المحكم أن وقع مقدار الليل والنهار على ٢٤ ساعة . ويأخذ كل منهما من صاحبه . ومنتهى كل منهما إذا امتد خمسة عشرة ساعة ، فلو زاد مقدار النهار على ذلك إلى ٥٠ ساعة مثلا أو أكثر لاختل نظام الكون أيضا ، وتعطلت المصالح . ولفسد أكثر الحيوان والنبات وكذلك لو نقص .

ولو استويا لما اختلفت الفصول في السنة لأن باختلافهما مصالح العباد والحيوان فكان في هذا التدبير المحكم من الآيات والمصالح والمنافع ما يشهد بأن ذلك تقدير العزيز العليم " أ . هـ .

القمر المظلوم

القمر عند التجريبيين الآن لا قيمة له ، خاصة بعدما صعدوا إليه ولم يجدوا فيه ما يساوى ما أنفقوه في سبيله ، وما تكبدوه وما ضحوا به من أرواح من أجل السير دقائق على ظهره . فالقمر لا علاقة له في تحديد المواقيت . وتقويم الشهور ، لأنهم يتخذون الشمس دليلا فيعرفون بها اليوم والشهر والسنة . والقمر لا يعترفون به .

وهو عندهم تابع للأرض لا فائدة منه إلا أنه أحد أجرام السماء التي يوجد في المجموعة الشمسية – كما يسمونها – ٦١ قمرا مثله . فمعظم الكواكب حولها أقمار . وإن كان في القمر نفع فهو ملهم لبعض الشعراء ، وما خلا عاشقين إلا كان هو ثالثهما، ولعل هذا هو أهم دور للقمر الآن أنه حارس للعشاق أو هو ضروري لاكتمال المشهد الجمالي لهم .

هذه الصورة على النقيض مما كانت تبدو للقمر قديما . فقد اتخذته أمم كثيرة معبودا لهـا . ومنهم من اتخذه إلها مستقلا لا شريك له ، ومنهم من عبده مع الشمس ونسبوا لهما الاختصاصات . وقد ظلموه قديماً وحديثاً .

ولم تقدر البشرية قيمة القمر التي خلقه الله لها . ولم يعترفوا بالمهمة الرئيسية للقمر ، والتي من أجلها خلقه الله وسخره .

القمر في القرآن

خلق من خلق الله ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ (الأنبياء:٣٣) فلم يتكون القمر من اصطدام الشمس بنجم ، أو من دمار نجم ، كما أنه لم يتكون من المحيط الهادي ، فلم يخرج القمر من الأرض أبداً . وإنما هو خلق مستقل تماماً .

وهو أيضا آية من آيات الله ، وليس (ديكورا) لجلسة شاعرية رومانسية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (فصلت:٣٧) . آية دالة على وجوده وقدرته وعلمه وحكمته ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

والقمر كغيره من مخلوقات الله العابدة ، الطائعة . وقد أخبر تعالى أنه أحد العابدين وثاني السبعة الذين يسجدون لله : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ...﴾ (الحج:١٨) وهو واحد من الذين سخرهم الله تعالى للإنسان ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ (إبراهيم:٣٣) ويجرى القمر كالشمس . ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي﴾ (الزمر:٥) .

وليس في الكون كله إلا قمران : قمر في السماء ، وآخر في الأرض . وقمر السماء لا يوجد في الكون غيره لقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦)﴾ (نوح) ففي السموات السبع لا يوجد إلا قمرنا هذا .

ويقولون أن للمريخ قمران وللمشترى ١٦ قمر وزحل ٢٣ قمر حتى عدوا أكثر من ستين قمرا في الفضاء ، فهذا كله باطل ، والقرآن يخبر أن هناك قمر واحد . والكتاب المقدس يخبر أن هناك قمر واحد وكل تاريخ البشر وكل الحضارات تقول بأن في السماء قمر واحد . وعيناي لا ترى إلا ذلك .

وما يقوله المنجمون والفلكيون فهو كذب . وتكذيب لكل من ذكرت . تماما كما كذبوا في قولهم عن الأرض بأن هناك مثلها ملايين في الفضاء . فالقمر بهذا الشكل المتميز ، بحجمه وشكله ونوره ومنازله وسيره ، فليس في السماء إلا هو .

وفي القرآن ذكر القمر ٢٨ مرة ، معظمها آيات مكية . ومن هذا العدد ذكر مرة (أهلة) وهذا الرقم ٢٨ هو نفس عدد منازل القمر .

اقترن ذكر القمر بذكر الشمس ١٥ مرة وجاء فيها جميعا تالي لها (الشمس والقمر) وهو تأكيد لقوله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾ (الشمس:٢) أي تلا الشمس . فليس القمر تابع للأرض ولكن هو – إن جاز التعبير – تال وتابع للشمس . لأن معنى تلا : تبع . كما أن القمر لم يقترن ذكره بالأرض أبدا .

ويوجد في القران سورة باسم (القمر) كما للشمس . ترتيبها في المصاحف رقم ٥٤ .

قمرنا في الأرض

وكما أن في السماء قمر ففي الأرض قمر آخر ، هو : محمد ﷺ . بل أخبرنا الله أنه قمر الأرض وشمسها كقمر السماء وشمسها سواء بسواء أليس الله تعالى يقول : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (الفرقان:٦١) والسراج هو الشمس .

ويقول تعالى عن محمد ﷺ : ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (الأحزاب:٤٦) .

ونفس الوظائف والخصائص التي جعلها الله للشمس والقمر في السماء جعلها لرسول الله ﷺ في الأرض . فهو زينة الأرض ، وهو ضوءها ونورها وهو ﷺ مثلهما الهادي من الضلال ، والمخرج من الظلمات إلى النور ، وهكذا قال الله تعالى عن الشمس والقمر ومحمد ﷺ فقال تعالى عن القمر ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ (يونس:٥) وقال عن محمد ﷺ ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة:١٥) .

يدور القمر حول الأرض يومياً

قلنا أن البشر ظلموا القمر ، وحرموه من ثمرة كفاحه ، وقد ظل يجرى حول الأرض منذ أن خلقه الله حتى الآن ، وحتى آخر لحظة من عمره لهدف أساسي وجوهري هو أن يكون تقويما لعدد السنين والحساب . وهو دور مكلف به من الله تعالى . وقام به القمر على أكمل وجه وأحسن حال ، وظل دائباً مسخراً يقطع الأبراج ، يترل المنازل ، يجرى في الفلك ، يتقدم أمام الشمس ويتأخر ، يذوق الموت كل شهر ويولد آلاف المرات ، ويخسف به مرات ومرات ، ينفلق فلقتين ، ويلتئم ، لا يستنكف أن يكون – وهو القمر – تابعا للشمس ، كل ذلك من أجل الإنسان ، مؤتمرا بأمر الله ، لا يعصي له أمرا .

لم يعترف الإنسان – وهو ظلوما جهولا – بكل هذا الجهد ، وبهذا التفاني ، ولم يعطي أي اعتبار لمدة الخدمة الشاقة ، واستغنى بالشمس عن القمر ، في معرفة السنين والحساب .

ولأن الجزاء من جنس العمل . فإن القمر يفضح البشر الذين أهملوا دوره بل وهضموا حقه ، ونسبوا التقويم للشمس التي اعتبروها مركزا للكون ، ويكشف القمر كذب جميع الذين يقولون بأن الأرض تدور والشمس ثابتة بالنسبة لها .

ولكن كيف افتضح أمر الكاذبين ؟

نقول : إن الأدلة التي سقناها هي جميعا أدلة شرعية لا تلزم العلميين ولا تلزم غير المسلمين . ولكننا سنسوق الآن دليلا ليس فقط علمياً ، بل هو مادي ، فهو لكل الناس للعالمين والأميين والجاهلين ، والمؤمنين والكافرين .

وهذا الدليل مشاهد للكافة دون احتياج لأي تجربة ، ودون استخدام أي أجهزة وهو دليل يغني عن كل هذه الأدلة التي أجهدنا القارئ بها .

فأنتم جميعا تقولون بأن الأرض تدور حول نفسها كل يوم مرة . وتدور حول الشمس مرة كل عام . وتقولون بأن القمر يدور حول الأرض كل شهر دورة .

كما أنكم تقولون بأن دوران الأرض حول نفسها يسبب الليل والنهار ، ويسبب ظهور الشمس بالنهار من جهة الشرق ثم تنتقل إلى الغرب ، ويأتي أيضا القمر بنفس الحركة من الشرق ، ويبدو لنا قد ذهب بالدوران إلى الغرب . وهكذا تبدو النجوم في السماء تتحرك حركتها الظاهرية من الشرق إلى الغرب . بينما هي لا تتحرك ، هكذا تقولون .

كما أنكم تقولون بأن سبب طلوع الشمس من مطالع متجددة كل يوم يرجع إلى أن الأرض لها ميل أثناء دورانها حول الشمس ، يجعل الشمس كأنها تغير من وضعها فتطلع من مطلع جديد كل يوم .

ولكن القمر يكشف أن الأمر على غير ما تقولون .. تماما . إذ أنه يقطع الأبراج الإثني عشر في شهر واحد ، ويطلع بين المدارين ، كما تفعل الشمس غير أنه يذهب من مدار الجدي إلى مدار السرطان في ١٤ يوم ثم يعود إلى مدار الجدي مرة أخرى في نفس المدة فيتم الدورة .

وعلى ذلك فالقمر يسير مع الشمس في اتجاه أحد المدارين ١٤ يوما ، ويخالفها في اتجاه المدار الآخر في ١٤ يوم آخرين . وهذا يعني أن الشمس تطلع من مكان فيطلع القمر في نفس الليلة من مكان آخر مخالف لمكان طلوع الشمس ، ويظل الحال على هذا الأمر ، الشمس تتجه في مطالعها يمينا والقمر يتجه في مطالعه شمالا .

وليس هذا فحسب ، إنما كلما تقدمت الشمس خطوه تقـدم القمـر ١٣ خطـوه ، وفي عكـس اتجاهها . وذلك لأن القمر لا بد أن يقطع بعد المشرقين (٥٤٦٠ كم) في ١٤ ليلة بينما تقطعه الشمس في ١٨٢ يوم . لذلك يترل القمر كل ليلة مترلة بينما الشمس تظل – رغم طلوعها المتجدد كل يـوم – في المترلة ١٣ يوم .

فكيف يكون ذلك والأرض تدور حول نفسها ؟

هل يعقل أن الأرض تدور حول نفسها فتظهر الشمس متجهة مطالعها يمينـا ، والقمـر متجهـة مطالعه إلى اليسار ؟ ويظلا على هذا الأمر ١٤ يوما ؟ والمفروض طبقا لدوران الأرض أن يرى كـل مـا في القبة السماوية من أجرام منحرفا في نفس الاتجاه الذي تنحرف فيه الشمس ؟

أما النجوم فأمرها أعجب .

وذلك لأنها تخرج كل يوم من نفس مطالعها السابقة وتسقط كل يوم في نفس مساقطها القديمـة . ولو راقبنا طلوع النجوم وأفولها لوجدناها جميعا تطلع وتغرب في نفس أماكنها لا يحيد نجم واحـد عـن مكانه . هذا رغم أن جميع النجوم لا تطلع كل يوم في نفس الموعد السابق بل إنها تبكر في طلوعـها ٤ دقائق كل يوم ومع ذلك فإنها جميعا تطلع من نفس المكان ، وكذلك أفولها .

إذاً فنحن أيها السادة أمام أمر لا يمكن أن يحدث إلا إذا كانت الأرض ثابتة . وكل مـا في القبـة يدور حولها . ويدور كما قال تعالى ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠) فكل له مساره وله زمنه .

فالشمس تطلع متجهة ناحية اليمين ١/٤ درجة . بينما القمر يطلع متجها ناحية الشـمال ٣.٢٥ درجة فيرى كل يوم الشمس في اتجاه والقمر في اتجاه عكسها والنجوم ثابتة في نفس مكانها تطلـع كـل يوم من نفس مطالعها .

ولو كان الأمر أيها السادة أمر الأرض لرأينا كل ما في السماء يظهر بصـورة واحـدة . ولرأينـا اختلاف مطالعها في اتجاه واحد جميعا . وحسبما تتجه الشمس في مطالعها . وكان لا يمكن مـع ميـلان الأرض أن تظهر النجوم من نفس أماكنها السابقة لا تتغير مليمتر واحد . ولا أن تذهب الشـمس يمينـا والقمر شمالا بثلاثة عشر مرة مثل الشمس .

فهذا الأمر أيها السادة يكشف عن خطأكم بمنتهى الوضوح . ويمكنكم جميعا أن تتأكدوا من ذلـك دون حاجة إلى دراسة أو أجهزة فهذا أمر ميسر لكل الناس .

الميلان : إتباع للشيطان و مخالفة للرحمن

أثبتنا لكم بالدين والعلم والمشاهدة خطأ ما تقولون بدوران الأرض حول نفسها وحول الشـمس . ورأيتم أن الشمس والقمر والنجوم تنفي أن تكون الأرض هي التي تميل في دورانها لتختلف المطالع .

وهذا هو القرآن يتحدث عن الميل حيث يثبت أن القائلين به يتبعون الشيطان ويخالفون الرحمن .

فقد ذكرنا الآيات التي تنفي الميد عن الأرض . والميد هو الميلان ، غير أن الميد هو الميل المادي الظاهري . والميل : النفسي الباطني ، وكلا الأمرين نفاهما الله ونهى عنهما .

أما الميد فقال تعالى عنه ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (النحل : ١٥) وقال ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ (الأنبياء : ٣١) . فالأمر غاية في الوضوح أن الأرض لا تميل ولا تميد .

وأما الميل فيقول فيه تعالى : ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٢٧) . ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ (١٠٢) ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ (١٢٩)

هذه الآيات الثلاث من سورة النساء وهي كل ما ذكر في القرآن عن الميل . ونلاحظ أن كل آية ذكرت لفظ الميل مرتين ﴿أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا﴾ ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً﴾ ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ . ففيها جميعا الفعل والحال والله تعالى يحذر منهما جميعا . فالآية الأولى تبين أن هذا من فعل الشيطان . وهو بالفعل الذي أوحى لأوليائه أن الأرض تميل والرحمن نفى هذا الميل . مع ذلك فأهل الأرض يصدقون الشيطان ويتبعونه ويقولون أن الأرض تميل . ويكذبون بذلك الرحمن ويخالفونه . والآية الثانية توضح أن الميل من فعل الكافرين . وهو ما نراه بالفعل فهم الذين اخترعوا فكرة أن الأرض تميل ونحن الذين اتبعناهم

علم التاريخ و الحساب

قال تعالى مبينا علة خلق الشمس والقمر :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (يونس:٥) .

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ (الإسراء:١٢) .

إن هاتين الآيتين لتوضحان علة خلق الشمس والقمر وكذلك الليل والنهار . فهو تعالى جعل الشمس ضياء . والقمر نورا ، فهذا لينير الليل وتلك لتضئ النهار كما أنه تعالى جعل الليل سكنا، وجعل النهار معاشا .

وبالإضافة إلى هذه الخصائص فقد جعل الله تعالى الشمس والقمر لمعرفة عدد السنين ولعلم الحساب . وعن هذا يقول تعالى فضلا عن الآيتين السابقتين : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ .

﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ (الأنعام:٩٦) .

تطلق العرب لفظ الحسبان على أمرين على الرحى ، وعلى الحساب . والشمس والقمر في حركتهما حول الأرض يدوران لمعرفة السنين والتاريخ والآجال والمدد والحساب . لذلك يشمل لفظ القرآن (الحسبان) هذين الأمرين ، طريقة الدوران وسبب الدوران .

وقد نص الكتاب المقدس في العهد القديم الإصحاح الأول أن الله تعالى خلق الشمس والقمر لنفس العلة التي ذكرها القرآن :

" وقال الله : لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل ، وتكون علامات للأعياد كما للأيام والسنين ولتكن أنوار في جلد السماء لتضيء الأرض . وكان كذلك . وعمل الله المنيرين العظيمين – المنير الأكبر لحكم النهار ، والمنير الأصغر لحكم الليل – والنجوم وجعلها في جلد السماء لتنير على الأرض ، ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة ، ورأى الله ذلك أنه حسن ، وكان مساء وكان نهار اليوم الرابع " .

فالنيرين العظيمين (الشمس والقمر) جعلهما الله في فلك السماء " لتنير على الأرض " و " لتفصل بين النور و الظلمة " و " لتحكم على النهار و الليل " و" لتفصل بين النهار والليل " و " لتكون علامات الأعياد كما للأيام والسنين " و " لتضئ الأرض " هذه المهام جمعيا نستخلصها من الآيات ١٤ : ١٩ الإصحاح الأول .

وهي معطيات متفقة تمام مع معطيات القرآن ، ومع الواقع الذي نراه . ومع معطيات الحضارات البشرية كلها .

وللمؤمنين بالقرآن يعطى الله بعض المبادئ ليسيروا عليها . هذه المبادئ تفهم من معاني الآيات وأيضا من أرقامها ، بل ومن أرقام السور التي تحمل أسماء " الشمس " ، " القمر " فالمبادئ التي تفهم من الأرقام هي كما يلي :

سورة الشمس رقمها وعنوانها بالمصاحف كالتالي :

(٩١) سورة الشمس مكية وآياتها ١٥

ولهذين الرقمين (٩١) و(١٥) مغزى هام جداً بالنسبة للشمس وحركتها . فرقم ٩١ هو نفس مجموع الدرجات التي بين المدارين واللذان تدور بينهما الشمس . وقلنا وصححنا أن المدارين يقعا على خط عرض ٢٢,٧٥ وليس ٢٣,٥٠ . وطبقا للتقدير الصحيح فيكون بعد ما بين المدارين ٢٢,٧٥ شمالا + ٢٢,٧٥ جنوبا = ٤٥,٥ أي من مدار الجدي إلى السرطان . تقطعها الشمس مرتين (ذهابا وإيابا) فتكون ٩١ لذلك وردت سورة الشمس في المصاحف رقم (٩١) .

أما مدارها في السماء حول الأرض فهو ٣٦٠ درجة وبقسمة هذه الدرجات على آيات سورة الشمس (١٥ آية) ينتج الآتي ٣٦٠ ÷ ١٥ = ٢٤ وهي عدد ساعات اليوم . أما سورة القمر فقد جاء ترتيب السورة رقم (٥٤) فالسنة القمرية (٥٤) تماما فوق ٣٠٠ لتكون ٣٥٤ يوماً .

أما المبادئ التي تفهم من المعاني فقالوا : أن علم عدد السنين والحساب يؤخذ من الشمس والقمر ، فالشمس لمعرفة قدر اليوم وقدر الأسبوع . والقمر لمعرفة الشهر والسنة . وما يحدث الآن في الاعتماد في التقويم على الشمس وحدها حتى في معرفة الشهر والسنة فهو أمر مخالف لسنة الله الكونية ، ولآياته القرآنية والأحاديث النبوية ، ومخالف أيضا لسيرة الأمة الإسلامية قبل قرن من الزمن امتدادا إلى بداية التقويم الهجري بل ومخالف لما عمل به العرب في الجاهلية قبل الإسلام . وقد اتخذت معظم الدول الإسلامية بتقويم الشمس وحدها حتى لو كان في ذلك مخالفة صريحة لله ورسوله وتراث الأمة ، ولكن في ذلك رضا لأهل الغرب ، والمهم رضا هؤلاء . ولا أمل لعودة هذه الأمة للعمل بتقويم القمر إلا إذا فعل الغرب ذلك .

وحتى يعلم المسلمون المخالفون لشرع الله ، نعمة التقويم بالقمر التي أرادها الله لهم ، ونقمة التقويم بالشمس نذكر طرفاً من عيوب هذا التقويم ، ومزايا التقويم بالقمر ، والمتاعب التي سببها التقويم الشمسي للآخذين به .

التقويم الميلادي (الشمسي) والتقويم القمري

طريقة التقويم التي سار على نهجها البشر ، حتى الآن لم تخل من عيوب مما يحتاج إلى تصحيح كل مدة من الزمن . وهذا رغم اختلاف كل أمة وكل جيل على طريقة معينة للتقويم إلا أنها جميعا لا تخلو من عيوب لأنهم لا يعتمدون على القمر الذي جعله الله لهم لهذا الأمر .

حتى التقويم المعمول به الآن هو غاية في التعقيد . ولا يعدلون إلى التقويم السهل البسيط المنضبط وهو تقويم القمر ، لا لشيء إلا لأن الله شرع الاعتماد عليه وهم لا يريدون إلا مخالفة الله . حتى لو تسبب لهم بذلك تعب ومشقة في الدنيا وهوان وعذاب في الآخرة ، يقول تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ

وَلا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ (البقرة:١٨٥) ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ (المائدة:٦) ورغم ذلك فقد خالف الناس .

فهذا التقويم المعمول به في معظم دول العالم بما فيها الدول الإسلامية والذي يسمى بالتقويم الميلادي ، هو في حقيقته تعديل للتقويم الروماني والذي كان سائدا قبل ميلاد المسيح بأكثر من ٧٥٠ سنة ثم عدل في عهد يوليوس قيصر عام ٤٦ قبل الميلاد ، حيث جعل الشمس وحدها هي الأساس للتقويم . وثبتت مدة العام ٣٦٥,٢٥ يوما وقسمت إلى ١٢ شهرا خصص للشهر الأول وهو يناير ٣١ يوما وللشهر الثاني فبراير ٣٠ يوما ، وتبادلت الأشهر الباقية أيامها بين ٣٠ و ٣١ يوم على التتابع ، غير أن هذا النظام يجعل العام ٣٦٦ يوما فقد خفض شهر فبراير إلى ٢٩ يوما فيما عدا السنوات الكبيسة حيث يزاد له يوم .

وشرف البرلمان الروماني يوليوس قيصر بتغيير اسم الشهر السابع إلى يوليوس (شهر يوليو) وعندما تسلم أغسطس قيصر مقاليد الأمور عام ٤٤ قبل الميلاد أرغم البرلمان الروماني على تسمية أحد الشهور باسمه فغير أسم الشهر الثامن إلى (أغسطس) ولكي يكون الشهران المسميان باسم القيصرين ٣١ يوما لكل منهما فقد أخذ يوما من فبراير وأضيف إلى أغسطس .

وأدت الشكاوى التي أثيرت بسبب عدم تساوى أطوال أرباع العام الخاص بأغسطس قيصر إلى عمل تغييرات أخرى ، فأخذ يوم من سبتمبر وأضيف إلى أكتوبر ، وأخذ يوم من نوفمبر وأضيف إلى ديسمبر . وعلى الرغم من كل هذا فلقد كان عام القياصرة أطول من اللازم بحوالي ١٢,٥ دقيقة . وتجمع هذا الفرق على مر الزمن حتى اصبح عدد كبيرا من الأيام وبحلول عام ١٥٨٢ تراكم الخطأ من وقت الاتفاق على تثبيت عيد الفصح وبلغ حوالي ١٠ أيام ، فأصدر البابا جريجوري الثالث عشر مرسوما باستقطاع عشرة أيام من التقويم ، فأوجب أن يكون اليوم التالي للرابع من أكتوبر ١٥٨٢ هو ١٥ أكتوبر ١٥٨٢ ولكي يمنع تكرار هذا الموقف أصدر مرسوما آخر يقضي بجعل كل سنة قرنية تقبل القسمة على ٤٠٠ سنة كبيسة ، وهذا يقلل الخطأ إلى مقدار صغير إذ يجب أن تمر ٤٠٠٠ سنة لإحداث خطأ قدره يوم واحد .

ومنذ هذا التاريخ اطلق على التقويم اسم " التقويم الجريجوري " ولأن بدايته أرجعت إلى ميلاد السيد المسيح فقد شاعت تسمية (الميلادي) .

أما في بلاد الشام فقد عمل بالتقويم السرياني التي يرجع العمل به إلى أحد قواد الإسكندر الأكبر ، وكان قد استقر به المقام في أرض سوريا ، وبدأ العمل به عام ٣١٢ قبل ميلاد المسيح . وتنوعت سنواته أيضا بين الكبيسة والبسيطة . غير أن أسماء الشهور يطلق عليها مسميات أخرى وهي :

تشرين الأول ، تشرين الثاني ، كانون الأول ، كانون الثاني ، شباط ، آزار ، ميسان ، آيار ، حزيران ، تموز ، آب ، أيلول .

أما اليهود فقد اتخذوا لأنفسهم تقويما أطلقوا عليه " التقويم العبري " تتشابه فيه أسماء الشهور مع التقويم السرياني ، لأن أصل كلا التقويمين يرجع إلى حضارة الكلدانيين . ويعتبر التقويم العبري السنة شمسية ، بينما شهوره قمرية ، ولذلك تختلف عدد الشهور خلال السنة فقالوا تكون أثنى عشر شهرا إذا كانت السنة بسيطة ، وتزداد إلى ١٣ شهرا إذا كانت السنة كبيسة وفي كل ١٩ سنة توجد ٧ سنوات كبيسة .

وأسماء الشهور العبرية هي : تشرى ، مرحشواى ، كسلو ، طبت ، شباط ، أزار ، آزار ثاني ، نيسان ، آيار ، سيوان ، تموز ، آب ، أيلول .

وأقباط مصر الأرثوذكس يستخدمون تقويما يوجد به شهر (نسيئ) عدد أيامه ٦ فقط .

أما العرب فقد كانوا يعتمدون في تقويمهم على القمر وليس الشمس وكان شهرهم يختلف بين ٢٩ و٣٠ يوم تبعا لظهور القمر . ولم يستقر العرب في الجاهلية على بداية شهورهم إلى حدث واحد . وكانوا ينسبونها إلى بعض الأحداث الهامة التي طرأت على مجتمعهم ، وكانوا يطلقون على شهورهم القمرية أسماء متعددة ، والأرجح أنها تغيرت في أوائل القرن الخامس الميلادي قبل ميلاد سيدنا محمد ﷺ وسميت بالأسماء الحالية ، وكان العرب يعطون أنفسهم فترة للراحة والتوقف عن القتال خلال ٤ شهور أطلقوا عليها " الأشهر الحرم " هي : رجب ، ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم .

وفي عهد النبي ﷺ استمر الحال على ما هو عليه في احترام تحريم القتال خلال هذه الأشهر الأربعة التي تتفرق على فترتين ، الأولى طولها ٣ شهور والثانية طولها شهرا واحداً وكانت السنة تبدأ بشهر المحرم .

وفي عهد أبي بكر الصديق رضى الله عنه يطلقون على السنين أسماء أشهر أحداثها ، مثل سنة الهجرة ، وسنة الأمر بالقتال ، وسنة حدوث الزلازل ، وسنة الوداع وسنة فتح العراق .

غير أن الفضل في تحديد بداية التقويم يرجع إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان مبعث ذلك خطاب أرسله عامله على البصرة " أبو موسى الأشعري " وذكر فيه أنه تحرر في شهر شعبان . فأتاه رد أبو موسى يقول : " لقد قرأنا كتابا محله شعبان فما ندرى أهو الذي نحن فيه أم الشهر الماضي " فأدرك عمر ضرورة وضع بداية للتاريخ الإسلامي . فجمع الصحابة وتداولوا في أنسب البدايات فاقترح بعضهم اتخاذ مولد الرسول بداية ، وقال آخرون باتخاذ سنة البعثة بداية ورجح كثيرون بدأ التاريخ من

سنة الهجرة ، فقال عمر بن الخطاب : " الهجرة فرقت بين الحق والباطل فارضوا بها " ، وبالمحرم لأنه منصرم الناس من حجهم " . ومنذ هذا الوقت بدأت تسمية التقويم الإسلامي باسم " التقويم الهجري " نسبة إلى ابتدائه من عام حدوث هجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة ، وأسماء الأشهر القمرية : المحرم ، صفر ، ربيع الأول ، ربيع الآخر ، جمادى الأول ، جمادى الآخر ، رجب ، شعبان ، رمضان ، شوال ، ذو القعدة ، ذو الحجة .

وعند العرب يبدأ اليوم بغروب الشمس ويبدأ الشهر ببزوغ الهلال في الليلة الأولى منه . وكما أن الناس يتركون هدى الله في مسألة الإيمان والعقيدة فإنهم تركوا هدى الله في أخذهم بالتقويم الرباني ، وهو تقويم القمر ، الذي جعله الله لهذا الأمر ، وهيئه لذلك بإنزاله في منازل ، كل يوم منزل جديد ، وفي كل منزل يأخذ شكلا جديدا وبعدا جديدا في السماء لا يخفي على أحد وهو يبدأ هلالاً صغيراً وليدا ويكبر كل يوم ضعف ما كان عليه في اليوم الأول . مما يجعله بعد ١٤ يوم يصبح بدراً أي كامل الإنارة والاستدارة ، وذلك عندما يواجه الشمس بكل وجهه المواجه للأرض ثم يعود ليتناقص كما ازداد وبنفس الطريقة .

وهذه التغيرات في شكل القمر تحدث أمام كل الناس ، في السماء ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (يس:٣٩) .

فالله تبارك وتعالى قدر للقمر في فلكه منازل ينزل فيها كل يوم ويبقى في المنزل يوما وزيادة ٦/٧ ساعة ، وعلى ذلك يكون جملة ما يمكثه القمر في المنازل : ٢٨ × ٦/٧ =٢٤ . لذلك يكون شهر القمر ٢٩ . يزيد إلى ٣٠ في ٦ أشهر من السنة . لتكون سنة القمر ٢٥٤ يوما دون أي زيادة أو نقص .

تقويم السنة بالقمر

إننا ملزمون شرعا بإتباع تقويم القمر، لأن الله تعالى جعله لنا كذلك ، ومعرفة ساعات الليل وعدد الليالي في الشهر ومعرفة أيام الشهر كل ذلك سهل وميسور من نور القمر الذي يقل ويكثر ، ومن وقت ظهوره أيضا .

فهو في الليلة الأولى يكون وراء الشمس بمنزلة ، أي على بعد ساعة زمنية . فيغرب بعد غروبها بهذا الوقت وفي الليلة السابعة عندما تغرب الشمس يكون القمر في وسط السماء ، ويغرب في منتصف

الليل ، وليلة ١٤ يطلع القمر فور غروب الشمس ويظل في السماء طوال الليل ويغرب بعد الفجر . وليلة ٢١ يطلع القمر من المشرق بعد منتصف الليل ويغرب وقت الظهيرة . وآخر ليلة يستتر فيها ، لأنه يكون مواجها للشمس بوجهه الذي ينير به للأرض بينما يكون مولياً ظهره المظلم للأرض . وقد يستتر ليلتين ويكون الشهر ٣٠ يوماً فإذا ظهر هلاله بعد الغروب كان هذا إعلاناً عن بدء شهر جديد .

فهذه هي منازل القمر التي ينزل فيها بتقدير العزيز العليم . لذلك نقول بأنه لا يوجد في السماء قمر آخر ينزل هذه المنازل ويسير هذا السير وينير بهذا القدر المتغير كل ليلة إلا قمرنا هذا .

واتباع تقويم القمر ليس خياراً للعبد المؤمن بل هو إلزام عليه ، وهو أمر من شرائط الإيمان ، فغير المؤمن لا شأن له بالقمر لأنه يظن أن وسائله الحديثة تغنيه ، فمن ثم فهو مستغن عن الله ﴿كَلا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧)﴾ (العلق) وهذه حقيقة واضحة تماماً ، فكلما تقدمت وسائل معيشة الإنسان المادية ، كلما استغنى عن الله . ولكن ليس هذا شأن المؤمنين ، الذين يعرفون ربهم ويعرفون حقيقة أنفسهم . فإنهم لا يقومون إلا بالله ، ويعلمون أنه لا حول لهم ولا قوة إلا بالله ، فلا يتحولون من حال إلى حال إلا بقوة الله وبقدرته ، وأنهم فقراء دائما إلى الله الغنى وضعفاء دائما إلى الله القوى ، أذلاء دائما إلى الله العزيز . ومشيئتهم لا تأخذ فاعليتها إلا بعد مشيئة الله ، وإرادتهم لا تنبعث إلا بعد إرادة الله . فهم يتحركون بأمر إلههم ، ويسكنون بأمره ، يعبدون ويمسكون بأمره ، يحتفلون بأعيادهم بأمره ، يبدءون يومهم بأمره ، يبدءون شهرهم بأمره ، يبدءون سنتهم بأمره .

ويجددون تعاملاتهم مع بعضهم البعض بأمره ، وكل ذلك علامته رؤية الشمس ورؤية القمر . إذ أن يومهم لا يبدأ إلا إذا غربت الشمس ، والشمس لا تسير إلا بأمر الله ، ولا يبدأ شهرهم إلا برؤية الهلال . ومن ثم تبدأ سنتهم .

كذلك لا يصومون إلا إذا رأوا الهلال ، ولا ينهون صيامهم إلا برؤيته . ولا يحجون إلا بالهلال ، ولا يحتفلون بأعيادهم إلا برؤية الهلال . ولا يؤدون زكاة أموالهم إلا بالهلال واحكام الأسرة من عدة ، وإيلاء ، متعلقة بالهلال . والآجال في الديون والمعاملات لا يضبطها إلا الهلال . حتى حيض المرأة مرتبط بالهلال لأن دورتها هي دورة القمر ٢٨ يوما والنذر والصلح والعقود وسائر ما يؤجل مرتبط بالهلال ، لذلك يقول تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (البقرة:١٨٩) من اجل ذلك فإن دليل استسلام العبد لله ، ودليل تعلق العبد بأمر ربه ، إتباع تقويم القمر ، وليس الشمس ، أو أي عملية حسابية كما يفعل الذين يعتمدون على حسابات الفلكيين . بل إن الأمر يعتبر من مدلولات قوة

الإيمان وضعفه وهو فرض على المؤمن أن يتبع ويعتمد على الأهلة - رؤية لا حسابا - دون غيرها لأن الله قال بذلك .

والقول بخلاف هذا مخالفة لأمر الله ، وعلماء المسلمين الذين يتعاملون بتقويم غير تقويم القمر ، ويعتمدون على تقويم الشمس ، أو الحسابات الفلكية هم مخطئون . وخطأهم هذا لا يؤجرون عليه لأنه ليس خطأ اجتهاد ، ولأن الأمر ليس فيه اجتهاد ففيه نصوص من الكتاب والسنة ، صريحة قاطعة ، وهم يخالفونها عن عمد ، ولا عذر لهم في ذلك ولا داع . وإنما هو ابتداع في الإسلام واتباع لغير المسلمين تماما كما ابتدعوا القول بدوران الأرض حول نفسها وحول الشمس .

فحساب الشهور والسنين في الإسلام بالقمر . ويبدأ الشهر بالرؤية وليس بالحساب . وقد ظهر نفر من المسلمين قالوا بحساب منازل القمر ، وبسيره في السماء ولم يشترطوا الرؤية وقد كثر هؤلاء حتى أصبحوا الآن هم أغلبية المسلمين وأكثرية علمائه ، ولما كان بداية ظهور هؤلاء في عصر شيخ الإسلام ابن تيمية فقد قام الرجل وحمل عليهم حملة علمية بكتاب الله وسنة رسوله .

ولتشابه حال عموم المسلمين الآن وحال النفر الذين ظهروا قديما ، المخالفين في إثبات الشهر بالرؤية وقولهم يثبت بالحساب ، فإننا نسوق طرفاً من كلام شيخ الإسلام من " مجموع الفتاوى " قال رحمه الله : " الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ، وجعله تبيانا لكل شيء ، وذكرى لأولي الألباب ، وأمرنا بالاعتصام به ، إذ هو حبله المتين ، الذي هو أثبت الأسباب وهدانا به سبيل الهدى ، ومناهج الصواب ، وأخبر فيه أنه ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ (يونس:٥) أما بعد : فإن الله قد أكمل لنا ديننا ، وأتم علينا نعمته ، ورضى لنا الإسلام دينا ، وأمرنا أن نتبع صراطه المستقيم ولا نتبع السبل فتفرق بنا عن سبيله ، وجعل هذه الوصية خاتمة وصاياه العشر التي هي جوامع الشرائع التي تضاهي الكلمات التي أنزلها الله على موسى في التوراة وإن كانت الكلمات التي نزلت علينا أكمل وأبلغ .

وأمرنا ألا نكون كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأخبر رسوله أن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء . وذكر أنه جعله على شريعة من الأمر .

وأمره أن يتبعها ولا يتبع سبيل الذين لا يعلمون وقال الله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل:٨٩) ويقول ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ

جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنْ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (المائدة) . فأمره ألا يتبع أهواءهم عما جاءه من الحق وإن كان ذلك شرعا أو طريقا لغيره في الأنبياء ، فإنه قد جعل لكل نبي سنة وسبيلا ، وحذره أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه . فإذا كان هذا فيما جاءت به شريعة غيره فكيف بما لا يعلم أنه جاءت به شريعة ، بل هو طريقة من لا كتاب له ؟ وأمره وإيانا في غير موضوع أن نتبع ما أنزل إلينا دون مخالفة ، فقال : ﴿المص (١) كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾ (الأعراف) .

وبين حال الذين ورثوا الكتاب فخالفوه والذين استمسكوا به . فقال ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ (الأعراف:١٦٩) إلى قوله ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ وقال تعالى ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ (الأنعام) . وقال ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعْ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) ﴾ (الأحزاب) وقال ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ . وحبل الله كتابه كما فسره النبي ﷺ وقال : ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (يونس:١٠٩) إلى غير ذلك من نصوص الكتاب والسنة ، التي أجمع المسلمون على اتباعها ، وهذا مما لم يختلف فيه المسلمون .

ولما كان النبي ﷺ قد أخبر أن هذه الأمة تتبع سنن من قبلها حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ، وجب أن يكون فيهم من يحرف الكلم عن مواضعه فيغير معنى الكتاب والسنة فيما أخبر الله به ، أو أمر به ، وهذا من بعض أسباب تغيير الملل إلا أن هذا الدين محفوظ كما قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩) ولا تزال فيه طائفة قائمة ظاهرة على الحق . فلم ينله ما نال غيره من الأديان من تحريف كتبها وتغيير شرائعها مطلقا ، لما ينطق الله به القائمين بحجة الله وبيانه . الذين يحيون بكتاب الله الموتى . ويبصرون بنوره أهل العمى . فإن الأرض لن تخلو من قائم لله بحجة لكي لا تبطل حجج الله وبيناته .

وإننا لنعلم بالاضطرار من دين الإسلام أن العمل في رؤية هلال الصوم أو الحج ,و العدة أو الإيلاء أو غير ذلك من الأحكام المعلقة بالهلال بخبر الحاسب أنه يرى أو لا يرى لا يجوز . والنصوص المستفيضة عن النبي ﷺ في ذلك كثيرة وقد أجمع المسلمون عليه ولا يعرف فيه خلاف قديم ولا

حديث ، إلا أن بعض المتأخرين من المتفقهة الحادثين بعد المائة الثالثة زعم أنه إذا غم الهلال جاز للحاسب أن يعمل في حق نفسه . فإذا كان الحساب دليل على الرؤية صام وإلا فلا . وهذا الكلام مقيداً بالإغمام ، ومختصاً بالحاسب . فهو شاذ ، مسبوق بالإجماع على خلافه . فإما إتباع ذلك في الصحو . أو تعليق عموم الحكم العام به فما قال به مسلم . قال تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (البقرة:١٨٩) فأخبر أنها مواقيت للناس ، وهذا عام في جميع أمورهم . وخص الحج بالذكر تمييزا له لأن : الحج تشهده الملائكة وغيرهم . ولأنه يكون آخر السنة فيكون علما على الحول كما أن الهلال علم على الشهر ولهذا يسمون الحول : حجة . فجعل الله الأهلة مواقيت للناس في الأحكام الثابتة للشرع ابتداء أو سبباً من أسباب العبادة وللأحكام التي تثبت بشروط العبد ، فما ثبت من المؤقتات بشرع أو شروط ، فالهلال ميقات لهم ، وهذا يدخل فيه الصوم والحج ومدة الإيلاء والعدة ، وصوم الكفارة . وهذه الخمس موجودة في القرآن . وكذلك صوم النذر وغيره . وكذلك الشروط من الأعمال المتعلقة بالثمن ودين السلم . والزكاة والجزية ، والعقل ، والخيار ، والأيمان وأجل الصداق ونجوم الكتابة . وأقساط دين المكاتبة ، والصلح والقصاص وسائر ما يؤجل من دين وعقد وغيرهما .

قال تعالى : ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (يس:٣٩) . وقال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلا بِالْحَقِّ﴾ (يونس:٥) . فقوله ﴿لِتَعْلَمُوا﴾ متعلق والله أعلم بقوله ﴿قَدَّرَهُ﴾ لا بـ ﴿جَعَلَ﴾ فكون هذا ضياء وهذا نورا لا تأثير له في معرفة عدد السنين والحساب ، وإنما يؤثر في ذلك انتقالهما من برج إلى برج . ولأن الشمس لم يعلق لنا بها حساب شهر ولا سنة ، وإنما علق ذلك بالهلال . كما دلت عليه هذه الآية ، ولأنه قد قال ﴿عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ (التوبة:٣٦) فأخبر أن الشهور معدودة اثني عشر والشهر هلالي بالاضطرار . فعلم أن كل واحد منهما معروف بالهلال .

ولقد بلغني أن الشرائع قبلنا أيضا إنما علقت بالهلال وأحكام الأهلة وإنما بدل من بدل من أتباعهم كما يفعله اليهود من اجتماع القرصين ، وفي جعل بعض أعيادهم بحساب السنة الشمسية . وكما يفعله النصارى في صومهم ، حيث يراعى الاجتماع القريب من أول السنة الشمسية وتجعل سائر أعيادهم دائرة على السنة الشمسية بحسب الحوادث التي كانت للمسيح ، كما يفعله الصابئة والمجوس وغيرهم من المشركين في اصطلاحات لهم فإن منهم من يعتبر بالسنة الشمسية فقط ولهم اصطلاحات في عدد شهورها ، لأنها وإن كانت طبيعة فشهرها عددي وضعي . ومنهم من يعتبر اجتماع القرصين .

وما جاءت به الشريعة هو الأكمل والأبين والأحسن والأوضح والأبعد في الاضطراب ، ذلك أن الهلال أمر مشهود مرئي للأبصار . ومن أصح المعلومات ما شوهد بالأبصار ولهذا سموه هلالاً ، لأن هذه المادة تدل على الظهور والبيان . إما اسما وإما بصرا . فقد حددت المواقيت بأمر ظاهر بين ، فيشترك فيه الناس ، ولا يشرك الهلال في ذلك شيء ، فإن اجتماع قرص الشمس والقمر الذي هو تحاذيهما الكائن قبل الهلال أمر خفي لا يعرف إلا بحساب ينفرد به بعض الناس ، مع تعب وتضييع وقت كثير واشتغال عما يعنى الناس وما لا بد له منه وربما وقع فيه الغلط والاختلاف .

وكذلك كون الشمس حازت البرج الفلاني أو الفلاني فهذا أمر لا يدرك بالأبصار ، وإنما يعلم ذلك بالإحساس تقريبا . فإنه إذا انصرم الشتاء ودخل الربيع وكان وقت الاعتدال أي وصول الشمس عند رأس الحمل . وكذلك مثله في الخريف . فالذي يدرك بالإحساس الشتاء والصيف وما بينهما من الاعتدالين تقريبا .

فأما حصولهما في برج بعد برج فلا يعرف إلا بحساب فيه كلفة وشغل عن غيره مع قلة جدواه فظهر أنه ليس للمواقيت حد ظاهر عام المعرفة إلا الهلال .

وقد انقسمت عادات الأمم في شهرهم وسنتهم القسمة العقلية ، وذلك أن كل واحد من الشهر والسنة : أما أن يكون عددي ، أو طبيعي ، أو الشهر طبيعيا والسنة عددية أو العكس .

فالذين يعدونهما ، مثل من يجعل الشهر ٣٠ يوما ، والسنة ١٢ شهرا . والذين يجعلونهما طبيعيين ، مثل من يجعل الشهر قمريا ، والسنة شمسية ، ويلحق في أخر الشهور الأيام المتفاوتة بين السنين مراعاة هذين عادة كثير من الأمم ، من أهل الكتابين بسبب تحريفهم ، وأظنه عادة المجوس أيضا . ويعتبر السنة الشمسية بسير الشمس . فأما القسم الرابع : فيكون الشهر طبيعياً ، والسنة عددية . وهذه سنة المسلمين ومن وافقهم . فالذي جاءت به شريعتنا هو الأكمل لأنه وقت الشهر بأمر طبيعي ظاهر عام يدرك بالأبصار . فلا يضل أحد عن دينه ، ولا يشغله مراعاته عن شيء من مصالحه . ولا يدخل بسببه فيما لا يعنيه . ولا يكون طريقا إلى التلبس في دين الله . كما يفعل بعض علماء أهل الملل بمللهم .

وأما الحول (السنة) فلم يكن له حد ظاهر في السماء فكان لا بد من الحساب بسير الشمس وتكون السنة مطابقة للشهور ولأن السنين إن اجتمعت فلا بد من عددها في عادة جميع الأمم . إذ ليس للسنين إذا تعددت حد سماوي يعرف به عددها فكان عدد الشهور موافقا لعدد البروج . وجعلت السنة اثني عشر شهراً بعدد البروج التي تكمل بدوران الشمس فيها سنة شمسية . فإذا دار القمر فيها

كمل دورته السنوية . وبهذا كله يتبين معنى قوله ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ . فإن عدد شهور السنة ، وعدد السنة بعد السنة إنما أصله بتقدير القمر منازل .

كذلك معرفة الحساب . فإن حساب بعض الشهور لما يقع فيه من الآجال ونحوها إنما يكون بالهلال وكذلك قوله تعالى : ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ فظهر بما ذكرناه . أنه بالهلال يكون توقيت الشهر والسنة . وأنه ليس شيء يقوم مقام الهلال البتة لظهوره وظهور العدد المبني عليه . وتيسير ذلك وعمومه . وغير ذلك من المصالح الخالية في المفاسد ومن عرف ما دخل على أهل الكتابين والصابئين والمجوس . وغيرهم في أعيادهم وعباداتهم وتواريخهم وغير ذلك من أمورهم من الاضطراب والحرج وغير ذلك من المفاسد ازداد شكره على نعمة الإسلام ، مع اتفاقهم أن الأنبياء لم يشرعوا شيئا من ذلك ، وإنما دخل عليهم ذلك من جهة المتفلسفة الصائبة الذين أدخلوا في ملتهم ، وشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله .

وقد كانت العرب في جاهليتها قد غيرت ملة إبراهيم بالنسيء الذي ابتدعته فزادت في السنة شهرا فجعلتها كبيسة لأغراض لهم وغيروا به ميقات الحج والأشهر الحرم . حتى كانوا يحجون تارة في المحرم وتارة في صفر حتى يعود الحج إلى ذي الحجة ، حتى بعث الله المقيم للملة الإبراهيمية فوافى حجه ﷺ حجة الوداع ، وقد استدار الزمان كما كان ، ووقعت حجه في ذي الحجة . فقال في حجته المشهورة في الصحيحين وغيرهما :

" إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض : السنة اثني عشر شهرا منها أربع حرم . ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان . وكان قبل ذلك الحج لا يقع في ذي الحجة حتى حج أبو بكر رضى الله عنه في ذي القعدة سنة تسع . وهذا كان من أسباب تأخير النبي ﷺ الحج . ١

وقد أنزل الله تعالى : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ فأخبر الله أن هذا الدين هو القيم : ليبين أن النسيء وغيره من عادات الأمم ليس قيماً . لما يدخله من الانحراف ، والاضطراب .

ونظير الشهر والسنة : اليوم والأسبوع . فإن اليوم طبيعي من طلوع الشمس إلى غروبها وأما الأسبوع فهو عددي ، من أجل الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض . ثم استوى على العرش فوقع التعديل بين الشمس والقمر .

واليوم والأسبوع بسير الشمس ، والشهر والسنة بسير القمر ، وبهما يتم الحساب وبهذا قد يتوجه قوله ﴿لِتَعْلَمُوا﴾ إلى ﴿جَعَلَ﴾ في قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فيكون جعل الشمس والقمر لهذا كله .

ونحن نعلم أن نصف شهور السنة يكون ثلاثين يوما ، ونصفها الآخر تسعة وعشرين . وقد ثبت عن الرسول ﷺ بأحاديث مستفيضة متلقاة بالقبول . انه قال : " إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ، الشهر هكذا ، وهكذا ، وهكذا " وعقد إبهامه في الثالثة " والشهر هكذا وهكذا وهكذا " يعني ثلاثين يوما .

فقول النبي ﷺ " إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب " هو خبر تضمن نهيا . فمن كتب أو حسب لم يكن من هذه الأمة في هذا الحكم . بل يكون قد اتبع غير سبيل المؤمنين وفعل ما ليس من دينها . ويكون الحساب والكتاب المذكوران محرمين منهيا عنهما . والأمة الأمية المذكورة هنا صفة ممدح وكمال من وجوه .

الأول : الاستغناء عن الكتاب والحساب . بما هو أبين منه وأظهر وهو الهلال .

ثانيا : أن الحساب والكتاب هنا يدخلان الغلط .

ثالثا : إن فيهما تعبا كثيرا بلا فائدة . فإن ذلك شغل عن المصالح إذ هذا مقصود لغيره لا لنفسه . وإذا كان نفي الكتاب والحساب عنهم للاستغناء عنه بخير منه أو للمفسدة التي فيه كان الكتاب والحساب في ذلك نقصا وعيبا بل سيئة . فمن دخل فيه فقد خرج عن الأمة الأمية فيما هو من الكمال والفضل السالم عن المفسدة ودخل في أمر ناقص يؤديه إلى الفساد والإضراب .

رابعا : انه جعل هذا وصفا للأمة كما جعلها تعالى وسطا في قوله ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة:١٤٣) فالخروج من هذا اتباع سبيل غير المؤمنين . وأيضا فإن الشيء إذا كان صفة للأمة فلأنه أصلح من غيره . وكان غير ذلك مما يجب مراعاته ولا يجوز العدول عنه إلى غيره " أ . هـ .

وكون الله تعالى جعل القمر للشهر والسنة فذلك يعني انضباطه لذلك . وكونه لم يجعل الشمس لهذا يدل على عدم انضباط شهرها وسنتها . لذلك فقد أخطأ المخالفون لله .

* * * * *

السنة الشمسية ٣٦٤,٦٢ يوما

لقد أخطأ الذين تركوا العمل بتقويم القمر ، وعملوا بتقويم الشمس اخطئوا بمخالفتهم لأمر الله ولشرعه . واخطئوا في تقديرهم لسعة الشمس ، لذلك نلحظ تماما ما يتخبطون فيه من العمل على جبر كسور السنة ، والزيادة والنقصان المضطرب في الأشهر ، وما يقومون من تصحيح وتعديل وزيادة لسنة

عن غيرها . وتفاوت الأشهر تفاوتا غير مرتب وغير دقيق فأشهر ٣٠ يوما وأخر ٣١ وشهر ٢٨ وأحيانا ٢٩ . ثم يقومون بالتعديل رغم كل ذلك عدة سنوات .

أما القمر فليس فيه هذا الخبط والتعقيد فشهره منضبط وسنته منضبطة . فسنة القمر ٣٥٤ يوما تامة بلا أي زيادة ولا أي نقص . وأشهر السنة نصفها ٢٩ يوما والنصف الآخر ٣٠ يوما وليست على التناوب ولكن حسب مشيئة الله .

ولعل الحكمة في تفاوت شهور القمر بين هذين العددين وعدم تناوبهما حتى تتعلق قلوب العباد وأبصار العباد بالله رب العالمين .

فعباد الله لا يحددون الشهر بل يحدده لهم ربهم فينظرون إلى علامته في السماء وينتظرون أمر الله . فيصرون مطلع الهلال فإذا طلع ورأوه كان ذلك بداية شهر جديد وإلا فإنهم يتمون شهرهم ٣٠ يوما .

وعباد الله لا يحددون مواقيت العبادة بل يحددها لهم ربهم . فصلاتهم يؤقت مواعيدها ربهم بالشمس بمطلعها ومغربها ووضعها في السماء . وأما عباداتهم السنوية كالصوم والحج والزكاة ، فهم ينتظرون فيها أمر ربهم برؤيتهم للهلال . فلا يصومون إلا إذا رأوا الهلال وإلا فيتمون الشهر ٣٠ يوما . كذلك لا ينهون صومهم إلا برؤية الهلال . وكذلك الحج فلا يبدأ شهر ذي الحجة إلا برؤية الهلال وكذلك الزكاة لا تجب إلا بحلول الحول الذي يبدأ بالهلال . وهكذا . كذلك أعياد المؤمنين فهم لا يحددونها وإنما يحددها لهم ربهم بالقمر . فإن رأوا هلاله بدأ عيدهم وإلا فلا . كذلك الشأن في أحكام دينهم الأخرى التي تحدد بمواعيد وآجال . وكذلك معاملاتهم .

فعباد الله يفرقون عن عباد الشيطان ، فهم لا يحددون زمانهم ومبادئ أعمالهم إنما يحددها لهم ربهم . من أجل ذلك كان الشهر مختلفا بين ٢٩ ، ٣٠ يوما .

ولعل الحكمة في تفاوت سنة القمر وسنة الشمس وكان الله قادرا على أن يجعل سنتهما واحدة ٣٦٠ يوما . حتى تختلف وتتنوع الأزمنة والأحداث فلا تكون حياتهم رتيبة على وتيرة واحدة . كذلك – وهذا هو الأهم – لكي تكون عباداتهم في كل وقت من السنة . فعبادة الصوم مرتبطة بشهر رمضان وهو الآن يأتي في فصل الشتاء ومنذ ٨ سنوات كان يأتي رمضان في فصل الخريف ومنذ ١٦ سنة كان يأتي في الصيف ومنذ ٣٢ سنة كان يأتي في الربيع وهكذا .. فعلى مدار ٣٣ سنة يكون المسلم قد صام في جميع الفصول والأوقات . فصام في الحر وصام في البرد وصام في اليوم الطويل وفي اليوم القصير ، وصام عن الأطعمة التي تظهر في فصل الصوم هذا ..

وكذلك الحج يأتي في كل فصول السنة طبقا لتفاوت السنة القمرية مع السنة الشمسية ، وكذلك الأعياد تكون في كل الأحوال المناخية وفي كل الفصول .

وكل هذه المزايا لا يحظى بها المخالفون لا في عباداتهم ولا في أعيادهم .

كيف تكون السنة ؟

السنة القمرية : سنة عددية ، أي تكون بمرور ١٢ شهر قمري . والشهر القمري يبدأ برؤية الهلال آخر يوم ٢٩ فإذا رؤى الهلال فيكون الشهر ٢٩ يوم . وإذا لم يرى فيتم الشهر ٣٠ يوم .

فالرؤية تتم آخر ٢٩ من الشهر فقط . ولو حال حائل بين الرؤية فإن الشهر يتم ويكون ٣٠ يوم أيضا دون حاجة لتكلف الرؤية . إذا حال سحاب أو مطر أو غير ذلك .

وشهر القمر يكون بدورة القمر في كل الأبراج ونزوله في الثمانية والعشرين منزلا والقمر يقطع هذه الأبراج وهذه المنازل في ٢٩ يوم أو ٣٠ . ولكي ينتقل القمر في منازله فإنه يقطع المسافة بين المدارين ذهابا وإيابا . فهو يبدأ هلالا من رأس مدار الجدي ثم يتجه كل يوم في طلوعه ناحية مدار السلطان ويكبر كل يوم بمثل حجمه أول يوم حتى إذا ما وصل رأس مدار السرطان فيكون نزل في ١٤ منزلا وتكون لياليه ١٤ ليلة ويكون متسقاً أي كامل الإنارة ويسمى بدرا . ثم يبدأ في رحلة العودة مرة أخرى ويظل يتناقص كل يوم بنفس قدر أول يوم حتى يصل إلى رأس مدار الجدي فيكون قد قطع ١٤ منزلة أخرى ويكون بذلك قد اختفى تماما ويستسر يوما فيكون شهره ٢٩ أو يومين فيكون شهره ٣٠ يوم . فهذا معنى قوله تعالى : ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ .

أما سنة الشمس : فهي طبيعية وليست عددية ، أي لا تحسب سنة الشمس بمرور ١٢ شهرا كالقمر . ولكن تحسب سنتها باكتمال قطعها للأبراج والمنازل . ومطالع الشمس متجاورة بخلاف القمر الذي يطلع في اليوم التالي لطلوعه بعيدا عن مكان طلوعه الأول بحيث أن المسافة التي تكون بين المطلع والآخر ٣٩٠ كم . أما الشمس فإنها تطلع قريبة جدا من مطلعها السابق بثلث قرص فقط . أي ٣٠

من أجل ذلك فإن الشمس تقطع الأبراج والمنازل التي يقطعها القمر في ١٤ يوم تقطعها هي في ١٨٢ يوم أي أنها تصل في هذه المدة إلى السرطان آتية من رأس الجدي . وهي بذلك تبقى في المنزلة التي يمكث فيها القمر يوما تمكث هي ١٣ يوما . ثم تعود الشمس مرة أخرى إلى مدار الجدي في نفس المدة السابقة ومن نفس المطالع السابقة ، حتى إذا ما وصلت إلى رأس الجدي تكون بذلك قد دارت في جميع الأبراج وجميع المنازل وتتم بذلك سنة شمسية فيها ٣٦٤ مطلعا .

وعلى ذلك تكون السنة الشمسية ٣٦٤ يوما . أما بالمقارنة مع السنة القمرية فإن السنة القمرية ٣٥٤ يوما يقابلها ٣٦٤.٦٢ يوما للسنة الشمسية . وذلك لآن ٣٦٤ هي عدد المطالع التي طلعتها الشمس خلال السنة أما ٦٢, من اليوم فهي جملة ما سجدته الشمس في مستقرها كل يوم ٢.٤٥ دقيقة .

أدلتنا للسنة الشمسية :

من المعروف أن السنة الشمسية التي يعمل بها الآن قد تحددت منذ آلف السنين ، وقد لبست مشاكلها ومتاعبها بما كان ينبغي على علماء العصر الحديث البحث في جذور المشكلة لا مجرد تصحيح الخطأ الحسابي بزيادة أيام أو نقص أيام من السنة . بينما لم تظهر أي مشكلة للسنة القمرية لأنها سنة منضبطة .

ومشكلة السنة الشمسية التي لا يعرف المعتمدين عليها في التقويم أن مطالعها تختلف عن مدتها . فمطالعها ٣٦٤ مطلعا . ومدتها ٣٦٤.٦٢ والفرق بين هذا وذاك هو مدة السجود في المستقر وهي ٦٢. من اليوم .

وإثبات هذين الأمرين أمر في غاية السهولة بالنسبة لعلماء اليوم خاصة ومعهم أجهزة متقدمة ودقيقة وإن كانوا لم يتوصلوا بها للحق لأن الله تعالى يصرفهم عن آياته . ولكن إذا ما أرادوا إثبات صحة ما نقول ، فسيصلوا إلى الحق بإذن الله تصديقا لقوله ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٣) فسيروا في الآفاق آيات الله حتى يتبين أنه الحق ، وأن القرآن صدق . وأنه منزل من عند الله . هكذا قضى الله تعالى .

وعليهم إن أرادوا الانتفاع بهذه الآيات أن يتحرروا من أي كبر . ومن أي هوى وأن يكون الوصول للحق هدفهم والإيمان بالله غايتهم وإلا فلن ينتفعوا بما يروه وسيكابرون ، يقول تعالى ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف:١٤٦) .

فإنهم سيرون آيات الله .. سيروها . وسيتبين لهم وسيتأكدون أنه الحق وأنه أمر الله وكلام الله وسيتأكدون من صدق كتابه ولكن لن ينتفعوا بكل ذلك ما داموا متكبرين فمن أراد منهم أن يتأكد من صدق معطيات القرآن فلينظر في الآفاق وتحديدا في الأفق الواصل بين المدارين . وفي المستقر .

والأفق الواصل بين المدارين : مدار السرطان ومدار الجدي والذي مسافته ٤٥.٥ درجة وسيجدون الأتي : أن الشمس ستبدأ رحلتها من رأس السرطان وستسير بقدر واحد ومسافة واحدة هذا القدر هو ١/٤ درجة كل اليوم وهذه المسافة هي ٣٠ كم حتى تصل الشمس إلى خط الاستواء بعد ٩١ مطلع أي ٩١ ربع درجة ، مع الأخذ في الاعتبار أن هذا الرقم هو أيضا رقم سورة الشمس في القرآن .

وسيرون أن الشمس ستطلع ٩١ مرة أخرى جنوب الاستواء وسيتوقف سيرها عند رأس الجدي وبذلك تكون قد طلعت بين المدارين ١٨٢ مطلع وهذه هي (المشارق والمغارب) . ثم ستبدأ رحلة العودة من نفس الطريق ومن نفس المطالع .

وسيجدون أن المسافة بالكيلو مترات هي حاصل ضرب ٩١ × ١٥ وهي ٥٤٦٠ كم والرقم (١٥) هو عدد آيات سورة الشمس .

ولأن الشمس تسير كل يوم ١/٤ درجة أي ٣٠ كم ودرجات المدارين هي ٤٥.٥ فهي إذاً تسير ٥٤٦٠ كم .

فأمر منطقي وطبيعي أن تكون مجموع مطالع الشمس في السنة (زوجية) لأنها تسير بين المدارين ذهابا وإيابا في نفس المطالع التي طلعتها في طريق الذهاب فهي نفسها المطالع التي تطلعها في طريق الإياب . فهي تطلع ذهابا ١٨٢ مطلعا وإيابا ١٨٢ فمن أين ستكون السنة ٣٦٥ يوم ؟ من أين سيأتي اليوم الفردي (٥) ومطالع الشمس لا بد أن تكون زوجية ؟ لأن عمرها كله .. أنها تذهب وتجيء .

وخط الاستواء تقف فيه مرتين وهو ينتصف سنتها . وأن مدار الجدي هو وقت الانقلاب الشتوي . ومدار السرطان هو وقت الانقلاب الصيفي فهذه الانقلابات تكون متطابقة . وسترون ذلك بإذن الله . إذا أبصرتموه .

وقد تنبه الفراعنة إلى تطابق الانقلابين ، وإلى أن نفس مطالع الذهاب هي نفسها مطالع الإياب ، ومن ثم فهي زوجية . لذلك صمم رمسيس الثاني (معبد أبي سنبل) بحيث يصل الشعاع من الشمس مخترق فتحة ضيقة مستقيمة طولها ٦٠ مترا في الجبل لتصل على وجهه مرتين . فمرور الشعاع مرتين في السنة كلها لا يعني إلا أن مطالع الذهاب هي نفسها مطالع العودة للرحلة الشمسية .

تنبيه :

تردد وسائل الإعلام المصرية على لسان الفلكيين المصريين أن شعاع الشمس الذي يسطع على وجه رمسيس الثاني في معبد أبي سنبل إنما يأتي في يومين إثنين " يوم ميلاده ويوم توليه العرش " .

ونحن وإن لم نذهب إلي معبد أبي سنبل هذا الذي يبعد عن موطننا بالإسكندرية حوالي ١٠٠٠ كم جنوب إلا أننا نؤكد بل نتحدى .. بأنه طبقا لحساباتنا الشرعية والفلكية فإن شعاع الشمس لابد أن يطلع على التمثال ثلاثة أيام متواليات فأكثر في المرة الواحدة .. أي أن شعاع الشمس يسقط على التمثال في منتصف شهر فبراير تقريبا حال سير الشمس نحو رأس السرطان ، ويتكرر دخول شعاع الشمس للمعبد على مدار ثلاثة أيام على الأقل . ثم في رحلة العودة للشمس من مدار السرطان متجهة إلي مدار الجدي يتكرر نفس الأمر تماما في ٢٢ أكتوبر و٢٣ و٢٤ على الأقل .

وإنما نقول بأن شعاع الشمس يدخل ثلاثة أيام على الأقل في المرة الواحدة ذلك أن قرص الشمس يشغل ثلاثة أرباع درجة في الأفق وهي تنتقل عندما تشرق ربع درجة عن مطلعها السابق كل يوم . فلابد وأن يمر شعاعها من فتحة المعبد ثلاث مرات متواليات علي الأقل ، هذا إذا كانت الفتحة ضيقة – ولو كانت كثقب إبرة – أما إن كانت الفتحة واسعة بحيث يظهر من الأفق أكثر من ثلاثة أرباع درجة فإن الشمس سيدخل شعاعها أكثر من ثلاثة أيام متواليات حسب سعة الفتحة . وهذا الأمر دليل – نتحدى به – على أن مطالع الشمس في السنة زوجية ، وأن عدد أيام السنة ٣٦٤ وليس ٣٦٥ .

والفلكيون والمنجمون والجغرافيون العالمون يعرفون أن الأبراج ١٢ برجا وأن المنازل ٢٨ منزلا وأن الشمس تنزل هذه المنازل كالقمر تماما . غير أن القمر ينزل المنزل يوم واحد و٦/٧ساعة زيادة . أما الشمس فتبقى في المنزل ١٣ يوما أي : ١٣ × ٢٨ =٣٦٤ . وهم أيضا يعرفون أن بين كل درجتين ٤ دقائق فإذا كان بين المدارين ٤٥,٥ فيكون زمن هذه الدرجات هو ٤٥,٥ × ٤ = ١٨٢ وهو نفس عدد مطالع الشمس (المشارق) .

مقدار السنين في القرآن

ورب قائل يقول : أليس في القرآن كل شيء . فهل ذكر مقدار السنين للشمس والقمر ؟ نقول : إن حساب الأيام والسنين أحال الله فيهما إلي الشمس والقمر . فمنهما يعرف مقدار اليوم والأسبوع والشهر والسنة .

ورغم هذه الإحالة فقد أورد القرآن بعض المبادئ والإشارات التي تعيننا على استقصاء الحقيقة ، كما أن الرسول ﷺ أخبر أن الشهر ٢٩ يوما و٣٠ يوما ، وأخبر الله تعالى أن السنة ١٢ شهرا . فتكون سنة القمر ٣٥٤ يوما . ويكون أشهر نصف السنة ٢٩ يوما والنصف الآخر ٣٠ يوما . ولا تأتي هكذا بالتوالي ، فقد يأتي شهران متتاليان ٢٩ أو ٣٠ ويكون أحيانا أكثر من شهرين .

نعلم أن القرآن معجز حتى في الكلمات والأرقام وفي الآيات والسور . أي حتى رقم الآية في السورة ورقم السورة في الكتاب ووضع الكلمة من الآية وعدد كلمات الآية كل ذلك تحدى به الله

عز وجل ، بالإضافة إلى المعنى البليغ للآيات ونسق العبارات وما احتواه الكتاب من علوم وتاريخ وتنبؤات ، فهو معجز . والأعجب والأغرب أنه نزل على أمة أمية لا تكتب ولا تقرأ ، وليست ذات حضارة ، أو شأن بين الأمم . ولكنهم كانوا أهل بلاغة وبيان لذلك كانوا أول وأكثر من تذوقوا آيات وكلمات الله تعالى حتى إنهم ليسمونه : سحرا . ويقول قائلهم رغم كفره : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وأن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلوا ولا يعلى عليه .

وبلغ من إعجازه في الفصاحة والبيان ما يقصر عنه البلغاء حتى أن البدو رعاة الشاه ليتلمسون مواطن بلاغته حتى في كلمات معدودة من آياته . حكى أبو عبيد أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فسجد وقال : سجدت لفصاحة هذا الكلام .

وسمع آخر رجلا يقرأ : ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ فقال : أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام .

وحكى الأصمعي قال : رأيت بالبادية جارية وهي تقول :

أستغفر الله لذنبي كله قتلت إنسانا بغير حله

مثل غزال ناعم في دله فانتصف الليل ولم أصله

فقلت لها : قاتلك الله ما أفصحك ، فقالت : أتعد هذه فصاحة بعد قول الله عز وجل :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص:٧) فجمع في آية واحدة بين : أمرين ، ونهيين وخبرين ، وإنشاءين . وبشارتين .

لقد تحدث القرآن عن السنة القمرية والسنة الشمسية ، وذكر أيامهما . وكما تأتي الأيام يوما بعد يوم فإن القرآن لم يذكر عدد السنة مرة واحدة ، ولكن يعرف ذلك بإحصاء الأيام والليالي .

وبإحصاء عدد لفظ اليوم في القرآن نجد أنه ورد معرفا ٣٤٨ مرة وهو نفس عدد الأيام المعروفة للسنة القمرية إذ أن الشهر القمري المعروف والمؤكد هو ٢٩ يوم ولا تعرف الزيادة في أي شهر هي . وعلى هذا تكون السنة القمرية ٣٤٨ يوما معروفا . والأيام الستة الباقية هي غير معروفة .

كذلك ورد لفظ (يوماً) ١٦ مرة . وبجمع العددين ١٦ + ٣٤٨ = ٣٦٤ يوم .

هذا عن الأيام أما عن الليالي . فبإحصاء كل ما ورد في القرآن عن الليل نجد الآتي : ورد ذكر لفظ الليل ٧٤ مرة ، وليلا : ٥ مرات ، و٣ ليال ، و٧ ليال ، ١٠ ليال وأربعين ليلة وثلاثين ليلة ، وليال عشر ، كما وردت كلمة ليلة ٣ مرات .

ويجمع هذه الليالي نجدها كالتالي

الليل	ليلا	ليلة	ليالى	ليلة بالجمع	المجموع
٧٤	٥	﴿ليلة القدر﴾ ﴿ليلة الصيام﴾ ﴿ليلة مباركة﴾	﴿ثلاث ليال﴾ ﴿سبع ليال﴾ ﴿ليال عشر﴾	﴿أربعين ليلة﴾ ﴿ثلاثين ليلة﴾ ﴿أتممناها بعشر﴾	
٧٤	٥	٣	٢٠	٨٠	١٨٢

ملحوظة : وردت (ليلة القدر) ٣ مرات ، وردت (أربعين ليلة) مرتان . ولم نحسب التكرار .

وأيضا بإحصاء مطالع الشمس (المشارق) نجد أنها وردت في الأعراف الآية ١٣٧ الصافات الآية ٥ ، المعارج الآية ٤٠ :

ومجموع هذه الآيات : ١٣٧ + ٥ + ٤٠ = ١٨٢ (مشرقا ومغربا) .

وفي آية واحدة ، يعلمنا الله تعالى عدد السنين والحساب ، والفرق بين السنة الشمسية والسنة القمرية . بقول قاطع ، لا يترك للمؤمنين بعد ذلك اختلافاً يقول تعالى في سورة الكهف الآية ٢٥ ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ .

وهذه الآية هي الفاصلة بيننا وبين من لا يزال في قلبه شك بعد حصر الأيام والليالي التي ذكرت أيام السنة القمرية وأيام السنة الشمسية وعدد مطالع الشمس . في المشارق والمغارب فهذه الآية تحدد مدة مكث أصحاب الكهف نائمين في كهفهم بالتقويمين التقويم الشمسي والتقويم القمري . وليس في ذكر القرآن للتقويم الشمسي أنه يوجه إلى العمل به ، بل إن الله تعالى ذكر ذلك لأن من أساسيات القصة أن أقواما كانوا يختلفون في مدة لبثهم في كهفهم ، ومن هؤلاء الأقوام من يحسب بالشمس ومنهم من يحسب باجتماع القرصين ، ثم العرب المخاطبين بالقرآن الذين يحسبون بالقمر . ثم إن في عرض المدة نجد عدم انضباط السنة الشمسية . كما أنها لا تنضبط أيضا إلا بمقابلتها بالسنة القمرية .

وقد ذكر تعالى هذه المدة بهذا التحديد لأنه تعالى في أول ذكرهم قال :﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ وبعدها قال عن المتنازعين في مدة بقائهم من أهل الكتابين ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ (الكهف:١٢) فذكر مدة لبثهم بكلا التقويمين لكلا الفريقين .

وبالمقارنة بين الرقمين نجد أننا قلنا الحق في عدد أيام السنة القمرية وهي ٣٥٤ يوما . وأيام السنة الشمسية ٣٦٤.٦٢ يوما .

وقد ذكرنا أن الشمس تقف في السنة هذه المدة ٦٢, من اليوم لتسجد كل يوم ٢.٤٥ دقيقة في مستقرها . ومعنى قوله تعالى ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ هي بتقويم الشمس لأن الكسر فيها لا ينجبر إلا كل خمسين سنة .

وقوله ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ أي ٣٠٩ بتقويم القمر الذي ليس فيه أي كسر ليجبر .

عدد أيام لبثهم بالقويم الشمسي = ٣٠٠ × ٣٦٤.٦٢ = ١٠٩٣٨٦ يوماً .

عدد أيام لبثهم بالتقويم القمري = ٣٠٩ × ٣٥٤ = ١٠٩٣٨٦ يوماً .

أما لو حسبنا السنة الشمسية كما تقولون : ٣٦٥.٢٥ فإنها ستكون :

٣٠٠ × ٣٦٥.٢٥ = ١٠٩٥٧٥ يوما أي بزيادة ١٨٩ يوما على أيام السنين القمرية وهي ١٠٩٣٨٦ يوما .

فما رأيكم أيها السادة في تقويمكم الذي سرتم عليه وخالفتم ما أمركم به الله وقد أثبتنا لكم بطلانه بالوسائل الشرعية . والوسائل المادية ؟ ما رأيكم وقد تركتم تقويم ربكم ، وأخطأتم حتى في حساب أيام السنة الشمسية واتبعتم تقويما رومانياً وضع قبل التاريخ .

معلومات قمرية

رغم أنهم وصلوا إلى القمر إلا أن معلوماتهم عنه غير دقيقة والبعض غير صحيح بالمرة فهم يقولون أن القمر يدور حول الأرض كل شهر مرة أو يدور في ٢٩ يوما و١٣ ساعة وأنه يبعد عن الأرض ٣٨٤٠٠٠ كم . وأن جاذبيته ١/٦ جاذبية الأرض .

أما المعطيات الصحيحة عن القمر ، وهي رؤية شخصية لنا لم يقل بها أحد قبلنا كمعطياتنا عن الشمس وأبعادها وحجمها ، وعن الأرض ومحيطها . وهي بإذن الله معلومات صحيحة .

- فالقمر يدور حول الأرض كل يوم .. أو تحديدا مرة كل ٢٤ ساعة ٦/٧ ساعة .
- والسنة القمرية ١٢ شهر . والشهر القمري ٢٩ أو ٣٠ يوم . والسنة ٣٥٤ يوما .
- وهو ينزل في منازله وعددها ٢٨ منزلا ، ويقطع الأبراج وعددها ١٢برجا في شهر .
- يبعد القمر عن الأرض ١٧١٨١٨.١٨٠ كم (مائة وواحد وسبعون ألف كيلو متر وثمانمائة وثمانية عشر كيلو مترا ، ومائة وثمانون مترا) .
- قطر القمر ٣٠٠٠ كم .
- مدار القمر الذي يدور فيه حول الأرض ١٠٨٠٠٠٠ كم (مليون وثمانون ألف كم) .
- القمر هو وحدة قياس الزمن لذلك يشغل ٣٦٠ قرص من أقراص القمر المدار ، أي ٣٦٠ × ٣٠٠٠ كم = ١٠٨٠٠٠٠ كم .

-يستغرق ظهور أو اختفاء قرص القمر فى الأفق ٤ دقائق . أي أن القمر عندما يكون فى الأفق فإنه يشغل درجة من محيط الأرض .

-القمر يدور فى الفلك الأول بسرعة ٤٥٠٠٠ كم / س ، ٧٥٠ كم / ق ، ١٢,٥ كم /ث .

-نسبة محيط الأرض إلى مدار القمر إلى مدار الشمس :

٤٣٢٠٠ :	١٠٨٠٠٠٠ :	٤٣٢٠٠٠٠ كم
١ :	٢٥ :	١٠٠

-وهى نفس نسبة الأبعاد بينهم .

-يسجد القمر لله عز وجل (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) .[الحج:١٨] وغير أن القمر لا يسجد فى مستقر فليس لة مستقر وإنما له منازل فهو يسجد فى منازلة . وهو يسجد كالشمس فى مدة يعلمها الله تعالى .

ماهي أدلتنا علي هذة البيانات ؟

نحن نحتفظ فى هذة الرسالة على أدلتنا لهذة الأبعاد . ولكن بإمكان الوكالات الفضائية التأكد من صدق ما نقول . ولكننا بسهولة شديدة نقدم دليلا ماديا ملموسا لبعد القمر وبعد الشمس وهذا الدليل هو :

كسوف الشمس وخسوف القمر :

يتحصل القمر على نورة من الشمس من فوق الأرض تارة ومن تحتها أخرى .

والقمر يدور كل يوم تابعاً للشمس ، وقد يحدث أثناء دورانة أن يكون القمر بين الشمس والأرض على خط واحد فينتج عن ذلك الكسوف للشمس ، فيحدث كسوفا كليا على مساحة من الأرض تبلغ ١٢٠ كم أى على درجة من الأرض ويكون فى باقى الأماكن كسوفا جزئيا وكثير ما يحدث كسوف للشمس عند مستقرها فى المحيط الهادى .

وإنما قلنا أن المساحة التى سيكون عليها كسوف الشمس كلياً هى ١٢٠ كم ، لأنها نفس المساحة التى يشغلها قرص القمر عندما يكون بالأفق . هذة المساحة هي نتيجة الأبعاد التي قلناها للشمس والقمر من الأرض. فقطر الشمس ٩٠٠٠ كم وتبعد عن الأرض ٦٨٧٢٧٢,٧٢ كم وقطر القمر ٣٠٠٠ كم ويبعد عن الأرض ١٧١٨١٨,١٨ كم ومحيط الأرض ٤٣٢٠٠ كم . ومدار الشمس ٤٣٢٠٠٠٠ كم ، ومدار القمر ١٠٨٠٠٠٠ كم بنسب ١ : ٢٥ : ١٠٠

يحدث هذا الكسوف - الكلي والجزئي - للشمس عندما يمر القمر بين الشمس والأرض قاطعا الخط الواصل بين مركزيهما . أي أنه يحول بين الأرض وضوء الشمس .

أما لو كان القمر خلف الأرض بحيث تحجب عنه ضوء الشمس فيحدث ذلك خسوفاً للقمر ، كلي وجزئي حسب موقع القمر خلف الأرض . هذا ولا يحدث الكسوف للشمس إلا وقت الإستسرار ، إي وقت إجتماع القرصين وقبل ظهور القمر هلالاً .

أما الخسوف للقمر فلا يحدث إلا والقمر بدرا . أي يتم الكسوف عندما تكون الشمس والقمر أقرب ما يكونا ، ويتم الخسوف عندما يكونا أبعد ما يكونا .

* * * * *

نهاية النيرين دليل الدوران

عندما تقوم الساعة فإن تغيرا شاملا سيحدث في الكون ليتحول هذا النظام إلى الضد ، والشمس والقمر سيكفان عن جريهما ، وإرسال هذه ضوءها ، وهذا نوره لينتهي كل شيء ، ويقف كل الخلق أمام رب العالمين ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (المطففين:٦) في يوم سماه القرآن ﴿يَوْمَ التَّلاقِ﴾ . ذلك اليوم الذي سيلتقي فيه الخلق بالخالق ، والأولين بالآخرين ، والأنس بالجن ، والوحوش بالطير ، وأهل السماء بأهل الأرض . المسخرين بالمسخر لهم .

في هذا اليوم ستنطفئ الشمس وسيعتم القمر ، وسيجمع القمر بالشمس وستكور عليه الشمس . يقول ابن القيم : " إن هذه الحركة لابد أن تنتهي إلى انقطاع وسكون وإن هذا الضوء والنور لابد أن ينتهى إلى ضده . وإن هذا السلطان لا بد أن ينتهي إلى العزل . وسيجمع بينها جامع المتفرقات ، بعد أن لم يكونا مجتمعين . ويذهب بهما حيث شاء . ويرى المشركون حال آلهتهم التي عبدوها من دون الله . كما يرى عباد الكواكب انتثارها وعباد السماء انفطارها ، وعباد الشمس تكويرها ، وعباد الأصنام إهانتها وإلقاءها في النار أحقر شيء وأذله ، وأصغره .

وردت آيتان بشأن النهاية المحتومة للشمس والقمر تبينان موهما بعد الحياة وسكونهما بعد الحركة وإظلامهما بعد الإضاءة والوقوف بعد الدأب ، والتكوير بعد الدوران ، ولا حول ولا قوة إلا بالله " .

يقول تعالى : ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (التكوير:١) .

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ(٩)﴾ (القيامة) .

* * * * *

الشمس قرص لا كرة

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (التكوير:١) . تصور الآية مصير الشمس التي عرفنا حالها في الحياة الدنيا ، من بعث الحياة والطاقة لكل سكان الأرض من كل الكائنات . هذه الشمس التي عبدها ظلما كثير من الأمم والتي استغلها الشيطان أسوأ استغلال ، تكور يوم القيامة . وهذه الآية تومئ بأن الشمس ليست كروية ، ولكنها قرص كقرص الرحى . ولأنها قدر القمر ثلاثة أضعاف ، فإنها ستجمع القمر في داخلها وتكور عليه .

وهذا الوصف توضحه الآيات الأخرى من سورة القيامة التي حددت مصير النيرين الدائبين ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ ومصير الساقين للإنسان في نفس السورة . نجد مقابلة رائعة تشعرنا بأننا رغم الآيات وجبروت مدلولها أمام الله (الجميل) .

لقد استعرضت الآيات نهايتين . نهاية المخلوقات الأرضية ونهاية مخلوقات السماء الدنيا نهاية المسخر له ، ونهاية المسخرين .

نهاية الإنسان ونهاية الشمس والقمر . وكيف ولماذا عندما ذكر الله نهاية النيرين ذكر جمعهما . وذكر وخص من نهاية الإنسان الساقين ، وذكر لفهما .

إن متعة نسق الآيات لتسحر المؤمن وهو يتأملها فيشعر معها رغم هول القيامة بالأمان مع قائلها عز وجل .

فعندما يكون السؤال من الإنسان الكنود ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ يأتيه الرد: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠)﴾ وعن نهاية الإنسان يقول ربي تبارك وتعالى : ﴿كَلا لا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢)﴾ ويقول : ﴿كَلا إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِي (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتْ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠)﴾ .

من الآيات الأولى : أخذ الله نور القمر فخسف . وفي الثانية : أخذ روح الإنسان فكان الفراق . وكما كان القمر والشمس يجريان حول الأرض كانت ساقي الإنسان أيضا تجريان حول الأرض . ويوم القيامة تقف الشمس والقمر ويجمعان . ويوم قيامة الإنسان الصغرى تقف ساقيه ويلتفان . وعندما تلتف الساق بالساق يجمع القمر بالشمس ويساق كلا الساقين ، وكلا النيرين ، بعدما التف هذين ، وجمع هذين إلي الله .

يقول ابن عباس : ويكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر . ويبعث الله ريحا دبورا فتضرمهما نارا " رواه ابن أبي حاتم .

وروى البخاري : " الشمس والقمر يكوران يوم القيامة " .

إن قرص الشمس التي هي أكبر من كرة القمر ثلاث مرات ، سيلتصق بها القمر عندما يجمع بها وستكور عليه الشمس كما لو وضع أحدنا كرة (تنس) في راحة كفه ثم قبض عليها . وعند ذلك سيخسف بالقمر وستكور الشمس فتظلم .

وكما ستلتف الساق بالساق ، وكما سيجمع الشمس والقمر ويكوران ، ستلتف أيضا السموات السبع وتطوى ، ويجمعها الجبار جل جلاله ويكورها جميعا .

وفي الصحيحين ، واللفظ لمسلم عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : " يطوى الله السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول :{ أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟ } ثم يطوى الأرضين بشماله ثم يقول { أين الجبارون أين المتكبرون ؟ } " .

وفي حديث أخر يقول : { أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ }وفي لفظ أخر " ويأخذ الجبار سماواته وأرضه بيده فيجعلها في كفه ثم يقول بها (يفعل بها) هكذا كما يقول الصبيان بالكرة :{ أنا الله لواحد } " .

وأخرج ابن جرير عن أبي ابن كعب : " ست آيات قبل يوم القيامة :

بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس .

فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم .

فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على الأرض ..

فتحركت واضطربت .

ففزعت الإنس إلى الجن ، والجن إلى الإنس .

واختلطت الدواب والطير والوحوش فماجوا بعضهم في بعض .

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قال : اختلطت .

﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ أهملها أهلها .

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قال : قالت الجن نحن نأتيكم بالخبر .


قال : فانطلقوا إلى البحر. فإذا هو نار تأجج .

قال : فبينما كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلي .

وإلى السماء السابعة العليا .

فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح .. فأماتتهم " .

* * * * *



الباب السادس

زينة السماء

كانت أول خطوة من خطوات الشيطان مع بني آدم في هذا العصر الـــذي سمـــوه بعصـــر العلـــم والعلمانية هي أن يوسع لهم السماء حتى تصبح لما لانهاية . كذلك عمد الشيطان إلي مفردات لغة الديـــن فغير من بعضها ومحا البعض الآخر .

فالسماء أطلق عليها فضاء ، والكواكب التي زين الله بها السماء سماها " المجموعـــة الشمســـية " . والنجوم التي نراها صغيرة قليلة قال أنها أكبر من أرضنا ملايين المرات وأبعد من شمسنا بلايين المرات .

ثم محا مفردات أخري كالعرش والكرسي والسموات والملائكة . والجنة والنار وأتى ببدائـــل لهـــا : كالأسرار ، والغموض ، والمجهول ، واللانهاية وأودعها في السماء بدلا من سابقتها .

وخدعة إبليس في تغيير الأسماء ليست بالجديدة ، بل هي مكررة ومعادة . والتي بدأهـــا بالشـــجرة المحرمة علي آدم وسماها " شجرة الخلد " . وبهذه الخدعة القديمة سقط ويسقط كثير من الغافلين .

لذلك عندما أرسل إبليس أحد رسله ليقوم بهذه المهمة الخطيرة وكان يدعي " جيردانو برونو " كـــان رسولا خائباً ، أو فاجراً فقال لصرف الناس عن الله ، أن الفضاء لا نهائي فعاقبته الكنيسة بالموت حرقـــا في ١٦٠٠/٢/١٧ .

ورغم خطأ جيردانو المفضوح فإن إبليس استغل نهايته وسماه " شهيد العلم " وأصبح هـــذا اللقـــب يردده أشد المسلمين إيمانا بالله . فيقول العالم الجليل أبو الحسن الندوي عن شهداء العلم : " كان منـــهم العالم الطبيعي المعروف جيردانو برونو ، نقمت منه الكنيسة آراء أشدها قوله بتعدد العـــوالم ، وحكمـــت عليه بالقتل ، واقترحت بأن لا تراق قطرة من دمه . وكان ذلك يعني أن يحرق حيا وكان كذلك " .

ولم يقل جيردانو بتعدد العوالم كما قال عالمنا بل أعدمته الكنيسة لكفره بالله وبكل الغيـــب وقـــال بـــأن الفضاء الذي أمامنا لا نهائي . وعندما أرسل إبليس جاليليو استوعب الأخير الدرس إلي حدا ما ولم يقـــل بلا نهائية الفضاء وإنما قال " إن الكون إنما هو فراغ شاسع " وإنما يقصد بذلك إنه لا نهائي كما صـــرح مقدمو كتابه " الحوار " .

ولأن أكثر الناس لا يؤمنون ، فيوما بعد يوم ضعف سلطان الكنيسة التي كـــانت تحـــرس الديـــن ، وقوي سلطان التجريبيين الذين كانوا يهدمون الدين . وتجرأ الكثيرون وقالوا أكـــثر بكثـــير ممـــا قالـــه جيردانو دون أن يعترض عالم مسيحي أو مسلم ، وراحوا في سبيل إثبات لا نهائية الفضاء يطلقون أرقامـــا بأقصى ما يمكن أن يتحمله عقل ، ثم اخترعوا مقاييس جديدة منها السنة الضوئية ، لتصل الأرقام إلي مـــا يفوق البلايين ببلايين المرات .

فقد كانوا يقولون " إن عدد نجوم السماء مثل عدد ذرات الرمال الموجودة علي سواحل البحار في الدنيا كلها . منها ما هو أكبر بقليل من الأرض ، ولكن أكثرها كبير جدا . حتى يمكن أن نضع في واحد من ملايين هذه النجوم مثل ملايين حجم الأرض ويبقي فيها مكان خالي " .

وقال بعضهم " إن هذا الكون يتألف من خمسمائة مليون من مجاميع النجوم مضروبا هذا العدد في (٥٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠) من الملايين وفي كل مجموعة منها يوجد (مائة مليار) من النجوم . وأقرب مجموعة هي مجموعة " درب التبانة " ومنهم من كان أكرم من هذا فقال أرقاما في كتابتها مشقة فآثرت السلامة .

هذه العقيدة ، أو هذه المعلومات يشترك فيها علماء الأرض . فالمسلمون يقولون بذلك تبعا لسادة الأرض من تجريبي الغرب وأمريكا .

حتى تقرأ لمسلم يؤمن بالقرآن الذي فيه أن الله خلق شمسا واحدة وقمرا واحدا وبعض الكواكب والنجوم ، يقول : شمسنا هي أصغر من كبريات النجوم بخمسة وثلاثين مليون من المرات " .

ومسلم آخر يقول متندرا علي قول الله ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (الحجر:١٦) . " إن هذا زعم فيه عجرفة وسخف يذكران بالفلسفات القديمة التي كانت تصمم علي أن الإنسان والأرض هما المحور والمركز . وأن النجوم مجرد ثقوب صغيرة وضعت في السماء ليبتهج الإنسان بمرآها " .

وهؤلاء الذين يقولون في النجوم ، بما لم يقل به الله فيها ، ولم يقل به أحد من رسله ولا أحد من علماء الشرع المعتبرين في أي ملة ، بعضهم حسن النية ، يطلق بالأرقام والأبعاد لا يلقي لها بالاً، إنما هو متبع لمن يظن أنهم رأوا بأعينهم ما يقولون وبعضهم سيء النية ، كافر بالله ، مؤمن بالطبيعة والعلم فقط ، وسواء كان القائلون هؤلاء أو أولئك فإنهم سيحاسبون علي قولهم وسيطلب منهم الدليل علي ما يقولون .

* * * * *

النجوم ليست شموس

وكما اتفق البشر الآن علي أن الأرض تدور ، وأن الشمس هي مركز هذه المجموعة فقد اتفقوا – مؤمنهم وكافرهم – علي أن هذه النجوم هي شموس كشمسنا هذه ، غير أنها تفوق شمسنا حجما وقوة ملايين المرات ، أو بلايين المرات والقليل منها مثل حجم شمسنا . ونحن إنما لا نشعر بذلك لبعدها الشاسع عنا .

ورغم أن هذا القول مناقض تماما مع الكتب المنزلة . فالكتاب المقدس يذكر أن الله تعالى خلق النيرين العظيمين ، النير الأكبر لحكم النهار ، والنير الأصغر لحكم الليل . وخلق الله النجوم وجعلها في

جلد السماء . والقرآن يحدد أكثر بأن هذه الشمس هي الوحيـدة في السماء ، بل في السموات السبع : ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦)﴾ (نوح) .

فرغم أن الله يقول بغير ما يقولون إلا أننا نحكمهم إلي العقول – إن كانوا يعقلون – ما داموا يكذبون كلام الله .

ونسألهم جميعا ، مؤمنين وكافرين : لماذا أيها السادة لا تعطينا هذه النجوم ، وهي بالبلايين المبلينة – كما تقولون – ضوءا كضوء الشمس بلايين المرات ؟ لماذا لا نري في الليل بلايين الأضواء ، التي تفوق نور الشمس ؟

تقولون لأنها علي بعد ملايين السنين الضوئية . ولكنكم أيضا تقرون بأن كثيرا منها قريب منا مثل (النجم القنطوري) الذي يبعد عنا أربعة سنين ضوئية فقط وهو نجم كما تقولون – يفوق شمسنا ملايين المرات ؟

لماذا لا تعطينا هذه النجوم مليون فقط قدر نور شمسنا ؟ أو حتى ألف ؟ أو مائة ؟ أو عشرة ؟ فـأن كانت لا تستطيع فلتعطينا نورا قدر نور شمسنا فقط ؟ أو النصف ، أو الربع ، أو واحد من مائة ، أو واحد من ألف ؟ لماذا لا تعطينا هذه النجوم جميعا واحد من مليون من ضوء هذه الشمس ؟ لماذا لا تتظاهر وتتضامن وتتعاون جميع بلايين النجوم وأقلها في حجم شمسنا ، وأكبرها قدر شمسنا ملايين لمرات وتعطينا واحد من مائة من مليون من ضوء الشمس ؟

إن هذه النجوم أيها السادة لا تقدر علي ذلك ، ولا تقدر علي الظهور لمجرد أن تقترب الشمس من المشرق حوالي نصف ساعة أو اكثر ، وكلها لا يجرؤ علي الظهور حتى بعد اختفاء الشمس بنصف ساعة ومعظمها يبدأ في الظهور بعد ساعة من اختفائها. بل إن القمر وهو الذي يستمد نوره من الشمس ، يخفي بنوره المستعار هذا ، أكثر من نصف نجوم السماء والنصف الآخر يبدو علي استحياء .

لماذا أيها السادة تترك شموسكم البلايينية السماء حالكة السواد ، والأرض مدلهمة الظلام ؟

إذاً أيها السادة اسمعوا لكلام خالقكم ، حتى ولو كنتم به غير مؤمنين ، فهو تعالى يخبركم أن النجوم مجرد زينة ، منظر ، وليس هذا سُبة للنجوم بل هو دورها .

وظائف النجوم

ليست النجوم بهذا العدد الغير معقول الذي يقول به الفلكيون والمنجمون ، وليست هي مبعثرة في الفضاء بعشوائية ولا هي بالبعد الذي قالوا به . بل كل ما في الكون محدد ومقنن ، ومنضبط تماما ، كما قال تعالى ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ (القمر:٣) ويقول ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر:٤٩) ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان:٢) فالنجوم خلق من خلق الله ، خلقها تعالى لدور معين ومحدد ، وخلقها تعالى بقدر معين ومحدد فهي ليست كرمال الأرض ، فالرمال بهذا الكم لأنها تراب ، فرش الله بها الأرض ، فهي فراشا . أما النجوم فهي ليست كذلك للسماء وإنما هي زينة ، والزينة دائما معدودة محدودة ، وإلا كان فيها إسراف ، وقد نهي تعالى عن الإسراف وأخبر أنه لا يحب المسرفين .

والدور الآخر الذي لأجله خلقت النجوم يجعلها محدودة ومعدودة ومعروفة وذلك ليهتدي بها ، وإلا فكيف يهتدي بمثل رمال الصحراء ؟ .

وإنما جعل الله تعالى النجوم بعدد وبأقدار مختلفة وأبعاد متفاوتة حتى كونت علي صفحة السماء هذه الأشكال والرسوم التي أطلقنا أسمائها عليها ، وقد اتفقت البشرية كلها علي أسماء هذه الأشكال ، وأسماء هذه النجوم .

وعندما اقسم الله تعالى بمواقع النجوم قائلا : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)﴾ (الواقعة) .

فقال علماء التفسير ووافقهم علماء الحديث أن هذا القسم ليس بنجوم السماء ، بل بنجوم القرآن . ولعل الآيات ذاتها توضح ذلك ، وأيضا الأحاديث ، وقد فصلنا ذلك في موضع سابق . ونقول : حتى لو كان القسم هنا بنجوم للسماء ، فليس معني قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ أن أبعاد النجوم عظيمة ، بهذه البلايين ، بل معناه أن القسم ذاته بهذه المواقع قسما عظيما . ومواقع النجوم بالنسبة للقرآن ، أي الآيات التي تنزل من السماء منجمة : مفرقة علي سنين البعثة وعلي مواقع الأحداث التي توافقت تماما مع نزول الآيات .

أما لو افترضنا أنها مواقع نجوم السماء ، فإن مواقع النجوم غاية في التناسق والإبداع والتكوين ، ليس في بعدها عن الأرض ، بل في أبعادها هي عن بعضها البعض بحيث تشكل كل مجموعة برج من الأبراج ، وبحيث يكون عدد هذه الأبراج ١٢ برجا بالتمام . وبحيث أن يشغل كل برج في السماء ٣٠

درجة قوسية أو ١٢٠ دقيقة زمنية بالتمام . وبحيث يتعامل القمر والشمس وسائر الكواكب مع هذه الأبراج بتناسق ، وتوافق ، ومواعيد دقيقة منضبطة .

ألا تكون هذه المواقع دالة علي قدرة الله تعالى وحكمته وعظمته ؟

لذلك يقسم تعالى بهذا وليس بالبعد عن الأرض بملايين السنين الضوئية كما قال الكافرون بالقرآن ، وأيدهم في ذلك علماء الإسلام الآن .

ولأن النجوم هي التي يتشكل ويتشيد منها الأبراج ، والأبراج ١٢ برجا فقد ذكرت النجوم في القرآن ١٢ مرة .

أما عدد النجوم ذاتها في السماء فهو موجود أيضا في القرآن ، ولن تصل إليه إلا بالتأمل والتدبر لآيات الله .

يقول تعالى عن علة خلق النجوم :

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ (الملك:٥) .

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (الأنعام:٩٧) .

وقال البخاري في صحيحه في كتاب بدء الخلق : " وقال قتادة : خلقت النجوم لثلاث : (١) جعلها زينة للسماء (٢) ورجوما للشياطين (٣) وعلامات يهتدي بها ، فمن تأول غير ذلك فقد أخطأ وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم به " .

وقال ابن تيمية : " أخبر سبحانه في كتابه أن النجوم منافعها ثلاث : يهتدي بها في ظلمات البر والبحر ، وأنها زينة للسماء الدنيا ، وأن الشياطين ترجم بالنجوم وإن كانت النجوم التي ترجم بها من نوع أخر غير النجوم الثابتة في السماء " .

ولقد أتفق السلف جميعا علي أن النجوم والكواكب ليس لها دور سوي ما ذكر . وذلك من نصوص القرآن ، ولم يخالف منهم أحد . والغريب أن الذين ينكرون هذه الثلاث للنجوم لا يقولون فيها بشيء ، فلا ينسبون لها أي دور ويستعظمون أن تكون قد وجدت لهذه الأمور التي ذكرها الله تعالى ويقولون : " إن هذا زعم فيه عجرفة وسخف يذكران بالفلسفات القديمة التي كانت تصمم علي أن الإنسان والأرض هما المحور والمركز وأن النجوم مجرد ثقوب صغيرة وضعت في السماء ليبتهج بمرأها الإنسان " .

عبودية النجوم

لم يخبرنا علماء الفلك والمنجمون والمتحدثون عن بدء الخلق ، كيف خلقت هذه النجوم في نظرياتهم . أو كيف تكونت لأنهم لا يعترفون بالخلق . لقد أخبرونا أن الأرض والكوكب نتجت عن

حادث مأساوي سماوي بين الشمس ونجم أخر ، أو بين النجم ونفسه (اختلفت رواية المشاهدين للحادث) ولم يخبرونا : كيف تكونت النجوم .

ولكن القرآن يخبرنا بأن الله تعالى خلق النجوم ، وأخبرنا بأنه خلقها في اللحظات الأخيرة من اليوم السادس : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾ (فصلت) .

ففي هذه الآية يخبر تعالى عن وقت خلقها ، وسبب خلقها ، بأنها زينة ، وحفظا ، وفي آية أخرى يخبر أنه جعلها للهداية في البر والبحر . من أجل هذه الأمور سخرت النجوم ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ (النحل:١٢) .

وقد أخبر تعالى عن عبودية النجوم له عز وجل بداية من التسخير بأمره وطاعته تعالى ، إلى التسبيح ، إلي السجود .

فعن تسبيحها يقول تعالى ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (الجمعة:١) كذلك تسجد النجوم عبادة لله عز وجل ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾ .

ويقول تعالى عن سجود كل شيء له ما عدا السموات والأرض فقد منعهما الله ليثبتا للخلائق ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ (الرعد:١٥) .

فذكر تعالى جميع الخلائق دون تحديد ، ولكنه حدد مكانهم ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ بمكانين ، وحدد زمن سجودهم بوقتين ﴿بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ وحال سجودهم بحالين ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ وصفة سجودهم بهيئتين (جرمهم ، وظلهم) فالآية لم تترك أحدا أو شيئا أو وقتا أو مكانا إلا فيه سجود لله تعالى .

وفي آية أخري خص تعالى الكائنات الحية فقال ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (النحل:٤٩) .

النجوم والمنجمون

من وظائف النجوم أن جعلها الله تعالى كما قال : ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ (الملك:٥) لم يصرح القرآن في أي آية أن الشيطان عدوا لله ، ومن ثم فالشياطين لا يحاولون النيل من ملك الله وملكوته

بصعودهم إلي السماء . ولكن صرح القرآن في أكثر من آية ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (يوسف:٥) . وعلي ذلك فالشياطين في محاولاتهم للصعود إلي السماء إنما يقومون بعمليات تجسس علي مستقبل البشر الذي يحدد في السماء . والملائكة هم أنصح خلق الله لخلق الله ، والشياطين هم أغش خلق الله لخلق الله ، لذلك فالملائكة مع عبادتهم الدائمة يتحدثون في شئون بني آدم التي كلفوا للقيام بها حبا وكرامة لبني آدم وطاعة وتعبدا لله عز وجل ، فكانت الأبراج حماية للأسرار السماوية الخاصة بالبشر من تسمع الشياطين لها .

وللعداوة الشديدة التي يكنها الشياطين لبني آدم فقد كانوا يتحملون آلاماً شديدة ومتاعب جمة في عملية الصعود هذه واستراقهم السمع . ويصبرون علي احتمال الأذى في سبيل إضلال بني آدم والكيد لهم . مما يدل علي مدي عداوتهم لهم .

غير أن حراسة السماء شددت وإجراءات حفظ الأمن في السماء زادت فحيل بين الشياطين وبين تسمع الأخبار . وقد حدثت هذه التطورات منذ بعثة محمد ﷺ .

وقد كانت المصلحة التي كان الشياطين يتكبدون في سبيلها الويلات هي الحصول علي بعض الأخبار والمعلومات التي كانوا يكذبون فيها ويلفقون أخبارا ومعلومات أخري لم تقال في السماء ، ثم يلقون بكل ذلك علي الكهان والمنجمين والعرافين وغيرهم من الدجاجلة ليضلوا بها بني آدم .

وقد أتت جهود الشياطين ثمارها . وما كانوا ليتحملوا هذا العذاب الشديد دون فائدة ، فقد استطاعوا فعلا أن يضلوا جبلا كثيرا من الناس ولا يزالون .

كيف ضل الناس بالنجوم ؟

كما استغل الشيطان الشمس في إضلال البشر فقد استغل النجوم أيضا . وتعاون حزب الشيطان إنسهم وجنهم علي أداء هذه المهمة ، ولا يزالون .

أما عن أسلوب العمل فقد قال ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري : " إن الملائكة تتحدث في العنان بالأمر يكون في الأرض ، فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن ، كما تقر القارورة فيزيدون مائة كذبة " . فكانت الشياطين تصعد في السماء بما لديها من قدرات فتسترق السمع ، فإذا ما سمعوا كلمة من الملائكة عن أمر يكون لأحد في الأرض تنزلوا علي أخوانهم من البشر وهم الكهان الذين تعاقدوا معهم وتعاونوا علي الغش لبني آدم وإضلالهم بالدجل والشعوذة والتنجيم والكهانة والعرافة . وحتى يكون الكهان علي شيء فإن الشياطين يمدونهم بكلمة صدق ومائة كلمة كذب . واعتقد الناس في صدق الكهان ومعرفتهم للغيب فآمنوا بهم ولجئوا إليهم في مصائبهم ومطالبهم وشدوا الرحال إليهم . ليجلبوا نفعا ، أو يدفعوا ضراً .

وكان الكهان يغشون الناس مدعين أن ما يخبروهم به هو من طالعهم في النجوم . ووصـل الأمـر بكثير من الناس ان اتخذوها آلهة ، ونسبوا لها النفع والضر .

وكما فعلوا مع الشمس فعلوا مع النجوم التي سخرها الله لهم ، أصبحوا عبيدا لها ، وجعلها الله لهـم ليهتدوا بها ، فضلوا فيها . ولايزال حتى اليوم معظم الناس يلتمسون من النجوم أو المنجمـين ، النفـع ، والضر ، حتى الذين بلغوا درجات من العلم ، والثقافة ، لتجدهم يبحثون في الأبراج ، وحظك اليـوم ، ويصدقونها ويتفاءلون ويتشاءمون بها . يعتقدون بجهلهم ان الحركات العلوية سبب الحوادث الأرضية .

والمخلوقات العلوية والسفلية ، إنما يمسكها الله بقدرته سبحانه ، وما جعل فيها من الطبائع والقـوى فهو كائن بقدرته وبمشيئته سبحانه .

وعندما خسفت الشمس يوم موت إبراهيم ابن الرسول ﷺ . توهم الناس أنها خسفت لموته ، فـرد رسول الله ﷺ على توهمهم بقوله : " إن الشمس والقمر لاينخسفان لموت أحد ولا لحياته ، لكنهما آيتـان من آيات الله يخوف بهما عباده " .

عن ابن عباس قال : حدثني رجال من الأنصار أنهم كانوا عند النبي ﷺ فرمي بنجم فاستنار فقـال : " ما كنتم تقولون لمثل هذا في الجاهلية ؟ " قالوا : كنا نقول : يموت عظيم أو يولد عظيـم . فقـال : " فإنه لا يرمى به لموت أحد ولا لحياته . ولكن ربنا عز وجل إذا قضى أمراً سبح له حملـة العـرش ، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح إلي هذه السماء ثم سأل أهل السـماء السادسة أهل السماء السابعة ماذا قال ربكم.. فيخبرونهم ، ثم يستخبر أهل كل سماء حتى يبلـغ الخـبر أهل السماء الدنيا ويختطف الشياطين السمع فيرمون ، فيقذفونها إلي أوليائهم ، فما جاءوا به على وجهـه فهو حق ، ولكنهم يحرفونه ويزيدون " رواه مسلم والترمذي .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانـاً لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان . فإذا فزّع عن قلوبهم ، قالوا ماذا قال ربكم ؟ قـالوا للـذي قـال : الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترقوا السمع فيلقيها إلي من تحته ثم يلقيها الآخر إلي من تحته حـتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركـه فيكذب معها مائة كذبة فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا ، فيصدق بتلك الكلمة الـتي سمعت من السماء " رواه البخاري والترمذي وأبو داود .

فقد أخبر ﷺ أن الشهب التي يرجم بها لا تكون عن سبب حدث في الأرض وإنما يكون عـن أمـر حدث في السماء ، وأن الرمي بها لطرد الشياطين المسترقة .

قال ابن تيمية رحمه الله : " لا ريب أن النجوم نوعان : حساب وأحكام . فأما الحساب فهو معرفة أقدار الأفلاك والكواكب ومقدار حركتها ، وما يتبع ذلك ، وهو في الأصل علم لا ريب فيه .

وأما الأحكام التي هي من جنس السحر فمن الممتنع أن يكون نبيا من الأنبياء ساحراً ، إذ فيه من الكذب والباطل ما يستتره عنه العقلاء الذين هم دون الأنبياء بكثير وما فيه من الحق فهو شبيه بما قال إمامهم ومعلمهم الثاني بعد بطليموس " أبو نصر الفارابي " قال : إنك لو قلبت أوضاع المنجمين فجعلت مكان السعد نحساً ، ومكان النحس سعداً ، أو مكان الحار بارداً ، أو مكان البارد حاراً ، أو مكان المذكر مؤنث ، ومكان المؤنث مذكر وحكمت لكان حكمك من جنس أحكامهم ، يصيب تارة ويخطئ أخرى " .

ولأن الإسلام جاء ليضع كل شيء في نصابه الصحيح ومكانه الطبيعي ، فقد حدد القرآن فائدة النجوم في ثلاثة : زينة ، حفظ ، هداية في البر والبحر . ومن زعم غير ذلك فقد أعظم الفرية . وأكد ﷺ على ذلك بقوله : " تعلموا من النجوم ما تهتدوا به في ظلمات البر والبحر ثم انتهوا " أخرجه ابن مردوية والخطيب عن ابن عمر . وتعلم عمر بن الخطاب ذلك من رسول الله ﷺ فتجده يقول للناس : " تعلموا من النجوم ما تهتدوا به في بركم وبحركم ثم امسكوا فإنها والله ما خلقت إلا زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدي بها " . أخرجه ابن أبي شيبه وبن المنذر والخطيب في كتاب النجوم . وأخرج ابن أبي شيبه وابن داود وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال النبي ﷺ " من اقتبس علما من النجوم أقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد " .

والحديث وأشباهه محمول على النظر فيما عدا الاهتداء والتفكر والاعتدال .

معلومات نجومية

لم ينسب القرآن للنجوم جريا ، أو سباحة في الأفلاك كما نسب للشمس والقمر لهذا قال السلف عنها " النجوم الثوابت " وهي بالفعل ثوابت بخلاف الشمس والقمر والكواكب الدراري وليس ذلك معناه أنها لا تتحرك بل إن النجوم كلها مثبتة في القبة السماوية تدور بهم جميعا من الشرق إلى الغرب حول الأرض مرة كل ٢٣ ساعة و٥٦ دقيقة ، وذلك لأن القمر هو وحدة القياس في السماء وقرصه يشغل درجة واحدة من مداره الدائري ، ومدته ٤ دقائق . أي ان القمر يستغرق ظهور قرصه من الأفق أو غيابه فيه ٤ دقائق وذلك لتكتمل الدورة بدورة النجوم ٥٦ ,٢٣ + ٤ = ٢٤ ساعة .

وعلى ذلك فالنجوم في دورانها تبكر كل يوم ٤ دقائق أي في الشهر ١٢٠ دقيقة ، وبذلك يسقط برج في القبة السماوية ويظهر غيره لأن البرج يستغرق ١٢٠ دقيقة . ولا تخلو القبة السماوية من ٦ أبراج يسقط برج كل شهر ويظهر آخر مقابل له في الشروق .

أما أحجام النجوم فقد روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه ليلة عرج به إلى السماء رأى النجوم كأنها قناديل معلقة ، أصغرها أكبر من الجبل العظيم . وهذا مبينا لآية السجود للأجرام والأشياء والتي وردت بالترتيب : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ (الحج:١٨) فهذه الآية ترتب المخلوقات .

السموات أكبر ثم الأرض ، ثم الشمس ، ثم القمر ثم النجوم ، ثم الجبال ، ثم الشجر ، ثم الدواب ، ثم الناس .

فالنجوم أصغر كثيرا من القمر وأكبر من الجبال . فهي مجرد مصابيح لا أكثر ، فلم تكن بالحجم الذي يزعمونه ، وأن أي نجم ممكن أن يوضع فيه مليون مثل أرضنا ويبقى فيه مكان .

وهذا قول الذين لا يعلمون ، ولا يؤمنون .

أما بعدها عن الأرض فجميعها على بعد واحد من السماء ولكنها مختلفة في الأقدار . وهي أعلى الأجرام السماوية وكما قلنا أن بعد السماء ذاتها عن الأرض ٧ مليون كم .

غزو الفضاء

يعطينا التاريخ صورة مشينة عن الإنسان ، صنعها هو لنفسه ، فكلما ابتعد عن الله وعن رسائل الله ، ضل طريقه ، وضاق عالمه ، واستوحش الكون من حوله ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ (الأنعام:١٢٥) فالمؤمن المتبع لهدى الله ، صدره منشرح يبصر بعين الله ، ويسمع بسمع الله .

كما روي البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عن رسول الله ﷺ : " إن الله عز وجل قال : { من عاد لي وليا ، فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته ، كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت ، وأنا أكره مساءته } .

فالكون كله أمام عينيه ، والحقائق كلها بين يديه لا طلاسم ، ولا مجهول ، ولا تيه ولا أسرار ، ولا غموض ، اللهم إلا الغيب . وهو خمس فقط كما ذكر تعالى .

وعدها للمؤمنين حتى لا يشغلوا أنفسهم بها لأنها من أسس ابتلائهم على الأرض ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان:٣٤) وما عدا هذه الخمس فالكون أمامهم كتاب مفتوح .

وثمة انسجام بين المؤمن والكون حوله ، لأن كل ما في الكون من مخلوقات الله ، ولأن كل المخلوقات مؤمنة ، عابدة طائعة ، مسبحة ، من الذرة إلى المجرة ويقول تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات:١٠) والكل على طريق واحد ، الطريق المستقيم .

والله تعالى يعرف الإنسان بباقي العباد ، الذين هم جميعا عبيد مثله . ولأنهم جميعا إخوة ، وعلى طريق واحد مستقيم فمن على آخر الطريق يستطيع بإرادة الله أن يرى منَ على أوله .

أما الكافرون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر . فلا يجمعهم طريق بل يتفرقون في السبل ، وتحول بينهم وبين بعضهم ظلمات ، ومن ثم فعالم كل واحد منهم نفسه وربما ضاقت عليه وكما قال عنهم تعالى﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ (التوبة:١١٨) وهذا شعور كل من يخالف الله وقانونه . وبقدر المخالفة يكون الضيق والظلمة .

لذلك تراهم ، إما مكتئبين وإما مختنقين ، وإما منتحرين .

ونذكر بما قاله جاليليو قبل أن يموت " إن هذا الكون الذي كبرته مئات المرات بكشوفي الغريبة وآلاتي العجيبة . قد انكمش بالنسبة ليّ من الآن فصاعدا إلى مجرد الحيز الصغير الذي يشغله جثماني " .

وبقدر الإيمان والتمسك بقانون الله وشرعه والاتباع لكتاب الله يكون الانشراح والنور ووضوح الرؤية . واتساع الأفق ، ورحابة الكون .

وكنموذج للبشرية يخبر الله عن أحد المؤمنين وحال الكون معه يقول تعالى﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام:٧٥) ومن يدع الله يدعه ، ومن يكفر يضله ومن يضله الله فلا هادى له مهما فعل ، ومهما كان . ومهما أوتى ، وسيظل كما قال عنه الله ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ (الأنعام:٧١) . ومهما كانت الإضاءة حوله والكهرباء والأشعة بكل أنواعها ، والأجهزة بكل طاقاتها والمقربات والمكبرات، فإن الله تعالى قد حكم عليه ان يعيش في الظلمات . لماذا ؟ لأنه ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾(البقرة:١٧) .

هذه الظلمات رغم ماذا ؟ رغم انه استوقد نارا وأضاءت ما حوله ، رغم الاختراعات والاكتشافات وما حصل عليه من ألقاب علمية وما أوتى من تكنولوجيا وحضارة وتقدم كشف له كل شيء . إلا أنه حقيقة في الظلمات ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (١٨)﴾ (البقرة) ولماذا

هذا الجزاء . يقول تعالى ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ (البقرة:١٦) والأمر ليس حالة وقتية بعدها يخرجون ثم يبصرون ، بل هو حكم الله عليهم دائما أبدا ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الأنعام:٣٩) ماداموا به كافرين .

فكيف بالله أيها المؤمنون تأخذون علما ، وعلما متعلقا بالكون ممن يعيشون في الظلمات ؟

لقد حكم الله عليهم بالظلمات : وأنتم تحكمون عليهم بالتنوير .

كيف يرون السماء وما فيها ، وكيف يرون النجوم وأبعادها ، وهم لا يكادون يرون أيديهم إذا أخرجوها من ظلماتهم ؟؟ كيف ؟ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠)﴾ (النور) .

إنهم لا يكادون من ظلماتهم أن يرون أيديهم إذا أخرجوها ونظروا إليها ، فكيف نطمئن إلى معلوماتهم عن الشمس والنجوم وهي أبعد شيء إليهم .

كما أن هذا الفضاء بكل ما فيه أخبرنا الله منه علماً ولم يعد الأمر بالنسبة إلينا أسرار أو مجهول ، وما خفي علينا من أمر القضاء – إن كان هناك خفاء – لسنا مكلفين بمعرفته أو بالبحث عنه وعدم معرفة مالا يريد الله لنا معرفته .. علم .

ولم يطلب منا تعالى أن نبحث في الفضاء . بل قال ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ﴾ (ق:٦) فهو مجرد النظر ، ولو أردنا السير والبحث ففي الأرض وليس في السماء ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (العنكبوت:٢٠) . وهذا أقصى ما يمكن عمله للبحث .

إن جمهور علماء المسلمين لا يجيزون ركوب البحر إلا إذا أمن اغتلامه . وذلك لحفظ الأنفس من الهلاك . فما بالكم بمن يسبحون في الفضاء الذي قال عنه تعالى :

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ (الرحمن:٣٥) .

وهذا ما حدث لهم بالفعل عندما أرادوا غزو الفضاء . وهم لا ينكرون ذلك في أحاديثهم وكتبهم .

إن مقولة " غزو الفضاء " فيها تجاوز كبير . فأين نحن من غزو الفضاء وفيها ما عرفناه من حراسة مشددة ، وحصون وبروج مشيدة ، وشهب مرصدة ، موجهة لمن يتجرأ من شياطين الإنس أو الجن

بتجاوز الأرض والصعود إلى السماء بأكثر من المسافة المسموح بها ولا يغرنكم أيها المؤمنون ما نسمعه من أخبار كاذبة بين الحين والحين عن رحلاتهم في الفضاء ، وما نراه من أفلام كاذبة صنعت بخدع الكمبيوتر عن بعض ما توصلوا إليه . والحق ان كل ما قالوه كذب وباطل . وإلا فليقولوا لنا ماذا حققوا طوال نصف قرن من الزمان يغدون ويروحون ، يعرجون ويترلون ، يذهبون ويأتون ماذا فعلوا ؟ ما الذي حققوه ؟

إنه وبصراحة شديدة لا شيء .

يقول "فكتور كوماروف " في كتاب " طرائف علم الفلك " : " ظهرت إمكانية واقعية تماما لمقارنة (جعبة المعلومات) التي جمعتها بصورة حثيثة ، أجيال من علماء الفلك حول المنظومة الشمسية مع المعطيات الفضائية الجديدة ، فماذا كانت الحصيلة ؟

لقد أعطى الجواب عن هذا السؤال العالم الفلكي السوفيتي المعروف العضو المراسل لأكاديمية علوم الاتحاد السوفيتي أ . شكلوفسكي في إحدى مقالاته قال : إن أعظم إنجاز في مجال دراسة المنظومة الشمسية باستخدام الأجهزة الفضائية هو أنه لم يتم التوصل بهذا المجال إلى أية اكتشافات عظيمة ولم يظهر بأن (كل شيء على خلاف ما هو معروف) وأثبت بجلاء المخطط المبدئي للعمليات الفضائية الجارية في الأسرة الكوكبية للشمس ، الذي رسمه علم الفلك الأرضي " .

هذا إقرارهم هم أنفسهم على محصلة غزوهم للفضاء ، أنه أنه لا زيادة على المعلومات التي جمعت عن المجموعة الشمسية من الأرض . أي أن محصلة غزوهم للفضاء .. لا شيء .

وتعالوا لننظر في الأمر حتى يومنا هذا :

كم غرموا في سبيل الوصول إلى القمر من الملايين ؟ لا بل كم من المليارات ؟ وكم استغرقوا لهذا من أعمارهم ؟ وكم هلك منهم ، ومن الحيوانات التي لا ذنب لها ؟ وهذه المبالغ الضخمة التي أنفقتها وكالة (ناسا) الأمريكية . ووكالة (ميرا) الروسية وغيرهما من أطنان من الأموال للبقاء على سطح القمر دقائق معدودات . كان يموت في مقابلها أعداد لا حصر لها في أفريقيا وغيرها ، جوعاً وعرياً .لأن كل دينار أو درهم ينفق في غير محله من واحد من الناس ، يتأذى منه آخر جوعا أو عرياً . نعم إسراف من واحد يؤثر بالفقر على آخر . وكل من يمرض من الشبع يمرض في المقابل آخر من الجوع . وكل من يموت من التخمة يموت في المقابل آخر من الجوع والفقر .

فالمليارات التي أهدرت في سبيل الوصول إلى القمر . سببت ولا شك موتاً لكثير من البشر وسائر الكائنات . والذين ماتوا في محاولتهم الوصول إلى القمر أو غيره إنما هم " منتحرون " .

المهم : لقد وصلوا بعد عناء وجهد جهيد إلى القمر سنة ١٩٦٩.

ثم ماذا بعد ؟ ماذا وجدوا ؟

لا شيء .

هذه حقيقة . لم يجدوا شيئا يذكر . ولم يستفيدوا بأي شيء .

ولما لم يجدوا شيئا أحضروا معهم حوالي ٤٠٠ كجم من حجارة القمر . وراحوا في معاملهم يفحصون ، ويبحثون ، ويدرسون ، ويحللون . وفي النهاية . ماذا حدث ؟

لاشيء . ثم فرقوا هذه الحجارة على خلق الله كهدايا ومكافآت .

إن هؤلاء الفضائيين ، أصيبوا بخيبة أمل . ولكنهم لا يعلنون ذلك . ولكن يقولون أن السفر إلى القمر سيصبح كأنه رحلة إلى بلد ما على الأرض ، وهم كاذبون لأنهم بعدما وجدوا أنه لا جدوى ولا طائل وراء القمر ولا مقابل للرحلة الشاقة والمكلفة والمهلكة توقفت رحلاتهم إليه منذ زمن . وراحوا ينفقون الأموال المرصودة لأبحاثهم في رحلات مكوكية حول الكواكب ، ودون أن يسافروا فيها لمخاطرها .

وأعتقد أن تحول جهودهم إلى الكواكب ابتدراج من الله لهم حيث قال ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥)﴾ (القلم) .

نعم استدرجوا إلى الكواكب ، وراحوا ينفقون ، ويسرفون ، ويفقدون ، ويخسرون ويهلكون أنفسهم فمات الكثيرون منهم تفجيرا ، وتدميرا ، واختناقا ، وضياعاً . حتى أوصلوا مركباتها إلى كوكب المريخ . الذي هو أقرب كوكب للأرض - كما يقولون - وحطت المركبة على المريخ . وعادت إليهم لتخبرهم بالمعلومات التي تكبدوا في سبيلها ما تكبدوا . عادت إليهم بمعلومات ، كان ثمنها غال جداً .

ما هي المعلومات :

(١) المريخ كوكب أحمر (أي يميل إلى الحمرة) .

(٢) لا توجد حياة على المريخ . ولا أثر كائنات حية .

(٣) لاشيء .

وهذه المعلومات ليست بجديدة أما أولها فكان البدو الأعراب من سكان الجزيرة العربية يطلقون على المريخ (الكوكب الأحمر) ، واقرأوا إن شئتم كتاب الأنواء لأبن قتيبة المتوفي سنة ٢٧٦ هجرية وكتاب الأنواء لأبي حنيفة الدينوري المتوفى سنة ٢٨٢ هجرية . وغيرها من كتب المسلمين التي تتحدث عن النجوم والشمس والقمر بما لم يبلغه الفضائيون .

وأما ثاني المعلومات فهو ما قال به القرآن والسنة وعلماء الأمة المعتبرين . وهم لا يريدوا أن يصدقوا . فهم وشأنهم .

لكن لم يتوقف الاستدراج . فاستدرجهم الله حتى وصلت سفينتهم (لا أشخاصهم) لتحوم قريبا من المشترى .

ورجعوا بكم زاخر من المعلومات . وثروة علمية (وهذه عبارات علماء المسلمين الآن انبهارا بما سمعوه) ولكن ما هي هذه الثروة ؟

يقولون : لقد أظهرت الصور الملتقطة للمشترى أنه ليس له أربعة أقمار كما كان يقول جاليليو وإنما وجدوا أن له ١٦ قمراً . ويعلم الله أنه لا المشترى ولا غيره لهم أقمار . ولا يوجد في السماء إلا هذا القمر الذي يدور حولنا .

أستأذنكم في التوقف عن سرد منجزات رواد الفضاء خشية أن أبخسهم حقهم وأترك الحديث للمهندس سعد شعبان وهو واحد من الأفاضل . وإن كان من المبهورين جدا كغيره من علمائنا بما توصل إليه علماء الغرب الفلكيين إلي (لاشيء) . يقول الرجل في كتاب " الطريق إلى الكواكب " مع احتفاظنا بحق التعليق على ما يقول بين قوسين :

" لقد ظل علم الفلك حكرا على رجال الكنيسة إبان العصور الوسطى (وهذا غير صحيح) وأسبغوا عليه أسراراً لاهوتية عمادها الخرافات ، ونشطوا إلى إخماد كل اجتهاد فيه ، ورموا بالكفر كل من سولت له نفسه البحث في الظواهر الكونية ، زعما بأنها من العلوم المحرمة (ولقد كفرت الكنيسة من استحق التكفير كما رأينا) غير أن حب المعرفة أظهر للبشرية علماء جسورين على رأسهم الراهب البولندي كوبرنيقوس الذي خالف سابقيه وأعلن لأول مرة على البشرية أن الأرض ليست مركزا للكون كما كانوا يظنون . كما قرر أن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس هي وسائر السيارات الأخرى " .

ثم قال الأستاذ بهامش كتابه " ثم اتضح حديثا أن جداول كوبر نيقوس الفلكية التي قادته إلى هذه النتيجة هي عينها جداول نجم الدين المصري (لعله يقصد نصر الدين الطوسى وإلا فمن ذكره خطأ) الذي سبقه بنحو ٤٠٠ سنة " .

" وأتى من بعد كوبرنيقوس علماء واصلوا الرسالة لمحو المعلومات الخاطئة لرجال الكنيسة منهم تيخو براهي الدانمركي الذي ظل يرصد الكواكب والنجوم ٣٥ عاما متوالية . وظل يضع الجداول والإحصائيات لهذه القياسات لتأييد ما أعلنه كوبرنيقوس حتى توفي عام ١٦٠١ ميلادية .

وأعقبه كبلر الألماني الذي وضع القوانين عن حركات السيارات ومنها الأرض حول الشمس . وما زالت قوانين كبلر الذي توفي عام ١٦٣٠ تثبت سلامتها حتى اليوم (وقد أثبتنا بطلان أساس نظريتهم بدوران الأرض وقلنا أنه ليس لديهم أي دليل على صحة ما يقولون) " .

" وأتى بعد هؤلاء جاليليو الفيزيائي الإيطالي متعدد المواهب . الذي صنع المنظار المقرب لرصد سطوح القمر والنجوم عام ١٦١٠ وجعل من علم الفلك متعة لا تغلفها الأسرار ، وهواية يمارسها الهواة والمتخصصون . وقد ملأ جاليليو الدنيا علماً (ترى أي علم ؟) عن الفوهات والتجاويف التي على سطح القمر (ما أعظمه من علم !) والحلقات التي يتمنطق بها زحل والأوجه التي يتغير عليها كوكب الزهرة (وثبت خطأ هذه الاستنتاجات في ما بعد) إلى أن قدر لمعارضيه أن ينتصروا عليه ويزجوا به في السجن . ولقد ظل الرجل يصرخ في سجنه ويقول ! "ومع ذلك فالأرض تدور" (لم يحدث هذا) " .

" واليوم أصبح الكون من حولنا خضماً لجن لا نمثل فيه إلا ركنا ضئيلا كنقطة في محيط ، أو حصاة في صحراء " .

هذه هي رؤية علمائنا المسلمين لهؤلاء التجريبيين الذين غيروا الحقائق وخالفوا قول الله .

ولننظر الآن إلى هذه الآية المعجزة التي تبين أهداف هؤلاء . وتأملوا جيدا صيغة الفعل المضارع والفعل المستقبل في الآية : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال:٣٦) تأملوا قوله تعالى ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ فالأمر لم يقف ولن يقف ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ .

وقد يعترض أحدكم قائلا : ما علاقة الذين كفروا بهؤلاء العلماء ؟ فقد بينا أنهم ليسوا علماء . وذكرنا طرفا من أقوالهم الكفرية الملحدة ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ (آل عمران:١١٨) وإن كنتم في شك مما أقول فاقرءوا ماذا قال أول واحد منهم يغزوا (هكذا يقولون) الفضاء . عندما هبط من سفينة الفضائية قال " يوري جاجارين " الروسي : " لقد كنت أشعر وأنا في سفينة الفضاء أنني في منزلي . وبحثت عن الله فلم أجده " أرأيتم ؟ والأدهى من ذلك أن يعتبر ذلك كشفا وجعلت الأمم المتحدة من هذا اليوم " اليوم العالمي للفضاء " .

وإنني أصدق الله عز وجل في أن كل ما يفعلونه في الحقيقة صد عن سبيل الله وإلا فما علاقة هذه الرحلة إن كانت علميه بالبحث عن الله ؟ إلا أن يكون الأمر كله حقا للصد عن سبيل الله . وصدق الله القائل ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ .

وإليكم نبذة صغيرة عن بعض خسائرهم التي أنفقوها وكانت حسرة عليهم ، نقـــلا عـــن كتـــابي " أسرار الفضاء " و " الطريق إلى الكواكب " لسعد شعبان :

" في آخر يونيو من عام ١٩٧١ لقي الرواد الثلاثة حتفهم عندما أصاب الخلل أجـهزة الضغـط في السفينة أثناء رحلة العودة إلى الأرض بعد أن انفصلت عن المحطة المداريـــة فلقـوا حتفـهم . وعـادت (ساليوت ١) إلى الأرض فاحترقت عند دخولها الغلاف الجوى .

في ١٥ أكتوبر ١٩٧١ أرسلت روسيا القمر الصناعي " كوزموس ٥٥٧ " في مهمــة فضائيــة ، وبعد عشرة أيام فشل خلالها القمر من أداء مهامه فتم تفجيره بتحكيم من الأرض .

تكلف إنشاء سكاي لاب (معمل الفضاء) ٢,٦٠ بليون دولار .

سنة ١٩٨٢ وفي أوج الانبهار بالانتصارات والإنجازات في عالم الفضاء حدثت المأساة التي روعـــت العالم . إذ انفجرت سفينة الفضاء " تشالنجر " أمام ملايين المشاهدين عبر شاشات التليفزيون ، وكـانت تحمل على متنها سبعة من رواد الفضاء منهم سيدتان . والذي سبق لأربعة عشرة رائد فضـــاء أن لقـوا حتفهم ضحايا الفضاء .

" الخسائر المادية لانفجار تشالنجر كانت : تكلفة المكوك ١٢٠٠ مليون دولار بالإضافـة إلى ١١٠ مليون ثمن أجهزة علمية كان يحملها . كلها تدمرت في ثوان أمام المشاهدين . وقد انفجر المكـوك بعـد ٧٢ ثانية من لحظة الانطلاق ليتحول إلى كرة من اللهب عندما بلغت سرعته ٢٨ ألف كيلو كم/ســاعة على ارتفاع ١٦,٧ " .

(ويذكر أن السفينة تشالنجر هذه كان ضمن مهامها دراسة ممارسة الجنس في السماء) .

وإلى الآن أيها السادة وبعد انتهاء القرن العشرين الذي شهد من الإنسان غزوه للفضاء ، ووصـــول مركباته إلى الكواكب ووصوله هو شخصيا إلى سطح القمر ما هي النتيجة التي وصل إليها الغزاة ؟ ومـا هو النصر الذي حققوه ؟ لا شيء .

وإنهم ليعترفون أنهم كلما تعمقوا في هذا الفضاء كلما زادت حيرتهم وتحيرهم . وهم لا يســتطيعون التوقف لأن الله تعالى يستدرجهم . ويملي لهم .

وفي استدراج جديد ، وفصل آخر من فصول الكيد الإلهي " ظهرت على سطح الأحداث العلميــة هذه الأصوات الواردة من السماء . وتضاربت الأقوال في تعليل سببها : ذلك أنهم بــدءوا يســمعون

اصواتا مبهمة تأتيهم من أعماق الفضاء منها أنها تصدر عن البقع الداكنة التي تظهر فوق قرص الشمس . ومنها أن غاز الهيدروجين في الفضاء يصدر عن إشعاعات كهرومغناطيسية " .

" إن الأمر الذي مازال معلقا في بال العلماء هو أن هذه الأصوات الكونية ، ربما يكون لها مضمون . وقد تكون صادرة من عقلاء في الفضاء يوجهونها نحو الأرض ونحن لا نفهم من لغتهم شيئا ، أو قد يكون عقلاء السماء في أكثر من موضع على أجرام الكون قد أفلحوا في الاتصال ببعضهم بعض . وبذا يكون ما يصلنا من أصوات لا يصل إلينا عن قصد ، بل يمر بنا متجها إلى أجرام أخرى غير أرضنا " .

" وقد حاولوا استخدام العقول الإلكترونية في تفسير أصوات النجوم . وحدث تخبط ولم تستطيع هذه الإلكترونيات إعطاء إجابة شافية ، عن شفرة هذه الإذاعات الكونية " .

" وقد تبارت الدول في إقامة هوائيات ضخمة لتفسير واضح لهذه الأصوات . وقد أعلنت وكالة (ناسا) للفضاء أن مشروعا باسم (السيليكوب) مزمع إنشاؤه سيتكلف ٢٥٠ مليون جنيه إسترليني . وأنه لو أقيم سيكون الفيصل في الكشف عن مضمون الإنشاءات الكونية " .

بينما يعلن السوفييت أنهم ماضون في استجواب النجوم والتصنت إليها واحدا واحدا وأنهم إلى الآن قد فرغوا من استجواب ٥٠ نجماً " .

وقد مضت سنوات وسنوات ولم يصلوا لتفسير حتى الآن عن كنه هذه الأصوات التي تأتي من نجوم السماء . ولن يصلوا . فقد سبقتهم الشياطين إلى ذلك ولم يفلحوا فغرروا ببني آدم ليقوموا بهذه المهمة . ولكن هيهات .. وهيهات .

قال تعالى ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩) ﴾ (الجن) وقول تعالى ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠)﴾ (الصافات)..

فعملية استراق السمع هذه كان يقوم بها الشياطين ، ولكنهم لم يفلحوا في التصنت لحراسة السماء المشددة ، وهذه الأصوات التي يزعم المنجمون والفلكيون أنهم يسمعونها ، وليس لها تفسير . فإن الأمر ليس كما يقولون : فليست هذه الأصوات لكائنات تسكن في كواكب أخرى . بل هي إحدى أمرين :

إما تسبيح النجوم . وإما أحاديث الملائكة التي كانت الشياطين وما زالت تحاول التصنت إليها ، ليس غير .

وإن كنا نرجح السبب الأول . وقد أخبرنا تعالى أنها جميعا تسبح وأننا لا نفقه تسبحهم ، ففي الله تعالى الفهم ولم ينف السمع يقول تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

* * * * *

المجرة

يقولون إن الكون أو الفضاء يعج بالعديد من المجرات ، لكن معظمهما بعيدا عنا بحيث لا تسرى إلا بواسطة التليسكوب . أما ما يمكن رؤيتها فثلاث . واحدة فوق نصف الكرة الشمالي . واثنتان فوق نصفها الجنوبي . وتوجد ١٦ مجرة أخرى من بينها مجرتنا تؤلف مجموعة تسمى " المجرة المحلية " بعدها كون من المجرات .

ويعتقدون أن المجرات حدثت منذ ٢٠ ألف مليون سنة نتيجة انفجار هائل وبشيء أقرب إلى السباق . لذلك فكل مجرة تجرى مبتعدة عن بعضها البعض وأسرعها مجرة (الكوازر) فهي الأبعد لأنها الأسرع . وأن جميع المجرات بدأت السباق من نقطة بدء واحدة . ومن مادة واحدة . ضغطت بشدة حتى صارت كرة واحدة ساخنة للغاية ، ثم حدث الانفجار الهائل الذي أطلق المادة في كل اتجاه . ثم بردت المادة بمرور الوقت . وتكونت هذه المجرات التي ما زالت تسرع وتبتعد لذلك فالكون يتمدد ويتوسع .

وجاء في كتاب " الكون المصور " : " أجمع الفلكيون المعاصرون على أن الكون يتسع باستمرار ، واتفقت آراء جميع الفلكيين على أن الكون يبدأ باستمرار ويفنى باستمرار ، بينما تخلق (قوة غامضة) قوة جديدة ، ومجرات جديدة لتملأ الفراغات التي تمخض عنها التوسع " .

كذلك يقولون أنهم اكتشفوا ملايين المجرات الكونية مثل المجرة المسلسلة البهية التي تبعد عنا بنحو مليوني سنة ضوئية . وأن قطرها يبلغ ٦٠٠٠٠ سنة ضوئية . وأن نجومها يكاد يصل عددها عدد ما في مجرتنا من النجوم .

أما مجرتنا – التي نعيش فيها – فاسمها " درب التبانة " ويسميها الغرب " الطريق اللبنية " ويقولون بأن مجرتنا يبلغ طولها ١٠٠ ألف سنة ضوئية أي ٦٠٠٠٠٠ بليون ميل . أما عرضها (المحور الرأسي)

فيبلغ ١٠٠٠٠ سنة ضوئية ، وقالوا بأن الشمس ومجموعتها تقع عند قرب نهاية أحـــد طـــرفي القطـــر الأكبر وأنها تشبه حبة العدس أو صفحتي طعام في وضعين متعاكسين .

هذا ما يقولونه عن المجرة والمجرات . وهذه المعلومات لا علاقة لها بالصحة من قريب أو من بعيـــد . وليس فيه أي شيء صحيح سوى اسم المجرة " درب التبانة " وما سوى ذلك فضرب من الخبل . ومـــاذا ننتظر من قوم يعيشون في الظلمات وأعمالهم كلها كما قال ربنا ﴿سَرَابٍ﴾ .

لقد قلنا أن بيننا وبين هذه السماء ٧ مليون كم وجميع هذه النجوم تدور فيـــها ولا تخـــرج منـــها . وأثبتنا أن هذا المسافة هي تحديد الله ، ورسوله " مسيرة خمسمائة عام " ونحن فقـــط حســـبناها بـــالكيلو مترات لا أكثر .

المجرة عبارة عن شريط نجومي غير متساوي العرض ينير بصورة غـــير مســـتقيمة ولا مســـتوية في السماء ويدور مع السماء حول الأرض . فالمجرة متصلة الدائرة حيث ترى في نصف القبة الشـــمالي وفي نصف القبة الجنوبي .

وفي كتاب الأنواء لابن قتيبة تعريف للمجرة بأنها " شرج السماء كشرج القبة للشبه وسميت مجـــرة على الشبه لأنها كأثر الجر والسحب . وتسميها العرب : أم النجوم ، لأنه ليس في السماء بقعـــة أكـــثر عدد نجوم منها . ولذلك يقال : أن النجوم تقاربت فيها ، فطمس بعضها . فصارت كأنها مسحاب " .

وتسمى العرب المجرة " درب التبانة " وذلك لأنهم شبهوها بطريق أو درب حـــاملي التـــبن الـــذي يتساقط منهم على الطريق . فشبهوا المجرة لكثرة وتقارب نجومها بدرب التبانة . وأما الغـــرب فشـــبهوه بلبن مسكوب على الأرض يلتمع من سقوط الضوء عليه وفي القاهرة بمصر طريـــق يســـمى حـــتى الآن بدرب التبانة .

والمجرة ليست كما يقولون عن طولها أو عرضها أو عن شبهها وأنها تشبه حبة العـــدس أو الطبقـــين مقلوب أحدهما على الآخر . وإنما مجرة درب التبانة دائرة متصلة في السماء اتصال الطريـــق ، تـــرق في مواضع ، وتكثف في مواضع . وتضيق في مواضع ، وتتسع في مواضع . والمجرة ترى بوضوح خاصـــة في ليالي الشتاء الصافية والتي يغيب فيها القمر . وترى بوضوح أكثر في القرى والصحارى عنها في المـــدن التي تعوق أضواءها الرؤية للنجوم ، فترى شريطا من النجوم يلف الســـماء في صـــورة بديعـــة تـــأخذ بالألباب .

وهي تبدو لسكان نصف الكرة الشمالي خلال شهور الصيف ممتدة عبر القبة السماوية من الشـــمال الشرقي إلى الجنوب الغربي . أما خلال شهور الشتاء فتظهر المجرة مـــن الشـــمال الغـــربي إلى الجنـــوب الشرقي . وهذا يعنى أن المجرة تغير من وضعها من ستة أشهر إلى ستة أشهر وهذا إن دل على شيء فإنمـــا

يدل علي دوران المجرة حول الأرض ولو لم يكن لدوران القبة السماوية حول الأرض إلا هـــذا الدليـــل لكفي . فهو دليل لا علاقة له بالوحى والإيمان فيعوق الكافرين . ولا علاقة له بالمعامل والاجهزة فيعـــوق الفقراء ، ولا علاقة له بعلم الفلك أو النجوم فيعوق غير المتخصصين .

وحتي لا يزعم أحد أن هذا ربما يكون نتيجة دوران الأرض حول الشـــمس ، فنقـــول إن النجـــوم الموجودة في السماء بغض النظر عن نجوم المجرة تدور حول الأرض كل يوم دورة في ٢٣ ســـاعة و٥٦ دقيقة ، فهي ترى مبكرة كل يوم ٤ دقائق حتى تبكر بعد مرور شهر ساعتين عن موعدها ، وهكـــذا ... ورغم اختلاف الوقت كل يوم فإن النجوم تخرج من نفس المطلع تماماً وتغرب أيضا في نفس المغـــرب ، لا يتغير مكان طلوعها وغروبها سنتيمتراً واحداً على مدار السنة ، فكيف يكون ذلـــك والأرض تـــدور حول الشمس فتغير من مطالع الشمس . فلماذا لم تغير مطالع النجوم ؟ بل لماذا تتغـــير مطـــالع القمـــر للجهة المقابلة لمطالع الشمس . فكلما طلعت الشمس من اليمين كان القمر يطلع من الشمال ويتوافـــق الاتجاه في نصف الشهر الثاني . وكذلك الأمر مع نجوم المجرة فكل نجم فيها يطلع من نفـــس مطلعـــه لا يغيره ويسقط من نفس مسقطه لا يغيره طوال السنة ، طوال عمر الكون لكـــن مـــع اختـــلاف وقـــت مطالعها كل يوم ٤ دقائق تبكيرا فإن ما كان يطلع بالليل على نصـــف الكـــرة الشـــمالي فإنـــه بعـــد تبكير ٧٢٠ دقيقة (٤ دقائق × ١٨٠يوم) (ستة أشهر) يكون في النصف الجنوبي . وما كان في النصـــف الجنوبي ليلا يبدأ في الطلوع في النصف الشمالي من نفس مطالعه التي كان يطلع منها بالنهار ثم لا يظـــهر إلا ليلا في النصف الجنوبي . فبعد ٦ أشهر يظهر ليلا في النصف الشمالي .

فإن كان الأمر كذلك فإن ما يقولونه من أن الأرض والشمس تدور حول المجـــرة في ٢٥٠ مليـــون سنة لا أساس له من الصحة ، وإلا فكيف تظهر المجرة متجهة في ناحية في نصـــف الســـنة ثم متجهـــة في ناحية أخرى في النصف الثاني ، وهكذا يتكرر الأمر بنفس الطريقة ونفس الاتجاه كل عام علـــى مـــدار تاريخ الكون دون حدوث أي تغيير .

فالحق إن النجوم جميعا والمجرة تدور حول الأرض كل يوم ، وتبكر كل يوم ٤ دقائق حتى تظهر بعـــد ستة أشهر نجوم أخرى فوقنا وهي التي كانت فوقنا بالنهار قبل ذلك ..

ما عدد المجرات التي في السماء ؟

ليس في السماء سوى مجرة واحدة فقط لا ثاني لها . وكل ما قالوه عن أعداد وأبعاد لاوجود لـــه إلا في خيالهم . وتكتل النجوم في هذا الشريط والذي نسميه المجرة . له هدف من أجله جعـــل الله النجـــوم بهذا الشكل في هذا المكان .

فقد روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " إن هرقل كتب إلى معاوية وقال إن كان بقى فيهم شيء من النبوة فسيخبروني عما أسألهم عنه . قال : فكتب إليه يسأله عن المجرة ، وعن قوس قزح ، وعن بقعة لم تصبها الشمس إلا ساعة واحدة . فلما أتى معاوية الكتاب والرسول ، قال إن هذا الشيء ما كنت آبه له أن اسأل عنه إلى يومي هذا . من لهذا ؟ قيل : ابن عباس .

فطوى معاوية كتاب هرقل فبعث به إلى ابن عباس فكتب إليه :

" إن القوس أمان لأهل الأرض من الغرق . والمجرة باب السماء الذي تنشق منه . وأما البقعة التي لم يصبها الشمس إلا ساعة من النهار فالبحر الذي أفرج عن بنى إسرائيل " وهذا إسناد صحيح لابن عباس .

وعن على ابن أبي طالب في قوله تعالى ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ (الحاقة:١٦) قال : تنشق السماء من المجرة . وقال ابن جزيح هي كقوله : ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ (النبأ:١٩) .

في السماء أحد عشر كوكباً

لابد أن يكون في السماء أحد عشر كوكبا . لأنها في القرآن كذلك يقول تعالى ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ لذلك فأعتقد – والله أعلم – أن في السماء أحد عشر كوكبا رغم أن هذه الآية تقص رؤيا منامية وليست رؤية بصرية ، ولكن ما الفرق بين الاثنين إن كنا نعلم رؤيا الأنبياء وحي فالأمر لو كان رؤية بصرية من يوسف الكريم لما ترددنا في القول بأن السماء بها أحد عشر كوكبا ، ولكن ينبغي أن يكون الأمر أكثر تأكيدا لأنها ليست رؤية بصرية ، وليست مجرد رؤيا منامية بل إن الأمر أعظم وأجل فقد كان الأمر وحيا يوحى . فالأحد عشر كوكبا بالسماء .

ولا يحول بين أن تكون الرؤيا وحيا من الله أن الذي رآها كان صغيرا فإن الله تعالى أخبرنا بأنه أوحى إليه في هذه السن بقوله ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (يوسف:١٥) وقال ابن عباس : رؤيا الأنبياء وحي .

لذلك لا نتصور أن يوحي الله تعالى ليوسف الصديق أن أحد عشر كوكبا يسجدون له وفي السماء ٩ كواكب مثلا أو أقل وكذلك لا نعتقد أن هناك كواكب أكثر من هذا العدد . وإلا فلم لا تسجد هذه الزيادة مع الساجدين ؟

نعم إن هذا العدد موافق لعدد اخوة يوسف . وهذا يؤكد لنا أيضا أنه تعالى أراه الأحد عشر كوكبا يسجدون له . لأنهم أيضا كانوا كواكب الأرض ، إذ يوسف واخوته كانوا السلالة الأولى

لإسرائيل " يعقوب " عليه السلام ومنهم خرج كل أنبياء بنى إسرائيل حتى كان خاتمهم عيسى عليه السلام . فكان الأسباط " أبناء يعقوب " هم الكواكب التي خرج منها النور الذي أرسله الله للشعب الذي فضله على العالمين آنذاك .

أما محمد ﷺ فلم يكن من بنى إسرائيل بل كان عربيا ينتهي نسبه إلي إسماعيل عليه السلام ابن إبراهيم عليه الصلاة والسلام . لذلك كان إبراهيم هو (أبو الأنبياء) لان من ولديه إسحاق وإسماعيل خرجت كل الأنبياء الذين جاؤا بعد ذلك . أما إسحاق فقد ولد له يعقوب " إسرائيل" ومن إسرائيل هذا جاء كل أنبياء بنى إسرائيل .

ومن إسماعيل جاء محمد ﷺ . الذي لم يكن كوكبا من الكواكب وإنما جمع الله له كما ذكرنا صفتي الشمس والقمر ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (الأحزاب:٤٦) فكان هو شمس الأرض وقمرها .

ومسألة الأحد عشر كوكبا هذه ليس فيها كبير خلاف ، من حيث العدد ، لأنهم لم يقطعوا بأن العدد الموجود والمعرف الآن هو عدد كل كواكب الفضاء . وعندما أقول " أنهم " فالضمير لا يعود على علمائنا فليس لهم من الأمر شيء .

وعلى ذلك فالأمر مفتوح بابه وليس هناك ما يمنع من الزيادة .

أخرج سعيد بن منصور والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والعقيلي وابن حبان وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردوية وأبو نعيم والبيهقي عن جابر بن عبد الله . وأخرج عبد الرازق وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة . وأخرج ابن جرير عن السدي . وابن المنذر عنه ابن عباس : " جاء بستاني اليهودي إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد اخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف ساجدة له ما أسماؤها ؟

فسكت النبي ﷺ فلم يجبه بشيء . فنزل عليه جبريل فأخبره بأسمائها فبعث رسول الله ﷺ إلى بستاني اليهودي فقال : هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها " قال نعم . قال : " خرثان ، والطارق ، والذيال ، وذو الكتفان ، وقابس ، ووثاب ، وعمودان ، والفيلق ، والمصبح ، والضروح ، وذو الفرع . والضياء والنور . رآها في أفق السماء ساجدة له فلما قص يوسف على يعقوب قال : هذا أمر مشتت يجمعه الله من بعد " .

فقال اليهودي : أي والله إنها لأسمائها .

إن هذا الحديث ليوضح عدة أمور أهمها : أن هناك أحد عشر كوكبا في السماء .

وثانيها : أن الأمر لم يكن معروفا لأحد على الأرض ولا حتى لرسول الله ﷺ ، لذلك جعل هذا السائل معرفة أسمائها دليل على النبوة . فلعل هذا اليهودي كان الوحيد أو من المعدودين إن كان هناك غيره الذين يعرفون هذا الآمر .

وثالثها : أن علم هذه الكواكب ، سواء عددها أو هيئتها ، أو سيرها أو أحجامها أو أسرارها ، أو مكوناتها علما لايهم الإنسان في شيء . وأن هذه الكواكب لا تزيد على النجوم في الوظيفة ، فهذه كتلك . فقط الكواكب متحركة والنجوم ثابتة . والكواكب تعكس ضوء الشمس كالقمر والنجوم مضيئة بذاتها ، وأخيرا النجوم كثيرة العدد ، والكواكب أحد عشر فقط وربما كان للكواكب مهمة متميزة عن باقي النجوم بخلاف المهام الثلاثة المعروفة ، ولكن لأن أمرها لا يهم الإنسان ، فلم يشغلنا القرآن بهذا الأمر ولأن هذه كتلك فقد كانت العرب تطلق على النجوم كواكب ، وتطلق على الكواكب نجوم وكذلك فعل القرآن بهما . إذن فلم يكن هناك داع لأن يفعل أهل الغرب بأنفسهم وبأموالهم وبوقتهم وبحياتهم ما فعلوا لاكتشاف الكواكب وأسرارها فهي ليست أسرارا ، ولا شيء فيها زيادة على ما عرفه الناس عنها قبل أن يصعدوا في الفضاء ويخسروا ما يخسرون .

هل استطاعوا أن يكتشفوا كوكبا جديدا فوق ما عرف قبل عصر الفضاء ؟

هل أضافوا للعلم شيئا ؟ أبداً .

ولأننا عرفنا أن الكواكب لها دور محدد ، وأنه ليس بها سكان أو حياة أو كائنات حية . فكيف يقول علماء المسلمين الآن إننا لا نستطيع أن نجزم بشيء من ذلك ؟ وكيف يقول بعضهم أن الإسلام لم يقطع بأمر من هذا ؟ وكيف يقول آخرون : إن هناك حياة على بعض الكواكب مصداقا لقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (النحل:٤٩) .

فيقولون : لابد أن هناك دواب في السموات غير الملائكة لأن الله ذكر الملائكة وهذه الدواب لا يستبعد أن تكون على الكواكب . وهذا تفسير من يقول على الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير – وما أكثرهم – والله تعالى قد أخبر عن كل شيء في الكواكب حتى أن علماء الإسلام المعتبرين قالوا : من زاد على ذلك فقد أعظم على الله الفرية يقول تعالى :

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧)﴾ (الصافات) .

﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾ (فصلت:١٢) .

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ (الملك:٥) .

وأعتقد والله أعلم ، أن الكواكب أشبه شيء بقواعد الصواريخ ، وبالتأكيد مع الفارق . فهي قواعد صواريخ للدفاع الجوى . وزيادة في القوة والمنعة فهي قواعد متحركة ، وزيادة في التحدي فهي مضيئة بخلاف قواعد الدفاع الجوى البشرية فلا بد أن تكون معتمة مظلمة ليلا للتخفي من العدو . أما هذه القواعد الدفاعية السماوية الربانية فهي قواعد لإطلاق الراجمات ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ وفي نفس الوقت هي مضاءة أشد ما تكون الإضاءة لأنها (مصابيح) ولأنها (زينة) . فكيف تكون هذه المصابيح المزينة للسماء ، والتي هي رجوماً للشياطين ، تكون مسكن للكائنات الحية . وأن عليها دواب .

وتعالوا لننظر في آيات القرآن وإعجازها في حديثها عن الكواكب :

لقد ورد ذكر الكواكب في القرآن بنفس عددها فذكرت إحدى عشر مرة . بعضها بالاسم وبعضها بالمكان وبعضها بالوظيفة .

يقول تعالى في أسمائها :

١) ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ (الأنعام:٧٦)

٢) ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف:٤)

٣) ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ (النور:٣٥)

٤) ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧)﴾ (الصافات)

٥) ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ (الانفطار:٢)

ويقول تعالى ذاكرا أماكنها :

٦) ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧)﴾ (الحجر)

٧) ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ (النساء:٧٨)

٨) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (الفرقان:٦١)

٩) ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ (البروج:١)

ويقول تعالى ذاكرا وظائفها :

١٠) ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾ (فصلت:١٢)

١١) ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ (الملك:٥) .

كما أن ذكر الكواكب بلفظها ٥ مرات له مدلول غاية في الإعجاز والبيان ، فمن الآيات الأحد عشر التي ذكرت الكواكب بلفظها ووظيفتها ومكانها يأتي عدد مرات اللفظ ٥ والباقي يستتر اللفظ في الوظيفة والمكان . وذلك ليتوافق مع وضع الكواكب في السماء ومدى مشاهدة أهل الأرض لها بالنظر بالعين المجردة .

إن تاريخ البشر لا يذكر إلا الكواكب الخمس .كل الحضارات ، وكل الأمم . وفي كل الأحقاب لم يعرف إلا :

١ - عطارد ٢- الزهرة ٣ - المريخ ٤- المشترى ٥- زحل

وهذه الكواكب هي التي عرفها العرب وذكروها في أشعارهم وكتبهم . وقد عرفوا عنها ما يسمح به نظرهم وإمكانياقم البشرية العادية ، وهو القدر المطلوب من الإنسان ولم يضف الغرب حتى إلى هذه الكواكب أي معارف فوق ما وصل إليه العرب بل إنهم رغم وصولهم قريبا من هذه الكواكب . وتحليقهم قريبا منها ، بل ونزول مركباتهم فوق بعضها ، لم يعرفوا عنها مثلما عرف العرب الأقدمون . ومن أراد المقارنة فليرجع إلى كتب العرب في الفلك والأنواء .

كان العرب يعرفون عن هذه الكواكب ما يعرفونه عن إبلهم وأغنامهم . وليس هذا عليهم بغريب . فقد كانت الدراري السبعة ، (الكواكب الخمس والشمس والقمر) هي جزء أساسي من حياة العربي . يقول نوري حمودي القيسي ومحمد نايف الدليمي محققا كتاب الأنواء والأزمنة لعبد الله بن حسين بن عاصم الثقفي :

" لقد اهتم العرب بهذه العلوم اهتماما كبيرا ، وأولوها عناية فائقة لما لها عندهم من أهميه بالغة ، تعينهم على إدراك معالم الطرق التي يسيرون فيها ، والأماكن التي يترلون بها ، والمنتجات التي يتعيشون من خلالها . ويرعون إبلهم ومواشيهم منها ، وهم أمة لا تقيم في مكان واحد ولا تقف عند حدود أرض ثابتة ، في حل وترحال دائمين ، يتبعون آثار المياه وتعاشيب البلاد .

ولا بد إذا لهم من معرفة الأوقات التي تحدد تحركهم ، وظعنهم وإقامتهم فليس في الطرقات معلم وإمارات تدلهم على الأماكن ، وليس هناك من آثار أو معالم ثابتة على الأرض يهتدون بها . فشخصت

أبصارهم إلى السماء ، وتعلقوا بكواكبها ونجومها وشمسها وقمرها في وقت طلوعها وغروبها وتحركها على مدار السنة ، وبما أدركته تجربتهم ، وبلغته معاينتهم ، لا على ما يقوم به الحساب الدقيق ، بل الحدس والتخمين والمعاينة والتدقيق والتجربة والاختبار فليس كعنايتهم بهذا الباب عناية ولا كفقدهم تفقد .

فبحدة أفكارهم وفضل فطنتهم وحسن رصيدهم ورجاحة ألبابهم وصحة أذهانهم ، نفذوا في هذا الفن العجيب والعلم العربي ، وصيروه في أسجاعهم ، ونظموه في أشعارهم ، وأحكموا به معايشهم حتى شاركوا فيه أهل الممالك المتأصلة والقواعد المتمكنة والكتب النظرية والعلوم الفلسفية ، فضلا عن معرفتهم بقيافة الأثر والبشر .

غير أنه وإن كان قد شاركهم قوم في قيافة الأثر ، فإنهم قد اختصوا بقيافة البشر ، فليس لغيرهم فيها حظ ، ولا لسواهم فيها نصيب لأنه ليس في الأرض قوم غير العرب يرون المتباينين في الصور والمتفاوتين في الطول والقصر ، والمختلفين في الألوان فيعلمون أن هذا الأسود ابن هذا الأبيض ، وان هذا القصير ابن أخي هذا الطويل ، وإن هذا القبيح عم هذا الحسن ، وكل شيء يعرفه غير العرب وتفخر به الأمم من أصناف العلوم وأنواع الآداب ، فهو يعد تكلفاً ، وإكراها للنفس ورياضة للطبع ، وكل شيء تعرفه العرب فهو كالطبيعة فيها ، وكأسهل الأشياء عليها " .

* * * * *

كذلك بالنظر في الآيات الخمس التي ذكر فيها لفظ الكواكب نجد أنه :

قد يرد في آية مكونة من ١١ كلمة ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧)﴾ وأحيانا يأتي موقعه من الآية رقم ١١ كقوله في سورة النور التي مثل الله فيها نوره بقوله ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ فكلمة كوكب ورد موقعها من الآية رقم ١١ من كلمات الآية .

وفي رؤيا يوسف عليه السلام جاءت حكاية وصف الرؤيا لأبيه في ١١ كلمة :

﴿يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ .

وفي قصة إبراهيم مع عباد الكواكب نجد أن رؤياه للكوكب جاءت في ١١ كلمة :

﴿رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ .

وأما الآية الأخيرة من الآيات الخمس والتي تخبر عن مصير الكواكب يـوم القيامـة نجـد أن﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ﴾ ١١ حرفا . ثم ﴿انتَثَرَتْ﴾ أي تناثرت وسقطت .

ثم إن ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ ١١ حرفا أيضا .

أما آيات أماكن الكواكب وهي البروج فقد جاءت الآية ٦١ من سورة الفرقان في ١١ كلمة ﴿تَبَـارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ .

عندما نتأمل سورة يوسف نجد أن تأويل الرؤى لم تحور فيها الأعداد . فقد رأى الملك سبع بقرات سمـان جاء تأويلها سبع سنوات من الخصب ، ورأى سبع بقرات عجاف كان تأويلها سبع سـنوات جـدب . فواضح أن التأويل لم يشمل الأعداد .

كذلك جاء بالسورة ذكر الشمس والقمر مرة واحدة وليس في السماء سوى شمس واحدة وقمـر واحد . فلابد وأن يكون في السماء أحد عشر كوكبا .

* * * * *

وكما ذكر تعالى أشهر نجوم السماء وهو نجم ﴿الشِّعْرَى﴾ في سورة النجم فقد ذكر تعـالى أشـهر الكواكب وهو كوكب (زحل) في قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣)﴾ (الطارق) ومعنى الثاقب : المتوهج ، المضيء . قال علي ابن أبي طـالب رضـي الله عنـه : الطارق : هو زحل .

وفي الحديث المروي عن رسول الله ﷺ والذي أخبر فيه عن أسماء الأحد عشر كوكبا وذكر منـها " الطارق " .

ونحن نعرف أن زحل يمتاز بين الكواكب بحلقاته المتوهجة المضيئة . ولعظم شأنه فقد أقسم الله بـه . وذكر النجم في الآية بدلا من الكوكب لأن النجم جنس لكل مـن النجـوم والكواكـب ، وتعتـبر الكواكب من النجوم في وظيفتها .

يقول رجال الفلك أن حلقات زحل هي قطع من الجليد . ونحن نقول إنها أضواء متوهجة فهو نجـم (ثاقب) . وعلى الفلكيين أن يصححوا معلوماتهم طبقا لمعلومات القرآن .

الجوار الكنس

تسـمي العـرب الكواكـب السـيارة بـالخنس . والمفسـرون يفسـرون قولـه تعـالى : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦)﴾ (التكوير) على أنها الكواكب ، وهـو تفسـير تبـدو صحته خاصة وأن ﴿الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ ١١ حرفاً .

قالوا : إنما سميت بذلك لأنها تسير في الفلك وتخنس أي ترجع ، فبينا يرى أحدها في آخر البرج إذ كر راجعا نحو أوله . لذلك سماها الفلكيون : المتحيرة تشبيهاً بالحيوان الذي لا تستقيم له جهة فهو يقبل ويدبر . وليس ذلك من حيرة بالكواكب ولكن سموها بذلك على قدر ما يظهر للأبصار من حالها .

وقالوا عن حركتها في السماء :

أن عطارد والزهرة لا يظهرا في وسط السماء أبدا وإنما هما بين يدي الشمس أو خلفها لأنهما أسرع جريا من الشمس ، وعطارد أقلها في ذلك مدة .

وزحل أعلى الكواكب السيارة وفيه صفرة . ويسير في كل برج ٣٢ شهرا أي أنه يقطع كل الأبراج في ٣٢ سنة .

ويتلو زحل المشترى وفيه بياض ، ويسير في كل برج اثني عشر شهرا أي يقطع الأبراج كلها في ١٢ سنة .

ويتلو المشترى المريخ وفيه حمرة ويسير في كل برج ٤٥ يوما ويقطع الأبراج كلها في ٥٤٠ يوماً .

ثم تتلوه الشمس في الفلك الرابع وتسير في كل برج شهر ، ومن أسماء الشمس عند العرب : الغزالة واشتقاقها من سرعة الدوران . وكذلك سمي المغزل مغزلا لسرعة دورانه .

وتتلو الشمس الزهرة وهي في الفلك الثالث وهي أعظم الخنس منظرا واشدها نوراً وبياضًا وتسير في كل برج سبعة وعشرين يوما .

ثم يتلوها عطارد وفيه صفرة وقل ما يظهر ، ويسير في كل برج ٧ أيام أي أن سنته ٨٤ يوما .

ثم يتلو عطارد القمر ويسير في كل برج ليلتين وثلثا .

هذه هي الكواكب الخمسة التي عرفها العرب ، وعرفتها كل الأمم ولم يعرف غيرها حتى أواخر القرن الثامن عشر .

وكما ذكرنا أن عدد الكواكب لم يكن على علم به إلا نفر قليل من الناس . وذلك لإن فائدة الكواكب غير متوقفة على معرفة عددها . والعدد فيما يبدو لا يشكل أهمية كشأن الأشياء التي لا تعد ، أولا يهم فيها العدد .

في عام ١٧٨٦ أكتشف السيار السادس " أورانوس " وفي عام ١٨٤٦ اكتشفوا " نبتون " وفي عام ١٩٣٠ اكتشفوا السيار " بلوتو " .

ومنذ ذلك التاريخ لم يضيفوا أي سيارات أخرى . رغم الصعود إلى القمر ، ورغم السفن الفضائية التي جابت الفضاء وصعدت في السماء ، ودارت حول الكواكب إلا أنها لم تضف جديداً لعلم الكواكب أو عددها . لتكون الكواكب المعروفة حتى الآن هي :

١ - عطارد ٢- الزهرة ٣ - المريخ ٤ - المشـــــترى
٥ - زحل ٦- أورانوس ٧- نبتون ٨ - بلوتو

ثم يعدون الأرض كوكبا من الكواكب . والأمر ليس كذلك .

* * * * *

الأرض ليست كوكباً

لم تكن الأرض يوما ما كوكبا ، لم يقل هذا القرآن ، ولا أي كتاب منزل ، ولم يذكر هذا أحد حـــتى جاء جاليليو . وقال أن الأرض مثلها مثل ملايين النجوم وأنها لا تتميز عن غيرها في شيء . ولكن هـــل هذا صحيح ؟

وبدأ التجريبيون يكونون كونا جديدا من صنع خيالهم ، ولم يغيروا وضـــع الأرض أو الشـــمس أو الكواكب في الواقع , ولن يقدروا ولكنهم غيروا وضعها في عقول الناس وانقلـــب نظـــام الكـــون في عقولهم ، عقول كل الناس ، وأصبحت الكواكب التي لم يكن لها ذكر ولم يعرف عددهـــا ولا أسماءهـــا رسول الله ﷺ حتى أخبره جبريل بها ، أصبحت الآن لها كيان ومجموعة ، والأرض مجرد كوكـــب فيـــها ليس أكبرها ولا أصغرها ، ولا أبعدها ولا أقربها .

وهذا قول لا يرضى الله أبدا . ولا يرضى رسوله ﴿يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُـــونَ﴾ (يس:٢٦) . فـــالأرض ليست كوكبا . والكواكب : أحد عشر . تدور في أبراج مثل الشمس والقمر ، وتـــدور في مـــدارات دائرية تماما . كل كوكب له زمن في دورته حول الأرض أقلها عطارد كما ذكرنا . والكواكب أصغـــر من الأرض ، بل أصغر من القمر . ويقارب حجمها حجم النجوم . والكواكب التي لم تكتشف بعد ربمـــا هي التي تدور حول المشترى وربما غير ذلك . ولكن يبقى في السماء ٣ كواكب لم يعرف مكانهـــا . وإن كان الغرب قد اكتشفوا الكواكب الثلاثة الأخيرة ، فإن على الشرق أن يكتشفوا الثلاث الباقية .

* * * * *

نقد قانون الجاذبية

بقدرة الله أم بقانون نيوتن ؟

لم يجد التجريبيون غضاضة في التصريح بأن جملة القوانين التى وضعوها إنما الهدف منها إزاحة الدين ، أو بالأحرى إستبدالها بالإله . وقالوا ان كل قضية تحتاج في تفسيرها لإله تستبدل (إله) وتوضع مكانها (نظرية علمية) . وأعلنوا للناس أن الدين مناقض للعلم ، بينما العلم قد حقق لهم مكاسب في دنياهم ملموسة مشاهدة لا ينكرها إلا مكابر .

وكانت أكبر نظرية أوجدوها لإزاحة الإله هي نظرية الجاذبية ، إذ أن المؤمنين كانوا يقولون بأن الله هو الذى يمسك السموات والأرض . وأن كل ما يدور من أجرام سماوية فبقدرة الله تعالى .

والمؤمنون فعلا يقولون بأن كل متحرك يتحرك بقدرة الله وعنايته وليس في الكون ما يشذ عن هذا ، فعناية الله في المجرة كما أنها في الذرة ، وهذا أول دليل يقول به المؤمنون ، بل ويشترك معهم المشركون العرب في التدليل على وجود الله ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّه﴾ (العنكبوت:٦١) فمشركو العرب أنفسهم لم ينكروا عناية الله للكون ، وأن الله تعالى يحكمه ويدبره ، غير أنهم اشركوا مع الله في العبادة .

أما أصحاب النظريات الحديثة فيقولون :

" إذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغى أن ننسبها إلى أسباب فوق الطبيعة "

وعلى ذلك يقول هكسلي صاحب كتاب (الإنسان يقوم وحده) عن ظاهرة ربانية أكتشفوا بعد ذلك أنها ليست كذلك :

" إذا كان قوس قزح مظهر لإنكسار أشعة الشمس على المطر فماذا يدعونا إلى القول بأنها آية الله في السماء " . واستطاعوا في كل فرع من العلوم أن يؤلفوا نظريات تكون بديلا عن الإله ، حتى وجود الإنسان ذاته على الأرض ، إستطاعوا أن يؤلفوا نظرية تكون بديلا عن الله الخالق وهي نظرية " النشوء والارتقاء " التى ألفها تشارلز دارون .

وجاء إسحاق نيوتن بقانون الجاذبية الذى استطاع هو وزملاؤه أن يجعلوه بديلا عن القدرة الإلهية .

وقال نيوتن للناس : إن كل شيء متمكن في الأرض ، إنما هو كذلك بقانون الجاذبية وأن كل الكواكب التى تسبح في الفضاء إنما تتحرك بقوة جاذبية الشمس وأن كل شيء في الكون يجذب بعضه بعضا .

فماذا يعمل الله إذاً ؟

وإنما تدور الذرة بالجاذبية ، والمجرة بالجاذبية التى ألفها نيوتن ويقول : " توجد بين كل جسيم من جسيمات المادة في الكون . وكل جسيم آخر قوة تجاذب ، تتناسب طرديا مع كتلتها وعكسيا مع مربع المسافة بينهما " .

يقول وحيد الدين خان : " لقد كان من أهم دواعي الايمان بالله إستحالة تفسير الكون بدون الإعتماد على خالق مدبر . ولكن معارضى الدين زعموا انه لا ضرورة لفرضية (الإله) لتفسير الكون لإنهم يستطيعون تفسير الكون بكل مراحله في ضوء الإكتشافات الحديثة دون اللجوء إلى الإله " .

قبل عصر الإلحاد هذا ، كان الناس يقولون كل شيء في الكون يسكن ويتحرك ويثبت بقدرة الله وأمره ، أما الآن فأصبح المصطلح السائد هو قانون الجاذبية لنيوتن ، وبعد أن كان الكون يمسكه الله بقدرته ، يذكر أنه ممسوك بقانون نيوتن للجاذبية ، فهذا الذى يعرف للناس ، ويدرس لطلبة العلم ، ويناقش في الرسائل العلمية . وأصبح قانون الجاذبية لنيوتن من الأمور المجمع عليها من أهل الأرض كافة دون إستثناء . ولم تحظ نظرية بإجماع أهل الأرض بعد نظرية دارون ، مثلما حظيت نظرية الجاذبية .

ويردد بعض الطيبين ، أو السذج " إن هذا هو أسلوب الله في العمل " . بواسطة أسباب وعلل . نعم إن الله تجرى مشيئته في الكون بواسطة أسباب وعلل ولكن من الذى قال أن هذا هو " أسلوب الله في العمل " ؟ وأسلوب الله في العمل قد عرفنا به تفصيلا ، وليس منه قانون الجاذبية . وليس لدعواهم هذه بينة .

ولو سألنا : ماهي الجاذبية ؟ عرفوها لنا ؟

جاءنا الرد من الدكتور صبرى الدمرداش وهو يجيب عن كل علماء الأرض في كل علوم الكون :
" إن الجاذبية من أهم قوانين الطبيعة رغم أن الجاذبية نفسها مازالت لغزا عميقاً مجهولا " .

إن هذا اللغز العميق المجهول لا يمكن أن يكون أسلوب الله في العمل . لقد أخبرنا تعالى عن الأمور الغيبية وهي خمسة فقط وليس من بينها الجاذبية .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : " مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله : لا يعلم ما في غد إلا الله . ولا متى تقوم الساعة إلا الله ولا ما في الارحام إلا الله ، ولا متى ينزل الغيث إلا الله . وما تدرى نفس بأى أرض تموت إلا الله " .

إذا فلا تعتبر الجاذبية من الغيب . وكما لم يخبرنا عنها في كتابه العزيز الذى فصل كل شيء . لم يخبر عنها رسوله ﷺ الذى بين كل شيء والذى لم يترك أمته إلا وأخبرها بكل شيء من العرش إلى الفرش . بل من رب العزة تبارك وتعالى إلى الأرض السفلى ولم يترك طائر يقلب جناحيه إلا قال لأصحابه منه علماً . فهل كتم ﷺ علم الجاذبية ؟ حاش لله .

هل خفي عن رسول الله ﷺ علم الجاذبية وعرفه نيوتن ؟
كيف لم يعرف رسول الله القانون الذى يسير الكون كله .

ليس للأرض جاذبية

يقول الشيخ عبد المجيد الزنداني : " درس علماء الأرض سبب الجاذبية فوجدوا أن باطن الأرض ثقيل ثقيل ، وكلما يكون ثقيلا يكون جذبه قوياً وكلما نزلت تحت زادت الأرض ثقلا حتى تصل إلى قلب الأرض .. فوجدوا سائلا ثقيلا يدور حول قلب الأرض .. دورانه هذا ينشأ عنه خطوط الجاذبية .. التى تجذب الأشياء " . ثم أتى الشيخ بأية تفسر الجاذبية . وهي قوله تعالى ﴿وَأَخْرَجَتْ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ (الزلزلة :٢) وقال بأن دكتور يدعى (ستيفلز) يرى أنها وآية أخرى هي قوله تعالى ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ (الانشقاق) . تشيران إلى الجاذبية .

بحثت جاهدا عن من قال من علماء الغرب – الذين تبعهم – أن بقلب الأرض سائلا ثقيلا يدور. فلم أجد . وحاولت أن أعرف من منهم نزل لقلب الأرض وحدثنا بما رآه .. لطالما كان هذا حلماً وكانت أمنية تغنى بها المصرى القديم في انشودته المقدسة " لا أحد يعود من وراء القبر فيخبرنا بما يحتاجون إليه هناك ، أو ليريح قلوبنا . حتى نذهب نحن إلى هناك أيضا – إلى حيث الهواء " . ترى هل جاء أحدهم من وراء القبور ؟ أو من قلب الأرض حيث السائل الثقيل ؟

لا أعتقد أن أحدا من رجال الغرب الذين تبعهم نزل إلى قلب الأرض حيث السائل الثقيل هذا . ولا أعتقد أن جهازا من الأجهزة إستطاع أن يكشف أكثر من ٧.٥ كم في عمق الأرض الذي يبلغ ٧٠٠٠ كم تقريبا إلى المركز .

إننى لا أكذب الشيخ ولكن الذين قالوا له ذلك هم الكاذبون . أما الأثقال التى تحدث عنها الدكتور (ستيفلز) فلا علاقة لها بالجاذبية ولا بنيوتن ولا بأى واحد من البشر ، لأن معنى الأثقال هنا (الموتى) الذين ستلفظهم الأرض يوم القيامة ليلاقوا حسابهم . فهذه الآية وأشباهها عن يوم القيامة .

قانونهم يكذبهم يقولون : أن قوة جذب الأرض للأجسام تقل كلما أرتفعنا عن سطح الأرض . فإذا رفعنا صنجة تزن ١ كجم إلى علو قدره ٦٤٠٠ كم – أى جعلناها تبعد عن سطح الأرض بمقدار نصف القطر ، وعن المركز بضعف نصف القطر – لقلت قوة الجاذبية بمقدار $٢^{٢}$ أى بأربع مرات ، ولكان الوزن ٢٥٠ جم فقط بدلا من ١٠٠٠ جم .

كأن كتلة الأرض برمتها مركزة في المركز طبقا لقانون الجاذبية ، أما قوة هذا الجذب فتتناسب تناسبا عكسيا مع مربع المسافة ، وعلى ذلك ففي هذه الحالة قلت المسافة بين الصنجة ومركز الأرض

فقلت الجاذبية بمقدار ٢ ٢ , أى بأربع مرات . وإذا بعدنا الصنجة عن سطح الأرض مسافة قدرها ١٢٨٠٠ كم أى ثلاثة أضعاف نصف قطر الأرض بعداً عن المركز لقلت الجاذبية بمقدار٣ ٢ فيصبح وزن الصنجة ١١١جم فقط بدلا من ١٠٠٠ جرام وهكذا .

وطبقا لهذا القانون الذى يقولون به . فإننا إذا توغلنا بالصنجة في أعماق الأرض ، أى إذا قربناها من المركز فيجب أن تزداد قوة الجذب ، أى يجب أن يكون وزن الصنجة في الأعماق أكثر مما هي عليه فوق سطحها .

غير أن الأمر على غير ذلك . إذ أن وزن الجسم لا يزداد بتعمقه في داخل الأرض بل على العكس من ذلك يقل . وتفسير ذلك كما يقولون أن القوى التى تتألف منها الجاذبية الأرضية لا تؤثر على الجسم من جهة واحدة . بل من جميع الجهات – وكانوا يقولون إنها مركز الأرض – وبالتالى فالصنجة الموضوعة في أعماق الأرض ستنجذب أيضا من تأثير قوى الجاذبية الموجودة فوقها ، لذلك فإن وزن الجسم سيقل باضطرد حتى نصل إلى المركز .

إن هذا يتناقض مع ما ذكروه من قوة الجذب إذا ارتفعنا لأعلى لأنهم قاسوا الإرتفاع من المركز . أما عندما نزلوا إلى أسفل فقد قاسوا بكل الكرة الأرضية . وأياً ما كان الأمر فكل ما ذكر إفتراضات حيث لم ينزل أحد إلى المركز ، كما أنهم حتى الآن لم يتمكنوا من قياس قوة الجذب هذه التى يذكرونها لا فوق سطح الأرض ولا تحته .

وإذا سلمنا بأن الصنجة النازلة في أعماق الأرض ستنجذب أيضا إلى أعلى بتأثير قوى الجاذبية الموجودة فوقها فإن الجاذبية لن تكون من قلب الآرض بل من كل الأرض .

والذى نشاهده أن الأرض دائما ما يتفجر منها الأثقال كما يتم في البراكين ، ونبع المياه . فداخل الأرض من أى عمق أوجهة لا يجذب بل يطرد . أما المسافة التى ينعدم فيها الوزن تماماً ، ذكرنا أنها ٢٣٧٠ كم ولا يوجد للأشياء وزن بعد هذا الإرتفاع .

ومما لا شك فيه أن الأرض تتميز عن غيرها من الأجرام السماوية فكل شيء محفوظ عليها لا يتفلت منها . وإذا ألقى حجر منها إلى أعلى فإنه يعود إليها مرة أخرى وإن وضع الأرض وشكلها الكروى يجعل منها نصف علوى ونصف سفلى (هذا بالنسبة لمن عليها أما بالنظر إليها من الفضاء ككل فلا ينطبق عليها هذا القول) وأننا نرى النصف السفلى يحتفظ بكل شيء عليه فلا يتساقط إلى أسفل تماما كما نحن واقفون على هذا الوجه من الأرض ، فإن من كان بالجهة المقابلة سيظن أيضا أننا في النصف الأسفل له .

فالإحتفاظ بالاشياء على الأرض نعمة كبيرة ، وتمكيننا منها بهذه الصورة نعمة قد نشعر بقيمتها لـــو عرفنا كم تكبدت البشرية وتكلفت من أجل الوقوف على القمر لعدة دقائق وكــــان وقوفــا مقيــداً – يختلف تماما عن الوقوف الحر السهل على الأرض .

وليس ذلك خاصية للأرض منها هي ، وليس ذلك أمرا طبيعيا كما قال جاليليو فالطبيعـــة لا تملـــك لنفسها شيء فضلا عن غيرها . وكل شيء من أمر هذه الطبيعة مخلوق ومربوب ، ومؤتمر بـــأمر الله . ولا حركة ولا سكنة له إلا بأمر الله :

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ (النحل:١٢)

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ (الجاثية:١٢)

﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ (الأعراف:٥٤)

﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ (آل عمران:١٥٤)

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الزمر:٦٢) .

فليست ذرة في الكون إلا وحركتها أو سكنتها بأمر الله . وليس دابة في الأرض :

﴿إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ (هود:٦) ﴿إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِـــهَا﴾ (هـود:٥٦) لا يترل ملك من السماء إلا بأمر الله ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ (مريم:٦٤) ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيـــهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ (القدر:٤) ولا تترل قطرة ماء من السماء إلا بإذن الله وأمره ﴿وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّـمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ (المؤمنون:١٨) حتى السفن لا تسير إلا بأمر الله ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِـــأَمْرِهِ﴾ (إبراهيم:٣٢) والريح لا تتحرك ولا تسكن إلا بأمر الله ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ (الأحقاف:٢٥) لا شـــيء في الكون يقوم بنفسه . أو بطبيعته .

بل كلٌ يكون ، ويقوم بأمر الله . الذرة ، الخردلة ، الميكـــروب ، الفـيرس ، الأميـــا ، الـدم في العروق ، الطعام في الجسد ، الهواء في الشُعب ، كل يسير .. بأمر الله .

فالأرض إذاً ليس لها أى فعل ، حتى تمكيننا عليها ليس بفعلها وحفظ الآشياء فوقها دون تبديد ليـــس بفعلها .

و الشمس لا تجذب شيئاً

يقولون بأننا نعيش على كوكب من كواكب المجموعة الشمسية . أى أن كوننا هـــذا عبـارة عـــن مجموعة من الكواكب تدور حول أمها – الشمس – والأرض واحدة من هذه الكواكب . وقـــد بينـــا خطأ هذه النظريات المخالفة لقول الله في كل كتبه وعلى لسان كل رسله .

فأرضنا ليست كوكبا من الكواكب وإنما أرض ولا تسمى إلا (أرض) ولا وصف ولا إسم غير ذلك . والكواكب ما هي إلا زينة للسماء من أجل أهل الأرض ، وحفظا للسماء أيضا من أجل أهل الأرض .

كذلك في هذا القول بناء للكون على الشمس والكواكب ، وإعطاء الكواكب أكثر مما ينبغي . وقد ذكرنا أن أهل الأرض جميعا لم يكونوا يعرفون أسماء الكواكب أو عددها إلا واحد من اليهود . فالكواكب لا تكون مع الشمس كونا مستقلا ، لأنه لا يوجد في الكون كله إلا أرضا واحدة ، وشمساً واحدة ، وقمراً واحداً ، وأحد عشر كوكباً تدور جميعا حول الأرض وليس الشمس .

عندما قالوا بأن الشمس تجذب هذه الكواكب لتدور حولها بما سموه الشد الجذبوي لم يروا ذلك ، ولم يثبتوه بتجارب ، ولا بحساب ، وإنما كان لابد أن يجدوا بديلا للإله الذى يحرك الشمس والكواكب فقالوا : إن الشمس هي التي تجذب الكواكب لتدور حولها فالتحكم في الكون يتم من داخله لا من خارجه لأنه لو كان من الخارج فسوف يحتاج لمحرك أما من الداخل فالكون يقوم بنفسه فالأرض من داخلها تَجذب وتُجذب ، والكواكب لاتحتاج لتحكم من خارجها بل تجذب من داخلها ، فتجذبها الشمس وسترى بعد ذلك بقية الكون كيف يدار .

فيقولون أن الجرم السماوى لكى يبقى متحركا في مداره لا بد له من قوة طاردة مركزية ويشبهون ذلك بالحجر إذا ربطته بخيط وأدرته حول رأسك ، فستشعر ببعض الجاذبيه ، وهذه تسمى القوة الطاردة المركزية . وشدك للخيط بيدك يسمى القوة الجاذبة المركزية ، وهما قوتان متوازنتان . ونتيجة لهذا الإتزان ، بين دوران يدك والقوة الطاردة والجاذبية يتحرك الحجر في مدار دائرى وحينما تفلت الخيط من يدك . سينطلق الحجر على وجهه في خط مستقيم ، مالم تؤثر عليه قوة أخرى توقفه أو تغير اتجاهه .

وقالوا بأن الشمس أثقل من الأرض ومن كل الكواكب مجتمعه ، لذا فهي تتمتع بقوة جذب هائلة ، وهذه هي القوة الجاذبة المركزية للشمس ، أى أن الشمس كالشخص الذى أمسك بالخيط ، وفي نفس الوقت يبتعد كل كوكب عن الشمس تحت تأثير قوته المركزية ولو لم تكن قوة جذب الشمس ممسكة بها لسببت القوة الطاردة المركزية لكل كوكب إنطلاقه في الفضاء إلى غير رجعة .

إن هذا القول لا يتفق مع العقل أبداً ، ولو كان الأمر كذلك لجاز كل شيء عقلا ، كيف تجذب الشمس الكواكب ؟ ما هي القوة التي تصدر منها لتجذبها إليها . وفي الوقت نفسه ما هي القوة التي في الكواكب لتطرد نفسها فتتوازن القوتان الجاذبة مع الطاردة وكيف تفعل الشمس ذلك وهي تنطلق حول المجرة كما يقولون بسرعة فائقة ؟

إننا نسفه مشركي العرب الذين كانوا يعتقدون في حجارة صماء أنها تنفع وتضر فالآن ماذا نقول لمن يعتقد أنها تجذب وتطرد ؟ ما الفرق بين الاعتقادين ؟ لا أجد فرقا كبيرا بل لا أجد فرقاً على الإطلاق وإنني لأتحمل هذا الحكم الذي أحكم به الآن على من يعتقد في الشمس والكواكب أنها تفعل ذلك بأنه شرك بالله لا يختلف عن شرك العرب في أصنامهم .

ورغم أن ما يقال ليس له علاقة بالعقل لكننا أيضا نريد أن نفهم . أفلا يستلزم إذا كانت الشمس هي التي تجذب الكواكب أن تتناسب سرعات جميع الكواكب في الدوران مع بعضها البعض تماما كما لو كنت تربط ثمانية أحجار في خيط طويل على أبعاد متفاوتة وتدير الخيط حول رأسك فإن يدك ستدور هي الأخرى دورانا متناسبا مع دوران الخيط الذى به الحجارة ، وهذا لا يحدث من الشمس أن تدور مع باقي الكواكب في إتجاه واحد وبسرعة متناسبة معها. كذلك لا تدور الكواكب بسرعات متناسبة بحيث تقطع كلها دورة واحدة في وقت واحد فكل كوكب له سرعة مغايرة وغير متناسبة مع الكواكب الآخرى ، مع إختلاف كل كوكب عن الآخر في الحجم والكتلة .

وكيف يتم الجذب والطرد بهذه الدقة والمدار ليس دائرياً وإنما إهليليجى ، كما يقولون .

ثم كيف تجذب الشمس الكواكب البعيدة عنها ملايين الأميال – كما يقولون – بنفس جاذبية الكواكب القريبة منها ، فإن كانت جاذبيتها قوية إلى الحد الذى تجذب فيه بلوتو الذى يبعد عنها ٣٦٦٠ مليون ميل فلماذا لم (تشفط) عطارد الذى لا يبعد عنها أكثر من ٣٦ مليون ميل (هذه المسافات هم الذين يقولون بها ونحن لا نعترف بها) ؟

وإن كانت جاذبيتها على قدر يجعل عطارد يدور حولها دون أن (تشفطه) ودون أن يفلت منها فكيف تجذب بنفس القوة والقدرة على التحكم لبلوتو الذى يبعد عنها هذه المسافة الغير معقولة ؟

ثم كيف تدور توابع المشترى عكس دوران الشمس . وكذلك بعض التوابع الأخرى ؟

وكيف تدور جميع الكواكب فى إتجاه بينما " أورانوس " يدور فى إتجاه مخالف إن هذه المخالفة وحدها كان يجب أن تهدم نظرية الجاذبية من أساسها .

والقمر كيف يوازن بين جاذبية الأرض وبين جاذبية الشمس . وهم يقولون إن جاذبية الأرض تنتهى وتتلاشى على بعد ٣٠٠٠ كم على أقصى حد . كيف يدور القمر حول الأرض إذاً ولا جاذبية للأرض تجعله يدور حولها ؟

وكيف يتحكم القمر في نفسه وهو ليس له جاذبية تذكر وهو بين الشمس التى تجذب بلوتو من أخر العالم وبين الأرض التى إنتهت جاذبيتها بالخروج من غلافها الجوى ؟

وعندما يكون القمر بين الأرض والشمس في حالات الكسوف لماذا لا تسقط الأرض وقد حال القمر بينها وبين الشمس التى تجذبها ؟ كذلك الأمر في سائر كسوفات الكواكب ؟

ولماذا لا يسقط القمر عندما تحول الأرض بينه وبين الشمس في حالات الخسوف وبذا تتقطع العلاقة بين القمر والشمس ؟ والمفروض أن القمر بالجاذبيتين وإلا لو كان غير مرتبط بجاذبية الشمس ومتعلق فقط بالأرض فإن الأرض لا جاذبية لها بعد ٣٠٠٠ كم . وإنما كان القمر يدور حول الأرض بقدر ضئيل من الجاذبية منها ، فلماذا لا ينفلت القمر من جاذبية الشمس عندما يدور ويكون قريبا منها خاصة والشمس تجذب بلوتو الذى على بعد ملايين الأميال . فلماذا لا تشفط القمر شفطا ؟

هذه بعض أسئلة نوجهها لقوم يعقلون .

* * * * *

مادة مظلمة مجهولة متحكمة في الكون " بدلاً من الإله "

وصلنا إلى بيت القصيد .

فقانون الجاذبية ليس مقتصرا على الأرض ، بل إنه متعلق بأى شيء يحتاج إلى الله في قيامه وإن كان المؤمنون يقولون بأن يد الله تعمل في كل شيء حتى في المجرة وما فيها من نجوم وإن كان قانون الجاذبية لنيوتن هو أسلوب الله في العمل وكان قانون نيوتن عاما على كل شيء " توجد بين كل جسيم من جسيمات المادة في الكون ، وكل جسيم آخر قوة تجاذب ، تتناسب طرديا مع كتلتها وعكسيا مع مربع المسافة بينهما " هكذا قال نيوتن .

ولكن الأجيال التجريبية التى تلت نيوتن فضحت قانونه بدون قصد ، وحتى لا يحيدوا عن الطريق ، فقد استطاعوا أن يتداركوا الأمر . فيستبدلوا الجاذبية بما أسموه : " المادة المظلمة " يحكى قصة المادة المظلمة الدكتور مصطفى ابراهيم فهمي في كتاب " علوم القرن الحادى والعشرين " فيقول :

" باستخدام قوانين نيوتن عن سرعة الحركة والجاذبية يمكن حساب وزن الشمس بطريقة غير مباشرة ، وإن كانت غاية في الدقة ، ويمكن بالطريقة نفسها حساب وزن مجرات بأسرها " .

ومنذ مايزيد على خمسين سنة أدرك الفلكيون أن حاصل جمع كتل النجوم التى يمكن رصدها في مجرة التبانة ، مقداره أقل مما ينبغى أن يكون لانتاج الجاذبية .

ومجموع كتلة الأجرام التى نراها لا يزيد عن خمسين في المائة من المقدار المطلوب لانتاج الجاذبية والحركة المقصودة .

فالمجرات ممسوكة معا في التجمع بواسطة "الشد الجذبوى" المتبادل فيما بينهما إلا أن كتلة النجــــوم المرئية فى هذه المجرات لا توفر إلا جزءا فقط من الكتلة المطلوبة لهذا الشد الجذبوى واستنتج العلمـــاء في ذلك .. " .

قلت : العقل يقول أن يستنتج العلماء من ذلك بطلان قانون الحركة والجاذبية لنيوتن أوعلى الأقـــل إقتراض خطأه . لكن هذا قول العقل ، أما العلماء فكان لهم قول آخر . يقول الدكتور مصطفي :

" واستنتج العلماء من ذلك وجود مادة لا يستطعون رؤيتها ولكنهم يدركون وجودها مـــن تأثـــير شدها الجذبوى . وقد سميت بـــ " المادة المظلمة " ليس لأنها قاتمة في لونها ، ولكن لأنها لا تبعث ضــــوءا كما تبعث النجوم والمجرات " .

قلت : نلاحظ أن هؤلاء لم يروا هذه المادة أي أنها غير موجودة لكنهم يدركونها من تأثيرات شـــدها الجذبوى . أي أن الجاذبية موجودة ، ثم نلاحظ الإسم " المادة المظلمة " ونقول صدق الله تعـــالى القـــائل ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾ (البقرة:١٧) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْـآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءه لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَـــابَهُ وَاللَّـــهُ سَـــرِيعُ الْحِسَـاب (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُـــهَا فَـوْقَ بَعْـضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (النور:٤٠) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَـــاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ (البقرة:٢٥٧) .

يقول الدكتور مصطفي : " وحسب التقديرات الحالية فإن المادة المظلمة قد يبلغ قطرها مـــا بـــين ٩٠ إلى ٩٩ من كتلة الكون .. أى أننا لا نرى إلا واحد إلى عشرة فى المائة من المادة المسئولة عن كتلـــة الكون أو وزن المجرة .

وقد ثبت أن كل مجرة يحيط بها هالات ضخمة من المادة المظلمة (الدكتور يقول ثبت وهم لم يروهـــا ولكنهم يفترضون) تعلن عن وجودها بتأثيراتها الجذبوية .

وظهرت نظريات كثيرة تناقش طبيعة المادة المظلمة وتطرح إحتمالات عديـــدة ، بعضـــها غريـــب نوعا .

قلت : لم أكن أفهم معنى قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الـــرعد:٤) الـــتى وردت فى القرأن ٧ مرات إلا بعد ما قرأت نظريات هؤلاء ولم أجد وصفا دقيقا لهم أكثر مـــن قـــول الله : إنهـــم لايعقلون . إكتشفوا بأنفسهم أن كتلة النجوم الموجودة فى الكون لا تعطى إلا ١% أو بـــأعلى تقديـــر ١٠% من القدر المطلوب للشد الجذبوى . أى يحتاجون لـــ ٩٩% فوق القدر الموجود لتـم الجاذبيـــة . ومع ذلك يصرون على وجود الجاذبية أرأيتم أيها المسلمون صدق إلهكم الذي قال ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِـــي

الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٣) ألم يتحقق قول الله ذاك ورأوا آية تدل على بطلان قانونهم وأن الله هو الحق المبين ؟ نعم تحقق . ولكن أيضا يتحقق فى هؤلاء الآية الثانية ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا﴾ (الأعراف:١٤٦) إن فى كل نظرية من نظريات هؤلاء نجد أمامنا هاتين الآيتين . أنهم يرون الآيات بأعينهم ويعلمون أن الله حق ومع ذلك لاينتفعون بما رأوه لأن الله صرفهم عن النفع لأنهم قوم يستكبرون . آمنت بالله .

تعالوا لنرى ما يقوله الدكتور مصطفي عن النظريات المظلمة . أقصد نظريات المادة المظلمة :

النظرية الأولى

كان " أدرت " الهولندى وهو الذى لاحظ في عام ١٩٣٢ أن كتلة النجوم المرئية لا توفر إلا جزءا فقط من الكتلة المطلوبة لهذا الشد الجذبوى قد اقترح أن المادة المظلمة يمكن أن تكون مصنوعة من نجوم دقيقة الصغر ، لها ضوء ضعيف ، أضعف من أن يرى . على أن الدراسات اللاحقة بينت أن النجوم الشاحبه لا توجد بأعداد كافية لأن تسبب ما يرصد من تأثيرات جاذبية المادة المظلمة .

النظرية الثانية

طرح آخرون أن المادة المظلمة ربما تتكون من ثقوب سوداء ، والثقب الأسود هو البقية الثقيلة لنجم ميت .

فالنجم وهو حى يحتفظ بحجم ثابت نتيجة للتوازن الموجود بين التفاعلات النووية فى فرنه الذري التى تعمل على تمدد النجم ، وبين قوى التجاذب الداخلية للنجم التى تعمل على تقلص النجم ، وعندما ينفد الوقود النووى بفرن النجم ، تتغلب قوى الجاذبية الدخلية ، وينكمش النجم على نفسه فى حجم صغير جداً ولكن كتلة هائلة ذات جاذبية شديدة ، بحيث لا يفلت منها اى شيء ولا حتى الضوء . هذا هو الثقب الأسود الذى لا يمكن رؤيته مادام لا يخرج منه ضوء . وإنما يمكن إدراك وجوده بتأثير جاذبيته ، وتوجد حاليا قرائن كثيرة تدل على وجود ثقوب سوداء ، إلا أن أحدا لايعرف حقا عدد ما يوجد منها في الكون وإلى أن يتم تحديد ذلك سيكون من الصعب التأكد من أن هذه الثقوب موجودة بالقدر الكافى لتكوين كل المادة المظلمة ويبدو أنه من غير المحتمل بالنسبة للمجرات النمطية أن يكون فيها عدد من الثقوب يكفى لتفسير كل المادة المظلمة .

النظرية الثالثة

أن المادة المظلمة قد لا تكون من مكونات المادة العادية - بروتونات ونيترونات - وإنما مصنوعة من مادة غريبة علينا لم نرصدها بعد فى الواقع ولا فى المعمل ، والمعمل هنا هو أجهزة عجلات تحطيم الذرات والجسيمات تحت الذرية فتظهر طبقات جديدة من الجسيمات .

النظرية الرابعة

تقول بأن المادة المظلمة (قد) تكون مصنوعة من جسيمات تسمى (الويمبات) ولكن حتى الآن لم يتم رصدها الآن بالفعل فى الوجود . والويمبات كلمة إنجليزية تتألف من الحروف الأولى لعدة كلمات تعنى (الجسيمات الثقيلة ضعيفة التفاعل) .

النظرية الخامسة

(ربما) أن المادة المظلمة ربما تتكون مما يسمى بالأوتار الكونية على أن الأوتار الكونية هذه مجرد تخمين نظرى لا وجود له بالفعل ويتخيل صاحب هذه النظرية الوتر الكونى هذا كشق فى بنية المكان والزمان . ويشبه الشق فى الماسة أو بحيرة متجمدة .

وإذا كانت كل هذه النظريات عن المادة المظلمة بلا دليل حاسم على صحتها فإن لنا أن نتسائل ، هل المادة المظلمة موجودة حقا ؟

نعم أن المادة موجودة بلا شك ، وقد تم إثبات وجودها على نحو جازم لكن لا أحد يعرف بعد ما تكون بالضبط ماهي هذه المادة المظلمة وإن كنا واثقين من وجودها .

إنتهى كلام الدكتور . ومما لا شك فيه أن المخاطبين نوع من اثنين إما عقلاء وإما غير ذلك وفى كلا الحالتين لن يحتاجوا إلى تعليق ولكن فقط أقول إن هؤلاء على استعداد لأن يقولوا ما لا يخطر على بال ، وما لا يمكن ، ولكنهم ليسوا على استعداد أن يعترفوا أن هذا الكون بكل ما فيه يحركه : الله .

الكون المنكمش

سندخل الآن على فصل آخر ، منتقلين من " المادة المظلمة " إلى " الكون المنكمش" لنستشعر بنعمة العقل التى وهبها الله للمؤمنين . ونتعجب لأن التاريخ يعيد نفسه كما يقال ، وأن فرعون وهامان وقارون وأبو جهل وأبو لهب ، يتكررون فى كل عصر مهما سمى بأسماء براقه " عصر التكنولوجيا " " عصر التقدم " " العصر الحديث " " عصر الفضاء " إلى آخر هذه الأسماء . ويتكرر أمثال هؤلاء فقط بتغيير فى الأسماء فنجد كوبر نيقوس وجاليليو ودارون وهيكسلى وغيرهم حتى أبو جهل قد يرد فى ثوب واسم أينشتاين . بل إنهم يتكررون بأسماء أشد المؤمنين إيمانا ..

يقولون بأن الضوء ينتقل عبر وسيط سموه " الأثير " ولكنهم لم يتوصلوا بعد إلى كنه هذا الأثير وخواصه . ويقولون أيضا بأنهم قاسوا سرعة الضوء بجهاز اخترعوه ، وتوصلوا إلى أن الضوء ينطلق بسرعة ٣٠٠٠٠٠ كم / ث أى أن شعاع الضوء يدور حول الأرض كلها أكثر من سبع مرات فى

ثانية واحدة . وبضمير أكثر وأمانة أشد بسرعة ٢٩٩٧٩٢.٥ كم / ث . وهذه السرعة كما يقول علمائنا ومنهم حسب النبي : أنها المطلق الوحيد فى الكون . وعلمائنا بالطبع لم يقيسوا شيئا ولكن هكذا قال الأسياد المتبوعين وهكذا قال قدوة وامام علمائنا المعصوم " أينشتاين " .

أعرف أنى بذكر أينشتاين قد دخلت منطقة حرجة قال " إن سرعة الضوء فى الفراغ هي المطلق الوحيد فى الكون وما عداها نسبى وهي تمثل الحد الأقصى للسرعة الكونية " . (ولا حول ولا قوة إلا بالله) .

ولأخفف الوطئة على أتباع أينشتاين وزملائه فانني أعترف لهؤلاء العلماء بالعلم ولكن فقط فى علم الأدوات المنزلية من أجهزة كهربائية وأجهزة إتصالات ومواصلات لأن هذا ما أراه بعيني واعيش فى خيره . وهذا إعتراف من الله عز وجل لهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم:٧) .

ومعنى (ظاهرا) أى بائنا ، مكتشفا (من الحياة الدنيا) أى من زخارف الدنيا وملذاتها وأمر معاشهم وأسباب تحصيل فوائدهم الدنيوية . وهو (ظاهرا) بإظهار الله تعالى له ليكتشفوه لأنه تعالى ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق:٥) ولأنه تعالى أعطاهم ما اختاروا . وقد خيرهم تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (الإسراء :١٨) .

يقول هؤلاء الغافلون : إن ضوء الشمس يصل إلينا منها إلى الأرض بعد ثمان دقائق وثلث دقيقة . وهذا القول لا يستسيغه العقل ولم يصل إلينا بالنقل ولم يصدر إلا مِمن أخبرنا الله بأنه ذهب بنورهم وتركهم فِي ظلمات لا يبصرون والذين هم أعمالهم كسراب . فكيف لنا أن نصدقهم ؟

كيف تستسيغ عقولكم أنتم يا عقلاء البشر ، يا علماء المسلمين ، يا أهل الذكر أن قرص الشمس الموجود أمام أعينكم فِي الأفق الغربي ليس هو للشمس وإنما خيالها ، أما الشمس ذاتها فقد نزلت منذ ٨ دقائق ؟ وأن قرص الشمس يطلع من المشرق ويبقى فِي الأفق دون أن نراه إلا بعد ٨ دقائق ؟ وقبلها لا نراه لأنه لم يصل إلينا ضوءه بعد ؟

وعلى أى شيء نصلى صلواتنا ؟ على أى شيء نصلى المغرب مثلاً ؟ على نزول القرص ذاته أما غياب الضوء ؟

وفي رمضان .. علام نفطر ؟ على غياب قرص الشمس ، أم غياب ضوءها الذي سيختفي بعدها بـ ثمانية دقائق وثلث .

وتطلع الشمس من الشرق بقرصها البرتقالى الجميل الخلاب فلا أراها لمدة ٨ دقائق لأن ضوءها لم يصل إلىّ بعد ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله .

إن ضوء الشمس أيها السادة من أمر الله تعالى . وهو يصل إلينا في لمح البصر . ﴿وَمَآأَمْرُنَآ إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (القمر: ٥٠) .

لقد سمعت بأذناي من عالم مسلم يتحدث في إذاعة القرآن الكريم المصرية يقول إننا لو صعدنا الآن إلى نجم ما من النجوم فإننا لن نرى ما على الأرض الأن لأن الضوء سيصل إلينا ونحن على النجم من الأرض بعد آلاف السنين . وأننا سنرى الفراعنة وهم يبنون الأهرام ، أى سنرى ما حدث منذ آلاف السنين لأنه سيكون بالكاد قد وصل إلى النجم الذى يبعد عن الأرض آلاف السنين . ولو صعدنا بالطبع إلى نجم أبعد سنرى الطوفان وسفينة نوح .. وهكذا .

وهذا الكلام ليس من نتاج عقل علمائنا .. الطيبين .. المتبعين وإنما لأينشتاين الذى قال لهم ذلك القول . بأن هناك نجوم بعيدة عنا يصل ضوؤها إلينا بعد آلاف السنين وهناك نجوم يصل ضوؤها إلينا بعد ملايين السنين بل هناك نجوم ماتت – هكذا يقولون – وفنيت منذ آلاف أو ملايين السنين ولم يصل إلينا خبرها بل لا يزال يصل إلينا ضوؤها . فأمام عينيك نجم يلمع ولكن الحقيقة أنه مات إلى رحمة الله منذ ملايين السنين (ولا حول ولا قوة إلا بالله) .

لقد صعد رسول الله ﷺ إلى السماء في ثوانٍ أو دقائقٍ وتجاوز كل النجوم وأخبرنا فيما رواه عنه ابن عباس أنه رأى النجوم كالقناديل المعلقة في السماء أصغرها مثل الجبل العظيم . ولم يخبرنا ﷺ أنه رأى الفراعنة وهم يبنون الأهرام على الأرض ، أو أنه رأى موسي وهو يجاوز البحر ببنى إسرائيل وفرعون يغرق من ورائه . ولو تعذر رؤية هؤلاء لبعد المسافة ، فإنه أيضا لم يخبرنا أنه رأى طوفان نوح عليه السلام وهذا يرى من أى مكان لأن السماء نفسها فتحت أبوابها بسيل منهمر والأرض نفسها أصبحت عيونا ، والماء كان كالجبال لماذا لم يرى رسول الله ﷺ ذلك الأمر . ولا غيره من أحداث الماضى ، وما يشك مسلم صحيح الايمان أنه ﷺ عرج به إلى السماء بروحه وجسده ، يقظة لا مناماً ، وأنه التقى بالأنبياء في السماء بعد موتهم ولم يكونوا على الأرض طبقا لنظرية أينشتاين .

إن نظرية أينشتاين في النسبية والفضاء المنحني والبعد الرابع للزمن وغيرها كان يجب ألا تنطلي على المؤمنين أولي النهى ، أولي الألباب لا أن يتساقوا بتأييدها وترويجها ، ومعظمهم – يعلم الله – لا يفهمها ولن يفهمها لأنها كلمات هو قائلها .

وتصديقاً أيضا لقوله تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٣) نذكر التجربة الآتية التى تبين كيف يريهم الله الآيات ثم يصرفهم عن الإنتفاع بها لكبرهم :

قالوا : إنه إذا كان الضوء يمثل الموجات التى تنتقل عبر الأثير ، فلا بد أن سرعة الضوء المسجلة على الأرض قد تأثرت بحركة هذه الأرض في الفضاء – وهذه نتيجة منطقية طبقا لقانونهم بأن الأرض تدور بسرعة مذهلة ومن ثم فرياح الأثير تدور معها حتى ولو لم نشعر بها لأن هذه الرياح من اللطافة بحيث تخترق أجسادنا فلا نشعر بها – ومن المعلوم أن سرعة الصوت تتأثر كثيرا بإتجاه الريح فتكون السرعة أكثر إذا كانت في إتجاه الريح عنها عندما تكون عكس إتجاهه . وطبيعي أن نفس الشيء ينطبق على إنتشار الضوء في إتجاه الرياح الأثيرية وعكس هذا الاتجاه .

وأسهل الطرق لتحقيق ذلك أن يأخذوا جهاز سرعة الضوء فيجروا به سلسلة من التجارب في إتجاهات مختلفة وكانوا على يقين من أن سرعة الضوء ستتأثر بزيادة ما في إتجاه دوران الأرض ولو بجزء من مائة جزء من الثانية ، لا يشكون في ذلك ، لأن الأمر (قانون) وليس (أى كلام) ، وذلك لأن وضع الجهاز على سطح الأرض التى تتحرك في الفضاء بسرعة فمن المؤكد أن تهب رياح الأثير على الجهاز بنفس سرعة حركة الأرض . وقد حسبوا الزيادة تماما قبل أن يجروا التجربة طبقا للقانون المعمول به ، فوجدوا أنه سيكون بزيادة ١,٠١ % وكانت المفاجأة ..

كانت المفاجأة ، والدهشة والصدمة ، أن رياح الأثير هذه لم تؤثر في سرعة الضوء لا بالزيادة ولا بالنقصان ، عندما جربوا الجهاز في اتجاه دوران الأرض وعكسه .

يقول " جورج جاموف " في كتاب " بداية بلا نهاية " عن شعور صاحب التجربة هذه المدعو " مايكلسون " :

" وقد ذهل مايكلسون ولم يصدق نفسه في البداية . ولكن الشك تحول إلى يقين بعد إعادة التجربة بدقة شديدة فذهل مرة أخرى عندما تأكد من صحة التجربة الأولى ولم يكن إلا تفسيراً واحداً معقولاً لهذا " .

ترى أيها السادة النجباء ما هو التفسير المعقول هنا ؟ لا شك أنه يكون : أن الأرض لا تدور ما دام جهاز قياس سرعة الضوء وهو لا بد أن يكون على درجة فائقة من الحساسية لم يتأثر باتجاه رياح الأثير هذه والتى من المفروض أن تدور مع الأرض بسرعتها . وهذا الإستنتاج العقلى إن لم يكن هو " التفسير الوحيد المعقول " فعلى الأقل أن يكون من ضمن الإستنتاجات . لكن كان الإستنتاج أغرب ما يكون .

يقول " جاموف " : " لم يكن هناك إلا تفسيرا واحدا معقولا لهذا . وهو افتراض جرىء (وهو فعلا جرىء) مؤداه أن تلك المادة الحجرية التى ثبت عليها " مايكلسون " جهاز سرعة الضوء قد إنكمش بقدر ضئيل نتيجة لحركة الأرض في الفضاء " .

أى عقل ممكن أن يفكر هذا التفكير ؟ وأى عقل ممكن أن يصدق هذا الهراء ؟ ألم يكن من الأسهل والأصوب والأعدل والأعقل أن يكون التفسير المعقول هو : أن الأرض لا تدور؟ أو ربما لا تدور ؟ أو حتى مجرد إفتراض إن لم تكن نتيجة منطقية ؟

لكن لم يكن هذا ولا ذاك . وكانت النتيجة الغريبة أن صدر قانون " إنكماش فيتز جيرالد " وهو أول عالم فزيائى استخدم هذا المفهوم واعتبروه من الآثار الميكانيكية البحتة للحركة .

وطبقا لهذا القانون العجيب والذى لا يتصوره عقل وضع أينشتاين قانونا مكملا عام ١٩٠٤ مؤدى هذا القانون الجديد كما قال هو :

" نحن هنا نتعامل مع ظاهرة إنكماش الفضاء ذاته حيث تنكمش جميع الأجسام المتحركة فيه بنفس السرعة وبنفس الطريقة وذلك ببساطة لأنها موجودة في هذا الفضاء المنكمش " .

أليس هذا أيها العقلاء متناقض مع ما قالوه لنا من " تمدد الكون " ؟

لقد واصل أينشتاين فتوحاته أمام دهشة علماء الأرض المبهورين بعبقرية الرجل إلى قانون آخر أعجب وأغرب ونظرية أدهى وأمر وهي نظرية " الفضاء المنحى " التى تقول فيها : " أن الفضاء الطبيعي ينحني كلما اقترب من الكتل الكبيرة " .

واستطاع أينشتاين أيضا أن يقنع علماء الأرض بعكس المعلومة المسلمة المشهورة أن الخط المستقيم هو أقصر الطرق بين نقطتين " إلى القول : " أن الخط المنحنى هو الأقصر " ونتيجة لهذه النظرية وصل أينشتاين إلى نتيجة هامة هي : " أن ظاهرة الجاذبية مجرد أثر من آثار انحناء العالم الفضائى الزمنى ذى الأبعاد الأربعة " . وبهذه النظرية نسف أينشتاين ما قاله نيوتن عن الجاذبية ، بهذه النظرية المخالفة للنظرية النيوتنية التى كانت تقول بأن الشمس تؤثر بقوة معينة على الكواكب مباشرة ، فتجعلها ترسم مدارات دائرية حولها . بل الأدق – طبقا لنظرية أينشتاين – أن نقول :

أن الشمس تحدث إنحناء في عالم الفضاء والزمن الرباعى من حولها . وبذا يختفي تماما مفهوم الجاذبية كقوة مستقلة من منطقتنا . وتحل محله مفاهيم هندسية الفضاء البحتة التى تقضى بأن حركة الأجسام المادية تتبع " أشد المسارات إستقامة " أو " الخطوط المستقيمة " التى تنطبق على الإنحناءات الناتجة عن وجود الكتل الضخمة .

والآن وقفوا على السؤال : هل هذا الفضاء لا نهائي .. أم إنه محدود دون أن تحده خطوطا نهائية ؟

إن المتخصصين يعلمون جيدا أن كل ما قال به جاليليو نسفه نيوتن وما جاء به نيوتن ألغاه أينشتاين وهكذا .. لكن رغم كل ذلك لا يزال علمائنا متمسكين بكل ما قاله هؤلاء ولا يهم بعد ذلك إن كان متفقا مع الدين أو لا ، متفقاً مع العقل أو لا . المهم انهم سيتبعون .. سيتبعون .

والمنصف في القول عندما يرى ما يتم على الساحة العلمية ، يشهد بأن ثمة كيد عالمي لإطفاء نور الله . وان كثير من علماء المسلمين يتناوبون " النفخ " دون قصد لإتمام هذه العلمية .

حركات الكرات السماوية وقانون الأمر

الكافرون من التجريبيين يقولون لك أن الجاذبية هي التي تتحكم في الكون وهي التي تحرك كل الكرات السماوية . والمؤمنون منهم يقولون بأن الجاذبية هي أسلوب الله في العمل والأمر لا هذا ولا ذاك .

فالله تعالى قيم السموات والأرض ، ومن أسمائه تعالى (القيوم) وأعظم آية في القرآن هي الآية التي تخبر بأن الله تعالى يتحكم في السموات والأرض ويدبر أمرهما ويقوم على شأنهما يقول تعالى فيها : ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة:٢٥٥) .

فالله تعالى قائم بذاته عز وجل على حفظ السموات والأرض ، وهذا الحفظ قائم على تدبير الله تعالى لشئونهما . وهو أمر يحتاج إلى العلم ، وهو تعالى العليم بكل شيء ، بل إن علمه لا يحاط بشيء منه ، إلا إذا أراد الله لمن يشاء .

وهذا التدبير يحتاج إلى يقظة وانتباه ، وهو تعالى لا تأخذه سنة ولا نوم . وهذا التدبير منه تعالى يأتي على ملكه وليس ملك غيره ، فله ما في السموات وما في الأرض .

وبلغ من تمام الملكية لهذا الكون بما فيه ومن فيه أن أحداً من خلقه أيا ما كان قدره ومكانته لا يجرؤ أن يشفع عند الله لأحد إلا إذا أذن له الله تعالى بهذا الأمر .

وأن السموات والأرض على عظمتهما لا شيء بالنسبة لعظم الله تعالى ، فإن كرسيه تعالى الذى هو موضع قدميه يسع السموات والأرض بكل عظمتهما وما فيهما ومن فيهما ، ومن ثم فكل الخلائق أيا ما كانوا وحيثما كانوا واينما ذهبوا فهم جميعا أمام عين الله تعالى . وهو تعالى يدبر أمر الخلائق وهو مستو على عرشه : يقول تعالى في سورة السجدة : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ

أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥)﴾ فكل ما في الكون من العرش إلى الفرش إلى ما تحت الثرى يتحرك ويسكن بأمر الله . وبعلم الله . الملائكة الكرام لا تتحرك إلا بإذن وأمر . ﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم:٦) ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (مريم:٦٤) والدواب مهما صغرت ومهما كانت ، في الجو أو البر أو البحر أو في التراب ، بالليل أو بالنهار لا تتحرك ولا تسكن إلا بأمر الله . ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ (هود:٦) ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (هود:٥٦) ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ (الأنعام:٣٨) . حتى النبات ، والجماد وكل ما في الكون مؤتمر بأمره ويقول تعالى مبينا علمه المحيط بكل صغيرة وكبيرة ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام:٥٩) .

إذاً فكل ما في الكون إنما يتحرك ويقوم بقانون .. هو قانون الأمر :

قانون الأمر الذى يعمل به كل ما في السموات والأرض وما بينهما . يقول الله ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ (الروم:٢٥) ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾ (الروم: ٤٦) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ (النحل:١٢) ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ (ص:٣٦) أما كيف يتم تنفيذ الأمر فيخبرنا تعالى عنه بقوله : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢) ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (البقرة:١١٧) وعن سرعة تنفيذ الأمر فيقول تعالى ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (القمر:٥) .

ولكن هل لأحد في الكون أمر مع الله ، أو أمر لنفسه : يقول تعالى﴿بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا﴾ (الرعد:٣١) ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ (الروم:٤) ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ (آل عمران:١٥٤) .

ولكن هل يعنى ذلك أنه ليس لأحد من الأمر شيء ؟ ألا يوجد أحد آخر في الكون يأمر .

الأصل كما هو واضح من الآيات . أن أحداً ليس له من الأمر شيء . وأن الله تعالى هو الذى له الأمر . ولكن كان من أمر الله أيضا أن يجعل للإنسان أمراً . وهذا من دواعى بلائه . بل هذه هي الأمانة التى حملها ، أن يكون له الأمر . ثم بعد ذلك يجازى بما فعل . فكان من مستلزمات هذا الإبتلاء،

وذلك الإمتحان أن يكون أمره بيده . ولكن ذلك في الأمور التى هي من لوازم الإبتلاء والإختبار . أمـــا غيرها من الأمور فرحمة منه تعالى لم يترك أمرها للإنسان . بل احتفظ بها تعالى لنفسه نعمة ومنة منه تعـــالى وإلا لو ترك الأمر للإنسان ما قام به طرفة عين مثال ذلك : اللقمة التى يطعمها الإنســـان . إن الإنســـان يطعم ككل الخلائق ، والله وحده هو الذى لا يطعم لأنه تعالى يقوم بذاته ، وانه تعالى هو الـــذى يطعـــم كل الخلائق ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم:٧) .

فهذه اللقمة تقطع في الحياة الدنيا رحلة طويلة تبدأ من السماء وتنتهى بالأرض . ثم تمر بالإنســـان أو الحيوان خلال ذلك . إذاً فاللقمة صناعة ربانية إشتركت فيها الأرض والسماء لقوله تعـــالى ﴿فَلْيَنْظُـرِ الإنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّـا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ (عبس) وليس للإنســـان في هذه الرحلة الطويلة إلا مرحلة واحدة فقط هي مرحلة جلب هذه اللقمة وأمامه بذلك طريقين لا ثـــالث لهما : إما الحلال وإما الحرام . هذا فقط هو دور الإنسان . وماعدا ذلك فالأمر لله . حتى الزراعة الـــتى قد يظن المرء أن الإنسان هو الذى يزرع وذلك لظاهر الأمر فإن الحقيقة أنه لابد له في ذلك يقول تعـــالى ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (الواقعة:٦٤) .

واللقمة بعد صناعتها بإشتراك الأرض مع السماء يأتى بها الإنسان بأمره وإرادته ثم يضعـــها في فمـــه وينتهى أمره بذلك ليبقى بعد هذا الأمر لله فقط لأن هذه اللقمة لابد وأن تتحول إلى سائل رقيق ســـلس ليمر من انابيب دقيقة جدا تسمى الشعيرات الدموية التى توصل هذه اللقمة إلى كل جـــزء في الجســـم ليقوم ويحيا . فلكى تتوزع هذه اللقمة الغليظة في خلايا الجسم تمر بسبع مراحل . تمـــر خلالهـــا بعـــدة أجهزة وعدة بوابات .

ينتهى دور وأمر الإنسان بوضع اللقمة في فمه . وسيعمل الفم بعد ذلك وحـــده فتجـــد الإنســـان منهمكاً بحديث ، أو مشغول بفكر ، شارد الذهن ، وأعضاء الفم تعمل : الاســـنان الأماميـــة تقطـــع ، والأنياب تمزق ، والضروس تطحن ، والغدد تفرز لعابا ليلين واللسان يقلب ، ويتـــذوق . ولا يحســـبن أحد أن له دور في ذلك . وله أمر. فلو كان الأمر للإنسان فهل يستطيع الإنسان أن يأمر الغدد اللعابيـــة أن تفرز ، وبقدر معين منضبط ، تحتاجه اللقمة تماما بلا زيادة ولا نقصـــان ؟ ولـــو قلنـــا أن الإنســـان سيستغني عن اللعاب ويمضغ . فهل ذلك متصورا ؟ ، أنه مستحيل وغير متصور أن تمضغ اللقمة والفـــم جاف بلا لعاب . فاللقمة لن تمضغ تماما والفم سيتمزق جروحاً لخشونته بدون اللعاب ، بل حـــتى لـــو

استعاض الإنسان عن اللعاب ووضع في فمه ماءً . فلن يقوم الماء بدور اللعاب أبداً سواء في لزوجة الفم ، ولا في ذوبان المواد التي يعمل اللعاب على ذوبانها .

ثم تمر اللقمة عبر بوابة تفتح للقمة خصيصا وقد كانت مغلقة قبل ذلك وتغلق بعد ذلك هذه البوابة اسمها " البلعوم " والحارس الذى على هذه البوابة إسمه " لسان المزمار " ولا علاقة لهذه البوابة بالإنسان ولا تتلقى أوامرها منه ، كما أنه لا علاقة لهذا الحارس " لسان المزمار " بالإنسان ولا يتلقى أوامره إلا من الله .

وهذا الحارس يقف على مفترق طريق حيث يتفرع من الفم طريقان : المرىء الذى يجب أن تنزل فيه اللقمة ، والقصبه الهوائية التي يجب أن يمر فيها النفس (الهواء) وكلاهما يبدأ من بوابة واحدة بحارس واحد كرجل المرور تماما يغلق دائما الطريق المؤدى إلى المرىء ويترك الطريق المؤدى إلى القصبة الهوائية مفتوحاً ، حتى إذا ما طلبت لقمة المرور فإنه بأمر الله يفتح لها الطريق بعد أن يغلق الطريق الآخر " القصبة الهوائية " وبالتالى لا يمر هواء في هذه الأثناء ، لكن فقط اللقمة ومن المستحيل أن يمر الإثنان معاً وليس ذلك لأن الإنسان يمنع هذا ويسمح لذاك . ولكن لأن هذا العضو المسئول عن البوابة والمرور معا ، لديه أوامر من الله بأن يفعل ذلك . ولن يسمح بمرور اللقمة إلا إذا مرت بمراحلها في الفم وتكون قد مضغت وإلا فلن تمر .

عندما يفتح الطريق للقمة الممضوغة تنزل في (المرىء) وهو طريق طوله ٢٥ سم وهذا الطريق له وظيفة واحدة ، أن يمرر اللقمة من الفم إلى المعدة بعد أن مرت اللقمة ببوابتين الأولى " الشفتين " والثانية " البلعوم " .

هذا الطريق إتجاه واحد من الفم إلى المعدة وليس العكس . فلو كان الإنسان واقفا أو جالسا أو مستلقيا ، أو منكوسا على رأسه فإن اللقمة ستمر من الفم إلى المعدة وليس الأمر للقمة ، ولا أمرالإنسان بل إن الأمر لله يصدره للمرىء الذى يقوم بعمله بإفراز عصاره لزجه تمكن اللقمة من المرور بسهولة .

كذلك يقوم المرىء بماله من عضلات قابضة وباسطة تعمل بسرعة شديدة غير ملحوظة ولا محسوسة بحيث تقوم العضلة الباسطة بالإنبساط وذلك من أسفل اللقمة ، ومن فوقها تماما تعصر وتضغط العضلة القابضة ، ويتم الأمر في وقت واحد . بل إن العضلة تتحول من قابضة لباسطة والعكس كلما مرت اللقمة بينها وتجاوزتها .. وهكذا حتى ينتهى دور المرىء عند البوابة رقم ٣ وهي على فم المعدة . وهي بوابة أيضا مغلقة دائما ليل نهار لا تفتح إلا بالأمر للقمة ممضوغة ، ولا تسمح

بمرورها إلا من إتجاه واحد من المرىء إلى المعدة وليس العكس . فلو ترك الأمر إلى الإنسان لربما نسى هذه البوابة مفتوحة وهو نائم أو وهو يجرى فخرج الطعام من المعدة وعاد إلى المرىء فخرج من الفم أو دخل من طريق النفس ومات من فوره .

فإذا مرت اللقمة من البوابة رقم ٣ نزلت إلى المطحن واسمه " المعدة " ذلك العضو الذى يفرز ويطحن ، ففيه أنسجة تفرز عصارة تعمل على إذابة وتحليل بعض المواد ونسيج آخر يقوم بطحن " هضم " باقى المواد . والمعدة في ذلك أشبه بالفم . غير أن إفراز غدد الفم أرق وألطف . أما غدد المعدة فأشد وأغلظ حتى إنها لتذيب أى طعام مهما غلظ وصلب ، كما تفعل معدة العصافير الرقيقة وغيرها من الطيور بهضم أشد الحبوب صلابة . ورغم ذلك فإن عصارة المعدة هذه التى تذيب أى لحم وأى طعام لا تذيب لحم المعدة ذاته ، لأنه مؤتمر بأمر الله .

وبعد أن يتم هضم اللقمة بالمعدة تفتح البوابة رقم ٤ ليمر الطعام من المعدة متجها إلى مكان آخر يسمى " الإثنى عشر " وطوله ١٢ بوصة ويمكث الطعام هنا حيناً من الوقت ليتلقى عصارتان عليه ، واحدة تأتيه من الكبد (العصارة الصفراوية) وأخرى تأتيه من البنكرياس (العصارة البنكرياسية) وهنا تتحلل المواد الدهنية وأيضا المواد النشوية والبروتينية .

ثم بعد ذلك ، وبعد إنتهاء الإفراز والخلط والتحلل في الإثنى عشر تفتح البوابة رقم ٥ ليمر الطعام المهضوم إلى الأمعاء الدقيقة . وهي امعاء طويلة وطريق جدير بأن يقال عليه (الداخل فيه مفقود ، والخارج منه مولود) ذلك أنه طريق طوله ٢٠ قدم يمر الطعام المهضوم الذى أصبح سائلا رقيقا جدا منه وقد احيط على جوانبه بزوائد أصبعية دقيقة تسمى الخملات تقوم بإمتصاص الغذاء المهضوم هذا لتنقله إلى شبكة من الأوعيه (المواسير) الدقيقة جدا وهي نوعين شبكة تحتوى على سائل الدم وتسمى الشعيرات الدموية ، وشبكة أخرى تسمى الشبكة اللبنية . وبذلك تكون اللقمة قد إنتقلت من جهاز إلى جهاز ، من الجهاز الهضمى إلى الجهاز الدورى أو الدموى .

يتم في الأمعاء وعبر هذا الطريق الطويل إمتصاص اللازم من الطعام وغير اللازم يترك ليمر إلى الأمعاء الغليظة عبر البوابة رقم (٦) .

وبالأمعاء الغليظة التى طولها ١٨٠ سم يتم أيضا إفراز عصارة صفراء لتسهل عملية مرور الطعام الذى جف وغلظ بعد إمتصاص الماء منه في هذا المكان أيضا وتنتهى رحلة اللقمة عند هذا الحد .

وتقف عند البوابة رقم ٧ والأخيرة ، حتى ينضم إليها جميع أخواتها فإذا ما ادراكوا جميعا أعطوا إشارة إلى الإنسان أن يأذن لهم في الخروج وهذه نعمة من الله أيضا ، أن يكون الإنسان له دور على

هذه البوابة الأخيرة ... دور مماثل ومساو تماما لما له من أمر على البوابة الأولى "الفم" مع فارق جوهرى أن البوابة الأولى تفتح أمام الناس دون أى حرج أما البوابة الأخيرة فلا تفتح إلا بعيدا عن كل الناس "الخلاء" .

والإنسان قد لا يعطى أمرا بفتح هذة البوابة الأخيرة لإشغاله ، أو تواجده بين الناس أو لأى أمر آخر . ولكن هذا الأمر أعطى له لمدة محدودة ، وإلا فالأمر عواقبه وخيمه إن لم يأذن الإنسان لهذه البوابة بالفتح .

ولو تخيلنا أن هذه البوابة تعمل دون دخل نهائيا من الإنسان وأصبحت كغيرها من البوابات . تفتح وتسمح بالمرور دون إذنه ، إنه فى هذه الحالة سيكون تماما كالبهائم التى تخرج فى أى مكان وأي وقت وأمام أى مخلوق مهما كان . ولكن كرم الله الإنسان وأنعم عليه وميزه بهذه الميزة أن أعطاه الأمر على هذه البوابه ، شرط أن يصدر الأمر خلال وقت محدد لا يتجاوزه .

بل أن الأمر بلغ حداً عجيباً ، إذ تتفرع هذه البوابه الأخيرة إلى قسمين ، واحد لإخراج الطعام والآخر لإخراج الماء ، مع أن كلاهما دخل من بوابة واحدة هي الفم .

أرأيت يا بن آدم أى إرادة لك في رحلة هذه اللقمة وأى أمر لك فيها .

إن الله لم يترك الأمر للإنسان إلا لإبتلائه أولا ولتكريمه ثانيا .

ولكن هل من الممكن أن نتصور أن جميع هذه البوابات يترك أمرها للإنسان ؟ وجميع هذه الأعضاء يترك شأنها وأمرها له ؟ ترى ماذا سيفعل فيها ؟ هل سيقوم بأداء المهمة ثانية واحدة ؟ ... مستحيل .

لمن الأمر إذاً ؟ .. نعم لله الأمر من قبل ومن بعد .

* * * * *

كذلك الأمر في الدم وهو يمر بمرحلة أشق وأدق من رحلة اللقمة وهنا لا يوجد أى دور للإنسان ، من قريب أو بعيد . لا فى حركة الدم ولا فى توقفه ، ولا فى لونه ولا فى كثافته ولا فى سرعته ولا فى إتجاهاته ،ولو ترك للإنسان ثانية واحدة فسيموت .

* * * * *

كذلك الهواء الذى يتنفسه الإنسان ورحلته الأدق والأرق من رحلة اللقمة والدم لو ترك الإنسان أن يقوم بأمر رحلة لنفس واحد من أنفاسه يجريه هو بأمره من الأنف إلى الحنجرة إلى لسان المزمار إلى القصبة الهوائية ، إلى الرئتين فالحويصلات ثم إمتزاج هذا النفس بالدم واستبدال الأكسجين بثانى أكسيد الكربون ثم العودة خلال هذه الرحلة مروراً بنفس الطريق كل ذلك (ذهاباً وإياباً وعملا

تبديلا في ثانية واحدة ، لو ترك الأمر إليه في هذه الثانية لمات فيها دون جدال . إذاً فـالأمر في ذلـك كله لمن ؟

وهذه الشهوات التي تتحرك في الإنسان في مسارات لا يعلمها ولا يدريها ، من جـوع وعطـش وشبق لمن الأمر فيها ؟

وهذه الغرائز التي تتحرك فيه أيضا في مسارات لا يدريها ولا يعلمها من حب وكـره ، وغضـب وحلم ، وفتور وشوق ، ورغبة ولهفة ، وحسد وحقد وغيره ، وإيثار واسـتئثار ، وسـعادة وحـزن . واهتمام ولا مبالاة ، لمن الأمر فيها جميعاً ؟

وهذه الوظائف والمهام التي تكمن فينا . كنوم ويقظة وحيـاة ومـوت ، ورؤى وأحـلام وحركـة وسكون لمن الأمر فيها جميعاً ؟

هذا الإنسجام والتناسق والتعاون الذى يتم بصورة لا نراها ولا نشعرها ولا نحسها بـين الأجـهزة المختلفة كالجهاز الهضمى والدورى والتنفسى والتناسلى والعضلـى والعظمـى والعصـبى والنفسـى والجلدى ...... الخ من الذى يدبر أمره ؟

وهذه الروح التي تسرى في أجسامنا ، لا ندرى في أى جزء هي فيه ، أو هي خالية منه . ولا نـدرى كيف يكون مسارها فيه . . لمن أمرها ؟

هذا فينا نحن بنى آدم .

أما الحيونات التي لا تعقل ولا تعلم ما نعلم نحن ولا تفكر كما نفكر نحن هي جميعا أمم أمثالنـا . وإن كانوا أكثر إنضباطا منا وأكثر أدبا وأكثر عبودية ، لمن أمرها جميعا ؟

الطيور التي تحلق في السماء ، وتسبح في الهواء وتهاجر وتعود ..لمن أمرها ؟

الاسماك التي تعوم في الماء ، وتسبح فيه وتهاجر وتعود.. لمن أمرها ؟

وكيف تكون مساراتها جميعا ؟ وأى قانون هو الذى يحركها ويخلقها ويسبحها ويهجرها ويعيدها ؟ أهـو قانون نيوتن للجاذبية ؟ أهو قانون أينشتاين للنسبية .

أهو قانون دارون للتنمية ؟

نظرت يوما إلى سرب عظيم من أسراب السمك وهو يسـبح في المـاء جماعـة واحـدة رغـم أن عدده يبلغ الآلاف ، كان يتحرك بنظام وإنسجام وتناغم كأنهم جميعا سمكة واحدة يسيرون في تكتـل لا تشذ منه سمكه ، فلا تتأخر ولا تتقدم ، ولا تقف وحدها ، بل السرب العظيم يسير كأنه سمكة واحـدة

ثم في لحظة واحدة وفي سرعة كلمح بالبصر يقفل السرب راجعا دون أن يصطدم بعضه ببعض ودون أن تتخلف سمكة . ثم يسير معا وفي لمح البصر ينحرف جميعا يمينا ثم شمالا ثم إلى أعلى وإلى أسفل . كل ذلك بحركة واحدة . ثم يقوم بتشكيلات هندسية جمالية بديعة كثيرة ومتعددة ومتنوعة في لمح البصر . ثم يدور السرب في مسار دائرى تماما للحظات ثم فجأة وفي لمح البصر يغير من مساره .

وسألت نفسي أي أمر يصدر لهذه الآلاف فتقوم بتنفيذه في لمح البصر بهذه الصورة المتنوعة والبديعة ؟

وكيف تتلقى جميعا ، وهي آلاف ، الأمر بالسير والتشكيل والحركة ، وتنفذه جميعا في لحظة واحدة كلمح بالبصر ؟

ومثل ذلك تماما أسراب الطيور في السماء التي تطير بشكل بديع منظم في شكل مثلث لا يتقدمه إلا واحد ثم تتحرك هنا وهناك جميعا في لحظة واحدة ودون أن يشذ طائر واحد .

لمن الأمر في ذلك ؟ لا يمكن أن يكون هناك طائر يوجه هؤلاء ولا سمكة توجه أولئك . ولكن الأمر كله لله .

إن جميع الخلائق في الأماكن الثلاثة ١- السموات ٢- الأرض ٣- ما بينهما ، مفتقرون جميعا إلى الله ليدبر أمرها في كل يوم وفي كل ساعة وفي كل لحظة ، في الليل والنهار ودون إنقطاع .

لذلك يأتي لفظ الأمر في القرآن بعدد عجيب ومعجز إذ أنه ذكر ٧٢ مرة أى ٢٤ (ساعة)×٣ (الأماكن الثلاثة)= ٧٢ .

لقد ذكرت ما ذكرت من أمثلة تتحرك بأمر الله تحت هذا العنوان " حركات الكرات السماوية " لأبين بأمر الله أن هذا وذاك سواء بسواء . وأن الأمر كما ورد ٧٢ مرة في القرآن فهو مقسم على جميع مخلوقات الله . في السموات (للملائكة) وفي الأرض (لجميع الكائنات) وما بينهما للكرات السماوية .

فحركة الكرات السماوية تسير بقانون الأمر أيضا ، وليس الجاذبية ولا جرم يؤثر في جرم ولا كرة تجذب كرة . ولا تأخذ الكواكب جميعها أمر من الشمس ولا من الأرض ولكنها جميعا تأتمر بأمر الله بما فيها الأرض والشمس والقمر .

وكل ما في السماء الدنيا من شمس وقمر وكواكب ونجوم إنما تسير بأمر الله الذى لا نعرف وسيلته كما أننا لم نعرف وسيلة سير اللقمة والنفس والدم والنوم والحلم وغيرهم ، وكما أننا لا نعرف كيف تتحرك هذه الاسراب من الاسماك أو الطيور بهذه الصورة التى نراها ، والتي لا نراها . فنحن أيضا

لا نعرف أسلوب الله عز وجل في هذه الأمور . ومن قال في هذا الاسلوب في العمل ما لم يقل بـــه الله . ولا رسوله . ولا علماء المسلمين الأثبات المعتبرين . فقوله باطل ، ومردود عليه . وقد سطر مـــا قـــالوا كما قال تعالى ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف : ١٩) .

فالكون أيها السادة المؤمنون لا يتكمش . ولا يتمدد . بل الكون كما قـــال تعـــالى ﴿وَكُـــلُّ أَمْـــرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ (القمر:٣) وهو لا يسير بجاذبية نيوتن ولا نسبية أينشتاين وإنما يسير بأمر الله .

وليس هناك " مادة مظلمة " هي التي تتحكم في الكون بل هناك ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ (النور:٣٥) وليــس هناك كما قالوا في كتاب " الكون المصور " أجمع الفلكيون المعاصرون على أن الكون يتسع باســـتمرار ، واتفقت آراء جميع الفلكيين على أن الكون يبدأ باستمرار ويفنى باستمرار بينما تخلق " قوة غامضة " بـــل هناك ، وهنا الله عز وجل الكبير المتعال الخلاق العليم . وليست هناك فرغات جديدة لأنه تعـــالى فـــرغ من الخلق واستوى على العرش .

* * * * *

الباب السابع

الضغط الجوى

أريد أن أقول أن الأرض تختلف عن باقي الأجرام السماوية في أنها تحتفظ بالأشياء التي عليها . فأجدني مخطئاً في هذا التعبير ، وفي أن أنسب للأرض ما لم يقل به الله ولا رسوله ، فالأرض لا تحتفظ بشي ولا علاقة لها بشيء .

وعليه فأعتقد أن التعبير الأصوب والأسلم أن أقول أن كل ما على الأرض يحفظ عليها من التبديد والإنفلات ، كذلك يكون له ثقل ووزن على الأرض بخلاف ما لو كان بعيدا عنها.

أعتقد أن هذه الصيغة تخرجني من أن أقع في محظور . وأن أقول على الله ما لم يقله تعالى خاصة ويحيطني الحديث الصحيح الرهيب الذي روى عن رسول الله ﷺ والذي يقول بأن أحدنا يلقى بالكلمة أو يقول الكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً تهوى به في النار سبعين خريفا . وكلمة أن الأرض تحفظ أو تجذب كلمة واحدة ولكنها قد تكون هي الهاوية ونسأل الله السلامة . ولن يشفع لي أن أقول أن الله تعالى هو الذي أعطى للأرض هذه الجاذبية ، وأن الجاذبية تعمل بأمر الله ، فماذا أقول إن قيل لي : ﴿هاتوا بُرْهَانَكُمْ﴾ (القصص:٧٥) . أو قيل لي ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (يونس:٦٨) .

فليس لدى دليل من علم أو هدى أو كتاب منير ، وليس هو اكتشاف فنقول ثبت ككشف علمي لأنه لم يفلح أحد من أهل الكرة الأرضية حتى أن يُعَرف الجاذبية ، وذلك لأن أحدا لم يعرفها . وليس فقط معرفة كنهها ، بل أي شيء عنها .

كذلك فإن ما نره بأعيننا من حال الأرض ينافي القول بأنها تجذب . إننا نعرف عنها إنها تمر من باطنها البراكين التي تقذف بحمم وصخور إلى عنان السماء بعدة كيلو مترات ، وتنفر المياه فتدفق عدة أمتار في السماء ، وتنفر البترول ، وغيره كما أنه ينفر في كل لحظة وفي كل مكان النبات الذي يخرج من الأرض ، من باطنها ويصعد منها النبت الصغير ، الرقيق ليبلغ عدة أمتار في السماء ، وداخل سيق ، النبات يصعد الماء ولا تجذبه الأرض إليها .

أين إذا هذه الجاذبية ؟

بعضهم يقول في مركز الأرض ، وآخرون يقولون هي كل الأرض .

هل الجاذبية حجارة كالمغناطيس ؟ ولكن المغناطيس كما نعرف لا يجذب كل شيء ، وما يحدث أن كل ما على الأرض مرتبط بها من كائنات حية إلى مياه إلى أحجار وتراب ، إلى عقارات ومنقولات فهل المغناطيس يجذب كل هذا ؟



أيا ما كان الأمر فإننا نلاحظ بالفعل أننا إذا تركنا شيئا سقط على الأرض ، وقد رأينا أن رجال الفضاء يسبحون في السماء عندما يخرجون من نطاق الأرض . ولا تكاد تلمس أقدامهم سطح القمر وهم يسيرون عليه . ألا يعتبر كل ذلك دليل الجاذبية ؟

نعم يحدث ذلك في الأرض من سقوط الأشياء عليها ، ويكون لأشياء الأرض وزن حسب ثقلها ، بينما لا تسقط الأشياء خارج نطاق الأرض ولا يكون لأي شيء وزن ، ولكن لماذا نعتبر أن ذلك لوجود جاذبية من أسفلنا . لماذا لا يكون نتيجة ضغط من فوقنا وليس جذبا من تحتنا ؟

إننا إذ نقول ذلك نصحح الأوضاع الخاطئة المفهومة عن الكون نتيجة معارف وعلوم إلحادية لهذا العصر ، علوم تريد أن تقنع الناس بأن الكون ليس محكوما من فوقه أي من الله ، بل محكوم من داخله ، أي يحكم نفسه بنفسه . فالأرض محكومة من داخلها ، والمجموعة الشمسية كذلك أيضا ، وهي محكومة من داخلها بجذب الشمس لها وباقي النجوم والمجرات محكومة أيضا من داخلها بالشد الجذبوي لكتل النجوم الموجودة في السماء . ورغم أنهم اكتشفوا أن هذه النجوم لا يكفي الموجود منها لإنتاج ١% من قوة الشد هذه المطلوبة لتحريك الكون . بما يعني نقض نظريتهم من أساسها ، إلا أنهم لم يجرؤا على انتقادها أو مجرد التفكير في ذلك .

فما يحدث للأرض ليس جذبا ، فهي لا تجذب لأنه ليس للأرض أي فعل . وإنما تحدث هذه الظواهر نتيجة ضغط من خارج الأرض عليها ، فإذا ما علمنا أن الله هو العلي الأعلى ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ (الأنعام:١٨) علمنا أن ما يحدث للأرض من تحكم لما عليها إنما يحدث من فوقها لا من تحتها ، من خارجها لا من داخلها .

ولماذا يحدث ذلك للأرض فقط دون كل ما في الكون من أجرام ؟ أليس الله فوق كل شيء ؟ فلماذا لا يكون لكل الكواكب والقمر وباقي الأجرام ما للأرض ؟

نقول : إن ذلك لا يكون لأنه ليس على هذه الأجرام حياة ولا خلائق ولا بحار ولا جبال ولا أنهار ولا أشياء كالتي على الأرض . فالأرض أيضا متميزة عن كل الأجرام السماوية بوجود مخلوقات فيها . فميزت بأسلوب خاص من الله تعالى في العناية ، وإن كانت عنايته لكل ذرة في الكون . وأن كل شيء في هذا الملكوت مفتقر إلى الله قائم به . وهذا الفهم ليس جديدا على الإنسان نعمل على إثباته بل قد كان ذلك فهم سائد لبني آدم حتى بداية عصر الإلحاد ، حتى مشركي العرب الذين كان القرآن يصفهم بالكفر والشرك وأنزل إليهم رسولا من أنفسهم كانوا يعتقدون هذه العقيدة في الله وأنه تعالى الذي يقوم على خلقه ويحكم الملك والملكوت بتدبيره وتصريفه يقول تعالى :﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ (يونس:٣١) .

وهو تعالى يدبر الأمر من فوقنا ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنْ السَّمَاءِ﴾ (السجدة:٥) ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ (يونس:٣) .

نحن إذا مثبتون على الأرض فلا ننفلت منها ، وذلك من أمر الله ، وليس من الأرض ، ومن فوقنا لا من تحتنا .

ولكن هل أخبر الله تعالى : كيف يتم هذا الأمر . أم أنه سر من أسراره تعالى ، أو غيب من الغيوب ؟ نعم أخبرنا تعالى عن ذلك . وليس هذا سرا ولا غيبا .

فكما أخبرنا تعالى أنه هو الذي يهدينا في ظلمات البر والبحر ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (النمل:٦٣) . فقد أخبرنا تعالى بوسيلة هذه الهداية ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (الأنعام:٩٧) . وكذلك أخبرنا تعالى بأسلوبه في العمل في شأن الأرض ، وبتفصيل دقيق .

التمكين في الأرض :

لا يمكن أن نجد كلمة تعبر عن وضعنا في الأرض بهذه الظواهر التي نفتقدها في غيرها أفضل من هذه الكلمة " التمكن " لا الجذب ، ولا الشد ولا الضغط فهذه الكلمة هي الأجمل ، والتي تعطي المعنى الصحيح ، وهي كلمة فيها عز وسيادة وتكريم للإنسان أفضل وأشرف بكثير من غيرها من الكلمات التي تنقص من قدره .

في سورة الأعراف وهي أطول سور القرآن بعد سورة البقرة من حيث عدد الآيات فهي ٢٠٦ آية ، موضوعها الأساسي رحلة الإنسان في الأرض وتكذيبه بآيات الله . وبعد المقدمة لهذه السورة بدأ رب العزة الحديث عن هذه الرحلة من بدايتها إلى نهايتها وقد كانت بداية سرد هذه الرحلة من الآية العاشرة التي تنص على : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف:١٠) .

لقد جاءت هذه الآية في مكانها المناسب من السور التي تتحدث عن سيرة الإنسان عموما ورحلته على الأرض منذ آدم إلى قيام الساعة . فكان من المناسب أن تبدأ الرحلة بذكر هذه النعمة العظمى (التمكين) . وهذا هو المعنى الصحيح لحالنا في الأرض فنحن ممكنون لا مجذبون . وهو الأكرم والأشرف لنا . ثم في التمكين إشارة إلى الذي مكننا سبحانه وتعالى ، أما أننا مجذبون ، فماذا يجذبنا سوى وهم في عقولنا .

وهذا الخطاب للناس عموما ، فهو تعالى يمتن عليهم بأن مكنهم في الأرض ، بنفس المعنى الذي ننسبه الآن للجاذبية ، يسميه تعالى تمكينا . وحتى نعرف قيمة هذا التمكين ننظر في أمر أهل الفلك ورجال الفضاء كم تكبدوا من خسائر وكم تكلفت دولهم من أموال طائلة ليقفوا دقائق معدودة على سطح القمر ، وقد فعلوا ذلك دون أن يتمكنوا إذ تم الأمر على عجل ووجل وكانوا يسبحون فوقه سباحة وليس سيرا عاديا كالذي نسيره على الأرض . وذلك كان لأن الله تعالى لم يمكننا في القمر ولا غيره ، وإنما هو تعالى مكننا فقط في الأرض .

وهذا النوع من التمكين عام لكل الناس ، وذكر التمكين للإنسان لأنه هو المعني في هذه الأرض وهو المخاطب وباقي الكائنات مسخرة له .

وهناك نوعين آخرين من التمكين ، تمكين خاص ، وتمكين خاص جدا .

أما التمكين الخاص فهو تمكينه تعالى لفئة معينة من الناس ، يمكنهم في جزء معين من الأرض تمكين جزاء أو ابتلاء ، فهو تعالى قد يفعل ذلك مكافأة لهم لحسن عملهم كما فعل تعالى مع بني إسرائيل ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ (القصص:٦) ومع قريش ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حرمًا آمِنًا﴾ (القصص:٥٧) وقد يكون ذلك ابتلاء واختبار . فهذا تمكين خاص لفئة خاصة وعلى مكان خاص .

ثم هناك تمكين خاص جدا بخلاف التمكين العام الذي يكون لعموم الناس ، والتمكين الخاص الذي يكون لفئة . فهو تمكين لواحد فقط تمكين بالسلطان والنفوذ كما فعل تعالى مع يوسف ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ ومع ذي القرنين ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ﴾ (الكهف:٨٤) .

ونحن جميعا ممكنون في الأرض ، ومسيطرون عليها ، ومتحكمون فيها ومتمكنون منها ، وقد ورد هذا التمكين بصيغ عديدة من التأكيد ، يفهم من الكلمة ﴿وَلَقَدْ﴾ وهي مكونة من صيغ التأكيد الواو ، واللام ، وقد ، وأسلوب القسم . ورغم كل ذلك فقد نسخت هذه الآية الآن من القرآن وتركت تلاوة فقط . ولو كان الأمر بيد المسلمين لحرفوها عن موضعها ولأتوا بآية أخرى تقول (قانون الجاذبية لنيوتن) . وندر من العلماء أو الدارسين الباحثين الذين يعرفون أننا ممكنون في الأرض بنعمة الله . ومعظمهم يعلم تماما أنه محكومون بقانون الجاذبية لنيوتن ، أما الطلبة والتلاميذ في المدارس وكل المثقفين فلا يسمعون أبدا عن هذا القانون ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ ويعرفون جيدا القانون الآخر (الجاذبية لنيوتن) ولمن يقول أننا نتحرك بالجاذبية وهي من صنع الله وقدرته ، فإنهم فضلا عن وصفهم لله بصفة لم يصف بها نفسه ولم يصفه رسوله بها وهي صفة (الجاذب) فإن الأمر أيضا ينطوي على اختلاف كبير بين التمكين والجاذبية . إذ ينص الله تعالى على أننا ممكنون في الأرض فقط ، بينما ينص نيوتن على أن الجاذبية ليست فقط في الأرض وإنما هي بين كل جسيم من الجسيمات في الكون وجسيم آخر قوة

تجاذب . تتناسب طرديا مع كتلتهما وعكسيا مع مربع المسافة بينهما . وعلى ذلك فلم يقتصر الأمر على الأرض كما يقرر الله . بل إن الجاذبية عامة في كل الكون طبقا لما قرر نيوتن .

وبينما أعتمد قانون نيوتن وأصبح هو الأساس الذي يدرس للناس ، تركت آية التمكين ليتبرك بها في التلاوة أو يتعبد بها في الصلاة وليس غير ذلك . وأغرب ما في الأمر أن نيوتن ذاته لا يعرف : ما هي الجاذبية ، تماما كما لا يعرف أهل الأرض جميعا الآن دليلا واحدا على دوران الأرض .

خصائص الأرض في القرآن

يعرف الفلكيون والجغرافيون الأرض بأنها : " كوكب من كواكب المجموعة الشمسية ليست أكبرهم ولا أصغرهم . تدور حول الشمس كغيرها من الكواكب . ترتيبها بينهم الثالث بعداً عن الشمس بعد عطارد والزهرة . كما أنها تدور حول نفسها مرة كل ٢٤ ساعة وهي كمثرية الشكل حسب آخر إشعار للتجريبيين " هذا هو تعريفهم للأرض وهو تعريف متفق عليه الآن .

وأعتذر في أن أخالف تأسفا على حال البشرية التي أصبحت على أبواب القيامة ولم تعرف حقيقة الأرض التي تعيش فيها . أما التعريف الذي نراه للأرض فنقول :

أنها مركز الكون تعلوها سبع سموات طباقاً مكونة من ثلاث عناصر هي :

يابس . ماء . هواء . وأن جميع ما في السماء يدور حول الأرض كل يوم مرة . وأنها مستديرة الشكل تماما مثبتة بالجبال . وأنها خلقت مع السماء من مادة واحدة .

هذا هو تعريفنا للأرض . والذي يختلف تماما مع التعريف الأول ولا يلتقي معه إلا في الاسم . إذاً فمكونات الأرض والتي تميزها عن غيرها : فهي كرة من الماء بها بقعة يابسة حوالي ١/٤ حجمها . ويحيط باليابس والماء الهواء . هذه الثلاثة هي التي باجتماعها تسمى الأرض أرضا ، ولو فقدت عنصراً منها لا تسمى كذلك ولا تعتبر أرضاً ولعل أهمها على الإطلاق هو الهواء إن رتبنا هذه العناصر وإن كانت جميعاً مهمة بحيث لو فقد عنصر من هذه العناصر لفقدت الأرض معناها .

ينفرد القرآن عن كل الكتب بالحديث عن الأرض بالحرف ﴿فِي﴾ وليس (على) عند الحديث عن السير والحركة . كقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ ومعنى ﴿فِي الأَرْضِ﴾ هو المتبادر في الأذهان (على الأرض) غير أن ﴿فِي﴾ هنا لها مدلول أبعد وأعمق وأدق . فقد ذكرت الأرض ٤٦٠ مرة منها ٢٢٠ مرة ذكرت ﴿فِي الأَرْضِ﴾ .

وذلك إذا كان الحديث عن الحركة أو السير كقوله تعالى :

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ (النمل:٦٩) ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ (لقمان:١٨) ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (المائدة:١٧) ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (البقرة:٣٦) ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (الأعراف:١٤٦) ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (يونس:٢٢) وهكذا .. ولو قلنا نحن ذلك لقلنا (على الأرض) قل سيروا على الأرض ، ولكم على الأرض مستقر ولا تمشى على الأرض مرحا ... الخ . أما أن يقول القرآن ﴿فِي الأَرْضِ﴾ فإن هذا يدل على أننا بالفعل داخل الأرض وليس فوقها .

وعندما يقول تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ فإن كنا نسير في البر فنحن بين اليابس والهواء وإن كنا نسير في البحر فنحن بين الماء والهواء وفي كلاهما نحن في الأرض ، فالعامل المشترك هنا هو : الهواء .

فالهواء هو الذي يمكننا في الأرض بضغطه اللطيف الرقيق في السكون والحركة أى هو أسلوب الله في التمكين - إن جاز التعبير - ولو كان الأمر جذبا من أسفل لوجدنا صعوبة ومشقة ولكانت الحركة على الأرض كفاحا .

بين السماء والأرض

الهواء عنصر أساسي للأرض ، ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نعتبر المساحة المكانية التي يشغلها الهواء منطقة خاصة بالأرض بحيث لو أردنا حساب محيط الأرض لحسبناه من فوق المنطقة التي يشغلها الهواء والتي تسمى " الغلاف الجوى " .

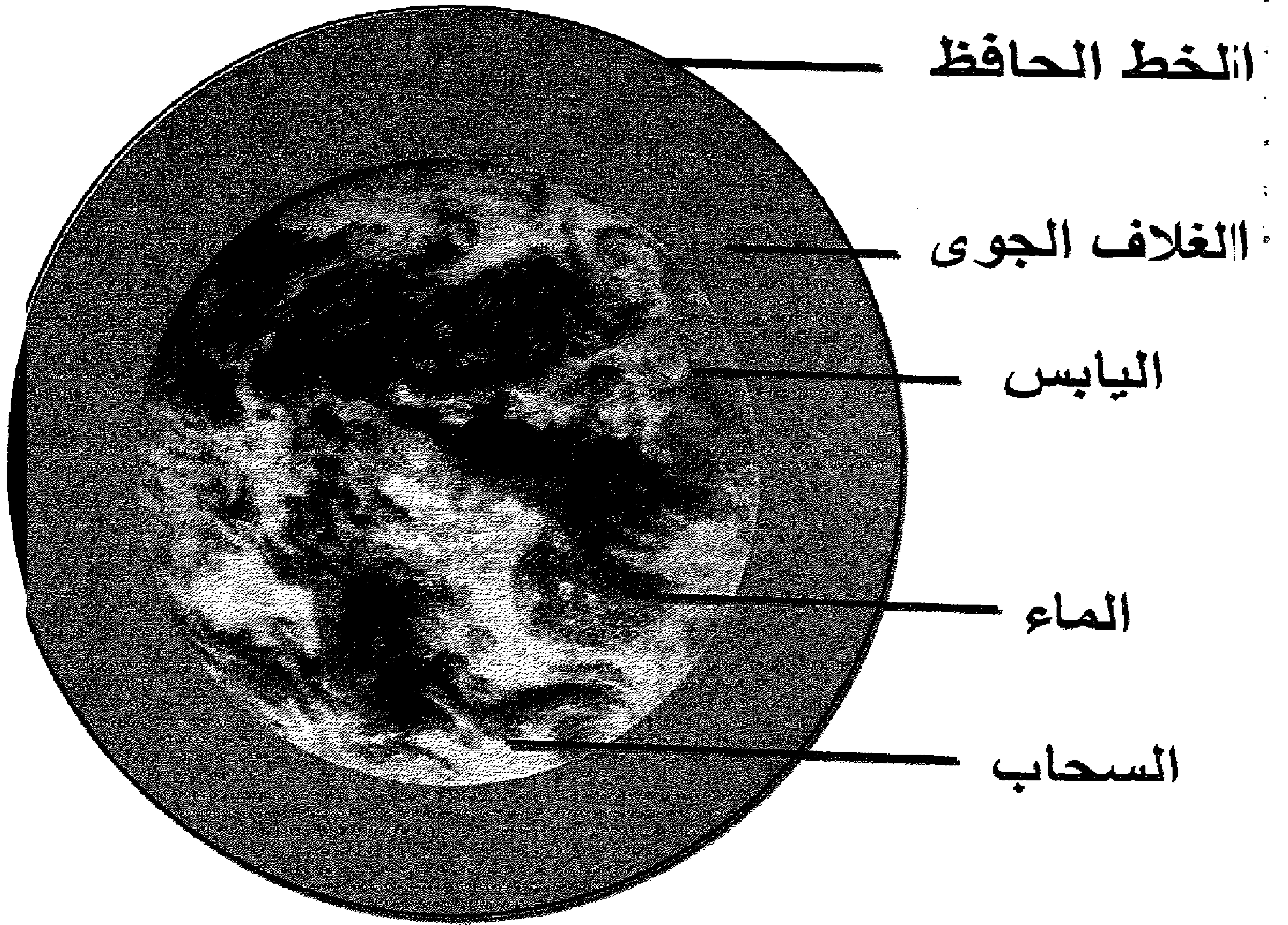
ولكن هذا الغلاف رغم أنه عنصر الأرض الثالث ودليل ذلك الواضح أننا إذا سرنا أومشينا فإنما نمشى ﴿فِي الأَرْضِ﴾ ، ولا يعنى ذلك إلا أننا نعتبر الغلاف الجوى مكملا لعناصر الأرض فإن آيات القرآن تخبر بأن هذه المنطقة هي أيضا تابعة للسماء كما هي تابعة للأرض وذلك عندما نقرأ قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا اللَّهُ﴾ (النحل:٧٩) فكلمة (الجو) هذه والتي لم تأت في القرآن إلا مرة واحدة هي هذه . تعنى أن الغلاف الهوائي أو الغلاف الجوى هو جزء تابع للسماء لأن الطير يطير في الهواء .

وعندما يقول تعالى ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ (الرعد:١٧) والماء ينزل من منطقة الغلاف الجوى بل من أدناها من الأرض . فهذا يعنى أيضا أنها تابعة للسماء . كذلك معنى السماء في اللغة يعنى ذلك لأن السماء هي ممدود الفتق من سطح الأرض (البر أو البحر) حتى السماء الدنيا . ويقولون : " كل ما علاك فهو سماك " . ماذا يعنى هذا ؟

القرآن يعتبر الغلاف الجوى مرة من الأرض . ومرة من السماء . ولا يعنى هذا إلا أن الغلاف الجوى جزء مشتركا بين السماء والأرض . بل أن القرآن أعلن ذلك صراحة فقال تعالى : ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ (البقرة ١٦٤) إلى قوله تعالى ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة ١٦٤) .

فالرياح والسحاب مسخر ومصرف في الغلاف الجوى أو بين السماء والأرض .

وعلى ذلك فالغلاف الجوى منطقة مشتركة بين السماء والأرض . لو قلنا أنها تابعة للأرض لصح قولنا ، ولو قلنا منطقة تابعة للسماء ، لصح أيضاً لكن فى كلا الحالتين ليست التبعية خالصة لواحدة منهما . فللسماء منها (الحيز المكانى) وللأرض منها (الهواء الذى يشغلها) .



الكرة الأرضية بغلافها الجوى

ما هي مكونات الغلاف الجوي ؟

يتكون الغلاف الجوي في نظريتنا هذه من عنصرين اثنين هامين هما : الريح والشمس ونحن نستعمل كلمة (الهواء) على أساس العرف . وما ثبت في الأذهان بتسمية الريح : الهواء . لكن هذه الكلمة في القرآن معنى أدق مما في أذهاننا . إذ يعنى الهواء في القرآن : الفضاء ، والفراغ ، والخواء . وهذا هو المفهوم من قوله تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ (إبراهيم:٤٣) . ولم تأت كلمة هواء في القرآن كله إلا في هذه الآية وهي هنا بمعنى الفضاء .

ما مسافة الغلاف الجوى ؟

فالغلاف الجوى لو تخلف منه هذين العنصرين يفتقد اسمه ومعناه . لذلك فنحن نستطيع أن نحسب المسافة التي يشغلها الهواء (الريح) عن طريق حساب ارتفاع أشعة الشمس على أبعد مسافة تصل إليها من الأرض . لأنه حيث تكون أشعة الشمس حيث تكون الريح التي تعمل مع الشمس على تهيئة المناخ المناسب على كل الكرة الأرضية ، إذ بدون الريح ستكون أشعة الشمس على الكرة الأرضية بمعدل واحد لا فرق بين خط الاستواء والقطبين . تماما كما حدث على القمر وباقي الكواكب وكما يحدث في الفضاء الخارجي عن الغلاف الجوى تكون درجة حرارة الشمس واحدة . إنما الذي يوزعها على الأرض هي الريح التي تلطف منها بعد إذ تتكسر عليها وتقوم الريح بتشتيتها وتوزيعها على بقاع الأرض المختلفة .

لذلك نرى – والله أعلم – أن الغلاف الجوى يرتفع فوق سطح البحر (وهو المقياس لارتفاعات تضاريس الأرض) بمقدار مدار . والمدار الشمسي ٢٢,٧٥ درجة وعلى ذلك تكون المسافة بالكيلو مترات ٢٢,٧٥ × ١٢٠ (حيث الدرجة المساحية للأرض ١٢٠ كم) = ٢٧٣٠ كم .

ويمكننا تصور ذلك إذا عرفنا أن الشمس توزع أشعتها ٩٠ درجة في كل اتجاه على الأرض . فإذا كانت الشمس على خط الاستواء وقت الظهيرة بالنسبة لأفريقيا مثلا فإن شعاعها يصل إلى القطبين أي إلى درجة ٩٠ تماما ، ولا يظهر شعاعها بعد نقطة القطب . كذلك يصل شعاعها شرقا إلى خط طول ١١٠ شرقاً و ٧٠ غرباً . ثم يتحرك الشعاع شرقا وغربا مع شروق الشمس وغروبها . ويتحرك شمالا وجنوبا مع تحرك الشمس بين المدارين .

ففي الشكل (١) نرى الشمس على مدار الجدي الذي عند خط عرض ٢٢,٧٥ جنوب الاستواء فنجد الأشعة قد تقلصت من المنطقة القطبية الشمالية بنفس الدرجات وزادت بعد القطب الشمالي بنفس الدرجات أيضا .

نلاحظ أن فى الشكل (١)، (٢) أن الشمس يخرج شعاعها خارج الأرض بمقدار ٧٥، ٢٢ (٢٧٣٠كم) هذة المسافة هى ما يشغلها الغلاف الجوي للأرض الذي تتم فية جميع الظواهر المناخية وفية للأشكال وزن وثقل



(١) الشمس علي مدار الجدي ظهر يوم ٢٢ ديسمبر نلاحظ أن الدائرة القطبية الشمالية مظلمة والجنوبية مضاءه حتى بعد نقطة القطب



(٢) الشمس علي خط الأستواء ظهراً يوم ٢١ مارس .نلاحظ أن الضوء يصل إلى نقطتى القطبين الشمالى والجنوبى بالتساوى.



(٣) الشمس علي مدار السرطان ظهراً يوم ٢٢ يونية . نلاحظ أن الدائرة القطبية الشمالية مضائه والجنوبية مظلمة .

وفي الشكل (٢) تكون الشمس على خط الاستواء فتصل أشعتها ٩٠ درجة في كل اتجاه وهذا هو وقت الاعتدالين (الربيعي والخريفي) حيث يتساوى الليل والنهار .

وفي الشكل (٣) عندما تكون الشمس على مدار السرطان تنسحب أشعتها من القطب الجنوبي حتى يقف انسحابها عند خط عرض ٦٧,٢٥ عرض جنوب الاستواء . والباقي من التسعين درجة يزاد على النصف الشمالي ، كما حدث قبل ذلك على النصف الجنوبي وهذه الزيادة هي ٢٢,٧٥ أي بمقدار مدار .

وهذه المسافة هي التي يصل إليها الريح ٢٧٣٠ كم حول الأرض وهي أيضا المسافة التي يصل إليها شعاع الشمس . وهي التي يحدث فيها كل شيء متعلق بالأرض . ففي الغلاف الجوى يتم توزيع أشعة الشمس وحرارتها بالريح . وفيه يتم تكوين السحاب وتسخيره فيه ، وفيه يكون خط الحفظ ، وجميع الظواهر المناخية من سحاب ومطر ورياح وعواصف وجبال البرد وبرد وما إلى ذلك من ظواهر الطقس فجميعها يحدث في داخل الغلاف الجوى . المقسم إلى طبقات كل طبقة منها عدة كيلو مترات وأعتقد أن هذه الطبقات عددها سبعة بعضها فوق بعض ، لكل طبقة منها خصائص ويتم فيها أعمال متعلقة بالأرض وسكانها .

الأرض محفوظة

من أسماء الله عز وجل وصفاته (الحفيظ) و(الحافظ) وليس من أسمائه ولا من صفاته (الجاذب) ، وهذا الاسم من مستلزمات قيامه عز وجل على السموات والأرض فهو تعالى قيوم عليها ، وهو تعالى حافظ لهما وحفيظ عليهما بل إنه تعالى كما وصفه يعقوب في قوله : ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف:٦٤) .

وكل شيء في هذا الكون محفوظ بالله تعالى : ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ (سبأ:٢١) فالسموات محفوظة ، والأرض محفوظة والأنفس محفوظة ، والأعمال محفوظة ، والأجساد التي تأكلها الأرض لا تضيع بل كل ما يذهب في الأرض وتأكله الأجساد معلوم عند الله ، محفوظ مقداره ومكانه في كتاب الله الحفيظ .

فالأرض محفوظة طبقا لقوله تعالى ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ (البقرة:٢٠) ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ولقوله تعالى ﴿وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة:٢٥٥) أي لا يصعب عليه حفظ السموات والأرض ولا يثقل عليه هذا الأمر .

وكل شيء على الأرض محفوظ . وحفظ الأرض بغلافها الجوى . الذي يحفظ ما عليها من أن يتبـدد في الفضاء ، ويحفظ الأرض أيضا من أن يترل إليها ما يفسد فيها أو يفسدها فـالغلاف الجـوى يحفـظ الأرض من كل ما يدور أو ينطلق في الفضاء سواء كان هذا رياح شمسية ، أو شهب ، أو كسـف ، أو غير ذلك .

يقول تعالى ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ (الأنبياء:٣٢) فالسماء أيضا محفوظة من أن ينـال منـها ومن أسرارها أي شيطان فيرجم . والسماء بغلافها الجوى محفوظة بحيث يرد هذا الغـلاف أي شـيء يصعد من الأرض ما عدا الملائكة والدعاء ، وما سوى ذلك مما يصعد من الأرض فإنه يرجع إليـها مـرة أخرى وهذا بالتحديد ما فسره نيوتن بالجاذبية عندما شاهد سقوط التفاحة وبالتالي علل سقوط الأشـياء على الأرض بأن في الأرض جاذبية ، والحق أن هذا الأمر لم يتم بفعل الأرض وإنما يتم بفعل السـماء أي الغلاف الجوى الـذي في السـماء يقـول تعـالى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ (الطارق) .

فسقوط الأشياء على الأرض بنص القرآن أنها بسبب مـن السـماء لا مـن الأرض ، والمقصـود بالسماء هنا هو الغلاف الجوى الذي فيها ، كما يقول تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا مِـنَ السَّمَاءِ مَـاءً طَـهُورًا﴾ (الفرقان:٤٨) . فالماء يترل من السحاب الذي في السماء وهو أيضا في الغلاف الجوى . والآية هنـا عامـة فهي إذاً ترجع ما يصعد من الأرض مرة أخرى وذلك طبقا لقانون الحفظ الإلهي وإلا لتفلت كل شـيء من الأرض لولا أن كل ما يصعد بخفته ، أو بالقذف ، أو بالنبع أو بالبخر أو بالإثـارة يعـود إلى الأرض مرة أخرى ، فتحفظ محتويات الأرض من التفلت في الفضاء .

وعلى ذلك فكل محتويات الأرض التي تصعد بفعل الإنسان أو منها هـي ترجعـها السـماء مـرة أخرى . مقذوفات ، أو غازات ، أو أدخنة ، أبخرة ، روائح ، أصوات ، غبار ، نار ، صخـور ، ميـاه ، حتى أرواح الموتى أو النائمين تعود بعدما تصعد إلى السماء فيقال لها : أعيدوها إلى الأرض مرة أخـرى فإني قد كتبت عليهم منذ أن خلقتهم ، أني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخـرى . فتعود مرة أخرى للمساءلة في القبر ثم تذهب بعد ذلك إلى مستقرها .

أما الأرض فإنها لا تجذب بل هي كما قال تعالى تتصدع ، وإن لم يأت الأمر بصيغة فعل لـلأرض ، تأكيداً لما قلناه أن الأرض لا يصدر منها أي فعل فقال تعالى ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ أي أنها قابلـة لأن تتشقق وتتفتح – لأنها هكذا ذللت – لفأس المزارع أو لزهرة رقيقة تريد أن تخرج منـها. فـهي قابلـة بنعمة الله لأن تتصدع سواء بتأثير من فوقها كما يفعل العاملون والمزارعون والبناءون وكل مـا يفعلـه

بنو آدم بالأرض فهي تتصدع لهم ، أو كان بتأثير من داخلها حيث يخــرج الــزرع والمــاء والبــترول والبراكين والزلازل ، فالأرض تتصدع بأمر الله لهذه الأمور . أما أنها تجذب أو تشد أو تفعل أي شـــيء فليس ذلك لها . ولو كانت الأرض تجذب ما استطاع أن يخرج منها شيء مما ذكرنا .

ورجع السماء هذا ، هو رجع الغلاف الجوى فالغلاف يمثل سقف الكرة الأرضية ليحفظ محتوياتهـــا كما نحفظ نحن الأشياء في حاويات ، ومعلبات ، ونؤكد غلقها أو تغطيتها ليحفظ مـــا بـــالداخل مـــن التلف أو الضياع . فهكذا الغلاف الجوى يحفظ ويغلف ويحوى ويغطى الأرض بكل محتوياتها فلا يضيـــع ما بداخلها ويتفلت ، أو ينفلت ، كذلك يحفظها من فوقها ، وهو دور السقف ، وذلـــك لأن الســـماء تحتوى على أشياء أخرى خطيرة غير الزينة .

هذه الأشياء الأخرى هي التي تُحير الفلكيين والطبيعيين . حيث يعتبرون من أكثر الأمور غرابـــة في السماء حتى يعتبرونه لغزا ليس له حل ، الأشعة الكونية فيقولون :

إن أخطر ما يواجه الإنسان في الفضاء وهو يحاول الصعود في السماء الأشعة الكونية التي تمتلئ بهـــا السماء . هذه الأشعة مختلفة الأشكال والأحجام تبدأ من جسيمات ذريـــة معظمـــها مـــن البروتونـــات الطليقة وتأتى من بعيد جداً ولا يعلم أحد مصدرها ولا كيف تتكون ، ولا كيف تنطلق خاصـــة وهـــي تنطلق بسرعة كبيرة جداً . وهناك أيضا حجارة تتفاوت في أحجامها تقذف أيضا من السماء من مكـــان غير معلوم في اتجاه الأرض .

هذه الأشياء التي تحير الفلكيون فيها مفسرة ومفصلة في القرآن . لكن أحدا من علماء المســـلمين لم يفصح عنها لعلماء الغرب . لأن علماءنا لم يتعودوا أن يقدموا بين يدي أهل الغـــرب وعلمائـــه . إنهـــم ينتظرون أولاً أن يقول الأسياد المتبوعون قولهم وبعد ذلك يأتي دور الأتباع . أما قبل ذلك فليـــس مـــن الأدب واللياقة فلكل مقام معلوم .

ودون أن أستأذن سأتجرأ وأقدم حلولا لهذه الألغاز وإجابات للأسئلة المحيرة مع علمي أن السادة لـــن يأخذوا بمقالتي لأمرين أولهما : أنني واحد من الأتباع ، فرد من الشعوب المقهورة المتخلفة . وثانيـــهما : أنني أستدل بكلمات الله .

ولكن : لا ضير .

إن بالسماء أيها السادة أشياء أخرى غير الأجرام السماوية التي هي زينة للسماء الدنيـــا : أشـــياء أخرى تبدأ بالفيروسات وتنتهي بالشـــهب . أشـــياء يســـميها القـــرآن : **الرجـــز ، والكســـف ، والحسبـــان ، والحجارة ، والحاصب ، والشهب .**

هذه الأشياء أخبر القرآن أنها موجودة في السماء ، وأن الله تعالى جعلها تدور حول الأرض ليصيب بها من يشاء ويصرفها عن من يشاء .

فكثير من الأمراض التي تصيب النفس أو تصيب الزرع أو الضرع إنما تكون بسبب " فيروس " أو " ميكروب " . فأما الميكروب فيأتي من الأرض وأما الفيروس فيأتي من السماء . وهو ما أخبر عنه تعالى ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ (البقرة:٥٩) فسره علماء التفسير بمعنى العذاب ، وفصله آخرون بأنه الطاعون كما قال : سعيد بن جبير . وأخرج مسلم وغيره من حديث أسامة بن زيد ومسعد بن مالك وخزيمة بن ثابت قالوا : قال رسول الله ﷺ " وإن هذا الطاعون رجز ؟ وبقية عذاب من عذب به أناس من قبلكم ، فإذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها ، وإذا بلغكم أنه بأرض فلا تدخلوها " .

والكسف : قطع من السماء يقول تعالى : ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ (الطور:٤٤) ﴿إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ (سبأ:٩) وفي السماء أيضا حجارة : كما يقول تعالى ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ (الحجر:٧٤) .

وهذه الحجارة ذات أحجام بعضها صغير كالحصى التى يحصب بها وبعضها كبير (كسف) يقول تعالى عن النوع الأول : ﴿أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ (الملك:١٧) .

وهذه كلها تدور في السماء فوق الغلاف الجوى كدوران الرحى وتنزل من السماء بحساب وأمر ودون ذلك فإن الغلاف الجوى يحفظ الأرض منها ما لم يأذن الله لها أن تمر . وقد أخبر القرآن أن الغلاف الجوى الحافظ قد سمح بمرور بعضا من هذه الأشياء عندما أراد الله أن يعذب بها بعض المكذبين . فقد عذب الله " أصحاب الأيكة " وهم قوم نبي الله شعيب بعذاب يوم الظلة الذي بدأ بإرسال الرياح الشمسية التي ترسل على الأرض دون انقطاع لكن الغلاف الجوى يمنع نزولها للأرض فلا يسمح لها بالمرور من خلاله رغم رقة ولطف وشفافية هذا الغلاف الهوائي . ولا يسمح دائما إلا بمرور القدر اللازم لنفع سكان الأرض . أما في يوم الظلة وهو اليوم الذي عاقب الله فيه قوم شعيب ، فقد سمح الغلاف الجوى لهذه الرياح الشمسية (الأشعة الكونية) بالمرور إلي أصحاب الأيكة .

يقول الشوكاني في تفسير سورة الشعراء : ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠)﴾ .

" أرسل الله إليهم سموما من جهنم ، فأطاف بهم (٧) أيام حتى أنضجهم الحر ، فحميت بيوتهم وغلت مياههم في الآبار والعيون فخرجوا من منازلهم ومحلاتهم هاربين والسموم معهم ، فسلط الله عليهم الشمس من فوق رؤوسهم فغشيتهم حتى تقلقلت فيها جماجمهم . وسلط الله عليهم الرمضاء من تحت أرجلهم حتى تساقطت لحوم أرجلهم ، ثم نشأت لهم ظلة كالسحابة السوداء . فلما رأوها ابتدروها يستغيثون بظلها حتى إذا كانوا جميعا أطبقت عليهم فهلكوا ونجى الله شعيبا والذين آمنوا معه " .

فهذه الأشياء تدور حول الأرض ، وهي معدة لعذاب من يريد الله عذابه يقول تعالى :﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنْ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ (الكهف:٤٠) .

أي عذابا من السماء . والحسبان في لغة العرب : الرحى . والحساب . وكذلك الأمر فهذا العذاب يدور في السماء كدوران الرحى ، ولا يقدر أن يترل إلى الأرض لأن السماء سقف محفوظ ولكن إذا أراد الله فإن الغلاف الهوائي يسمح بمرور ما كان يمنعه قبل ذلك .

وقال الأخفش عن الحسبان : هي مرامي من السماء من حجارة وغيرها .

وكل هذا الذي ذكرناه معد لسكان الأرض من الإنس . أما الجن فالله تعالى أعد لهم : الشهب . يقول تعالى عنها : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴾ (الحجر) ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلا الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) ﴾ (الصافات) .

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩) ﴾ (الجن) .

الأرض محفوظة بالريح

الأصل في آيات الله تعالى أنها واضحة بينة للناس كافة سواء في ذلك الآيات التي أنزلها بالوحي في كتبه ، أو التي بثها بالخلق في كونه . غير أن هناك آيات في كونه وفي كتبه لا تدرك إلا بإعمال العقل والفكر والبحث والعلم . وهذه الآيات الثانية أشار الله تعالى إليها وحدد من الذي يدركها . وقد ذكرنا أنه تعالى حدد (٧) أصناف من الناس يدركون آيات الله تعالى سواء في كتابه أو في كونه وهم : ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام:٩٧) . ولقوم يفقهون (يفهمون) ، لقوم يذكرون ، لقوم

يؤمنون ، لقوم يوقنون ، لقوم يتفكرون ، لقوم يعقلون . ومن توافرت فيه هذه الخصال فهو من أهل الذكر الذين أحال الله الناس إليهم ليتعلموا ويفهموا منهم ما لم يستطيعوا أن يدركوه بأنفسهم فقال ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (الأنبياء:٧) وأخبر تعالى أن هؤلاء هم أخشى الناس يقول ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر:٢٨) من أجل ذلك دعى الله عباده جميعا أن يتعلموا ويتفكروا ويبحثوا ليتدبروا آياته .

فلو قلنا أن الأرض محفوظة بالريح وليس بالجاذبية فلا يعترض أحد بأن القرآن لم ينص على ذلك بآية . ومثل هذا يريد أن توضع له آيات مفصلات بحيث لا تحتاج إلى تفسير أو تأويل فمثلا أن تكون هناك آية تنص على (أن الأرض محفوظة بالريح) ومثل هذا لا يكون في القرآن . إنما يدرك ذلك من تفكر وتعقل وتعلم وبحث .

وهناك آيات مستفيضة ، وأحاديث عديدة ، تثبت أن حفظ الأرض وما فيها بالريح ومنها ما ذكرناه من أن الله تعالى أخبر أن المشي والسير والسعي إنما يكون ﴿فِي الأَرْضِ﴾ وليس على الأرض ويفهم العاقلون من هذا أن هناك شيء فوق سطح الأرض يعتبر جزءً من الأرض حتى يكون الماشي والسائر بينهما في الأرض ، فليس هناك آية تقول بأن الغلاف الهوائي من الأرض . ولكن يفهم ذلك بالعقل .

ونفهم أن للريح (الهواء) ضغطاً من قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج:٣١) . إن العقل وإعمال الفكر يقول بأن معنى قوله تعالى ﴿تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ أن للريح ضغطا .

وهذا الضغط يكون من كل مكان فوق الأرض ونحن لا نشعر بهذا الضغط لأنه يكون عاما على كل جزء من أجسامنا . بل إنه يتخلل مسام الأجسام لرقته ولطافته وشفافيته ، ولكنه معلوم محسوس بخلاف الجاذبية ، إذ أن للضغط قياس محسوب ونطاق محدد ، والتجارب تثبته ، فلا وجه للشبه بين الضغط الجوى والجاذبية ، غير أننا ننسب ما للضغط لشيء وهمي اسمه الجاذبية كشأن كل الأمور التي يحورها الإنسان فينسب الفعل " لقوة غامضة " أو " لمادة مظلمة " أو حتى لظواهر طبيعية أو لبشر باعتبارهم أولياء صالحين لله أو للجن ، ولكن الحق أن الأمر كله لله .

ومن الشكل الموضح للكرة الأرضية بغلافها الجوى نلاحظ أن الغلاف الجوى لا يرى فالريح لا نراها ، ولا يرى من هذا الغلاف إلا السحاب وهو ما يرى دائما أبدا في الصور الملتقطة للأرض من الفضاء لدرجة أننا نتبين القارات بصعوبة .

هذا الغلاف يرتفع عن الأرض بمقدار مدار (٢٢,٧٥ْ) أي ٢٧٣٠ كم . وبعد هذه المسافة نكـون فوق الأرض ، وقبل هذه المسافة نكون ﴿فِي الأَرْضِ﴾ ما دمنا داخل المسافة ٢٧٣٠ كم فوق سـطح البحر . فلو حلقت طائرة تحت هذا الارتفاع بأي قدر فهي تحلق في الأرض .

ويوجد في الجزء القريب من الأرض في هذا الغلاف جميع الغازات التي تحتاج إليها الكائنات فيوجـد الأكسجين والنتروجين وثاني أكسيد الكربون وغيرها من الغازات التي تحتاجها الكائنات الحيـة وهـي قريبة جدا من سطح الأرض وتتجمع في محيط حول الأرض بارتفاع ٧ كم . بل من هذه الغـازات مـا يوجد مذابا في البحر . وممتصا في تربة القشرة الأرضية .

ثم هناك طبقة أخرى فوق هذه ترتفع إلى (١٧) كم وهذه الطبقة هي التي يتم فيها تكون السـحب والأمطار والعواصف والأعاصير والتيارات الهوائية ، التي تنظم الطقس الأرضي .

ثم فوق هذه الطبقة طبقة ثالثة تحتوى على (كبريتات) لتسهيل عملية الإمطار وفي هذه الطبقة ترسـل الملقحات التي تنزل على السحاب لتلقحه كما يقول تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ (الحجر:٢٢) وسمـك هذه الطبقة حوالي ٧ كيلو مترات فوق الطبقة الثانية .

ثم هناك طبقة رابعة : هذه الطبقة هي التي يمتص فيها الأشعة الشمسية المفيدة كالإشعاعات الموجـة القصيرة من الطيف الشمسي ، والأشعة فوق البنفسجية ، وأشعة جامـا ، وغيرهـا مـن مـا ترسـله الشمس ، فهذه الطبقة تسمح بمرور مثل هذا القدر من الأشعة لينفذ منـها إلى سـطح الأرض (نقصـد بالسطح هنا سطح اليابس والماء وإلا فسطح الأرض الحقيقي فوق الغلاف الجوى) ولولا وجـود هـذه المنطقة لنزلت الأشعة الشمسية كلها بقوتها ودون تصفيتها أو كسر حدتهـا إلى سـطح الأرض فتـهلك الحرث والنسل .

هذه الطبقة يسمونها بطبقة (الأوزون) وهي طبقة فيها جزئ الأوزون مع ثلاثـة ذرات أكسـجين . وتتغير نسب تركيز الغاز مع الزمن وخط العرض والارتفاع . وهذه الطبقة ترتفع من فوق الطبقة الثالثـة إلى ارتفاع حوالي ٧٠ كم عن سطح البحر .

ثم طبقة خامسة : وهذه طبقة فوق طبقة الأوزون . وهي أشبه بقلب فرن ذري فـهي علـى غايـة قصوى من السخونة ومن شدة حرارتها تصهر أي شيء يمر خلالها . لذلـك لا يصـل الطـيران أو أي عملية تحليق إلى هذه المنطقة بل تتم جميعا تحتها ، أما الرحلات الفضائية التي تخترق الأرض صـاعدة إلى السماء فإنها تكون داخل سفن أو مكوكات مبطنة ببطانة تتحمل هذه الحرارة الشديدة .

ثم الطبقة السادسة : وهذه الطبقة تبدأ من ارتفاع حوالي ٧٠٠ كم فوق سطح البحر ومن هذه المنطقة ينفلق الفجر القطبي ، ويظهر بالمناظر على شكل ستائر مدلاة ، مختلفة الألوان ، وأشدها جمالا اللون الأخضر والأحمر والوردي .

ثم أخيرا الطبقة السابعة : وهي منطقة الحزام الأمني للأرض وهي نهاية الغلاف الجوى ، فهي المنطقة التي تحفظ الأرض من كل ما يحيط بها من (الرجز ، والكسف ، والحصباء ، والحجارة ، الشهب) فلا يمر شيء من هذه الأشياء مع أنها تدور حول الأرض يوميا ، إلا بأمر الله ، فإن كان ذلك كذلك ، ومرت واحدة من هذه الأشياء القاتلة أو المعذبة فإنها إنما تنزل بإذن ، وبقدر ، وعلى من يريد الله إصابته بتحديد دقيق كما قال تعالى مثلا عن قوم لوط عندما أرسل عليهم حجارة من هذه فقال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾ (هود) . وكما فعل تعالى مع أبرهة الأشرم الحبشي عندما جاء بجنوده وأفياله ليهدم الكعبة وذلك في العام الذي سمته العرب عام الفيل وهو العام الذي ولد فيه خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ .

يقول تعالى عن هذا الحادث في سورة الفيل : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥)﴾ .

والطير الأبابيل : السرب الذي يتتابع جماعات .. جماعات . وقد جاءت مثل السحابة نزلت من السماء من نحو البحر ، حتى أظلت جيش أبرهة وكانت تحمل حجارةً سوداً في حجم البندق ، وبها نضح حمرة ، مختمة مع كل طائر ثلاثة أحجار : حجران في رجليه وحجر في منقاره . ثم لما حازتهم ألقت عليهم تلك الحجارة ، فإذا سقط الحجر على أحد سال لحمه ودمه وتبقى عظاما خاوية لا لحم ولا جلد ولا دم عليه أي يصبح مجرد هيكل عظمى ، وتصبح جلودهم ولحومهم كورق الشجر المأكول .

هذه الطبقة السابعة ، أو الخط الأمني للأرض والذي يحيط بغلافها الجوى والذي تنسكب عليه الرياح الشمسية بأشعتها ، وهو حزام شديد الحرارة حتى إنه ليذيب أصلب المعادن لمجرد ملامسته وهو العائق الأكبر لسفن الفضاء رغم تبطينها وتغليفها بعوازل للحرارة لكنها قد تنصهر أيضا أثناء اختراقها لهذا الحاجز ، وكثيرا ما يحدث ذلك .

يقول " بول سو زان " في كتاب الملاحة الفلكية عن هذا الحزام الأمني : " إن الجو الأرضي حاجز حقيقي ، هو حقا قليل الكثافة ، ولكنه سميك جدا ، فهو يوقف الأشعة ، ويحرق الشهب ، ... إن هذا

الحاجز الذي لا نحسه باللمس ، ولا نراه بالعين حتى فكأنه غير (مادي) يحمي حياتنا اليومية ويحافظ عليها . لأنه لا يسمح بالوصول إلى الأرض إلا لكل ما هو مفيد لنا . وإن كان ذلك من الناحية الكيفية ، أو من الناحية الكمية " .

أما رب العزة فيلخص القول بآية معجزة بليغة ، فيقول تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء:٣٢) .

إن هذا السقف المحفوظ الذي يحفظ الأرض هو من صنع الله ، الحفيظ ، ولكن بلغ من إعراض الكافرين بالله أنهم يسمون هذا السقف المحفوظ " خط فإن ألن " وفان ألن هذا لم يصنع هذا الخط ولم يضعه ، وإنما فقط هو الذي اكتشفه فنسبوه إليه ، تماما كما نسبوا تمكين الله لنا في الأرض لنيوتن وجاذبيته .

هذه الطبقات التي ذكرناها بأعدادها السبع يسمى بعضها التجريبيون بأسماء معينة كطبقة التربوسفير ، والاسترا توسفير ، والميزوسفير ، والايونوسفير .

وهذا الغلاف الجوى الذي نستبدله بالجاذبية ليس فقط يضغط وإنما كما قال تعالى : ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ (البقرة:١٦٤) فهو يضغط في الطبقة الأولى القريبة من الأرض وهو يحمل في الطبقة الثانية التي تليها ، حتى انه يحمل جبالا من الثلج والبرد ، وأطنانا من المياه ، ثم هو يحفظ في الطبقات التالية ، ويمنع من التفلت من الأرض أو المرور من السماء إليها ، أو يرجع ما يصعد من الأرض ، وهكذا ، فليس الأمر مجرد جاذبية ، أما خارج هذا الغلاف المحيط بالأرض فلا يوجد شيء من ذلك بل يوجد فضاء خواء ، فراغ إلا من الأجرام السمارية والأشياء الأخرى التي ذكرناها من الرجز والحجارة والكسف .. الخ .

وهذا الغلاف الهوائي المكون من الريح في كل أجزائه ، والذي تتقلب فيه الشمس ، ليس فقط يحفظ محتويات الأرض بل إنه يحفظ الأرض ذاتها بباقي عناصرها من أن تضيع فالغلاف الهوائي على شفافيته ورقته ، ولطفه ، يحفظ الأرض ذاتها من الحركة ومن الانفلات من مكانها .

فهل يتصور عاقل أن الغلاف الجوى بهذه الطبقات التي ذكرناها ، والمحتويات التي في الطبقات ، وأبعاد هذه الطبقات وإحاطتها بالأرض بالتساوي من كل جهة تدور بهذا الشكل مع الأرض حول نفسها ؟ أو تدور مع الأرض حول الشمس . أو أنها تنطلق في الفضاء لأي وجهة ؟ أو تميل وتترنح كالنحلة أثناء دورانها وجريها ؟ هل يتصور عاقل ذلك .

إذاً فالغلاف الجوى دليل على ثبات الأرض كغيره من الأدلة .

الريح أقوى المخلوقات

هل تستطيع الريح أن تحفظ الأرض بمحتوياتها من أن تضيع في الفضاء ؟

نعم . وذلك لقوة الريح (الهواء) بل إنها أقوى مخلوقات الله .

ولكي نعرف مدى قوة الريح وكيف تثبت الأرض فلا تدور أو تميد ، وكيف تحفظ محتوياتها فإننا نعود مرة أخرى إلى بدء الخلق ، حيث قد خلقت الأرض وخلقت لها الجبال من فوقها وذلك في يومي الدحو (المرحلة الثانية) ثم بعد أربعة أيام تماما .

أمر الله الأرض بعدما دحاها والسماء بعدما بناها أن يأتيا من مكان خلقهما إلى مكان تواجدهما طوعا أو كرها . وأتت السماء والأرض طوعا فوضع الله تعالى الأرض في مكانها هذا للأنام ثم استوى إلى السماء فسواها إلى سبع سموات ، ثم أوحى في كل سماء أمرها من الملائكة ثم زين السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظا .

ولما رأت الملائكة أن الأرض ليست مستقرة كالسموات قالوا ما ذكره رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد عن أنس ابن مالك : " لما خلق الله الأرض جعلت تميد . فقالت الملائكة ما هذه بمقبرة على ظهرها أحد فخلقت الجبال فألقاها عليها فاستقرت فتعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت : يا رب ، هل من خلقك شيء أشد من الجبال ؟ قال : {نعم الحديد} ، قالت : يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال : {نعم النار} قالت : يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار ؟ قال : {نعم الماء} . قالت : يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الماء ؟ قال : {نعم الريح} . قالت : يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الريح ؟ قال : {نعم ابن آدم يتصدق بيمينه يخفيها من شماله} " .

وذكر القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا﴾ يعني الجبال . قال وهب : لما خلق الله الأرض مادت على وجه الماء ، فقال لجبريل : {ثبتها يا جبريل} فترل فأمسكها فغلبته الرياح . قال : يا رب أنت أعلم ، لقد غلبت فيها . فثبتها بالجبال وارساها .

الريح والجبال والأرض

لقد أخبرنا تعالى بأنه أرسى الجبال في الأرض ليثبتها بعد أن كانت تميد فأصبحت قارة ، ثابتة .

ولكن كيف ثبتت الجبال الأرض ؟

عندما خلقت الأرض وكانت بعضها يابساً وأكثرها ماء ، وكان الهواء (الريح) يغلفها ويحيط بها فكانت الأرض تتمايل . وذلك من قوة الهواء المتصرف حولها ورأت الملائكة التي خلقت في اليوم السادس من أيام الخلق هذه الحركة للأرض . فأتى الله تعالى بالجبال التي كان قد خلقها قبل ذلك في المرحلة الثانية من الأيام الأربعة للأرض . حيث قال :

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ(١٠)﴾ (فصلت) فبعد أن كانت الجبال فوق الأرض ، أي فوق غلافها الجوى . ألقاها الله في الأرض . ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ (النحل:١٥) ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ (ق:٧) ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ (لقمان:١٠) .

فالجبال لم تخرج من الأرض بل جاءت إليها ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ (فصلت:١٠) وربطت الجبال عناصر الأرض الثلاث بعضها ببعض .

كيف ؟

سمى الله تعالى الجبال : أوتاد فقال ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا(٦)وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا(٧)﴾ (النبأ) . والوتد وحده إذا ثبت في الأرض فلن يثبتها . إذا فالجبال ثبتت الأرض في شيء آخر ، والعرب تستخدم الأوتاد دائما في تثبيت الخيمة بالأرض .

والغلاف الجوى هنا هو الخيمة التي فوق الأرض . والجبال هي الأوتاد .

ولكن المراد تثبيته هنا ليس الغلاف الجوى (الخيمة) بل الأرض نفسها . فالغلاف الجوى هنا هو الأقوى والأكثر . إذا فالجبال هنا هي الوسيط بين الأرض وعناصرها الثلاثة ، فهي تثبت اليابس والماء بالغلاف الجوى .

لذلك لابد أن يكون الجبل سواء كان في اليابس أو في الماء نصفه مغروس في داخل الأرض والنصف الأخر مغروس في الريح . وعلى هذا فان عناصر الأرض الثلاثة مرتبطة بعضها البعض . (اليابس والماء والهواء) وذلك بواسطة خلق من أقوى مخلوقات الله تعالى بدليل الحديث الذي ذكرناه والذي عدد فيها أعظم وأشد مخلوقات الله ، وبدليل الآية ١٤٣ من سورة الأعراف ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

ودليله أيضا الآية ٢١ من سورة الحشر ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ .

وهكذا جعل تعالى الجبل وهو من أقوى مخلوقاته رابطا بين عناصر الأرض أي بين اليابس والماء وبين الريح التي هي أقوى المخلوقات لأنه ليس غير الجبال التي تتحمل هذا الضغط القوى للريح التي كانت تحرك الكرة الأرضية ، وتجعلها تميد .

الريح والعرش والسموات

قال ابن جرير في تاريخه : سئل ابن عباس عن قوله تعالى : ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ (هود:٧) على أي شيء كان الماء ؟ قال : على متن الريح . فالريح تحمل الماء الذي فوقه العرش أثقل مخلوقات الله . كذلك فسر ابن عباس قوله تعالى ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ (الرعد:٢) قال : لها عمد ولكن لا نراها . أي أن للسموات عمد غير مرئية وليس ذلك – إن كان – إلا الريح (الهواء) كما قيل بأن الله تعالى عندما فتق السماء عن الأرض تم ذلك بالريح .

وقد يشك البعض وخاصة التجريبيون من قوة الهواء هذه ، لذلك سنعرض بعض الأمور التي تفعلها الريح يومياً . والتي لا يختلف عليها اثنان أن الريح هي التي تقوم بها .

* * * * *

الريح تحمل جبالا :

ليست هذه نظرية أو جملة إنشائية ؟ بل هو أمر معروف ومشاهد ولا ينكره أحد ، عالم أو غير عالم . مؤمن أو غير مؤمن ، فالريح تحمل على متنها جبالا .

يقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾ (النور:٤٣) .

والآية تشرح بتفصيل رائع كيف يتحول السحاب إلى جبال من جليد . فإنه تعالى يسوق السحاب ليتراكم بعضه على بعض ، طبقة فوق طبقة ، ثم يتحول إلى ماء فيترل من خلال هذا السحاب الودق (المطر) . ثم قد تتحول هذه السحب المتراكمة إلى جبال في السماء . ولا نقول كما يقول تفسير " المنتخب " أن السحاب يصبح مثل الجبال " فالآية لا تشبه ولا تمثل ، بل تذكر أمرا كونياً يحدث تقريبا كل يوم على مكان ما في الأرض أو (بين السماء والأرض) .

والله تعالى يقول ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ فالجبال معلقة في السماء (الغلاف الجوى) وهي جبال بالفعل لأن ارتفاعها قد يصل إلى عدة كيلو مترات في السماء ، حتى أنها لتمثل خطرا على الملاحة الجوية .

وهذه الجبال الثلجية يحملها الهواء (الريح) ثم يترل منها البرد ، ويخرج من هذا البرد البرق الذي قد يذهب بالأبصار من شد سناه ، ولرحمة الله تعالى فإنه لا يسقط هذه الجبال على الناس كما هي في

السماء ، ولكنه تعالى ينزل ﴿مِنْ جِبَالٍ﴾ أي لا ينزل الجبل كما هو دفعة واحدة ، فهو سبحانه فضلا منه ونعمة ينزل من هذه الجبال بالقدر الذي لا يصيب به الناس فيهلكهم به .

فهل يشك أحد أن في السماء جبال من الثلج ؟ هل يقول عاقل أن الأرض تدور بسرعة ١٠٠٠ ميل في الساعة بهذه الجبال التي في الغلاف الجوى ؟

هل تدور هذه الجبال مع الأرض بهذه السرعة أم تترك الأرض تدور وحدها ؟

وهذه الجبال المرفوعة في السماء . لماذا لا تجذبها الجاذبية إلى الأرض وقانون نيوتن يؤكد ذلك خاصة وكتلتها عظيمة جداً ، فهي جبال ؟؟

إن الذي رفع هذه الجبال عن الأرض من البحار هي الريح ..

والذي يحملها في السماء هي الريح ..

والذي ينزلها إلى الأرض مرة أخرى هي الريح ..

وليس للجاذبية في ذلك دخل . فالريح بأنواعها التي يصرفها الله ومنها الرافعة والحاملة والضاغطة هي التي تفعل ذلك بأنواع منها تسمى (رياح) (سنذكر ذلك في حينه) .

الريح تحرك جبالاً

وكما ترفع الريح جبال الثلج ، وتحملها ، وتسقطها . فإن الريح أيضا تحرك جبالا وهي حقيقة لا جدال فيها .

فالريح تحرك السفن التي هي كالجبال في حجمها وارتفاعها وثقلها ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ (يونس:٢٢) .

لكن هناك جبال حقيقية وليس فقط سفن كالجبال ، بل جبال بالفعل تحركها الريح في البحار والمحيطات ، جبال من ثلج ، وهي جبال ضخمة تنفصل من القارة القطبية الجليدية ثم تطفو على سطح المحيطات ، ويدفعها الريح فتذوب رويدا رويدا لاقترابها من المدارين .

قد تستغرق رحلة الجبال هذه شهورا طويلة قبل أن تذوب . وتبلغ هذه الجبال في بعض الأحيان إلى ١٥ كيلو متراً طولا وكيلو متراً عرضاً . وكيلو ونصف ارتفاعا . والجزء الطافي فوق سطح الماء يبلغ نحو ١/٧ الجزء المغمور .

وقد حسبوا كمية الماء التي يمكن أن تذوب من جبل واحد من الجبال التي تحركها الريح في المحيط ، ويتجه بها إلى منطقة مثل كاليفورنيا ، فوجدوا أنها تكفي لمد مدينة كبيرة مثل مدينة الإسكندرية بمصر بما يكفيها لمدة شهر من الماء العذب .

وهذا الأمر مشاهد بالعين في المحيطات (جبال تحركها الريح) .

الريح تحمل أثقالاً

دون قصد تنبه الناس أخيرا لقوة الريح ، فاستطاعوا أن يسيروا شاحنات عملاقة على إطارات مملؤة بالهواء . في حين لو ملئت بالماء لما تحركت خطوة واحدة ولو استبدلت هذه الإطارات بعجلات من فولاذ فلن تتحرك الشاحنات من مكانها . واستفادت الحضارات الحديثة في حركتها بالهواء .

وفي أعظم حضارة شهدتها البشرية كان الهواء هو أيضا وسيلة المواصلات يقول تعالى : ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ (سبأ:١٢) لم تكن حضارة سليمان عليه السلام من صنع البشر ولكنها كانت عطية الله من أولها إلى آخرها . فقد أوتي سليمان ما لم يؤت أحد من قبل ولا من بعد .

ومما أوتي (الريح) فقد سخرها له تعالى ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ (ص:٣٦) وتحمل جيشه إلى حيث يريد . وذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة ، كالخيل والجمال والخيام والجند ، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته ثم تحمله وترفعه وتسير به ، وتظله الطير تقيه حر الشمس .

وتذهب به الريح إلى حيث يشاء من الأرض ثم تنزل به وتوضع آلاته وجنوده .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس ، ثم يجلس مؤمنون الجن من ورائهم ، ثم يأمر الطير فتظلهم . ثم يأمر الريح فتحملهم " .

وكان الريح تقطع مسافة شهر (١٢٠٠ كم) ذهابا ومثلها إيابا في يوم واحد . وقيل بأن بساط الريح هذا كان من الخشب عليه ٦٠٠ ألف كرسي ، وكان هذا تعداد جيش سليمان من الإنس والجن ، فضلا عن ذلك كان هناك لوازم الجند وغيرها من الدواب والخيام أي كانت مساحته تقريبا ١٥٠ فدان (الفدان ٤٢٠٠ متر) . وكان للريح سرعتان : لينة (رخاء) وسرعة عاصفة (سريعة) حسبما يريد نبي الله عليه السلام . يقول تعالى ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ .

وقال : ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ (الأنبياء:٨١) .

ولابد أن سليمان قد استفاد من هذا التسخير الذي انفرد به من دون العالمين . وجاب الأرض مشرقها ومغربها . ولابد أنه وصل إلى أوربا ، وكذلك أمريكا قبل أن يكتشفها كولوميس بأحقاب طويلة ، إذ عثر في أمريكا على آثار فينيقية (حضارة عهد سليمان ودولته) وتمثل ذلك في آثار على الصخور تبين أسماء الأشخاص الذين وفدوا ، وأسماء البلدان الفينيقية التي نزحوا منها .

هذه بعض الأمور التي يقوم بها الريح دون تدخل من الإنسان ودون أمره وإنما بأمر الله وبتسخيره تعالى .

وهذه بعض التجارب التي تثبت مدى قوة الرياح ، وبالإمكان إجرائها فى المعمل أو حتى في البيت .

الريح أقوى من الحيوانات

هذه التجربة تمت بالفعل في مدينة ماجد برج بألمانيا ، وذلك في ٨ مايو عام ١٦٥٤ م وسط إحتفال مهيب .

فقد جاء عمدة المدينة بنصفي كرة نحاس متطابقين تماماً . قطر كل منها ٣٧ سم تقريباً ، وجعل لكل من نصفى الكرة أربع حلقات لربط الخيل بها بينما وضع في أحد النصفين صنبوراً لتفريغ الهواء من هذة الكرة بعد إنطباق النصفين ثم وضع على مكان التقائهما شريطاً جلدياً مشبعاً بالشمع وزيت الترينتينا لإحكام سد الكرة وعدم تسرب الهواء إلى داخلها .

ثم جاء بستة عشر حصانا . وربط كل ثمانية منهما في نصف كرة ، ثم فرغ الهواء بواسطة المضخة التى سحبت الهواء الذى فى داخل الكرة عن طريق الصنبور .

ثم أرسلت المجموعتين كل فى اتجاه مضاد . ولم يستطيع الستة عشر حصانا من فصل نصفي الكرة إلا بعد محاولة شاقة . وعندما تم لها ذلك بعدما انطلقت بكل ما لديها من قوة انفصل نصفي الكرة ودوت في الجو فرقعة لها دوي كالقنابل .

فها هي الخيل وهي رمز القوة بين كائنات الأرض و١٦ حصانا ، ليس واحدا ولا اثنين ، لم تستطع فصل نصفي كرة في حجم كرة السلة تقريبا ، وذلك لقوة ضغط الهواء الواقع على نصفي الكرة من الخارج وفي نفس الوقت لا يقابلة في الداخل هواء يتعادل معه ، فإنه لو كان لاستطاع طفل صغير من فصل النصفين والتطويح بهما دون بذل جهد .

الريح أقوى من الحديد :

لو غلينا ماء في علبة حديدية ثم أحكمنا إغلاقها ثم صببنا عليها ماء بارداً فإن العلبة ستتجعد كما لو كانت قد طرقت بمطرقة . ثقيلة . والسبب في ذلك هو ضغط الهواء الشديد خارج العلبة والذى لم يجد مقاومة من الهواء بداخل العلبة التي تكثف هواءها إلى ما بسبب التبريد .

هاتان التجربتان أثبتتا قوة الريح وهي ساكن ، أي وسرعتها صفرأما لو تحركت فإن قوتها تتضاعف ، وضغطها يتزايد ، وتصل إلى قوة جبارة لا يقف أمامها شئ
فإنها تكون مدمرة لذا تسمي الريح السريعة : عاصفة وقد قيل أن الريح التي دمرت قوم عاد كانت على قدر ما يمر من الخاتم .

وردت بالقرآن أسماء عديدة لسرعات الرياح : ريح ساكنة ، وريح طيبة ، وريح رخاء ، وريح جارية ، وريح عاتية ، وريح صرصر ، وريح هاوية ، وريح قاصفة ، وريح عاصفة وهي كلها موجودة

داخل الغلاف الجوى ، يدبرها الله تعالى ويصرفها بين عباده لخيرهم أو لشرهم ، لحمايتهم أو لهلاكهم ، لحركتهم أو لسكونهم . لحياتهم أو موتهم .

الريح رمز القوة

ونظرا لقوة الريح العظيمة والتي تعتبر أعظم وأشد القوى في الكون فقد اعتبرها الله عز وجل رمزا للقوة ، فقال : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال:٤٦) أي تذهب قوتكم . هكذا رمز القرآن لقوة الدولة والجماعة بالريح لأنها أقوى ما في الكون . تماما كما نرمز للقوة بالحصان لأن قوته في قدر وطاقة الإنسان . أما الريح فقوتها تفوق كل القوى لأنها من عند الله تعالى .

البحر المسجور

من المعروف أن الأرض عبارة عن كرة مائية يحيط الماء بها من كل جانب إلا قدر الربع فهو يابس ظاهر من الماء . وكون الأرض بهذه الكيفية يقتضي أن يطغى الماء الذي يحيط باليابس عليه . أو أن ينسكب هذا الماء ويتبدد في الفضاء . فنحن هنا على وجه الأرض ومن أسفلنا نصف الكرة الآخر وكله ماء هو البحر المحيط (المحيط الهادي) .

وكان ينبغي أن ينسكب هذا الماء . لكن ذلك لا يحدث والسبب في ذلك ليس للجاذبية وذلك لأن كمية المياه في البحر المحيط كبيرة جدا لا تتحملها هذه الجاذبية التي يتحدثون عنها. وهذه المياه الثقيلة جدا لا يقدر على الاحتفاظ بها ، أو منعها من أن تنفلت أو بمعنى آخر (يحبسها) إلا الريح التي هي أقوى مخلوقات الله .

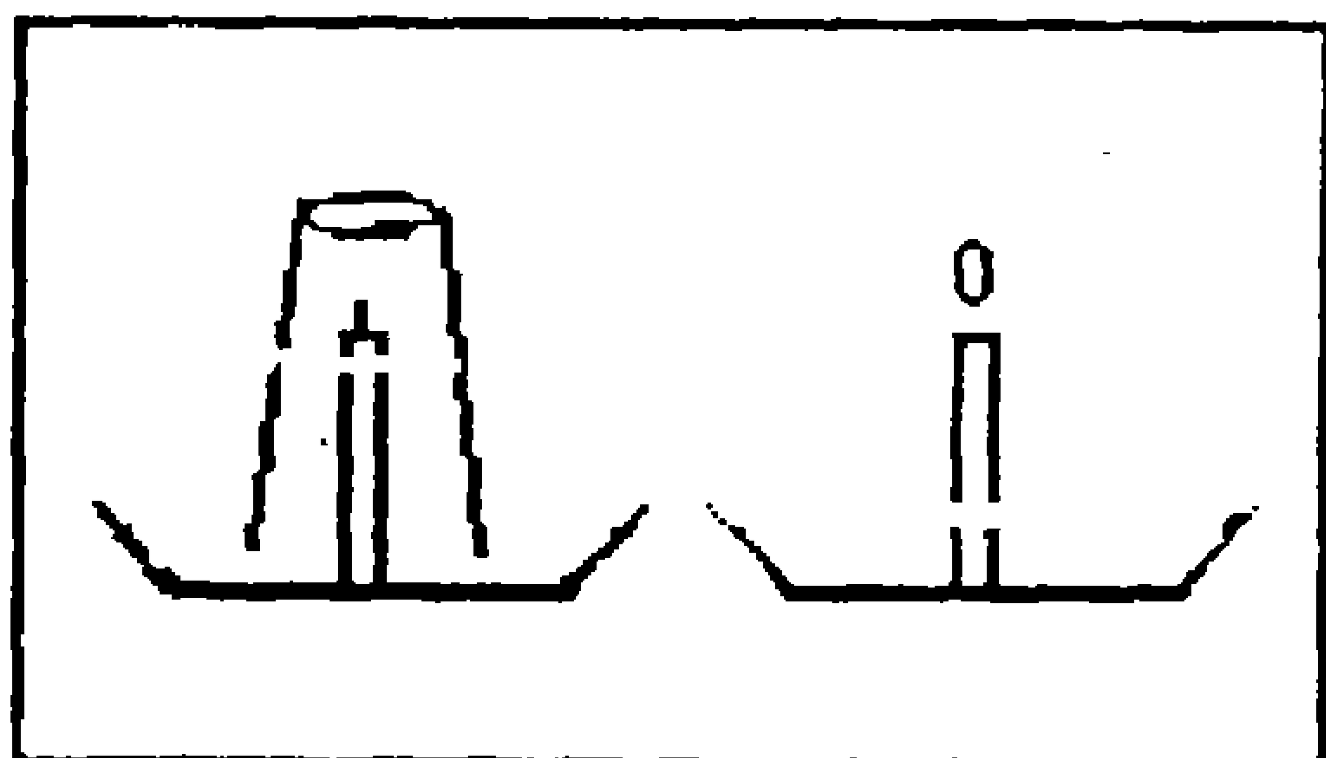
يقول تعالى ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ (الطور:٦) ومعنى المسجور : المحبوس والمكفوف ومن ذا الذي يقدر على حبس البحر بجبروته وعظمته وقوته ، وفي نفس الوقت لا نراه غير الهواء ؟ إذاً فالغلاف الجوى يحبس الماء من الانفلات .

هذه الريح التي هي ذاتها ترفع هذه الأطنان والتي تقدر بالملايين من البحر إلى السماء لتكون سحابا ثم ترجعه السماء (الغلاف الجوى) مرة أخرى إلى الأرض . وهذه الريح هي ذاتها التي تحمل في السماء هذه الأنهار . وهي ذاتها التي تسير هذه الأطنان من المياه في السماء .

وبالإمكان إجراء تجربة بسيطة وسهلة تثبت أن الهواء هو الذي يحمل ، ويحبس الماء وليست الجاذبية . فلو أتينا بكوب مملوء بالماء وغطينا الكوب بورقة بحيث لا يدخل الهواء من خلالها إلى الكوب ثم قلبناه . فإن الماء لا ينسكب وإنما يظل محبوساً داخل الكوب . والذي فعل ذلك هو الهواء رغم أن الكوب مقلوب فوق الأرض ، فلماذا لا تجذب الأرض الماء إليها رغم أنه قدر قليل وليس بحراً .

ومن المعروف تجريبيا أننا لو وضعنا كوب ماء في حجرة مفرغة من الهواء ثم كشفنا عنه بعد عدة ساعات فلن نجد في الكوب ماءً ذلك أن الهواء هو الذي كان يحبس الماء .

هناك تجربة ثالثة أبسط من السابقة ولا تحتاج إلى تفريغ هواء من غرفة بكاملها ولكن نفرغ هنا الهواء فقط من الكوب فقط . وهي تجربة سهلة ممكن إجرائها دون تكلفة أو جهد يذكر . فلو أتينا بطبق مسطح وبه قدر من الماء ، ثم وضعنا بالطبق قطنة مشتعلة أو شمعة ثم قلبنا فوقها كوب فإن القطنة أو الشمعة ستطفئ وسنجد فقاعات هواء تخرج من أسفل الكوب ثم سنجد وبسرعة أن الماء الموجود بالطبق قد ارتفع في الكوب إلى نصفه أو أكثر أو أقل بحسب تدفئة الهواء الموجود بالكوب المقلوب .



كيف ولماذا ارتفع الماء الموجود بالطبق في الكوب ؟

لقد حدث ذلك نتيجة لتفريغ الكوب من الهواء وذلك لأنه عندما انقلب على الشمعة فإن الهواء الموجود داخل الكوب تم تدفئته فخرج جزء كبير منه لارتفاع الضغط داخله ، ثم عندما تنطفئ الشمعة سيبرد الهواء مرة أخرى ثم يقل ضغطه في داخل الكوب بأقل من الضغط خارجه فيندفع الماء إلى الكوب بتأثير ضغط الهواء خارجة .

قد يقول البعض أن ارتفاع الماء داخل الكوب حدث نتيجة احتراق الأكسجين من الهواء أدى إلى تقليل كمية الهواء فاستعاض ذلك بالماء . وهذا ليس صحيحا لأن الأكسجين يشغل ١/٥ الهواء فقط . ومن ثم سيشغل ١/٥ الكوب فقط لو كان الأمر كذلك ، ولكننا نجد أن الماء يصل في الكوب إلى نصفه وكلما أعطينا تدفئة أكثر للهواء داخل الكوب زاد ارتفاع الماء .

وفكرة المرذاذ أو (البخاخة) تعتمد على ضغط الهواء فيخرج الماء من داخل (البخاخة) على هيئة رذاذ .

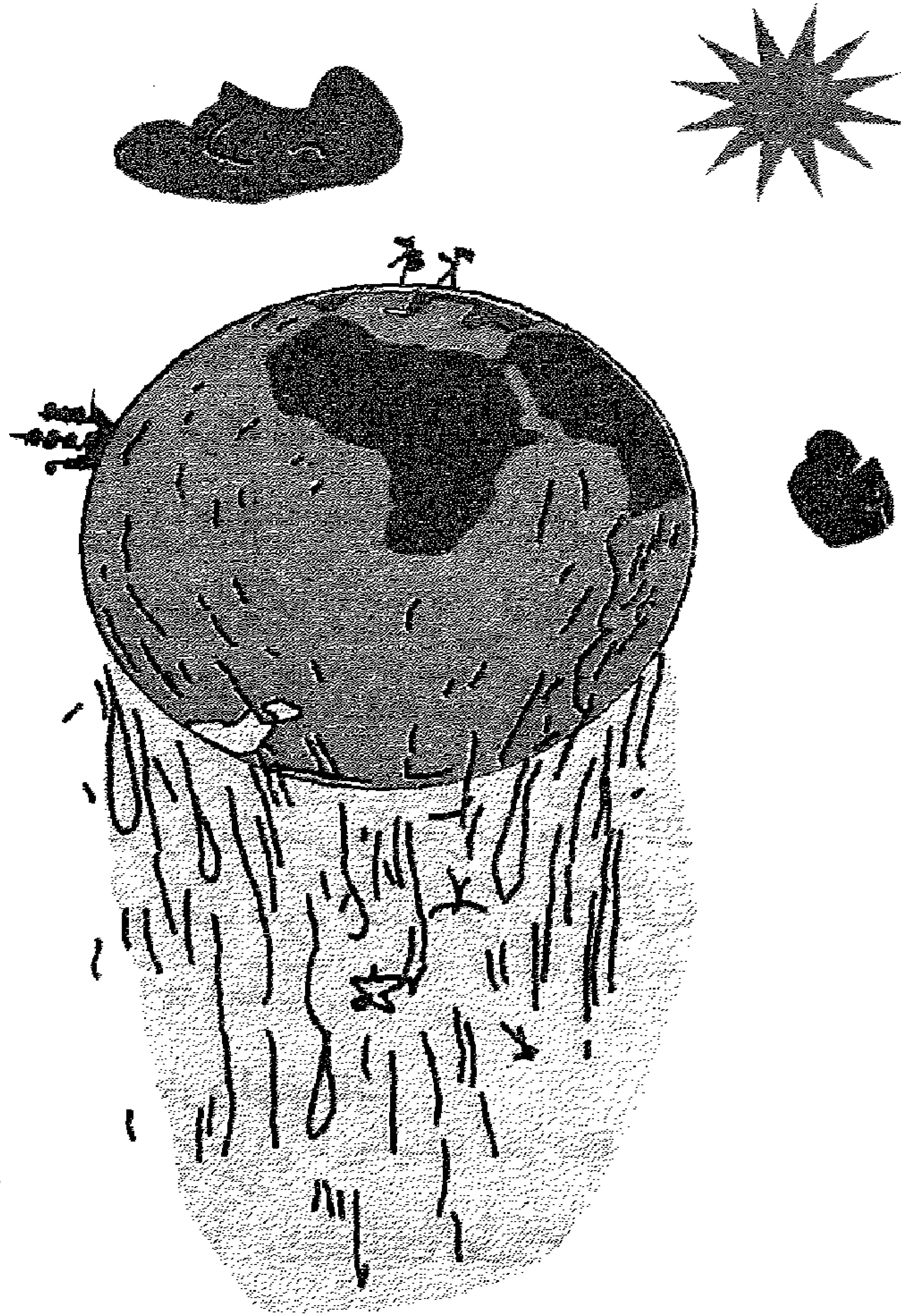
* * * * *

وفي الكتاب المقدس دليل لا يقبل التأويل ، على أن الغلاف الجوى هو الذى يحبس البحر تماماً كما يقول القرآن . وكما ذهب إلية التفسير الذى يفسر البحر المسجور بالبحر المحبوس .

فى سفر أيوب جاء ما يلى فى الفصل الثامن والثلاثين :

(أين كنت حين أسست الأرض ... ومن حجز البحر بمصاريع حين أندفع فخرج من الرحم .. إذ جعلت السحاب لباسة ، والضباب قماطة . وحزمت علية حدى ، وأقمت لة مغاليق ومصاريع ، وقلت لة : إلى هنا تأتى ولا تتعدى . وهنا تتخم كبرياء لججك ...) .

فالبحر محبوس بالغلاف الجوى ، أي بالريح . أما تلاطم أمواجة فمن الرياح التى يصرفها عز وجل بين السماء والأرض وبحركة الرياح وهبوبها يتحرك ماء البحر فتكون الأمواج .



المد والجزر

كانت ظاهرة المد والجزر هي دليل جاليليو الوحيد على دوران الأرض فقد كان يقول : " ما هو الذي يجعل البحار تضطرب مياهها بين مد وجزر وهي في أحواض ؟ " فاستنتج من ذلك دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس وقد كفانا زملاؤه الرد على هذا الاستنتاج فقد توصلوا إلى أن المد والجزر لا علاقة لهما بدوران الأرض . وتأكد لهم ذلك بأدلة ذكروها . غير أنهم ذهبوا إلى أن المد والجزر إنما يحدثهما الشمس والقمر بجاذبيتهما . يقول الدكتور جوده حسنين جوده في كتاب معالم سطح الأرض :

" يتحرك سطح البحر بين ارتفاع وانخفاض مرة كل نصف يوم تقريبا . وهذه الحركة تبدو واضحة على الخصوص بجوار السواحل . ويعرف أقصى ارتفاع يبلغه سطح البحر بالمد ، وأدنى انخفاض باسم الجزر . وتنشأ ظاهرة المد والجزر عن قوى جذب القمر والشمس للمياه .

فالمياه بطبيعتها تستجيب لقوى جذب الأجرام السماوية البعيد منها والقريب ، ولكن جذب النجوم ضئيل جدا نظرا لبعدها الشاسع عن المسطحات المائية على الأرض ولا يكاد يتأثر به سطح البحر . وتأثير القمر أقوى من تأثير الشمس في ذلك لبعد الشمس عن الأرض . ويقتصر تأثير الشمس على تقوية تأثير القمر أو إضعافه في إحداث المد والجزر . وتستجيب مياه البحار والمحيطات جميعا للقوى التي تحدث المد والجزر فكل قطرة من ماء المحيط من قاعه إلى سطحه تتأثر بتلك القوى . وهي بهذا تختلف عن قوى الأمواج فهذه الأخيرة تحدثها الرياح " .

" وهناك عدة عوامل تتدخل لتجعل حركة المد والجزر أكثر تعقيدا مما يظن . فتأثير الشمس والقمر في تغير مستمر تبعا لتباين أوجه القمر، ولاختلاف بعد القمر والشمس عن الأرض ، كذلك لتفاوت موقع كل منهما إلي الشمال أو الجنوب من الدائرة الاستوائية . ويتباين مدى ارتفاع المد تباينا كبيرا في مختلف جهات بحار العالم ، فقد يعلو ويرتفع في جهة ما إلي حد كبير بينما يضمحل ولا يكاد يحس به أحد في بقعة أخري قد لا تبعد عن الأولى كثيرا " .

إن المد والجزر لا علاقة لهما بالقمر ولا بالشمس ولا بغيرهما وواضح ذلك مما أورده الدكتور في فقرته الأخيرة تلك . هذا فضلا عن أننا أبطلنا قانون الجاذبية من أساسه وأثبتنا أن الأجرام السماوية لا تتحرك بالجاذبية ولا يوجد أصلا شيء اسمه الجاذبية .

ولكن هل يوجد فعلا مد وجزر في البحار والمحيطات؟

نعم يوجد . إذاً فما الذي يحدث المد والجزر؟

الذي يحدث المد والجزر : هو البحر ذاته . ودليلنا أيضا معتمد على الوحي وهذا أمر طبيعي لأنني من المؤمنين بالغيب .

فقوله تعالى ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ (الطور:٦) يفيد أنه محبوس ، وممنوع ، ومكفوف أي لو انفلت من محبسه لأغرق اليابس كله لكروية الأرض .

وكذلك ما ورد بالكتاب المقدس يؤيد ذلك ، ويفصله كذلك .

بل واضح من آيات الكتاب المقدس خطاب الله للبحر وهو يحد له مكانا هو منتهى مده ، وأقصى ارتفاعه لا ينبغي أن يتعداه : " وقلت له : إلى هنا تأتي ولا تتعدى . وهنا تتخم كبرياء لججك " . فما رأيكم أيها المؤمنون بالقرآن والإنجيل والتوراة .

كما ورد إلينا حديث رسول الله ﷺ رواه عنه عمر بن الخطاب وذكره الأمام أحمد في مسنده " ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرت يستأذن الله أن ينفضح عليهم فيكفه الله عز وجل " .

ضغط الهواء سبب الوزن

فإن كان الهواء هو الذي يحبس ما في الأرض من الانفلات ، وهو أيضا الذي يرفع أطنانا من الماء إلى السماء ، وهو كذلك الذي يحمل جبالا من الثلج في السماء .

فالهواء أيضا هو السبب في أن يكون للأشياء وزن على الأرض ، وذلك بحسب كتلتها وأيضا بحسب وجودها في الارتفاع المناسب من الغلاف الجوى ، ومنطقة الضغط المرتفع على الأرض هي تلك الطبقة اللصيقة بالأرض .

أما أعلى من ذلك أي بعد ٧ كم تقريبا فإننا نكون في منطقة ضغط منخفض بل إننا نكون في منطقة الريح الحامل لذلك نرى بعض الرياضيين يترلون من طائرات ويسبحون في الهواء الذي يحملهم . يحدث ذلك ولا تجذبهم الأرض بجاذبيتها . في هذه المنطقة يخف الوزن بل يتلاشى لأنها منطقة (ريح حامل) وهي إحدى تصريفات الرياح أما لو نزلوا إلى أسفل قليلا فإنهم سيهرون ساقطين إلى الأرض وبسرعة الريح ، لذلك يدركون أنفسهم بفتح مظلاتهم إذا ما وصلوا إلى هذه الطبقة من الغلاف الجوي . يقول تعالى ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج:٣١) .

وإذا خرجنا من الغلاف الجوى فإننا أيضا نفقد الوزن ، ونسبح في الفضاء ولكن ليس هنا لأن الريح تحملنا ، فليس هنا ريح بل لأننا نفتقد في الفضاء الريح بكل أنواعها . وفي كتاب الله تعالى آية واضحة تدل على أن الوزن في الأرض بسبب الريح وليس الجاذبية .

يقول تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣)﴾ (الشورى) والجوار : السفن الجارية في البحر كالأعلام : كالجبال . وقوله تعالى ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ أي يقفن ثوابت طافيات على ظهر البحر .

لقد تغيرت أمور كثيرة ، وعظيمة بمجرد إسكان الريح . لقد أصبحت الآية ٣٣ على النقيض من الآية ٣٢ لمجرد أن سكن الريح فتحول ﴿الْجَوَارِ﴾ أي السفن الجارية إلى ﴿رَوَاكِدَ﴾ : أي ثابتة طافية . ويتحول اسم البحر إلى اسم آخر فهو في الآية ٣٢ ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ وفي الآية ٣٣ ﴿عَلَى ظَهْرِهِ﴾ لقد تم هذا الانقلاب والتحول بسكن الريح .

يقول تعالى في سورة فاطر ١٢ ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ فالسفن تمخر الماء أي تشقه فهي في البحر . أما عند إسكان الريح فإنها رواكد وليس في البحر وإنما على ظهره . وقد قلنا أن قوله تعالى (في الأرض) أو (في البحر) إنما يعنى أن الأرض لا تسمى أرضا إلا باليابس والماء والهواء فعندما فقد الهواء لم تعد أرضا ولا بحرا بل مجرد ظهر.

ويؤكد ذلك قوله تعالى في آخر سورة فاطر أيضا : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ (فاطر:٤٥) .

تأتى كلمة (الظهر) مرة أخرى هنا في الحديث عن الأرض ولكنها لا تسمى أرضا ولكن ظهراً تماما كما تحول البحر بسكن الريح إلى ظهر . ولكن فرق بين هذه الآية والآية الأخرى التي تتحدث عن البحر . ففي آية البحر سكن الريح فتحولت السفن إلى رواكد وتحول البحر إلى ظهر . أما في آية الأرض فالله تعالى لا يخبر أن ما على ظهرها سيركد إنما سيزال بالكلية . فلو أزيل الغلاف الجوى فلن يبقى على ظهرها دابة ستبدد كلها في الفضاء . وسيتبدد الماء الذي يحبسه الغلاف الجوى وسيأخذ معه دواب البحر من أسماك وغيرها .

إذاً فبمجرد إزالة الغلاف الجوى ورفعه عن الأرض سيحدث أمران غاية في الأهمية :

الأمر الأول : لن يبقى على ظهر الأرض شيء .

الأمر الثاني : لن تبقى الأرض أرضا . فتصبح مجرد ظهر . ﴿عَلَى ظَهْرِهَا﴾ وتتحول من (في الأرض) إلى ﴿عَلَى ظَهْرِهَا﴾ إن هذه الآية هي الآية الوحيدة التي تذكر الأرض بلفظ (الظهر) وتذكر معها ﴿عَلَى﴾ وليس (في) .

والآية السابقة (٣٣ الشورى) هي الوحيدة التي ذكرت البحر بلفظ ﴿عَلَى﴾ وليس (في) و " الظهر " وليس (البحر) . وهذه لسكن الريح والأولى لإزالته . وسنعود لهذه الآية مرة أخرى لنؤكد هذا المعنى وذلك بعد ذكر البر والبحر .

في البر والبحر

ونحن عندما نقول بأننا نتواجد في البر والبحر ونسير بوجود الريح ويكون لنا وزن بالريح ، إنما نقصد من ذلك أن عمل الريح هو أسلوب الله في العمل أو أسلوبه تعالى في الحفظ . وليس ذلك لأن الريح هي السبب والمسبب . لكن الحقيقة أن الله تعالى هو المسبب وهو الممكن وهو المسير . وقد اجتمع ذكر البر والبحر في(٧) آيات في كل القرآن تؤكد أن الفاعل الحقيقي لكل شي يحدث في البر والبحر ، إنما هو الله تعالى :

(١) ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (الإسراء:٧٠)

(٢) ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ (يونس:٢٢)

(٣) ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (النمل:٦٣)

(٤) ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ (الإنعام:٦٣)

(٥) ﴿جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (الإنعام:٩٧)

(٦) ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الإنعام:٥٩)

(٧) ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (الروم:٤١) .

فهذه الآيات السبع ، وهي فقط التي اجتمع فيها البر والبحر – وقد علمنا قبل ذلك أن البر ٧ قارات وأن البحر ٧ أبحر ، غير البحر العظيم الذي هو المحيط الهادي – ذكر كلاهما مع الحرف (في) ما عدا الآية ٦٣ من الأنعام ذكر الحرف (من) وذلك لأن الله تعالى يمتن فيها على عباده بأنه وحده الذي ينجيهم من الظلمات (ظلمات البر والبحر) . ومن الآيات السبع نجد ثلاث آيات منهن في سورة واحدة هي سورة (الأنعام) وذلك لأن الأنعام هي أيضا من وسائل الحمل في البر ووسائل التسيير .

يقول تعالى ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ (النحل) .

ومن الآيات نعلم أن الله تعالى هو الذي : يحملنا في البر والبحر ، وهو الذي يسيرنا في البر البحر ، وهو الذي ينجينا في البر والبحر ، وهو الذي يهدينا في البر والبحر ، وهو تعالى يعلم ما في البر والبحر .

أما نحن فمن الآيات نعلم أنه ليس لنا من الأمر شيء إلا الفساد . والإفساد في البر والبحر . أما عن الجاذبية فليس لها وجود البتة .

ونلاحظ أن الآيات لم يذكر فيها مع البر والبحر " الجو " ولا يعنى ذلك أن الجو خارج من نطاق عمل الله بالحمل والتسيير والهداية والنجاة والعلم . ولا أن الإنسان لم يفسد فيه كما أفسد البر والبحر ، ولكن ذلك يعنى أن الجو هو الرابط للبر والبحر وأنه متضمنهما وذلك لأن الله تعالى قال (في) ولم يقل على فقال (في البر والبحر) ففي هنا تعنى أننا عندما نسير على اليابس فنكون في البر لأن تحتنا اليابس وفوقنا الغلاف الجوى ، وعندما نسير في البحر فنكون أيضا فيه أي بين الماء والهواء . ولو سكن الريح في البحر يصبح (على ظهره) ولو أزيل من البر لأصبح (على ظهرها) .

فأين الجاذبية ؟

أين الجاذبية أيها المخاطبون بالقرآن ؟ ائتوني بآية أو حديث عن الجاذبية وأنا أتبعكم .

الوزن على القمر

لم يقل تعالى أنه هو الذي يسيرنا على القمر ولا في الفضاء . وهذا يعنى أمرين :

الأول : لا سير على القمر ولا وزن في الفضاء .

الثاني : غير مسموح لنا بمحاولة السير في غير الأرض .

وقد يعترض البعض قائلين : كيف يمنع البحث العلمي وغزو الفضاء والصعود على القمر ولماذا نترك غيرنا من الغربيين يفعل ذلك وحده .

فنقول أننا لم نترك غيرنا ليفعل ذلك وحده ، فليس لنا المقدرة على المنع والترك وإنما نحن عاجزون الآن عن أن نفعل مثلهم ولو قدرنا فلن نبحث أبداً في الحرام والحلال ، في المباح والمحظور : فلم يعد البحث العلمي تمنعه هذه المصطلحات الشرعية ولا تعنيه . كذلك لا يعتبر هذا بحثا علميا ، بل إن من أقل المؤسسات إفادة للبشرية هي المؤسسات الفضائية ، على رغم أنها الأكثر على الإطلاق في نفقاتها ، حتى إن ميزانيتها لا تعدلها ميزانية ترصد لمؤسسة من المؤسسات اللهم إلا أن تكون وزارات الدفاع . ثم إن البحث والسير والحمل والهداية والنجاة تقتصر على الأرض برها وبحرها وجوها والغلاف الجوى يعتبر من الأرض وتسرى عليه الأمور السابقة أما خارج الغلاف فلا سير ولا حمل ولا هداية ولا نجاة ..

ولكن ﴿شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ (الرحمن:٣٥) ولكن شهب ورجز وحجارة ورياح شمسية ومخاطر لا حصر لها ولا عد .

وقد وردت أحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ رواها البخاري في تاريخه ، ومالك في موطأه وغيرهما ، أحاديث تمنع ركوب البحر إن بدت مخاطره ، فقد روى البخاري عن زهير بن عبد الله يرفعه " من ركب البحر إذا ارتج فقد برئت منه الذمة " وفي رواية " فلا يلومن إلا نفسه " .

وذكر مالك أن عمر كان يمنع الناس من ركوب البحر حتى كان عثمان فما زال معاوية يستأذنه حتى إذن له " .

فإن كان هذا في البحر الذي فيه الحمل والتسيير والهداية والنجاة فما بالنا بالفضاء والقمر وغيرهما من الكواكب وقد علمنا مخاطرها ، وإنما فقط السباحة في الفضاء والعودة إن عادوا وهذا لأنه عرف عن أهل الغرب أنهم يقحمون أنفسهم في المخاطر من أجل الدنيا ومن أجل الذكر وهم لا يؤمنون بقوله تعالى ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة:١٩٥) .

وعموما فإذا كانوا هم لم يستفيدوا من رحلاتهم إلى القمر وسيرهم عليه وصعودهم إلى الفضاء وسباحتهم فيه ، فإننا قد استفدنا عندما رأينا آيات الله تعالى تتحقق وما كنا نقرأه قراءة ، أصبح أمامنا واقعا . كيف ضلوا في الفضاء حيث منع الله الهداية فيه ، كيف هلكت أنفس وقد منع الله النجاة فيه ، كيف أنهم كانوا يسبحون سباحة حيث منع الله السير فيه ، وكيف أنهم كانوا معلقين في الفضاء رؤوسهم وأرجلهم سواء . لا اتجاهات ولا وزان ولا حمل حيث منع الله الحمل فيه وإنما كان السير والهداية والنجاة والحمل في البر والبحر فقط . ورأينا بأعيننا كيف كان القمر مجرد ظهر تماما كما قال تعالى : ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ إننا لم نتحقق من هذه الآية مثلما شاهدنا بأعيننا رجال الفضاء وهم يسيرون (على سطح القمر) وليس في القمر كما كانوا (في الأرض) .

وكيف أنهم تماما كما قال ربنا ﴿رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ لولا أنهم استعانوا ببعض هواء الأرض الذي كانوا يحتفظون به في ملابسهم المصنوعة خصيصا لمحاولة السير على ظهره ، والذي لولاه لما خطوا خطوة واحدة على ظهره .

فرغم هذا الهواء الذي حملوا قدرا منه ولولا ما يحملونه على ظهورهم من أنابيب الأكسجين ، وحللهم المكونة من ١٥ طبقة وأحذيتهم التي ثقلت بالمثاقيل . رغم كل ذلك لم تستقر أقدمهم على ظهره . وكانوا يسبحون عليه سباحة ولم يتحملوا الاستقرار على ظهره أكثر من دقائق معدودة .

رغم طول الرحلة وتكاليفها الباهظة ، فإنهم أرونا آية بليغة ، كيف أنهم لم يُمكنوا من القمر كما مكنوا من الأرض كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ كما أثبت لنا أهل الفضاء أنه لا شيء اسمه الجاذبية ، وإنما التمكين في الأرض فلم يمكنوا من القمر ولم يسيروا عليه بسهوله ويسر لأنهم لم يجدوا على القمر ريح أي هواء . وبالتالي لم يتحركوا اللحظات التي تحركوها إلا بالهواء الذي جلبوه معهم من الأرض . ورغم عدم صعودنا على القمر إلا إننا على ثقة أن القمر ليس فيه أي جاذبية وما قالوه أن به مقدار ١/٦ جاذبية الأرض فليس له أساس من الصحة . إنما هذا السدس الذي وجدوه – إن كان ذلك صحيحا – فقد كان بتأثير هواء الأرض الذي استعانوا به في ملابسهم وأنابيب تنفسهم . أما الحقيقة فإنَ القمر ليس فيه ولا له أي جاذبية وإنما قدر ضئيل جدا من الضغط من فوقه بحيث يسمح ببقاء ذرات التراب علي سطحه .

وحتى لو سلمنا بهذا القدر الذي قالوا به أن الوزن فوق القمر ١/٦ الوزن على الأرض فإن هذا القدر أيضا يبطل قانونهم الذي كان ينبغي بناء عليه أن يكون للقمر ١/٤ جاذبية الأرض وهو ليس كذلك . ولا ينبغي أن يكون للقمر أي جاذبية ليظل متحرراً دائرا في فلكه حيث سخره الله تعالى لذلك . ونحن لا يمكن أن نعتمد على أي معلومة أتى بها من صعد إلى القمر ، فإنهم لم يتمكنوا منه ليعلموا وإنما كل ما فعلوه أنهم صوروا الجزء المحيط بهم الذي نزلوا فيه من أرض القمر .

وقد تعددت رحلات المركبات الفضائية إلى القمر إلى حوالي ست رحلات ولم يضف من صعدوا إليه لنا أي جديد . ونحن من هنا على الارض نخبرهم أن القمر ليس عليه أي جبال ولا أي براكين ولا مياه ولا هواء ولا بحار ولا وديان ولا شيء من ذلك لأن ذلك من مكونات الأرض والقمر غير الأرض زلا يحقر أحدكم شأننا فراعى الغنم فينا أعظم علما من كل رجال الفضاء . فهذا رجل بسيط راعى غنم ، ساكن الخيم ، حافي القدم .. ولكنه عالم . عندما سئل عن وجود الله قال : " وي أغائب ليستدل عليه . إن البعر يدل على البعير . وإن الأثر يدل على المسير . وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج وسماء ذات أبراج ألا يدل كل ذلك على وجود اللطيف الخبير " .

أما جاجارين أول رائد فضاء والذي كرمه العالم أجمع عندما عاد من رحلته التي كانت أول خطوة للإنسان خارج الأرض قال للعالم أجمع " . لقد كنت أشعر في سفينة الفضاء وكأنني في بيتي . وبحثت عن الله فلم أجده " فهذا الرائد : جاهل والأعرابي أعلم منه .

والقمر ليس وحده الخالي من الغلاف الجوي وإنما كل الكواكب كذلك خالية تماما من الهواء ، ومن الماء ، ومن أي مظهر من مظاهر الأرض ، فلا جبال ولا براكين ولا وديان ولا انهار ولا بحار . فالكواكب ليست للسكني . وإنما هي مصابيح في السماء . هل يسكن أحد في مصباح ؟

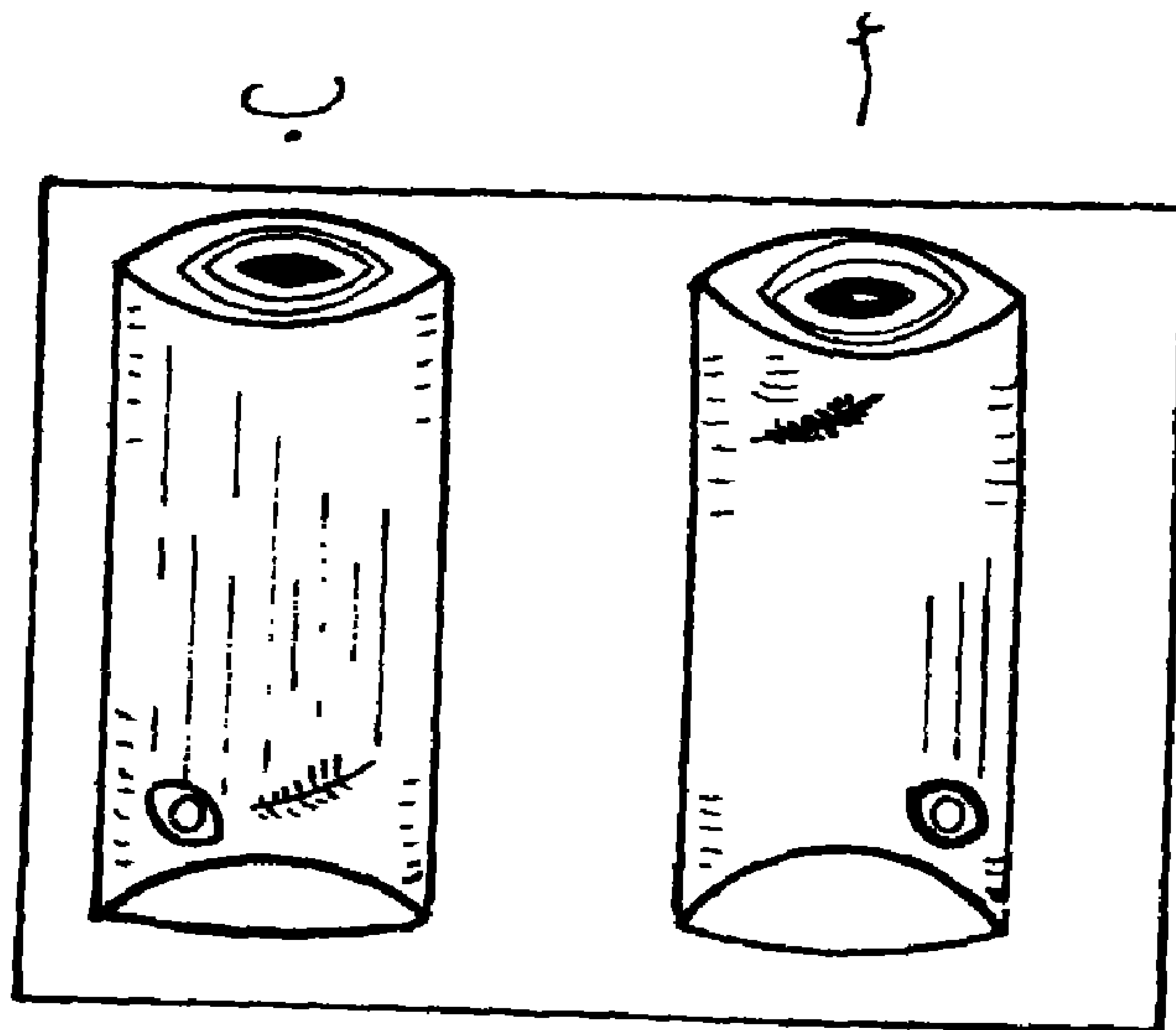
ثم هذه تجربة عملية نسوقها استدلالا علي أن الوزن وعدمه مرتبط بوجـــود الهـــواء وعدمــــه ، ولا علاقة بين ما يسمونه الجاذبية . ودليلنا هذا نقدمه لأولئك الذين لا يؤمنون إلا بـــالمعمل والتجربـــة ولا علاقة لهم بالوحي . هذه التجربة تثبت أن الأوزان تنعدم عند انعدام الهواء .

يقولون : أن الكتلة هي مقدار ما يحتويه الجسم من مادة . والجسم الأكبر يحتوي على مـــادة أكـــبر من تلك التي يحتويها الجسم الأصغر ، وأنه كلما زادت كتلة الجسم زادت قوة جذب الأرض لـــه ممـــا يؤدي إلى زيادة سرعة سقوطه ومن ثم فإن الجسم الثقيل يسقط فعلا قبل الجسم الخفيـــف مادامـــا قـــد سقطا معا من نفس الارتفاع .

وهذا كلام لا غبار عليه ، ولكننا لكي نتأكد تماما وبصورة تجريبية مادية لا علاقة لهـــا بـــالقرآن ولا الإيمان ، فلو أتينا بقطعة نقود معدنية وريشة طائر ووضعناهما في أنبوبة طويلة مخلخلة من الهواء (مفرغـــة من الهواء) فعندما تضع الأنبوبة في وضع رأسي نجد أن قطعة النقود وريشة الطائر يصلان معـــا في نفـــس اللحظة إلى الطرف السفلي للأنبوبة إي أنهما يسقطان سقوطا حرا بنفس العجلة المنتظمة .

فمن المتسبب للوصول إلى هذه النتيجة ؟ الهواء . أم الجاذبية ؟

إن الأنبوبة موجودة على الأرض ولم يتخلف في التجربة إلا الهواء . فالهواء إذاً هـــو الـــذي يعطـــى الأشياء أوزانها المختلفة حسب كتلتها وحسب الضغط الهوائي الواقع عليها .



أ : أنبوبة بها هواء ، تسقط فيها العملة قبل الريشة .

ب : أنبوبة مفرغة الهواء ، تسقط الريشة والعملة معا .

من المعلوم أيضا أن ضغط الهواء هو الذي يعطي للسوائل شكلها الانسيابي والذي يتحدد بشكل الإناء الذي توضع فيه . ولو سكبنا ماء في غرفة مفرغة الهواء سنجد الماء يأخذ أشكالا كروية ولا يتساقط على الأرض (هذا إذا نجحنا في سكبه) .

كما أننا نستعين بضغط الهواء كل لحظة نشرب فيها وإن كنا لا ندرى ، فإننا عندما نشرب نقرب الكوب أو الملعقة المحتوية على السائل من الفم ثم نرتشف السائل منها ، والواقع أن ارتشاف السائل بهذه الطريقة البسيطة التي اعتدنا عليها يحتاج إلى أن نوسع القفص الصدري وبذلك تخلخل الهواء الموجود في الفم ، وتحت تأثير الضغط الجوى يندفع السائل إلى الفراغ الذي يكون فيه الضغط أقل وبذلك يدخل إلى الفم .

وهنا يحدث للسائل نفس الشيء الذي يحدث له في الأواني المستطرقة إذا خلخلنا الهواء فوق أحد الأواني المذكورة لأن السائل سيرتفع في هذا الإناء تحت تأثير الضغط الجوى . وعلى العكس من ذلك . لو وضعنا عنق الزجاجة في فمنا وأردنا أن نرتشف منها الماء لما استطعنا القيام بذلك مهما بذلنا من جهد ، وذلك لأن الهواء في داخل الفم يساوى ضغط الهواء الموجود في الزجاجة فوق الماء .

كذلك يستفيد الجسم من داخله بضغط الهواء . ففي بعض مفاصل الهيكل العظمى للجسم يوجد فراغ بين المفاصل وبعضها . والمفصل الحاقفي للإنسان أشبه في تركيبه بنصفي الكرة التي قام الخيل بفصلهما عن بعضهما البعض في التجربة التي ذكرناها سابقا ، حيث لا وجود للهواء في الفراغ الموجود بين المفاصل مما يحافظ هذا على تماسك الجسم تماما كتماسك نصفي الكرة بعد التفريغ . فهكذا يعمل الضغط الجوى على تلاحم عظام حوض الإنسان ويمنعها من الانفصال عن بعضها .

قدر ضغط الغلاف الجوى :

يضغط الغلاف الجوى على كل الأرض وكل شيء فيها وعلى أجسامنا بضغط مقداره ١٤.٦ رطلا على البوصة المربعة من الجسم . ومن الأرض . والأكسجين الذي نتنفسه جزء من الريح وهو جزء من هذا الضغط ، وهو بمعدل نحو ٣ أرطال على البوصة المربعة من الأرض أو ما عليها .

* * * * *

ظهر الأرض

وردت كلمة الظهر في القرآن أكثر من مرة ، بأكثر من معنى :

* جاءت بمعنى الظهور والبيان بعد الخفاء والغموض ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ (التحريم:٣) ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ .

* وجاءت بمعنى المساندة والمساعدة ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ (القصص:١٧) .

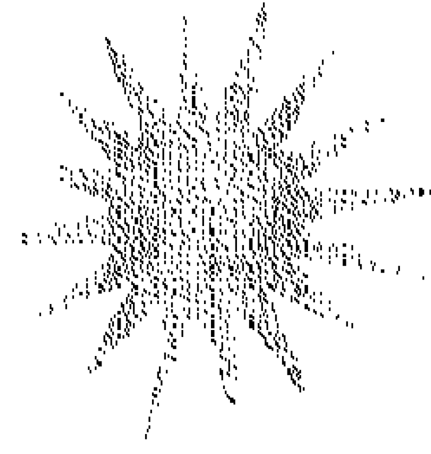
* وجاءت بمعنى الجزء من الجسم المقابل للبطن ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ (التوبة:٣٥) ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ (الزخرف:١٣) .

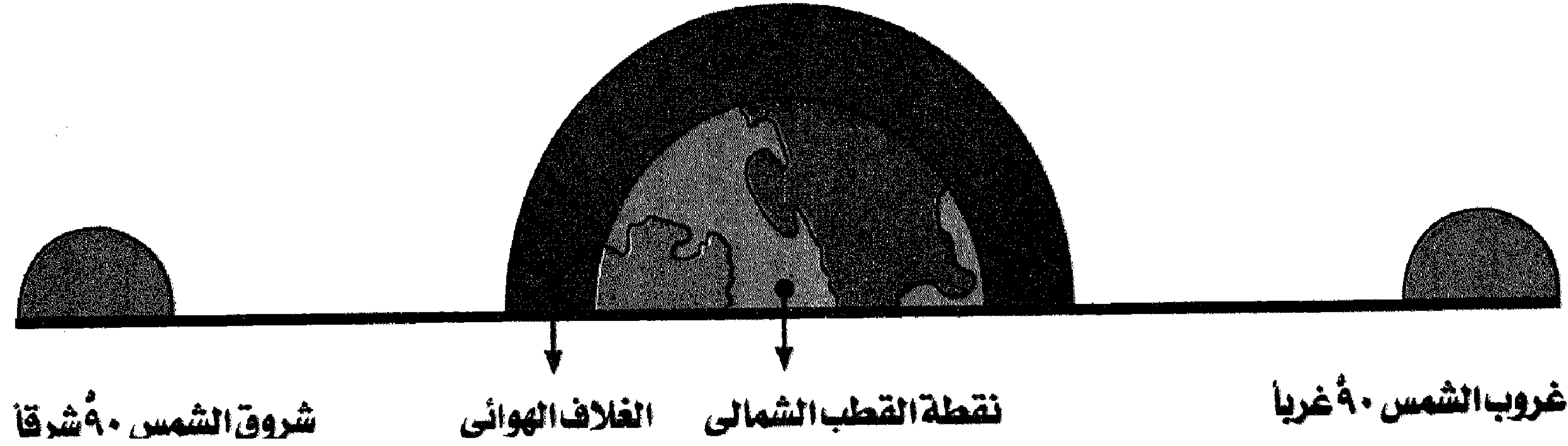
* وجاءت بمعنى وقت الظهيرة الذي هو منتصف النهار ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ (النور:٥٨)

وعلى هذه المعاني تدور كلمة (الظهر) في القرآن ، ولكنها تنتهي جميعا إلى معنى واحد هو : الظهور والعلو .

ووقت الظهيرة بالنسبة للشمس عندما تكون فوق الأرض أي تعتلى ظهر الأرض بمعناها الذي ذكرناه (يابس ، ماء ، هواء) فلا يكون الوقت ظهيرة بالنسبة لي إلا إذا كانت الشمس في أعلى نقطة في مدارها ، أي أعلى ارتفاع لها ، فعند ذلك لا يكون بيني وبين الشمس العمودية على رأسي أي درجات قوسية ، أي تكون الشمس عند نقطة الصفر ، بحيث يمتد خط مستقيم من الشمس إلى رأسي إلى مركز الأرض . ويتلاشى ظلي تماما . عندها نسمى هذا الوقت " وقت الظهر أو وقت الظهيرة " ذلك لأن الشمس تكون على ظهر الأرض – بالنسبة لي – أما عندما تكون الشمس في الأفق الشرقي أو الغربي فهي تكون بعيدة عنى ٩٠ درجة قوسية ، وهذا يعنى أن بيني وبين الشمس ٩٠ درجة من الغلاف الجوى ، ذلك الذي يكسر حدة الشمس لأن الغلاف مشبع ببخار الماء ، وتبدو الشمس لي أكبر من حجمها ، ويتغير لونها إلى اللون البرتقالي بينما وهي فوق رأسي كانت عند نقطة الصفر أي لا يحول بيني وبينها غلاف جوى فتبدو لي بيضاء أو صفراء وأصغر من حجمها ولن أستطيع النظر إليها لأن الغلاف الجوى (صفر) ولا يكسر من حدتها .

والشمس بهذه الصفة وبهذا الوضع هي التي يراها الذين يخرجون من الأرض إلى الفضاء ، فهي ترى أشد ما تكون إضاءة وإشعاعها سواء نظرنا إليها من الفضاء أو من فوق سطح القمر أو من أي مكان في السماء مع فرق بسيط بين رؤيتي لها ظهرا على الأرض ورؤيتي لها في الفضاء هو أنني أراها في الفضاء بهذا الشكل ولكن على صفحة سوداء تماما من السماء ، وذلك في أي وقت من الأوقات .




غروب الشمس ٩٠ْ غرباً
نقطة القطب الشمالى
الغلاف الهوائى
شروق الشمس ٩٠ْ شرقاً

لنتزل إلى الأرض ولنر الشمس فيها ، وكيف تكون الشمس ظهيرة أي على ظـهر الأرض ، يعنى فوق اليابس والماء والهواء ، رغم أنها دائما تدور حول الأرض وأنها في كل وقت فـوق الأرض وفـوق غلافها الجوى .

نقول إن الأمر كذلك فالشمس في كل ثانية من الزمان تكون فوق الأرض ظـهيرة ولكنـها متى تكون ظهيرة بالنسبة لنا ؟ فالشمس بالنسبة لكل واحد منا تكون ظهيرة لوقت ما أي عندما تكون فـوق الرأس تماما ، عمودية عليها بحيث تكون صفرا في موقعها فوقى ، فإذا كانت عند الغروب كـان بيـني وبينها ٩٠ درجة فإن كانت في منتصف الليل - بالنسبة لي أيضا - فيكون بيني وبينها ١٨٠ درجـة ، فإن بدأت في الشروق كان بيني وبينها ٢٧٠ درجة وهذا إذا قسنا من ناحية الغروب ، أما مـن ناحيـة الشروق ذاتها فيكون بيني وبينها ٩٠ درجة فإذا ما ارتفعت مرة أخرى فوق رأسي فتكون فوقـى ٣٦٠ درجة هذا إذا حسبت لها من الأمس . أما إن بدأت الحساب من اليوم فأنها تكون في نفس الثانيـة مـن الوقت عند درجة الصفر . وهكذا .

ولكن ينبغي أن نعلم أن الشمس لا تكون ظهيرة - بهذا المعنى - إلا لسكان ما بين المدارين . فـإن هؤلاء تأتى عليهم خلال العام هذه اللحظة وذلك الوقت الذي يكون الراصد والشمس ومركـز الأرض على خط مستقيم . أي أننا لو مددنا خطا من الشمس إلى مركز الأرض فإن شعـاع الشمس سـيتزل على أم رأس الراصد ليمر من بين قدميه إلى مركز الأرض . ويحدث هذا الأمر لسكان ما بـين المداريـن وقتين من السنة مرة أثناء ذهاب الشمس إلى أحد المدارين ومرة عند عودتها منه .

ومن ثم فإن الشمس لا تتعامد فوق رأسي أبدا لأنني في الإسكندرية . ولكنها تتعامد علـى سـكان مدينة أسوان التي هي جنوب الإسكندرية بحوالي ١٠٠٠ كم والتي يمر فوقها مـدار السـرطان وبـين الإسكندرية وأسوان ٧ درجات قوسية .

هذا من الناحية الحسابية الرياضة والهندسية والفلكية . أما من الناحية العلمية والواقعيـة والوقتيـة فلكل منا (ظهيرة) أيضا حتى لو كنا عند نقطة القطب ويكون الأمر كذلك عندما تكـون الشـمس في أعلى نقطة من القوس من فوقي بالنسبة لمدارها .

لذلك نقول بأن مدار الشمس دائري تماما وليس كما يقولون إنه بيضي أو إهليليجي بـل دائـري كامل الاستدارة . وبعدها عن الأرض واحد من كل مكان فيها فهي كرة كاملة الاسـتدارة ، ليسـت بيضاوية ولا مشطوفة القطبين ولا كمثرية ولكنها مثل الكرة .

فعندما تكون الشمس فوق رأسي وأنا في الإسكندرية ، أي في كبد السماء لا أستطيع النظر إليها ولا حتى من خلال " نظارة شمسية " فإن ساكن شنغهاي في الصين يستمتع بشكلها البرتقالي ، وهو ينظر إليها وهي تغرب ، بينما هي فوق رأسي تماما (أي في كبد السماء لا عمودية لأنها لا تتعامد على سكان الإسكندرية) وفي نفس الوقت أيضا يستمتع بشكلها البرتقالي ساكن جزيرة برمودة ، وينتظر شروقها ساكن نيويورك بأمريكا . ولا أراها غاربة إلا عندما تكون ظهيرة على جزيرة برمودة ولا أراها مشرقة إلا إذا كانت فوق شنغهاي أي عليهم ظهيرة .

فهكذا ، الشمس تكون في مكان واحد وعلى بعد واحد لكن تكون بالنسبة لسكان الأرض مختلفة الوقت والشكل والحجم لاختلاف درجات الغلاف الجوى الذي بيننا وبين الشمس .

ومهما كانت الشمس يمينا أو شمالا منا فبيننا وبينها دائما درجات من الغلاف الجوى ، أو بخار الماء الذي يغير من شكلها وحجمها .

وللتأكد من ذلك الأمر ننظر في كوب ماء به عملة نقدية ، فإذا نظرنا في الكوب من فوق أي عموديا عليه نرى قطعة النقود صغيرة وإذا نظرنا من الجنب أي أفقيا نراها كبيرة .

كذلك الأمر بالنسبة للشمس . فنراها كبيرة عند الأفقين لكثافة الغلاف الجوى المشبع ببخار الماء والذي يكون بيننا وبينها وكلما زاد تشبع الهواء ببخار الماء كلما كان قرص الشمس أكبر وكان لونها أجمل وأوضح .

فالهواء (الغلاف الجوي) إذاً هو الذي يغير من حجم وشكل الشمس والقمر والنجوم والكواكب خلال دورهم حول الأرض .

وفي الشكل السابق الشمس وهي ظهيرة على الراصد الواقف في الإسكندرية وهي في الغروب تكون فوق جزيرة برمودة بالمحيط الأطلنطي ، ثم وهي في الشروق تكون فوق شنغهاي في الصين .

سيتغير شكل الشمس لو كان الراصد في شنغهاي أو في برمودة فكلاهما سيرى قرص الشمس المتوهج فوق الإسكندرية برتقالي اللون دون أي شعاع ، مشرقا على برمودة مغربا على شنغهاي بينما هي ظهيرة على الإسكندرية .

من كل ما سبق نجد أن ظهر الأرض هو فوق غلافها الجوى . أما على سطح اليابس أو سطح الماء فلا يعتبر على الأرض وإنما فيها لذلك يقول الله تعالى ﴿فِي الأَرْضِ﴾ ويقول ﴿فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أما لو انتفت خصيصة الغلاف الجوى فستتغير صفة واسم الأرض إلى الظهر وتتحول ﴿فِي﴾ إلى (على) .

ولعل أقرب مثل في القرآن لهذا الأمر هو أمر الزوجة . إذ أن من أهم خصائص الزوجة هي أن تكون سكنا لزوجها وأن تكون ولوده . لذلك اعتبر رسول الله ﷺ أفضل النساء : الودود ، الولود . والودود هي التي يسكن إليها زوجها . قال تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم:٢١) .

فالمرأة بذلك ثلاثة عناصر كالأرض فيابسها جسدها وماءها إنجابها وهوائها سكنها ولو تخلف عنصر من هذه العناصر لا تصبح زوجة بل مجرد امرأة تماما كما تتحول الأرض إلى مجرد ظهر .

وواضح هذا في القرآن عندما يذكر الزوجة بهذه الصفة (زوج) وأحيانا يذكرها بمجرد (امرأة) رغم أنها متزوجة .

فيقول تعالى عن الزوجة : ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (البقرة:٣٥) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (الأحزاب:٢٨) .

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ (الزخرف:٧٠) .

وأما عن الزوجة إذا انتفت منها خصيصة من خصائصها فيقول الله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١)﴾ (التحريم) .

فهؤلاء ثلاثة أزواج ومع ذلك فلم يعتبرهم الله أزواجا لانتفاء خصيصة أو أكثر من خصائص الزوج لزوجه . فامرأة نوح وامرأة لوط كانتا كافرتين خائنتين فلم تكونا سكن لزوجيهما . فتحولت من زوجة إلى مجرد ﴿امْرَأَتَ﴾ .

وامرأة فرعون كانت هي مؤمنة وزوجها كافر فلم تعد تصلح لأن تكون سكن له لاختلاف الدين والعقيدة فلم تعد لفرعون زوجة بل مجرد امرأة له . أي هي في عصمته مجرد امرأة لا زوجة وكذلك كان الأمر في امرأة نوح وامرأة لوط .

وعند فقد خصيصة الإنجاب يقول تعالى ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ (مريم:٥) فهذا عن زوجة زكريا العاقر . أما عن زوجة إبراهيم التي كانت كذلك فيقول تعالى ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (الذاريات:٢٩) .

كذلك كانت زوجة عزيز مصر في زمن يوسف عليه السلام ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (يوسف:٣٠) .

أما في عدم صلاحية الجسد فيقول تعالى ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ (آل عمران:٣٥) . وقد كانت مؤمنة مع مؤمن ، وكانت ولودا ولكن فقدت الزوج فلم تعد زوجة . وكذلك الأمر ، سواء بسواء .

على الأرض

آيات القرآن تبلغ حوالي ٦٢٢٥ آية . ذكرت الأرض فيها ٤٦٠ مرة وذكر ﴿في الأرْضِ﴾ ٢٢٠ مرة . أي حدث أو فعل أو حركة فيكون ﴿في الأرْضِ﴾ غير أن القرآن ورد فيه ﴿عَلَى الأرْضِ﴾ ٣ مرات فقط في كل القرآن .

فهل يعنى ذلك أن الغلاف الجوى أزيل في هذه المرات الثلاث ؟

لا ... ليس الأمر كذلك وإلا لقال تعالى (على ظهرها) أما وقد ذكر لفظ الأرض فلا تكون كذلك إلا بغلافها الهوائي (الريح) . إذا يبقى أن يكون معنى ﴿عَلَى الأرْضِ﴾ فوق غلافها وهذا صحيح .

ولكي نتأكد من ذلك ، نتأمل الآيات التي ذكر فيها ﴿عَلَى الأرْضِ﴾ سنجد آية تتحدث عن أسوأ خلق الله . والثانية عن أفضل خلق الله . والثالثة تتحدث عن أجمل خلق الله .

(١) يقول الله تعالى عن الصنف الأول ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (نوح:٢٦)

(٢) وعن الصنف الثاني يقول ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ (الفرقان:٦٣)

(٣) وعن الثالث يقول ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا﴾ (الكهف:٧) .

ولنتناول هذه الآيات آية آية :

قوم نوح

كانت أمة نوح عليه السلام أول أمة تكفر بالله . وقد بينت أحاديث الرسول ﷺ أن بين آدم ونوح عشر قرون كانت كلها على الإسلام ولم تستغرق دعوة رسول من الوقت ما استغرقته دعوة نوح عليه السلام لأمته ولم يلق رسول أذى من قومه كما لقي نوح من أمته ، وكانت عاقبة ذلك أنهم كانوا أول أمة تعاقب من الله تعالى . فكان جزاؤهم أن أبيدوا جميعا من الأرض . وعلى رغم أن أمة نوح كانت أول فئة من البشر يكفرون بالله . ولم يسبقهم إلى الكفر أحد . وعلى الرغم من أنهم كانوا قريبو عهد بميلاد البشرية فقد عانى نوح في سبيل إرجاعهم إلى الرشد عناء شديدا ، ولم يترك في سبيل ذلك طريقاً إلا سلكه ولا أمراً إلا فعله معهم .

يقول تعالى في سورة نوح ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ . ولم يجاهد فيهم نوح سنة ولا عشر ولا حتى خمسين سنة وإنما كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا﴾ (العنكبوت:١٤) .

ولم يقتصر رد قوم نوح على دعوته بالفرار والاستكبار ، بل تعدى ذلك إلى الاستهزاء ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (هود:٢٧) . والسخرية ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ والسب ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ (القمر:٩) وأيأسوه من أنفسهم باستعجالهم العذاب ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .

كل ذلك ونوح صابر محتسب ، طوال الألف سنة إلا خمسين عاما ، لم ييئس منهم . وتنفيذا منه لأمر الله . حتى وصل الأمر بهم إلى أن هددوه بالرجم ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (الشعراء:١١٦) .

وهنا شكا نوح إلى ربه ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء) ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (هود:٣٦) . ولما علم نوح من ربه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، دعا عليهم جميعا بالدعاء المذكور بالآية التي نحن بصددها : ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ .

بكل المعاناة التي عاناها مع قومه دعا نوح . وبكل سنين دعوته الكثيرة .. دعا نوح وبكل غضبه على الكافرين دعا نوح ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ أي يا رب غلبت أنا ، وأنت لا تغلب فانتصر لدينك ﴿لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ .

قال محمد بن كعب ومقاتل والربيع ابن انس وابن زيد وعطية : إنما قال هذا حين أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم ، وأرحام نسائهم . وأعقم أرحام النساء وأصلاب الآباء قبل العذاب بسبعين سنة .

قال قتادة : لم يكن فيهم صبي وقت العذاب . ومعنى ديارا : ساكن الديار . يعني : لا تترك أحد . وقد علل نوح دعائه بقوله : ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ وذلك بعدما علم أن أحدا من قومه لن يؤمن .

فلما دعا نوح بهذا الدعاء واستصر ربه بقوله ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ قال تعالى ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ لقد استجيبت دعوة نوح . والآيات تصور كيف أغرق الله الأرض بمن عليها .

وهذه الآية ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ هي دعوة لنوح عليه السلام وليست تقريرا لأمر حدث . كما أن نوح عليه السلام لم يقصد بدعوته هذه أن يرفع الله الكافرين خارج الكرة الأرضية (اليابس والماء والهواء) وإنما قصد نوح اليابس ومن المعروف من آيات القرآن أن لفظ الأرض يطلق عليها كلها أو جزء منها .

والدليل على أن نوحا عليه السلام لم يقصد الأرض بجميع عناصرها بل قصد فقط اليابس الذي يبنى عليه الديار لذلك قال ﴿لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي من ساكني الديار . يريد نوح من الله تعالى أن يبيدهم عن أخرهم فلا يبقى منهم أحد على اليابس . وقد استجاب الله تعالى لدعوة نوح فأبادهم جميعا حتى أقرب الناس إليه . ورفعهم جميعا على اليابس بالطوفان الذي أغرق الأرض كلها ولم تعد الأرض إلا كرة من الماء . فقد ارتفع الماء إلى أعلى الجبال وبذلك يتحقق لنوح أن يموت كل سكان الديار حتى لو كان على قمم الجبال .

الأرض الآن يابس فوقه الماء فيه كل سكان الأرض ، المؤمنين على سطح الماء في سفينة والكافرين في داخل الماء الذي كان عبارة عن أمواج كالجبال .

الأرض الآن كلها كرة من الماء ، والماء فقط ، وفوق الماء سفينة تحوى كل سكان الكرة الأرضية من البشر والحيوان والطير . ورغم أن السماء كان ينهمر منها الماء ، والأرض عليها موج كالجبال إلا أن سكان السفينة لم يصابوا بأذى ولم يشعروا بانهمار من فوقهم ، ولا موج كالجبال من تحتهم . لم يكن الماء يترل على السفينة . كانت السماء كلها من كل الجهات تترل ماء وبانهمار شديد وقد كانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة في حياة هذا الكون التي يترل فيها الماء من السماء مباشرة وليس من السحاب .

كما أن السفينة لم تكن بقوة ومتانة سفن هذا العصر وإنما كانت مجرد ألواح من الخشب ممسكة بعضها ببعض بمسامير ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ ولكن هذه الألواح كانت هي الوحيدة على

الأرض التي لم تتأثر بالطوفان العظيم وذلك لأمرين : الأول : أن السفينة يحرسها الله تعالى ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ والثاني : أن الذين كانوا فيهما : عباد الرحمن .

عباد الرحمن

إن زال الإشكال الذي قد بدا من الآية السابقة بسهولة لأننا عرفنا مصير قوم نوح وأنهم بالفعل أبيدوا جميعا فلم يعد لهم أثر في الأرض ولم يعودا حتى أثراً بعد عين كغيرهم من الأمم والحضارات فقد اختفوا تماما من الأرض ، دفنوا تحتها ، أكلتهم حيتان البحر وطيور الجو . لا ندرى . المهم أنهم كانوا في الأرض ثم لم يعودوا فيها ولا عليها .

لقد تحقق ذلك بالفعل . رغم أنها كانت دعوة لنوح . ولكن دعوة الأنبياء مجابة . أما هذه الآية الثانية فإنها الأعجب . حتى تصبح هي الوحيدة في القرآن التي بهذا الشكل المغاير لأن الآية تقرر أن الله عز وجل ذاته هو الذي يقص علينا نبأهم . وهو تعالى الذي أخبرنا في ٢٢٠ آية أن السير والمشي والسعي وأي حركة إنما تكون ﴿فِي الأرض﴾ ولكن هذه الآية لا تتحدث عن حدث عادى بل عن المشي وهو الذي ذكره الله تعالى بأنه يتم في الأرض ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ (الإسراء:٣٧) و(لقمان:١٨) ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ (طه:١٢٨) و(السجدة:٢٦) ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ (الملك:١٥) ﴿وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان:٧) ﴿وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان:٢٠) . وغيرها من الآيات فالمشي هنا ﴿فِي﴾ سواء في الأرض . أو الأسواق ، أو المناكب ، أو المساكن . وسواء كان في البر أو البحر . والمشي هو حركة الحيوان على الأرض ، على أثنين أو أربع ، أما السير فهو المشي في الأرض أيضاً ولكن مشى للسفر وبوسيلة ما . يقول تعالى أيضا عن السير في القرآن ﴿يسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ ورد ذلك في ٧ آيات في كل القرآن (يوسف :١٠٩ ، الحج :٤٦ ، والروم :٩ ، فاطر:٤٤ ، غافر :٢١- ٨٢ ، محمد :١٠) .

أما الأمر ﴿سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ فقد ذكر أيضا ٧ مرات في القرآن كله (آل عمران :١٣٣ ، الأنعام:١١ ، النحل : ٣٦ ، النمل : ٦٩ ، العنكبوت :٢٠ ، الروم :٤٢ ، سبأ : ١٨) .

ويلاحظ في هذه الآية التي فيها الأمر بالسير ﴿سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ جاءت في سور بأسماء حيوانات في أربع منها وحيوانات مختلفة (أنعام ، نحل ، نمل ، عنكبوت) وسورتين باسم دولتين (سبأ والروم) ثم سورة لإحدى العائلات (آل عمران) بما يتناسب مع (السير) .

أما السعي فهو بنفس معنى المشي أيضا لكن بهمة وسرعة . جاء السعي أيضا ﴿فِي الأَرْضِ﴾ كقوله تعالى ﴿سَعَى فِي الأَرْضِ﴾ (البقرة:٢٠٥) ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا﴾ (المائدة:٣٣،٦٤) .

لذلك تأتي هذه الآية فريدة في القرآن كله ﴿يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ﴾ (الفرقان:٦٣) فهي إذا آية خاصة لحالة خاصة ، لفئة خاصة .

نعم نحن مع فئة خاصة من البشر ، انفردوا من دون خلق الله بأن قرن ذكرهم بالرحمن وإن كان قد قرن لفظ الجلالة " الله " مع أشياء أخرى ..

﴿أرضُ الله﴾ ﴿نَاقة الله﴾ (بيت الله) أما ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ فهؤلاء وحدهم الذين تشرفوا بهذا النسب . وواضح تماما أن كل ما ذكر منسوبا إلى الله تعالى له خصوصية وتميز لا يشركه شيء أو أحد فيه فكل منهم واحد ليس له مثيل أو نظير في الوجود فليس في الكون كله أرض كهذه الأرض والله تعالى هو الذي أوجدها . وليس في الأرض كلها بيت إلا البيت الحرام الذي تم بناءه بتكليف خاص من الله . وكذلك أرض الله وناقة الله فليس لهما مثيل أو نظير في الكون كله .

كذلك هؤلاء النفر من الناس الذين اقترن ذكرهم بلفظ ﴿الرَّحْمَنِ﴾ الذي لم يشركهم فيه أحد . فهم فئة متميزة ، لهم خصوصية لم تكن لغيرهم فقد نسبهم الله لنفسه وقرنهم باسمه ، بل بأول وأخص أسمائه عز وجل .

وهؤلاء لم ينالوا هذا الشرف إلا مكافأة على أعمالهم . والجزاء من جنس العمل لقد كانوا دائما مع الله ، ليل نهار ، في قولهم وأعمالهم . في سكناتهم وحركاتهم في نومهم ويقظتهم ، لم يتركوا حالة من حالاتهم ، ولا وقتا من أوقاتهم إلا كان الله تعالى في تفكيرهم وفي قلوبهم .

إنهم كانوا لا ينامون بالليل كما ينام كل خلق الله ، بل كانوا ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ .

وكانوا يخافون الله كما لم يخافه بشر ، ولم يغتروا بعبادتهم على كثرتها ودائما ما يدعون الله أن يصرف عنهم عذاب جهنم وكأنه واقع بهم لا محالة .

إنهم لا يأتون الكبائر : فلا يشركون ، ولا يقتلون ، ولا يزنون ، ولا يشهدون الزور . كما انهم لا يقترفون حتى الصغائر ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ .

كما أن آيات الله تنفعل في نفوسهم بما لم تنفعل به نفوس غيرهم . وهم حريصون أشد الحرص على أزواجهم وذرياتهم ليس حرصا دنيويا كغيرهم ، وإنما حرصا أخرويا .

ثم هم دائما يدعون ربهم أن يميزهم عن غيرهم ويجعل لهم خصوصية ينفردوا بها﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ فأعطاهم الله ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

وهو تعالى يجازى من جنس العمل واستجاب تعالى لدعائهم وجعلهم متميزين على كل الناس ، متقدمين على كل الناس وتأتي مكافأة الله لهم فيذكر بعضها ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (الفرقان) .

هذا جزاء هذه الفئة وهو على عظمته ليس بأعظم من شرف نسبهم الذي بدء به ذكرهم . فهكذا بدء ذكر هذه الفئة بهذه العطية التي لا تعدلها عطية ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ ثم ختم ذكرهم بما أعده لهم في جنات النعيم ، وهذا كما قلنا أول كتابنا ليس كل ما أعد لهم فهذا جزء بسيط أما حقيقة ما أعده الله لهم فلم يذكره ليكون مفاجأة سارة لهم :

﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة:١٧) .

نأتي إلى قوله تعالى ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ فهل يعني ذلك أنهم يمشون فوق الغلاف الجوى ؟ إن الله تعالى يقول ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾ (الأنعام:٨٣) كما أن الله تعالى يرفع الذوات وليس فقط الدرجات ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ (الأعراف:١٧٦) .

لذلك أعتقد – والله أعلم – أن هؤلاء بالفعل يمشون فوق الغلاف الجوى ، كرامة لهم ومكافأة من الله أن جعل الهواء كله بالنسبة لهم مضغوطا تحتهم وحولهم وليس فوقهم وذلك لقوله : ﴿هَوْنًا﴾ فكثافة الهواء كلها تحت أقدامهم ، فكأنما يضعون أرجلهم في الهواء وليس في الأرض ، وأنهم متصلون من فوقهم بالله ، بالرحمن . دائما الله في ذكرهم ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة:١٥٢) دائما أبواب السماء الخاصة بهم مفتحة لأعمالهم . دائما الملائكة يكتبون لهم أعمال ويصعدون لله بها . فاتصالهم بالسماء مستمر ، حتى بالليل والناس نيام ، هم موصولون بالسماء ، فهم دائما فوق الأرض . ولا يعني ذلك أنهم لا وزن لهم إذا وضعوا على الميزان بل إن لهم وزن جسدي كغيرهم . ولكن يختلفون عن غيرهم في اتصال الروح الدائم بالسماء .

إن من المعلوم أن الأرواح تصعد إلى الله تعالى في حالة النوم وحالة الموت يقول تعالى ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الآخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الزمر:٤٢) وأحيانا ينام عباد الرحمن وهم ساجدون ، فتحدث هنا عجيبة ، إذ أن الله تعالى يتوفى أنفسهم في هذه اللحظة – لأنه يتوفى الأنفس في منامها – فيقول تعالى لملائكته : { انظروا يا ملائكتي إلى عبادي أروحهم عندي وأجسادهم في الأرض ساجدة } .

فهؤلاء العباد رفعوا فوق الأرض ، كرامة لهم . وهناك من خسف الله بهم تحت الأرض فهم يتجلجلون فيها حتى الآن .

أخرج ابن أبي شيبه وبن المنذر وبن أبي حاتم والحاكم وصححه وبن مردوية عن ابن عباس قال في قوله تعالى ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ (القصص:٧٦) قال : كان ابن عمه وكان يتبع العلم حتى جمع

علما فلم يزل في أمره ذلك حتى بغى على موسى وحسده ، فقال له موسى : إن الله أمرني أن آخذ الزكاة . فأبى ، فقال : إن موسى يريد أن يأكل أموالكم . جاءكم بأشياء فاحتملتموها فتحتملون أن تعطوه أموالكم ؟ فقالوا : لا نحتمل فما ترى ؟ فقال لهم : أرى أن أرسل إلى بغي من بغايا بني إسرائيل ، فنرسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها . فأرسلوا إليها فقالوا لها : نعطيك حكمك على أن تشهدي على موسى أنه فجر بك قالت : نعم .

فجاء قارون إلى موسى . فقال : اجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك قال : نعم . فجمعهم فقالوا له ما أمرك ربك ؟ قال : أمرني أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وأن تصلوا الرحم ... وكذا وكذا وأمرني إذا زنى وقد أحصن أن يرجم . قالوا : وإن كنت أنت ؟ قال : نعم . قالوا : فإنك زنيت . قال : أنا ؟ فأرسلوا للمرأة فجاءت . فقالوا : ما تشهدين على موسى فقال لها موسى : أنشدك بالله إلا ما صدقتي .

قالت : أما إذا نشدتني بالله فإنهم دعوني ، وجعلوا لي جعلا على أن أقذفك بنفسي وأنا أشهد انك برئ . وأنك رسول الله . فخر موسى ساجدا يبكي . فأوحى الله إليه : ما يبكيك ؟ قد سلطناك على الأرض فمرها فتطيعك .

فرفع رأسه فقال : خذيهم ، فأخذتهم إلى أعقابهم . فجعلوا يقولون : يا موسى يا موسى . قال : خذيهم . فأخذتهم إلى ركبهم . فجعلوا يقولون : يا موسى يا موسى . قال خذيهم . فأخذتهم إلى أعناقهم فجعلوا يقولون : يا موسى ، يا موسى . قال : خذيهم . فغشيتهم .

فأوحى الله : يا موسى . سألك عبادي وتضرعوا إليك فلم تجبهم ، وعزتي لو أنهم دعوني لأجبتهم " .

قال ابن عباس : وذلك قوله ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ (القصص:٨١) خسف به إلى الأرض السفلي .

وهذا هو الفرق بين أولياء الله وغيرهم . بين عباد الرحمن وغيرهم . فهو تعالى يرفع أولياءه ، ويخسف بأعدائه .

زينة الأرض

هذه هي الآية الثالثة والأخيرة التي ذكرت ﴿عَلَى الْأَرْضِ﴾ . والتي قلنا أنها تتحدث عن أجمل خلق الله . عن الزينة . يقول تعالى في الآية رقم ٧ من سورة الكهف : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا

لِتَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ وقد أتبعها تعالى بقوله ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ وهذه الآية أيضا تعنى الأرض بكل عناصرها (اليابس ، الماء ، الهواء) .

ومما لا شك فيه أن فوق الغلاف الجوي زينة يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (الحجر:١٦) والزينة هنا هي الكواكب التي ذكرنا أنها ١١ كوكبا بنفس عدد كلمات آية الكهف التي نحن بصددها . فهذه زينة على الأرض .

هناك أيضا زينة أخرى داخل الأرض وهي كل شيء جميل على الأرض ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ﴾ ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ (الحديد:٢٠) ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ .

فلأن الزينة امتدت من السماء إلى الأرض فقد ذكرت على الأرض ثم إن هذه الزينة الأرضية إلى زوال ، فليست هي الأساس والأصل ، تماما كزينة المرأة التي تزول بقليل من الماء ويبقى الأصل . يقول تعالى ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَملاً﴾ (الكهف:٤٦) .

ثم أن جميع زينة السماء والأرض ستباد ، وتتناثر الكواكب ، وتزلزل الأرض بمن عليها ليبقى العمل الإنساني الذي من أجله زينت السماء والأرض .

* * * * *

من عجائب الريح

لا يقتصر دور الريح أو الغلاف الجوي على حفظ الأرض ومحتوياتها من التفلت في الفضاء ، ولا على احتفاظ الأجسام بأوزانها . ولكن الغلاف الهوائي له أعمال كثيرة ، لا تعد ولا تحصى . ولعلنا لم نكتشف جميع خصائصه وذلك لأننا لم نوليه اهتماما ، وشغلتنا الجاذبية أو سرقتنا منه . غير أن هناك أمور واضحة تماما لا تقوم حياة الكائنات على الأرض أو ﴿فِي الأَرْضِ﴾ بدونها . ولم تكن لتقوم لولا أن ميز الله الأرض بهذا الغلاف الجوى .

منها أن الكلام لا يتم إلا في وجود غلاف جوى ، وكذلك السمع ، والشم ، والرؤية ، أي لا يمكن عموما للحواس أن تعمل إلا من خلال الريح (الهواء) . كذلك لا يختلف اثنان على أن أول فائدة للريح أنها مرتبطة بالحياة ، فهي توأم الروح فلو فقدت الريح لتبعتها الروح . فورا فالإنسان – وكل الكائنات – لا تستغني عن الهواء أكثر من ثوان . لأنها تعيش عليه كل ثانية . هذا الهواء الذي يمد القلب باحتياجاته منه فتجد عدد ضربات القلب في اليوم ٨٦٤٠٠ ضربة أي بنفس عدد الثواني التي في اليوم . وللوقوف على بعض عجائب الريح نقول :

الريح والتنفس

لا تقتصر أهمية الريح لتنفس الإنسان وحده ، ولكن لجميع الكائنات الحية ، حتى النبات ، وحتى الأسماك في الماء ، وحتى الدود والحشرات تحت الثرى . لاتستغني هذه الكائنات عن الهواء لحظة .

والإنسان وحده ، في تنفسه آية عجيبة وفي عملية التبادل التي يقوم بها مع النبات أكثر عجبا إن ذرات الهواء التي نستنشقها يقال أنها تنطلق في الجو بسرعة القذيفة . وأنه لابد من ثلاثة ملايين ذرة مضمومة إلى بعضها البعض لكي نحصل على ملليمتر واحد فقط من الهواء .

وانظر كم ملليمتر يحتاج إليها أحدنا في النفس الواحد ، وكم يحتاج إليه في الساعة وكم يحتاج إليه في اليوم ، وكم نحتاج جميعا منه . هذا فقط لعملية التنفس وحدها . والتي هي على درجة من الأهمية أن الله تعالى من رحمته ولطفه وكرمه عندما توعد الإنسان الجاحد العاصي بأنواع من الهلاك يهلكه به ، فإنه تعالى لم يهدده بمنع الهواء عنه ، وهو تعالى قادر على ذلك ، وإنما كان وعيده له أن يمنع تحريك الريح ، وليس منع الريح ذاتها فقال ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنْ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ (الشورى:٣٣) وهذا أيضا من باب تنفيذ ما وعد الله من إمداد كل الخلق برزقهم رغم عصيانهم . وأن من هذا الرزق (الهواء) .

والهواء الذي يستنشقه الإنسان به أكسجين بمعدل ٢١% وبه نتروجين بنسبة ٧٨ % في الهواء ، وأرجون بنسبة ٦/١٠ في ١% . وثاني أكسيد الكربون بنسبة جزء من ١٠٠٠٠ جزء ونسبة من بخار الماء .

ولحاجة الأحياء في الأرض للأكسجين ، فهو أيضا محبوس في شكل مركبات في قشرة الأرض . وهو يكون ٨/١٠ من جميع المياه في العالم . والأكسجين هو نسمة الحياة لكل الحيوانات التي في الأرض ، وهو لا يمكن الحصول عليه لهذا الغرض إلا من الهواء .

والنسب الموجود بها الأكسجين في الهواء وفي قشرة الأرض وفي مياه الأرض هي من التوازن والتعادل الذي يشهد وحده بقدرة الله وحكمته .

والعلاقة العجيبة التي بين الأكسجين وثاني أكسيد الكربون فيما يتعلق بالحياة الحيوانية ، وعالم النبات من أعجب آيات الله تعالى .

إننا عندما نستنشق الأكسجين فيتلقاه الدم ويوزع في خلايا الجسم ، وهذا الأكسجين يحرق الطعام في كل خلية ببطء شديد عند درجة حرارة واطئة نسبيا ، ينتج من هذا الاحتراق ، ثاني أكسيد الكربون وبخار الماء ، ويلفظ ثاني أكسيد الكربون في الجو ، وكل كائن حيواني يمتص الأكسجين ويلفظ ثاني أكسيد الكربون .

ومن وجهة أخرى تعتمد حياة كل النبات ، كما هو معروف على ثاني أكسيد الكربون وإن كان بنسب ضئيلة ، فيتنفسه من الهواء عن طريق أوراقه التي تعتبر بمثابة رئات ، ثم بالتعاون مع ضوء الشمس يتم في هذه الرئات تجزئة ثاني أكسيد الكربون إلى كربون وأكسجين . فيلفظ النبات الأكسجين ويحتفظ بالكربون فيتحد هذا الأخير مع هيدروجين الماء الذي يستمده النبات من جذوره ، وبقدرة إلهية يتكون من هذه العناصر سكر أو سليلوز ومواد كيماوية أخرى عديدة وفواكه وأزهار . ويغذى النبات نفسه وينتج فائضا يكفي لتغذية كل حيوان في الأرض .

وفي نفس الوقت ، للحكمة الإلهية المبدعة يلفظ النبات الأكسجين الذي تتنسمه نحن .

وهكذا نجد أن جميع النباتات ، والغابات ، والأعشاب وكل قطعة من الطحلب وكل ما يتعلق بالزرع ، تبنى تكوينها من الكربون والماء على الأخص . ويقوم الريح بتوزيع هذا الأكسجين على كل أنحاء الأرض في الهواء ، وكذلك يقوم الريح بإذابته في الماء أيضا .

لو كانت هذه المقايضة غير قائمة ، ولو لم توزع من جديد في الغلاف الجوى فإن الحياة الحيوانية أو النباتية كانت تستنفد في النهاية كل الأكسجين أو كل ثاني أكسيد الكربون تقريبا . ومتى انفلت التوازن تماما ذوى النبات أو مات الإنسان فيلحق به الآخر وشيكا .

ولا تتم هذه التبادلية إلا في الغلاف الجوى ومنه أيضا .

الريح والشم

تلغى حاسة الشم تماما خارج الغلاف الجوى . ويؤكد ذلك من خرجوا من الأرض إذ تعطلت هذه الحاسة لديهم وسواء كان ذلك على القمر أو في الفضاء . فالريح هي الوسيط الذي ينتقل فيه جزيئات المواد إلى حاسة الشم في الأنف وقد أكد القرآن على ذلك صراحة إذ قال تعالى في سورة يوسف ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتْ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾.

لما أراد الله أن يرد على يعقوب بصره أمر الريح أن تبشره عندما فصلت العير أي خرجت من المدينة المصرية ، فهاجت الريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف وواضح من الأسماء مدى ارتباط الرائحة بالريح حتى أن يعقوب سمي رائحة يوسف بالريح فقال ﴿رِيحَ يُوسُفَ﴾ .

الريح والكلام

بدون الهواء لا نستطيع الكلام . فكلامنا هذا ما هو إلا هواء يخرج من الصدر ويمر بالحنجرة واللسان والشفتين فتخرج حروفا بحركة هذه الأعضاء أمام الهواء الخارج من الصدر. وجرب أن تأخذ



نفسا عميقا ثم احبسه في صدرك وحرك شفتيك بكلام . لن تخرج حرفا واحدا . أطلق الهــواء المحبـوس وحرك شفتيك ستخرج حروفا على الفور ..

ليس اكتشافا وإن كان الفضائيون قد تأكدوا من ذلك ، فخارج الغلاف الأرضـي تتعطـل لغـة الكلام. وهذا أمر معروف حتى للأقدمين . يقول محيي الدين ابن عربي في كتابه الفتوحات الملكيـة : " إن الحروف اللفظية تتشكل في الهواء إذا خرجت ، ولذلك تتصل بالمسموع على صـورة مـا نطـق بـه المتكلم . فإذا تشكلت في الهواء تعلقت بها أرواحها . ولا تزال تمسك عليها شكلها " .

الريح والسمع

إن كان الكلام ممتنع بدون الهواء . فكذلك السمع ، ولو كنت في الفضاء أو على القمر وصرخـت بأعلى صوتك فلن تسمع حتى نفسك . ولنفس العلة التي قال بها ابن عـربي أن الحـروف تتشـكل في الهواء , وتتصل بالمسموع في الهواء .

وإذا أردنا أن نتأكد من أن الريح هي التي يتم من خلالها هذه الأمور ، وأنها تتعطل في غيابهـا فإننـا نعزل الهواء من أي مكان وسنشعر بالفرق الكبير بين وجود هذا الهواء وعدمه .

ولقد قام رجال الفضاء الغربيين بالفعل بتفريغ الهواء من حجرة ، فوجدوا أنفسهم أمام حالـة مـن العدم . حتى إن الجهات انعدمت فيها ، فلا يوجد تحت ولا فوق ، ولا أمام ولا خلف .

هناك وسيلة أخرى تحقق نفس النتيجة دون تفريغ الهواء من المكان . وهي أن ننغمس تماما في المـاء ، سواء كان في بحر أو في نهر أو حوض سباحة أو غير ذلك . إن التواجد في الماء أشبه ما يكون بـالتواجد في الفضاء . ونفس حالة العدم الموجودة في الفضاء ستكون موجودة بالمـاء . حيـث سـينعدم الـوزن والاتجاهات والكلام والسمع والشم وسينعدم السير . وستصبح الحركة في هذا المكان الذي انعزل عـن الهواء بوجود الماء بدلا منه هي السباحة ، وهي تماما طريقة الحركة في الفضاء . وقد أخـبر تعـالى عـن الأجرام السماوية في الفضاء بأنها سباحة ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَـرَ كُـلٌّ فِـي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء:٣٣) حتى حركة الملائكة الكرام من السماء إلى الأرض في هذا الوسط هي سـباحة يقول تعالى ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ (النازعات:٣) . وهذا كما هو معروف ما يحدث داخل الماء .

رغم وجود الماء علي الأرض إلا أن الأرض لم تجذب الموجود في الماء ليسير سيرا طبيعياً ، ما العنصـر الذي تخلف هنا في الماء ؟

إنه الهواء ، لذلك سيختلف كل شيء يحتاج في عمله إلى الهواء .

عندما جرب الفضائيون الحركة في الفضاء الخالي من الهواء وجدوا أنه أشبه ما يكون بالماء . لذلك فإنهم كانوا يجرون تجاربهم التي تحتاج محيطا مشابها للفضاء في الماء . وذلك للشبه التام بين الحركة هنا وهناك .

الويم والرؤية

تختلف رؤيتنا للكون حسب موقعنا منه ، فإذا كنا في الفضاء فإننا سنري مشهد يشبه السحر ومن لا يعرف حقيقة الأمر سيظن أنه سحر بالفعل .

وقد اخبر الله تعالى عن رؤية الكون من الفضاء والحالة النفسية التي تعتري الإنسان لأول مرة فقال ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ (الحجر) فهذه الآية تصف رد الفعل الإنساني أمام المشهد غير المنتظر الذي سيوهب لمسافري الفضاء : نظرات مضطربة ، وشعور بالإنسحار . يقول موريس بوكاي على هذه الآية في كتابه " الكتب المقدسة دراسة مقارنة " :

" تماما عاش رواد الفضاء تلك المغامرة الخارقة منذ عام ١٩٦١ . وهو تاريخ أول رحلة طيران للإنسان حول الأرض . ومعروف في الواقع أننا عندما نكون خارج طبقة الجو المحيطة بالأرض لا تبدو السماء مطلقا في صورتها اللازوردية الموهوبة لسكان الأرض . وذلك نتيجة لظاهرات امتصاص طبقات الجو للضوء الشمسي .

إن الإنسان المشاهد الموجود في الفضاء أبعد من الغلاف الجوي يري السماء سوداء ، وتبدو له الأرض محاطة بهالة لونية زرقاوية . وذلك لنفس سبب ظاهرات الامتصاص الضوئي لطبقة الجو الأرضية ، علي حين القمر الذي لا يحيط به جو فإنه يبدوا في ألوانه الخاصة به علي خلفية سوداء من السماء . وهو إذاً مشهداً جديداً تماما علي الإنسان ذلك الذي يراه في الفضاء . مشهد أصبح صورة كلاسيكية للناس في عصرنا ".

ثم يختم بوكاي كلمته بقوله : " هنا أيضا ، عندما نقابل نص القرآن بالمعطيات الحديثة ، كيف لا ننبهر بتلك التحديدات الدقيقة التي لا يمكن افتراض أنها صدرت عن فكر إنسان عاش منذ أربعة عشر قرنا تقريبا " .

إن الصور الملتقطة للأرض من الفضاء تختلف تماما عن تلك المرسومة في خرائط الأطلس ، فهي في الخرائط واضحة المعالم ، محددة التضاريس ، فتظهر القارات والبحار والجبال والأنهار والطرق وأماكن

الموارد وغير ذلك مبينا تماما ، أما الرؤية الحقيقية للأرض من الفضاء ، فيختلف الأمر ، لأننا سنري الكرة الأرضية مختلفة كل الاختلاف عن غيرها من الأجرام السماوية إذ سنجد أثر الغلاف الجوي المحيط بالأرض وما فيه من سحب وأعاصير يعطي الأرض لونا خاصاً وأن غلافها الجوي يميزها عن غيرها تماماً.

هذا بالنسبة للرؤية من خارج الأرض . أما الرؤية والمشاهدة من داخل الأرض فهي أيضا مختلفة تماما عنها من فوق آي كوكب آخر . إذ أن رؤية الأشياء على الحقيقة لا تكون إلا بسبب الهواء . فرؤية الزروع بخضرتها والرمال بصفرتها والبحار بزرقتها لا تكون إلا بوجود الهواء . وهذه الألوان البديعة للسماء بكل درجاتها وألوانها من الشفق الأحمر إلي الشفق الأبيض ، ومن اللون السماوي الفاتح إلي الأزرق الداكن ، وبتفاوت درجاته لا يري إلا بالغلاف الجوي : الشمس والهواء .

أشعة الشمس وألوانها ، ولألأة النجوم ، وبريق الكواكب ، كل ذلك بسبب الهواء . وهذا الأمر ليس اكتشافا حديثا بينه لنا رجال الفضاء ، إنما علم قديم ذكره علماء التفسير المسلمين ، ففي تفسير " النكت والعيون " والذي يرجع تاريخه إلي القرن الخامس الهجري يقول مؤلفه " الحسن البصري الماوردي " :

يقول تعالى ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (يس:٣٧) يقول : أي نخرج من النهار يعني ضوءه ، مأخوذ من سلخ الشاة إذا خرجت من جلدها ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾أي من ظلمة ، لأن ضوء النهار يتداخل في الهواء فيضيء . فإذا خرج الضوء من الهواء أظلم " .

فليس اكتشافاً حديثا أن الهواء يسبب الرؤية .

وفي تعليق " المنتخب " علي تفسير آية اختلاف الليل والنهار شرح مفصل لعلاقة الرؤية بالهواء نذكر منه :

" أهم الظواهر الفيزيائية التي يختلف فيها الليل عن النهار هي الضوء بالنهار ، وسببه أن الإشعاع المباشر للشمس عندما يسقط علي الغلاف الجوي الذي يتألف من جزئيات صغيرة ويحمل الذرات الغبارية فإنه ينعكس في مختلف الاتجاهات ويتشتت . فإذا كان الجو نقيا وأحجام الذرات الغبارية صغيرة جدا ، والشمس مرتفعة في الأفق ، فإن اللون الأكثر تشتتا وحساسية للعين هو اللون الأزرق فتظهر السماء زرقاء .

أما عند شروق الشمس أو غروبها فإن الأفق يظهر بلون برتقالي متدرجا إلي الحمرة . بينما يكون الضوء الأزرق المشتت قليلا نسبيا . لذلك يميل لون السماء عند السمت إلي الزرقة الخافتة " .

" الخلاصة أن شعاع الشمس يتألف من مجموعة من الألوان المرئية وغير المرئية ويتميز بعضها عن البعض بطول الموجة وتخضع هذه الموجات لخصائص عديدة كالانكسار ، والانعكاس ، والتشتت ، والتداخل ، والاستقطاب ، والحيود ، فإذا ما تفاعلت مع الغلاف الجوي في حالات خاصة فإننا نشاهد نتيجة لهذا التفاعل ضوء النهار والسراب وأقواس قزح والهالة الشمسية الي غير ذلك من آيات السماء من الظواهر الكونية " .

فالغلاف الجوي إذاً هو السبب في الاختلاف البين بين الرؤية في الأرض والرؤية خارجها .

أما ذات الرؤية فإنها تتم بعاملين هما (الضوء ، والهواء) . ومصدر الضوء الرئيسي في كوننا هو الشمس . فإذا اجتمعا كانت الرؤية والبيان والوضوح والظهور . وإذا تخلف أحدهما كان العمى والإظلام .

ودليل ذلك إذا غربت الشمس فإن الكون يظلم تماما رغم وجود الهواء كما يظلم الكون تماما إذا تخلف الهواء رغم وجود الشمس وطبعا ذلك لا يتم إلا في حالة الخروج من الأرض وغلافها الجوي . فإننا سنرى الشمس والنجوم والكواكب والقمر في وقت واحد وجميعهم علي شدة إضاءهم علي خلفية سوداء تماما ولعل ذلك المشهد تحديدا هو الذي تعنيه الآية ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ والآية تلفت الانتباه إلي عدة أمور منها : أن الباب الذي يفتح ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ .

وليس (في السماء) كما في الأرض . وذلك لخلو السماء من الهواء .

كذلك تثبت الآية أن الأرض في المركز وهي أسفل كل شيء من جميع الجهات . نفهم ذلك من قوله ﴿يَعْرُجُونَ﴾ فمن أي مكان في الأرض تجاه السماء يسمي عروجاً .

ثم عندما نعرج في السماء ننتقل من عالم مرئي ، فيه كل الألوان التي ألفناها إلي عالم معتم ، مظلم ، أسود ، رغم وجود الشمس المتوهجة .

وبهذه النقلة الغريبة التي تنقلنا فجأة ودون أي تدرج كما يحدث في اختلاف الليل والنهار بل مجرد خروجنا من الأرض بغلافها الجوى نجد أنفسنا في ظلام دامس رغم أننا قد نكون بالنهار . وللوهلة الأولي قد نظن الخلل فينا ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ وسكرت يعنى غطيت ، أو أغلقت ، ولكن بعد برهة سنجد أن حولنا كواكب ونجوم وشمس مضيئة أشد ما تكون الإضاءة . ولأن هذه حالة لم نعهدها ، ومشهد لم نألفه فإن المشهد حق مثير حتى أن الجاهل بالأمور سيظن أنه سحر .

سرعة الضوء

يقولون أنهم قاسوا سرعة الضوء وأنهم وجدوها ٣٠٠٠٠٠ كم في الثانية ونحن لا نوافقهم على هذه السرعة ليس لأنها أكثر أو أقل مما ينبغي ولكن لأنها بنيت على أسس باطلة ، منها : أن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس ، وأن الشمس تبعد عن الأرض ١٥٠ مليون كم ، وان النجوم تبعد عنا بمسافات تفوق العد والحصر سموها بالسنين الضوئية ، إلى آخر هذه الاختلافات التي أثبتنا خطأها تماماً .

فقد أثبتنا أن الأرض ثابتة والشمس تدور حولها كل يوم وأن الشمس تبعد عن الأرض بمسافة ٦٨٧٢٧٢.٧٢ كم . بينما يبعد القمر عنها بمسافة ١٧١٨١٨.١٨ كم .

كما ذكرنا بعد السماء ذاتها عن الأرض وأنها فقط (مسيرة ٥٠٠ سنة) وهي بالسير العادي وليس بسرعة الضوء أو الصاروخ أو أي شيء مما يقيسون به . وحددنا هذه المسافة ٧ مليون كم ، وأن الكواكب مجرد زينة للسماء وليست على الأبعاد التي ذكرها أهل الفلك والمنجمون وطبقا لهذا فالمسافة في الفضاء لا تقاس بالسنين الضوئية ولا بسرعة الضوء .

ثم كان الخطأ الفادح في مقياسهم أنهم قاسوا هذه السرعة دون معرفة الوسيط الذي ينتقل فيه الضوء . واستحدثوا لهذا الوسيط اسما دون أن يعرفوا أي شيء عن المسمى وعن خصائصه . وإن كانوا هم يجهلون هذا الوسيط فإننا سنخبرهم عنه ولكن قبل ذلك نذكر للمؤمنين حجم المشكلة التي وقع فيها التجريبيون . وكيف أن المؤمنين بالقرآن لم يتمكنوا من مساعدتهم بما لديهم من علوم . أم أنه التهيب والخشية أن يقدموا بين يدي السادة الغربيين ؟

يقول " جورج جاموف " شارحا مشكلة إيجاد مفهوم مقنع للوسيط : " الق حجرا في مستقع ، وسوف تجد الموجات تنتشر حوله في كافة الاتجاهات وكذلك يكون الضوء المنبعث من أي جسم لامع على هيئة موجات .

وبالمثل الصوت الناتج عن شوكة رنانة مهتزة . ولكن في حين أن الموجات السطحية تعبر بوضوح عن حركة جزيئات الماء ، والموجات الصوتية عن ذبذبات الهواء أو المواد الأخرى التي ينتقل الصوت من خلالها ، فإننا لا نعلم أي وسيط مادي مسئول عن حمل الموجات الضوئية . والحق أن الفضاء الذي ينتقل الضوء خلاله بسهوله شديدة (بالمقارنة مع الصوت) هو فضاء خال تمام " .

" ولما كان من غير المنطقي أن تتحدث عن تذبذب شيء في الوقت الذي لا يوجد فيه هذا الشيء أصلا ، فقد كان على علماء الفيزياء أن يستخدموا مفهوما جديدا هو " الأثير " الحامل للضوء وذلك لتوفير فاعل مادي للفعل " يتذبذب " ، ومن وجهة نظر قواعد اللغة البحتة التي تستلزم أن يكون لكل فعل فاعل لا يمكن الاعتراض على وجود " الأثير الحامل للضوء " ولكن – ضع ما تشاء من الخطوط

تحت " لكن " هذه – قواعد اللغة لا يمكن أن تصف لنا الخواص الطبيعية للكلمات التي يجب استخدامها لبناء جملة صحيحة " .

" إننا لو عرفنا الأثير بأنه (الوسيط الذي تنتقل خلاله الموجات الضوئية) فإننا بذلك نطرح أمراً مسلما به ولكننا لا نأتي بجديد .

إن أقدم أخطاء فيزياء القرن التاسع عشر تكمن في الافتراض بأن هذا الأثير الضوئي له خواص شبيهة جدا بخواص المواد الطبيعية المألوفة لنا ، إذ اعتاد العلماء آنذاك على الحديث عن المرونة ، والصلابة ، والخواص المطاطية ، بل وعن الاحتكاك الداخلي للأثير الضوئي وسرعان ما تبين للعلماء خطأ تلك الافتراضات التي سعت إلى تفسير طبيعة مادة مجهولة لا نعرف عنها سوى اسمها بأعمال الخيال ، ومقارنتها ببعض خواص المواد المألوفة لنا " .

" ورغم كثرة المجالات إلا أنها أسفرت عن استحالة تقديم أي تفسير مقبول لهذا الحامل للضوء الغامض وخواصه الميكانيكية " .

ثم يخلص (جاموف) إلى هذه النتيجة التي وصل إليها علماء الغرب :

" الأثير الضوئي يعد من المواد الغريبة من نوعها . إلا أنها لا تشبه هذا البناء الذري المتراص الذي نطلق عليه عادة كلمة : مادة " .

هكذا وقف العلم بعلماء الغرب ، وفي الناحية الأخرى وقف علماء الشرق أيضا لكن الأخيرون لم يقفوا عجزا ، وإنما وقفوا إتباعاً ، فإن سار متبوعوهم ساروا ، وإن قال متبوعوهم قالوا . ورغم جهل العلماء بكنه هذا الوسيط الذي يحمل الضوء فإنهم حسبوا سرعته .

ونحن نقول لهم ما هو الحامل للضوء :

إن الذي يحمل الضوء هو الريح . والريح يحمل الضوء في مكان واحد فقط وهو الأرض . أما خارج الأرض وحيث لا ريح . فلا حمل . وإنما الضوء يرسل إرسالا . ومن ثم فضوء الشمس لكي يصل إلينا ... يمر بمرحلتين مرحلة اختراق الغلاف الجوى وفيها يكون الوسيط هو الريح ، ومرحلة خارج الغلاف الجوى وهنا لا يوجد وسيط ، لا يوجد أثير ، لأنه لا يوجد شيء في هذه المنطقة . ونعني بعدم وجود شيء أنها منطقة عدم لا وجود للريح فيها ونحن نسميه فضاء وهي تسميه صحيحة رغم أن هذه المنطقة والتي تمتد من الأرض إلى السماء مسيرة ٥٠٠ عام (٧٠٠٠٠٠٠ كم) فيها ضوء ، وحرارة وكلاهما من الشمس وفيها الشمس ذاتها ، وفيه الكواكب والنجوم والقمر والشهب والحجارة والرجز والحسبان وكل ما ذكرناه عن هذه المنطقة إلا أننا نسميها منطقة عدم لأنه لا رياح فيها ولا

روح ، والأشياء التي تتحرك فيها إنما تتحرك بقانون الأمر ، وبنظام السخرة ، وكل من هذه الأشياء يسبح في فلكه .

معنى هذا أن أحدا منا لو نزل من مركبة فضائية فسيجد نفسه في مكانه لن يتحرك منه إلى أي جهة إلا يبذل جهد بالغ لكي يتحرك بضعة أمتار وسيكون ذلك سباحة ، ولن يتحرك كسائر الأجرام الموجودة إلا إذا دخل في فلك من الأفلاك فإنه سيدور فيه . وعلى ذلك فحرارة الشمس وضوئها يرسلان إرسالا إلى الأرض حيث الأرض (أسفل سافلين) ومن ثم فستكون درجة حرارة الشمس واحدة في كل الفضاء وذلك لأنه عدم لا حساب فيه للمسافات أو لأي حياة . فدرجة الحرارة فوق الغلاف الجوى للأرض هي نفسها درجة الحرارة فوق سطح القمر هي نفسها فوق عطارد وفوق بلوتو وفوق المشترى وفي أي مكان في هذا العدم وإنما تختلف درجة الحرارة هنا في الأرض نظرا لوجود غلاف جوى فيه ريح وفيه رياح تقوم بتوزيع حرارة الشمس .

وتختلف الحرارة تبعا للغلاف الجوى من خط الاستواء عنها في مدار السرطان عنها في الدائرة القطبية عنها عند نقطة القطب . أما لو أزيل هذا الغلاف الجوى فإن الحرارة على سطح الأرض ستكون كلها بدرجة واحدة ، فخط الاستواء كنقطة القطب مادام كلاهما مواجه للشمس – يعنى نهارا – أما في الليل فستكون درجة حرارة نصف الأرض – الغير مواجه للشمس – تحت الصفر في كل مكان على السواء .

إذاً لا يوجد حامل للحرارة أو الضوء من هناك ، من عند الشمس حتى أول الغلاف الجوى فوق الأرض ، فالحرارة موجودة من عند الشمس حتى فوق الأرض بنسبة واحدة لأنها مرسلة إرسالا ولا تحسب هذه المسافة ولا هذا الوقت وإنما يحسب فقط من فوق الأرض ، أي من أعلى الغلاف الجوى . والمسافة من سطح البحر إلى أعلى الغلاف ٢٧٣٠ كم فقط ، وعلى ذلك فلكي يصل الضوء إلينا من هذه المسافة البسيطة يصل إلينا في لمح البصر . وهي السرعة التي أخبر عنها القرآن لتنفيذ الأمر .

إذاً فقد أخبر القرآن عن سرعة الضوء وهي فعلا سرعة الأمر كما قال تعالى ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ . وقد حدد القرآن السرعات كلها في ٧ آيات لأنها سبع سرعات ، وهي كالتالي :

السرعة الأولى : (سرعة السير) :

هي السرعة الأساسية ، التي تقاس عليها كل السرعات الموجودة في القرآن ، وهي سرعة السير العادي للإنسان سواء راجلاً أو راكباً ، ونعني بالركوب ركوب الإبل ، لأنها الوسيلة العامة والمشتركة للإنسان عموماً ، في كل زمان وفي كل مكان .

وهذه هي السرعة التي بنيت عليها السرعات الأخرى ، فقال تعالى : ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة:٥) فالسرعة التي نعدها نحن هي سرعة المسير ، والسرعة التي قال عنها تعالى : ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ (سبأ:١٢) فمسيرة الشهر هي المسافة التي بين مكة وبيت المقدس والتي كان العرب يسيرونها كل عام مرتين وهي تقدر بحوالي ١٢٠٠ كم ، وهي عشر درجات أرضية . وهذا القدر من الكيلو مترات في الشهر يعني أن الإنسان العادي يسير ٨ ساعات في اليوم وهذا هو يوم المسير . ويقطع فيه السائر ٤٠ كم أي في الساعة ٥ كم . وهذه السرعة هي التي حدد بها رسول الله ﷺ بعد ما بين السماء والأرض . وقال بأنها مسيرة ٥٠٠ عام .

السرعة الثانية : (سرعة الريح) :

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ (سبأ:١٢) فالريح تسير في يوم ما نسيره نحن في شهرين وهي مسافة ٢٤٠٠ كم أي أن الريح تقطع هذه المسافة غدوا ورواحا في يوم واحد (٨ ساعات) أي أن سرعة الريح ٣٠٠ كم / ساعة .

السرعة الثالثة : (سرعة الجن) :

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ (النمل:٣٩) والذي سيأتي به العفريت هو عرش ملكة سبأ باليمن التي تبعد عن ملك سليمان ٢٤٠٠ كم أي ضعف المسافة بين مكة والقدس ، أو بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى . وسيقطعها العفريت ذهابا وإيابا في نصف يوم – مدة مقام سليمان في تدبير شئون المملكة كما قال علماء التفسير – أي سيقطع مسافة ٤٨٠٠ كم في ٤ ساعات فتكون سرعة العفريت ٤٨٠٠ ÷ ٤ = ١٢٠٠ كم / ساعة . (أي ما نقطعه نحن في شهر يقطعه العفريت في ساعة) .

السرعة الرابعة : (الأمر) :

﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة:٥) .

سرعة الأمر هنا هي ما نقطعه نحن في ألف سنة يقطعه الأمر في يوم أي ١٤٠٠٠٠٠٠ كم / يوم وعلى ذلك فالأمر سرعته في الساعة هي ١٤٠٠٠٠٠٠ ÷ ٨ (مسيرة اليوم) = ١٧٥٠٠٠٠ كم / ساعة وفي الدقيقة ٢٩١٦٦ كم ، وفي الثانية ٤٨٦ كم .

لذلك نرى والله أعلم أن ﴿الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ قد أتى بالعرش بسرعة الأمر. وللتأكد من ذلك ننظر ونتأمل في هذه الآية ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ (النمل:٤٠) .

إنها نفس المسافة التي يقطعها عفريت الجن في ٤ ساعات سيقطعها هذا العالم في ثوان معدودات لا نستطيع تقديرها تماما ، وإن كانت هي عموما الفترة الزمنية التي تكون بين غمضة جفن العين (الرمشة) والأخرى .

وليس أمامنا إلا تقديرها بما اعتدنا عليه غالبا حيث تكون المدة بين غمضة العين وأختها هي ١٠ ثواني تقريبا فتكون السرعة ٤٨٠٠ ÷ ١٠ ث = ٤٨٠ كم / ث وكما نرى فهذه نفسها هي سرعة الأمر . وعلى هذا فقد جاء العرش إلى سليمان من اليمن بالأمر .

قال ابن عباس : " إن الذي أتى بالعرش ، أي ﴿الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ هو (آصف ابن برخياء) وكان وزير سليمان وكاتبه وكان يعلم الاسم الأعظم الذي إذا سئل به أجاب . وقال لسليمان : " انظر إلى السماء ". فما طرف حتى جاء به . وقال بعض المفسرين أنه دعا الله قائلا : " يا ذا الجلال والإكرام " وقال غيرهم " يا إلهنا وإله كل شيء إلها واحدا لا إله إلا أنت ائتني بعرشها " . فمثل بين يديه . إذاً فالسرعة التي جاء بها العرش هي السرعة الرابعة وهي سرعة (الأمر) .

السرعة الخامسة : (سرعة الملائكة) :

﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج:٤) قال العلماء أن هذه المسافة التي بين العرش والأرض ٥٠٠٠٠ سنة . أي ما نقطعه نحن في ٥٠ ألف سنه تقطعه الملائكة في يوم وهذه المسافة طولها ٧٠٠٠٠٠٠٠٠ كم . وعلى ذلك تكون سرعة الملائكة في الساعة ٨٧.٥٠٠.٠٠٠ كم أي ١.٤٥٨.٣٣٣ كم في الدقيقة ، أي ٢٤.٣٠٥ كم في الثانية .

السرعة السادسة : (سرعة القضاء) :

﴿سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (مريم:٣٥)

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (القمر:٥٠)

وهذه سرعة وجود الأمر بعد أمر الله تعالى . ولا علاقة لهذه الآية بيوم القيامة لأن لهذا اليوم سرعة أخرى . ولكن هذه سرعة المخلوقات في إيجادها وسرعة تنفيذ الأمر. لذلك يقول تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ ولمح البصر هو رؤية الشيء عند توجيه النظر إليه بسرعة . وما من شك أن هذه سرعة وصول الضوء الذي هو سبب الرؤية والإبصار فبمجرد النظر

للشمس نراها ، وبمجرد شروقها يصل إلينا ضوئها . لأن الضوء لابد أن يصل إلينا في لمح البصر تنفيذا لأمر الله .

السرعة السابعة : (سرعة القيامة) :

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النحل:٧٧) .

وهذه ليست صيغة مبالغة ، بل هي حقيقة ستقع بعد صدور أمر الله بأسرع من لمح البصر وهي أكبر سرعة في القرآن .

هذه هي كل السرعات التي في الكون ومن بينها سرعة الضوء الذي هو ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ أي السرعة السادسة وهي أقصى سرعة كونية لا تفوقها إلا القيامة .

* * * * *

لقد قلنا أن الوسيط الذي ينتقل فيه الضوء هو الريح ، ثم ذكرنا سرعة الريح وقلنا أنها ٣٠٠ كم / ساعة . فكيف تكون سرعة الريح هي سرعة الضوء ؟

سرعة الريح ليست هي سرعة الضوء ؟ فسرعة الريح القصوى ٣٠٠ كم / الساعة أما الضوء فكلمح بالبصر . وعلى هذا فالريح هنا ليس ناقلا للضوء ، بل حامل له فقط أي مجرد وسيط ينتقل فيه الضوء نفسه . أما انتقال الريح ذاته فأمر آخر لأن سرعة الريح مختلفة تبدأ من الصفر وتنتهي إلى ٣٠٠ كم وهي الريح العاصفة .

وقد عرفنا ذلك بالحساب عندما تحدثنا عن السرعة الأولى . وإنما قلنا أن هذه هي سرعة الريح القصوى لأن سليمان عليه السلام دعا ربه أن يهب له ملكا لا يأتي لأحد من بعده كما قال تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (ص:٣٥) . فسخر له تعالى الريح بكل سرعاتها تجرى بأمره حيث يشاء ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ (الأنبياء:٨١) .

فتسخير الريح هنا من الملك الذي لم يهبه تعالى لغير سليمان حتى أن آية الريح جاءت بعد آية طلب الملك . فجعلها الله منقادة بأمره ، مذللة له . ومعنى رخاء أي لينة الهبوب لا تزعزع ولا تعصف ولا تقصف ولا تدمر مع قوة هبوبها وسرعة جريها التي بلغت أقصى سرعة ٣٠٠ كم / ساعة لأن الريح إذا بلغت سرعتها أكثر من ٦٠ كم / ساعة أضرت بالأغصان فكسرها ، وإن زادت سرعتها على ٧٠ كم / ساعة أضرت بالسفن فأغرقتها ، وإن زادت على ٨٠ كم / ساعة أضرت بالأشجار فقلعتها وإن زادت على ١٠٠ كم / ساعة أضرت بالمنشآت فهدمتها .

فكيف تكون إذا كانت سرعتها ٣٠٠ كم / ساعة ؟

لذلك أخبر تعالى أنها رغم هذه السرعة فإنها ليست ضارة أو مدمرة وإنما ﴿رُخَاءً﴾ . هـذا بالنسبة لسليمان عليه السلام .

ففرق بين الريح الوسيط والريح الناقل ، ففي الأخير ينتقل الريح بنفسه من مكان إلى آخر ، وينقل معه ما ينقل ، أما الأول فهو يسمح للشيء بالانتقال فيه ، فهو مجرد وسيط . وسرعته كناقل ٣٠٠ كم في الساعة . أما سرعة الأشياء فيه كوسيط فكلمح بالبصر .

لذلك يحسبون سرعة الصوت ٣٤٠ م / ث أي ١٢٢٤ كم / ساعة ، والأمر غير ذلك تماماً فسرعة الصوت هي نفس سرعة الضوء سواء بسواء .

* * * * *

سرعة الصوت

نقول بأن سرعة الصوت كسرعة الضوء سواء بسواء لأنهما يسيران بسرعة (القضاء) وهي السرعة السادسة التي ذكرناها ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (القمر: ٥٠) أما السرعة التي ذكروها فليست سرعة الصوت وإنما سرعة انتقال الصوت . أي سرعة الريح الناقل وهي ٣٠٠ كم / ساعة وليست ١٢٢٤ كم . ولإثبات أن سرعة الصوت تساوي سرعة الضوء نذكر أدلة للمؤمنين من القرآن وأدلة للتجريبيين من الواقع :

أدلة المؤمنين :

يذكر لنا القرآن أن الجبال والطير كانت تؤب مع داود يقول تعالى ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ (الأنبياء: ٧٩) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ (سبأ: ١٠) ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ (ص) .

إن الآيات تخبر أن الجبال – وليس جبل – كانت تسبح مع داود . وأن الطير – وليس طائر – يسبحن معه . ونؤكد على الجبال لأنها ليست في مكان واحد ، بل متفرقة وكذلك الطير . فكانوا جميعاً يسبحون معاً ، ولو كان الصوت ينتقل للجبال والطير بالريح الناقل لما كانوا يسبحون مع داود . ولكن الصوت هنا ينتقل بالأمر – بقانون الأمر وسرعته – عبر الريح الحامل (الوسيط) . فتسبح الجبال ويسبح الطير مع داود على اختلاف أماكنها .

أما ذات التسبيح للجبال والطير فهذا أمر عادي فكل شيء يسبح لله ولكن الغير عادى أن تسبح مع داود . وقد كان داود حسن الصوت ، كما كان يفهم تسبيح هذه الكائنات بما آتاه الله من الفضل .

والدليل الثاني من القرآن ما حدث مع يعقوب عليه السلام ، عندما أعطى يوسف عليه السلام قميصه لاخوته ليلقوه على وجه أبيهم ، يقول تعالى : ﴿اذهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتْ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ (يوسف) . إن المسافة بين المدن المصرية ومدن الشام التي بها يعقوب لا تقل عن ٤٠٠ كم . وقد ذكر المفسرون أنها كانت تبعد ١٠ مراحل أي عشرة أيام سفر ومسيرة . وقد أوضحنا أن مسيرة اليوم ٤٠ كم . والآية تخبر أن بمجرد أن فصلت العير أي انفصلت عن حدود المدينة المصرية . قال يعقوب ذلك . والآية توضح هذا ﴿وَلَمَّا فَصَلَتْ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ﴾ ليس هنا أي فاصل زمني والفاصل الزمني نفهمه لو جاءت الآية بحرف تعقيب ، كأن تقول ولما فصلت العير وقال ، أو فقال أو ثم قال أو عند ذلك قال . كل ذلك لم يحدث وإنما الذي حدث ﴿وَلَمَّا فَصَلَتْ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ﴾ أي وصلت الريح في سرعة ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ دون أي شك مع أننا نعرف أن الروائح تشم عندما ينقلها الريح وعلى ذلك فإنها تصل من مصدرها إلى حاسة الشم بعد مدة حسب بعد الاثنين عن بعضها ، ولكن هذا إذا نقلها الريح أما أن تنتقل هي في الريح فكلمح البصر .

أدلة من السيرة :

تخبرنا كتب السير عن حادثة تمت في عهد عمر بن الخطاب . عندما أرسل عمر جيشا بقيادة " سارية بن زنيم " إلي حدود الفرس . فرأى عمر رضى الله عنه فيما يرى النائم معركتهم وعددهم في وقت من النهار ، وأنهم في صحراء ، وهناك جبل إن أسندوا إليه لم يؤتوا إلا من وجه واحد . فلما كان الغد وكان عمر على المنبر يخطب وكانت الساعة التي رأى أنهم اجتمعوا فيها . صاح عمر : يا سارية الجبل ، ثلاث مرات ، ثم قال للناس بما رآه وقال : إن لله جنودا لعل بعضها أن يبلغهم .

ثم إن سارية أخذ جنده وفعل كما قال عمر ولجئوا إلى جبل هناك فلم يقدر العدو عليهم إلا من جهة واحدة فأظفرهم الله بهم وفتحوا البلد وغنموا شيئا كثيرا . وأرسل سارية رسولا يبلغ أمير المؤمنين بالفتح ، وسأل أهل المدينة رسول سارية : هل سمعوا صوتا يوم الواقعة ؟ قال : نعم سمعنا قائلا يقول : يا سارية الجبل وقد كدنا نهلك فلجأنا إليه ففتح الله علينا . ولما عاد سارية أخبر المسلمين بما كان وقال إن الله قد فتح علينا يوم الجمعة ساعة كذا وكذا + لتلك الساعة التي نادى فيها عمر – وسمعنا صوتا : يا سارية الجبل ، ظلم من استرعى الذئب الغنم ، فعلوت بأصحابي الجبل . ونحن قبل في بطن الوادي . فأصبحنا نحن محاصرو العدو ففتح الله علينا .

نفهم من هذا أن الصوت لم ينقله الريح وإلا لاستغرق بأقصى سرعته يوماً ولكنه وصل إلى بسارية في نفس الوقت أي بسرعة الأمر ﴿كَلَمْحِ بِالْبَصَرِ﴾ .

ذكر ابن أبي الدنيا في كتاب " المجابين " في الدعاء عن الحسن قال : " كان رجل من أصحاب النبي صلى اله عليه وسلم من الأنصار يكنى أبا معلق ، وكان تاجرا بمال له ولغيره ، ويضرب به في الآفاق . وكان ناسكا ورعا ، فخرج مرة فلقيه لص مقنع في السلاح فقال له ضع ما معك فإني قاتلك . قال : ما تريده من دمي ؟ شأنك بالمال . فقال : أما المال فلي ، ولست أريد إلا دمك . قال : أما إذا أبيت فذرني أصلي أربع ركعات . قال : صل ما بدا لك . فتوضأ ثم صلى أربع ركعات . فقال في دعائه في آخر سجوده :

" يا ودود ، يا ودود ، يا ذا العرش المجيد ، يا فعال لما يريد ، أسألك بعزك الذي لا يرام وبملكك الذي لا يضام وبنورك الذي ملأ أركان عرشك أن تكفيني شر هذا اللص . يا مغيث أغثني . يا مغيث أغثني " .

فإذا هو بفارس قد أقبل بيده حربه قد وضعها بين أذني فرسه فلما أبصر به اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله . ثم أقبل إليه فقال : من أنت بأبي وأمي فقد أغاثني الله بك اليوم . فقال : أنا ملك من أهل السماء الرابعة . دعوت بدعائك الأول فسمعت لأبواب السماء قعقعة . ثم دعوت بدعائك الثاني فسمعت لأهل السماء ضجة ، ثم دعوت بدعائك الثالث ، فقيل لي : دعاء مكروب . فسألت الله أن يوليني قتله .

قال الحسن : فمن توضأ وصلى أربع ركعات . ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروبا كان أو غير مكروب " .

فهذا الأثر يدل على أن الصوت وصل إلى السماء من خلال الريح ولم ينقله الريح . فوصل إلى السماء في لمح البصر .

هذا والأدلة على انتقال الصوت وغيره من الروائح كثيرة جدا أكثر من أن تحصى .

أما دليلنا الواقعي :

ما تبثه أجهزة الإذاعة والتليفزيون من أصوات وصور من أي مكان كان . فإنه يصل إلينا في التو واللحظة بسرعة ﴿كَلَمْحِ بِالْبَصَرِ﴾ ولا يتأخر الصوت عن الصورة ثانية واحدة .

وفي هذا الأمر دليل على قدرة الله تعالى وعلى فضله ونعمته على بنى آدم فإن الله تعالى شاء أن تنتشر الأصوات والأضواء والروائح والصور والألوان جميعا في الأرض كلها في نطاق الغلاف الجوى .

ثم يحفظها الغلاف من الانفلات في الفضاء ويرجعها إلى الأرض فكل هذه الأمور محبوسة ومحفوظة في داخل الأرض ﴿والسماءِ ذَاتِ الرَّجعِ﴾ ﴿وجعلنا السَّمَاءَ سَقفاً مَحفُوظاً﴾ فكل الأصوات والأضواء والروائح وغير ذلك ينتشر حولنا وكان من الممكن لكل منا أن يدركه ، ولكن نتخيل لو أن الله تعالى لم يحدد للإنسان قدرات معينة وأنه تعالى ترك قدراته مطلقة فإنه سيجن وسيتلف في لحظة لأنه سيرى كل شيء في الهواء وسيسمع كل شيء وسيشم كل شيء . كل ذلك في آن واحد . ولكن الله تعالى من رحمته قد حدد للإنسان قدرات سمعه وبصره وإدراكه ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السمعَ وَالأبصَارَ وَالأفئِدَةَ قَلِيلا مَا تَشكُرُونَ﴾ فهذه نعمة كبيرة على الإنسان . ولكن هذه القدرات قد تنكشف بقدر معين للأنبياء أو الأولياء أو العلماء . أما الأنبياء فقد كانوا يسمعون ما لا نسمع ويرون ما لا نرى . وقد رأينا داود وسماعه لتسبيح الجبال والطير على أبعادها ورأينا يعقوب قد وجد رائحة يوسف على بعد كبير وأما الأولياء فما رأيناه من عمر بن الخطاب مع سارية ، وما رأيناه مع أبي معلق الأنصاري مع اللص .

وأما العلماء فقد رأينا أحد العلماء يأتي بالعرش من بعد آلاف الكيلو مترات في لمح البصر ونحن نرى الآن كيف بالعلم استطاع العلماء أن يظهروا الأصوات والصور والألوان والأضواء الموجودة في الغلاف الجوى بمجرد تشغيل جهاز الراديو أو التليفزيون . فهذا الجهاز يظهر بقدرة العلم ما هو موجود حولنا ولا نراه فالهواء في كل ذرة منه فيه أصوات لا تعد وفيه صور لا تحصى . موجود كل ذلك أمام أعيننا ولكننا لا نراه ولا نسمعه . ولكن بمجرد تشغيل التليفزيون فإننا نسمع ونرى وذلك في نفس اللحظة التي ترسل فيها هذه الأصوات والصور.

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن الديك يرى الملائكة . وأن الحمار يرى الشيطان . وأن الشيطان يرى ما لا نراه نحن ، يقول تعالى : ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال:٤٨) .

إن الريح لآية من أعجب آيات الله تعالى بقدرتها وقدراتها . ولعل علماء الفيزياء والطبيعة قد تأكد لهم أن سرعة الصوت = سرعة الضوء = سرعة الروائح وأنها لمح البصر . وأن الريح هي الوسيط الذي تمر هذه الأشياء خلالها . وهي تمر بقانون الأمر ﴿كن فيكون﴾ . وأن الريح من القوة التي بها تحمل جبال وترفع جبال وتحرك جبال والجبال أثقل شيء أمامنا في الأرض .

وأن الريح من الرقة والشفافية بحيث أنها تحتوى على أصوات فلا نسمعها وألوان مختلفة وصور عديدة في كل ذرة منها تتحرك أمام عيوننا ولا نراها إلا بالعلم من خلال الأجهزة . وأننا لا نستغني عنها ثانية أو أقل . فهل الجاذبية تفعل شيء من ذلك ؟

تصريف الرياح

كان بعض المفسرين يرى أن الرياح إذا ذكرت بالإفراد يعنى (ريح) ، فهي للهلاك ، وإذا ذكـــرت بالجمع يعنى (رياح) فهي للنفع ، وليس الأمر كذلك .

والريح والرياح مادتهما واحدة . ولكننا نستطيع أن نعرف عمل كل منهما من القرآن .

وبالبحث في آيات الرياح نجد دائما أنها متعلقة بالمطر والماء والسحاب والرعد والـــبرق ، والثلـــج والبرد وما إلى ذلك . فهي إذاً المسئولة عن تكوين المطر وعن مناخ الأرض .

أما الريح فإنها متعلقة بالأرض ذاتها ، فهي أصل الغلاف الجوى والرياح متصرفة في هذا الغلاف .

وكذلك تتعلق الريح بالإنسان وشئونه . أما الرياح فلا علاقة مباشرة لها بالإنســـان وإنمـــا دورهـــا صناعة المطر والمناخ فالريح بمثابة جهاز تكييف للأرض صيفا وشتاء ، دفئا وبرودة . في كل وقـــت وفي كل مكان على الأرض .

وكل أعمال الرياح مذكورة في القرآن بالتفصيل . وبيّن القرآن كل ما تفعله الرياح بأبلغ بيان .

وقد ورد ذكر الرياح ١٠ مرات باسمها وذكرت مرات أخرى بعملها وصفتها .

الماء والحياة :

الماء أصل الخلق جميعا ، حتى السموات والأرض ، والإنسان والحيوان . هكذا عرفنا من القـــرآن . وكل كائن حي من الماء . والأرض الميتة يحيها الله بالماء . وعرش الرحمن على الماء . والأرض عبارة عـــن كرة من الماء واليابس فيها الربع . والإنسان أيضا ٣/٤ جسده من الماء .

وكما لا يستغني سكان الأرض عن الهواء فإنهم أيضا لا يستغنون عن الماء . ولكنهم يستغنون عـــن الله رغم أنه تعالى هو الذي خلق لهم هذا وذاك وسخر لهم هذا وذاك وهو الـــذي يمدهـــم بهـــذا وذاك . لكن هذا هو الإنسان ﴿كَلا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق) .

يقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ (الحج:٦٣) فالماء لا ينزل نتيجة مصادفة أو بفعـــل شحنات كهربائية . ولكن ينزله الله تعالى ، الذي ينزله أيضا بقوانـــين جعلـــها ســـبحانه في الكـــون . ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَـــاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ﴾ (الواقعة) ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (الفرقان:٤٨) .

وأن هذا الماء الذي ينزله الله تعالى من السماء ، لسقيا الإنسان والحيوان والنبات ، جزءٌ منه يســـكن الأرض وجزء أخر يسلك ينابيع وجزء ثالث يساق أنهارا ، وأن الله تعالى هو الذي بفضله يفعـــل هـــذا وذاك وذلك . ويقول تعالى :

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾ (المؤمنون:١٨)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾ (الزمر:٢١)

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ (الرعد:١٧) .

ولنتأمل هذه الكلمات ﴿فَأَسْكَنَّاهُ﴾ ﴿فَسَلَكَهُ﴾ ﴿فَسَالَتْ﴾ وإلى بلاغتها وروعتها ومعانيها . وكيف أنها جميعا بدأت بحرف واحد هو (الفاء) وهو يفيد هنا التعقيب والسرعة في الحدث الذي يتلو حدثا آخر . وكيف أن بعد نزول الماء يأخذ كل قدر منه طريقه المأمور به ، ويعمل عمله المكلف به وبسرعة فيكون الماء بعد نزوله أحد ثلاث حالات : (سكن) (سلك) (سال) كل ذلك بأمر الله .

أما عن سقياه للناس والأنعام والنبات فيقول تعالى :

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ (الحجر:٢٢) .

﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ (الفرقان:٤٩) .

﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ (الرعد:٤) .

* * * * *

كما يعلمنا القرآن أن الله تعالى يحيى الأرض بعد موتها بالماء . في هذه السبع التي لا ثامن لها :

(١) ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (النحل:٦٥)

(٢) ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (البقرة:١٦٤)

(٣) ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ (الأعراف:٥٧)

(٤) ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ (الفرقان)

(٥) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَن نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (العنكبوت:٦٣)

(٦) ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الروم:٢٤)

(٧) ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (ق) .

ثم يفصل لنا القرآن كيف يحيى الله الأرض بعد موتها وأنه تعالى الذي يخرج الزرع من هذا الماء بأنواعه وألوانه وأشكاله وأيضا ذلك في ٧ آيات لا غير في كل القرآن :

(١) ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ (البقرة:٢٢)

(٢) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام:٩٩)

(٣) ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ (الأعراف:٥٧)

(٤) ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ (إبراهيم:٣٢)

(٥) ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ (طه:٥٣)

(٦) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ (فاطر:٢٧)

(٧) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا ﴾ (السجدة:٢٧) .

وفي الآيات نلحظ الآتي :

لقد أتت هذه الآيات بالفعل ﴿أَخْرَجَ﴾ بهذه الصورة ، (فأخرج ، فأخرجنا ، فنخرج) والفعل إذا أتى بصيغة الجمع فهو يعني ملائكة الله تعالى وعملها معه عز وجل ، وهذا الأمر في أي فعل بصيغة الجمع ماعدا أفعال الخلق . والزرع موكل به ملائكة .

كذلك تقدم الفعل أخرج في الآيات السبع حرف (الفاء) الذي يدل على السرعة في الإخراج ففور التقاء الماء بالحب والبذر في الأرض يتم التعامل في سرعة كلمح بالبصر . وإن تأخر ظهور الزرع على وجه الأرض .

ثم تأمل ما الذي يخرج : (من الثمرات ، نبات كل شيء ، من كل الثمرات ، أزواجا من نبات شتى ، مختلفا ألوانه ، زرعا) .

تبقى لدينا آيتين تتحدث أيضا عن إخراج الزرع بالماء لم ندرجهما مع الآيات السبع لأسباب وجيهة : يقول تعالى في سورة النبأ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ (النبأ) .

لم تأت هنا عملية الإخراج في آية واحدة مع نزول الماء كباقي الآيات السبع . وإنما استقل الإخراج بآية تلت آية نزول الماء . وهذا يعني أن الماء لم يلتقي مباشرة مع النبات فور نزوله من السماء فلم يتم الري من السماء مباشرة وإنما من الأنهار وما يشق منها كالترع والقنوات . وقد استنتجنا ذلك من ثلاث ملاحظات :

الأولى : أن هذه الآية خصصت نزول الماء من ﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾ وكلمة العصر تفيد أن الماء نزل بغزارة شديدة من عصر السحاب الذي عصرته الرياح .

الثانية : كلمة ﴿ثَجَّاجًا﴾ أي غزيرا منصبا . وهذا الماء النازل كالشلال أو السيل لا يحتمله النبات ، فهو ينزل بقوته على جبال تتحمل قوة إنزال الماء الناتج عن العصر ، يقول تعالى ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ (المرسلات:٢٧) فورد في هذه الآية ذكر الماء الفرات بعد ذكر الرواسي الشامخات .

إنه دائما ما يكون خلف الرواسي الشامخات شلالات وأنهار يسوقها الله تعالى للأرض الجرز .

الثالثة : كلمة (لنخرج) إذ أنها اختلفت عن الآيات السبع بعدم ذكر حرف (الفاء) قبلها لأن الإخراج لم يتم فور نزول الماء ، وإنما تم بعد ذلك من الأنهار .

وعلى ذلك يكون الزرع قد خرج بطريقتين من السماء مباشرة ، أو من وسائل أخرى غير المطر . ولعل الفرق بين الآمرين يتضح إذا علمنا أن زكاة الزروع تكون العشر في الزرع المروى من السماء ونصف العشر في غيره .

والآية ٢١ من سورة الزمر لم ندرجها أيضا مع الآيات السبع وفيها يقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ .

ففي هذه الآية قال تعالى ﴿يُخْرِجُ﴾ تماما كالآيات السبع السابقة فهنا تخلف حرف (الفاء) وبتخلفه اختلفت الآية مبنى ومعنى ، وذكر مع فعل ﴿يُخْرِجُ﴾ كلمة ﴿ثُمَّ﴾ فقال ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ﴾ أي أن الإخراج تم بعد نزول الماء بمدة أي على التراخي ، وليس كالآيات السبع السابقة . فجاء الفعل يخرج بعد خمس كلمات بعد ذكر نزول الماء وذلك لأن الإخراج لم يعقب الماء ولم يكن بعد إنزال الماء ، لأن الماء في هذه الآية لم ينزل للري المباشر . فلم يعمل الماء مباشرة بل إن الله تعالى ﴿سَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي تم تخزينه في الأرض . ليستعمل بعد ذلك . لذلك وردت كلمة ﴿ثُمَّ﴾ قبل الفعل ﴿يُخْرِجُ﴾ .

فالزرع هنا خرج بعد ريه من العيون التي أخرجت المخزون من ماء السماء . فنوع الرى هنا من العيون والآيات السبع السابقة الري فيها من ماء السماء مباشرة وهذا الأمر له أهميته في زكاة الزروع لقول رسول الله ﷺ " فيما سقت السماء العشر وما سقى بنضح أو غرب فنصف العشر " . والأمر مفصل في كتب الفقه . وبذلك تكون الآيات جميعها قد ذكرت كل أنواع الري .

ثم في سبع آيات أخرى وأخيرة يذكر الله تعالى تفصيلات مغايرة لعملية الإخراج التي ذكرها في السبع آيات السابقة فهنا يتحدث عن الإنبات وما شابهه دون الإخراج :

(١) ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ (النحل: ١٠)

(٢) ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج: ٥)

(٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ (الحج: ٦٣)

(٤) ﴿وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (النمل: ٦٠)

(٥) ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (لقمان: ١٠)

(٦) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ (فصلت: ٣٩)

(٧) ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ (ق: ٩) .

ففي هذه الآيات يستعرض القرآن ما يحدثه الماء بالأرض ومدى الحركة التي تدل على الحياة بعد الموت ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ . وكيف يتحول لونها ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ . وكيف تنبت الأرض ، أو بالأحرى كيف ينبت الله منها بهذا الماء الذي لا لون ولا طعم ولا رائحة ﴿حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ و ﴿جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ .

ثم كيف ينبت بهذا الماء الشجر الضخم ، العملاق ، من بذرة لا تكاد ترى من صغرها ، ودقتها ، فتتحول بالماء إلى هذا الحجم ، وفيها من الألوان المبهجة ، والثمار الطيبة ، والروائح الذكية . ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ .

ترى أنحن الذين فعلنا ذلك ؟ أنحن الذين أنبتنا وأخرجنا أم أنه الله ؟

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (الواقعة) .

هكذا يفعل الماء بالأرض . وهكذا ينبت الزرع ويخرج النبات ، أشجار وأزهار وفاكهة وثمار وحبوب وخضار، من الماء ثم إنه كذلك بالهواء . الذي لولاه لما كان الماء يجدي ولا كانت نبتت حبة واحدة على الأرض .

الرياح لا الشمس التي تكون السحب

يعتقد الكثيرون – خطأ – أن الشمس هي التي تكون السحب . والآخرون لا يعرفون كيف تتكون السحب .

ويعتصرك الحزن والأسى وأنت تقرأ كتب الجغرافيا التي تتحدث عن تكون السحب وإنزال المطــــر وتنسب ذلك إلى الظواهر الطبيعية ، من حرارة وضغط ، وتضاريس ولا تذكر كلمة واحدة عـــن (الله) المكون الحقيقي للسحاب ، والمنزل الحقيقي للماء أذكر مثالا لذلك من أحد كتب الجغرافيــا الجامعيــة يقول مؤلفه :

" يتكون السحاب نتيجة لصعود الهواء الرطب إلى طبقات الجو العالية . حيث يتكاثف قســم مــن بخار الماء الموجود فيه . ويظل عالقا بالجو . ويصعد الهواء إلى أعلى بسبب تيارات الحمل التي تتبــاين في سرعة صعودها التي قد تصل إلى أكثر من أربعين مترا في الثانية . وتيارات الحمـــل مهمـــة في تكويـــن السحاب الركامي ويظهر أثرها في هيئة بقع غنية ببخار الماء ، وفيها يعظم التكاثف . ويـــؤدى وجـــود الجبال واعتراضها لسير الرياح إلى صعود الهواء ، ويدعى هذا بالصعود التضاريسي أو الأوروجرافي " .

أما عن تساقط المطر فيقول الكتاب : " يسقط المطر بسبب انخفاض درجة حرارة الهواء الرطـــب في طبقات الجو العليا إلى مادون درجة الندى وتكاثفه مكونا للسحاب الذي تتحول مكوناتـــه إلى حبـــات مطر حينما تكون الظروف مواتية " .

وهذا حال جميع الكتب المفترض أنها علمية والتي تدرس على طلاب العلم في مختلف المراحل حيـــث قد قطعوا الصلة تماما بين هذه النعم التي نعيش في خيرها وبين المنعم تبارك وتعالى . ومن ثم نجد التـــأكيد المتواصل في الآيات على أن الفاعل هو الله . ولنقرأ هذه الآيات الجليلة التي يتحدث فيها الرب تبـــارك وتعالى عن تكوينه للمطر ، وإرساله للرياح ، وإنزاله للماء ، وذلك في كل مراحل تكويـــن المطـــر دون استثناء .

وتخبرنا الأحاديث أن الله تعالى وكل جمع عظيم من الملائكة للقيام بأمر المطـــر هـــذا ، وعلـــى رأس هؤلاء ميكائيل عليه السلام . يقول تعالى :

* ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَـــتَرَى الْـــوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (الروم:٤٨)
* ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِـــهَا كَذَلِـــكَ النُّشُورُ﴾ (فاطر:٩)
* ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِـــنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِـــهِ يَذْهَـــبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ (النور:٤٣)

* ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف:٥٧)

* ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (الحجر:٢٢) .

بنفس التفصيل الدقيق الذي حدثنا به الله ، كيف أخرج بالماء الزرع . وكيف أنبت به من كل شكل ولون ، وكيف يتم به رى الزرع وأنواع الري من الكلمات : (فأخرج ، ثم يخرج ، لنخرج) يحدثنا الله تعالى كيف يتكون السحاب وكيف يترل الماء .

لم يسم القرآن عملية إنزال الماء للسقيا والري باسم المطر ، إنما يقول ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ ويقول ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ أما كلمة المطر فرغم أها وردت كثيرا في القرآن بلغت ١٥ مرة ، إلا أنه لم يقصد في أي من الآيات التي ذكرت فيها أن المطر هذا هو الذي يترله للسقيا أو للري ولكن كل الآيات التي ذكرت المطر ذكرته بالضر والأذى .

كقوله تعالى :

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ (الشعراء:١٧٣)

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ (الحجر:٧٤)

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ (الفرقان:٤٠)

﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ﴾ (النساء:١٠٢) .

وما عدا هذا المطر الذي في سورة النمل فكل المطر نزل من السماء من فوق الغلاف الجوى للأرض : مطر من الحجارة الموجودة في السماء التي تسبح في الفضاء والتي ذكرناها ضمن الأشياء الموجودة في الفضاء غير الكواكب والنجوم . إنما نسمي نحن الغيث بالمطر لتعارفنا على ذلك .

يخبرنا الله تعالى أنه يكون السحاب بواسطة الرياح . وأيضا جميع العمليات المتعلقة بالماء والمطر . والقرآن ذكر أنواع الرياح التي تستخدم في هذا الآمر :

١ - فهناك رياح وظيفتها إثارة الماء لإحداث رزاز الماء .

٢ - ورياح لحمل السحاب المشبع بالرزاز وهي أوقار عظيمة من المياه .

٣ - ورياح تسوق الرياح الحاملة للسحاب ، برفق ولين .

٤ - ورياح لركم السحاب بعضه على بعض .

٥ - ورياح لتلقيح السحاب .

٦ – ورياح لتوزع السحاب المطير على الأمصار .

٧ – ورياح لعصر السحاب وإنزال الماء منه كمن يعصر ثوبه بين يديه .

ثم هناك رياح تبشر بقدوم المطر ، يرسلها الله اسمها (المبشرات) .

إذاً فجميع عمليات إنزال الماء تتم بالرياح وهذا هو الفارق البين بين الريح والرياح . فكل مرحلة من مراحل المطر تكون بنوع معين من الرياح مخصص لهذا العمل رياح تُكَوِّن (تثير) سحابا ، ورياح تبسط السحاب في السماء ، ورياح تنشرها ، ورياح تقطعها ، ورياح تؤلف بين أنواعها ، ورياح تسوق السحاب (تزجي) ، ورياح تحمل السحاب المثقل بالماء ، ورياح تلقح السحاب لينعقد فيه الماء ورياح تتقدم بين يدي السحب الموقرة بالماء لتبشر الناس فلا تفاجئهم . وقد ذكرت هذه الرياح مفصلة في القرآن يقول تعالى : ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ (الذاريات) .

ثم يخبر تعالى عن خمسة أنواع أخرى : ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ (المرسلات) .

فهذه الأنواع ذكرت في سورتين . ثم هناك ﴿مبشرات﴾ وهناك ﴿لَوَاقِحَ﴾ في السورتين السابقين .

ذكرت الرياح بأسلوب القسم تأكيدا لعظم أمرها وتنبيها لأهمية المقسوم عليه .

يقول تعالى عن مرحلة تكون السحب ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾ (الروم:٤٨) .

فهذه الآية تنص على أن الرياح مرسلة من قبل الله تعالى ، وليس هناك قانون محدد أو ظروف معينة تجعل الرياح تثير سحابا . فالأمر من الله وحده .

وماذا تفعل الرياح ؟ أو كيف تكون السحب ؟

يتم الأمر بطريقة الإثارة . ومعنى الإثارة : الإزعاج والتهييج لتحريك الساكن الخامل . وأقرب تصور لهذا الأمر هو : إثارة الغبار . أي إزعاج التراب الراكد وهياله فترتفع منه ذرات دقيقة وتعلو فوقه . فكذلك تفعل الرياح في الماء وفي كل الرطوبات فتزعجه وتثير بخارا يرتفع فوق الماء . وبخار الماء هذا هو مكونات السحاب .

ثم يرسل الله نوعا من الرياح تبسط السحاب في السماء ثم يرسل تعالى رياحا فتجعله كسفا ، أي يجعله بعد بسطه ونشره قطعا متفرقة ثم يرسل تعالى رياح توزعه على البلدان .ثم يرسل تعالى رياحا

لواقحا لتلقح السحاب فيعقد بخار الماء إلى ماء . ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾ الـسـودق : المطـر . يخرج من بين السحاب .

هناك نوع أخر من السحاب هو السحاب الركامي . يخبرنا تعالى بأنه عز وجل الذي يقوم بتوليفـه وركمه بعضه فوق بعض حتى يكون جبالا . ثم ينزل الله تعالى من هذه الجبال البرد .

ولعل لهذه العملية التي تتكرر دوما في الأرض تذكر ببدء الخلق الذي بدأ بارتفاع بعض مـن ذلـك الماء الذي كان العرش عليه ثم ارتفع هذا وتجمد وأصبح بعضه متجمدا والآخر دخانا ففتق الله بينهما .

إن هذا الأمر يتم كل يوم حيث يرفع الله تعالى أطنانا عظيمة من المياه وترفع وتسمو هـذه الميـاه ثم يتجمد بعضها حتى يكون جبالا من الثلج معلقة في السماء .

إن هذا الأمر تماما هو ما حدث في بدء الخلق . وليست البداية من انفجار أو تصادم نجم بشـمس أو انفجار النجم وحده ، ولم نسمع أبدا ولم يصلنا أبدا أن هذا الأمر تم بالفعل مرة واحدة ، ولم نسمع أبـدا عن نجم انفجر أو نجم اصطدم . بينما نفس أسلوب تكوين السموات والأرض يحـدث يوميـا دون أن يفطن إلى ذلك أحد .

إن عمليات المطر هذه لدليل على قيومية الله تعالى وعلى تدبيره لشئون خلقه وأنه معهم كل لحظـة . وأنهم لا يستغنون عنه لحظة من الزمن . وقد يظن الكثير أن هذا الأمر هو عملية روتينية ، عادية ، بينمـا الحقيقة أن الأمر يخلق كل يوم بأمر الله وأن هذه العملية ، ليست ظاهرة طبيعية ، بل تتم بواسطة الريـاح وهذه الأخيرة تقوم عليها ملائكة تدبر أمرها كما قال تعالى ﴿فالمدبرات أمراً﴾وإن كان كـل مـا في الكون مفتقر إلى الله ، وان عملية المطر هذه لا تتم بدون فعل الله ولو تعاون الجن والإنس والملائكـة في عملها .

وكما أن مشركي اليوم ينسبون المطر إلى القوانين الطبيعية والظواهر المناخية ، فإن مشركي العـرب في الجاهلية كانوا يشركون بالله كمشركي اليوم ولكن بصورة مغايرة . فالمشركون في العصـر الحديـث ينسبون الفضل في تكون السحاب وإنزال المطر إلى ظروف مناخية وجغرافية وقوانين ثابتة لا دخل لإلـه فيها . فإن مشركي العرب كانوا ينسبون الفضل في إنزال المطر إلى الكواكب لذلك نبـه الله تعـالى في حديث قدسي إلى كفر من يعتقد ذلك .

روى البخاري عن سفيان ابن عيينه أن النبي ﷺ قال حين مطر الناس ذات ليلة " ألم تسمعوا إلى مـا قال ربكم ؟ قال : { ما أنعمت على عبادي نعمة إلا أصبح فريق بها كافرين . وفريق بها مؤمنين . فأمـا من آمن بي وحمدني على سقياي فذلك الذي آمن بي وكفر بالكواكب } .

بل إن نزول المطر ، وليس فقط تكوينه من أخص خصائص عمل الله عز وجل في خلقه ومع ذلك يقول العلماء والمسلمون منهم أن المطر يترل بسبب انخفاض درجة حرارة الهواء الرطب في طبقات الجو العليا إلى مادون درجة الندى ... الخ .

بينما يقول عز وجل :

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان: ٣٤) .

ولا يخلو وقت والأرض فيها رياح ومطر وسحاب في أي مكان منها . أخرج الشافعي وابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن النبي ﷺ أنه قال : " ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا والسماء تمطر فيها ، يصرفه الله حيث يشاء " .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال : " ما من عام بأمطر من عام ولكن الله يصرفه حيث يشاء " . أي أن المطر لا يخلو وقت إلا ويترل في مكان ما . كذلك يترل المطر كل عام بكمية واحدة ونسبة ثابتة لا تزيد قطرة ولا تنقص قطرة . ولكن الله تعالى يوزع المطر كل عام على مختلف البلاد حسب مشيئته عز وجل يقول : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ .

وروى بعضهم أن المطر يترل معه ملائكة ، يكتبون حيث يقع ذلك المطر ومن يرزقه ، وما يخرج منه مع كل قطرة .

هذا دور الرياح في عمليه المطر . بالإضافة لهذا الدور تعمل الرياح كما ذكرنا كتكييف للأرض بالتعاون مع الشمس ، حيث يجعلان كلاهما كل ١/٤ درجة من درجات الأرض مختلفة الطقس والمناخ عن غيرها .

كان على علماء الإسلام من الجغرافيين والمناخيين أن يضعوا نظرية القرآن في تكوين المطر ونزوله وفي تغيير الرياح التي يرسلها الله لمناخ الأرض في نظرياتهم وكتبهم ، حتى ولو مع غيرها من النظريات .

* * * * *

مخاوف في الغلاف الجوي

يقول تعالى :

(١) ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة:١٩)

(٢) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الروم:٢٤)

(٣) ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ (الرعد:١٢)

(٤) ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ (الرعد:١٣)

(٥) ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ (البقرة:٢٠)

(٦) ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴾ (النور:٤٣)

(٧) ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾ (البقرة:٢٦٦) .

لقد ذكرنا قبلاً الأشياء الموجودة في الفضاء سوى الشمس والقمر والنجوم وهي (الكسف والحجارة والرجز والشهب والحاصب والحسبان) . فهذه موجودة في السماء بعد الغلاف الجوى . أما هذه الآيات السبعة والتي جمعت كل ما في القرآن من ظواهر تحدث في الغلاف الجوى ، ومن ثم فهي متعلقة بالأرض أكثر منها بالسماء . وهي : الرعد ، والبرق ، والصواعق ، والبرد ، والإعصار وهذه الأمور مرتبطة بالسحاب وعمل الرياح فيه . ما عدا الإعصار (الزوبعة) فليس مرتبطا بالسحاب ، ولا بالمطر ، وإنما الإعصار ريح يثير الغبار وترتفع إلى السماء كأنه عمود . قال الجوهري : الزوبعة رئيس من رؤساء الجن ، ومنه سمى الزوبعة .

هذه الظواهر لها تفسيرات مختلفة بين المؤمنين والفلاسفة والتجريبيين وكل يفسر حسب معطيات مصدره فالمؤمنون يعتمدون على الوحي والفلاسفة يعتمدون على العقل ولا يعترفون بوحي . والتجريبيون مصدرهم ومعتمدهم على التجربة والمشاهد بالحواس ولا يعترفون بالوحي ولا بالعقل ،

حتى لو أوصلتهم مشاهداتهم إلي نتائج لا يقبلها ولا يتصورها العقل فإنهم يعتمدونها طالما وصلوا لها بالتجربة والمشاهدة .

أما المؤمنون ، فرغم أن مصدرهم الوحي إلا أنهم لا ينكرون العقل ولا المشاهدة . فلا ينكرون العقل لأن ما يقدمه الوحي لا يتعارض البتة معه . بل إن الوحي دائما ما يقرر أن آياته لا يفهمها إلا العاقلون . ودائما ما يردد (أفلا يعقلون) (لعلكم تعقلون) ونزل الوحي بقول الكافرين ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك:١٠) بل إن الآية التي اشتملت على معظم آيات الخلق وهي الآية ١٦٤ من سورة البقرة تنتهي بقوله تعالى : ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ . وكثيرة تلك الآيات التي ينعي فيها الوحي على الناس أنهم لم يستخدموا عقولهم ... ولكن في نفس الوقت لا يغني العقل عن الوحي .

كما إن المؤمنين لا ينكرون الحواس . بل إن الله تعالى سيسأل الناس يوم القيامة عن محصلة حواسهم ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (الاسراء:٣٦) وذلك لأن الله تعالى ما أعطاهم هذه الحواس إلا ليصلوا بها إلى معرفة الله . ويشاهدوا بها آياته ويشهدوا بقدرته ووحدانيته .
أما ولم يحدث ذلك فلابد وأنهم قد عطلوا هذه الحواس ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ﴾ .
واعترف الكافرون علي أنفسهم ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ .

يقول الفلاسفة عن ظاهرة البرق مثلا : " إن البرق ما ينقدح من اصطكاك أجرام السحاب المتراكمة من الأبخرة المتصاعدة والمشتعلة على جزء ناري يتلهب عن الاصطكاك .

ويقولون عن الرعد : " أنه هو هذا الاصطكاك الذي يتم بين أجرام السحاب المتراكمة " .

أما التجريبيون: فيقول " ج . ن . ليونارد في كتاب " جولة عبر العلوم " :

" عندما تكون كسف من الثلج من داخل سحابة ، فإن القطيرات المفرطة البرودة تكتسب شحنة كهربائية سالبة (ولا يعرفون سبب تلك الظاهرة) وأثناء هبوطها في اتجاه الأرض تندفع القطيرات المائية صاعدة بشحنة كهربائية موجبة إلى قمة السحابة الرعدية (وأيضا لم يعرفوا سبب هذه الظواهر) ذات الشحنة الموجبة القوية . أما قاعدة السحابة فتكون شحنة سالبة – وما أن يبلغ الجهد الكهربي أقصى شدته ، حتى يبدأ سريان التيار الكهربي بين القمة والقاعدة (ومضات ، برق) وتتميز الشحنات السالبة بخاصية اجتذاب الكهرباء الموجبة إليها . وما إن تصبح شحنة قاعدة السحابة سالبة ، حتى تتكشف شحنات موجبة قوية في سطح الأرض الممتدة تحتها محاولة القفز خلال الهواء المنتشر بينها وبين السحابة (وكذلك لم يعرف سبب لهذه الظاهرة) ولما كان الهواء ، عازلا قويا للكهرباء فلن تجد الشحنات

الكهربية الأرضية أمامها غير التركيز على ما تجده أمامها من أشياء عالية ، كالأشجار ، وقمم الجبال والمنارات التي تكون أقرب ما تكون من قاعدة السحابة .

وعندما يحدث تسرب الكهرباء الذي لا تراه العين – تحصل ذرات الهواء القريبة من الأرض على شحنات موجبة بطريقة ما (وأيضا لا يعرف سبب لذلك ولا ماهي الطريقة) فتنجذب في اتجاه الشحنة السالبة في قاعدة السحابة الرعدية ، فإذا تحركت بسرعة كافية ، فإنها تسبب تأين الذرات الأخرى ، فتسقط تلك الأخيرة إلكترونات سالبة لتمدها بشحنات موجبة ، وتتحرك الإلكترونات في اتجاه الأرض ، بينما تندفع الأيونات الموجبة الحديثة التكوين في اتجاه قاعدة السحابة ، وبذلك تتكون " قنطرة من الهواء " المتأين الجيد لتوصيل الكهرباء عبر الفضاء بين السماء والأرض . وما أن يتم بناء هذه القنطرة حتى تنطلق شحنات في الفضاء ، وهي تتخبط في حركتها – والتي تستغرق جزء من الثانية – تارة إلى أعلى وأخرى إلى أسفل محيلة الهواء بالتسخين إلى اللون الأبيض ، ثم يتمدد الهواء بالحرارة العالية ثم يبرد ويتقلص بتوقف سريان التيار الكهربي ، ويحدث هذا التمدد والتقلص بسرعة كبيرة فائقة ، فتحدث ذبذبات هوائية شديدة اتفقنا على تسميتها (رعدا) " انتهي .

هذا تصور (مجرد تصور) لأحد التجريبيين وقد يخالفه غيره من زملائه وقد لا يتفق مع العقل لوجود حلقات كثيرة مفقودة ، اضطروا لإيجاد افتراضات معملية لتسهيل الوصول إلى نتيجة علمية للظاهرة . وأيا ما كان الأمر فإن التجريبيين والفلاسفة لا يعتقدون في التفسير الإيماني ، ولا يعترفون بالوحي . والتجريبيون المؤمنون بالوحي من المسلمين والمسيحين واليهود يتفقون أيضا مع هذا التفسير ولو اختلفوا في بعض جزئياته الهامة .

أما المؤمنون فلهم رأى أخرى .

فهم يقولون أن الرعد : اسم لصوت الملك الذي يزجر السحاب . والبرق : مخراق من حديد بيد الملك الذي يسوق السحاب . ويذهب إلى هذا القول أكثر الصحابة . وجمهور علماء التفسير والحديث .

أما الصواعق . فقالوا : هي قطعة من نار تنفصل من مخراق الملك الذي يزجر السحاب عند غضبه وشدة ضربه لها .

والبعض قال : إنها نار تخرج من فم الملك . وقال الخليل : هي الواقعة الشديدة من صوت الرعد .

وكما أن للفلاسفة أدلتهم المستمد بعضها من المعمل والتجارب في ظواهر مماثلة لما يحدث في السماء والبعض الآخر من الافتراضات ، فإن للمؤمنين أدلة مستمدة من الوحي فالقرآن يقول ﴿هُوَ الَّذِي

﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ (الرعد) فهم يقولون إيمانا بالقرآن وتصديقا له : أن هذه الظواهر يفعلها الله ، فهو ﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾ وهو تعالى ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ .

بينما يذهب الفلاسفة إلى غير ذلك قائلين بأن هذا يتم نتيجة اصطكاك السحاب بعضه ببعض . والتجريبيون يعتبرون أن هذه الظواهر مجرد صدفة غير مدبرة ، ولا فاعل لها من خارجها .

والمؤمنون يقولون لا مانع أن تكون آيات الله لها أسباب معينة ومرتبطة بظواهر ثابتة كأن يكون الرعد والبرق مع وجود السحاب الثقيل والمطر .

ويقول ابن تيمية : إن الله تعالى يخوف بآياته حتى ولو كان ميعادها معروفاً كما يحدث في الكسوف والخسوف وهما " آيتان من آيات الله يخوف بهما عباده " كما في الأحاديث العديدة .

وهما يحدثان في مواعيد معروفة ومحددة لكثير من الناس وكذلك البرق والرعد والصواعق تفعل في نفوس الناس مشاعر متباينة من الخوف والطمع .

وهو أمر ثابت ولا مراء فيه . فما من برق يحدث إلا ويفرح به المحتاج للمطر لسقيه ولزرعه وغيرهما . ويخاف منه من لا يحتاج إلى المطر . بل إن البرق يحدث في النفوس رهبة وخشية لا يعدلها أمر أخر إلا الرعد .

كذلك لا خلاف أن الصواعق يتحقق منها ما يقوله تعالى ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ ويعلم الجميع ما تسببه الصواعق إذا نزلت على شيء . وهو أمر دائم الحدوث لا ينقطع ، ولم تنجح كل علوم الغرب الدنيوية في إيقاف هذه المخاوف . والمهلكات . رغم غزوهم – كما يقولون – للفضاء ، ورغم امتلاكهم أقمارا صناعية تلتقط ما يحدث على الكرة الأرضية كلها ورغم إدعائهم بتنبئهم بالريح والمطر والبرد والحر ، بما يصورونه كل لحظة للغلاف الجوى إلا أنهم حتى الآن لم يمنعوا ظاهرة واحدة من هذه الظواهر ولم ينجوا بأنفسهم من أي أمر يرسله الله فيهلك منهم الآلاف . في لمح البصر .

كما يستدل المؤمنون باعتقادهم في هذه الأمور وبما يقولون فيها بما ورد لهم عن رسول الله ﷺ فقد أخرج أحمد أنه قال " إن الله ينشئ السحاب فتنطق أحسن النطق ، وتضحك أحسن الضحك " . وقيل المراد بنطقها الرعد وبضحكها : البرق .

وثبت عند أحمد والترمذي والنسائي والحاكم من حديث ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال : " اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك . وعافنا قبل ذلك " .

وأخرج بن مردوية عن جابر بن عبد الله أن خزيمة بن ثابت سأل رسول الله ﷺ عن منشأ السحاب . فقال : " إن ملكا موكلا يلم القاصية ويلحم الدانية في يده مخراق ، فإن رفع برقت وإذا زجر رعدت وإذا ضرب صعقت " .

وأخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابو الشيخ في العظمة وابن مردوية وأبو نعيم في الدلائل والضياء في المختار عن ابن عباس قال : أقبلت اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا أبا القاسم إنا نسالك عن خمسة أشياء فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك . فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال : الله على ما نقول وكيل . قال : " هاتوا " . قالوا : أخبرنا عن علامة النبي ؟ قال : " تنام عيناه ولا ينام قلبه " قالوا : أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر قال " يلتقي الماءان ، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكر ، وإذا على ماء المرأة ماء الرجل آنثت " قالوا : أخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه ؟ قال : " كان يشتكي عرق النساء فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا وكذا . يعنى الإبل فحرم لحومها " قالوا : صدقت . قالوا : أخبرنا ما هذا الرعد ؟ قال : " ملك من ملائكة الله موكل بالسحاب بيده مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث يشاء الله " قالوا : فما هذا الصوت الذي نسمعه ؟ قال : " صوته " قالوا : صدقت . إنما بقيت واحدة وهي التي نتابعك إن أخبرتنا ، إنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر فأخبرنا من صاحبك ؟ قال " جبريل " . قالوا : جبريل ذاك يترل بالخراب والقتال والعذاب ، عدونا ، لو قلت ميكائيل الذي يترل بالرحمة والنبات والقطر لكان . فأنزل الله ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ...﴾ إلى آخر الآية (البقرة:٩٧) .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد وابن أبي الدنيا وابن جرير عن عباس أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال : " سبحان الذي سبحت له " وقال " إن الرعد ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعي بغنمه " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن الرعد صوت الملك .

وإخرج إبن المنذر وابن مردوية عن ابن عباس قال : الرعد ملك اسمه (الرعد) وصوته هذا تسبيحه ، فإذا اشتد زجره احتك السحاب واضطرم من خوفه فتخرج الصواعق من بينه .

هذه هي الرؤية الدينية لهذه المخاوف والظواهر التي توجد في الغلاف الهرائي وخاصة في السحاب . وهي لا تلقى قبولا في هذا العصر حتى من المؤمنين المعاصرين أنفسهم . وإلا ما كان أصحاب تفسير المنتخب قالوا ما قالوه في تفسير الرعد . فقد فسروا قوله تعالى : ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ فقالوا : " إن الرعد خاضع له سبحانه خضوعا مطلقا ، حتى إن صوته الذي تسمعونه كأنه تسبيح له سبحانه بالحمد على تكوينه دلالة على خضوعه " .

هل يعقل أيها السادة أن يقول الله ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ﴾ وهم يقولون : " كأنه يسبح " لقد وصل الامر بالمسلمين الآن أنهم أصبحوا يستحون من الكثير من آيات القرآن لأنها لا تتفق والمعارف الحديثة وكأن هذه الأخيرة هي العلم المطلق الثابت .

لماذا نستنكر أن الرعد يسبح أليس الله يقول ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء:٤٤) . ويستنكرون أن تسجد الشمس والقمر والنجوم ، ويجدون حرجا ويذوبون خجلا أمام هذه الآيات . وهي قول حكيم خبير ، قول الذي خلق الأشياء كلها والعالم بكل ما يدور في ملكه وملكوته .

أيها السادة : هذه آراء الفئات البشرية الثلاث ، التي أنتجت فكرا وعلما ومعارف في البشر (الفلاسفة والتجريبيون والمؤمنون) ولكم أن تختاروا قول من تشاءون منهم . أما أنا فإن لم يؤاخذني أحد على اختياري فإنني أختار وأؤيد قول المؤمنين . بل إنني أختار قولهم حتى لو آخذني أحد . وليكن ما يكون . ولا ضير إنا إلى ربنا لمنقلبون . إنني اتبع قول المؤمنين ، إتباعا لقول الله تعالى ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء:١١٥) .

* * * * *

كلمة أخيرة

وبعد ..

فيا علماء الأرض :

من كل جنس . ومن كل دين . وفي كل فرع من العلوم .

هذه هي أدلتنا التي سقناها لكم عن ثبات الأرض . وعن دوران الشمس والقمر والنجوم حولها كل يوم . فإن كان عندكم دليل واحد على غير هذا فأتونا به .

دليل واحد فقط بخلاف ما نقول .. فقدموه لنا .. وليس عندكم شيء .. فخذوا ما عندنا إذاً ..

إن كنتم مسلمين فراجعوا أنفسكم .. وراجعوا مصادركم . وإن وجدتم فيما نقول خطأ شرعي واحد فواجهونا به .

وإن كنتم غير مسلمين ومن أهل أي دين فقد ذكرنا ما هو ثابت في كتابكم وإن كان هناك خطأ في الاستدلال فأخبرونا ما هو .

وإن كنتم لا تؤمنون بأي دين ولا تؤمنون بالله ، فقد قدمنا لكم أدلتنا العلمية والحسابية والجغرافية فراجعوها بآلاتكم ، وأجهزتكم . وابحثوا عن صدقها في مراصدكم ومختبراتكم ، وإن وجدتم خطأ واحدا في ما قدمنا من أدلة علمية وواقعية فأضربوا بكلامنا كله عرض الحائط ولا تأخذوا منه شيء .

ولكن قد يتساءل القارئ العادي - مثلي - والمثقف البسيط ، ألم يرى رجال الفضاء عندما صعدوا فيه الأرض وهي ثابتة أو وهي تدور ؟

أقول بأن الذين صعدوا إلي السماء لم يروا شيئا . وقالوا كما أخبر عنهم الله تعالى : ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ (الحجر:١٥) .

فعندما يخرج الإنسان - وهو مخلوق أرضي - من الأرض وغلافها الجوى يفقد الكثير مما يؤهله للتلقي ، يفقد الوزن والتوازن وليس هذا في ثقل جسمه فقط ، بل يختل توازن كل أعضائه وكل حواسه . حتى دمه الذي يجرى فيه . وعقله الذي يفكر به .

فكيف يرى من يصبح هذا حاله ؟

وكيف نتلقى علما ممن أنعم الله عليه ورفعه عن الأرض . وكان أول إنسان يرفعه الله من غير الأنبياء إلى السماء ثم ينزل ليقول للعالم كله : " لقد كنت أشعر في سفينة الفضاء وكأنني في منزلي . وبحثت عن الله فلم أجد " . وهكذا قال جاجارين الذي رفعه الله إلى السماء وسمح له بالصعود فيها .

بالله عليكم كيف نأخذ علما من هذا ؟ أو من أمثاله ؟

ولو كانت للمشاهدات أهمية عندكم ، فإن جاجارين مثلا لم يصرح بشيء ذي أهمية سوى أن قال " لقد شاهدت تعاقبا سريعا للظلام والنور على سطح الأرض " . فإن دلت هذه الملحوظة على شيء فإنما لتدل على آية الله ﴿والشمسُ تَجرِي﴾ .

وحتى لا يظن أحدا أننا نبخس الناس أشياءهم أو نهضمهم حقهم نذكر كلمة لأحد المطلعين على أمور هؤلاء الفضائيين . يقول سعد شعبان : " كثيرا من العوامل تؤثر في نفسية الرواد وتجعلهم في حاجة دائمة إلى قوة خارقة لمجابهة ظروف ليس لها مثيل على الأرض .

فالسماء من الفضاء مظلمة حالكة ، والنجوم أضواؤها ثابتة وسط هذا الظلام لا تتلألأ ، والصمت من حول سفن الفضاء مطبق . والمسافة الشاسعة تقوى الإحساس بأن سفينة الفضاء تدور فيما يشبه التيه ، لا أول له ولا آخر . والتطلع إلى الأرض من هذه الارتفاعات الشاهقة يبعث على الرهبة والوجل . وقد تطول الوحدة في سفينة الفضاء أياما . ولا ينمو معها إلا الملل ، الذي يزيد من تولده صعوبة الحركة سواء لضيق المكان أو التأثير بانعدام الوزن . ولقد أدت هذه الظروف غير العادية إلى إصابة بعض رواد الفضاء بالهلوسة أثناء رحلاتهم .

وحسبنا أن بعض رواد الفضاء فقدوا أعصابهم أثناء رحلات (أبوللو) الأمريكية وثار بينهم وبين مركز المتابعة الرئيسي جدلا تخللته عبارات وأقوال حادة أقرب إلى السب ، أو التهجم منها مثلا :

إنكم لا تدركون ما نراه حولنا ولا تحس به من أهوال ، وتصدرون تعليمات لا نحس إلا بتفاهتها " .

فكيف بالله ننتظر من هؤلاء المساكين علما ؟

يضيف سعد شعبان : " تسمى القوة في عالم الطيران باسم القوة (ج) ذلك أنه يصاحبها تغييرات فسيولوجية تحد من قدرة الإنسان الذهنية والبدنية ، لأن الدورة الدموية ، وضغط الدم ، وأوضاع العين ، وقوة الإبصار ، ودقات القلب ، ومدى السمع ، وإشارات المخ ، وحركة العضلات وانعكاس الأطراف ، كلها تتعرض لمؤثرات خارجية تحد من إمكانات الحركة ومع زيادة القوة (ج) يتزايد العجز ابتداء من تراخي الأطراف وصعوبة التحكم فيها ، حتى يصل إلى العجز الكلى " .

فكيف بالله ننتظر من هؤلاء الخاوين علما ؟

وبعد مرور أكثر من نصف قرن على غزوهم الفضاء – كما يقولون – ما هي الفائدة التي قدمها الفضائيون للإنسانية ؟ لاشيء .

ما هي العلوم والمعارف التي أضافها هؤلاء للبشرية ؟ لا شيء .

لقد كُلف الرائد العربي الفضائي الأمير " سلطان بن سليمان بن عبد العزيز " الذي شارك في رحلة مكوك الفضاء الأمريكي " ديسكفري " أي " المكتشف " وذلك عام ١٤٠٥ هجرية ١٩٨٥ ميلادية . كلف بمهمة سهلة وبسيطة ليبحثها في الفضاء بمناسبة صعوده . فماذا فعل فيها ؟

نترك المهندس " سعد شعبان " يحدثنا عن هذه المهمة التي كلف بها الأمير : يقول سعد شعبان في كتاب " أسرار الفضاء " :

" ومن المهام التي أنجزها (انظروا إلى أنجزها هذه) رائد الفضاء العربي الأمير سلطان بن سلمان بن عبد العزيز رصد وتصوير هلال شهر شوال المبارك الذي تزامن وقت ظهوره مع وقت الرحلة . وهذه أول مرة يرصد فيها الهلال من سفينة فضاء لتعلن به الأمة الإسلامية وتنهي به صيام شهر رمضان . ولعل في ذلك وضع نهاية للجدل المحتدم بين أرباب التمسك بالحساب الفلكي ، وأصحاب الاعتماد على المشاهدة بالرؤية لوضع قاعدة علمية ثابتة لأوائل الشهور العربية " .

ثم بعد هذا الكلام الجميل يفاجئنا سعد شعبان بقوله :

" وجد العلماء السعوديون أن وقت بدء الرحلة يتزامن مع اليوم الأخير أو قبل الأخير من شهر رمضان ولذلك عولوا على إمكان بدء ظهور رصد الهلال من الفضاء بغرض حسم الجدل بين علماء الدين وعلماء الفلك الذي يحتدم عند أول كل شهر عربي خاصة في مواسم الصيام والأعياد والحج . لكن وضع مقعد رائدنا العربي في المكوك ربما أدى تكرار دورات المكوك كل ساعة ونصف حول الأرض إلى تعذر رصد الهلال . فخلال مدة الدوران كان يمكن لرائدنا أن يرى نصف الأرض مضيئا كالنهار لمدة ٤٥ دقيقة بينما يرى في مدة مماثلة نصفها ملفعا بأستار الظلام . ولذلك اتصل رائدنا بمركز المتابعة في " هيوستن " وعلم منهم أن الأوساط الدينية في السعودية أعلنت بزوغ هلال شوال برؤيته بالوسائل التقليدية على الأرض " .

فبالله عليكم ، أي علم ينتظر من الفضاء ؟

لقد هبطوا على القمر بأنفسهم وعلى المريخ والزهرة بمركباتهم وداروا حول باقي الكواكب .. أليس كذلك ؟ فكم تكلفت البشرية من أجل هذا الطموح ؟

ما الفائدة التي استفادتها البشرية ؟

وقبل أن يرميني أحد بالتخلف وأنني ادعوا إلى الأمية والجهل أعتصم بقول الله تعالى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (سورة العلق) .

أما علماء المسلمين فإنني أدعوهم أن يتبذوا كل علوم القرن العشرين جانبا ، وأكرر مرة أخـــرى ، لا أقصد علوم الأدوات المترلية والاتصالات فالغرب هم الأبرع فيها ، وهم فيـــها (عالمون) ويكفـــي أن الله تعالى شهد لهم في ذلك ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (الروم:٧) أما عن الكون وعـن الآخـرة فهم لا يعلمون . ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم:٧) إنهم لا يعلمون شيئاً عن هذا الكـون لأن الله تعالى قال : ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَـا كُنـتُ مُتَّخِـذَ الْمُضِلِّـينَ عَضُدًا﴾ (الكهف:٥١) . وكل ما يقولونه ضلال رغم أن أهل الأرض يتفقون عليه ولكنـه لا يرضـى الله ومخالف لقوله وشرعه : ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (الأنعام:١١٦) .

وبسكوت علماء الشرع خاصة عن هذه المخالفات الشنيعة فقد أعطوا الفرصة لغيرهم من العلمـاء أن يسكتوا . فلم تبقى ناحية من نواحي الحياة إلا وأصبحت تتبع منهج الغرب الذي هو مغاير ومخـالف لمنهج الله تماما . وما من علم من العلوم إلا وأصبح المسلمون فيـه تـابعين للغـرب وهـم بقـول الله جاهلون ، غافلون .

على كل مؤمن في فرع من العلوم ، يرى مخالفة لهذا العلم مع منـهج الله أن يبـين لقومـه هـذا الاختلاف ويحذرهم منه ، حتى لو كان العلم مستقي من علم الغرب ، وليتبع قول الله ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِـنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة:١٢٢) .

لقد وصل إتباعنا للغرب في كل العلوم ، دون استثناء . حتى المتعلق منها بالدين ، وأمور العقيـدة ، أما في السياسة ، والقانون ، والاجتماع والفيزيـاء ، والفلـك ، والجغرافيـا ، والتـاريخ ، والأدب ، والفلسفة ، والإدارة وسائر العلوم الإنسانية فليس للمسلمين فيها الآن إلا دور (الذَنَب) .

إنهم أتباع إلى آخر المسيرة ، حتى لو دخل متبوعيهم جحر ضب لدخلوه خلفهم . وإذا كـان هـذا حال العلماء وهم المرشدون ، فما بالنا بالعامة ، وما بالنا بالشباب ، والمراهقـين ؟ كيـف نلومـهم إذا فعلوا ما يفعلون ، وهم يرون مرشديهم أذناب لأهل الغرب أو الشرق . وقد كان المفروض أن يكونـوا روادا للبشر . وإلا فعلى من يقول تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْـهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران:١١٠) .

إن الحال الذي وصل إليه أهل الأرض الآن . ومن كل جنس وكل ملة أرى أن يتحمـل مسـئولية جهلهم وما هم فيه ، علماء المسلمين الذين يحملون النور ولكنـهم يسـيرون وراء العمـى الذيـن لا يبصرون .

إنني أقولها ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ إنكم جديرون الآن بـأن يسـتبدل الله غيركم . لا يكونوا أمثالكم . فهل لكم أن تدركوا أنفسكم قبل أن تبدلوا بغيركم ؟؟

فهل لكم أن تتقدموا لتأخذوا الراية لتسير وراءكم البشرية .

إن حكام المسلمين الذين استبدوا برأيهم ، وقهروا شعوبهم بسببكم أنتم .

إن الشباب الذين ضلوا طريقهم في الدين فتطرفوا بسببكم أنتم .

والشباب الذين ضلوا طريقهم في الدنيا فتطرفوا أيضا بسببكم أنتم .

فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم

تقوا الله وسووا صفوفكم

عوا الله وأطيعوا ربكم

و. لله واتبعوا كتابكم

اتقوا الله وانصروا دينكم

اتقوا الله وقودوا شعوبكم

اتقوا الله ووجهوا حكامكم

اتقوا الله ونقوا علومكم

اتقوا الله وتحرروا من أسركم

واتقوا النار فإن أول وقودها بنفر من بينكم .

اللهم .. هل بلغت : اللهم فاشهد .

اللهم .. هل بلغت : اللهم فاشهد .

اللهم .. هل بلغت : اللهم فاشهد .

اللهم إني أسألك بعينك التي لا تنام .. وبعزك الذي لا يرام وبملكك الذي لا يضلم . وبنورك الذي ملأ أركان عرشك . أن تكفيني شرهم . شر الجنة ، والناس .

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ .

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ .

وآخر دعوانا ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

عيــد ورداني
الإسكندرية - جمهورية مصر العربية

الفهـرس

الباب الأول : بدء الخلق

الباب الثاني : خلق الكائنات العاقلة
الملائكة : الجن ، الإنس

الباب الثالث : الأرض ثابتة

الباب الرابع : الشمس تجرى

الباب الخامس : آية القمر

الباب السادس : زينة السماء

الباب السابع : الضغط الجوى

تم بحمد الله

نموذج رقم « ١٧ »

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهــــر الشريف
مجمــع البحــوث الاســلامية
الادارة العـــامة
للبحــوث والتاليف والترجمـــة

AL - AZHAR AL - SHARIF
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation



٧٠٤٣

الســـيد / عيسى ودانى مهنشى

الســلام عليــكم ورحمـــة اللـــه وبركاته ــ وبعــد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : قصــة الخلــق من العرش إلى الفــرش .... تاليفــكم ....

نفيد بأن الــكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعـــه ونشره على نفقتــكم الخـــاصة .

مع التـــاكيد على ضرورة العنـــاية التامة بكتـــابة الآيات القـــرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والالتزام بتسليم ٥ خمس نسخ لمكتبة الأزهر الشريف بعد الطبـــع .

واللـــــه المـــوفق ،،،

والســـلام عليــكم ورحمـــة اللـــه وبركاته ،،،



ادارة البحوث والتأليف والترجمــة

تحريرا في ٢٧/ ٩ / ١٤٢٠ هـ
الموافق ٤/ ١ / ٢٠٠٠ م

مفاجأة القرن ٢١

كتاب القرن

رسالة إلى جميع علماء الأرض